تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة السابعة • العددان ٧٣-٧٤ • تشرين الثاني (نوفمبر) - كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٤م. • الموافق صفر - ربيع الأول ١٤٠٥هـ.



□ منظر صيد من مخطوطة قديمة، موجودة في المكتبة الوطنية، القاهرة.



الغلاف الاول

□ سوق إسلامي في تركيا العثمانية.

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ٧٣/٧٤ ــ تشرين الثاني ــ كانون الأول ١٩٨٤م

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط. ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب ٥٩٠٥ ــ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 7 — No. 73/74 — Nov-Dec. 1984

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة، ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

الرحّالة بركهاردت في جدّة

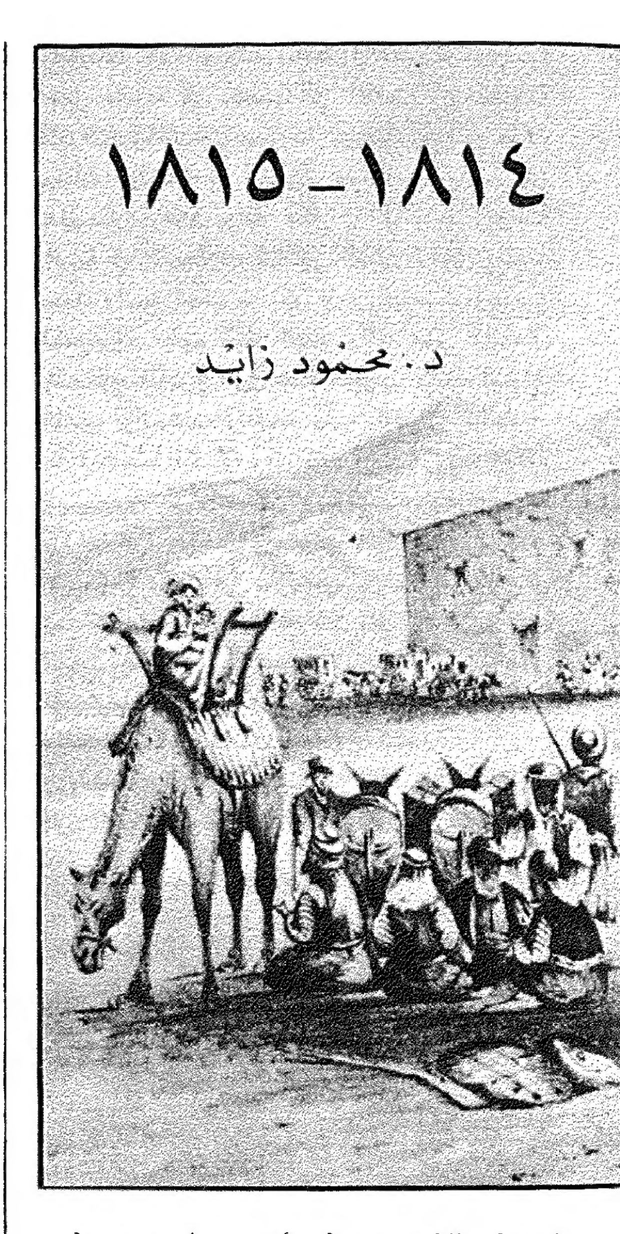


بركهاردت يتهيأ للرحلة

من أبرز الغربيين الذين وفدوا على بلاد العرب في القرن التاسع عشر العالم والرحالة السويسري يوهان لودفيج بركهاردت (١٧٨٤ ــ ١٨١٧) الذي كشف للأوروبيين عن وجود آثار مدينة البتراء بوادي موسى (بالأردن الحالي) في أعقاب زيارته لها عام ١٨١٢. وأخبار رحلته إلى الحجاز المدونة في كتاب «رحلات في بلاد العرب» كانت ولا تزال منذ أن نشرت في عام ١٨٢٩ مرجعا ودليلا لمن قام بعده بالرحلة إلى تلك الديار، وللمعنيين بأي مظهر من تاريخها الحديث وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية. ويصف الرحالة والمستشرق البريطاني ريتشارد بيرتون في كتابه عن رحلته إلى الحجاز دَيْنه لبركهاردت بقوله:

وهنا أود أن أعبر عن إجلالي لذكرى بركهاردت الدقيق فأقتبس من صفحاته

□ **د. محمود زايد: أستاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة الاميركية، دكتوراه من جامعة «ييل»، كما علم في جامعة «ييل» و «تكساس».**



الوصف الذي سوف أزيد عليه بعض الملاحظات لتوضيحه.

كان بركهاردت ظاهرة تكاد تكون فريدة بين الرحالة. إذ اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من الصفات والمؤهلات الضرورية للرحلة. فخلال دراسته بجامعة جوتنجن الألمانية تتلمذ على أب من آباء علم الانسان (الانثروبولوجيا) وهو الأستاذ يوهان بلومنباخ (١٧٥٢ ــ ١٨٤٠) الذي وجه الأنظار إلى ضرورة دراسة أحوال الشعوب في افريقيا الاستوائية لمعرفة مراحل التطور الحضاري للانسان. وفي عام ١٨٠٦ وفد



□ جوهان لودفيك بيركهاردت (١٧٨٤ ــ ١٨١٧)، كان من أهم الرحالة الذين زاروا الجزيرة العربية

على لندن حيث تعلم الانجليزية. وعرض خدماته على الجمعية الافريقية بلندن التي كانت تسعى إلى تشجيع استكشاف مجاهل القارة الافريقية وتجنيد الشبان لذلك الغرض. وقبلت الجمعية عرضه، وطلبت منه أن يمهد لذلك بالتسلح بالمعارف الضرورية فمكث في انجلترا زهاء ثلاث سنوات التحق خلالها بجامعة كمبردج ودرس علاوة على اللغة العربية الكيمياء والطب والفلك. وغادر انجلترا في عام ١٨٠٩ إلى مالطة حيث قضى ستة أسابيع يستزيد من معرفته للعربية. ومن هناك توجه إلى سوريا حيث تنكر في زي تاجر مسلم واتخذ لنفسه لقب الشيخ ابراهيم بن عبدالله. وخلال إقامته في حلب عكف على التزود بالثقافة الاسلامية فقرأ القرآن والتفسير والحديث والتفقه بأسرار العربية حتى صار يبدو للبعض وكأنه حجة في ذلك كله. وبعد أن تنقل في سوريا وفلسطين والأردن حيث زار آثار البتراء توجه إلى مصر ومنها إلى السودان. وفي تلك الأثناء شعر أن بلاد العرب أكثر اجتذابا له من افريقية فأبحر على أحد المراكب من ميناء سواكن إلى جدة، ميناء مكة المكرمة.

ميناء جدة

وصل بركهاردت إلى ميناء جدة في صباح الخامس عشر من شهر تموز عام ١٨١٤ بينما كانت الحروب دائرة بين جيوش محمد علي باشا

والي مصر الذي انتدبته الحكومة العثمانية لاخضاع الوهابيين وبين الوهابيين. ومنذ تلك اللحظة أخذ يستخدم علمه وقدرته العجيبة على الملاحظة الدقيقة في رسم صورة لجميع مظاهر الحياة في جدة وغيرها من مدن الحجاز التي زارها. ويمكننا أن نكون فكرة عن أهمية ما دونه عنها من خلال اللوحة التي رسمها للحياة منها، وفيما يلي مجمل لها.

كانت السفن التي تتوجه إلى ميناء جدة ترسو على بعد ميلين من الشاطىء ثم تقوم القوارب بنقل الركاب والبضائع إلى الميناء عبر حوضين يجري اقفالهما خلال الليل. وكان الميناء مسورا من جهة البحر بالسور القديم الذي أقامه السلطان الغوري عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م، ومن جهة البر بسور أقامه السكان على أنقاض القديم المتداعي، وجعلوا فيه أبراجا يبعد أحدها عن الآخر بين أربعين وخمسين خطوة. والسور والأبراج بالاضافة إلى قلعة في القرنة الجنوبية عليها عشرة مدافع جعلت من المدينة قلعة منيعة في الواقع وفي نظر أهل الحجاز.

وبدت جدة عندئذ (طبعا في نظر بركهاردت) أجمل مدينة في حجمها في الأقطار الخاضعة للأتراك. وكانت في سورها من ناحية البر ثلاث بوابات: واحدة في الجنوب مسدودة، والأخريان مفتوحتان وهما بوابة مكة في الوسط وبوابة المدينة في الشمال. وكان يلي السور داخل المدينة فضاء واسع تحف به أكواخ من القصب وجذوع الشجيرات يقيم فيها البدو والفلاحون والعمال والحجاج الزنوج. وفي هذا الجانب كانت أسواق الماشية والخشب والفحم وبيع الفواكه بالجملة. أما في وسط المدينة وإلى ناحية البحر فكان يقيم الميسورون من السكان وبيوتهم جميعها تقريبا من الحجر، وتتخلل واجهاتها ألواح من الخشب الأحمر الذي يضفي عليها جمالا أخاذا. وكان كل بيت تقريبا يتألف من طبقتين على الأقل. وأفخم البيوت جميعا كانت بيوت الأثرياء الذين يقيمون على شاطىء البحر حيث يمتد شارع رئيسي على جانبيه المتاجر وخانات (فنادق) التجار.

وفيما عدا عناصر قليلة من الأشراف والعلماء كان السكان وعددهم قرابة خمسة عشر ألفا



□ منظر عام لمدينة جدة الحديثة.

يتألفون من جاليات أجنبية وأكبرها جاليتا اليمنيين والحضارمة. وضمت الجالية الهندية ما يزيد على مئة أسرة أكثر أفرادها من مدينتي بومباي وسورت بالهند. وكانت الجاليات الأخرى تضم عناصر من المغاربة ومسقط ومصر وسوريا وتركيا، وأفرادا قلائل من اليونانيين وغيرهم من الأوروبيين الذين كانوا يجلبون البضائع إلى المدينة.

وكان هؤلاء جميعا (كما يقول بركهاردت) يشتغلون بالتجارة أو بنقلها، أو بالملاحة. واشتهر بثرائه بينهم اثنان من المغاربة هما الجيلاني والسكّات. إذ بلغت ثروة كل منهما بين ١٥٠,٠٠٠ و ٢٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني. وبين الهنود من جمع ثروة طائلة تقارب هذه، ويمكن للمرء أن يجد أكثر من أسرة تبلغ ثروة كل منها بين أربعين وخمسين ألف جنيه استرليني.

سفن جدة

كانت جدة أهم ثغور البحر الأحمر. فلم تكن ميناء الحجاز وحده بل وميناء مصر والهند. ويقدر عدد السفن التي كان يمتلكها الجداويون (أي أهل جدة) والتجار الذين ينطلقون منها بمئتين وخمسين سفينة من مختلف الأنواع، ومنها السنابك والمراكب والدهوات ومفردها (دَهْو). وعلى هذه المراكب الأخيرة وحدها كانوا يبحرون إلى الهند. وكان أكثر البحارة من أهل اليمن والصومال. وكان كل منهم علاوة على عمله يتاجر لحسابه. ويقدر عدد السفن التي كان يجدها المرء في ميناء جدة في أي وقت بأربعين إلى خمسين سفينة.

ومما يلفت النظر أنه لم تكن في جدة أحواض لبناء السفن بالرغم من مركزها العظيم كثغر بحري. ويعلل بركهاردت ذلك بصعوبة الحصول على الأخشاب. لكن هذا لم يمنع قيام صناعة للسفن في ثغر مماثل وهو السويس. وكانت مصر تستورد الأخشاب من تركيا وأوروبا وتنقلها على ظهور الجمال من القاهرة إلى ذلك الميناء. وهذا ما فعله محمد علي باشا قبيل قدوم بركهاردت إلى بلاد العرب. وعلى أي حال فإن صناعة السفن في البلاد التابعة للدولة العثمانية على البحر الأحمر انحصرت في السويس وفي ميناءين يمنيين وهما



□ محمد علي باشا، مدّ يد المساعدة لبيركهاردت.

الحديدة ومخا اللذان كانا يحصلان على الخشب من اليمن والساحل الافريقي المقابل.

ومما أثار دهشة بركهاردت أن القوارب في جدة لم تكن تستخدم للنزهة. ويعلل ذلك بأن موظفي الجمارك كانوا يرفضون السماح لمثل تلك القوارب بمزاولة نشاطها ويصرون على عودتها بعد الغروب إلى السفن التي انطلقت منها.

وكان يشرف على الميناء والضرائب التي تدفعها السفن لدى دخولها الميناء موظف كبير يعرف بأمير البحر. لكن مسؤوليته لم تكن تشمل الجمارك التي كانت تخضع لموظف آخر يعرف بالجمركي. ووجد بركهاردت أن أمير البحر كان قد فقد الكثير من الهيبة التي كان يتمتع بها في عهد سيطرة الأشراف، أي العهد الذي سبق فتوح الوهابيين.

تجارة جدة

كانت التجارة وتربية الماشية هما الحرفتان الرئيسيتان لأهل جدة. على أن المدينة كانت تدين بازدهارها في الأكثر للتجارة التي كان يشارك فيها الجميع بما فيهم الأشراف والعلماء. وتركز النشاط التجاري حول البن الوارد من اليمن والسلع المستوردة من الهند. ولم يكن لتجارة البن موسم خاص وذلك لأنه كان يرد على جدة بالسفن طوال العام. وقد سبق لبن اليمن أن كان الوحيد في الأسواق بمصر وتركيا. لكنه تلقى

ضربة كبيرة بسبب منافسة بن جزر الهند الغربية الذي أخذ يرد إليها. ويذكر بركهاردت انه لم تكد تمر ثلاثة أسابيع على وصوله حتى هبط سعر البن اليمني بمقدار الثلث تقريباً وذلك على أثر الصلح بين أنجلترا والولايات المتحدة الأميركية وتوقع ورود بن الجزر إلى أسواق تركيا. ولا عجب إذن أن صار الاتجار بِبُن اليمن ينطوي على مجازفة كبيرة، وأن كثرة من التجار انصرفوا عن الاتجار به لحسابهم وإنما بوصفهم وكلاء. وصار بعض أصحابه يشحنونه للتجار الحجازيين في القاهرة لبيعه بالأسعار الجارية.

وفي حين أن الاتجار بالسلع الهندية لم يكن يقل فائدة عن الاتجار بالبن فإنه كان أسلم عاقبة. وكانت السفن المحملة بتجارة الهند ترد إلى ميناء جدة من الهند وبخاصة من موانىء كلكتا وبومباي وسوزت في أوائل شهر أيار، فتجد تجار جدة في انتظارها ومعهم الأموال اللازمة لشراء بضائعها. وفي الشهر التالي وعندما تبدأ السفن بالعودة إلى الهند تأخذ أسعار البضائع التي باعتها لتجار جدة بالارتفاع، إذ يودعها التجار في مخازنهم إلى مطلع السنة الجديدة فيبيعونها بربح ثلاثين إلى أربعين بالمئة. وكان يبيعون القسم الأكبر من البضائع في القاهرة ويقبضون الثمن نقداً أو يبادلونها ببضائع مصرية وبخاصة الأقمشة.

وكان من الصعب على ميناء السويس أن يزاحم ميناء جدة لسببين رئيسيين أولهما عدم توافر رؤوس الأموال الضخمة الكافية لشراء البضائع بالجملة لدى تجار السويس وتجار القاهرة، والثاني أنه كان يتعين على سفن الهند التي تقصد السويس أن ترسو في طريقها بمينائي ينبع وجدة وأن تدفع ضرائب على دخولها الميناءين وجمارك على البضاعة. ولهذا كان أصحاب التجارات يفضلون بيعها في جدة اختصاراً للمسافة وتوفيراً للضرائب الاضافية، ورغبة في الحصول على أثمان بضائعهم فور تسليمها.

السلع المستوردة

كانت أكثر السلع التي ترد إلى جدة من خارج الجزيرة تجلب من الهند ومصر. فمن الهند كانت تستورد الرز ذا الحبة الطويلة والسكر. وكان



□ البحر الأحمر وزورق حديث، ولكنه نموذجاً مطابقاً للزورق الذي استقله بيركهاردت قاطعاً إلى جدة.



□ نقود تركية.

أهلها يفضلونها على أرز مصر وسكرها. كما كانت تستورد منها الأفاوية والتوابل، والشموع والورق والأواني الصينية والمعالق والأواني والأدوات الخشبية والسكاكين والمسابح والمرايا.

وكانت تستورد من مصر القمح والشعير والعدس والأرز والسكر إلى جانب الأقمشة والملابس والأواني النحاسية والخرز الزجاجي، والسيرج الذي كان يستخدم في الاضاءة.

ومن سواكن ومصوع على شاطىء السودان ومن القصير على ساحل مصر كانت جدة تستورد الزبدة وذلك لأن الزبدة التي كانت تجلب من المناطق المجاورة في الحجاز لم تكن كافية. وكان أفخرها زبدة مصوع 'التي كانت تعرف بزبدة دهلك، ودهلك جزيرة قرب ساحل السودان. ويذكر بركهاردت أن بعض الأهالي من العامة كانوا يفركون صدورهم وأكتافهم وأذرعهم وأرجلهم بالزبدة كما يفعل الزنوج اعتقاداً منهم بأنها تنعش البشرة.

ومن بلاد الشام كان يرد إلى جدة الصابون ومن جزر الهند الشرقية الصومال جوز الهند، ومن اليونان الجبنة والفواكه المجففة، ومن أوروبا الأبر والمقصات والسكاكين والساعات، والتبغ والغلايين من العراق وايران.

أسواق جدة

كانت في جدة عند زيارة بركهاردت لها سبع وعشرون قهوة وأكثر من مئتين وثلاثين مخزناً ودكاناً رئيسياً لبيع السلع. ولاحظ أن عادة تدخين الشيشة (الأرجيلة) والغليون في المقاهي والبيوت كانت منتشرة، وأن التبغ والتنباك كانا يستوردان بكميات ضخمة. وأفخر أنواع التبغ والتنباك كان يرد من شيراز بإيران. وأقل منه جودة هو التمباك الذي كان يستورد من العراق واليمن ومصر.

ولم تكن الفئات العليا في المجتمع تتردد على المقاهي لأن أفرادها كانوا يستقبلون الناس في بيوتهم. وعليه فكان روادها من الفئات الدنيا والبحارة. ولاحظ بركهاردت أن «الحكواتية» أي الذين يقرأون القصص الشعبية لا وجود لهم فيها. وكان الزبائن يتسلون بلعب المنقل والضاما.

وكان في جدة عندئذ ستة وعشرون دكاناً لبيع الفواكه بما فيها التمور التي كانت ترد إلى الأسواق طوال العام، وإثنان وثلاثون كانوا لبيع الفطائر والفول (المدمس) والحلويات والشيش كباب والشوربة والسمك المقلي بالزيت، والخبز واللبن.

وكان للعطارين ثمانية عشر دكانا، وهم جميعاً من أهل جزر الهند الشرقية والهند وبخاصة من ميناء سورت. وكان الاقبال شديداً على إحدى سلعهم وهي أزرار الورد التي كانت ترد من الطائف. وفي هذه الدكاكين كان يباع سكر الهند الذي يميل إلى الاصفرار. وكان العطارون يجنون

أرباحاً طائلة من بيع العطور والمواد المتصلة بها.

وكان من أعظم مخازنها أحد عشر مخزناً للمصنوعات الهندية التي أشرنا إليها، وأحد عشر مخزناً لبيع الأقمشة وخصوصاً المصرية والهندية وتشمل شالات الكشمير التي كانت تباع للميسورين. هذا إلى جانب ثلاثة دكاكين لبيع الأوعية النحاسية وأكثرها من الأباريق التي تستخدم في الوضوء، وثلاثة دكاكين لبيع قرب الماء التي كانت تتزود بها القوافل أو يدور بها السقاؤون لبيع الماء. وكان في جدة ساعاتي تركي.

ولاحظ بركهاردت أن جميع تجار مكة يقتنون الساعات الانجليزية التي كان يجلبها التجار أو الحجاج. واعتاد الحجاج الأتراك أن يحمل الواحد منهم معه ساعة ومسدساً وخنجراً وأن يبيع أحدها أو كلها إذا احتاج إلى المزيد من المال.

وبلغ عدد صيارفة جدة خمسة عشر. وكان الواحد منهم يجلس على رصيف الشارع وأمامه صندوق فيه العملة. وقد سبق أن كانت الصيرفة بيد اليهود فلما طردهم الشريف سرور (١١٨٦ ــ ١٢٠٢هـ/ ١٧٧٢ ــ ١٧٨٧م) حل محلهم أهل جدة. وكانت أسعار العملة في تقلب مستمر، ولكن الصيارفة كانوا شديدي الحذر. فكانوا يخرجون رابحين من كل صفقة.

وكانت العملات المتداولة هي التركية وأكثرها شيوعاً الغرش الذي كان يساوي أربعين بارة، ويأتي بعدها الدولار الاسباني الذي كانت تتراوح قيمته بين تسعة غروش واثني عشر غرشاً. وكان إذا وصل تجار الهند جدة بلغ أعلى قيمة له، وإذا بدأوا بمغادرتها أخذ يهبط حتى يصل إلى أدنى قيمة له. ويأتي بعد ذلك السِّكُوين المجري ثم الروبية الهندية.

واردات جدة

كانت واردات جدة الرئيسية تتألف من الجمارك والضرائب التي تفرض على التجارات التي ترد إليها. ففي الميناء كانت السفن تدفع جمارك عالية على السلع التي تجلبها. وعند باب مكة والمدينة كان موظفو الجمارك يفرضون الضرائب على السلع الواردة إلى المدينة من مناطق الحجاز المجاورة وأهمها الأغنام والجمال والزبدة والتمور. وفي عام ١٨١٤ بلغت واردات المدينة من هذه الجمارك أربعة ملايين غرش (أو ٨٠٠٠ كيس وتعادل ٤٠٠,٠٠٠ دولار).

وكانت هذه الواردات ضخمة في حساب أهل زمنها. ويمكننا أن نكون فكرة عن قيمتها إذا عرفنا أن اردب القمح (ووزنه خمسون كيلو) كان يباع بمبلغ يتراوح بين ١٣٠ و ١٦٠ غرشاً أي أن الكيلو كان يباع بثلاثة غروش. ومما يذكر أن القمح كان يستورد من مصر وأن الأردب هناك كان يباع بمبلغ لا يزيد على خمسة عشر غرشاً. وعليه فإن التجار كانوا يجنون منه أرباحاً طائلة. وكان رطل الحليب يباع بغرش ونصف غرش. وفي مكة كان كيلو الأرز الهندي يباع بثلاثة غروش، وكيلو العدس المصري بغرشين. وكان أجر الصانع في اليوم خمسة غروش، وأجر الخادم في الشهر ثلاثين غرشاً.

بركهاردت يدون أخبار رحلته

غادر بركهاردت الحجاز بعد أن زار جدة ومكة والمدينة في أوائل عام ١٨١٥ إلى مصر. وفي القاهرة عكف على تدوين أخبار رحلته. وكان من الواضح أنه دفع ثمناً كبيراً لهذه الرحلة. إذ أقعدته الحمى أكثر من مدّة في المدن الحجازية، وذهبت بشبابه. وبينما كان يهم بمواصلة رحلاته أصيب بالزحار. وأحسّ بدنو أجله، فاستدعى القنصل الانكليزي بالقاهرة هنري صولت، وأودعه وصيته التي طلب فيها أن يدفن في القاهرة. وتوفي وهو في الثانية والثلاثين من العمر. وبذلك خسر العلم رحالة من أرفع طراز وعالماً من أوسع العلماء الغربيين معرفة بالقرآن والتفسير والحديث. ودفن في القاهرة وكتب على قبره:

«هو الحي الباقي. هذا قبر المرحوم إلى رحمة الله تعالى الشيخ حاج إبراهيم المهدي بن عبدالله بيركهاردت اللوزاني... تاريخ ولادته ١٠ محرم ١١٩٩ من الهجرة وتاريخ وفاته إلى رحمة الله بمصر المحروسة في ١٦ ذي الحجة سنة ١٢٣٢ الموافق ١٨١٧م».

وفي أغلب الظن أنه مات مسلماً. والله أعلم! ●

«الشيوخ اللبنانيّون» من خلال «معجم الشيوخ» للحافظ الذهبي

د. عمر عبد السلام تدمري

أخرجت المدن «اللبنانية» في تاريخها الاسلامي، عبر أربعة عشر قرناً هجرياً، المئات من العلماء الأعلام في مختلف فروع المعرفة وفنون العلم، من محدّثين، ومفسّرين، ومؤرّخين، وفلكيين، ومهندسين، ورياضيين، وفلاسفة، وأدباء، ولُغويين، ونحويين، ومقرئين، وشعراء، وأطبّاء، ونسّابة، وأخباريين، ومصنّفين، وفرائضيين، ومنطقيين، وغيرهم من أهل العلم.

كما استقبلت ـــ في المقابل ـــ مئات العلماء الأعلام من مختلف أصقاع العالم الاسلامي، فمنهم من طوّف بين مدن «لبنان» وقراه، وأخذ عن شيوخه أثناء متابعة رحلته الدراسية، ثم غادرها إلى أماكن أخرى مواصلاً رحلته العلمية، ومنهم من نزل إحدى المدن اللبنانية واستوطنها حتى نُسِب إليها لطول المدّة التي قضاها فيها قبل أن يتحوّل عنها، ومنهم من أقام فيها حتى قضى نحبه. وهؤلاء وأولئك، وغيرهم من المجاهيل الذين لم نقف على أسمائهم، وأهملتهم المصادر التاريخية، أسهموا كلّهم حسب نزعاتهم واهتماماتهم العلمية بإغناء الحياة الفكرية والثقافية في المدن اللبنانية، كما أغنوا الحياة الحضارية في بقيّة المدن والقرى على امتداد المحيط الاسلامي الكبير.

وفي هذه الدراسة نتناول واحداً من هؤلاء العلماء الأعلام الذين استقبلتهم المدن «اللبنانية»، واستفاد على أيدي علمائها، ونَهَلَ علومه من حياض موردهم، وهو المؤرّخ الحافظ الذهبي، الذي أحصى أسماء شيوخه اللبنانيين، وأدرجهم ضمن «معجم الشيوخ» الذي وضعه عِرفاناً لهم منه بالفضل.

☐ د. عمر عبد السلام تدمري: رئيس قسم الآثار، استاذ التاريخ الإسلامي ـــ الجامعة اللبنانية ـــ فروع طرابلس.



الحافظ الذهبي، أشهر من أن يُعَرَّف، فهو الامام العالم العلاّمة الحافظ المؤرّخ **شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز، أبو عبدالله التركماني الفارقي الدمشقي المشهور بالذهبي**، صاحب المصنّفات الكثيرة الجامعة النافعة في علم التاريخ بحوادثه وتراجم رجاله، وفي علم الحديث وجرح وتعديل رجاله، وفي علوم القرآن والتعريف بقرّائه، وفي علم الطبّ وحكمائه، فهو ذو الانتاج الفكري الوافر، ويذكّرنا من حيث وفرته بالطبري، وابن الأثير، والمسعودي، بحيث لا نعدو الحقيقة إذا اعتبرناه من المؤلّفين الموسوعيين، والمشاركين الذين اخذوا بكل علوم عصرهم، مع تخصّصهم في عدّة علوم أساسية اتّصفوا بها. والذهبي بمكانته العلميّة يمثّل دُرّة كبيرة في عِقْد الدُّرَر الذي يتحلّى به جيد التراث الاسلامي، في العصر المسمّى بالوسيط. فهو من الأعلام الذين ظهر انتاجهم في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ـ أي في عصر المماليك ـ والذي نؤكّد على القول بأنه عصر الموسوعات العربية الاسلامية، وعصر العلماء الموسوعيين، أمثال: **ابن كثير، والمقريزي، والصفدي، وابن حجر، والنويري، والعمري، والسيوطي، والقلقشندي، وابن منظور، وابن تغري بردي، والكتبي، وابن الفرات، وابن عبدالظاهر**، وغيرهم.

فلقد وُلد الحافظ الذهبي سنة ٦٧٣هـ بكفر بطنا من غوطة دمشق. وكانت وفاته ليلة الاثنين ٣ ذي القعدة ٧٤٨هـ في القاعة التي كان يسكنها بمدرسة أمّ الملك الصالح بدمشق.

وفي عصره كان علم الحديث مهملاً محتاجاً إلى علماء ذوي همّة يبعثون دراساته من جديد، فتوفّر هو لهذا العمل الجليل، وحمد الناسُ أثَرَه، وامتدحه العلماء الذين جاؤوا من بعده، فقال الفقيه شمس الدين محمد بن علي الحسيني في ترجمته: «الشيخ الامام العلاّمة، شيخ المحدّثين، قدوة الحفّاظ والقرّاء، محدّث الشام ومؤرّخه ومفيده، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، كان أحد الأذكياء المعدودين، والحفّاظ المبرّزين،... حمل عنه الكتابَ والسُّنّةَ خلائق، والله تعالى يغفر له»[١]. وقال التاج السُبْكي وهو تلميذه: «امّا أستاذنا أبو عبدالله فَبَصَرٌ لا نظير له، وكبير هو الملجأ إذا نزلت المُعْضِلة، إمام الوجود حِفْظاً، وذَهَبُ العصر معنىً ولفظاً، وشيخ الجرح والتعديل، ورجل الرجال في كل سبيل، كأنّما جُمعت الأمة في صعيد واحد، ثم أخذ يُخبر عنها إخبار من حضرها»[٢]. وقال ابن شاكر الكتبي: «أتقن الحديث ورجاله، ونظر عِلَلَه وأحواله، وعرف تراجم الناس، وأزال الإيهام في تراجمهم والباس، جمع الكثير، ونفع الجمّ الغفير، وأكثر من التصنيف، ووفّر بالاختصار مؤنة التطويل في التأليف»[٣]. ووقف ابن الزملكاني على تاريخه الكبير المسمّى «تاريخ الاسلام وطبقات مشاهير الأعلام» جزءاً بعد جزء إلى أن أنهاه مطالعةً، وقال: هذا كتاب عِلْم. اجتمعت به وأخذت عنه وقرأت من تصانيفه ولم أجد عنده جمود المحدّثين ولا كَوْدَنَة النَقَلَة. بل هو فقيه النظر. له دِرْبَة بأقوال الناس ومذاهب الأئمة من السلف، وأرباب المقالات، وأعجبني ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدّى حديثاً يورده حتى يبيّن ما فيه من ضَعْف مَتْن، أو ظلام إسناد، أو طعْن في رُواة. وهذا لم أر غيره يعاني هذه الفائدة فيما يورده.

وكانت للذهبي رحلة واسعة في طلب العلم، طوّف فيها في بلاد الشام ومصر والحجاز، وأول رحلته كانت إلى مدينة بعلبك سنة ٦٩٣هـ حيث قرأ فيها القرآن جَمْعاً على الموفّق النصيبي المتوفّى سنة ٦٩٥هـ. وأكثر عن المحدّث الأديب تاج الدين أبي محمد المغربي البعلبكي المتوفي سنة ٦٩٦هـ. ودخل بعلبك مرّة ثانية سنة ٧٠٧هـ.[٤] وقد سمع في هاتين الرحلتين على كثير من شيوخ المدينة. ورحل بعد ذلك إلى حلب، وسمع بحمص، وحماة، وطرابلس، والكرك، والمَعَرَّة، وبُصْرَى، ونابلس، والرملة، والقدس، وتبوك، وبلبيس، والقاهرة، والاسكندرية، والحجاز، ومكة، وعرفة، ومني، والمدينة، ومعان.

امّا مصنّفاته فكثيرة متنوعة، أحصى منها الصديق البّحاثة الدكتور «بشّار عوّاد معروف» (٢١٥) مئتين وخمسة عشر كتاباً، في القراءآت، والحديث، ومصطلح الحديث، والعقائد، وأصول الفقه، والفقه، والرقائق، والتاريخ والتراجم،

والسِيَر والتراجِم المُفْرَدَة، والمنوّعات، والمختصرات والمُنْتَقيات، والتخاريج، ومعجمات الشيورة، والمشيخات، والأربعينات الحديثية، والثلاثينات، والعوالي، والأجزاء[5]. واشهرها:

تاريخ الاسلام، وسِيَر أعلام النبلاء، وميزان الاعتدال، ومعرفة القراء الكبار، والعِبَر في خبر من غبر، ودول الاسلام، والمغني في الضعفاء، والكاشف، والمشتبه في أسماء الرجال، والكبائر، وتذكرة الحفّاظ، ومعجم الشيوخ الكبير، وهذا الأخير هو الذي سنعتمد عليه في تخريج الشيوخ اللبنانيين، وقد استعنت بنسخة الأخ الدكتور بشّار معروف المصوَّرة عن نسخة دار الكتب المصرية رقم ٦٥ مصطلح، وهي في جزأين، وتحمل العنوان التالي: «**كتاب فيه معجم محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن الذهبي**». وقد ذكر في المعجم أكثر من (١٣٠٠) ألف وثلاثمائة شيخ، ممن أخذ عنهم وسمعهم وروى عن طريقهم. ورتّبه على حروف المعجم، وبدأ بمن اسمه «أحمد» ثم «ابراهيم» وهكذا حسب الحروف الأبجدية، وهم على النحو التالي:

١ ــ أحمد بن ابراهيم بن محمد بن إدريس بن باباجوك، قاضي شَيْزَر، نجم الدين ابن الشهاب البعلبكي الشافعي.

اشتغل مدّة، وشارك في الفضائل، وكان فيه دين وسكون. مات سنة ٧٢٣ بشيزر وله نيّف وستون سنة، وهو تركماني.

أخبرنا أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن محمد، ووالده، ومحمد بن علي، وعلي بن عبدالولي، ومحمد بن الرشيد ببعلبك، بقراءتي، قالوا: أخبرنا أبو الغنائم المسلم بن محمد القيسي... عن أنسٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تستضيئوا بنار المشرك ولا تنقشوا خواتيمكم عربياً». هذا حديث غريب...[6].

٢ ــ أحمد بن سلمان بن مروان بن علي بن البعلبكي العدل، أبو العباس.

أديب فاضل متميّز، لكنّه يدخل في شهادة الزُّور، ولذلك عزله ابن الحريري في أيام قضائه بدمشق من شهادة القيمة.

أفرد القراءآت، وعَرَض الشاطبية على الشيخ علم الدين البخاري، وسمع منه ومن غيره.

وله نظم جيّد. مات في ربيع الآخر في سنة ٧١٢ وله ٨٥ سنة[7].

٣ ــ أحمد بن عبدالله بن احمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن سلطان بن يحيى القرشي، أبو العباس الشافعي المعروف بالقاضي شقير.

اشتغل وحصّل، ثم ترك وتجرّد وصحب الفقراء المجرّدين الجريرية، واتُّهم بالاتحاد. وقد أراه شيخنا ما في نصوص الحكم في البلايا فتبّرأ منها، وقال: ما كنت أعرف. وكان فيه تعبُّد، وله أوراد في الجملة. وقدم طرابلس ولحق بها، فأعجبني فقره وإنجماعه عن متولّيها.

مات في جمادى الآخرة سنة ٧١٥ وله ٨٢ سنة[8].

٤ ــ أحمد بن عبدالله بن نصرالله بن رسلان الشيخ أمين الدين أبو العباس ابن البعلبكي.

وُلد في صفر سنة ٦٢٦ وسمع من الزّبيدي في الخامسة، ومن ابن اللّتي، وأجاز له مشيخة أصبهان.

مات في شوّال سنة ٧٠١هـ[9].

٥ ــ أحمد بن عبدالرحمن بن يوسف المقرىء الزاهد أبو العباس بن شيخنا الامام الفخر البعلبكي السكاكيني الحنبلي.

وُلد سنة ٦٤٨ ظنّاً، وسمع من خطيب مرداً وابن عبدالدائم وجماعة، وكان خيّراً صالحاً متواضعاً بقيّة سلف.

توفي في صفر سنة ٧٣٢[10].

٦ ــ أحمد بن محمد بن محمد بن اسماعيل الفقيه شهاب الدين البعلي.

خطيب حصن الأكراد. عالم فاضل له مشاركة في العلم والانشاء، فيه دين وكَيْس. سمع معنا من التاج عبدالخالق وغيره. ومولده سنة ٦٧٧ وقد ضُرب مرتين وسُجن ثم غرّب، ثم أضمرته البلاد ــ فإنّا لله ــ ثم استوطن سنجار، وأفتى بفتاوى منكَرَة ودخل فيما لا يعنيه حباً لرياسة الظهور، وعليه مآخذ دينية ــ سامحه الله.

توفي بالجزيرة في سنة ٨ أو ٧٣٧.

أنشدنا لنفسه بطرابلس (وذكر ثلاثة أبيات)[١١].

٧ ــ أحمد بن يحيى بن طي بن علي أبو العباس البعلبكي.

المعدّل وكيل بيت المال ببلده. إنسان ساكن وقور. مولده سنة ٦٢٨ سمع من سليمان الأسعردي وعبدالرحيم الفناري.

مات في ذي الحجة سنة ٧١٨[١٢].

٨ ــ أحمد بن أبي بكر بن منصور بن عطية القاضي الامام شمس الدين الاسكندراني.

الفقيه قاضي طرابلس، رجل فاضل متفنّن عارف بالمذهب، يعاني التجارة، ودخل إلى بلاد الترك وجالس الكبار، وكان ذا رأي وحزم وشجاعة. له غلمان وعنده أسلحة، وأنشأ بطرابلس مدرسة نزلنا بها. صُرف عن القضاء لكونه مرض وحصل له جنان. قال لي: وُلدت سنة ٦٣٤ وسمعت من الزكيّ المنذري، واستعلمت على ابن عبدالسلام.

توفي في ربيع الأول سنة ٧٠٧.

وكتب إليّ شهاب الدين ابن مرّي أنه لما احضر حضره وزال عنه التخبّط وجمعنا حوله وأمسك بسرعة البقلة بيديه فرحاً مستبشراً، ثم كرّر كلمتيْ الشهادة وقال: ساعدوني وآنسوني فإنّ النفس لها عند المفارقة انزعاج، وإذا رأيتموني قد مُتُّ مسلماً فاشكروا ربكم على الهداية إلى هذا الدين العظيم، ثم كرّر الشهادة بخشوع نحو ثلاثين مرة، ثم توفي ــ رحمه الله تعالى.

أنشدني قاضي طرابلس أحمد بن أبي بكر، انشدنا الأديب شرف الدين التوحيدي لنفسه:

دعوا معشر الضلال عنّا حديثكم
فلا خطا منه يُجاب ولا عَمْدُ

دعوه إلهاً ثم قالوا بموته
ولو أنه ربٌّ لكان له الخُلْدُ

ومن جهلهم عدُّوا الثلاثة واحداً
ويلزمهم من ذلك العكس والطردُ

كان اعتقاد القوم في ربّهم ربّاً
فساموه ثلاثاً على انه فَرْدُ[١٣]

٩ ــ أحمد بن أبي المحاسن بن ابراهيم الطيبي الأديب شمس الدين أبو الفضل.

الكاتب. له يد في النظم والنثر والكتابة، ولكنه يُرْمَى بالرفض، وقيل كان نُصَيْرِيّاً. وقد أنشدنا لنفسه قصده يدلّ على معتقده، فالله أعلم.

مات سنة ٧١٧ بطرابلس، وكان من كُتّاب الانشاء بها.

أنشدنا الشمس الطيبي لنفسه:

نور العلوم من القرآن والخبر الأصل
هذان وهي الفرع فاعتبر

هذا الكتاب وهذي السُنَّة القفا
على هذا به أهل النقل والأثر

يمدح منها ملك الأمراء «أسندمر»[١٤] ويقول:

على سماع البخاري انقضى صفرٌ بنا
لديك فما أحلاه من صفر

وسمعت أيضاً من نظمه مع شيخنا علم الدين. وقيل اسم أبيه «يعقوب»[١٥].

١٠ ــ إبراهيم بن أحمد بن حاتم، الفقيه القدوة، أبو اسحاق البعلبكي.

إمام مسجد بطاعن (؟). وُلد سنة ٦٣١ وصحب الشيخ الفقيه، وسمع من خطيب مرداً، وسليمان الأسعردي والفقيه محمد. وأجاز له ابن روزبه وابن بهروز والقاضي نصر بن عبدالرزاق وطائفة. وكان يذكر عنه كرامات، وله حظ من تألّهٍ وصلاة وصيام، وكان قانعاً متعفّفاً، أصيب ببصره في آخر عمره، والله يعوّضه بالجنة.

مات في صفر سنة ٧١٢[١٦].

١١ ــ إبراهيم بن بركات بن أبي الفضل البعلبكي، الشيخ أبو إسحاق، ويُعرف بابن القرشية.

من أعيان الفقراء القادرية، فيه دين وكَيْس وحُسْن ودّ، وعلى ذهنه فوائد ونوادر. مولده سنة ٦٥٠ وسمع من الشيخ الفقيه وابن عبدالدائم وابن الصيرفي.

توفي في رجب عام ٧٤٠.

اخبرنا إبراهيم بن بركات وابن عمّه محمد بن أبي الفتح بطرابلس قالا: أخبرنا محمد بن أبي الحسين الفقيه، أخبرنا أبو طاهر الخشوعي، أخبرنا أبو محمد القاسم بن علي الأديب في كتابه... عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الآيتان من آخر سورة البقرة مَن قرأهما في ليلة كَفَتَاه»[١٧].



□ منظر عام لمدينة بعلبك.

١٢ ـــ إبراهيم بن عبدالغني المعدل الكبير، ناصر الدين أبو الفضل ابن البعلبكي الدمشقي.

وُلد في ذي القعدة سنة ٦٤٥ وسمع من قاضي القضاة صدر الدين الشافعي وعلي البشتي وابن رزمان الحنفي، ولم أره روى شيئاً أيام تغيُّره فإنه تغيّر ذهنه نحواً من سنة، ثم انقطع وجلس في حضرته ابن أبي الحسن، والتزم له في الشهر بتسعين درهم.

توفي في ذي القعدة سنة ٧٢٩[١٨].

١٣ ـــ إبراهيم بن علي بن سناء المُلْك برهان الدين المصري.

صاحب الخط المنسوب، اجتمعت به بطرابلس في سنة ٧٠٧ وهو شاب عامل، فسألته خبر خدمة، فأملى هذه النسخة عليّ، قال: يؤخذ دخان زيت الكتّان ويوضع في صلابة صلبه ويخدم بفهر (؟) بماء الصمغ العربي، ويلقى منه فوق ذلك ويخدم بفهر كبير (!) ويستعمل على لبقة جديدة[١٩].

١٤ ـــ إبراهيم بن محمد بن إدريس بن بابا جوك بن شعبان، المقريء شهاب الدين أبو أحمد التركماني البعلبكي.

وُلد سنة ٦٣٥ وسمع من الفقيه اليونيني والشيخ إبراهيم البطائحي وابن أبي الخير الحداد. وتلا بالسبع على الشيخ موفق الدين النصيبي، وكان فيه دين وخير وملازمة المسجد والاقراء. حكى أنه سمع من ابن عبدالدائم.

مات في صفر سنة ٧٢٢ وكان يخطب بالحنّاء مدّة[٢٠].

١٥ ـــ إبراهيم بن منير البعلبكي.

الزاهد العابد، ويُعرف بالصّبّاح. سمعته يقول: سمعت عبدالرحمن بن حصن يحدّث عن أبيه قال: أتيت الشيخ عبدالله اليونيني الكبير، فقلت: يا سيدي أريد أن أصحبك، فقال: كيف تقدر وأنتم إذا رأيتم العافية رميتم أنفسكم إليها، وأنا إذا رأيت الموت دلّيت نفسي فيه.

توفي شيخنا إبراهيم الصبّاح في المحرّم سنة ٧٢٥ عن سبعين سنة، احترق بالمجمرة وشيّعه الخلق[٢١].

١٦ ــ إسحاق بن إبراهيم بن سلطان، أبو إبراهيم البعلي الكتاني.

المقرىء، إنسان خيّر مبارك. مولده في سنة ٦١٠ كذا رأيته بخط ابن الجارة. روى عن البهاء عبدالرحمن.

توفي في ذي القعدة سنة ٦٩٣.

أخبرنا إسحاق الكتّاني والتاج عبدالخالق وبنت عمّه ستّ الأهل بقراءتي قالوا: أخبرنا عبدالرحمن بن إبراهيم ببعلبك، أخبرتنا شهدة الكاتبة، أخبرنا الحسين بن طلحة... عن عائشة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يقطع في ربع دينار فصاعداً[٢٢].

١٧ ــ إسماعيل بن إسماعيل بن جُوسَلين.

الفقيه العدل، عماد الدين البعلي. الرجلّ الصالح. تفقّه في مذهب أحمد، وأتقن الشروط، مع زُهد وعفاف وخير. مولده سنة ٦٠٤ سمع الشيخ الموفّق وأبا المجد القزويني والبهاء وجماعة، وروى الكثير.

توفي في صفر سنة ٦٨١[٢٣].

١٨ ــ آقوش أبو محمد حسام الدين القطبي اليونيني.

سمع ابن أبي اليُسْر والكمال بن عبد. مولده في حدود الأربعين وستماية، واشتراه أوّلًا بحلب القاضي بدرالدين ابن الأستاذ وهو خماسيّ، ثم سافر به على بعلبك، فوهبه وهو مراهق للشيخ قطب الدين ابن اليونيني، فبقي عنده نحواً من عشر سنين، ثم تحوّل إلى دمشق وصار مؤذّناً بتربة أمّ الصالح، ثم بجامع العقيبة، ثم تقرر بجامع دمشق في سنة ٧٠ فأذّن به نحواً من ٥٠ سنة. وكان قصيراً له قبقاب عالٍ، وكان من صوفية الأسديّة. فيه دين وكثرة تلاوة.

مات في ربيع الأول سنة ٧٢٠، قرأ لنا عليه الشيخ علم الدين[٢٤].

١٩ ــ آمنة ابن الشيخ الفقيه محمد بن احمد بن عبدالله بن عيسى، أم أحمد البعلبكية.

مولدها في سنة ٦٣٧ تقريباً، ولم أر لها سماعاً بل أجاز لها العزّ والنّسّابة والتاج القرطبي وابن الصلاح، وجماعة.

توفيت في آخر سنة ٧٢٥ وهي في عُشْر المئة، فإنني وجدت بخط الحافظ علم الدين مولدها تقريباً سنة ٣٣[٢٥].

٢٠ ــ داود بن إبراهيم بن محفوظ الحوراني، أبو سليمان البعلبكي.

الشاهد. حدّث مرات عن البهاء عبدالرحمن، ومات سنة ٧٠٣[٢٦].

٢١ ــ ذبيان بن أبي الحسن بن عثمان البعلبكي.

السمسار بسوق علي. سمع الشيخ الفقيه وابن عبدالدائم. توفي في جمادى الأولى سنة ٧٠٢ وقد شاخ[٢٧].

٢٢ ــ زينب بنت عمر بن كندي بن سعيد بن علي، أم محمد الدمشقية الكِنْدِية.

نزيلة بعلبك، شيخة صالحة جليلة كثيرة المعروف، حجّت وبنت رابطاً ووقفته على البرّ. رَوَتْ الكثير بإجازة المؤيّد الطوسي وأبي رَوْح وزينب بنت الشعري.

توفيت في أواخر شهر جمادي الآخرة سنة ٦٩٩[٢٨].

٢٣ ــ ستّ الأهل بنت الناصح علوان بن سعيد بن علوان، أم أحمد البعلبكية.

امرأة صالحة خيّرة زاهدة قانعة باليسير. وُلدت سنة بضع عشرة وستماية وسمعت الكثير، وروت عن البهاء عبدالرحمن، وتفرّدت بأشياء.

ماتت في المحرّم بأرض الفَرَسَة في سنة ٧٠٣ وحُملت إلى سفح قاسيون[٢٩].

٢٤ ــ صالح بن أحمد بن عثمان صلاح الدين، أبو أحمد الخلاطي ثم البعلي القوّاس.

الشاعر، رجل خير مبارك متواضع، صحب الفقراء وسافر الكثير، وكان يعبّر الرؤيا.

انشدني قصيدته السائدة ذات الأوزان:

ذا ثوى بفؤآد شقّه سقم
لمحنتي من دواعي الهمّ والكمد

وقد سمع من الشيخ الفقيه وغيره. مات في ربيع الأول سنة ٧٢٣ ببعلبك وقد نّيف على الثمانين[٣٠].

٢٥ ــ عبدالله بن عبدالغني الشرف، أبو أحمد البعلبكي الدريني:

رجل من أهل القراءآت فيه كَيْس ومروءة،

سمع الكثير وأسمع أولاده، ومات كهلاً في حدود السبعماية.

أنشدنا عبدالله بن عبدالغني ببعلبك سنة ٦٩٣ للشيخ يحيى بن يوسف من حفظه:

لولا شذا من نشركم ينشق
ما من نحو المتيّم المُعَرق
ولا صبا في الصبح نحو الصَبا
ولا أبارت سحوه الأينق
فكّوا أسيراً لكم مولعاً
عليه في حفظ الهوى موثق
فؤآده قيّده حبّكم
ودمعه بين الورى مُطلق[٣١]

٢٦ ــ عبدالحميد بن عبدالرحمن بن رافع بن منهال.

الخطيب الزاهد أبو محمد اليونيني الحنبلي. شيخ خيّر متعبّد، يخطب بقرية عمشكا. سمع إسماعيل بن ظفر والشيخ اليونيني، وصحب الشيخ إبراهيم البطائحي فكان من أنجب اصحابه، وكان ليلة نصف شعبان قد صلّى بأصحابه في القرية مائة ركعة فأصبح وعمل في كرْمه أكبر النهار، ومات فجأة آخر النهار سنة ٦٩٨ وقد قارب الثمانين[٣٢].

٢٧ ــ عبدالخالق بن عبدالسلام بن سعد بن علوان.

القاضي الامام تاج الدين أبو محمد المعرّي ثم البعلبكي الشافعي الأديب. ولي قضاء بلده مدّة، وكان خيّراً صالحاً متواضعاً زاهداً، حسن الاعتقاد، له نظم ونثر. مولده في أحد الجُمادين سنة ٦٠٣ ورأى الشيخ عبدالله اليونيني الكبير وسمع كلامه، وسمع من الشيخ الموفق والبهاء والقزويني وابن واصل وابن رواحه والللبلي والحافظ البرزالي وغيرهم. وأجاز له الكندي وغيره.

اكثَرْتُ عنه ونِعْم الشيخ كان. مات في تاسع المحرّم سنة ٦٩٦[٣٣].

٢٨ ــ عبدالرحمن بن شيخنا التقيّ احمد بن عبدالرحمن بن مؤمن الصوري ثم الصالحي.

روى لنا عن ابن عبدالدائم، وسمع من ابن هامل والشرف بن النابلسي، وأجاز له اسماعيل بن الدرجي وجماعة.

مات في شعبان سنة ٧١٤ وبقي أخوه عمر إلى سنة عشرين[٣٤].

٢٩ ــ عبدالرحمن بن عبدالوهاب بن علي بن أحمد بن عقيل.

خطيب بعلبك أبو الفرج، وقيل أبو محمد السُلمي البعلبكي. وُلد في شوال سنة ٦١٤ وسمع أبا المجد القزويني وبه ختم حديثه وأبا المنَجا اللّتيّ وأبا عمرو بن الصلاح وأبا القاسم بن رواحه. وكان خطيباً، وكذلك خطب أبوه من قبله بها نحواً من ستين سنة، ثم توفي في سنة ٦٤٦.

وتوفي شيخنا في صفر سنة ثلاث وسبعماية[٣٥].

٣٠ ــ عبدالرحمن بن المفتي شمس الدين محمد بن المفتي فخر الدين عبدالرحمن بن يوسف.

الحافظ الفقير فخر الدين أبو الفرج البعلبكي ثم الدمشقي الحنبلي، المحدّث، صديقنا ورفيقنا. وُلد في أثناء سنة ٦٨٥ وحضر ابنَ البخاري في جماعة أجزاء، وسمع من ابن الواسطي والفاروتي وطائفة بإفادة والده، ثم طلب الحديث وهو ابن عشرين سنة، وعُني به ورحل وجمع فسمع من أبي جعفر الموازيني وفاطمة بنت سليمان وابن مشرف، وبمصر من سبط زيادة وعلي بن الصوّاف، وبالحرمين والاسكندرية وحلب والقدس. وخرّج لنفسه وللكبار. وقرأ للعامّة ونفعهم ــ نفعه الله ــ بما علّم، وغفر له.

توفي في ذي القعدة سنة ٧٣٢[٣٦].

٣١ ــ عبدالرحمن بن يوسف بن محمد بن نصر.

الامام المفتي الزاهد العابد فخر الدين البعلبكي الحنبلي، أحد العلماء العاملين. وُلِد سنة ٦١١ وسمع: القزويني والبهاء عبدالرحمن والناصح الحنبلي وابن اللتي ومكرَّم بن أبي الصقر. وقرأ كتاب الله تعالى على خاله صدر الدين عبدالرحيم قاضي بعلبك، وتفقّه بدمشق على تقيّ الدين بن العزّ وأبي سليمان بن الحافظ وشمس الدين عمر بن المنجا. وعرض علوم الحديث من لفظه على ابن الصلاح، وحضر بحوث السيف الآمدي، وقرأ

النحو على ابن الحاجب. ودرّس بالجوزية وبالمسمارية نيابةً، وولي مشيخة الحديث بالنورية والصدرية وبالعُرْوبة، وتخرّج عليه أئمّة. وكان متواضعاً خيّراً يؤثر الخُمول ويلازم التهجّد وكثرة التلاوة ويكثر الصوم، ويؤثر عنه كرامات وأحوال، منها أنه قال في صحّته وعافيته منه: أنا أعيش عُمر الامام أحمد لكن شتّان ما بيني وبينه. فعاش مثله.

توفي في رجب سنة ٦٨٨، أجاز لي مروّياته[٣٧].

٣٢ ــ عبدالسلام بن عبدالخالق بن عبدالسلام ابن سعيد بن علوان.

العدل موفّق الدين أبو سعيد البعلبكي ابن شيخنا تاج الدين. سمع أبا سليمان بن الحافظ والفقيه محمداً، وسمع بحماه من صفية ــ عرفتُ ذلك بعد موته ــ، وأجاز له أبو إسحاق الكاشغري وغيره.

مولده سنة ٦٣٦ ومات سنة ٧٠٣ في ربيع الآخر.

قرأت عليه بعَرَفَة وغيرها مجلس البطاقة. وكان فاضلاً خيّراً حسن السَّمْت[٣٨].

٣٣ ــ عبدالقادر بن شيخنا أبي الحسن علي بن الشيخ الفقيه محمد بن أبي الحسين اليونيني البعلي الحنبلي.

الشيخ محي الدين أبو عبدالله. وُلد سنة ٦٨٢، وسمع من والده ومن الفخر بن البخاري وابن الكمال وجماعة. انتقيت له جزءاً. وهو فقيه عالم خيّر بارك الله فيه. سمع معي الكثير ببعلبك[٣٩].

٣٤ ــ عبدالكريم بن عبدالرحيم بن عبدان بن زيد أبو محمد البعلبكي.

روى لنا عن البهاء عبدالرحمن، وكان خيّراً حسن السَمْت مات في سنة ٦٩٨ وقد نيّف على الثمانين[٤٠].

٣٥ ــ عثمان بن موسى بن رافع بن منهال أبو عمر اليونيني الحنبلي.

المقرىء خطيب قرية نيحا. سمع أبا القاسم ابن رواحة وابن ظفر. روى عنه ابن الخيار وغيره.

توفي في ربيع الأول سنة ٦٩٦.

أخبرنا عثمان بن موسى وابن عمّه عبدالولي الخطيب وفاطمة بنت جوهر وإسحاق الأسدي قالوا: أخبرنا أبو الغنائم بن رواحة[٤١].

٣٦ ــ العزّ العقّاد.

شيخ ظريف صحب الفقراء، ويحكي عنه البعلبكيون طيب مزاح. أرسله شيخه أبو الحسين لفتح بيت الكويت ويحضر له مجلّداً، ففتح ودخل، وهناك قطرميز زيت طيّب، فوقع القطرميز مع أخْذ المجلّد، فأتلف الطرّاحة وبعض الكتب وعام به البيت، فخرج وأغلق بالكَيْلُون، وجاء فرماه للشيخ وقال: هذا القفل عَسِر ما ينفتح لي، فأعطى الشيخ الكَيْلُون لخادمه الملقّب بالقط، ثم قال: رُحْ أنت افتح وهات المجلّد، فذهب القط وفتح وتناول المجلّد وجاء به، فلما قام الشيخ إلى بيته وجد البيت في تلك الحالة، فغضب على القط وشاله على رجليه، ثم حدّث بها العزّ بعد مُدَيْدَة.

انشدني العزّ العقّاد لبعضهم:

إن تاه جزّاركم عليكم ... بفطنة عنده وكَيْس
فليس يرجوه غير كلب ... وليس يخشاه غير تيس

توفي العزّ هذا قبل السبعماية، وقد شاخ[٤٢].

٣٧ ــ علي بن سليم بن ربيعة الأنصاري الأذرعي.

القاضي ضياءالدين أبو الحسن الشافعي، ولي قضاء أماكن. علّقت عنه بطرابلس. عاش خمساً وثمانين سنة.

توفي سنة ٧٣١[٤٣].

٣٨ ــ علي بن عبدالولي بن أبي محمد بن خولان.

التاجر أبو الحسن البعلبكي، عدل فاضل عامل. روى لنا عن ابن علّان أحاديث. توفي في شعبان سنة ثلاثين. وهو والد الفقيه بهاءالدين. كتب إليّ أبو الغنائم بن علّان، وأخبرني عنه علي بن عبدالولي، ومحمد بن رشيد، ومحمد بن علي، وإبراهيم بن بابا جوك، وابنه أحمد أن حنبلاً أخبرهم...[٤٤].

٣٩ ــ علي بن محمد بن الحسين بن احمد بن عبدالله بن عيسى بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد.



□ مدينة طرابلس.

الإمام المحدّث الفقيه الأوحد، بقيّة السلف، شرف الدين أبو الحسينابن الإمام الربّاني الفقيه أبـي عبدالله اليونيني الحنبلي، شيخنا ومُفيدنا. وُلد في رجب سنة ٦٢١ وسمع من البهاء عبدالرحمن حضوراً، ومن ابن الصباح وابن الزُبيدي وابن اللّتّي ومكرم وعبدالواحد بن أبـي المضاء وابن رواح، وخلق سواهم بمصر والشام. واستنسخ صحيح البخاري وحرّره. حدّثني أنه قابله في سنة واحدة، وأسمعه إحدى عشرة مرة، وروى الكثير. وكان شيخاً مهيباً منوّراً حُلْو المجالسة كثير الإفادة قويّ المشاركة في العلوم، حسن البشر مليح التواضع. أكثرت عنه ببعلبك وبدمشق، دخل في أول رمضان سنة ٧٠١ خزانة الكتب ببعلبك فدخل إليه رجل مضطرب العقل فضربه بسكّين صَفْرة في دماغه بقي أياماً وتوفي إلى رحمة الله(٤٥).

٤٠ ــ عمر بن أبـي القاسم بن عمر اليونيني السلاوي.

الصوفي، أبو حفص، صحب الفقراء وروى عن الشيخ الفقيه وابن عبدالدائم. مولده سنة ٦٢٤ ومات في ذي القعدة سنة ٧٠٧(٤٦).

٤١ ــ عيسى بن عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالكريم أبو الفضل ابن المعرّي البعلبكي الفامي الزيات.

وُلد في ذي الحجة سنة ٦٣٧ وسمع من أبـي سليمان بن الحافظ. روى لنا مجلس البطاقة. مات في ربيع الآخر سنة ٧١٤(٤٧).

٤٢ ــ عائشة بنت عبدالله بن عبدالمؤمن بن أبـي الفتح الصوري أم عبدالله.

روى عن خطيب مردا وابن عبدالدائم، وهي زوجة شيخنا التقيّ بن مؤمن. قرأت عليها أحاديث نُكُر.

ماتت في ذي القعدة سنة ٧٢٦ وأمّها هي صفيّة بنت الوسطي(٤٨).

٤٣ ــ فاطمة بنت القدوة الزاهد الشيخ إبراهيم بن محمود بن جوهر البطائحي البعلبكي أم محمد.

امرأة صالحة عابدة مُسْنِدة. وُلدت في رجب

سنة ٦٢٥ وسمعت صحيح البخاري من ابن الزبيدي، وصحيح مسلم من أبي الثناء محمود بن الحصيري شيخ الحنفية، وهي آخر من روى عنه وفاةً. وسمعت من أبي القاسم بن رواحة، وطال عمرها وروت الكثير.

توفيت في أواخر صفر سنة ٧١١[٤٩].

٤٤ ــ فاطمة بنت الزاهد البركة عمادالدين إسماعيل بن إبراهيم بن سلطان أم أحمد البعلبكية.

إمرأة خيّرة، وهي خالة صاحبنا الشمس بن الحبّال. روت عن الشيخ الفقيه. مضت الرواية عنها.

توفيت في رجب سنة ٧١٢ في عُشْر السبعين[٥٠].

٤٥ ــ فاطمة بنت الشيخ نفيس الدين ابي البركات محمد بن الحسين بن عبدالله بن رواحة الأنصارية الحموية ام أحمد.

سمعت منها بحماه وبطرابلس، وحدّثت بمصر أيضاً من دهر. روت عن عمّها أبي القاسم.

مولدها سنة بضع وستمائة وثلاثين، وتوفيت في ذي الحجة سنة ٧١٦ بحماه[٥١].

٤٦ ــ محمد بن أحمد بن تبع.

الفقيه الفاضل صلاح الدين أبو أحمد البعلبكي القصير. وُلد بعد الأربعين وستماية وقرأ بالروايات واشتغل وناب عن ابن عبدالدائم. وكان لطيف القد، حفظة للنوادر طريفاً.

مات في جُمادى الأولى سنة ٧١٠[٥٢].

٤٧ ــ محمد بن أحمد بن شعفور البعلي.

فقير نظيف مطبوع، جالسته بحماه فذكر لي انه سمع من الشيخ الفخر. ومولده بعد سنة ٦٦٠ وتوفي سنة ٧٣٥.

أنشدني ابن شعفور: أنشدنا الفخر علي لبعضهم:

ولست بميّال إلى جانب الغنى
إذا كانت العليا في جانب الفقر
وإنّي لصبّار على ما ينوبني
وحسبك أن الله أثنى على الصبر[٥٣]

٤٨ ــ محمد بن بلغز بن محمد بن بلغز بن دارة.

الشيخ فخر الدين أبو عبدالله البعلبكي. وُلد سنة ٦١٣ في جمادي الآخرة، وسمع من البهاء المقدسي، وكان شيخاً مباركاً عامّياً. سمع منه الحافظ علم الدين رابع المحامليات، وكتب إليّ شيخنا أبو الحسين أنه توفي في محرم سنة ٦٩٦[٥٤].

٤٩ ــ محمد بن داود بن الياس.

الفقيه الامام شمس الدين أبو عبدالله البعلبكي الحنبلي خادم الشيخ الفقيه. سمع الشيخ الموفق والقزويني وابن اللّتي وابن صصري وابن الزُبيدي وطائفة، وكتب الطباق ونسخ الأجزاء، وكان من كبار عدول بلده وفقهائهم. قال للوجيه الثغري: وُلدت في جمادى الأولى سنة ٥٩٨ أجاز لي مروّياته، وتوفي في رمضان سنة ٦٧٩[٥٥].

٥٠ ــ محمد بن سليمان بن مروان جمال الدين أبو عبدالله ابن البعلبكي الدمشقي الشافعي.

سمع من أصحاب الخشوعي، ونسخ الكتب الكبار، مضت الرواية عنه وستأتي مع أخيه يحيى. سمع من المجد وابن أبي اليُسْر «فضائل الشام» للربعي، وسمع جزء «الجصّاص» الأول، و «الضعفاء» للنسائي. وكان فيه دين وعلم وانقباض.

توفي في رمضان سنة ٧٣٩ وكان من أبناء الثمانين[٥٦].

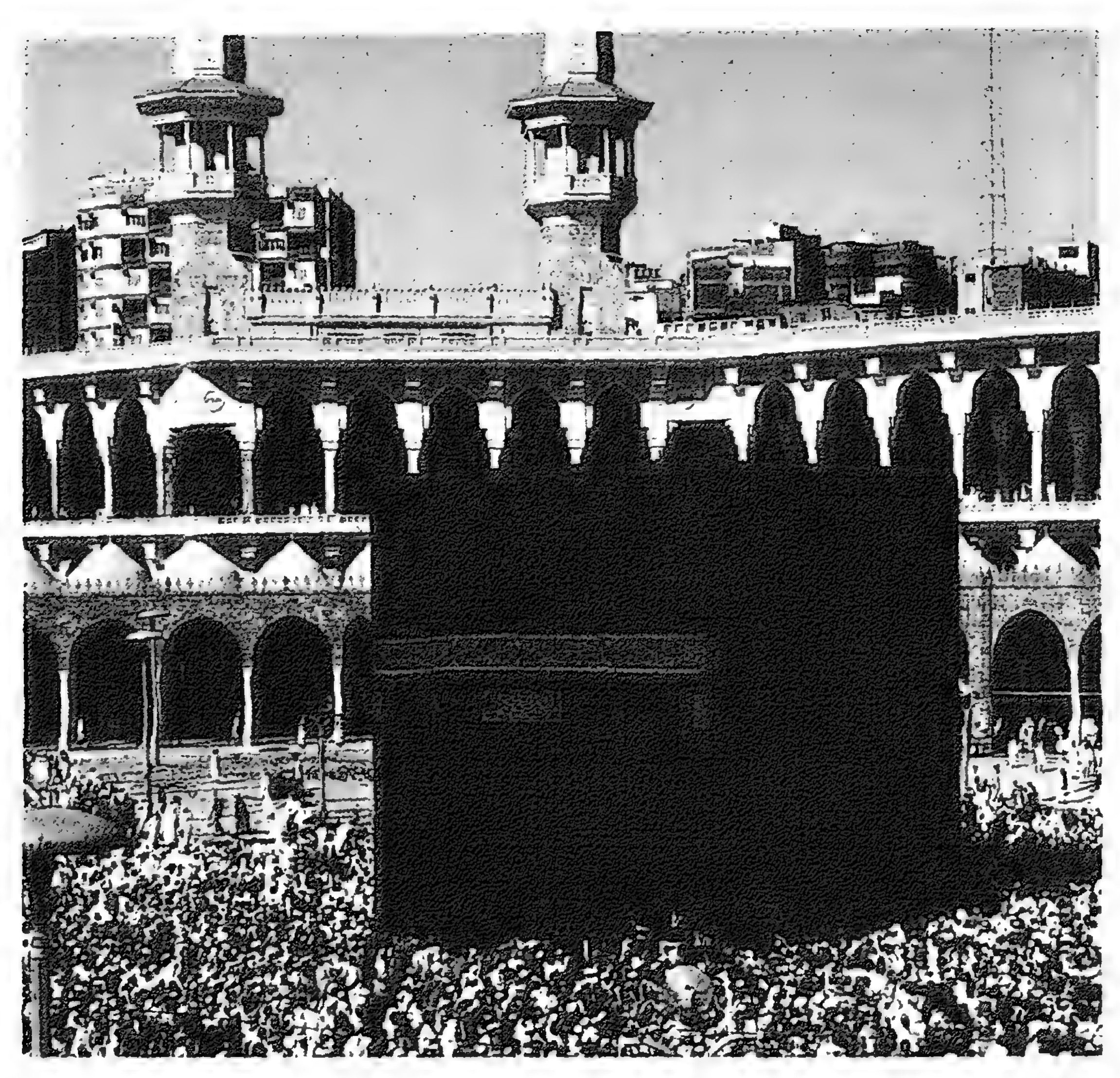
٥١ ــ محمد بن عبدالرحيم بن عبدالوهاب بن علي بن أحمد.

الخطيب العالم محي الدين أبو المعالي السُلمي الشافعي خطيب بعلبك. وُلد سنة ٥٨ في رمضان، ونشأ بدمشق، وسمع من ابن عبدالدائم أكثر «الترغيب والترهيب»، واشتغل وكتب واشتغل وكتب الخط المنسوب، ونسخ الكثير. وكان مُجيداً للخطابة، مليح الشكل عاقلاً متصّوناً كبير القدر، وهو والد المجوّد بهاء الدين.

توفي في شعبان سنة ٧٤٣[٥٧].

٥٢ ــ محمد بن عبدالولي بن ابي محمد بن خولان.

الامام العالم المحدّث الخيّر الصادق،



□ مكة المكرمة.

أمين الدين أبو عبدالله البعلبكي التاجر المقرىء. سمع من الشيخ الفقيه وابن عبدالدائم وجماعة. حدّثنا ببعلبك وبالمدينة النبوية وبتبوك. وكان محبّباً إلى الناس لمروءته وعلمه وتقواه.

وُلد سنة ٦٤٤ ومات في شعبان سنة ٧٠١ (٥٨).

٥٣ ــ محمد بن علي بن محمد بن أحمد.

الامام الفاضل النبيل تقي الدين ابن شيخنا الامام أبي الحسين ابن الشيخ الفقيه اليونيني البعلي الحنبلي، شيخ بعلبك وابن شيخها. وُلد سنة ٦٦٧ وسمع من الجمال بن الصيرفي والشيخ شمس الدين وابن علّان والفخر علي، وعدّة. وتنازل في الفضائل، وكان ذا سؤدد وعقل وشجاعة وحسن محاضرة. مرّت الرواية عنه وله إجازة من ابن عبدالدائم وجماعة. رزقه الله التقوي والتواضع وإيّانا.

مات بدمشق سنة ٧٣٧ (٥٩).

٥٤ ــ محمد بن عمر بن الياس بن الرشيد البعلبكي.

شاب حسن ذو مروءة وخير. روى لنا عن المسلم بن علّان. مولده بعد ٦٧٠ مضت روايته. توفي سنة ٧٢٠ (٦٠).

٥٥ ــ محمد بن أبي بكر بن بُحتر.

الخطيب العالم شمس الدين أبو عبدالله خطيب حصن الأكراد. له مشاركة في الفقه والتفسير والانشاء، وفيه دين وخير. وُلد سنة

٦٥٤ قال لي أنه سمع «صحيح مسلم» و «جزءابن عرفة» من ابن عبدالدائم، فقرأت عليه بطرابلس من أول ذا وذا عدّة أحاديث.

توفي في أواخر سنة ٧٠٩[٦١].

٥٦ ــ محمد بن الامام القدوة الزاهد أبي الحسن بن حصن البعلبكي ثم الدمشقي الحنبلي.

المقرىء الصالح شمس الدين أبو عبدالله. وُلد سنة ٦٦٨ وسمع من ابن أبي عمرو ابن علّان وجماعة، فأكثر، وحدّث بالمُسْنَد فأدركه قبل كماله الأجل في صفر سنة ٧٣٠[٦٢].

٥٧ ــ محمد بن أبي العزّ بن مشرّف بن بيان.

المعمَّر المُسْنِد شهاب الدين أبو عبدالله الأنصاري الدمشقي التاجر. وُلد سنة ٦١٩ وسمع من ابن الصبّاح والناصح الحنبلي وابن باسويه فكان آخر من حدّث عنهم بالسماع بدمشق، ومن الزُبيدي وابن المقير وابن الشيرازي وابن المكرم. وحدّث بدمشق وبعلبك وكفربطنا وطرابلس. وكان مليح الاصغاء إلى القارىء لا ينطق ولا ينعس. وصار مسمّعاً بدار الحديث الأشرفية إلى أن مات في ذي الحجة سنة ٧٠٧[٦٣].

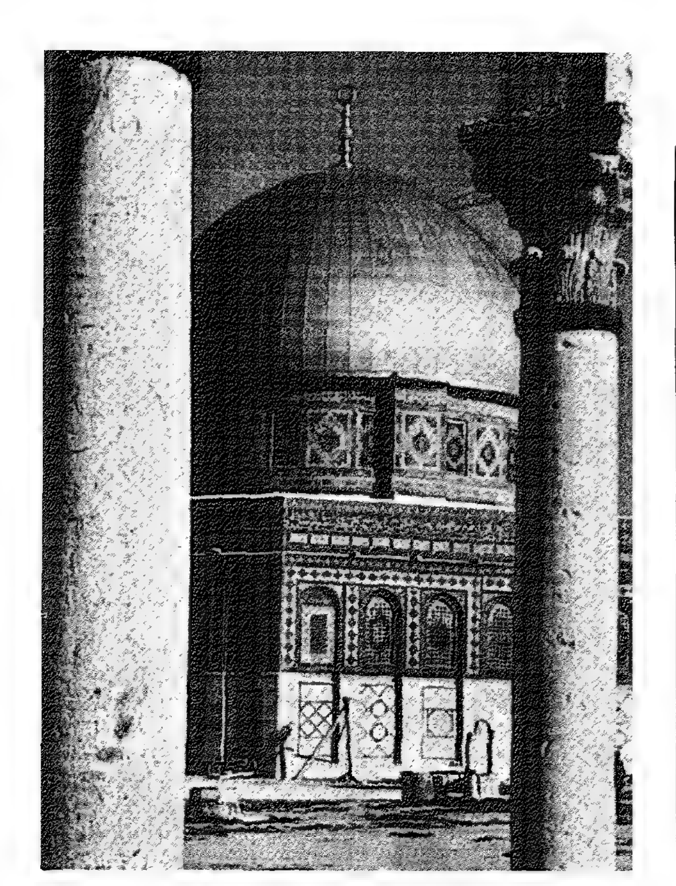
٥٨ ــ محمد بن أبي العلاء بن علي بن المبارك.

الامام المقرىء المجوّد بقية السلف موفّق الدين أبو عبدالله الرّباني النصيبي الشافعي الصوفي شيخ الصوفية والقراء ببعلبك. وُلد سنة ٦١٧ وتلا بالسبع على أبي عمرون الحاجب والسديد عيسى، وسمع من ابن الحاجب والفقيه اليونيني.

مات في ذي الحجة سنة ٦٩٥ جمعت عليه الختمة وسمعت منه الحاجبية في النحو[٦٤].

٥٩ ــ محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل

الامام العلّامة المحدّث المفتي النحوي الصالح الخيّر شمس الدين أبو عبدالله البعلبكي الحنبلي. وُلد سنة ٦٤٥ وسمع من الشيخ الفقيه وتحوّل إلى دمشق فاشتغل واتقن الفقه، وسمع الكثير من ابن عبدالدائم والكرماني وأصحاب الخشوعي وحنبل ومن بعدهم، وعُني بالرواية



□ القدس.

والأجزاء، ولزم ابن مالك مدّة فكان من نجباء أصحابه، وصنّف في العربية وغيرها، وأفاد ودرّس، مع التواضع وحسن الخُلُق والقناعة والاقتصاد وكثرة المحاسن.

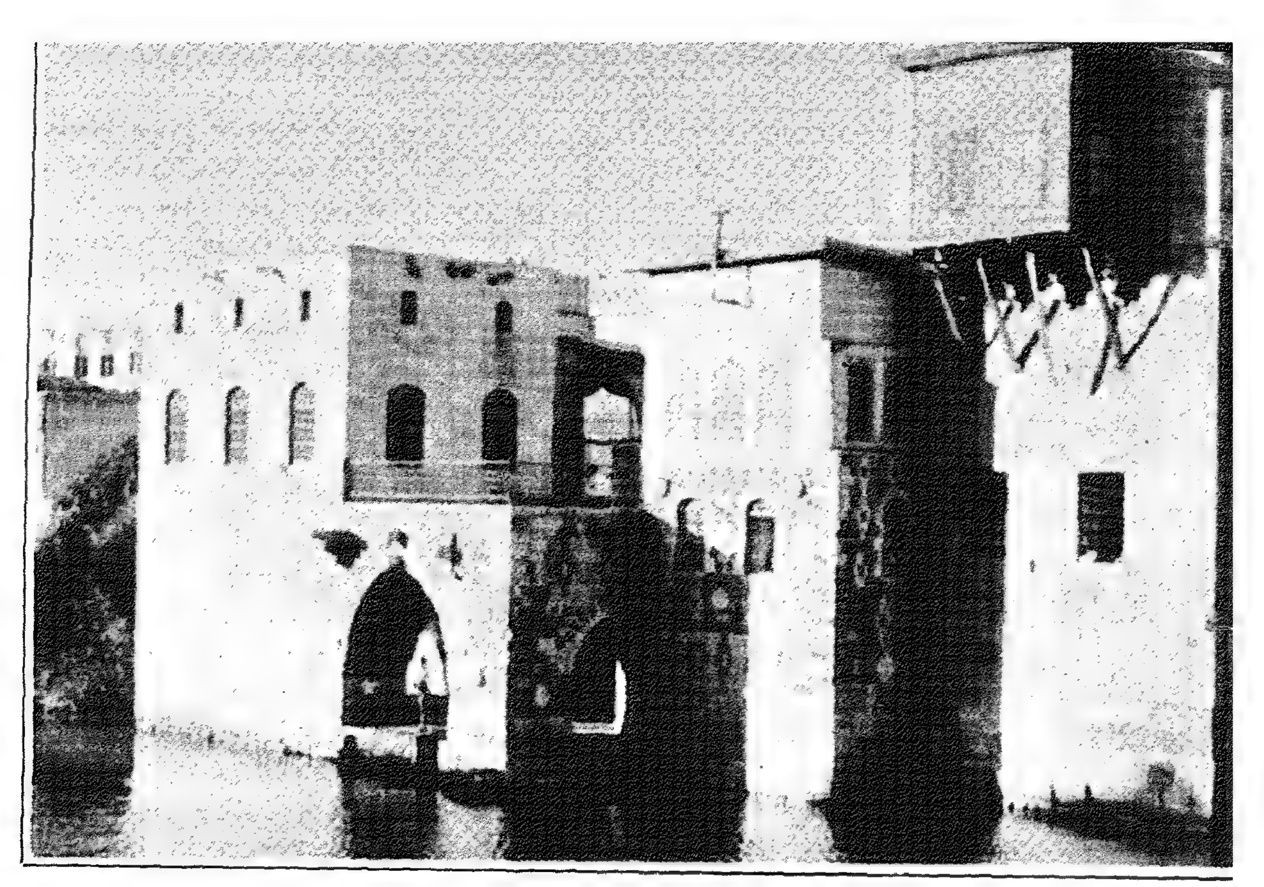
مات بالقاهرة بعد دخوله بأيام في المحرم سنة ٧٠٩.

مضت الرواية عنه، وأنشدنا ابن أبي الفتح لبعضهم:

ولقد عُرضت عليّ الملاح فلم أجد
قلبي يحبّ من الملاح سواه
معنى به تسبي العقول سوى
الذي تسمّى الجمال ولست أدري ما هو[٦٥]

٦٠ ــ المسلم بن محمد بن المسلم بن مكي بن علّان.

المُسْنِد الجليل الصادق العالم شمس الدين ابو الغنائم العنسي الدمشقي الكاتب. وُلد سنة ٥٩٤ وسمع من حنبل جميع المُسْنَد ومن ابن طبرزد والكِنْدي وابن الشريف وابن الحرستاني وآخرين، فسمع من الكِنْدي «تاريخ بغداد»، ومن ابن الحرستاني «صحيح مسلم»، ومن ابن طبرزد «الزهد» لابن المبارك، و «الترمذي»،



□ مدينة حلب.

وأخبرنا داود، وسمع «صحيح البخاري» من ابن مندويه، وأجاز له أبو طاهر الخشوعي والقاسم بن عساكر وأبو سعد الصفار، وعُمّر دهراً. وروى المُسْنَد ببعلبك وبدمشق. ومات في ذي الحجة سنة ٦٨٠، أجاز لي جميع مرويّاته، وكان سخيّاً سريّاً ديّناً، ولي نظر بعلبك[٦٦].

٦١ ــ منصور بن سليمان بن يوسف بن محبوب.

الشيخ الجليل عمادالدين البعلبكي، الكاتب على دار السُّكَّر. روى عن الرشيد العراقي والبلداني وابن خطيب القرافة والشيخ الفقيه. وُلد سنة ٦٤١ وهو شيخ بهيّ عاقل متديّن.

مات في ربيع الأول سنة ٧٢٤ أصله من خره بُغْلَة[٦٧].

٦٢ ــ موسى بن عبدالعزيز بن جعفر بن شمخ بن طارق.

الشيخ العالم المقرىء الصالح الزاهد البركة شمس الدين البعلبكي الأدفي الحنبلي. قرأ أكثر «مختصر الخرقي» على الشيخ الفقيه وسمع منه ومن غيره. مولده سنة ٣٦ أو في التي بعدها. ومات في ربيع الآخر سنة ٧٢٠[٦٨].

٦٣ ــ موسى بن الامام الرّباني الشيخ الفقيه تقي الدين محمد بن أبي الحسين احمد بن عبدالله.

الشيخ الجليل العالم النبيل قطب الدين ابو عمران اليونيني الحنبلي كبير البعلبكيين. وُلد في صفر سنة ٦٤٠ وسمع من أبيه، وبدمشق من ابن عبدالدائم، وشيخ الشيوخ محمد بن أبي العزّ بن الأنصاري، وبمصر من اسماعيل بن صارم وغيره. اختصر «التاريخ الكبير» الملقّب بـ «مرآة الزمان» ثم ذيّل عليه اربع مجلّدات. وكان كريم النفس والحديث حلو المحاضرة يرجع إلى دين في الجملة، نال عزّاً وجاهاً، فصديقه السلطان الملك المنصور سيف الدين، فأعطاه الآخر قرية وقطع رايتهم وما أنصفهم.

مات في شوال سنة ٧٢٦[٦٩].

٦٤ ــ مريم بن أحمد بن حاتم بن علي ام عيسى البعلية.

وُلدت سنة ٦٢١ وسمعت من البهاء عبدالرحمن حضوراً ومن الفخر الاربلي،

وعَرّضت في أواخر عمرها مدّة.

توفيت في رمضان سنة ٦٩٩[٧٠].

٦٥ ــ هدية بنت عبدالله بن مؤمن بن أبي الفتح، أم عبدالله الصورية.

اجاز لها أحمد المارستاني وعلي بن أبي الفخار وعبداللطيف بن القسطي.

توفيت في شوال سنة ٧١٩ وقد قاربت الثمانين. سمعنا منها مشيخة ابن أبي الفخار[٧١].

٦٦ ــ يحيى بن سليمان بن مروان بن البعلبكي.

الفقيه العدل الخيّر زين الدين أبو خليل الدمشقي الشافعي. روى عن ابن أبي اليُسر وغيره، وحفظ «التنبيه»، وكان له أملاك تكفيه.

مات سنة ٧١٥ وقد نيّف على السبعين[٧٢].

٦٧ ــ يوسف بن أبي عبدالله محمد بن يوسف بن سعد بن الحسن.

الفقيه البارع أقضى القضاة جلال الدين أبو المحاسن النابلسي ثم الدمشقي الشافعي معيد الشامية، ثم قاضي بعلبك ثم نابلس ثم بعلبك وبها مات. وكان ذا دين وخير وتقوى وتواضع، وكان ذا دين قويم ومعرفة بالمذهب. سمع من محمد بن محمد المجد الاسفرائيني والشرف المرسي وشيخ الشيوخ وابن عبدالدائم.

مات في رمضان سنة ٧١٠ وقد نيّف على السبعين[٧٣].

●

الحواشي

(١) ذيل تذكرة الحفّاظ ــ ص ٢٤.
(٢) طبقات الشافعية الكبرى ــ ج ٥/٢١٦.
(٣) فوات الوفيات ــ ج ٢/١٨٣.
(٤) مقدّمة سيَر اعلام النبلاء ــ ج ١/٢٥.
(٥) مقدّمة سير اعلام النبلاء ــ ج ١/٧٥ ــ ٩٠.
(٦) معجم الشيوخ ــ ج ١/٣ ب، وله ترجمة في الدُرر الكامنة لابن حجر ١/١٠١.
(٧) معجم الشيوخ ــ ج ١/٧ أ.
(٨) معجم الشيوخ ــ ج ١/٧ ب.
(٩) معجم الشيوخ ــ ج ١/٩ أ.
(١٠) معجم الشيوخ ــ ج ١/١٠ ب.
(١١) معجم الشيوخ ــ ج ١/٢٠ أ.
(١٢) معجم الشيوخ ــ ج ١/٢١ ب.
(١٣) معجم الشيوخ ــ ج ١/٢١ ب، ٢٢ أ، وله ترجمة في الدرر الكامنة ١/١٢١ و ١٢٢، الذهبي ومنهجه في كتابة «تاريخ الاسلام» ــ د. بشّار عوّاد معروف ــ ص ٨٩ (المتن والحاشية، ملحوظة ٨ ــ طبعة القاهرة ١٩٧٦، سير اعلام النبلاء (مقدّمة د. بشّار عوّاد معروف) ــ ج ١/٢٦ ملحوظة ٦ ــ طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

وأقول: إن المدرسة التي نزلها الذهبي هي المدرسة المعروفة بالشمسية القائمة على يسار البوّابة الرئيسة للجامع المنصوري الكبير بطرابلس، وبها ضريحان لاثنين من آل سُنْيْن المعروفة الآن بالمولوي. (أنظر كتابينا: تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك ــ ص ٣٣٤ ــ طبعة دار البلاد بطرابلس ١٩٧٤، وتاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور (عصر دولة المماليك) ــ ج ٢/٢٢٦ ــ طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١).

وقد نصّ ابن حبيب الحلبي في كتاب «تذكرة النبيه في سيرة الملك المنصور وبنيه» على أن المدرسة الشمسية هي للقاضي الاسكندري المذكور ــ ج ١/٣٣٤ ــ تحقيق د. محمد محمد امين ــ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٦.

وانظر: موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الاسلامي ــ وهي من إعدادنا ــ ق ٢ ــ ج ١/٢٧٥ رقم الترجمة ٩٢ ــ منشورات المركز الاسلامي للاعلام والانماء، بيروت.

(١٤) هو نائب السلطنة بطرابلس في عصر المماليك «سيف الدين أسندمر الكرجي». انظر عنه كتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ــ ج ٢/٣٤.
(١٥) معجم الشيوخ ــ ج١ / ٢٤ ب، وانظر عنه: تذكرة النبيه ١/٢٥١ و ٢٥٢، درّة الأسلاك ١/١٥٩، المنهل الصافي (مخطوط) ٥/١٦٦، السلوك للمقريزي ــ ج ٢ ق ١/١٧٨، تاريخ الحريري (مخطوط) ــ ج ١/١٠٧، النجوم الزاهرة ٩/٢٤٠، شذرات الذهب ٦/٤٣، نفح الطيب للمقّري ١/٣٤، تذكرة النبيه ٢/٨٥، عقد الجمان لبدر الدين العيني (مخطوط) ــ ج ٢٣ ق ١/١٢١ ــ ١٣٥، نهاية الأرب للنويري (مخطوط) ٣٠/١١٦، نثر الجمان للفيّومي (مخطوط) ٤/١٢١ أ، خطط الشام ٦/٣٧، الدرر الكامنة ١/٣٦٣ ــ ٣٦٥، الوافي بالوفيات للصفدي ٨/٢٩٧ و ٢٩٨، نفحات الأزهار على نسمات الأسحار لعبدالغني النابلسي ــ ص ٢٢٨، وكتابنا: تاريخ طرابلس ــ ج ٢/٤٥٣ ــ ٤٥٧.
(١٦) معجم الشيوخ ــ ج ١/٢٤ ب.

(١٧) معجم الشيوخ ــ ج ١/٢٦ أ ــ ب.
وأقول: إن الذهبي صحبه في رحلته إلى طرابلس، وكان البعلبكي ابن القرشية صديقاً لوالده. (انظر عنه: الدرر الكامنة ١/٢١).
(١٨) معجم الشيوخ ــ ج ١/٢٩ أ.
(١٩) معجم الشيوخ ــ ج ١/٢٩ ب.
(٢٠) معجم الشيوخ ــ ج ١/٣٤ أ.
(٢١) معجم الشيوخ ــ ج ١/٣٦ أ.
(٢٢) معجم الشيوخ ــ ج ١/٣٦ أ، طبقات الشافعية الكبرى ٥/٢١٦.
(٢٣) معجم الشيوخ ــ ج ١/٣٨ أ.
(٢٤) معجم الشيوخ ــ ج١/٤٠ب، وانظر: موسوعة علماء المسلمين، من إعدادنا ــ ق ٢ ــ ج ١/١٩٢ رقم الترجمة ١.
(٢٥) معجم الشيوخ ــ ج ١/٤١ ب.
(٢٦) معجم الشيوخ ــ ج ١/٥٠ ب.
(٢٧) معجم الشيوخ ــ ج ١/٥١ أ.
(٢٨) معجم الشيوخ ــ ج ١/٥٣ ب.
(٢٩) معجم الشيوخ ــ ج ١/٦٠ أ.
(٣٠) معجم الشيوخ ــ ج ١/٦٤ أ ــ ب.
(٣١) معجم الشيوخ ــ ج ١/٦٨ ب.
(٣٢) معجم الشيوخ ــ ج ١/٧٤ أ.
(٣٣) معجم الشيوخ ــ ج ١/٧٤ ب، طبقات الشافعية الكبرى ٥/٢١٦.
(٣٤) معجم الشيوخ ــ ج ١/٧٥ أ.
(٣٥) معجم الشيوخ ــ ج ١/٧٨ أ.
(٣٦) معجم الشيوخ ــ ج ١/٧٩ ب، ذيل العبر ١٧٥، طبقات المفسّرين للداودي ١/٢٨٢.
(٣٧) معجم الشيوخ ــ ج ١/٨١ ب.
(٣٨) معجم الشيوخ ــ ج ١/٨٣ أ.
(٣٩) معجم الشيوخ ــ ج ١/٨٦ أ.
(٤٠) معجم الشيوخ ــ ج ١/٨٧ ب.
(٤١) معجم الشيوخ ــ ج ١/٩٣ أ.
(٤٢) معجم الشيوخ ــ ج ١/٩٤ أ.
(٤٣) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٠٠ أ، البداية والنهاية ١٤/١٥٥، الدرر الكامنة ٣/١٢٣، السلوك ــ ج ٢ ق ٣/٤٢٦، تاريخ البرزالي (مخطوط) ٢٢٧، تذكرة النبيه ٢/٢١٢، شذرات الذهب ٦/٩٦ وانظر كتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ــ ج ٢/٥٨ رقم (١٠).
(٤٤) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٠١ ب، ١٠٢ أ.
(٤٥) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٠٢ ب، ١٠٣ أ، شذرات الذهب ٦/٣.
(٤٦) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١١٢ أ.
(٤٧) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١١٢ ب.
(٤٨) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١١٥ أ.
(٤٩) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١١٧ ب.
(٥٠) معجم الشيوخ ٢/١١٨ أ.
(٥١) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١١٩ ب، مرآة الجنان لليافعي ٤/٢٥٥، من ذيل العبر ٨٩، تذكرة الحفاظ ٣/٨٨٣.
(٥٢) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٢٦ أ.
(٥٣) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٢٦ أ ــ ب.
(٥٤) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٣٤ أ ــ ب.
(٥٥) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٣٦ أ.
(٥٦) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٣٨ أ.
(٥٧) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٤٢ ب.
(٥٨) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٤٥ب.
(٥٩) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٥٠ أ.
(٦٠) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٥٣ ب.
(٦١) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٦٦ ب، المشتبه في الرجال ١/٤٨.
(٦٢) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٦٨ ب.
(٦٣) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٦٨ ب، أعيان القصر (مخطوط) ــ ج ٦ ق ١/٧٨ و ٧٩، ذيل تذكرة الحفاظ ٣٩ و ٤٣، التنبيه والايقاظ لما في ذيول تذكرة الحفاظ ــ ص ١٩، تذكرة النبيه ١/٢٨٢، الوافي بالوفيات ٤/٩٤، درّة الحجال في أسماء الرجال لابن الفرضي ٢/٢٩٨، طبقات الشافعية الكبرى ٣/٣٧، ذيل مشتبه النسبة للذهبي ــ السلامي ــ ص ٢٥، من ذيول العبر ٤٠، إنباء الغمر في أبناء العُمر ١/٧٩ و ١٣٤ و ١٦١ و ٤٢٩ و ٥٣٦، شذرات الذهب ٦/١٦ وانظر كتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ــ ج ٢/٤٧٩.
(٦٤) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٦٩ أ وقال الذهبي في كتابه: معرفة القراء الكبار ٢/٥٦٧ و ٥٦٨: «قلّ من رأيت بفصاحة محمد بن محمد بن علي المعروف بابن أبي العلاء النصيبي شيخ الاقراء بالجامع الكبير والخانقاه ببعلبك، وعنه أخذت التجويد وقرأت عليه للسبعة من نحو من خمسين يوماً في سنة ٦٩٣ ولما سافرت إلى بعلبك وتعوّقت بالقراءة على الموفّق بن ابي العلاء وثب على حلقتي محمد بن أحمد بن علي الامام المقرىء الفقيه شمس الدين أبو عبدالله الرقي الدمشقي الحنفي الأعرج فأخذها لكوني لم أستأذن الحاكم في الغيبة».
(٦٥) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٦٩ أ.
(٦٦) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٧٣ أ.
(٦٧) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٧٤ أ.
(٦٨) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٧٤ ب.
(٦٩) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٧٥ أ.
(٧٠) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٧٥ ب.
(٧١) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٧٨ ب.
(٧٢) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٨٠ ب.
(٧٣) معجم الشيوخ ــ ج ٢/١٨٦ أ.

السلوك الطبي
للأطباء العرب والمسلمين

د. محمود الحاج قاسم محمد

السلوك الطبي أو الأدب الطبي ــ نعني به هنا ما يجب على الطبيب من التزامات أخلاقية في حياته الاجتماعية والعملية مع مرضاه والتزامات مهنية تجاه زملائه من الأطباء. والالتزامات الأخلاقية في ممارسة الطب هذه نشأت مع نشأة الطب حيث وضعت لها المجتمعات مع مر العصور قوانين جائرة بحق الطبيب ومنها مقبولة ما زال الطبيب يلتزم بها حتى اليوم.

وبغية إعطاء صورة واضحة المعالم عن دور العرب والمسلمين، ابان نهضتهم في العصور الوسطى، في ذلك سوف نتكلم عن خمس مسائل تشكل في مجموعها النظام المتميز للسلوك المهني للأطباء العرب والمسلمين.

أولاً ــ المسؤولية الطبية:



عرف المصريون القدماء المسؤولية الطبية، وسجلوا شروط ممارسة المهنة في كتبهم، فكان على الطبيب ممارسة مهنته بموجبها، أما إذا خالفها فكان جزاؤه الاعدام.

أما الآشوريون فكانوا أقل شدة من غيرهم حيث كان على الطبيب إذا أخطأ ولم يستطع علاج مريض أن يطلب العفو من الآلهة على ذلك بينما كان البابليون أكثر قسوة منهم على الأطباء حيث يتبين ذلك جلياً في بعض بنود قانون حمورابي.

جاء في البند (٢١٨) «إذا عالج الطبيب جرحاً بليغاً أصيب به رجل ــ بمبضع معدني ــ وسبب موته، وإذا شق ورماً بمبضع جراحي معدني وعطل عين الرجل، تقطع يده».

وجاء في البند (٢١٩) «إذا عالج طبيب عبد رجل من عامة الشعب بمبضع جراحي وسبب موته من الجرح، عليه أن يعطي سيده عبداً بعبد».

وجاء في البند (٢٢٠) «إذا شق الطبيب الورم ــ بمبضع معدني جراحي وعطل عين المريض، يدفع نصف قيمة العين فضة».

وعند الاغريق كان الطبيب يسأل جنائياً في أحوال الوفاة التي ترجع إلى نقص خطأ غير

□ د. محمود الحاج قاسم محمد. «عضو الجمعية الدولية لتاريخ الطب».



□ استشارة طبية من مخطوطة قديمة تعود إلى القرن الرابع عشر (المتحف الوطني ـ القاهرة)

النقص في كفايته. وجاء في القانون الروماني «إذا كان الموت لا يصح أن ينسب إلى الطبيب فإنه يجب أن يعاقب على الأخطاء التي يرتكبها نتيجة جهله، وأن من يغشون أولئك الذين يكونون معرضين للخطر، لا يصح أن يخلّوا من المسؤولية، بحجة ضعف المعارف البشرية».

أما في أوروبا في العصور المظلمة فقد جاء في القانون الكنسي عند القوط الشرقيين ــ اذا مات المريض بسبب عدم عناية الطبيب، أو جهله يسلم الطبيب إلى أسرة المريض ويترك لها الخيار بين قتله أو اتخاذه رقيقاً. والقوط الغربيون يعدّون الأتعاب التي تعطى للطبيب مقابلة الشفاء فإن لم يشف المريض، اعتبروا العقد غير منفذ، ولا يسأل الطبيب عن وفاة المريض إذا لم يثبت حصول الأخطاء وفي عهد الصليبيين كانت المحاكم في بيت المقدس، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تعتبر الطبيب مسؤولاً عن جميع أخطائه وجميع إهمالاته فإذا توفي الرقيق بسبب جهل الطبيب فإنه يلتزم بدفع ثمنه لسيده، ويترك المدينة أما إذا كان المجني عليه حراً وكانت المسألة تتعلق بجرح بسيط أو سوء عناية لم يترتب عليه الموت، تقطع يد الطبيب ولا تدفع أتعابه أما إذا مات المريض فيشنق الطبيب[١].

هذه القساوة دعت الأطباء في كثير من الأحيان، أن يحجموا عن التطبيب أو يشترطوا شروط عدم المسؤولية، كما حصل فيما رواه غليوم دي تيبر.

من أن الملك أموري الأول من ملوك أورشليم (١١٦٢ ــ ١١٧٣) أصيب بمرض خطير، ولكن الأطباء من أهل البلد رفضوا أن يعالجوه فلجأ إلى الأطباء الأجانب، فاشترطوا عليه أن يعدهم بعدم ترتيب أي عقاب عليهم في حال عدم نجاحهم[٢].

إن هذه القصة تشير إلى كون العقوبات التي ذكرناها لم تكن مطبقة بشكل دائم وإنما كانت الحد الأقصى لمعاقبة الطبيب.

المسؤولية الطبية في الشريعة الاسلامية[٣]

إن المسؤولية الطبية لم تكن معروفة في الشريعة الاسلامية فحسب، بل كان لها فيها من القواعد الدقيقة ما يجعل تنظيمها في جوهره اقرب ما يكون إلى أحدث ما وصلت إليه أرقى الشرائع المدنية في العصر الحديث، وها هي بعض النصوص الواردة في هذا الصدد ــ القاعدة الشرعية ــ إن كل من يزاول عملاً أو علماً لا يعرفه يكون مسؤولاً عن الضرر الذي يصيب الغير نتيجة هذه المزاولة وقد جاء في الحديث «من تطبب ولم يكن بالطب معروفاً فأصاب نفساً فما دونها فهو ضامن» ويختلف الأمر من ناحية المسؤولية المدنية، بين الطبيب الجاهل والطبيب الحاذق، فعلماء الشريعة ينفون المسؤولية المدنية عن الطبيب الجاهل، إذا كان المريض يعلم أنه جاهل لا علم له، وأذن له بعلاجه رغم ذلك.

أما الطبيب الحاذق، فلا يسأل عن الضرر الذي يصيب المريض ولو مات المريض من جراء العلاج، ما دام المريض قد أذن له بعلاجه ولم يقع من الطبيب خطأ في هذا العلاج، بل كان الضرر أو الموت نتيجة أمر لا يمكن توقعه أو تفاديه. وعلى هذا اتفق الفقهاء على أن الموت إذا جاء نتيجة لفعل واجب مع الاحتياط وعدم التقصير، لا ضمان فيه.

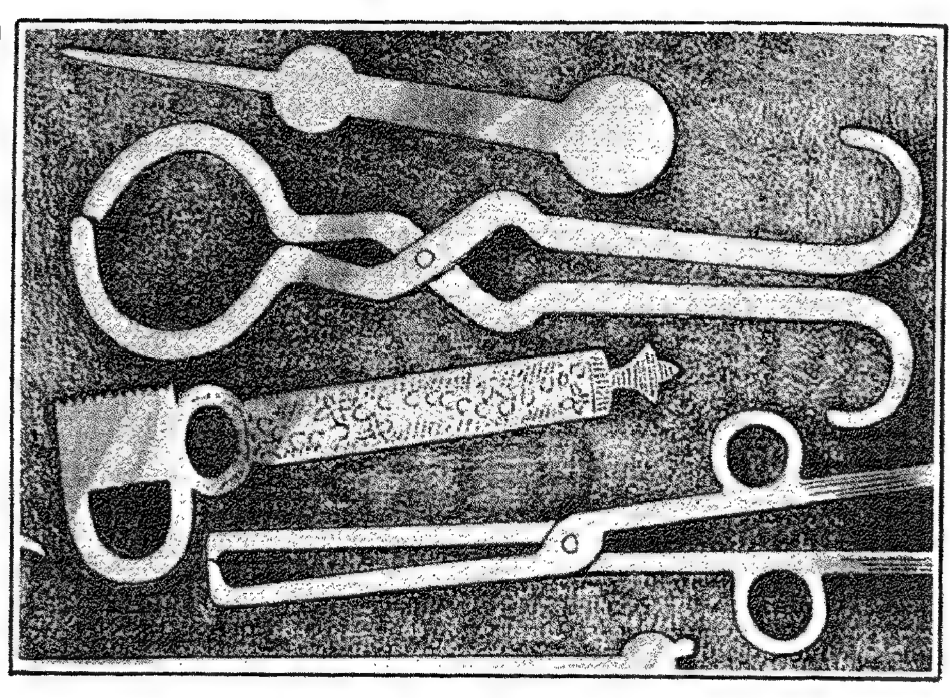
ويمكن القول بأن الطبيب تنتفي مسؤوليته في الشريعة الاسلامية للأسباب التالية:

١ ــ إضفاء صفة الوجوب على عمله: لأن التطبب فرض غير قابل للسقوط في الأماكن التي ليس فيها طبيب ــ فهو إذاً يقوم بعمله إنما يقوم بواجب ملقى عليه، وله حرية كاملة في اختيار هذا العمل واختيار الطريقة التي يرى فيها صلاحها للمريض.

٢ ــ حسن النية: الطبيب إذ يؤدي عمله، إنما يؤديه بحسن النية هذا هو المفروض والمتطلب منه، فهو بعمله إنما يقصد نفع المريض، لا ضرره. أما إذا كان سيىء النية، او قصد قتل المريض، فهو في عمله مسؤول عن فعله جنائياً ومدنياً حتى ولو لم يؤد فعله إلى الوفاة أو إلى إحداث عاهة.

٣ ــ إذن المريض: يعتبر إذن المريض موافقة، وسماحاً للطبيب بأن يأتي الفعل، والعبرة بإذن المريض لا شخصه بالذات بل قد يأذن وليه

□ ادوات طبية استعملها الأطباء العرب القدماء.



أو وصيه أو الحاكم عند عدم وجود الوصي أو الولي.

٤ ــ إذن ولي الأمر: المراد هنا بإذن ولي الأمر، هو السماح للطبيب بمباشرة عمله بصفة عامة، كإذن وزارة الصحة أو النقابة في إجازة الطبيب بالعمل، ذلك أن الشريعة الاسلامية تشترط في الطبيب، أن يكون على درجة مهنية من الفهم العلمي.

وأن يكون على جانب من الكفاءات تؤهله لأن يباشر التطبيب ويرد معيار الكفاءات إلى ولي الأمر.

إذا توفرت هذه الشروط، فإن الطبيب يعفى من المسؤولية ولو ألحق الضرر بالمريض، لطالما أنه لم يكن قاصداً إلا الاصلاح والنفع العام له، أما إذا انعدم شرط من هذه الشروط عد الفاعل مسؤولاً عن عمله، ووجب عليه التعويض.

مما لا شك فيه أن القوانين الوضعية تتفق مع الشريعة الاسلامية في اعتبار التطبيق عملاً مباحاً، كما تتفق مع الشريعة التي تمنع المسؤولية فتستلزم أن يكون الفاعل طبيباً، وأن يأتي الفعل بقصد العلاج وبحسن النية، وأن يعمل طبقاً للأصول الفنية، وأن يأذن له المريض في الفعل. وتعتبر القوانين الوضعية التطبيب حقاً، بينما تعتبره الشريعة واجباً، ولا شك أن نظرية الشريعة أفضل لأنها تلزم الطبيب بأن يضع مواهبه في خدمة الجماعة، كما أنها أكثر انسجاماً مع حياتنا الاجتماعية القائمة على التعاون والتكاتف وتسخير كل القوى لخدمة الجماعة.

وهذه الحصانة المحددة المعالم التي تمتع بها الأطباء العرب في ظل الشريعة الاسلامية كانت خير دافع لممارسة مهنة الطب بكل حرية مما دفع الكثيرين إلى الابداع دون خوف من عقاب أو اضطهاد وأوقف الكثيرين من المتطفلين على هذه المهنة من ممارستها. وأن ما جاء في كتب الحسبة في الأجزاء الخاصة بالأطباء تظهر الصورة التي كان الأطباء يتعاملون فيها مع مرضاهم، وحدود مسؤولية الطبيب، فعلى سبيل المثال جاء في كتاب معالم القربة في طلب الحسبة لابن الاخوة من جملة ما ذكره[٤].

«وينبغي للطبيب إذا دخل على المريض، وسأله عن سبب مرضه وعن ما يجد من الألم، ثم يرتب قانوناً (ويعني وصفة) من الأشربة وغيره من العقاقير ثم يكتب نسخة لأولياء المريض بشهادة من حضر معه عند المريض، وإذا كان من الغد حضر ونظر إلى دائه ونظر إلى قارورته (ويعني أدراره)، وسأل المريض هل تناقص به المرض أم لا . ثم يرتب له ما ينبغي على حسب مقتضى الحال، ويكتب له نسخة ويسلمها لأهله، وفي اليوم

الثالث كذلك، وفي اليوم الرابع كذلك إلى أن يبرأ المريض أو يموت، فإن برىء من مرضه أخذ الطبيب أجرته وكرامته، وإن مات حضر أولياؤه عند الحكيم المشهور وعرضوا عليه النسخ التي كتبها لهم الطبيب، فإن رآها على مقتضى الحكمة، وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب، قال هذا قضاء بفروغ أجله وإن رأى الأمر بخلاف ذلك، قال لهم خذوا دية صاحبكم من الطبيب فإنه هو الذي قتله بسوء صناعة الطب وتفريطه فكانوا يحتاطون على هذه الصورة الشريفة إلى هذا الحد حتى لا يتعاطى الطب من ليس من أهله، ولا يتهاون الطبيب في شيء منه.

ثانياً ـ الرقابة الطبية:

إن الحرية العظيمة التي تمتع بها الأطباء العرب والمسلمون لم تكن فوضى بل كانت محددة المعالم كما ذكرنا، وبغية الالتزام بالاطار العام لممارسة مهنة الطب وضعوا أساس [illegible]قابة الطبية على نحو عصري مما نقوم به اليوم فسرعوا لذلك نظاماً حددوا الأركان التي يجب أن يدور عليها علاج الطبيب وتدبيره وهي «١ ـ حفظ الصحة الموجودة. ٢ ـ رد الصحة المفقودة بحسب الامكان. ٣ ـ إزالة العلة أو تقليلها بحسب الامكان. ٤ ـ تفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعظمهما»[٥].

وأناطوا تطبيق ذلك بالمحتسب في ديوان الحسبة[٦] الذي كان إضافة لواجباته الأخرى في مراقبة مرافق الدولة يقوم بمراقبة الصحة العامة والسلوك المهني للأطباء والصيادلة. ويقوم ايضاً باختبارهم ومنحهم إجازة الممارسة بعد أداء القسم الطبي أمامه، وكان له حق حجب الاجازة ممن يجد منه تقصيراً أو عجزاً، وتحميل المقصر مسؤولية فعلته.

وقد تعرضت كتب الحسبة بإسهاب إلى كل هذه المراقبة ووسائلها وطرقها إلى أن تتوغل في أعماق علم الطب وتفاصيله ومجال مراقبتها إجرائياً ومهنياً وأخلاقياً ولعلها قد ضبطت في هذه العناصر التالية[٧]:

١ ـ التعريف بالطبيب وتحديد مسماه علمياً.

٢ ـ أن يترأس الأطباء حكيم مشهور بحكمته كثير الحرمة بالغ التجربة بعد أدائه يميناً قاطعة لا كفارة فيها.

٣ ـ تحديد طريقة امتحان معلومات كل صنف من أصناف الأطباء والمواد العلمية التي يجب أن تتوفر في كل من يجاز ويؤذن له بالطبابة.

٤ ـ ما يجب أن يفعله الطبيب عند مباشرته لمريضه.

٥ ـ اللجوء إلى تحكيم رئيس الأطباء في طريقة المعالجة عند حدوث ما يدعو لذلك.

٦ ـ تضمين الطبيب ومسألته قضائياً.

٧ ـ على المحتسب أن يأخذ عهد ابقراط على الطبيب المجاز.

فعلى سبيل المثال ـ جاء في الحسبة على الأطباء والكحالين والجراحين والمجبرين قول ابن الأخوة[٨] فيما يخص الأطباء وصناعتهم: «وينبغي للمحتسب أن يأخذ عليهم عهد ابقراط الذي أخذه على سائر الأطباء، ويحلفهم على أن لا يعطوا أحداً دواء مراً ولا يركبوا له سمعاً، ولا يصنعوا له تمائم عند أحد العامة، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل، وليغضوا من أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولا يفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار، ولا يتعرضوا لما ينكر عليهم فيه».

وكانت مهنة الطب مهنة جليلة لها حرمة يحاسب ممارسوها إن استهانوا بها، ومن ذلك ما رواه ابن أبي أصيبعة (١٢٦٩ ـ ١٣٠٣م) عن أحد الأطباء الأجلاء وهو جمال الدين بن أبي الحوافر رئيس الأطباء في مصر زمن الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي قال «وحدثني بعض أصدقائه قال، كان يوماً راكباً فرأى في بعض النواحي على مسطبة بياع حمص مسلوق وهو قاعد وقدامه كحال يهودي، وهو واقف وبيده المكحلة والميل وهو يكحل ذلك البياع فحين رآه على تلك الحال ساق بغلته نحوه وضربه بالمقرعة على رأسه، وشتمه. وعندما مشى معه قال له إذا كنت أنت سفلة في نفسك، أما للصناعة حرمة، كنت قعدت إلى جانبه وكحلته ولا تبقى واقفاً بين يدي عامي



□ صفحة من رسالة تبحث في الطب، تعود للقرن الرابع عشر ميلادي (المتحف الوطني ـ دمشق)

بياع حمص، فتاب أن يعود لفعل ذلك الفعل وانصرف»[٩].

ثالثاً ــ صفات الطبيب:

من الحقائق الملفتة في مبادىء أخلاقيات وسلوك الطبيب عند العرب والمسلمين إضافة لتحديد مسؤوليته والرقابة عليه وضعهم الصفات الدقيقة الملزمة واللائقة بالطبيب الماهر الحاذق لأنه كما يقول الانطاكي «الطب أشرف العلوم موضوعه البدن الذي هو أشرف الموجودات، إذ العلوم لا تشرف إلا بمسيس الحاجة أو شرف الموضوع فما ظنك باجتماعهما»[١٠] وكما يقول رشيدالدين علي بن خليفة (مولده ٥٧٩هـ) «الطبيب مدبر لبدن الانسان من حيث هو مقارن نفسه لا من حيث هو بدن إنسان بالقول المطلق. وهذا التركيب من أشرف التراكيب ينبغي أن يكون معانيه من أشرف الناس»[١١].

وقبل ذكر التفصيلات التي ذكرها الأطباء العرب حول صفات الطبيب لا بد من تبيان وجهة النظر الاسلامية حول ذلك[١٢] من المعلوم «بأن الاسلام يهدف إلى تكوين الذات الاسلامية منذ الطفولة بحيث يمتزج الخلق الاسلامي مع تكوين الفرد وطباعه والطبيب المسلم الذي يحمل أمانة الاسلام أولاً وأمانة المحافظة على صحة المسلمين ودفع الضرر عنهم ثانياً أولى الناس أن تكون تربيته إسلامية وسلوكه محمدياً والتزامه بخلق الاسلام جزءاً من طبعه يمارسه بلا تكلف في جهره وعلانيته.

هذه القاعدة الأساسية تندرج تحتها كل الفضائل والأخلاقيات التي أوصى بها القرآن والرسول الكريم والتي لا يتسع المجال لذكر نصوصها هنا، ومنها (الصبر، الاحسان في العمل، الكلام الطيب، الابتسام، الحياء، الرحمة، الرفق، التواضع، الصحبة الحسنة) وهناك بعض الجوانب الأخلاقية المعينة تمس عمل الطبيب أكثر من غيره ويلزمه أن يتذكر دائماً حكم الاسلام فيها من ذلك:

١ ــ غض البصر: يقول القرآن الكريم «قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم» (سورة النور آية ٣٠) فلا يجوز أن يكون الترخيص بالاطلاع على عورات الناس عند الضرورة مبرراً للتخلي عن الحياء الواجب على كل مسلم. وعلى الطبيب ألا يطلع إلا على ما هو ضروري. وأن يراعي حرمة الميت كما يراعي حرمة الحي.

٢ ــ لا يجوز إخبار المريض بخطورة مرضه ولو كان ميؤوساً من شفائه قال (ص) «إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في أجله فإن ذلك لا يرد شيئاً ويطيب نفسه». (رواه الترمذي وابن ماجة).

٣ ــ وتطبيقاً للقاعدة الشرعية (لا ضرر ولا ضرار) (رواه أبو داود وابن حنبل) فإن الطبيب عليه أن يحفظ المريض المصاب بمرض معد ويدعوه إلى الاعتكاف لمنع الضرر عن المسلمين، فعندما علم الرسول (ص) أن مريضاً بالجذام قادم إليه ليبايعه مع المسلمين أرسل إليه ليرجع قائلاً «إرجع فقد بايعناك». (صحيح مسلم).

٤ ــ الطبيب في مهنته معرض للاطلاع على أسرار المريض فيجب أن يتخلق بخلق الاسلام في هذا المجال «من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة». (صحيح مسلم).

وإذا استشاره المريض فليلتزم بالأمانة في إبداء المشورة وليحافظ على ما استشير فيه فالرسول يقول «المستشار مؤتمن».

٥ ــ فحص الطبيب للمريضة يجب أن تحضره ممرضة أو أحد محارم المريضة تطبيقاً لقوله (ص) «لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم» (صحيح البخاري).

٦ ــ ألا يقدم على ممارسة المهنة إلا إذا كان مطمئناً إلى كفايته لتنفيذها فالرسول (ص) يقول «لا حكيم إلا ذو تجربة» ويحترم التخصص المهني تنفيذاً لقول (ص) «من تطبب ولم يعلم عنه طب فهو ضامن» (سنن أبي داود) ويحافظ على كفاءته العلمية بالتعليم المستمر يقول (ص) «الحكمة ضالة المؤمن أن وجدها ينشدها» (جامع الترمذي).

٧ ــ توجيه عمله لله حتى يثاب عليه، وتجنب ما حرم الله في العلاج لقوله (ص) «ما جعل الله شفاءكم فيما حرم عليكم» وتجنب الممارسات كالاجهاض والوشم قال (ص) «لعن الله

الواشمات والمتوشمات والواشرات والمتوشرات».

٨ ــ أن يتعامل مع زملائه الأطباء على أسس من تعاليم الاسلام فيتجنب الغيبة والتجريح ويحترم الكبير ولا يتعالى على الصغير ويقدم النصح لمن يحتاجه وأن يسعى لتعليم زملائه الأقل خبرة يقول (ص) «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» (صحيح مسلم).

والآن لنتكلم عن صفات الطبيب على ضوء ما جاء عند الأطباء العرب والمسلمين، عندما وضع الدارسون الأقدمون من أطباء ومؤرخين وفقهاء تصوراتهم الواقعية المقبولة لهذا الفرد صاحب المكانة الخاصة المتميزة في المجتمع كان رائدهم الاقتداء بالقيم السمحة والمبادىء السامية التي جاءت بها الشريعة الغراء، وبتجارب المؤرخين السابقين في الدول التي سبقت الدولة الاسلامية.

ولأجل تهيئة من سيقوم بشرف معالجة هذه النفس البشرية التي كرمها الله سبحانه وتعالى بقوله «ولقد كرمنا بني آدم» أجمعوا على وجوب تحلي الطبيب ببعض القواعد الأخلاقية الكريمة والآداب المهنية العالية، إضافة للكفاءة العلمية، ويمكن تفصيل كل ذلك بما يلي:

١ ــ الشهادة الطبية وإجازة ممارسة المهنة:

من الالتزامات المطلوبة اليوم من الطبيب أن يكون كفوءاً في مزاولته مهنته من الوجهة العملية والعلمية وأول شارات الكفاءة هذه حصوله على الشهادة الطبية حيث بدونها لا يمكن أن يحصل على إجازة ممارسة المهنة. والمشرفون على أمور الدولة العربية الاسلامية تنبهوا إلى ضرورة ذلك وكان الخليفة المقتدر العباسي أول من سن هذا النظام، والسبب الذي دعاه إلى إيجاد هذا النظام ما رواه ابن أبي أصيبعة على لسان سنان بن ثابت بن قرة رئيس الأطباء في عصره «لما كان عام ٣١٩هـ ــ ٩٣١م، اتصل بالمقتدر أن غلطاً جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل، فأمر الخليفة إبراهيم بن محمد بن بطيحة المحتسب بمنع سائر المتطببين من التصرف إلا من امتحنه سنان بن ثابت بن قرة، وكتب له رقعة بخطه يطلق له التصرف فيه من الصناعة»[١٣].

٢ ــ القَسَم الطبي:

لقد اشترطوا على كل من يريد ممارسة الطب ان يؤدي قَسَماً طبياً يقطع به عهداً على نفسه بتطبيق بنوده.

والقَسَم هذا شمل أغلب بنود وفقرات قسم ابقراط المعروف مع تغيير وتحوير فيه جعله أوفى تقنيناً لآداب المهنة وأكثر ملاءمة للمفاهيم الاسلامية الداعية للطهارة والفضيلة في ممارسة مهنة الطب. ولم يلتزم الجميع بقسم واحد ثابت بل نرى في كتبهم أنماطاً مختلفة لها تدور جميعها في نفس المفهوم الأدبي والأخلاقي مشددة على الالتزام بقدسية المهنة وعدم الخروج عن حدودها المرسومة.

فقسم ابقراط جاء ذكره عند ابن أبي أصيبعة كما يلي «قال ابقراط، إني أقسم بالله رب الحياة والموت، وواهب الصحة وخالق الشفاء وكل علاج. واقسم بأسقلبيوس وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعاً، وأشهدهم جميعاً على أني أفي بهذا اليمين وهذا الشرط وأرى أن المعلم لي هذه الصناعة بمنزلة آبائي، وأواسيه في معاشي وإذا احتاج إلى مال واسيته وواصلته من مالي. وأما الجنس المتناسل منه فأرى أنه مساو لاخوتي، وأعلمهم هذه الصناعة إن احتاجوا إلى تعلمها بغير أجرة ولا شرط وأشرك أولادي وأولاد المعلم لي والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط وحلفوا بالناموس الطبي في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصناعة، وأما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك وأقصد في جميع التدبير بقدر طاقتي منفعة المرضى، وأما الأشياء التي تضر بهم وتدني منهم بالجور عليهم فأمنع منها بحسب رأيي، ولا أعطي إذا طلب مني دواء قتالاً، ولا أشير أيضاً بمثل هذه المشورة، وكذلك أيضاً لا أرى أن أدني من النسوة فرزجة تسقط الجنين وأحفظ نفسي في تدبيري وصناعتي على الزكاة والطهارة، ولا أشق أيضاً عمن في مثانته حجارة، ولكن أترك ذلك إلى من كانت حرفته هذا العمل، وكل المنازل التي أدخلها إنما أدخل إليها لمنفعة المرضى، وأنا بحال خارجة عن كل جور وظلم وفساد إرادي مقصود إليه في سائر

الأشياء، وفي الجماع للنساء والرجال الأحرار منهم والعبيد، وأما الأشياء التي أعانيها في أوقات علاج المرضى، أو أسمعها أو في غير أوقات علاجهم في تصرف الناس من الأشياء التي لا ينطق بها خارجاً فأمسك عنها، وأرى أن أمثالها لا ينطق به، فمن أكمل هذه اليمين ولم يفسد منها شيئاً كان له أن يكمل تدبيره وصناعته على أفضل الأحوال وأجملها وأن يحمده جميع الناس فيما يأتي من الزمان دائماً، ومن تجاوز ذلك كان بضده»(١٤).

وسرد مهذب الدين علي بن أحمد بن هبل البغدادي (المتوفي سنة ٦١٠هـ) قواعد الحكمة التي يستوجب أن يتحلى بها الطبيب والتي يقول بأنه عاهد الله تعالى على ذلك. نوجز فيما يلي بعضاً منها:

١ ـ أن يكون تعلمه إياها طالباً بها وجه الله تعالى وحسن ثوابه.

٢ ـ وأن يتوفر الطبيب على من يستطع أن يفي بواجب تدبيره منهم وأن يمشي إلى ضعفائهم ولا يتكبر على فقرائهم ولا يستنكف عن مداواة من أنهكته الأغلال وكثرت به الجراحات والمواد استقذاراً.

٣ ـ أن لا يلتمسوا ـ الأطباء ـ من المرضى إلا أن يعطوا من غير طلب وأن يستعينوا بما يصل من أغنيائهم على مداواة الضعفاء الذين تتعذر عليهم الأدوية.

٤ ـ وأن يلقوا المرضى بالهشاشة والبشاشة والايناس.

٥ ـ وأن لا يعزب في ذكر الأدوية عن المشهور. وأن يكون من عمل هذه الصناعة متقرباً بنصحه إلى الله تعالى لا إلى الخلق.

٦ ـ أن لا يصفوا الأدوية لاسقاط الأجنة ولا ما يمنع الحبل لقطع النسل إلا أن يدعو إلى ذلك أمر عظيم خشي منه هلاك المرأة في الحمل والوضع.

٧ ـ وأن لا يعطوا السموم لغرض وسخط ولا يتخذوها ولا يعلموها ولا يتعلموها إلا في معرض مداواة من لعله يشفى منه.

٨ ـ يأخذون عليهم العهود في حفظ الأسرار فإنهم يطلعون على ما لا يطلع عليه الآباء والأولاد من أحوال الناس.

٩ ـ وأن يلزموا العفة وغض الطرف وإذا دخلوا بيوت الناس لا تكون همتهم مصروفة إلا إلى ما يعود بمصالح المرضى(١٥).

٣ ـ اتقان العمل ومتابعة التحصيل العلمي:

أعطى الأطباء العرب والمسلمون مسألة اتقان العمل والمحافظة على مستوى جيد في مزاولة مهنة الطب أهمية قصوى لأن المسألة تتعلق بحياة الانسان وموته. يقول الكندي «ليتق الله تعالى المطبب، ولا يخاطر فليس عن الأنفس عروض، فكما يجب أن يقال أنه كان سبب عافية المريض وبرئه، وكذلك أن يحذر أن يقال أنه كان سبب علته وموته».

ونصائح الرازي (٢٥١ ـ ٣١٣هـ) لطلاب الطب والأطباء، شملت إلى جانب قراءة الكتب والمطالعة والتتبع تأكيدات على ضرورة تحكيم العقل والاعتماد على التجربة الشخصية لكي تؤتي المعالجة ثمارها فيقول:

«الاستكثار من قراءة كتب الحكماء، والوقوف على أسرارهم نافع لكل حكيم عظيم الخطر».

«متى كان اقتصار الطبيب على التجارب، دون القياس، وقراءة الكتب خذل».

«ما اجتمع الأطباء عليه، وشهد عليه القياس، وعضدته التجربة فليكن أمامك».

«الحقيقة في الطب غاية لا تدرك والعلاج بما تنصه الكتب دون إعمال الماهر الحكيم برأيه خطر»(١٦).

ويؤكد علي بن العباس (من أبناء القرن العاشر الميلادي) نفس المعني عندما يتكلم عن صفات الطبيب الجيد حيث يقول: «ولا ينبغي أن يكون أكثر تشاغله إلا بقراءة الكتب والحرص على النظر فيها أعني كتب الطب، ولا يمل من ذلك ولا يضجر منه في كل يوم ويلزم نفسه حفظ ما قرأه...».

«ومما ينبغي لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازماً للبيمارستان ومواضع المرضى كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم مع الأستاذين من الحذاق من الأطباء»(٧).

وشدد الرازي على مسألة الخبرة الشخصية في معالجة المرضى محذراً المريض من الأطباء

المقلدين والأحداث منبهاً الأطباء على عدم التسرع ومساءلة المريض بشكل تفصيلي عن المرض يقول: «الأطباء الأميون والمقلدون، والأحداث الذين لا تجربة لهم، ومن قلت عنايته وكثرت شهواته قتالون»(١٨).

ويقول في كتاب الفصول «ومن أبلغ الأشياء فيما يحتاج إليه في علاج الأمراض بعد المعرفة الكاملة بالصناعة، حسن مساءلة العليل وأبلغ من ذلك لزوم الطبيب العليل، وملاحظة أحواله. ومن ذلك أنه ليس كل عليل يحسن أن يعبر عن نفسه..»(١٩) ومن وصايا رشيدالدين علي بن خليفة «الأمراض لها أعمار، والعلاج يحتاج إلى مساعدة الأقدار، وأكثر صناعة الطب حدس وتخمين وقلما فيه اليقين. وجزآها القياس والتجربة لا السفسطة وحب الغلبة ونتيجتها حفظ الصحة إذا كانت موجودة وردها إذا كانت مفقودة وفيها يتبين سلامة الفطر ودقة الفكر، ويتميز الفاعل عن الجاهل، والمجد في الطب عن المتكاسل، والعمال بمقتضى القياس والتجربة، عن المحتال على اقتناء المال وعلو المرتبة»(٢٠).

ومن أقوال عبدالله الاشبيلي الحريري (٥٩١ ــ ٦٤٦هـ) في صفات الكحال «وأن يكون قد أنفق زمانه في تحصيل صناعته وخدم المشائخ وعمل بين أيديهم فإن هذه الصناعة تحتاج إلى مباشرة وتطبيق على قانون طبي».

«وينبغي أن تطاوعه يده على الحذق في الأعمال الدقيقة ولقط السبل، وكشط الظفرة، وقدح الماء... إلى غير ذلك مما يقع فيه الخطأ بسبب عدم الحذق والخوف، لذلك ينبغي أن يكون ثبت الجنان مشفقاً، ولا تكون شفقته لضعف قلبه»(٢١) ومن الأمثلة على ضرورة بذل الجهد في الدرس والتحصيل وتحمل المشقة دونما خجل أو غرور في سبيل الحصول على الكفاءة العلمية قول عبداللطيف البغدادي (٥٥٧ ــ ٦٣٩هـ) «ومن لم يعرق جبينه إلى أبواب العلماء لم يعرق في الفضيلة، ومن لم يخجلوه لم يبجله الناس... ومن لم يحتمل ألم التعليم لم يذق لذة العلم، ومن لم يكدح لم يفلح».

«وينبغي أن تكثر إيهامك لنفسك ولا تحسن الظن بها، وتعرض خواطرك على العلماء وعلى تصانيفهم وتتثبت ولا تعجب فمع العجب العثار ومع الاستبدال الزلل»(٢٢).

ومن الوصايا القيمة لمهذب الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن هبل البغدادي (المتوفي سنة ٦١٠هـ) قوله في مقدمة كتابه المختارات في الطب:

«ومما يمتحن به الطبيب حتى يوثق بعلمه وعمله أن ينظر فيما إذا أنفق زمانه الماضي إن كان في الاشتغال بهذه الصناعة وملازمة خدمة الكبراء من أهلها، وطول ملازمتهم، والقراءة عليهم، والعلاج بين أيديهم والتدرب في الدخول على المرضى في بيوتهم، وملازمة خدمة البيمارستان الذي يجتمع فيه حذاق الأطباء، وكثرة نظره إلى معالجة الأستاذ، فيشار إليه ويقول عليه ــ وكذلك هل يثني عليه الناس لحسن سيرته وديانته، وإن همته إذا خلا في بيته مطالعة الكتب ودراسة هذه الصناعة، وإنه غير مشتغل باللهو واللعب والشرب التي تستغرق الزمان بالتضييع، والخاطر بالتوزيع، فإن كان ينسب إلى شيء من ذلك فلا ينبغي أن يوثق إليه ولا يعول في هذه الصناعة عليه».

وفي وصايا أبي عبدالله محمد بن الحاج العبدري (المتوفي سنة ٧٣٧هـ ــ ١٣٣٦م) في كتابه المدخل نجد لوناً من ألوان آداب الطبابة التي تحتوي على حيوية وحركة نشيطة تكاد تربط حاضرنا بماضينا وتلامس أوضاعنا وكأنها وضعت ليومنا وكأن ما يتحدث عنه قد شاهده في حياتنا المعاصرة يقول:

«فيتعين على الطبيب أن يسمع كلام المريض إلى آخره فلعل آخره ينقض أوله أو بعضه ولربما يغلط المريض في ذكر حاله أو يعجز عن التعبير عنه فإذا تأنى الطبيب وأعاد عليه السؤال برفق أمن الغلط فإن الغلط في هذا خطر لأن أصل الطب والمقصود منه معرفة المرض فإذا عرف سلمت مداواته غالباً. ويتعين على الطبيب إن كان غير عارف بدوائه أن لا يكتب شيئاً من الأدوية لما في ذلك من إضاعة المال.

وينبغي للطبيب أن لا يقتصر على سؤال المريض وحده بل يسأل من خدم المريض إذ ربما يعرف عن المريض أكثر مما يعرفه هو. وينبغي للطبيب أن يعرف حال المريض في حال صحته في

مزاجه ومرباه وإقليمه وما اعتاده من الأطعمة والأدوية سواء بالسؤال من المريض أو ممن يلوذ بـه وإذا تعذر عليـه ذلك فليسأل عن والدي المريض ويطببه بمقتضى حالهما»[٢٣].

وأخيراً وليس آخراً نذكر هذا النص الحي النابض بالحياة والقوة والذي يبين المرونة التي تمتع بها الأطباء العرب والمسلمون وعدم الحياء من الاعتراف بعدم معرفتهم إن كانوا يجهلون أمراً «قال أبو الثناء الحلبي شكوت إلى ابن النفيس عقالاً في يدي فقال أنا والله بـي عقال فقلت له فبأي شيء أداويه؟ فقال والله لا أدري بأي شيء أداويه»[٢٤].

٤ ـ حسن الخلق والهيئة:

لقد تنبه فلاسفـة الطب منذ زمن ابقراط على ان العلاقة بين الطبيب والمريض علاقة إنسانية نفسية إلى جانب كونها مسألة علمية وعملية، لذلك نجـدهم يؤكـدون على ضـرورة اتصاف الطبيب بحسن الخلق والشكل والهيئة، لما لذلك كله من موقع حسن في نفس المريض وأثر طيب في العلاج والشفاء.

والأطباء العرب والمسلمون بلغوا في ذلك شوطاً بعيداً، نذكر فيما يلي بعضاً مما قالوه:

يقول علي بن العباس «ينبغي لمن أراد أن يكون طبيباً فاضلاً، أن يتخلق بالأخلاق الفاضلة وأن لا يتهاون فيها، فإنه إن فعل ذلك كانت مداواته للمرض مداواة صواب»[٢٥].

من بين الشروط التي ذكرها ابن رضوان في الطبيب «أن يكون تام الخلقة صحيح الأعضاء، حسن الذكاء، جيد الرواية عاقلاً ذكوراً، خير الطبع».

«أن يكون حسن الملبس، طيب الرائحة، نظيف اليدين والثوب».

«أن يكون سليم القلب عفيف النظر، صادق اللهجة، لا يخطر بباله من أمور النساء والأحوال التي شاهدها في منازل الأعلاء فضلاً عن أن يتعرض إلى شيء منها»[٢٦].

وقال الحكيم أبو الخير في كتابـه امتحان الأطباء «أنه يجب أن يكون الطبيب حسن القد، صحيح الأعضاء متناسبة في مقاديرها حسنة في شكلها قوية في وضعها، معتدل المزاج... يخالط نظره دائماً سرور وفرح وفيه بشاشة وطلاقة» «فأما في نفسه فأن يكون ذكياً ذكـوراً، جيد التصوير قوي الحدس والتخمين صبوراً عـلى التعب والنصب، في درك الحق من الأمور، كتوماً متحملاً ما يسمعه من المرضى»[٢٧].

ومن ذلك قول الانطاكي (من أبنـاء القرن العاشر الميلادي) «ينبغي لهذه الصناعة وكشف دقائقها.. وينبغي تنزيهه عن الأراذل والضن به على ساقطي الهمة لئـلا تدركهم الرذالة عنـد الدعوة إلى واقع في التلف فيمتنعون أو فقير عاجز فيكلفونه ما ليس في قدرته».

«ويجب اختيار الطبيب حسن الهيئة، كامل الخلقة، صحيح البـدن، نظيف الثيـاب، طيب الرائحة، يسر من نظر إليه وتقبل النفس على تناول الدواء من بين يديه، وأن يتقن بقلبه العلوم التي تتوقف الاصابة في العلاج عليها، وأن يكون متيناً في دينه متمسكاً بشريعته دائراً معها حيث دارت، واقفاً، عند حـدود الله تعالى ورسـوله، نسبته إلى الناس بالسواء، خلي القلب من الهوى لا يقبل الارتشاء ولا يفعل حيث يشاء ليؤمن معه الخطأ وتستريح إليه النفوس من العنا»[٢٨].

ويتكلم الاشبيلي عن الصفات التي يجب أن يتحلى بها جراح العين وهي لا تختلف عما يؤكده أطباء اليوم، يقول «وأن يكون ذكي الحواس، فإن يسيراً من ضياء الحس خـير كثير من درس الحكمة.

ولا يؤلم مريضاً بما فيه صلاحه، بل ينبغي له أن يجتهد في حفظ الصحة وردها بألطف طريق يمكنه، ويستحب أن يطيب معانيه (أي عزيمته) وأن تكون عينه سليمة من الأمراض.

وأن يكون... لا يستنكف عن مداواة من كثرت في عينه الأمراض والأوساخ... والقرح والدموع استقذاراً منه وأنفة.

وأن ينوي الخير للناس كافة، ولا يقصد أذى أحـد من المخلوقـين ويـرفق بـالضـعيـفـين والمساكين»[٢٩].

وأوصوا الطبيب والعالم بعدم اقتناص المال، لأن المال هو يجري نحوه متى ما أدى واجبه على الوجه الأكمل.

يقول الرازي في ذلك (ينبغي أن تكون حالة الطبيب معتدلة لا مقبلاً على الدنيا كلياً ولا معرضاً

عن الآخرة كلية فيكون بين الرغبة والرهبة»[٣٠].

ويقول عبداللطيف البغدادي «إني لا أقول أن الدنيا تعرض عن طالب العلم، بل هو الذي يعرض عنها... «للعلم عبقاً وعرفاً ينادي عن أصحابه كتاجر المسك لا يخفى مكانه ولا تجهل بضاعته»[٣١].

ويقول العبدي «أن يكون الطبيب خالص النية في عمله لله تعالى حتى يكون عمله من أعظم العبادات لا يريد عليه عوضاً من الدنيا، وأن قصده امتثال السنة المطهرة في التطبيب وكشف الكرب عن إخوانه المسلمين ومشاركتهم في مصائبهم والنوازل التي تنزل بهم كما ينوي الشفقة عليهم»[٣٢].

وجاء في وصية رشيدالدين علي بن خليفة بعض النصائح التي تبين العلاقة بين التلميذ والأستاذ، قال «إحترم المشائخ ولو سكتوا عن جواب سؤالك فلعل ذلك لبعد العهد وكلال القوى، أو لأنك سألت عما لا يعنيك، أو معرفتهم بعجز فهمك عن الجواب».

«إذا تطببت فاتق الله واجتهد أن تعمل بحسب ما تعلمه علماً يقيناً، فإن لم تجد فاجتهد أن تقرب منه».

«إذا وصلت إلى رتبة المعلمين فلا تمنع مستحقاً وهو العاقل الذكي الخير الحكيم النفس، وامنع سواه»[٣٣].

٥ ــ السر الطبـي والصراحة الطبية:

نعني بالسر الطبـي هنا، كتمان ما أطلع عليه من أحوال مريضه والتي لا يجوز إفشاؤها. وهذا ما كان يطالب به الطبيب منذ الوهلة الأولى من حياته العلمية، عندما يؤدي القسم الطبي ويعطي العهد الذي جاء في أحد بنوده كما ذكرنا «سوف أحتفظ بكل ما أراه أو أسمعه من أسرار الناس التي ينبغي أن لا أكشف ما لا يجب ذكره مما تصل معرفتي إليه في حدود مهنتي او خارجها أو في مخالطتي اليومية مع الناس بل أكتمه سراً».

ويقول الرازي في ذلك «ينبغي للطبيب أن يكون رفيقاً بالناس حافظاً لغيبهم كتوماً لأسرارهم... فإنه ربما يكون ببعض الناس من المرض ما يكتمه عن أخص الناس به مثل أبيه وأمه وولده، وإنما يكتمونه خواصهم ويفشونه إلى الطبيب ضرورة..». وبقي الأطباء العرب والمسلمون ملتزمين بهذا الشرط مع مرضاهم في حياتهم وحتى بعد مماتهم. وكمثال لعدم إفشاء أسرار المرضى حتى بعد وفاتهم. قول البلدي (كان حياً ٣٦٨هـ) عند التحدث عن مرضى الصرع حيث قال «رأينا من عرض لهم الصرع ممن تجاوز الأربعين والخمسين فمنهم من برىء براءاً كاملاً ومنهم من كان لا يعرض له ذلك إلا في زمان طويل وعلى غير نظام في حفظ الأدوار ممن لو ذكرتهم لعرفوا لكن أكتفي عن ذكر أسمائهم رحمهم الله تعالى»[٣٤].

وعن الصراحة الطبية نقول بأن أخلاقية المهنة الطبية في الحضارة الاسلامية تدعو إلى عدم التصريح، كما تحبب إظهار التفاؤل أمام المريض فيما يسره. روى ابن ماجة قول الرسول (ص)، إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل فإن ذلك لا يغير شيئاً وهو تطمين لنفس المريض. كما أن في الأقوال المأثورة عن النبـي الكريم، لكل داء دواء، ما أنزل الله داء إلا أنزل له الشفاء... مما يقوي نفس المريض ويحثه على طلب الدواء والتفتيش عنه فيعلق قلبه بروح الرجاء ويتفاءل بالخير وقد يجده، والفأل كلمات يسمعها العليل فتقوى بها عزائمه، وكان من بين الكلمات التي جاءت في قسم الأطباء العرب دعوتهم إلى أجتناب ما يغم المريض وقعه من الكلام»[٣٥].

وفي ذلك أيضاً يقول مهذب الدين البغدادي «ولا يؤيسوا المرضى في أمراضهم المعروفة الخطر من العافية فيتعجلوا منهم سقوط القوة وضعف الرجاء الذي وراءه من جانب الله تعالى علم ما لم يعلموه فليس في طاقة البشر الاطلاع على جميع أسرار الخليقة ومعرفة نظام العالم فقد طالما خرج الطبيب من عند المريض وهو ميؤوس منه فعاد إليه وقد فتح الله له أبواباً من الصحة وخرج من عند آخر ورجاؤه فيه أوثق من وثوقه بقوة بدنه واستقامة صحته، ثم قضي عليه»[٣٦].

وهناك من أوصى بوجوب التصريح والتنبيه في الحالات الميؤوس منها ولكن بأسلوب غير مباشر وطريقة لبقة فمن ذلك قول السبكي «من حقه ــ ويقصد الطبيب ــ بذل النصح، والرفق

بالمريض وإذا رأى علامات الموت لم يكره لمن ينبه الوصية بلطف من القول».

رابعاً ـ حقوق الطبيب:

تمتع الأطباء في الدولة العربية الاسلامية بحقوقهم كاملة، فنالوا احترام الجميع من خلفاء ووزراء وعامة الناس، وبلغوا حتى غير المسلمين منهم مراتب عالية ومراكز حساسة في الدولة. كل ذلك لأنهم قدروهم حق قدرهم، يقول ابن أبي أصيبعة عن جده حينما أراد تعليم والده وعمه مهنة الطب «وقصد إلى تعليمهما صناعة الطب لمعرفته بشرفها، وكثرة احتياج الناس إليها، وأن صاحبها الملتزم لما يجب من حقوقها يكون مبجلاً حظياً في الدنيا وله الدرجة العلياء في الآخرة»(٣٧).

ويمكن تقسيم حقوق الأطباء إلى:

١ ـ تكريم الأطباء:

لقد أوصى الرسول الكريم (ص) في بداية الدولة العربية الاسلامية بالتطبب عند الحارث بن كلدة. وكرم خلفاء بني أمية عدداً من الأطباء أمثال ابن أثال النصراني طبيب معاوية وأبي بكر الدمشقي وابنه الحكم وابن ماسرجويه السرياني أيام عمر بن عبدالعزيز وتبعهم في ذلك خلفاء بني العباس حيث أعطوا مكانة خاصة للأطباء، على سبيل المثال عائلة بختيشوع من الأطباء النصارى الذين فازوا بكرم العديد منهم. ومن بين من اشتهر وكرم من غير المسلمين أيضاً في عهدهم حنين بن إسحاق (المولود عام ١٩٤هـ) الذي كان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب العربية وابنه، ويوحنا بن ماسويه (المولود عام ١٦١هـ) وغيرهم، وبلغ البعض منهم درجة من التكريم بحيث كان يوقع عن الخليفة، فمثلاً أيام المعتضد بالله «كانت التوقيعات تخرج بخط داود بن ديلم لمحله منه ومكانته»(٣٨).

هذا بالنسبة لغير المسلمين من الأطباء، اما المسلمون منهم فقد بلغ بعضهم من التكريم ما جعل الخلفاء ينيطون بهم أعلى مراتب وظائف الدولة إلى جانب الطب، فولي بعضهم الوزارة مثل الرئيس ابن سينا (ولد عام ٣٧١هـ)، والحفيد أبي بكر بن زهر (١٠٩٤ ـ ١١٦٢م)، وفخرالدين الساعاتي والصاحب نجم‌الدين بن اللبدي (ولد عام ٦٠٧هـ)، ومهذب‌الدين يوسف بن أبي سعيد والصاحب أمين الدولة من أبناء القرن السابع الهجري.

ومنهم من تولى القضاء مثل القاضي الفيلسوف ابن رشد الذي تولى القضاء في اشبيلية وقرطبة، والقاضي ابن المرخم بن سعد الذي أصبح قاضي القضاة ببغداد أيام المقتفي، وافضل‌الدين ابي عبدالله الذي صار قاضي القضاة بمصر(٣٩).

ومن الأمثلة على تقدير الأطباء وإجلالهم، أن الخليفة المعتضد بالله «لما تقلد الخلافة اقطع ثابتاً بن قرة ضياعاً جليلة وكان يجلس بين يديه كثيراً بحضرة الخاص والعام، ويكون بدر الأمير قائماً والوزير، وهو جالس بين يدي الخليفة» ويروى أيضاً «أن ثابتاً كان يمشي مع المعتضد في الفردوس وهو بستان... وكان المعتضد قد اتكأ على يد ثابت وهما يمشيان ثم نتر المعتضد يده من يد ثابت بشدة، ففزع ثابت... وقال له يا أبا الحسن سهوت، ووضعت يدي على يدك واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون. فإن العلماء يَعلُون ولا يُعلَوْن»(٤٠).

وجاء في كتاب صبح الأعشى «وكانت أعظم الوظائف الصناعية في الدولة الفاطمية بمصر وظائف الأطباء، فكانت ألقاب أرباب الصناعات الرئيسية، كرئاسة الطب من الدرجة الأولى درجة المجلس أو إمرة المجلس وموضوعها التحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم، ولا يكون إلا واحداً وفي المرتبة الأولى مرتبة المجلس العالي:

وكان من الوظائف الصناعية العظيمة وظيفة الطبيب الخاص، وهو الطبيب الخاص بالخليفة يجلس على باب دار الخلافة كل يوم ويجلس على الدكك التي بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر، دون أربعة أطباء أو ثلاثة فيخرج.. الخدم... فيستدعون منهم من يجدونه للدخول على المرضى بالقصر لجهات الأقارب والخواص... ولكل منهم الجاري والراتب على قدره»(٤١).

ومن الأمثلة التي تبين اعتزاز الأطباء بشخصيتهم وكرامتهم وترفعهم عن الأمراء، ما رواه ابن جلجل في طبقاته عن ابن الجزار

□ احد اشكال مخطوطة تبحث في الطب البيطري (المتحف العربي، القاهرة).



□ إحدى مجموعات الأعشاب الطبية، تعود للقرن العاشر ميلادي (المتحف العربي، القاهرة).

القيرواني (٢٨٥ ـــ ٣٧٧هـ) «ولم يركب إلى احد من رجال افريقية ولا إلى سلطانها، إلا إلى ابي طالب عم (الخليفة المعز لدين الله)، كان له صديقاً قديماً» وقال «حدثني من اثق به قال كنت عنده غداة في دهليزه وقد غص بالناس، إذ اقبل ابن أخي النعمان القاضي، وكان حدثاً جليلاً بافريقية فتخلف القاضي إذا منعه مانع عن الحكم، فلم يجد في الدهليز موضعاً يجلس فيه، إلا مجلس ابي جعفر، فخرج أبو جعفر، فقام له ابن أخي القاضي على قدم، فما اقعده ولا انزله» قال الذي حدثني فكنت عنده صحوة نهار، إذ اقبل رسول النعمان القاضي، بكتاب يشكوه فيه على ما تولى من علاج ابنته، ومعه منديل بكسوة وثلاثمائة مثقال، فقرأ الكتاب وجاوب شاكراً، ولم يقبض المال ولا الكسوة. قال الذي حدثني فقلت له أبا جعفر رزق ساقه الله إليك، ترده؟ قال لي والله لا كان لأحد من دولة معد قبلي نعمة»[٤٢].

اجور الأطباء

تقاضى الأطباء أجوراً عن معالجة المرضى منذ القديم ففي حضارة وادي الرافدين ومصر القديمة كان الطبيب يستوفي أجوراً تناسب مكانته العلمية والعملية، ومكانة المريض الاجتماعية. فعلى سبيل المثال نجد نصوصاً في (شريعة حمورابي) تحدد أجور الطبيب الجراح حيث كان يتقاضى خمسة عشر شقلاً فضة من المريض من طبقة الأحرار، وعشرة شقلات من الطبقة المتوسطة وشقلين من سيد العبد عند معالجة العبيد.

وكان ابقراط في الحضارة الاغريقية يأخذ اجوراً عينية من الأغنياء والمرفهين كالأساور والحلي الذهبية والفضية، أو الهدايا الثمينة في الوقت الذي يقوم بعلاج الفقراء بدون أجر.

وفي الحضارة العربية الاسلامية كان الأطباء يتقاضون أجوراً عالية من الخلفاء والأمراء والقادة والأغنياء بينما كانوا يعالجون الفقراء بأجور بسيطة أو بالمجان، وكتب التاريخ تروي لنا مبلغ ما وصله بعض الأطباء من حسن ورغد العيش وكمثال لدرجة مباراة الخليفة في اللباس والزي والطيب والفرش والضيافات والتفسح في النفقات. من ذلك:

إن ابا بكر يوحنا بن ماسويه اكتسب من صناعة الطب الف الف درهم وجمع جبريل بن بختيشوع مالاً كثيراً، فقد بلغ إيراده السنوي ملخصاً عما رواه ابن ابي اصيبعة (٤٩٠٠٠٠٠) درهم ومجموع ما حصل عليه خلا خدمته لهارون الرشيد مدة ٢٣ سنة والبرامكة مدة ١٣ سنة (٨٨٧٠٠٠٠٠) درهم[٤٣].

وإن رسوم ابن التلميذ في بغداد سنوياً كانت تزيد على عشرين الف دينار وبلغت تركة ابن الجزار بعد وفاته أربعة وعشرين الف دينار. وكان الأطباء يتلقون هبات من الخلفاء والأمراء ووجهاء الدولة إضافة لأجورهم المقررة فمثلاً عندما اراد الطبيب أبو الفرج النصراني تزويج بناته، اكرمه صلاح الدين بثلاثين الف درهم لتجهيزهن، ولما بلغ الطبيب ابن مطران تأثر من ذلك، وعندما سمع صلاح الدين بتأثره أمر له هو الآخر بمثل ذلك المبلغ سواء بسواء[٤٤].

وإن ما وصل مهذب الدين بن الدخوار (المتوفي سنة ٦٢٨هـ) من معالجة الملك العادل بالشرق من معالجته من مرض صعب سبعة آلاف دينار مصرية وما وصله من معالجة ابنه الملك الكامل صاحب الديار المصرية كان من الذهب اثني عشر الف دينار واربع عشرة بغلة بأطواق ذهب،

والخلع الكثيرة من الثياب الأطلس وغيرها[٤٥].

وإن الشيخ السديد رئيس الأطباء في مصر حصل له في يوم واحد من الخلفاء في بعض معالجاته لأحدهم ثلاثون الف دينار وانه طهر ولدي الحافظ لدين الله حصل له في ذلك الوقت من المال نحو خمسين الف دينار وأكثر من ذلك، سوى ما كان في المجلس من أواني الذهب والفضة فإنها وهبت جميعها له»[٤٦].

وفي العمل الحر في ممارسة مهنة الطب لم يكن هناك تحديد لأجرة فحص المريض ومعالجته بالمعنى الذي نفهمه اليوم، بل كان الطبيب يتقاضى الأجور حسب حالة المريض المالية كما ذكرنا، ويذكر لنا ابن جلجل عن الطبيب إسحق بن عمران أنه لفترة من حياته كان يفحص المرضى بأجر محدد فيقول عنه إنه عندما امر زيادة الله بقطع رزقه أي راتبه «فلما قطع عنه الرزق خرج إلى موضع فسيح من رحاب القيروان، ووضع هناك كرسياً ودواة وقراطيس فكان يكتب الصفات كل يوم بدينار»[٤٧].

وكان أغلب الأطباء العرب والمسلمون ــ من أمثال الرازي وابن سينا وابن الجزار وغيرهم ــ يقومون بمعالجة الفقراء مجاناً او بأجر يسير في الوقت الذي لا يتساهلون فيه مع المتمكنين والأغنياء، ومن الأمثلة على ذلك ما رواه ابن جلجل عن رجل من أهل خراسان ادعى الفقر فرضي الطبيب ابن وصيف أن يعالجه بأجر قليل، فلما ثبت كذب ادعائه للفقر حيث وقعت يده على عضده فوجد نطاقاً صغيراً فيه دنانير، رفض معالجته[٤٨].

وكان البعض منهم لا يتقاضى اية أجرة من الجميع، من أولئك الذين كانوا يطببون الناس من دون أجرة، أبو بكر بن القاضي أبي الحسن الزهري قاضي اشبيلية، وكمال الدين الحمصي الذي كان يكره التكسب بصناعة التردد إلى البيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نورالدين زنكي ويعالج المرضى فيه احتساباً[٤٩].

ومن الأمثلة التي تشير إلى ترفع الأطباء العرب والمسلمين عن الطمع ما رواه البيهقي عن الحكيم أبي الفتح عبدالرحمن الخازن «وكان نقي الجيب عن الأطماع الخسيسة، بعث السلطان الأعظم سنجر إليه ألف دينار على يد الأمير الامام شافع الطبيب فرده وقال لا أحتاج إليها، ويقي لي عشرة دنانير، ويكفيني كل سنة ثلاثة دنانير وليس معي في تلك الدار الاسنور» «وبعثت إليه زوجة الأمير لامي كافور بك الكبير الف دينار فردها أيضاً»[٥٠].

وكان بعضهم الآخر يستنكف أن يأخذ الأجور بل يقوم بذلك خادمه، من أولئك ابن الجزار القيرواني الذي كان ثرياً موسراً يكتظ المتداوون في محل عيادته، وبعد فحصهم يحيلهم لغلامه رشيق الذي يوزع الأدوية والأشربة ويتقاضى الأجور لأن سيده ينزه من أن يأخذ من أحد ثمناً علماً بأن ذلك كان شأنه مع وجوه الدولة وعامة الناس[٥١].

أما أجور الأطباء في البيمارستانات، فكانت تشبه إلى حد ما طريقة عمل أطباء اليوم حيث خصصوا للأطباء رواتب شهرية تتفاوت حسب شهرة الطبيب وعلمه وكفاءته إضافة لأجور أخرى لقاء قيامه بأعمال إضافية كالتدريس أو الترجمة والأمثلة التالية تبين المفهوم العام لمسألة الرواتب في البيمارستانات.

«وكان لبعضهم كجبرائيل الكحال ألف درهم في كل سنة»[٥٢].

«وكان لماسويه جامكية من الفضل في كل شهر ستمائة درهم وعلوف دابته، ثم تزيد إلى ألفي درهم ومعونة في السنة عشرة آلاف درهم وعلوفة ونزل. وممن كان يأخذ رزقين جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع، فكان يأخذ برسم الخاص ثلاثمائة درهم شجاعية وبرسم البيمارستان ثلاثمائة درهم شجاعية سوى الجراية. وكان لعزالدين بن السويدي جامكية في أربع جبهات، في البيمارستان النوري وفي بيمارستان باب البريد في دمشق وللتردد على قلعة دمشق وتدريسه في مدرسة الدخوارية[٥٣].

«وكان من أطباء الأمير سيف‌الدولة بن حمدان من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين، ومن يأخذ ثلاثة أرزاق لتعاطيه ثلاثة علوم وكان في جملتهم عيسى النفيس الطبيب فكان يأخذ ثلاثة أرزاق رزقاً للنقل من السرياني إلى العربي، ورزقين آخرين بسبب علمين آخرين»[٥٤] «وكان الحكيم موفق‌الدين عبدالعزيز يأخذ في كل شهر مائة دينار ورواتب أخرى من الملك العادل لقاء

عمله في البيمارستان ومعالجة الملك، ولما توفي عيّن بـدلهُ مهـذب الدين الدخـوار بنفس الرواتب المقررة»[٥٥].

وعن أبيه يقول ابن أبـي أصيبعة «فأقـام بدمشق وصار يتردد إلى القلعة لخدمة الدور السلطانية لكل من ملك دمشق من أولاد العادل وغيـرهم، وكلهم يرون له ويعتمـدون عليه في المداواة وله الجامكية والجراية والأنعام الكثيرة ويتردد أيضاً إلى بيمارستان نور الدين الكبير وله الجامكية والجراية»[٥٦].

ويقول أيضاً «مهذب الدين بن الحاجب عندما توجه إلى دمشق أكرمه صلاح الدين والفاضل وجماعة الرؤساء وأجري له ثلاثون ديناراً»[٥٧].

وكمثال لرعاية الدولة للأطباء وصرف ما يشبه الراتب التقاعدي لهم، ما حصل لأبـي البيان بن المدور فيما رواه ابن أبـي اصيبعة «وعمر الشيخ ابو البيان بن المدور وتعطل في آخر عمره من الكبر والضعف، من كثرة الحركة والتردد إلى الخدمة فأطلق له الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله في كل شهر أربعة وعشرين ديناراً مصرية تصل إليه ويكون ملازماً لبيته ولا يكلف خدمة. وبقي على تلك الحال وجامكيته تصل إليه نحو عشرين سنة»[٥٨].

وقبل أن نختم البحث نقول:

إن الأطباء في كل زمان ومكان كبقية بني البشر، قد يظهر فيهم أحيانـاً بعض المتطفلين والمشعوذين أو ذوي النفوس المريضة فيسيـىء هـؤلاء للمهنة بسلوكهم الشـائن، والحضـارة العربية الاسلامية في تاريخها الطويل لم تخل من البعض من غير الملتزمين بآداب مهنة الطب، إلا أن هؤلاء لم ينجوا من تقريع ولوم الـملتزمـين منهم بتلك الآداب، فكان الرازي مثلاً من أوائل الذين اندفعوا بشدة في احتقار الأطباء الذين يتخذون مهنتهم طريقاً لابتـزاز أموال النـاس بوسيلة غير شريفة، كما أنه حـذر الناس من الدجـالين والمشعـوذين من الذين يـتـظاهـرون بصنعة الطب بغية اكتساب المال وهم لا يعرفون من الطب شيئاً فيسيؤون إلى المريض إساءة بالغة بدل شفائه.

وانتقد ابن الكتبـي (من أطباء بدايات عصر تخلف الحضارة العربية في كتابه ما لا يسـع الطبيب جهله، بعض أطباء زمانه الجهلاء الذين دأبهم ارتداء الملابس الفاخرة وملازمة الأمراء والنبلاء وحضور الولائم وهم غافلون عن قوانين الصنعة ويجهلون أحكامها ولا يتابعون تطورها بالدرس والملاحظة والالتزام بـأعمالهم المهنيـة حتى أفسدوا شرائعها واستهانوا بقيمها مما حط من كرامة الصناعة وقدرها في عيون الناس.

وكلمة أخيرة لا بد من ذكرها وهي «إن قضية السلوك المهني لا تحل بقسم ولا تستوفى بدراسة مقرر علمي في آداب ممارسة الطب ولا تحكمها قواعد قانونية تقررها نقابـة طبية أو دستـور وضعي، إن الرعاية بالمريض تحمل التزامـات أخلاقية والطبيب في ممارسته اليومية ستواجهه كثير من المواقف تستلزم استفتاء الضمير. وهنا ستتأثر قراراته بمدى التزامه تجاه ربه»[٥٩].

وانطلاقاً من ذلك فإننا نجد وعلى مدى قرون عديدة بأن الأطباء العرب والمسلمين منهم حقاً كان إسلامهم يلزمهم بمنهاج متكامل يربط كل فرد منهم لا بالمجتمـع فحسب بل بـالله الذي يعبدون علماً بأن التزامهم بهذا المنهج لم يأت قسراً وإنما جاء طواعية واختيار في ظاهرهم وفي بـاطنهم ومن غير خشيـة من عقاب المجتمـع أو القانون بل رغبة في طاعة خالقهم وطلباً لتوبته الغالية التي جعلوا حياتهم كلها وسيلة لها وطريقاً إليها.

الهوامش

(١) التونجي ــ عبدالسلام/ المسؤولية المدنية للطبيب ص ٤٠ (دار المعارف ــ لبنان ١٩٦٧).

(٢) المصدر نفسه نقلاً عن:
Fazembat «Andre»: Resparsibi Lite Legele desmedecirs traitarts these, paris — 1903.

(٣) للمزيد من التفصيل يرجـع للمصدر نفسـه حيث لخصنا الفقرة التالية عنه بتصرف.

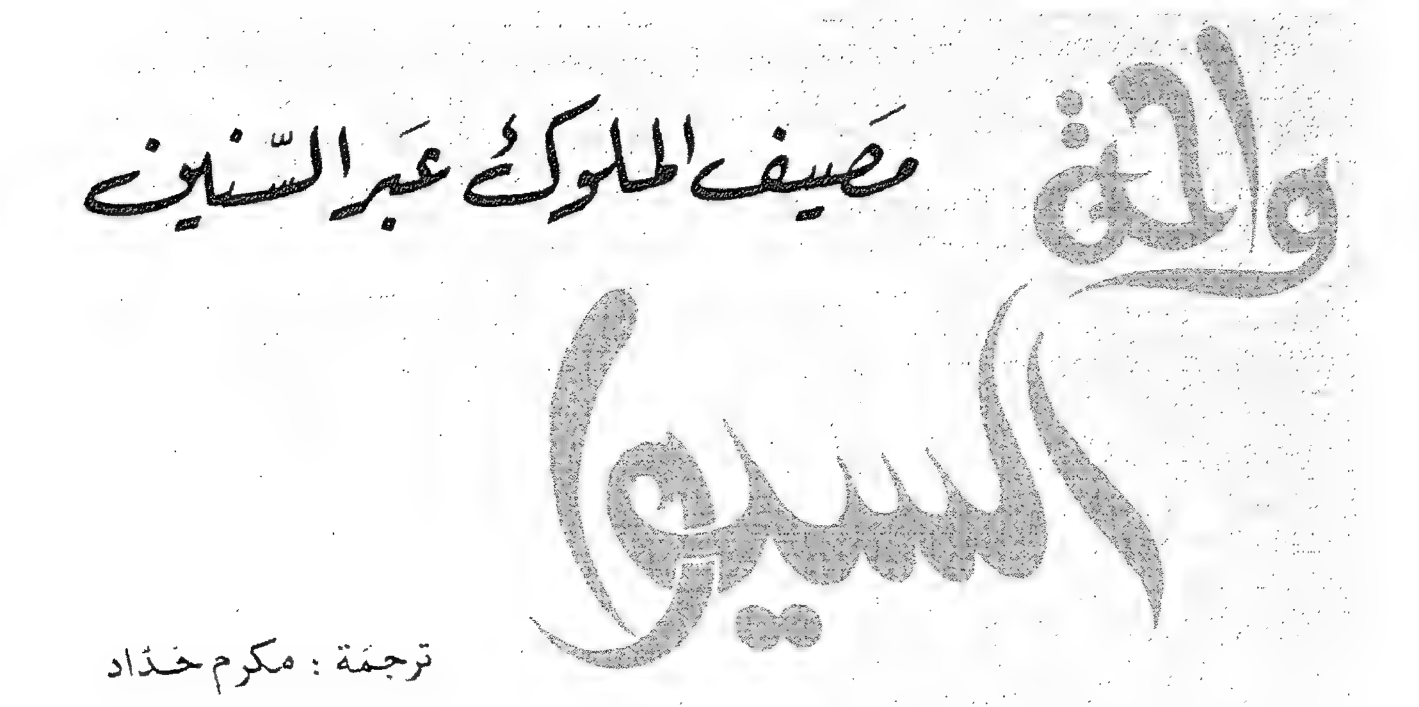
(٤) ابن الاخوة ــ محمد بن احمد القرشي ــ معالم القربة في أحكام الحسبة/ تحقيق د. محمد محمود شـعـبـان، صـديـق احـمـد عـيسى الـمطيـعـي ص ٢٥٥ ــ ٢٥٦.

(٥) الكيلاني ــ د. نجيب/ (في رحاب الطب النبوي) (بحث قدم للمؤتمر الثالث للسيرة النبوية ــ الدوحة ١٤٠٠هـ).

(٦) الحسبة ــ نظام إسلامي شأنه الاشراف على المرافق

العامة وتنظيم عقاب المذنبين. وهي وظيفة دينية شبه قضائية تقوم على فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ابن الاخوة ص ٢٣).

(٧) بسيس ــ محمد طيب/ قواعد وآداب ــ مزاولة مهنة الطب كما وردت في التراث الطبي الاسلامي/ مؤتمر الطب الاسلامي الأول ــ الكويت ١٤٠١ ــ ١٩٨١.
(٨) ابن الاخوة ص ٢٥٦.
(٩) ابن أبي أصيبعة ــ طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٩٨. (إصدار دار الفكر ــ بيروت ١٩٥٦م).
(١٠) الانطاكي ــ داود/ التذكرة في الطب ص ٧.
(١١) ابن أبي اصيبعة ج ٢ ص ٤١٥.
(١٢) للمزيد من الاطلاع حول ذلك يراجع بحث (نظرة الاسلام للطب) للدكتور إبراهيم الصياد من أبحاث مؤتمر الطب الاسلامي في الكويت ١٤٠١هـ ــ ١٨٩١م.
(١٣) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٢٥٤.
(١٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٣.
(١٥) البغدادي ــ مهذب الدين علي بن هبل/ المختارات في الطب ٣ ــ ٥.
(١٦) ابن أبي أصيبعة/ ج ٢ ص ٣٥١.
(١٧) علي بن العباس/ كامل الصناعة الطبية ج ٢ ص ٨ ــ ٩.
(١٨) المصدر السابق ص ٣٥١.
(١٩) الرازي ــ ابو بكر محمد بن زكريا/ كتاب المرشد او الفصول ــ تحقيق الدكتور ألبير زكي اسكندر ص ١٢١.
(٢٠) ابن ابي اصيبعة ج ٣ ص ٤١٣.
(٢١) الاشبيلي ــ عبدالله بن قاسم الحريري/ نهاية الأفكار ونزهة الأبصار تحقيق الدكتور مصطفى شريف العاني والدكتور حازم البكري ج ١ ص ٤٢ ــ وزارة الثقافة العراقية ١٩٧٩.
(٢٢) البغدادي ــ عبداللطيف/ مقالتان في الحواس/ تحقيق د. بول غليونجي، د. محمد عبدة ص ١٦٩. مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٤.
(٢٣) (بسيس ــ محمد الطيب/ قواعد وآداب مزاولة مهنة الطب كما وردت في التراث الاسلامي ــ مؤتمر الطب الاسلامي الأول ــ الكويت ١٩٨١/١٤٠١.
(٢٤) المفتي ــ د. يونس/ مبادىء الأخلاق الطبية في الاسلام ــ مؤتمر الطب الاسلامي الأول ــ الكويت ١٩٨١/١٤٠١.
(٢٥) علي بن العباس/ كامل الصناعة الطبية ص ٨.
(٢٦) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٧٠.
(٢٧) ابن جلجل = ابو داود سليمان/ طبقات الحكماء/ تحقيق فؤاد السيد ص ١٥٨، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٥.
(٢٨) الانطاكي ــ داود/ التذكرة في الطب ص ٨.
(٢٩) الاشبيلي ــ عبدالله بن قاسم الحريري/ نهاية الأفكار ونزهة الأبصار/ تحقيق الدكتور مصطفى شريف العاني والدكتور حازم البكري ص ٤٢ ــ ٤٣. وزارة الثقافة العراقية ١٩٧٩.
(٣٠) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٣٥١.
(٣١) البغدادي ــ عبداللطيف/ مقالتان في الحواس ص ١٧٠.
(٣٢) بسيس محمد الطيب/ قواعد آداب مزاولة مهنة الطب/ مؤتمر الطب الاسلامي الأول ــ الكويت ١٩٨١/١٤٠١.
(٣٣) ابن أبي أصيبعة ج ٣ ص ٤١٢.
(٣٤) البلدي ــ أحمد بن محمد/ تدبير الحبالى والأطفال والصبيان/ تحقيق الدكتور محمود الحاج قاسم محمد ص ٢٤٨.
(٣٥) الشطي ــ الدكتور أحمد شوكت/ أخلاقيات الطب في التراث الاسلامي وواقعه اليوم/ بحث قدم للمؤتمر السنوي الثاني للجمعية السورية لتاريخ العلوم المنعقد في حلب ــ نيسان ١٩٧٧.
(٣٦) البغدادي ــ مهذب الدين علي بن هبل/ المختارات في الطب ج ١ ص ٥.
(٣٧) ابن أبي أصيبعة ج ٣ ص ٤٠٢.
(٣٨) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٢٥، ١٤٣.
(٣٩) المصدر نفسه ص ١٢٣، ١٢٠.
(٤٠) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ١٩٤.
(٤١) عيسى ــ الدكتور أحمد/ تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ٢٤، طبع جمعية التمدن الاسلامي ــ دمشق ١٩٢٧.
(٤٢) ابن جلجل ــ ابو داود/ طبقات الأطباء والحكماء ص ٨٩.
(٤٣) ابن أبي اصيبعة ج ٢ ص ١٢٣.
(٤٤) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٨٨.
(٤٥) المصدر نفسه ص ٣٩٤.
(٤٦) المصدر نفسه ص ١٨١.
(٤٧) ابن جلجل/ طبقات الأطباء والحكماء ص ٨٥.
(٤٨) المصدر نفسه ص ٨١.
(٤٩) ابن أبي أصيبعة ج ٣ ص ٣٢٩.
(٥٠) البيهقي ــ ظهيرالدين/ تاريخ حكماء الاسلام ص ١٦٢. مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٦.
(٥١) ابن جلجل ص ٨٩.
(٥٢) عيسى ــ د. أحمد/ تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ٢٩ بالأصل نقلاً عن القفطي ص ١٥٢.
(٥٣) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٢١٦.
(٥٤) ابن القفطي ص ٢٥٠.
(٥٥) ابن أبي أصيبعة ج ٣ ص ٣٩١.
(٥٦) المصدر نفسه ص ٤٠٦.
(٥٧) المصدر نفسه ص ٢٩٨.
(٥٨) المصدر نفسه ص ١٩١.
(٥٩) بحث نظرة الاسلام للطب/ الدكتور إبراهيم الصياد/ من ابحاث مؤتمر الطب الأول ــ الكويت ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م.



واحة السيوا

مَصيف الملوكِ عبرَ السّنين

ترجمَة : مكرم حدّاد

□ بقايا معبد «آمون» إله الشمس حيث أتى إليه يوما الاسكندر الكبير ليستشير أحد كهانه

تحوّل معظم تلك الدور [illegible] بدأت الطرق بالانهيار شيئاً فشيئاً حتى بدت أمام الطريق تلك المنازل وأصبحت [illegible] وكأنها سراب يتحوّل إلى حقيقة [illegible] ويتحسر على حقبة الملوك والفاتحين، ولكن الأثر الدائم لا يزال هناك. وصلنا إلى واحة سيوا من بين مجموع الواحات الصحراوية الغربية في مصر تعتبر سيوا الأبعد عن مجرى النيل. فهي تقع على الطريق التي كانت تسلكها قوافل القوافل [illegible] من القاهرة ومرورا في ليبيا حيث [illegible] الحروب [illegible] شمالاً نحو [illegible] الذهب [illegible] جنوباً [illegible] شمالاً وشرقاً [illegible] يبدو تاريخ هذه الطرق [illegible] إلى [illegible] عهد [illegible] الصلة [illegible] [illegible] أكثر [illegible] في بعض المناطق [illegible] كانت [illegible] [illegible] [illegible] المسافرين [illegible] [illegible] أن يكون [illegible] من [illegible] هذه الطرق لم [illegible] [illegible] عن [illegible].

[illegible] الأولى [illegible] الحياة [illegible] القاهرة والطريق [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] شمالاً نحو الاسكندرية [illegible] غرباً [illegible] شاطئ البحر [illegible] [illegible] حيث بدأت الطريق [illegible] بالصحراوية [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible].

[illegible] بالتاريخ إلى [illegible] القرن الخامس قبل [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] عسكرية [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] واحة سيوا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أيضاً [illegible] [illegible] الاسكندر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في العام ٣٣١ قبل [illegible] [illegible] [illegible] الاسكندر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] إلا أن هذا [illegible] لا [illegible] [illegible]



□ احدى مداخل سيوا القديمة، حيث القش والطين كانا يشكلان مادة اساسية في البناء

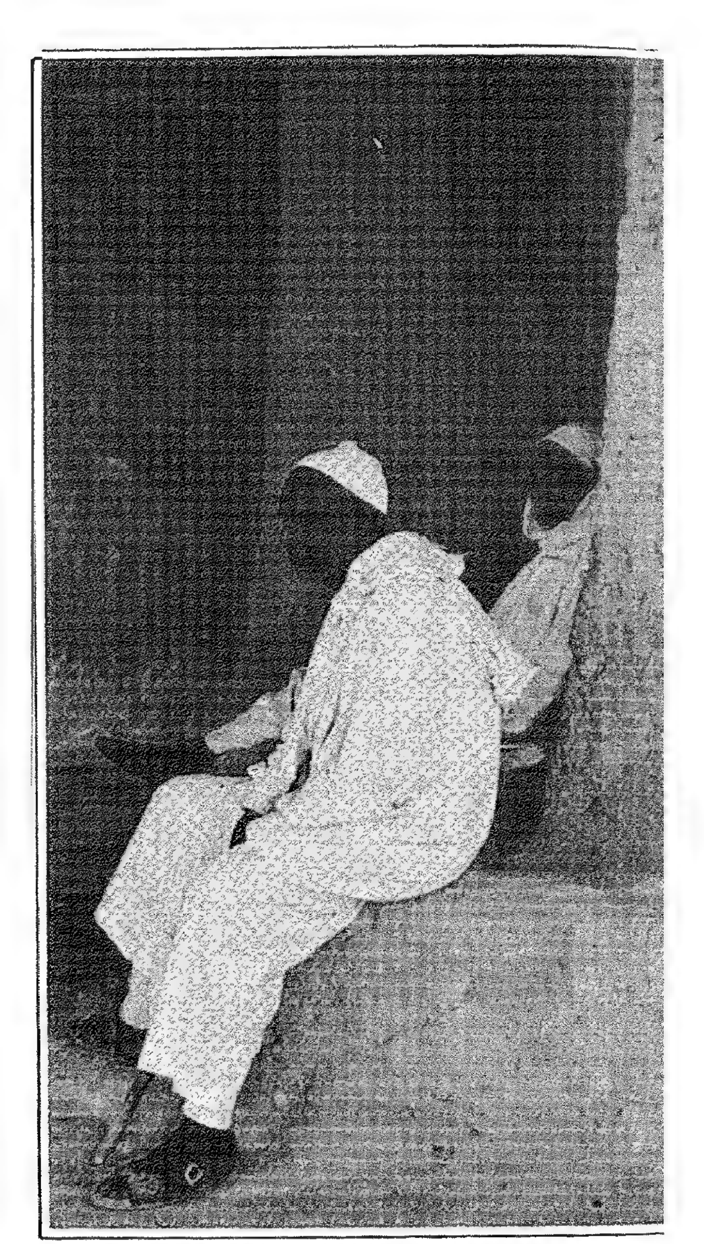


□ منظر لأطلال سيوا القديمة.

اتصّف بصفة الالوهية. وعلى مسافة غير بعيدة من المعبد يرى الناظر بركة ماء متوهجة ويقال إن كليوباترة اعتادت أن تستحم فيها.

وفي القرن الحالي قام الملك فؤاد، ملك مصر، بهذه الرحلة نحو السيوا عبر الطريق الساحلية التي سلكناها نحن، وهي بالمناسبة الطريق ذاتها التي سلكها الاسكندر المقدوني منذ حوالي ثلاثة وعشرين قرناً. وقد حُفِرت عدة آبار الى الطريق تسهيلاً لزيارة الملك فؤاد: كما أن الملك فاروق قام بهذه الرحلة أيضاً. وتوالت الرحلات من قبل قادة مصر وانتهت أحداها بإنشاء بئر ماءٍ عميق لأهل السيوا وبهدية ثمينة وهي إنشاء خط جوي ما بين مرسى مطروح والسيوا بحيث تقوم طائرة مصرية برحلتين أسبوعيتين. وهذا الجسر الجوي هو الرابط الوحيد المنتظم ما بين السيوا وبقية اصقاع مصر

مما لا شك فيه أن دوافع استراتيجية حدت بقمبيز للقيام بهذه الرحلة العسكرية كما أن



□ مكان اجتماع عامة الناس في القرية القديمة في سيوا.

حسابات الاسكندر الدينية منها والسياسية دفعته إلى تلك المغامرة. إلا أن هدفنا نحن لم يكن من هذين النوعين. الدافع الحقيقي كان علمياً بحتاً ذلك أن رواد الفضاء على متن أبولو ــ سيوز قد قاموا بأخذ بعض اللقطات الفوتوغرافية، وذلك بتوجيه شخصي مني، لتلك المنطقة من الصحراء الغربية كجزء من دراسة شاملة لصحارى الشرق الأوسط. وما كان علينا نحن الجيولوجيين إلا أن نقارن ونتثبت من صحة الصُوَر بمشاهدات حية «على الطبيعة».

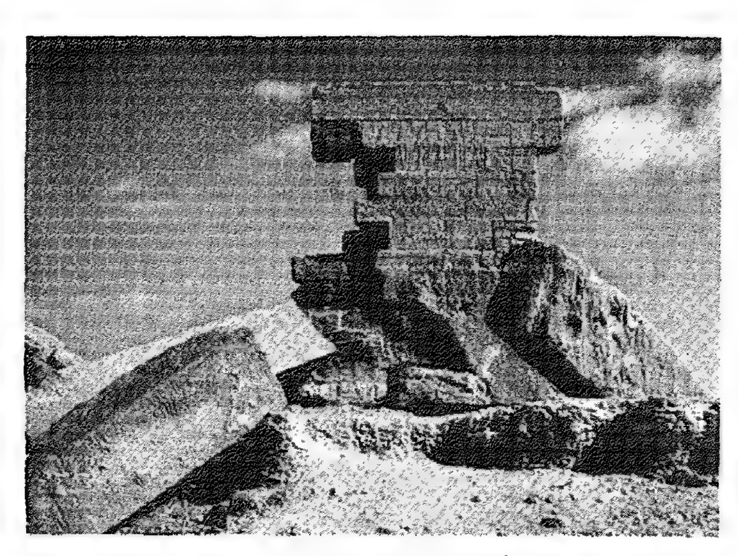
قبل قيامنا بهذه الرحلة تزودّنا بصورتين مأخوذتين من الفضاء، وقد ثَبُتَ لديْنا صحة ما رواه قدماء المستكشفين. ويلاحظ الناظر أول ما يلاحظ قوة اندفاع الرياح التي تؤدي إلى عزل وسلخ حبات الرمل عن الصخور الجرداء مما يحوّل تلك الصخور إلى منحوتات فنية ذات جمال يصعب نقله على يد أي فنان محترف. فالتلال الصخرية تبدو وكأنها تحوّلت إلى أهرام أو أكواز مخروطية الشكل. وقد يتساءل الناظر عما إذا كان قدامى المصريين قد أخذوا عِبَراً من هذه الصخور والتلال قبل أن يبنوا الأهرام.

وتجدر الاشارة أيضاً إلى وجود مركز للأرصاد الجوية وقد بُني عام ١٩٤٠ وهو يقوم بجمع المعلومات حول مدى التآكل الصخري الحاصل من جراء شدة الرياح، كذلك يقيس تحرّك الرمال الصحراوية ويتتبع هجرة الكثبان المتنقلة أبداً. ولما كان هذا من ضمن اختصاصنا فقد عرّجنا على المركز ــ المحطة ووجدنا آلة لقياس درجة التبخّر وآلة لتسجيل أشعة الشمس فإن اختفت الشمس مثلاً وراء الغيوم فإن تلك الآلة تسجّل هذه الظاهرة. وأما آلة قياس منسوب الأمطار فإنها كانت تشير إلى علامة الصفر مما يدل على أن المطر لم يهطل في العام المنصرم.

إن التفسير الممكن لهذا الجفاف هو أنه حديث العهد، ذلك أن مؤشرات عدة تثبت خصوبة الأرض وإن كان ذلك لسبعة آلاف سنة خلت. ودليل بسيط نسوقه هنا هو أن النقوش والرسوم لبعض الحيوانات كالأبقار والأغنام تشير إلى أن الأرض قد نعمت زمناً بعطاء نباتي أخضر: كما أن سكان تلك المنطقة لا بد عرفوا فن الزراعة وتربية المواشي. أما النقوش الأخرى فتُظهر أشكال زرافات مما يعني أن أشجاراً باسقة كانت تنبت هناك أيضاً. ويُقدّر أنه حول العام ٢٠٠٠ قبل الميلاد تبدّل المناخ ليصبح جافاً مما حدا بالسكان إلى النزوح جنوباً بحثاً عن أماكن أكثر خصوبة.

وهناك دليل واضح على هطول المطر في الزمن الغابر. فالقرية القديمة في السيوا مشادة على مرتفع وكأن القصد من ذلك تجنّب الفيضانات والسيول. كما أن قرية أخرى لا تبعد عن الأولى





□ حجر المرمر المصري. حيث وجده المنقبون بالقرب من معبد «أمون».

أكثر من ستين ميلاً للجهة الشمالية الشرقية مبنية على هضبة عالية مما يعني أنها كانت كالحصن المنيع لتحاشي الدخلاء الغرباء من غير المرغوب فيهم.

وخلال الاستراحة من العمل التنقيبي عرض علينا عمدة السيوا زيارة معبد آمنون وهو الذي أعطى شهرة للمنطقة رغم صغر حجمها. وقد تبين لنا أن حائطاً واحداً من المعبد لا يزال منتصباً والمنقوشات لا زالت ظاهرة عليه علماً أن الطلاء الذي استُعمل يوماً لتلوين هذه المنقوشات قد تلاشى وبهت بمعظمه. وعلى بعد عشرين ميلاً لجهة الغرب وجدنا صخرة على تلة عالية وقد غطتها كثبان الرمال ولدى تفحصها تبين لنا أنها من حجر الرخام الناصع البياض. من هناك انتقلنا إلى جبل الموتى حيث المدافن القديمة العهد والتي يعود تاريخها إلى العهد الروماني. والطبقة العليا من هذه المدافن تظهر نظرة هندسية في كيفية إنشائها. أما السفلى منها فهي أقل تنظيماً مما يدل على أنها احتوت على عظام أناس أقل شهرة. ومن على جبل الموتى يقف الناظر والدهشة تتملكه. فنظرة إلى الشمال حيث الجبال العالية: ونظرة إلى الغرب حيث التلال الهرمية وثالثة إلى الجنوب حيث الحقول الخضراء ورابعة إلى الشرق حيث المدافن التي تفصل الجبل عن بحيرة الزيتون الصامتة.

اما سكان السيوا فمعظمهم من المزارعين. وأهم مزروعاتهم البلح والزيتون بالاضافة إلى البرتقال والعنب والقمح والخضار. إن ما يميزهم العناد والثبات فهم عاشوا في منطقة معزولة منذ آلاف السنين حتى أصبح لهم لهجة خاصة بهم وهي مزيج من اللغتين العربية والبربرية. والسبب في ذلك يعود إلى أن الواحة هي معبر هام لشعوب كثيرة من مصرية قديمة ويونانية وبربرية وقرطاجية وأفريقية وعربية. أما عددهم فهو سبعة آلاف يعيشون تحت امرة تسعة شيوخ اجلاء. أطفالهم في معظمهم يذهبون إلى المدرسة، وما يلفت النظر تمكّن فتاتين من دخول جامعة الاسكندرية: وهذا حقاً انجاز ضخم لمن يسكن بعيداً عن كل أجهزة الراديو والتلفزيون والعلم الحديث.

وللدلالة على حسن ضيافتهم وبعد أن علموا بمهمتنا العلمية الكشفية، نظم أهل القرية صفوفهم للقائنا وخاصة بعد أن علموا إنني ساهمت في عملية أبولو الفضائية. اللقاء الأول كان مع تلامذة المدرسة والثاني مع السكان والثالث والأخير مع شيوخ القرية. واشد ما أثار دهشتي هو قول أحد الشيوخ أنه يرفض تصديق أنباء الرحلات الفضائية ويعتبرها محض اختلاق. وما إن مضى ذلك اليوم ودُعينا في اليوم اللاحق إلى «سيرة شواء» حتى انشرحت لتقدم ذلك الشيخ مني ليقول انه غيّر رأيه واصبح يصدق قصص اكتشاف القمر. وقد فرحت لهذا الموقف على أمل أن تكون أبحاثنا في واحة السيوا بانسجامها مع الصور المأخوذة من سفينة الفضاء نقطة انطلاق نحو بناء حياة أفضل ومستقبل أحسن لسكان تلك المنطقة. ●

العلاقات الروسية

سياسة الاندفاع نحو المياه الدافئة

(الحلقة الأولى)



بطرس الأكبر



محمد علي باشا.

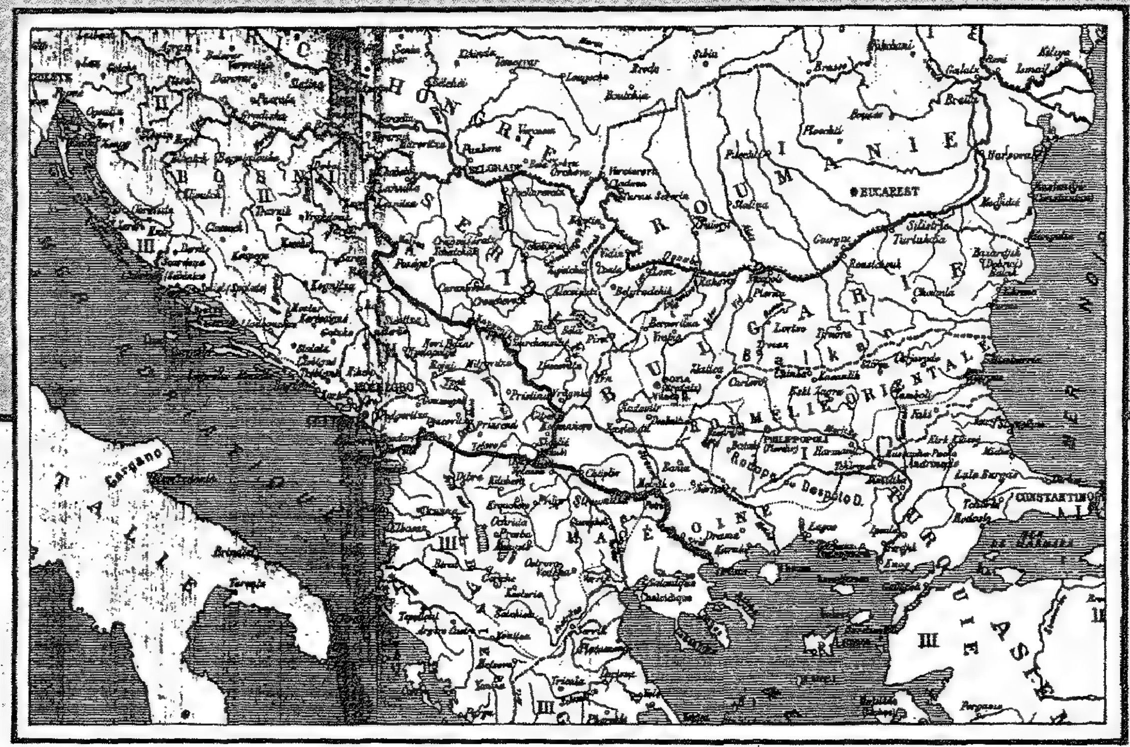
د. عبد الرؤوف سنو

منذ سقوط القسطنطينية بأيدي العثمانيين ظلت العوامل الدينية والاقتصادية تدفع روسيا للسيطرة على الممرات العثمانية وبالتالي على العاصمة العثمانية في سبيل تأمين تجارتها وتنفيذ ادعاءاتها في وراثة الامبراطورية البيزنطية. فتارة بالتوسع العسكري وأخرى بأسلوب التفاهم الدولي. أعلنت روسيا مراراً عن سياستها التقسيمية للدولة العثمانية. إلا أن خططها اصطدمت في كل مرة بمصالح دول أوروبية أخرى. فالنمسا كانت تنازعها الزعامة على البلقان، في حين عارضتها بريطانيا وفرنسا القضاء على الدولة العثمانية لأسباب استراتيجية واقتصادية. ونتج عن تضارب مصالح الدول الأوروبية في الامبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر تأزم متواصل في العلاقات الروسية العثمانية. وفي النصف الثاني من ذلك القرن اشتعلت الحرب مرتين بين الدولتين وتعرف الحرب الأولى من التاريخ تبعاً للمكان الذي دارت فيه «حرب القرم» (١٨٥٣ ــ ١٨٥٦) وانتهت بمؤتمر باريس. وتسمى الحرب الثانية بـ «الحرب البلقانية» (١٨٧٧ ــ ١٨٧٨) وانتهت بمؤتمر برلين. وكلا الحربين والمؤتمرين كانا بعيدي الأثر بنتائجهما في التاريخ الأوروبي والعثماني الحديث.

إن غرضنا من هذه الدراسة هو تتبع علاقات الدولتين في أربع حلقات: الأولى تشمل سياسة الاندفاع نحو القسطنطينية حتى معاهدة الممرات ١٨٤١ ــ الحلقة الثانية تلقي الأضواء على دور الدبلوماسية الروسية في مشاريع تقسيم الدولة العثمانية ــ أما الحلقة الثالثة فمخصصة لحرب القرم ومؤتمر باريس. وتنتهي الدراسة بالحلقة الرابعة التي تتعرض للحرب البلقانية ومؤتمر برلين.

□ د. عبد الرؤوف سنو: دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر ــ جامعة برلين الحرة. دبلوم في التعليم العالي والتنمية الدولية ــ جامعة كاسل.

العثمانية (١٦٨٧ - ١٨٧٨)



□ خارطة تبيِّن مناطق نفوذ الدول المتصارعة.

المسألة الشرقية في السياسة الروسية

تحتل قضية مصير الدولة العثمانية وممتلكاتها، التي يطلق عليها في التاريخ والأدب السياسي «المسألة الشرقية» مكاناً بارزاً في الدبلوماسية الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وباختصار تشمل المسألة الشرقية جميع المشكلات التي ارتبطت بانهيار الامبراطورية العثمانية داخلياً وثورات الشعوب المحكومة منها وأخيراً المصالح المتشابكة والمتضاربة للدول الأوروبية في الامبراطورية العثمانية وتدخل هذه الدول في عملية الانهيار العثماني[1].

ولكن هناك من المؤرخين من يرى جذور المسألة الشرقية في صراع المسيحية والاسلام وإن سقوط القسطنطينية (١٤٥٣) بيد العثمانيين المسلمين وتوسعهم في أراضي أوروبا المسيحية كانت أبرز محطاتها[2]، وبلسان زين زين فإن كراهية الأتراك وبغضهم عسكرياً وعرقياً ودينياً كانت دوافع هذه المسألة[3]. وفي رأي أنه يمكن الأخذ بهذه التعريفات خصوصاً فيما يتعلق بالسياسة الروسية تجاه الدولة العثمانية.

فمنذ سقوط القسطنطينية حاضرة الامبراطورية البيزنطية ومعقل المسيحية الشرقية بيد العثمانيين ادعت روسيا الأرثوذكسية أنها وريثة هذه الامبراطورية وأن موسكو أصبحت روما الثالثة[4].

«فروما الأولى انهارت بسبب هرطقاتها، والثانية سقطت ضحية الأتراك، ولكن روما جديدة وثالثة برزت إلى الوجود في الشمال»[5].

ومما كان يقوي ادعاءات الروس في وراثة الامبراطورية البيزنطية علاقاتهم مع الامبراطورية وكذلك الأهمية الدينية للقسطنطينية. فمنذ القرن العاشر ميلادي توطدت

العلاقات الروسية البيزنطية عندما تحول الأمراء الروس في كييف إلى المذهب الأرثوذكسي وتبعوا القسطنطينية كنسياً[٦]. وبعد سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين أصبحت كنيسة موسكو، التي ورثت مظاهر الطقوس البيزنطية مستقلة من الناحية العملية، ورسمياً منذ عام ١٥٨٨. وقد أفسح ذلك المجال أمام القياصرة الروس أثناء انتقال حماية المسيحية الأرثوذكسية إليهم[٧]. وأخذوا يحلمون باليوم الذي يدخلون فيه القسطنطينية ويطردون المسلمين منها ويعيدون نصب الصليب مجدداً على آياصوفيا[٨].

وبغض النظر عن الأهمية الدينية للقسطنطينية فقد كان موقع المدينة الاستراتيجي وإشرافها على الممرات (البوسفور والدردنيل) وكونها تشكل حاجزاً أمام روسيا للوصول إلى البحر المتوسط أو عبر هذا البحر إلى المياه الأوروبية حين يتجمد بحر البلطيق، يفقد روسيا طابعها كدولة أوروبية. ولهذا سعت روسيا باستمرار للاندفاع جنوباً باتجاه البحر الأسود ومنه عبور الممرات إلى المتوسط، أو على الأقل ضمان حرية المرور في الممرات في كل الأوقات لسفنها التجارية والحربية وإغلاق هذه الممرات أمام سفن أعدائها[٩].

وبالاضافة إلى ما ذكرناه لعبت العوامل الاقتصادية من جانب روسيا دوراً أساسياً في تحديد سياستها التوسعية على حساب الدولة العثمانية. فضمها للشاطىء الشمالي للبحر الأسود عند نهاية القرن الثامن عشر وازدياد السكان في جنوب روسيا، وكذلك الازدهار التجاري والزراعي الذي عرفته المنطقة، رفع من أهمية الممرات بالنسبة لها[١٠]. فازدياد الانتاج الزراعي من الحبوب وتصديره عبر مرفأ أوديسا الروسي حول الثقل الاقتصادي إلى جنوب البلاد، مما جعل تصدير البضائع إلى البحر المتوسط عبر الممرات أمراً حيوياً لروسيا[١١].

وإذا تركنا مسألة القسطنطينية جانباً وألقينا نظرة على السياسة الروسية في البلقان العثماني لرأينا أن روسيا ظلت منذ القرن الثامن عشر تسعى للقضاء على الممتلكات العثمانية هناك وانتزاع ما يمكن انتزاعه منها، أو تشجيع شعوب الامبراطورية المسيحيين على الثورة مستخدمة في ذلك الروابط العرقية التي تربطها بالسلاف وكونها حامية رعايا السلطان الأرثوذكس[١٢].

وهكذا كانت المسألة الشرقية بالنسبة لروسيا هي الاستيلاء على القسطنطينية وإعادة «تنصيرها» والاستفادة من موقعها الاستراتيجي والقضاء على الامبراطورية العثمانية.

استراتيجية الاندفاع نحو المتوسط

قبيل نهاية القرن السابع عشر حدثت تطورات ذات أبعاد هامة في العلاقات العثمانية الأوروبية. ففي ١٦٨٣ فشل الحصار العثماني الثاني لفيينا وكان ذلك مؤشراً للخلل الذي أخذ يصيب الآلة العسكرية العثمانية، التي كانت حتى ذلك الوقت أقوى قوة ضاربة في الشرق والغرب. وقد شجع ذلك على قيام تحالفات أوروبية (١٦٨٤) انضمت إليها روسيا عام ١٦٨٧[١٣]. وكان الهدف منها طرد الدولة العثمانية من ممتلكاتها في أوروبا. وبينما كانت هذه التحالفات تأخذ مكانها على الأرض اعتلى بطرس الأكبر عرش روسيا، وأخذ يتحين الفرصة المناسبة لتنفيذ سياسة توسعية على حساب الدولة العثمانية.

ومنذ عصر بطرس الأكبر وحتى نهاية القرن الثامن عشر يمكن تقسيم السياسة الروسية تجاه الدولة العثمانية إلى مرحلتين وعهدين: المرحلة الأولى وهي عهد بطرس الأكبر، الذي أوصل حدود روسيا حتى شواطىء البحر الأسود الشمالية. أما المرحلة الثانية، وهي عهد الامبراطورة كاترين الثانية، فكانت أبرز معالمها تحويل البحر الأسود إلى بحيرة روسية وتأمين مرور السفن التجارية الروسية عبر المضائق إلى المتوسط وكذلك حماية رعايا الدولة العثمانية الأرثوذكس.

ونبدأ ببطرس الأكبر فنرى أنه قام بعد اعتلائه العرش عام ١٦٨٢ بإصلاحات داخلية ضرورية للنهوض بالبلاد وتقوية نفوذها الدولي. وكانت أبرز معالم هذه الاصلاحات إنشاء جيش حديث (١٦٩٦). وبعدها التفت بطرس الأكبر إلى جارته الكبرى الدولة العثمانية وجعل التوسع في

منطقة البحر الأسود الشمالية ركناً هاماً في سياسته الخارجية. وبغض النظر عن العوامل الاقليمية والدولية التي جعلت روسيا تنضم إلى التحالف النمساوي ـــ البولندي البندقي عام ١٦٨٧ ضد الدولة العثمانية أو تلك التي جعلتها تنخرط بحرب ضد الدولة العثمانية (١٧١١) بسبب تحريض عدوتها السويد للسلطان العثماني عليها. فقد كانت الضرورات الاقتصادية ونمو الانتاج الزراعي يدفع روسيا دفعاً لايجاد منفذ يؤدي إلى مياه البحر الدافئة التي لا تتجمد في فصل الشتاء، في سبيل تصدير بضائعها. وكانت أهمية البحر الأسود كبيرة جداً للتجارة الروسية، وذلك لأن العديد من الأنهار الأوروبية تصب فيه. غير أن البحر الأسود كان بحوزة العثمانيين الذين منعوا السفن الروسية من الملاحة فيه وأغلقوا ممراته إلى المتوسط باحكام أمام السفن التجارية الروسية[١٤].

وكما ذكرنا فقد انضمت روسيا إلى التحالف النمساوي البولندي البندقي عام ١٦٨٧، ولكنها فشلت في الاستيلاء على شبه جزيرة القرم من العثمانيين. ورغم ذلك استغل بطرس الأكبر الحرب النمساوية العثمانية عام ١٦٩٥ وكرر محاولته ضد الدولة العثمانية وتمكن من الاستيلاء على قلعة آزوف (١٦٩٦)، التي كانت حصناً قوياً عند مصب نهر الدون، بالاضافة إلى ثمانين ميلاً من المناطق الداخلية[١٥]. وفي صلح القسطنطينية عام ١٧٠٠ تنازلت الدولة العثمانية عن آزوف، وبذلك فتحت أبواب البحر الأسود أمامها[١٦]. أما الدولة العثمانية فأدركت أن آزوف ليست نهاية الحروب مع روسيا وأن ما سيتبع ذلك هو السيطرة على البحر الأسود وأن بطرس الأكبر يتطلع أيضاً إلى المضائق ومن خلفها البحر المتوسط.

وفي السنوات التالية سار الروس في خطى حثيثة لتطوير المناطق المحيطة بآزوف اقتصادياً وتذكر التقارير أن الحنطة المنتجة من تلك المناطق كانت تأخذ طريقها إلى أسواق الآستانة[١٧]. ومع ذلك فلم ينعم الروس بانتصاراتهم إذ عادوا وخسروا آزوف في حرب عام ١٧١١، ليستعيدوها مرة أخرى بموجب صلح بلغراد عام ١٧٣٩، الذي أنهى الحرب التي اندلعت بين الدولتين بسبب مشكلة تتار شبه جزيرة القرم. وبموجب صلح بلغراد حصلت روسيا على حق شحن بضائعها في البحر الأسود، ولكن على متن السفن العثمانية شريطة عدم بنائها تحصينات في منطقة آزوف[١٨].

وبعد صلح بلغراد عاشت الدولة العثمانية فترة هدوء بسبب انشغال أوروبا بمشاكلها الداخلية[١٩]. ولكن منذ اعتلاء الامبراطورة كاترين الثانية عام ١٧٦٢ عرش البلاد، واصلت روسيا سياستها التوسعية على حساب الدولة العثمانية مستغلة كل حادثة اقليمية أو دولية لتحقيق ذلك. وقد قامت سياسة كاترين الثانية الخارجية على القضاء على استقلال بولندا وإضعاف الدولة العثمانية[٢٠]. وعندما تدخلت الدولة العثمانية ١٧٦٨ بالمسألة البولندية بتحريض من فرنسا بهدف استعادة بودوليا لقاء مساعداتها للثوار البولنديين، استغلت كاترين الثانية المناسبة لتنفيذ مآربها في المشرق، على الرغم من أنها لم تبدأ الحرب ولم تضع أهداف الحرب إلا خلال المعارك. من هذه الأهداف الملاحة في البحر الأسود وتصدير الحبوب من جنوب روسيا. والواقع أن تأخر العثمانيين في إعلان الحرب أفسح المجال أمام روسيا لاستكمال استعداداتها العسكرية[٢١].

وفي الحرب التي استمرت حتى ١٧٧٤ تم تدمير الأسطول العثماني في منطقة جشمه (١٧٧٠) بعد وصول أسطول روسي من بحر ايجة عبر بحر الشمال مستفيداً من الحياد البريطاني، كما أنزلت قواتاً روسية في اليونان وبيروت للتحريض على الثورة. كذلك استولت روسيا على القرم بعدما أحبطت المقاومة العثمانية في البحر الأسود[٢٢].

وأدت هزيمة العثمانيين إلى توقيعهم معاهدة كوتشك قينارجة (١٧٧٤) التي تعتبر في التاريخ السياسي نقطة تحول هامة في علاقات الدولتين وفي النفوذ الروسي في الشرق[٢٣]. فبموجب تلك المعاهدة أصبحت روسيا دولة على البحر الأسود وحصل أسطولها التجاري على حرية الملاحة في البحر الأسود وفي نهر الدانوب والمضائق. وقد استخدمت بريطانيا دبلوماسيتها النشطة لمنع السفن الحربية الروسية من عبور المضائق،

لارتبـاط ذلك بـاستـراتيجيتهـا المتـوسـطيـة. وبالاضافة إلى ذلك أعلن استقلال خانات القرم وثبتت حقوق روسيا في آزوف. كما حصلت روسيا على حق تسمية قناصل لها في الدولة العثمانية. ومقابل ذلك أعادت روسيا بسـارابيا، ملدافيـا وولاشيا إلى السلطان العثماني شرط أن يؤمن هناك الحرية الدينية والادارة العادلة. كما ألزم الباب العالي بدفع تعويضات حرب قدرها أربعة ملايين ونصف مليون روبل[٢٤].

على أن أهم ما تضمنته المعاهدة كانت البنود، سبعة، ثمانية، وأربعة عشر، والتي تعهد فيها الباب العالي أن يحمي باستمرار الدين المسيحي الأرثوذكسي والكنائس المسيحية ويمنح روسيـا تـرخيصاً ببنـاء كنيسة أرثـوذكسية عـامة في استانبول على رأسها أساقفة روس وتوضع تحت حماية السفير الروسي. كما منح سفراء روسيا لدى الباب العالي رسمياً حق عرض شكاواهم والتدخل لصالح الكنيسة الجديدة وضد أي أمر يسيء إليها. ووافق الباب العالي أن يسمح للرعايا الروس وللعلمان ولرجال الدين بتأدية فريضة الحج بالأراضي المقدسة في شتى أنحاء الأراضي العثمانية[٢٥].

وبسبب عدم وضوح بعـض بنود المعاهدة فقد استخدمتها روسيا لخدمة سياستها في حماية رعايا السلطان الأرثوذكس والتدخل في شؤون البلاد الداخلية وفرض حمايتها على السلاف في البلقان[٢٦]. لقد أدى الاختلاف على تفسير هذه المعاهدة إلى أزمات مستمرة بين الدولتين حتى الحرب العالمية الأولى. ومن أبرز محطات هذه الأزمات حرب القرم ١٨٥٣ ــ ١٨٥٦ والحرب البلقانية ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨[٢٧].

وبعد فترة وجيزة تبين أن صلح قينـارجة لم يكن سوى هدنة للفريقين. فالدولة العثمانية ارادت إعادة حكمها على تتار القرم، وروسيا اعتبرت استقلال خانات القرم ليس سوى مرحلة تسبق إخضـاعهم لسيـطرتهـا[٢٨]. فـبـين أعـوام ١٧٧٥ ــ ١٧٧٩ تـأزمت العـلاقـات الروسية العثمانية بسبب القرم، ووقفت الدولتان على حافة الحرب. وبعد وساطة فرنسية بروسية عقد صلح «عينالي كواك» الذي أكد على ما اتفق عليه بشأن تتار القرم في معاهدة قينارجة، وهو



□ كاترين الثانية.

استقلالهم مع احتفاظ السلطان العثماني بحقه كخليفة بأن يختار خان التتار[٢٩].

وفي السنوات التالية واصلت روسيا خططها لطرد العثمانيين من أوروبا. وكان الضعف قد بدأ ينخر كيان الامبراطورية، بحيث وقفت عاجزة عن منع روسيا من ضم القرم عام ١٧٨٣[٣٠]. وعندما حاولت الدولة العثمانية أن تغير هـذا الواقع في حرب ١٧٨٧ ــ ١٧٩٢ منيت بهزائم جسيمة، إذ كان عليها أن تحارب النمسا في نفس الوقت. وبموجب صلح ياسي الذي أنهى الحرب استطاعت روسيا أن تحسن مركزها وأن تحصل على المنطقة الساحلية لنهري الدنستر وبوج[٣١].

وتحول هذا العداء بعد سنـوات قليلة إلى تحالف مؤقت بعدما احتل نابوليون بـونابـرت مصر. وكانت روسيا على استعداد لدعم الدولة العثمانية ضد فرنسا بعدما استسلمت النمسا لنابوليون. وفي ١٧٩٩ وعلى أثر وساطة بريطانية وقعت كل من روسيا والدولة العثمانية معاهدة الآستانة، سمحت بموجبها الثانية للأولى بإدخال أسطولها إلى المتوسط عبر المضائق. وكانت هذه هي المـرة الأولى التي يعبـر فيهـا الأسـطول الحربـي الروسي المضائق، ولكن كحليف للدولة العثمانية[٣٢].

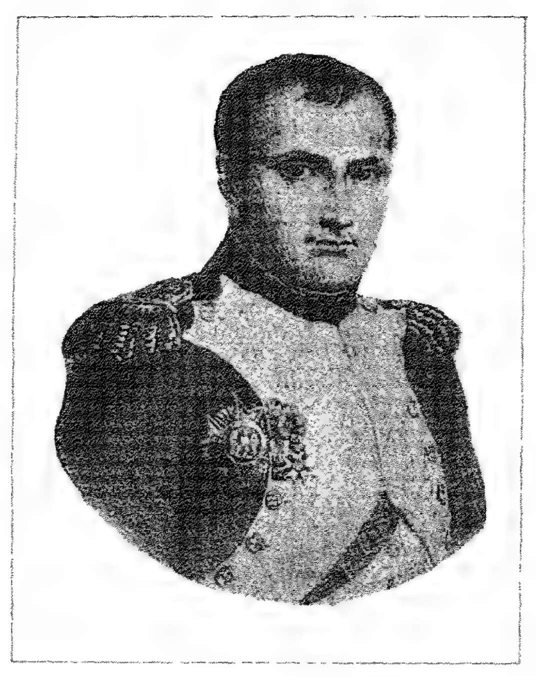
وبانتهاء القرن الثامن عشر كانت روسيا قد أصبحت دولة عظمى بعدما دمرت جيرانها أو أضعفتهم. كما كانت تمتلك مينائين، الأول على بحر الشمال، والآخر على البحر الأسود[٣٣]. كذلك استطاعت أن تحقق تقدماً سريعاً في تحديث الادارة والجيش وتطوير الحياة الاقتصادية إلى حد ما. بالاضافة إلى ذلك أخذت تتبنى أفكاراً تقنية جديدة، مما أعطاها تفوقاً على جيرانها وخصوصاً الدولة العثمانية[٣٤]. ومقابل ذلك عجزت الدولة العثمانية في إحداث إصلاحات جذرية، واقتصرت جهود بعض سلاطينها على إصلاحات سطحية لم تستطع إيقاف تدهورها[٣٥].

العلاقات الروسية العثمانية حتى اتفاقية الممرات ١٨٤١

أبرز ما جسدته علاقات الدولتين خلال تلك المرحلة أن الفترة التي امتدت حتى صلح أدرنة (١٨٢٩) تميزت بعلاقات عدائية بين الطرفين نتيجة لاستمرار روسيا في سياستها للقضاء على الدولة العثمانية وظهورها عملياً كحامية للشعوب البلقانية الثائرة على الدولة العثمانية. لكن فترة العشر سنوات المتبقية، أي حتى اتفاقية الممرات ١٨٤١، شهدت ارتخاء وهدوء على ساحات القتال وتحول الاندفاع العسكري الروسي إلى دبلوماسية ضاغطة أو «ودودة» في استانبول. والواقع، كما سنرى بعد ذلك، أن هذا التباين لم يكن تناقضاً في السياسة الروسية أو تغييراً في الاستراتيجية الروسية تجاه الدولة العثمانية، بل تكتيكاً حتمته الظروف الاقليمية والدولية في اوروبا والشرق[٣٦].

١ ـ روسيا والدولة العثمانية في الربع الأول من القرن التاسع عشر

ويبدأ القرن التاسع عشر وأوروبا تتخبط بعضها ببعض نتيجة لما أفرزته الحملات الفرنسية من تناقضات في المجتمع الأوروبي وكذلك لما سببته سياسة نابوليون الامبريالية في اختفاء حدود وتلاشي وقيام دول أخرى. وفي خضم الحروب البونابرتية حاولت الدبلوماسية الفرنسية الاستفادة من الدولة العثمانية في الصراع



□ نابليون بونابرت

الأوروبي، وخصوصاً عندما كان الأمر يتعلق بتقارب روسيا إلى فرنسا أو تباعدها عنها. ومن جهة أخرى أيقظت الحروب البونابرتية أملاً لدى الدولة العثمانية بإمكانية استعادتها لمركزها في ولايتي الدانوب والقرم فيما لو انهزمت روسيا أمام فرنسا في التحالف الدولي الثالث، الذي بدأ عام ١٨٠٥. ففي عام ١٨٠٦ عندما كانت فرنسا في حرب ضد روسيا حرضت الأولى الدولة العثمانية على استئناف العلاقات العدائية ضد روسيا وفي نفس الوقت كانت الثورة مشتعلة في صربيا وتتلقى إمدادات روسية. وعلى أثر مذبحة للعثمانيين في بلغراد وبعد عزل الدولة العثمانية أمراء ملدافيا وولاشيا الموالين لروسيا اندلعت عام ١٨٠٦ الحرب العثمانية الروسية[٣٧]. وفي العام التالي وجدت الدولة العثمانية نفسها تخوض الحرب منفردة بعدما تخلت عنها «حليفتها» فرنسا وعقدت مع روسيا صلح تلست (١٨٠٧). وفي هذه الحرب التي استمرت حتى ١٨١٢ احتلت روسيا ملدافيا ومعظم ولاشيا، كما سقطت قلعة روتشك على الدانوب. ولكن روسيا سارعت بعقد السلام مع الدولة العثمانية بعدما أدركت أن علاقاتها السيئة مع نابوليون ستقودها إلى الحرب مع فرنسا،

وخشيت بذلك أن تحارب على جبهتين. وبموجب صلح بوخارست (١٨١٢) بين روسيا والدولة العثمانية عين نهر بروث وفرع الدانوب الشمالي حدوداً بين الدولتين. كما حصلت روسيا على بسارابيا مقابل إعادة الولايتين الدانوبيتين إلى الادارة العثمانية. وأخيراً حصلت بعض أجزاء صربيا الثائرة على الاستقلال الذاتي[٣٨]. وعندما اشتعلت الحرب الفرنسية الروسية في العام التالي بعد صلح بوخارست قامت الدولة العثمانية وضربت الصرب واستعادة بلغراد مجدداً.

ولكن السلام لم يستمر طويلاً بين روسيا والدولة العثمانية. فبعد انتهاء الحروب الأوروبية والقضاء على امبريالية نابوليون ووضع صيغة «الوفاق الأوروبي» الجديد (مؤتمر فيينا ١٨١٥) أو تحالف الدول الأوروبية وخاصة العروش الرجعية (الحلف المقدس)، وجدت روسيا نفسها اكثر حرية في مواصلة سياستها تجاه الدولة العثمانية. وكانت ثورات الشعوب المسيحية في الدولة العثمانية توفر الأرض الخصبة للنزاعات بين الدولتين. فعندما بدأت الثورة اليونانية في بداية العشرينات من القرن الماضي كانت العلاقات الروسية العثمانية سيئة بسبب الاختلاف على تفسير نصوص معاهدة بوخارست وبسبب رفض روسيا إخلاء القوقاز الذي احتلته خلال الحرب الأخيرة. هذا بالاضافة إلى الاختلافات على قضايا تجارية[٣٩].

٢ ـ روسيا والثورة اليونانية

ولم تكن الثورة اليونانية لتسبب النزاعات بين روسيا والدولة العثمانية فحسب، بل كانت مسألة تدخل في صميم التوازن الأوروبي ومبدأ «التجانس الأوروبي»، خصوصاً عندما وجه القيصر الكسندر الأول في ٢٢ حزيران ١٨٢١ مذكرة إلى الدول الأوروبية يتساءل عن موقف الدول الأوروبية من الأزمة اليونانية إذا ما تورطت روسيا في حرب مع الدولة العثمانية[٤٠]. والواقع أن الدول الأوروبية وخاصة النمسا وبريطانيا كانتا تدركان موقف الكسندر الأول المتحفظ تجاه الثورات وتأييده المشروط للثورة اليونانية[٤١]. ولكن النمسا المؤيدة للسلطان في المسألة اليونانية كانت تخشى أن تستغل روسيا الأزمة اليونانية وادعاءها حماية الأرثوذكس لتنفيذ سياستها التوسعية في الدولة العثمانية مما يؤثر على مصالحها في البلقان[٤٢]. أما بريطانيا فكانت تريد المحافظة على الوضع القائم كي لا تستفيد روسيا من أية منازعات او اضطرابات في تحقيق سياستها في الممرات. وجاء تدخل القوات المصرية في الأزمة ليزيد قناعات بريطانيا بضرورة التحرك سريعاً وعرض المسألة اليونانية على طاولة المفاوضات الأوروبية[٤٣].

وقبيل وفاة القيصر الكسندر الأول واعتلاء نيقولا عرش روسيا في أواخر عام ١٨٢٥ كانت بريطانيا تجري مفاوضات مع روسيا بشأن المسألة اليونانية. ونجحت بإقناع روسيا بفصل نزاعاتها مع الدولة العثمانية عن المسألة اليونانية. وتكللت هذه المفاوضات بتوقيع «بروتوكول بطرسبرغ» في ٤ نيسان ١٨٢٦ الذي انضمت إليه فرنسا بعد فترة قصيرة[٤٤]. وقد قررت الدول الثلاث الموقعة على البروتوكول التدخل بالمسألة اليونانية «من أجل وضع حد» للحوادث «التي تثير الاضطرابات في منطقة الليفانت»[٤٥].

وخلال المفاوضات البريطانية الروسية بعث القيصر نيقولا في ١٧ آذار ١٨٢٦ إنذارين إلى الحكومة العثمانية، يتعلق الأول بالمسألة اليونانية ويطالب فيه بإعطاء اليونان الحكم الذاتي لقاء دفع الجزية. أما الانذار الثاني فكان تهديداً للدولة العثمانية بوجوب تنفيذ مقررات معاهدة بوخارست خلال ستة أسابيع، وهي إعادة الحقوق الروسية في الولايتين الدانوبيتين واستقلال الصرب[٤٦]. وبعد أيام على الانذار صرح المبعوث الروسي في الآستانة بأن بلاده تحتفظ بحقها فيما يتعلق بالمسائل العالقة بينها وبين الدولة العثمانية وأنها لديها القدرة على حلها دون أي تدخل خارجي[٤٧]. وبعبارة أخرى أراد السفير الروسي إفهام الدول الأوروبية بأن دولته قد سلمت بأن المسألة اليونانية قضية دولية لا تحل إلا عن طريق التفاهم الدولي، ولكن النزاع مع الدولة العثمانية هو على عكس ذلك مسألة تتعلق بروسيا وحدها وليست من شؤون المجموعة الأوروبية.

والواقع أنه لم يكن أمام السلطان محمود الثاني سوى الرضوخ للانذار الروسي فيما يتعلق بقضية النزاع حول تفسير معاهدة بوخارست.

ففي آذار ١٨٢٦ كان يستعد لتوجيه ضربته القاضية إلى جيش الانكشارية الذي طال فساده، بحيث لم يكن بمقدرته مناهضة عدوته روسيا(٤٨). وبالاضافة إلى ذلك رأت الحكومة العثمانية أن القبول بالمطالب الروسية سوف يفقد روسيا حججها في محاربتها، وبالتالي يكسبها تأييداً بريطانياً وفرنسياً وكذلك تعاطف الرأي العام الأوروبي معها. في معاهدة اكرمان (٧ تشرين أول ١٨٢٦) وافقت الدولة العثمانية على المطالب الروسية فيما يتعلق بالولايتين الدانوبيتين وبلاد الصرب(٤٩).

وفي تطور دراماتيكي للأزمة اليونانية رفضت الدولة العثمانية مقررات لندن (٦ تموز ١٨٢٧) الداعية لاستقلال اليونان مما دفع أساطيل الدول الأوروبية المحتشدة قرب نافارين إلى تدمير الأسطولين المصري والعثماني دون سابق إنذار مما أعطى الأسطول الروسي تفوقاً على الأسطول العثماني في البحر الأسود(٥٠). وبعد قليل أخذت العلاقات الروسية العثمانية تسوء بسبب تلكؤ الحكومة العثمانية بالجلاء عن ملدافيا وولاشيا طبقاً لاتفاقية اكرمان. ثم ما لبثت روسيا أن أعلنت الحرب على الدولة العثمانية (نيسان ١٨٢٨)، وتقدمت جيوشها في القوقاز واحتلت اردهان وبايزيد وأرضروم. كما عبر جيش روسي آخر البلقان واحتل أدرنة، القريبة من العاصمة العثمانية، مما سبب قلقاً دولياً حول مصير الدولة العثمانية(٥١). وبعد وساطة بروسية، وتبني الحكومة الروسية لسياسة جديدة تجاه الدولة العثمانية تقضي بضرورة عدم القضاء عليها في تلك المرحلة(٥٢)، توصلت روسيا، والدولة العثمانية إلى «صلح أدرنة» (١٤ أيلول ١٨٢٩).

وبموجب هذا الصلح حلت جميع القضايا الحدودية بين الدولتين، فتخلت الدولة العثمانية عن مقاطعاتها في القوقاز وعن جزر الدانوب. كما وافق السلطان العثماني على وضع ولايتي الدانوب تحت الحماية الروسية(٥٣).

٣ - روسيا والأزمة المصرية

وما أن انتهت الدولة العثمانية من الأزمة اليونانية حتى بدأت تواجه خطراً داخلياً جديداً مصدره مصر التي خرجت عن طاعتها وتريد ابتلاع ممتلكاتها، والقضاء على سيادتها. ففي أواخر تشرين الثاني عام ١٨٣١ بدأت جيوش محمد علي، والي مصر، تغزو سوريا. وفي العامين التاليين حقق ابراهيم باشا انتصارات حاسمة على جيوش السلطان مما أحدث قلقاً لدى الدوائر البريطانية والروسية والنمساوية. أما روسيا فخشيت أن يطاح بسيادة السلطان وأن تقوم حكومة جديدة قوية (مصر) على البوسفور وأن تلعب فرنسا التي كانت قد عايشت قبل قليل (١٨٣٠) ثورة شعبية دوراً في السياسة الخارجية لدولة مصر الفتية(٥٤). وقد عبر نسلرود (Nesselrode)، المستشار الروسي، بأن رؤية محمد علي يتوسع على حساب الامبراطورية العثمانية يهدد مصالح روسيا التي سترى «جاراً قوياً ومنتصراً يأخذ مكان جار ضعيف مهزوم»(٥٥). وكان القيصر نيقولا يرى أن وصول القوات المصرية إلى منطقة الممرات يهدد أمن روسيا التي عليها أن تحافظ على بوابات منزلها «كي لا تقع بيد محمد علي»(٥٦)، ولا بيد أية قوة أخرى(٥٧). ولهذا قررت روسيا أن تستغل الموقف الدولي من الأزمة المصرية وتقوم بتحرك دبلوماسي منفرد لدى الباب العالي يخدم سياستها التي كانت قد قررتها عام ١٨٢٩ بعدم تقسيم الدولة العثمانية. فبريطانيا كانت مشغولة بالثورة البلجيكية والاصلاحات الداخلية ولم تعط في البداية الأزمة المصرية الأهمية المفروضة. أما النمسا فكانت لا تزال مترددة في موقفها من محمد علي وتعتقد أنه لا يشكل خطراً على سيادة السلطان العثماني، في حين كانت فرنسا تشجع محمد علي في سياسته التوسعية في مصر وسوريا(٥٨).

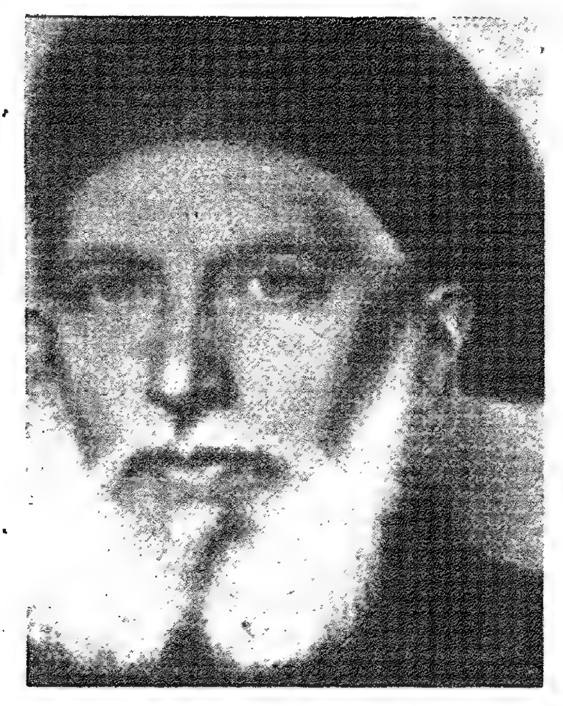
وفي ٢١ كانون الأول ١٨٣٢ عرض بوتنييف (Boutenieff) ممثل روسيا على الحكومة العثمانية استعداد حكومته لتقديم دعم عسكري ضد محمد علي. وفي الشهر التالي وصل الجنرال مورافييف (Mouraview) إلى العاصمة العثمانية

بمهمة خاصة، في اللحظة التي كان فيها الجيش العثماني ينهزم عند قونية. وعرض على السلطان إرسال أسطول روسي إلى المياه العثمانية للدفاع عن القسطنطينية. ولكن محمود الثاني تردد في قبول العرض الروسي(٥٩).

وعندما يئس الباب العالي في الحصول على دعم من بريطانيا والنمسا وفرنسا بعث في ٣ شباط ١٨٣٣ بمذكرة إلى القائم بالأعمال الروسي، بوتنييف، لا يطلب فيها إرسال أسطول روسي إلى منطقة المرات فحسب، بل إرسال قوات برية من ملدافيا عبر الأستانة إلى آسيا الصغرى. وبناء على ذلك نزل في ٢٠ شباط أربعة عشر ألف جندي روسي في منطقة البوسفور وعسكروا هناك. وقد سبب ذلك صدمة وقلقاً لكل من بريطانيا والنمسا وأيضاً لفرنسا. فقد خشيت هذه الدول من أن تستغل روسيا انهيار الحكومة العثمانية لتقوي مركزها في المرات. ورأت أن خير ما تقوم به هو التوسط لعقد سلام بين محمد علي والسلطان وأن ذلك يفقد روسيا مبرر وجود قواتها في المرات. وفي ١٨ نيسان ١٨٣٣ عقد صلح كوتاهية بين مصر والدولة العثمانية، اعترف بموجبه محمود الثاني بمحمد علي حاكماً على سوريا(٦٠).

٤ ـ معاهدة خنكار اسكلسي ونتائجها

ورغم صلح كوتاهية تابعت روسيا دبلوماسيتها الضاغطة على الدولة العثمانية للحصول على مزيد من المكاسب منها. ففي ٥ أيار وصل الكونت أورلوف إلى الآستانة في محاولة لاقناع السلطان بضرورة «تمتين» العلاقات الروسية العثمانية. واستطاع اورلوف ان يقنع محمود الثاني بأن روسيا هي الصديق الوحيد للامبراطورية من بين كل الدول الأوروبية، وأنها الوحيدة التي قدمت له العون العسكري. وكانت ثمرة هذه الجهود عقد تحالف دفاعي مشترك لمدة ثماني سنوات (معاهدة خنكار اسكلسي، ٨ تموز ١٨٣٣). وتضمنت المعاهدة بنداً سرياً سرعان ما اصبح معروفاً لدى الدوائر البريطانية، ونص على تبادل المساعدة في حالة الاعتداء على إحداهما، وبإعفاء الحكومة العثمانية من هذا الالتزام مقابل إغلاقها للممرات «عند



□ ابراهيم باشا.

الحاجة» بوجه السفن الحربية للدول المعادية لروسيا. ولم يكن واضحاً عما إذا كان معنى هذا السماح للسفن الروسية باستخدام الممرات. ولكن بريطانيا وفرنسا راودتهما الشكوك بأن السفن الحربية الروسية كانت مستثناة من هذا المنع(٦١).

وتكمن اهمية معاهدة خنكار اسكلسي أيضاً في الوعود المتبادلة بين القيصر والسلطان بالتفاهم الصريح حول كل مسألة تتعلق باستقرار بلديهما. (المادة ١). وباختصار حصلت روسيا على حق أن يكون لها كلمة مسموعة لدى الباب العالي(٦٢). وقد علق المستشار الروسي نسلرود على المعاهدة بقوله «حصل تدخلنا المسلح في شؤون تركيا على أساس قانوني»(٦٣). أما وزير التربية الفرنسي غيز فكتب فيما بعد بأن روسيا حولت بموجب المعاهدة الدولة العثمانية إلى دولة تابعة لها، كما حولت البحر الأسود إلى بحيرة روسية(٦٤).

واتبعت روسيا هذه المعاهدة بمعاهدة أخرى مع الدولة العثمانية (١٧ ك٢ ١٨٣٤) كانت أهم بنودها ما يتعلق بتعديل الحدود بين الدولتين في آسيا الصغرى. وقد جاءت تلك المعاهدة لمصلحة



□ خارطة تبيِّن مناطق نفوذ الدول المتصارعة.

روسيا بعدما تخلت الحكومة العثمانية عن المناطق لها. كما اعترف الباب العالي بالاجراءات الدستورية التي كانت روسيا قد قامت بها خلال احتلالها لولايتي الدانوب. وأخيرا حددت تعويضات الحرب التي كان على الحكومة العثمانية أن تدفعها لروسيا(٦٥).

وكانت النمسا وبريطانيا وفرنسا أكثر الدول تضرراً من اتفاقية خنكار اسكلسي. ولذا سارعت كل واحدة لاتخاذ إجراءات تجعل المعاهدة عديمة المفعول من الناحية العملية. فعقدت النمسا مع روسيا اتفاقية ميونيخ غراتز (١٨ أيلول ١٨٣٣)، التي ألزمت روسيا بالاتفاق التام معها في كل ما يتعلق بمصير الدولة العثمانية(٦٦). أما بريطانيا، التي شكلت المعاهدة نقطة تحول في سياستها المشرقية(٦٧)، فقررت أخذ زمام المبادرة في الأزمة المصرية والوقوف إلى جانب الباب العالي. فتقدمت بعروض لدعم السلطان وهي تعتقد أن مقدار تقربها إلى الدولة العثمانية والوقوف إلى جانبها سوف يبعد الحكومة العثمانية عن روسيا، أي بعبارة أخرى، سوف يجعل معاهدة خنكار اسكلسي عديمة الجدوى. وبين عامي ١٨٣٣ ــ ١٨٤١ زادت بريطانيا من علاقاتها التجارية مع الدولة العثمانية (معاهدة بلطا ليمان ١٦ آب ١٨٣٨)، ومن تعاونها العسكري معها (إعادة بناء البحرية العثمانية) وكثفت من دراسة مشاريع المواصلات البرية مع الهند باستخدام السويس والفرات، وضمت عدن (١٨٣٨). وأخيراً عقدت مباحثات مع الباب العالي بشأن قيام تحالف بينهما ضد محمد علي (نيسان ١٨٣٩)(٦٨). وفي نفس الوقت (١٨٣٨) عقدت بريطانيا معاهدة مع النمسا لضمان الملاحة الحرة في نهر الدانوب وتأمين تجارتهما في البحر الأسود(٦٩). أما فرنسا فسارت سياستها في تلك المرحلة في اتجاهين: التمسك بسياسة الحفاظ على الدولة العثمانية ورفض كل ما يقلق السلطان العثماني على البوسفور، أي الوجود الروسي وآثار معاهدة خنكار اسكلسي. أما الاتجاه الثاني، فهو أنها لا تريد أن تحرم محمد علي من انتصاراته في أن يضم مصر وسوريا(٧٠).

٥ ــ معاهدة الممرات (١٨٤١)

وبينما كان موعد انتهاء معاهدة خنكار اسكلسي يقترب (١٨٤١) كانت روسيا تدرك أكثر فأكثر أن المعاهدة لا يمكن أن تنفذ عملياً وبالتالي

لا يمكن تجديدها. فقد عارضتها دول أوروبا الكبرى وفي مقدمتها بريطانيا. كما كان التعاون البريطاني العثماني يشير في نفس الوقت إلى تحرر الباب العالي من الوصاية الروسية. ورغم أن روسيا حاولت من خلال اتفاقية تخفيض تعويضات الحرب التي تدفعها لها الحكومة العثمانية إلى النصف (٢٧ آذار ١٨٣٦) أن تستميل الباب العالي(٧١)، إلا أن الأخير سار باتجاه «الحل البريطاني» للأزمة المصرية. وكانت روسيا في الواقع بوضع اقتصادي سيء وتدرك انها لن تستطيع أن تستخدم القوة ضد الباب العالي لفرض سياستها عليه وبالتالي للمخاطرة بمجابهة مع بريطانيا. ولهذا رأى نيقولا أنه من الأفضل له أن يساير السياسة البريطانية لأن هذا قد يبعد بريطانيا عن فرنسا. وقد أتاح تعاون بريطانيا وروسيا مع غيرهما من الدول الأوروبية في حل المسألة المصرية إلى توقيع الدول الخمس العظمى لمعاهدة الممرات (١٣ تموز ١٨٤١)، التي نصت على إقفال الممرات أمام السفن الحربية الأجنبية ما دام الباب العالي في حالة سلم(٧٢). ولكن السلطان لم يقيد نفسه بمبدأ الاغلاق إذا ما وجد نفسه مشتركاً في حرب، وأصبح من حقه في مثل هذه الحالة استدعاء اسطول «دولة صديقة». والواقع كانت معاهدة الممرات انتكاساً للسيادة العثمانية في ممارسة حقوقها المشروعة على أراضيها ومرافقها. فقد أصبح الباب العالي في وقت السلم حارساً للممرات تحت إمرة أوروبا. ولكن المعاهدة كانت في مضمونها موجهة ضد روسيا، إذ أنها ألغت الامتيازات التي حصلت عليها روسيا نتيجة معاهدة خنكار اسكلسي وحرمتها من مزاولة دور دولة متوسطية. ومع ذلك فقد أسعدت المعاهدة روسيا في أنها منعت أيضاً بريطانيا من استخدام الممرات في حالة السلم لأغراض عسكرية. وباختصار فإن معاهدة الممرات التي ظلت سارية المفعول حتى الحرب العالمية الأولى كانت ضماناً أخذته كل من روسيا وبريطانيا الواحدة ضد الأخرى وبرهاناً على الوفاق الذي جمعهما عام ١٨٣٩ ــ ١٨٤٠ في المحافظة على الامبراطورية العثمانية(٧٣).

وبعد انتهاء الأزمة المصرية نعمت الدولة العثمانية بفترة هدوء من جانب روسيا استمرت حتى ١٨٥٣، أي حتى اندلاع حرب القرم. ولكن هدوء جبهات القتال الروسية العثمانية لم يكن يعني تخلي روسيا عن خططها لتقسيم الدولة العثمانية والاستحواذ على الممرات. فالفترة الممتدة من انتهاء الأزمة المصرية حتى اشتعال حرب القرم شهدت نشاطاً روسياً دولياً لتقسيم الدولة العثمانية، ولكن بالتفاهم مع الدول الأوروبية. وهذا ما سنبحثه في الحلقة التالية. ●

الهوامش

(١) انظر:

— Winfried Baumgart: Vom Europaeischen Konzert zum Voelkerbund, Friedenschluesse und Friedenssicherung von Wien bis Versailles, Darmstadt 1974, p.23; Weltgeschiehte in Zehnbaenden.

(موسوعة «تاريخ العالم» الروسية المترجمة إلى الألمانية)

Redaktion: J.J. Sutis, Vol. V, Berlin 1966, p.220.

(٢) يعرف أدوار دريو المسألة الشرقية بأنها:

«Le problème de la ruine de la puissance politique de L'Islam» Édouard Driault: La question d'Orient depuis ses origines jusqu' a la pais sèvres (1920), Paris 1921, p.X, 1.

— ويرى سورل ويشاركه مورلي بالرأي، بأن المسألة الشرقية نشأت منذ أن ظهر العثمانيون في أوروبا وسيطروا على القسطنطينية وحكموا شعوباً مسيحية.

— Albert Sorel: La question d'Orient au XVIII siecle, le partage de la Pologne et le traité de Kainardji, Paris 1889, p 1.

— John Morely: The life of William Ewart Gladstone, Vol.I (1809 — 1859), London 1903, p.476.

ــ نقلاً عن زين نورالدين زين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، بيروت ١٩٧١ ص ٢٢.

(٣) زين، المرجع السابق، ص ٢٣.

(٤) Karl Marx: The Eastern Question. A Reprint Letters Written 1853 — 1856 dealing with the Events of Crimean War, London 1969, p.81.

(٥) وردت هذه العبارة في رسالة بعث بها أحد الرهبان الروس إلى الـدوق باسيل الثالث، انظر:

— Derek Hopwood: The Russian presence in Syria and palestine 1843 — 1914, Church and politics in the Near East, Oxford 1969, p.2.

(٦) حسن علي: العثمانيون والروس، دمشق ١٩٨٢، ص ١١ ــ ١٢، ٤٠ ــ ٤٣.

— Fischer Weltgeschichte, Vol. XXXI, Russland, Frankfurt a.M. 1976, p.42 — 44.

(٧) راجع خيرية قاسمية: **روسية القيصرية والمشرق العربـي**، في «دراسات تاريخية»، عدد ٩ و ١٠، جامعة دمشق، تشرين الأول ١٩٨٢، ص ٤٣.

— Hopwood, op.cit. p.2.

(٨) Carl Ritter von Sax: Geschichte des Machtverfalls der Tuerkei bis Ende des 19. Jahrhunderts und die phasen der «orientalischen Frage» bis auf die Gegenwart, Wien 1908, p.114.

(٩) J.A.R. Marriott: The Eastern Question. A Historical Study in the European Diplomacy, Oxford 1917, p.17.

(١٠) E.P. Mosely: Russian Diplomacy and the Opening of the Eastern Question in 1838 — 1839, London 1934, p 4.; M. Anderson: The Eastern Question, 1774 — 1923, London 1966, p.39.

(١١) Baumgart, op.cit., p.32.

(١٢) المرجع السابق، ص ٣٢.

(١٣) Ernst Werner und Walter Markov: Geschichte der Tuerkei von den Anfaengen bis zur Gegenwart, 2. ed., Berlin 1979, p.155;

ــ وقارن أيضاً، موسوعة تاريخ العلم الروسية، ج ٥ ص ٢١٤.

(١٤) لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، موسكو بت، ص ٢٢ ــ ٣٣.

—The Cambridge Modern History, the Growth of Nationalities, Vol. XI, Cambridge 1909, p 272; Baumgart, op.cit., p.32.

(١٥) Sydney Nettleton Fisher: The Middle East, A History. 2. ed. London 1971, p. 247.

(١٦) موسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٥ ص ٢١٥.

(١٧) Iwan Kirchner: Der Nahe Osten. Der Kampf um Vorderasien und Aegypten vom Mittelalter bis zur Gegenwart, Bruenn / Muenchen / Wien 1943, pp. 137 — 139.

(١٨) J.C. Hurewitz: The Middle East and North Africa in World politics A Documentary Record. Vol. I, European Expansion, 1535 — 1914, 2. ed., London 1975, p. 71; Werner und Markov, op.cit. p. 168.

(١٩) شهدت أوروبا في تلك الفترة حربين كبيرين وهما: حرب وراثة عرش النمسا واستمرت من ١٧٤٠ ــ ١٧٤٨ وحرب السبع سنوات التي استمرت من ١٧٥٦ ــ ١٧٦٣.

(٢٠) Handbuch der Europaeischen Geschichte, Edited by Theodor Schieder, Vol. 4, Europa im zeitalter des Absolutismus und der Aufklaerung, Stuttgart 1968, p. 502.

ــ (سيختصر هذا الكتاب فيما بعد بـ HB).

(٢١) Sorel, op.cit. pp. 17 — 28.

(٢٢) انظر:

— Norman E. Saul: Russian and the Meditterranean 1797 — 1807 Chicago / London 1970, pp. 6 — 8; op.cit. Vol. 4, pp. 503 — 505; Driault, op.cit., pp. 50 — 54.

ــ ولوتسكي، ص ٣٩.

(٢٣) انظر:

— Hurewitz, op.cit., p. 94F.

(٢٤) راجع:

— Hurewitz, op.cit., pp. 92 —101; Sax 107, Sorel 260f.

(٢٥) Hurewitz, p. 95, 96; Edmond Rabbat: La question d'Orient sous l'Empire Ottomane 1789 — 1919, 1. ed., Beyrouth, p. 20.

(٢٦) F. Eichmann: Die Reformen des Osmanischen Reiches mit besonderer Berueksichtigung des Verhaeltnisses der Christen des Orients zur Tuerkischen Herrschaft, Berlin 1858, p. 55, 61; Werner / Markov, p. 180.

(٢٧) انظر:

— Barbara Jelavich: petersburg and Moscow. Tsarist and Soviet Foreign policy 1814 — 1974, Bloomington / London 1974, p. 21.

— ولمزيد من المعلومات عن تينك الحربين راجع المقالتين الثالثة، والرابعة من هذه الدراسة.

(٢٨) Sax, op.cit., 108.

(٢٩) المرجع السابق، ص ١١٣.

(٣٠) Mariott, op.cit., p. 140.

(٣١) Fischer Weltgeshcihte, op.cit., Vol. XXXI, p. 195.

(٣٢) Saul, op.cit., pp. 61 — 77.

(٣٣) Barbara Jelavich: The Ottoman Empire, the Great powers, and the Straits Question 1870 — 1887, Bloomington / London 1973, p. 27.

(٣٤) HB, op.cit., Vol. IV, pp. 486 — 492.

(٣٥) انظر، عبدالرؤوف سنو: أثر الغرب الأوروبي في حركة الاصلاحات في الدولة العثمانية ١٧٨٩ ــ ١٨٣٩، اطروحة دبلوم، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٥.

(٣٦) راجع الحلقة الثانية من هذه الدراسة.

(٣٧) انظر، محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة، ص ١٠٤ وما بعد.

— Anderson, op.cit., pp. 48 — 49.

(٣٨) L.S. Stavrianos: The Balkan since 1453, N.Y. / London 1958, pp. 202 — 211; HB, op.cit., Vol. V, p. 997; Anderson, op.cit., pp. 49 — 50.

(٣٩) Anderson, op.cit., p. 59 — 60.

(٤٠) Sax, op.cit., p. 196.

(٤١) J. Hajjar: L'Europe et les destinées du proche — Orient (1815 — 1848) Tournai, 1970, p. 82; Stavrianos, op.cit., p. 287.

(٤٢) G. Rosen: Geschichte der Tuerkei von dem Siege der im Jahre 1826 bis zum pariser Tractat vom Jahre 1856, Vol. I, Von der Vertilgung der Janitscharen bis zum Tode Mahmuds II., Leipzig 1866, p. 25; G.D. Clayton: Britain and the Eastern Question: Missolonghi to Gallipoli, London 1971, 45.

(٤٣) Clayton, p. 42f., 45 — 47.

(٤٤) Stavrianos, p. 288; Sax, p. 207; HB, Vol. 5, p. 999.

(٤٥) نقلاً عن حجار:

— Hajjar, op.cit., p. 79.

(٤٦) Sax, p. 207f.

(٤٧) Rosen, op.cit., Vol. I, p. 30f.

(٤٨) Howard Reed: *«The Destruction of the Janissaries in 1826»*. A Microfilm of ph.D. Dissertation, princeton 1951, deposited by the AUB.

(٤٩) انظر:

— Driault, p. 121; Stavrianos, p. 288f.; HB, V, p. 999.

— والدسوقي، ص ١٤٧.

(٥٠) Stavrianos, p. 289; Vernon John puryear: France and the Levant. From the Bourbon Restoration to the peace of Kutiah, California, pp. 49 — 51.

— وموسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦ ص ٢٩٦.

(٥١) كانت النمسا هي الدولة الأوروبية الوحيدة التي قدمت للدولة العثمانية مساعدات مادية في حربها ضد روسيا، في حين وقفت بريطانيا وفرنسا على الحياد، انظر موسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦ ص ٢٩٦.

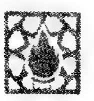
(٥٢) انظر الحلقة الثانية من هذه الدراسة.

(٥٣) Edward S. Creasy: History of the ottomanTurks: From the Beginning of their Empire to the present Time, London 1878, reprint Beirut 1961, p. 519f.

(٥٤) موسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦ ص ٣٠٢.

(٥٥) راجع بيير نوفان: تاريخ العلاقات الدولية (القرن التاسع عشر ١٨١٥ ــ ١٩١٤)، تعريب جلال يحيى، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٣٢.

(٥٦) Mosely, op.cit., p. 7.
(٥٧) Hajjar, op.cit., p. 73.
(٥٨) Clayton, op.cit., 65; Hajjar, pp. 111 — 119; Henry Dodwell: The Founder of Modern Egypt. Study of Muhammad Ali, Cambridge 1931, reprinted 1967, p. 112; puryear, France, op.cit., p. 154.
(٥٩) Anderson, op.cit., pp. 81ff; Dodwell, 115ff., Driault 141f., Hajjar, 118.
(٦٠) موسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦ ص ٣٠٢.
— Anderson, pp. 81 — 83; Driault 143; Hajjar 119f.
(٦١) Hurewitz, op.cit., 252f.;
— طبقاً لموسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦ ص ٣٠٢، فإن الممرات كانت ستكون مفتوحة أمام السفن الحربية الروسية في كل الأوقات.
(٦٢) Anderson, p. 90; Hurewitz p. 252; Driault p. 143.
(٦٣) نقلاً عن لوتسكي، ص ١٢٠.
(٦٤) نقلاً عن:
— Phillipson & Buxton: The Question of the Bosphorus and the Dardanelles, London 1917, pp. 66 — 67.
(٦٥) Rosen, op.cit., Vol. I, pp. 207 — 209.
(٦٦) Hurewitz, op.cit., pp. 254 — 255.
(٦٧) Clayton, p. 68f.
(٦٨) Hurewitz, pp. 265 — 266; Hajjar 142ff., 154ff; Driault 144; Clayton, 78; Rabbat, op.cit., pp. 71 — 72.
(٦٩) Driault, p. 144.
(٧٠) Puryear, France, op.cit., p. 154, 183, 196f.; Hajjar 180f.
(٧١) Rosen, op.cit., Vol. I, p. 239, 243 — 252.
(٧٢) انظر نص المعاهدة لدى:
— Hurewitz, p. 279.
— وقارن عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج ١، القاهرة ١٩٨٠، ص ٢٢٢ — ٢٢٤.
(٧٣) انظر بيير نوفان، ص ١٤٠ — ١٤١.
— Aderson, pp. 106 — 107.
— موسوعة تاريخ العالم الروسية، ج ٦ ص ٣٠٤.



بعلبك في العهد الأيوبي



الحياة السياسية والثقافية

د. حسن نصرالله

حكاية الأيوبيين مع بعلبك بدات في غرّة محرم سنة ٥٣٤هـ/١١٤٠ عندما فتحها الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة اقاسنقر، واقطع ثلثها لنجم الدين ايوب[١]، وولاه دزداراً عليها[٢]. وتذكر المصادر ان بعض ابناء ايوب واحفاده ولدوا في بعلبك، ونشأوا في ربوعها، واحبوا سكناها، منهم شاهنشاه بن ايوب الذي ولد سنة ٥٣٤هـ/١١٤٠م[٣] وبعده شقيقه العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب الذي ولد في بعلبك سنة ٥٤٢هـ/١١٤٨م[٤]. اما صلاح الدين فقد تربّى فيها، وكان له من العمر سنتان عندما تسلمها والده[٥]. واقام في بعلبك نحواً من اثنتي عشر سنة (٥٣٤ ـ ٥٤٦هـ)[٦].

دخل نجم الدين أيوب بن شادي بعلبك مع جيش الأتابك زنكي وكان دخوله مقدم خير لأنه أنقذ من القتل والصلب جملة من أمراء المدينة، غدر بهم زنكي، وشفع لهم أيوب، الذي اقام في بعلبك

يحفظها من غارات الصليبيين، ويردع أطماع البوريين الطامحين إلى استعادتها. ففي سنة ٥٣٧هـ/١١٤٣م قصدت فرقة من الفرنج ناحية بعلبك للعبث والتخريب والسلب، فتصدّى نجم الدين للمهاجمين، وقتل أكثرهم، وشرّدهم وعاد إلى بعلبك منتصراً. وظلّ نجم الدين يترأس مسؤولية المدينة بما فيها متسلمية القلعة حتى مقتل عماد الدين زنكي، يوم انتهز الفرصة صاحب دمشق، مجير الدين أرتق بن محمد بن بوري وحاصر بعلبك سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م[٧]. فدافع عنها نجم الدين أيوب، وطال الحصار، وطلب النجدة من أولاد زنكي. ولما تباطأ هؤلاء في رفده بالعسكر، وصدف أن غار الماء في بئر القلعة، طلب نجم الدين الأمان والصلح، وسلّم بعلبك إلى مجير الدين، فاستخلفه هذا على المدينة وأقرَّ له الثلث الذي وهبه إياه زنكي من قبل. لكن صاحب دمشق عزل نجم الدين عن متسلميّة القلعة وولى عليها الحاجب شجاع الدولة. ومما يؤكد بقاء نجم الدين في بعلبك أيام البوريين، وما ظل يتمتع به من قوة ونفوذ، ما رواه أبو شامة في حوادث سنة ٥٤٦هـ/١١٥٢م إذ شنّ الفرنج غارة على البقاع فغنموا أموالاً كثيرة، وأخذوا بعض الأسرى. وصدف وجود فرقة من عسكر دمشق في بعلبك عند نجم الدين أيوب، فضمَّ إليهم جماعة من أصحابه، وأمَّر عليهم ولده شمس الدين، فخرجوا يطاردون الغزاة، واتفق أن سقط ثلج كثيف، فتورط فيه الفرنج، وأدركهم شمس الدولة بجنوده فقتل معظمهم، وخلّص الأسرى[٨].

وفي عام ٥٤٩هـ/١١٥٥م قضى نورالدين محمود بن زنكي على سلطة البوريين في دمشق ثم توجه إلى بعلبك وكان على قلعتها الأمير ضحاك بن خليل رئيس وادي التيم، وعلى المدينة نجم الدين أيوب. وصل إلى بعلبك ولم يجرؤ على محاصرتها خوفاً من حركة التفاف صليبية حوله، وللمقاومة العنيدة التي أبداها ضحاك البقاعي. سعى نورالدين سلمياً إلى دخول بعلبك فاتصل بنجم الدين ووعده باقطاعات في دمشق. فسهل تسليم بعلبك وتم ذلك عام ٥٥٢هـ/١١٥٨م[٩].

وتضطرب الروايات في مصير نجم الدين بين بقائه في بعلبك أو تسلمه نظر دمشق بوساطة أخيه أسد الدين شيركوه. لكن الواضح من الأخبار أن نجم الدين تردّد بين بعلبك ودمشق وظل كذلك حتى سنة ٥٦٥هـ/١١٧١م، عندما تمكن ولده صلاح الدين يوسف بن أيوب من فتح مصر. فأرسل إلى نورالدين محمود يستأذنه في ضمّ والده إليه فحقق طلبه في مطلع سنة ٥٦٥هـ[١٠].

هذه الحقبة التي تخطّت الثلاثين سنة (٥٣٤ ــ ٥٦٥هـ) تسلّم فيها نجم الدين بعلبك لصالح الزنكيين والبوريين. وكانت مقدّمة لعهد أيوبي، أولاه عناية حسنة، ومنحها مركزاً مرموقاً،

فارتفعت إلى رتبة مملكة، إذ استبدلت حكم الولاة العاديين بحكم الأمراء والملوك من الأسرة المتسلطنة. وبذلك حققت استقلالية عن دمشق في الأمور الادارية والمالية، وغدا ملكها حليفاً لأشقائه أو أعمامه في دمشق. وقد يتدخل في شؤونهم فيساعد أحدهم ضدّ الآخر، وقد يقود جيش بعلبك ليدخل دمشق ويجلس على كرسي الملك فيها.

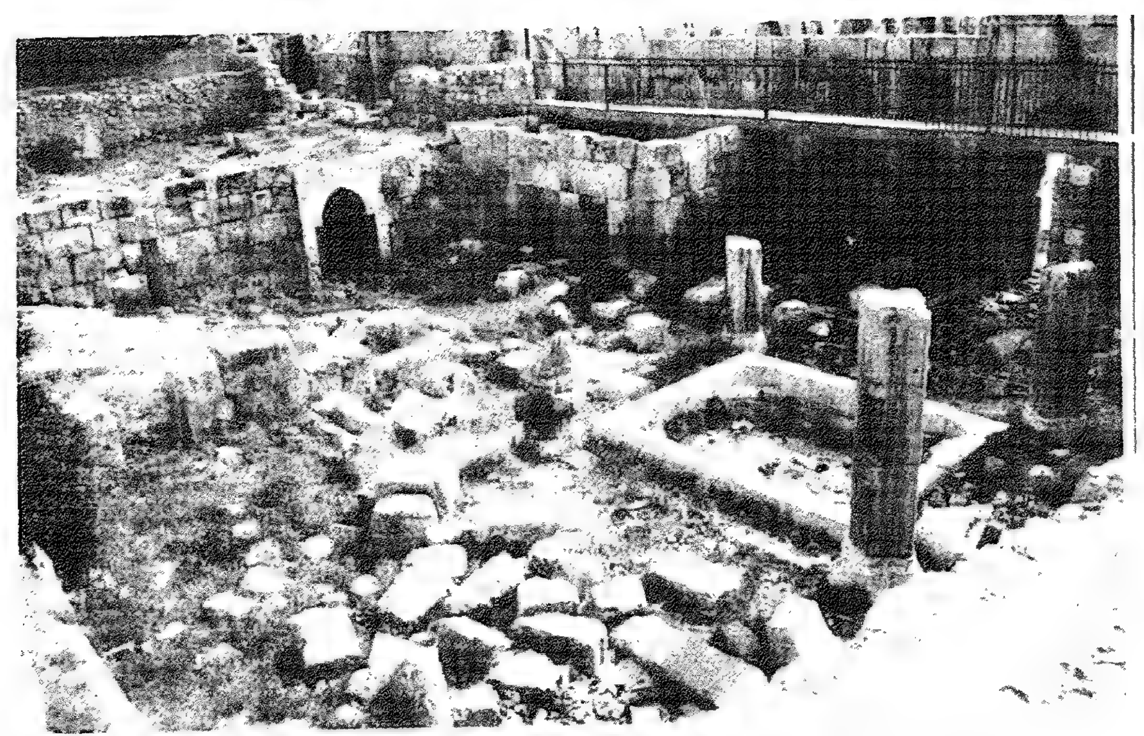
بدأت مرحلة الحكم الأيوبي المباشر مع صلاح الدين، الذي غزا بلاد الشام بعد وفاة نورالدين محمود بن زنكي واحتل دمشق وحماه وحمص، وقصد بعلبك موطن صباه فبلغها في شعبان سنة ٥٧٠هـ[١١]، ولكنها أقفلت أبوابها في وجهه فحاصرها وعليها يُمن الريحاني (الخادم) الذي تولّاها منذ أيام نورالدين. تحصّن (يُمن) في قلعتها وراسل عامل حلب الأتابكي بواسطة الحمام الزاجل طالباً النجدة فلم يرجع منه خبر، وصبر على الحصار بلا جدوى. مسلّم يمن الريحاني بعلبك بالأمان في الرابع من شهر رمضان سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م[١٢]. دخلها صلاح الدين وسط مظاهر الأبهة، فهنأه الشعراء ومنهم العماد الكاتب الذي قال:

بفتوح عصرك يَفْخرُ الاسلامُ
وبنورِ نَصْرِكَ تُشْرِقُ الأيامُ
وبفتحِ قلعةِ بعلبك تهذَّبَتْ
هذي الممالكُ واستقام الشامُ
وبكى الحسودُ دماً وثغرُ الثغر من
فرح بنصرك للهدى بسَّامُ
فتحٌ تسنّى في الصيام كأنّنا
شكراً لما منحَ الالهُ صيامُ
مَنْ ذا رأى في الصوم عيد سعادةٍ
حلّت لنا، والفطرُ فيه حرام
أسدى صلاحُ الدين والدنيا يداً
بنوالها سوق الرجاءِ تقامُ
فتمل فتحك، واقصد الفتح الذي
بحصوله لفتوحك الاتمام
دُمْ للعلى حتى يدوم نظامها
واسلمْ يُعَزُّ بنصرك الاسلامُ

اقام صلاح الدين أياماً في بعلبك، يدبّر شؤونها، ويتجوّل بين معالمها وكان قد غادرها سنة ٥٤٦هـ عندما فارق والده إلى خدمة عمه أسد الدين شيركوه في حلب في هذه الأثناء وردته أخبار تقدم الصليبيين إلى حمص. فخلّف بعلبك بعد أن ولى عليها الأمير شمس الدين محمد بن عبدالملك المقدّم، جزاء له على تسليمه دمشق[١٣]. جهد ابن المقدم في حماية المدينة، ففي سنة ٥٧٢هـ/١١٧٧م اغار ريموند دي أمير طرابلس على بعلبك فعاث فسادا في بقاعها، فخرج إليه ابن المقدم وفرق جيشه وقتل عدداً وأسر أكثر من مايتي جندي، أرسلهم إلى صلاح الدين وهو على حصار مصياف في بلاد الاسماعيلية[١٤].

وبعد عام انقضَّ بغدوين الرابع ملك القدس على بعلبك فتصدى له ابن المقدم ولم يمكنه من دخول المدينة. وظل ابن المقدم والياً لبعلبك حتى عام ٥٧٤هـ/ ١١٧٩م، عندما طلبها شمس الدولة توران شاه (ملك الشرق) بن أيوب الذي نشأ في بعلبك يوم ولاية والده عليها ــ واحبها كثيراً. لكن ابن المقدم تمنع ورفض طلبه فاستدعاه صلاح الدين إلى دمشق فاعتذر خوفاً من سعاية توران شاه فخرج صلاح الدين بجيشه من دمشق وحاصر بعلبك وطال الحصار تسعة أشهر، ولم يتمكن من دخولها. فجنح إلى المفاوضات، وتم الاتفاق مع ابن المقدم على تسليم بعلبك مقابل: تازين وكفرطاب[١٥].

وكان توران شاه مستهتراً سيء السيرة لذلك اعلن سكان المدينة العصيان بوجهه ورفضوا التعامل معه لسوء تصرفاته ومظالمه وتجاوزاته، وابتزازه أموال الرعية. وأمام هذا التمرد تنازل توران شاه عن بعلبك في شهر ذي القعدة سنة ٥٧٥هـ[١٦] وعوضه عنها شقيقه صلاح الدين بالاسكندرية وسلم بعلبك لابن أخيه فرّخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب. فسار إليها ورتب أمورها وجمع رجالها واغاربهم على بلاد الفرنج فبلغ صفد وقتل وأسر وسبى وعاد إلى بعلبك بغنائمه[١٧]. بلاط فرخ شاه: أحدث فرخ شاه نهضة عمرانية وادبية في بعلبك، لأنه قدمها مع كوكبة شعراء وعلماء وكان حصيف الرأي، شاعراً فاستنابه صلاح الدين على دمشق لما قصد القاهرة سنة ٥٧٧هـ[١٨]. ومن شعره ما انشده بحضرة السلطان ورواه العماد الكاتب:



□ أطلال المدرسة النورية في بعلبك شيدت حوالي ٥٥٢هـ.

إذا شئت أن تعطي الأمور حقوقها
وتوقع حكم العدل أحسن موقعه
فلا تضع المعروف مع غير أهله
فظلمك وضعُ الشيء في غير موضعه[١٩]

ومن الشعراء الذين اختصوا به العماد الكاتب صاحب الخريدة الذي مدحه بقوله:

قد قلت للحادي وقد ناديته
في مهمة أقصر، وصلت مه مه
حتام جذبك للزمام فأرخه
فلقد أنخت إلى ذرى فرخشه
متكرم بالطبع لا متكره
شتان بين تكرم وتكره[٢٠]

وعارض أبو اليمن الكندي الذي لازم فرخ شاه هذه القصيدة بمنظومة بلغت تسعة وأربعين بيتاً منها:

انا عبد من شهد الزمان بعجزه
عن أن يجيء له بند شبه
عبد لعزالدين للشرف الذي
ذُل الملوك لعز عبد فرخشه

حقاً غص فناؤه بالشعراء والكتاب والأطباء ومنهم الطبيب السامري مهذب الدين يوسف بن أبي سعيد المتوفى سنة ٦٢٤هـ، طبيب فرخ شاه الخاص ثم خدم ابنه الأمجد ووزرله[٢١]. ظل فرخ شاه يملك بعلبك وينوب في دمشق حتى وفاته في جمادى الأولى سنة ٥٧٨هـ ــ ١١٨٢م ولما بلغ السلطان خبره، وهو ببلاد الجزرية، فأبقى بعلبك على ولده الأمجد بهرام شاه، وأرسل ابن المقدم إلى نيابة دمشق[٢٢]. الأمجد بهرام شاه ملك بعلبك (٥٧٨هـ ــ ٦٢٧) (١١٨٢ ــ ١٢٣١). عزز الأمجد بعلبك فضم إليها البقاعين الشمالي والجنوبي[٢٣] وتلقب بالملك، واتخذ الوزراء والحجاب. واحتفظ بالمدينة عندما قسمت أملاك صلاح الدين بعد وفاته سنة ٥٨٩هـ ــ ١١٩٣م. وامتد حكمه تسعة وأربعين عاماً، شهدت بعلبك خلالها حركة عمرانية وأدبية وعلمية كادت تكون أفضل حقبها الاسلامية. منذ أن تسلم بعلبك بادر يعد جيشاً ويدربه تحسباً لشدائد الدهر جمع فيه الأتراك (والأكاديش) فاشتهر أمره، وانتقل من دور الدفاع إلى تحركات الهجوم. لقد كبح جماح غارات الصليبيين ولاحقهم إلى معاقلهم. وكثرت

تحركاته، ففي سنة ٥٨٦هـ قاد جيشه المؤلف من الترك والأكاديش لمناصرة عمه صلاح الدين في الدفاع عن برج (الذبان) وتم لهما النصر في الخامس عشر من شهر رمضان سنة ٥٨٦هـ ـ ١١٩٠م عندما حطم المسلمون الأبراج الحربية التي صنعها الصليبيون لمداهمة الحصن[٢٤]. وفي عام ٥٨٧هـ ـ ١١٩١م توجه بهرام شاه بعسكره لمساندة عمه صلاح الدين في الدفاع عن عكا التي حاصرها الفرنج سبعة أشهر وظل يجاهد إلى جانب أمراء البلاد الاسلامية حتى طردوا الأعداء إلى عسقلان[٢٥]. وبعد وفاة صلاح الدين ٥٨٩هـ انتهز الفرصة عزالدين اتابك مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل، وأخوه عمادالدين بن مودود صاحب نصيبين وخرجا يطلبان حلب وحماه. فأسرع بهرام شاه وضم جيشه إلى جيش عمه الملك العادل سيف الدين وهزما ولدي زنكي[٢٦]. وفي العام نفسه اتفق الأمجد مع عمه الملك العادل وناصرا الملك الأفضل علي صاحب دمشق، واكبر أولاد صلاح الدين، ضد أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر فانتصروا عليه وأعادوه إلى مصر وكان طامعاً ببلاد الشام[٢٧]. وظل الأمجد وفياً لعمه الأفضل في حين مال عمه العادل أبو بكر إلى العزيز عثمان وتآمرا على الأفضل علي وانتزعا منه دمشق سنة ٥٩٢هـ.

والخليفة يومئذ ببغداد الناصر لدين الله، وكان يميل إلى التشيع، فكتب إليه الأفضل علي يتجيشه على أخيه العزيز عثمان وعمه العادل أبي بكر، من شعره:

مولاي! إن أبا بكر وصاحبه
عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي
من الأواخر ما لاقى من الأول!

فكتب إليه الناصر لدين الله في جوابه:

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً
بالود يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا علياً حقه إذ لم يكن له
بعد النبي بيثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم
وابشر فناصرك الامام الناصر[٢٨]

وفي عام ٥٩٤هـ ـ ١١٩٨م شارك بهرام شاه في صد غارة الفرنج على حصن تبنين[٢٩] وفي العام نفسه نهض الأمجد يرافق الملك العادل، وشيركوه صاحب حمص، وعزالدين بن المقدم إلى (هوس) لمنازلة الفرنج. قال ابن الجوزي: ولو تأخروا يوماً لأخذ حصن (بسن)[٣٠] ووقف الأمجد نفسه للدفاع عن أرض المسلمين فحارب الافرنج في حصن الأكراد وطرابلس بالاشتراك مع الملك المنصور سنة ٥٩٨هـ ـ ١٢٠١م. وفي العام التالي تقدم الملك المنصور صاحب حماه بعساكره إلى بصرين فنزل قلعتها مرابطاً لفرنج الساحل وطلب النجدة من الملك العادل صاحب دمشق، فتقدم الملك العادل إلى الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك وإلى المجاهد صاحب حمص بنجدته، ففعلا وخاضوا جميعاً معركة انتصروا فيها وأسروا عدداً من الفرنج[٣١] وفي سنة ٦٠٣هـ وصلت الأراجيف بأن الفرنج من طرابلس وحصن الأكراد جهزوا للغزو حمص فكتب الملك العادل إلى أهل بيته ومنهم الأمجد صاحب بعلبك للتعاون، فلحقوا به ونزلوا على بحيرة قدس (حمص) ثم هاجموا طرابلس وضيقوا عليها واحتلوا القليعات[٣٢] وخربوها وطاحونة أغناز[٣٣] مما حمل صاحب طرابلس على طلب الصلح ودفع الغرامة فآبوا إلى ديارهم منصورين.

وفي رواية ابن نظيف الحموي: إن الأمجد لم يدخل الساحل مع الملك العادل لأن أهل بعلبك وثبوا على نائب الأمجد ـ الذي خلفه على المدينة ـ وقتلوه فأسرع الأمجد بتدبير من العادل[٣٤] ودخل المدينة وقضى على دابر الفتنة. وفي سنة ٦٠٥هـ عزم الملك العادل على جمع الجيوش الموالية لمهاجمة بلاد الكرج فاحتشد الملوك إليه: وصله الملك المنصور صاحب حماه والمجاهد صاحب حمص والأمجد صاحب بعلبك والصالح صاحب آمد... فنزلوا على حرزم من ماردين[٣٥]. ثم قصدوا سنجار وحاصروها وقطعوا أشجارها واحتلوا الخابور، ووزع العادل الغنائم ومنها أرض الخابور على الملوك فنال الأمجد نصيبه[٣٦]. وفي العام التالي شارك الأمجد في الاستيلاء على سنجار[٣٧]. ومن

تحركاته مسيره سنة ٦١٨هـ لمساعدة الكامل يعضده بقية الأيوبيين لدرء خطر الفرنجة عن دمياط وكان الكامل لضعفه عرض للفرنج تسليم القدس وعسقلان وطبريا واللاذقية وجبلة، ولما تم النصر للمسلمين نقضوا صلح الكامل[٣٨]، فسوَّد النصارى في بعلبك وجوه الصور في كنيستهم حزناً على ما حل بالصليبيين. ولما آب الأمجد إلى بعلبك وعلم بتعاطفهم مع الفرنج أمر اليهود بصفعهم[٣٩]. وكان الأمجد لا يتوانى عن واجبات القرابة وصلة الرحم والزيارات الدبلوماسية، من أجل ذلك قصد دمشق سنة ٦٢٣هـ وهنأ الملك المعظم بالشفاء من مرضه. وكتب مهر ابنته على الملك[٤٠] المغيث بن العادل بحضور قضاة الممالك[٤١]. وفي هذه السنة على الأرجح تمَّت نكبة السَّمرة في بعلبك، لأنهم استبدوا بشؤون المدينة حتى ضجَّ الناس من استئثارهم بمصالحها وتقديم الأمجد لهم ولكن نكبتهم لم تسكت الناقمين. ومما أطمع الملوك الأيوبيين بالأمجد وفاةُ صاحب دمشق الملك المعظم عيسى بن العادل سنة ٦٢٤هـ[٤٢]، لأن المعظَم ــ بشهادة سبط ابن الجوزي العينية ــ كان يحب الأمجد ويحترمه ويقبّل يده[٤٣]. وبتنا نسمع لأول مرَّة شعارات عنيفة ضد الأمجد، هذا ما أكده ابن نظيف إذ قال: «في سنة ٦٢٥هـ هاجم الملك العزيز بن العادل بعلبك طامعاً بمخامرة من أهلها لكراهيتهم في الملك الأمجد صاحبهم، لظلمه، وعسفه لهم وفسقه وجوره، فلما علم بهم قتل من بلده جماعة بسبب ذلك»[٤٤] وهذه المخامرة ضد الأمجد شارك فيها ابنه الذي كتب إلى العزيز يقول: «قد نشرت باب السرّ، فسِرْ إلينا وقت السحر» وكان العزيز بالصبيبة[٤٥]، فساق منها أول الليل، والمسافة بعيدة فأدرك بعلبك والشمس قد أشرقت، ففات الفرض، وعسكر مقابل المدينة. فبعث الأمجد إلى الناصر داود صاحب دمشق يلتمس منه ترحيل العزيز. فأرسل جيشاً نفَّره عن حصون بعلبك قسراً. وتوجه العزيز إلى بانياس ومنها إلى القدس لملاقاة أخيه السلطان الكامل. ولما علم الأمجد بما فعل ولده ووقف على نشر الباب، قتله وقيل خنقه، وقيل بني عليه بنياناً، وانتقم من بعض سكان المدينة الذين شاركوا في المؤامرة[٤٦]. وكان صاحب حمص ساند العزيز ضد الأمجد، فحدثت نفرة بين الرجلين. فأرسل صاحب دمشق أحد أمرائه ابن قاسم الدين وأصلح بين الأمجد وشيركوه صاحب حمص[٤٧]. وكان العزيز قد حسَّن لأخيه الكامل فتح دمشق وعرض مساعدته: فأجازه الكامل بعطايا جزيلة، وكتب له خطاً ببعلبك لابنه، وزيادة له (خبرا). عندها غضب الأمجد بهرام شاه وجهز جيشه، وقصد (هونين) بلد العزيز ونهبها. فلما بلغ الكامل ذلك أمر بنهب (دمشق) بلد الناصر[٤٨]. وفي العام التالي تقدَّم الأشرف موسى وحاصر دمشق، فخضع الناصر لشروط المحاصرين فتنازل عن دمشق، وتخلى عن مساعدة الأمجد صاحب بعلبك ورضي بتقريرهما على الأشرف موسى، وبتسليم الجزيرة للملك الكامل، وانتقل الملك الناصر صاحب دمشق وحليف بهرام الشاه إلى الكرك[٤٩]. ولما خلا الجو لأعداء الأمجد أعدوا جيشاً لمداهمة بعلبك فوصلها العزيز عثمان بمن معه من العساكر التي كانت تحاصر حماه[٥٠] فصدَّهم الأمجد، وتراجع العزيز أمام أسوار المدينة لكن النجدات توالت فقدم أخوه الصالح اسماعيل، ثم شيركوه صاحب حمص. وانقضت سنة ٦٢٦هـ والجيوش أمام أسوار بعلبك تضربها بالمجانيق التي ترمي عشوائياً فأصابت بيت الماء الذي للأشرف قريباً من الشيخ عبدالله اليونيني، فغضب الأشرف، وضرب الفراشين، وطردهم. وضرب خيمته ناحيته[٥١]، وظل الحصار حتى العشر الأخير من ربيع الثاني سنة ٦٢٧هـ. وعندما بدأت المفاوضات قادها من جانب الأمجد ابنه صفي الدين مرزوق، وتمت في خيمة الأشرف موسى على رابية الشيخ عبدالله[٥٢] وانتهت بتسلّم الأشرف موسى بعلبك وعوض الأمجد بالزبداني وقصير دمشق[٥٣].

وفاته

ظل الأمجد يمتلك بعلبك تسعة وأربعين سنة تلفُّه طمأنينة ويسعفه إقبال سعد، حتى خشي ملوك الأيوبيين طموحاته وتطلعاته إلى حكم دمشق والتسلطن وهو الذي تدخل أكثر من مرَّة في شؤون السلطنة، ناصر الأفضل علي سلطان

دمشق ضد أخيه العزيز عثمان سلطان مصر. وسار بركاب الملك العادل والد الأشرف موسى لقهر الملك العزيز وردّه إلى مصر. وظاهر صاحب دمشق على صاحب حمص شيركوه... أعمال طموحة أثارت مخاوف أبناء عمومته وأحقادهم، فحاصروه تسعة أشهر وأخرجوه من بعلبك سنة ٦٢٧هـ. فرحل إلى دمشق وأقام بداره المعروفة «بدار السعادة». وكأن نهاية حكمه في بعلبك كتبت نهاية حياته. إذ اغتاله احد مماليكه في دمشق سنة ٦٢٨هـ. وروى سبط ابن الجوزي قصّة مصرعه قال: «سرقت له حياصة ودواة تساوي مايتي دينار، سرقها أحد مماليكه، وأخفاها عند بعض المماليك. فحبسه في خزانة في دار فرخشاه، وهدد المملوك بقطع اليد والصُلب، فلما كانت ليلة الأربعاء ثاني عشر شوال جلس على عادته أمام باب الخزانة، وعنده عباس ابن أخي الشريف إلبها الكاتب، وابن فهيد اليهودي، وبيده الاسطرلاب ليأخذ له طالع الوقت. وكان يلعب مع العباس (بالنرد). فقال له ابن فهيد يا مولانا انظر إليَّ فهذه ساعة سعيدة لو أردت أخذ دمشق أخذتها. فقال له لا تكلمني فقد تعيَّن لي الغلب. وعالج المملوك رزّة الباب بسكين كانت معه، وقلع الرزّة وخرج. وأخذ سيف الأمجد وضربه، فقطع يده، ثم طعنه في خاصرته، ثم انهزم فصعد السطح ورمى بنفسه فمات، وقطعه الغلمان»[٥٤] ودفن في تربة أبيه على الشرف الشمالي وقيل رآه في المنام بعض أصحابه بعيد وفاته بقليل فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال:

كنت من ذنبي على وجل زال عني ذلك الوجَلُ
أمنت نفسي بوائقها عشتُ لما متُّ يا رجلُ[٥٥]

أعماله العمرانية

كان الأمجد محباً للعمران مولعاً بالتحصينات العسكرية. لقد بنى قصراً فخماً اتخذه مقراً لمملكته، واتسع لزواره ومدّاحيه، وذكره الشعراء في قصائدهم الأمجديّة. واندثرت آثاره مع الزمن، ولم نتمكن من تحديد موضعه. وفي سنة ٦٠٠هـ ضربت هزة بعلبك وصدّعت منازلها وهدمت قسماً من سورها، فشمَّر الأمجد لتعمير ما تهدم من تحصيناتها. ومن آثاره الباقية إلى يومنا المسجد الذي بناه على تلة الشيخ عبدالله سنة ٥٩٦هـ. شاده زاوية للشيخ عبدالله اليونيني المتوفى سنة ٦١٧هـ. وما زالت قبته تعرف إلى الآن «بقبّة الأمجد». وعليها كتابة هي: «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر. أمر بعمارة هذا المسجد المبارك الأمير الكبير صارم الدين أبو سعيد خطلخ بن عبدالله المعري الملكي الأمجدي. ضاعف الله له الثواب وغفر له يوم الحساب في سنة ست وتسعين وخمسماية».

وشيد بهرام شاه برجين في قلعة بعلبك، وزوّدهما بمرامي السهام. أولهما في الركن الجنوبي الغربي. للقلعة بناه سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م وعليه كتابة عربية قائمة حتى عصرنا وهي «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر بعمله مولانا السلطان الملك الأمجد العالم العادل مجد الدنيا والدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب. عضد أمير المؤمنين أعز الله سلطانه وشدّ بالنصر شأنه سنة احدى عشرة وستماية بولاية الأمير تقي الدين بن عبدالله الملكي الأمجدي».

والبرج الثاني بناه في الركن الشمالي الغربي من القلعة سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٤م ــ برج باب الهواء حالياً ــ وعليه كتابة أيضا تشبه الكتابه السابقة لكن لا ذكر فيها للأمير الوالي[٥٦]. وبشكل عام قوّى بهرام شاه جبهة البرج الغربي ليرد عن المدينة غارات الصليبيين وأطماع الطامعين.

بلاط الأمجد

ثلاث وخمسون سنة قضاها الأمجد في بعلبك[٥٧]. حقبة أمكنته من خدمة الأدب والعلم. ولما كان الأمجد شاعراً فقد حوَّل قصره في المدينة إلى بلاط يرتاده الشعراء والفقهاء والكتّاب والأطبّاء. بدأت حياته الشعرية أيام والده الذي وفّر للأمجد المربين والأساتذة الكبار. من أساتذته العالم والفقيه واللغوي والشاعر تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي[٥٨]. كان أبو اليمن من خواص فرخشاه رافقه في رحلاته إلى مصر والشام، وانقطع إليه في بعلبك ومدحه. وتخرَّج عليه الأمجد في اللغة والشعر والحديث، وعنه أخذ بعض الفقهاء البعلبكيين[٥٩]. وتردد الأمجد على زاوية الشيخ عبدالله اليونيني

المتوفى سنة ٦١٧هـ. وكان فقيهاً متصوفاً، يرشد الأمجد ويعظه، ويغلظ له القول إن ظلم أو حاد عن الحق. ولم يؤثر عن الأمجد أنه لبس منه الخرقة تبركاً، مثلما فعل بعض الملوك الأيوبيين. ثم تخرج الأمجد في الشعر على والده لأن فرخشاه كان شاعراً رقيق المعاني[٦٠].

وكان مهذب الدين أبو الحسن علي ابن النقاش الحلبي أول من اتصل بالأمجد ومدحه[٦١]، لأن ابن النقاش توفي سنة ٥٧٤هـ[٦٢] أي قبل أن يتولى الأمجد ملك بعلبك. وهذا يؤكد احتفاء الأمجد بالشعر والشعراء منذ سن مبكرة.

أما الذين عاشوا في بلاط الأمجد فأشهرهم أستاذه تاج الدين أبو اليمن الذي كان يتنقل بين بعلبك ودمشق. وكان يقضي الشتاء في سفح قاسيون يدرّس ويتزهد. ومن هناك كان يشتاق إلى جلسات الأدب، وحلقات الشعر والسمر في بلاط الأمجد حتى تمنّى أبو اليمن لو هادنه الدهر، وقضى أيامه في كنف ملك كثرت عطاياه وقضى نحبه في أفناء قصر غلب عليه عبق الشعر. لنقرأ هذه المقطوعة وقد أرسلها تاج الدين أبو اليمن من دمشق إلى الأمجد ونشتم منها علاقة حميمة بين الأستاذ وتلميذه:

لا تضجرنكم كتبي إذا كثرت ... فإن شوقي أضعافُ الذي فيها[٦٣]

والله لو ملكت كفي مهادنة ... من الليالي التي حظي يحاكيها

لما تصرّم في غير داركم ... عمر ولا مت إلّا في نواحيها

عدوا احتمالكم لي حين أضجركم ... من الصلات التي منكم أرجيها

فأجابه الأمجد:

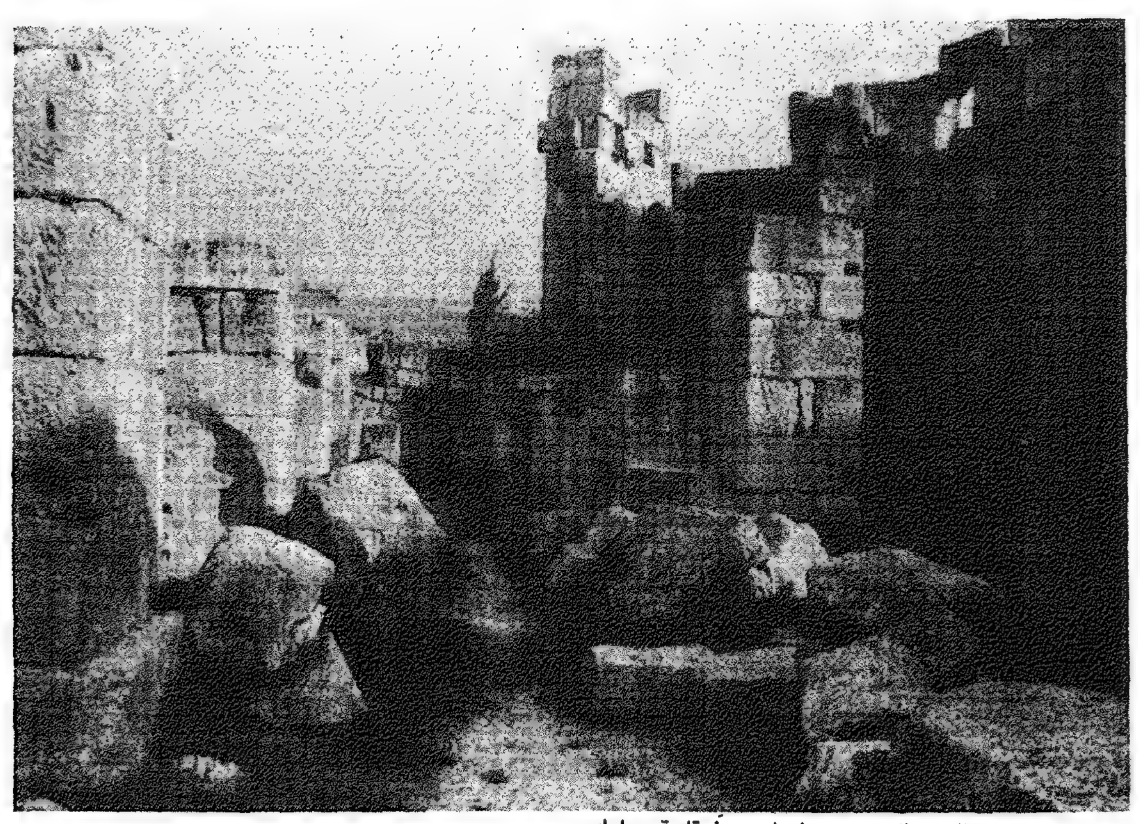
إنا لتتحفنا بالشوق كُتبكُم ... وإن بعدتم فإن الشوق يدنيها

فكيف نضجر منها وهي مذهبةٌ ... من وحشة الشوق لوعاتُ نعانيها

وإن ذكرتم لنا فيها اشتياقكم ... فعندنا منكم أضعاف ما فيها

سلوا نسيمَ الصَّبا يهدي تحيتنا ... إليكم فهو يدري كيف يهديها

ومن الشعراء الذين مدحوا الأمجد الهمام العبيدي الشاعر البغدادي أبو الحسن علي بن



□ التحصينات العربية ومسجد ابراهيم في قلعة بعلبك.

نصر بن عقيل من ربيعة، أمّ بلاطه في بعلبك ومدحه ونال عطاياه[٦٤]. ومنهم شاعر بعلبك عـزالدين أحمـد بن علي بن مُعـقـل الأزدي البعلبكي (٥٦٧ ـ ٦٤٤هـ). كان شاعراً مقتدراً على النظم، عالماً بفنون الأدب والأصول والفقه على رأي الامامية غالياً في التشيُّع. قال عنه اليونيني: كان ابن مُعقل من شعراء الأمجد[٦٥] مدحه بالكرم والشجاعة وحصافة الرأي، وحسن التدبير، والشاعريـة... وطلباً لجـوائز الأمجد قصده ابن عنين[٦٦] وامتدحـه، ونستشف من كلامه أن الأمجد تخيّره راويـة لأشعاره، في مجالس الأدب التي يشهدها في عواصم العالم الاسلامي، فنفّذ مهمّته وعاد يطلب أجرين: الأول على أداء الأمانة، والثاني جائزة قصيدة هي من غـرر ابن عنين، تلك الرائية التي خصّ بهـا الأمجد، وأفرغ فيها شاعريته، فمنحها الزخم والقوّة، والصور الجيّدة، مما يعيد إلى أذهاننا جزالة المتنبي. وحق لابن عنين أن يتهيّب موقفه، وأن ينقّح شعره ما دام يهديـه إلى ملك «هو اشعر بني أيوب». وهذه أبياتٌ من رائية ابن عنين في الأمجد:

عجبت للطّيف يـا لميـاءُ حيـن سـرى
نحوي، ومـا جـال في عينِي لذيذ كـرى
وليلةٍ مثـلُ مـوج البحـر بت بهـا
اكـابدُ المـزعجين الخـوفَ والخـطرا
حـتـى وردتُ بـآمـالي إلى مـلكٍ
لو رام ردّاً لمـاضـي أمْسـهِ قـدرا
فـأصبـح الدهـرُ ممـا كـان أسلفـه
إليَّ، فـي سـالفِ الأيّـام، معـتـذرا
مَـلْكٌ أرانـا عـليّـاً فـي شجـاعـتـه
وعـلمـه: وأرانـا عـدلُه عُـمـرا
اغـرُّ مـا نـزعـت عنـه تـمـائمـة
حـتى تـردَّى رداء المُـلْك واتّـزرا[٦٧]
مـن آل أيـوب اغـنـتـنـا عـوارفُـه
في كـالح الجدب أن نستنزل المطرا
ومقـدِّم الخيـل فـي لبَّـاتهـا قِـصَـدٌ
وعـاقـرُ البُـدْن في يـومَيْ وغىً وقـرى
وخـائض الهـول، والأبـطالُ محجـمـةٌ
لا تـسـتـطيـع بـه، ورداً ولا صَـدَرا
تُمضي المنـايـا بمـا شـاءت أسنّتُـه
إذا القنا بين فـرسـان الوغى اشتجـرا
تكـادُ تخفي النجـومُ الزهـرُ انفسهـا
خـوفـاً ويـشـرقُ بـهـرامُ إذا ذُكـرا

ابن عنين راوية الأمجد

لمَّـا تـخـيّـرنـي أروي قـصـائـدَه
مـضيـتُ قُـدْمـا، وخـلَّفتُ الرواة ورا
فـاعجبْ لبحرٍ غـدا في رأس شـاهقـة
مـن العـواصـم طام يـقـذفُ الدُّررا
لو قـام بـعضُ رواةِ الشعـر يـنشـدُه
يـومـاً بـأرض أزالَ أخجـلَ الجبـرا
كم قُمتُ في مجلس السـادات أنشـدُه
فـلم يكـن لحسـودٍ فـي عُـلاهُ مِـرا
عجبتُ من معشـر كيف ادّعـوا سفهـا

بسم الله الرحمن الرحيم   بك أعتصم مما يعصم أو يعصم بالله
ما وجد ونسب للسلطان الملك الأمجد مجد الدنيا والدين أبي المظفر
بهرام شاه ابن الملك المنصور عز الدين أبي الفتح فرخ شاه بن
شاهنشاه بن أيوب تغمده الله برحمته وأحله فسيح جنته.
مما نظمه في النسيب والتغزل والحماسة في مدة أوطانها شهر رمضان
المعظم قدره أحد شهور سنة أربع وستمائة
أرقت من بارق بالجزع لماع   بدا فهيج أشواقي وأوجاعي
أهدى الحنين وقد لاحت لوامعه   لمغرم من فراق الحي مرتاع
حتى مضى البين ما ينفك أينقه   مغرقة بين أجراع وأجراع
تعلى أن ترد أما الجمام وأن   ترعى الجميم على خصب وأمراع
في كل مجهل بعيد القفر نقطعه   سواهما بين إيجاف وإيضاع
تهوي بكل بسيط الجأش مدرع   ماضي العزيمة حامي العرض مرتاع
يحيى السوام إذا الأذواد أهملها   رعاتها وأتاحوها بمجلع
مهملات غدت في كل ناحية   مضاعة لم تصنها سطوة الراعي

□ الصفحة الأولى من ديوان الملك الأمجد بهرام شاه.

مِن بعدِ ما سمعوه أنهم شُعَرا
لولا التُقى قلتُ لا شيء يُعادِلُه
أستغفر الله إلّا «النملَ والشعرا»
أنا الذي سار في الدُنيا له مثلٌ:
«أهديتُ من سَفَه تمراً إلى هجرا»[69]

ومن المؤرخين الذين ترددوا إلى بلاط الأمجد سبط ابن الجوزي، صاحب مرآة الزمان الذي أقرّ بذلك قائلاً: «كان الأمجد جواداً ممدَّحاً وقد مدحه خلقٌ كثير وجزاهم الجوائز السنيّة... وكان صديقي. وكنت إذا صعدت جبل لبنان للزيارة أجتازُ ببعلبك يجلس إليّ»[70] أما الأطباء الذين عرفهم بلاط الأمجد فأشهرهم، مهذّب الدين السامري، طبيب الأمجد الخاص من سنة ٥٧٨هـ إلى ٦٢٣هـ. وابن شقيقه أمين الدولة أبو الحسن ابن غزال السامري طبيب الأمجد ووزيره[71]. ومنهم الطبيب والشاعر رشيد الدين علي بن خليفة الخزرجي، الذي ألّف للأمجد كتابين هما: الموجز المفيد في علم الحساب، أربع مقالات، وضعه سنة ٦٠٨هـ ومقالة في السبب الذي له خلقت الجبال[72].

شاعريته

الأمجد أشعر بني أيوب[73] له ديوان مخطوط. عثرت على نسخة منه في دار الكتب الظاهرية رقمها (٧١٧٥) بخط جميل متقن. وهناك نسخ لم أطلع عليها موجودة في باريس (٣١٤٢)؛ ومانشستر (٤٥٦)؛ نور عثمانية (٤٥٦)؛ مكتبة الأوقاف ببغداد (٤٩٨)؛ والمكتبة الخالدية بالقدس...

وتضم نسخة الظاهرية اربعاً وأربعين قصيدة، وخمس مقطوعات أطولها قصيدة ميميّة بلغت سبعين بيتاً ومطلعها:

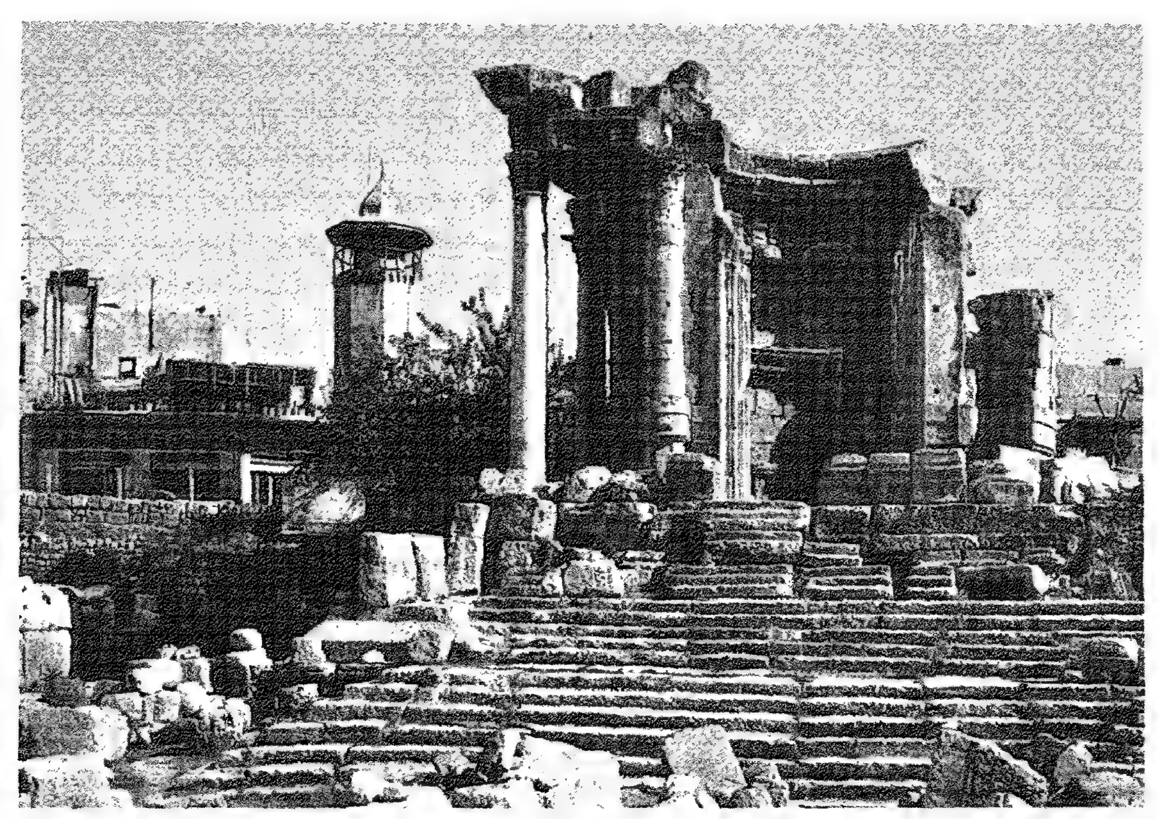
هو الدّمع أضحى بالغرام يترجمُ
وقد كان فيك الظنُّ قبل يرجَّمُ[74]

جاء في مقدّمة ديوانه «بسم الله الرحمن الرحيم. بك أعتصم ممَّا يُصِمُ أو يصم يا الله. مما وجد ونسب للسلطان الملك الأمجد مجد الدنيا والدين، صاحب بعلبك – أبي المظفّر بهرام شاه، ابن الملك المنصور فرخشاه... مما نظمه في النسيب والتغزل والحماسة في مدة أوّلها شهر رمضان، المعظم قدره، أحد شهور سنة أربع وستماية». نظرة متعمقة في الديوان تكشف عن اتجاهين لوّنا قصائده: الصحراء والغزل.

لقد شفه الوجد فعانى وبكى وتألم وشكا العذال وأزعجه الفراق ولم يختر بعلبك مسرحاً لغزله بل انطلق إلى الصحراء حيث الدموع والاطلال والريح، والغزلان والناقة والظليم... فمواطن محبوبته تقمّصت مواطن محبوبات الشعراء؛ يغذ السير إلى برقة ثهمد[75]:

دع العيس ترفل في الفدفد
عجالا إلى برقة ثهمد

وتجوَّل بين الحجاز ونجد وتهامة، وذكر أماكن كثيرة مثل سلع والمأزمين ورامة ولعلع



□ مئذنة بناها الصالح اسماعيل الأيوبي

والجناب...[٧٦]. هذه الأماكن ما زارها الشاعر لكنه عرفها في مخزون ثقافته. ويبدو أثر الثقافة واضحاً في مطالع قصائده لأنه وقف على الاطلال ووصف النؤي والأوتاد والأثافي ولاحق عمل الرياح والأمطار في محو معالمها، ولست أدري لماذا شغلته البروق والرعود والغمام، وكأنها أصابيغ لا بد منها في تلوين كل قصيدة، والنماذج متوافرة:

ماذا تسائل من نؤي وأوتاد
ومن رسوم محاها الرائح الغاد
معاهد درستها كل غادية
وكل أوطف داني المزن مرعاد[٧٧]

الغــزل

القصائد تترجم حباً دفيناً في قلب الشاعر (لعله واقع لكن الأخبار سكتت عنه). ومع كثرة أسماء المحبوبات: ليلى، زينب، سعدى، سعاد، رباب. فصفاتهن متشابهة: الشعر ليل، والقوام قنا والثغر برق، والخدُّ ورد... وكلهن واحدة في التصرف تعد وتخلف الوعد، تهجر وتصد، الحاظهنّ تسدد إلى قلب الشاعر سهاماً قاتلة. هذه التحديات أوجدت دوراً للعذال حتى فلسف اللوم ومدّ يده إلى بيت أبي نواس:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء
وداوني بالتي كانت هي الداء[٧٨]

أخذ المعنى ورده في جملة قصائد قال[٧٩]:

اخالوا سماع العذل ينقص لوعتي؟
وما اللوم في الأهواء إلّا يزيدها

واتخذ حديث العذال مطلعاً لبعض قصائده فكانت مطالع عذبة تشكو وتعتب وتستنجد بالأخلّاء[٨٠]:

يميناً لقد بالغتَ يا خلُّ في العذل
وما هكذا فعلُ الأخلّاء بالخلِّ
إذا أنت لم تُسعِد خليلك في الهوى
فذره لقد أمسى عن العذل في شغل
فلا تحسبن العذلَ يذهبُ وجده
فلومك بالمحبوب يُغري ولا يُسلي

إن معظم قصائده الغزلية بليلة بندى الدموع المسفوحة على فراق حبيب ظالم ما تعلَّم إلا الصدود. شكاه الشاعر إلى أصدقائه فتخلى عنه

الأصدقاء فاعتصم بالشكاية إلى الظالم نفسه بلا جدوى فلاذ بالدموع يذرفها لتغسل كآبة غلّفت قلبه[٨١].

الفخر والحماسة

عرف ديوان الأمجد الفخر لكنه لم يفخر بحسبه بل بالشجاعة والشاعرية:

١ ــ البطولات والشجاعة: قلّد عمر بن أبي ربيعة في تحدياته لأقارب محبوبته. زارها ودونها أبطال يثيرون النقع وينسجون الغبار عرينا يحتمون فيه. أبطال أحرار. تصدّى لهم الأمجد دامي الظفر يحمي الذمار يصون الأعراض، ومجرّباً في الحروب. هذه كل المعاني البطولية التي ذكرها في شعره. لقد ربطها بالغزل، وهدف منها إلى إظهار براعته ورجولته أمام المحبوب فقط. وهذا يثير تساؤلات: ترى لماذا لم يصف المعارك التي خاضها فعلياً ضد الفرنج؟ فهو لم يذكرها إطلاقاً في ديوانه، ولم يتحدث عن مهاجمة الحصون، ونسي منازلة الأعداء، وأغفل فتح الثغور. وفخر بشعره ولم يفخر بسيفه.

٢ ــ الفخر بشاعريته: أحسّ الأمجد بموهبته الشعرية، فاتخذها مجالاً لفخره. وكان اعتداده باختراع المعاني، وسطوة الكلمة، وتفرد القصائد. ادعى أنه سبق إلى اختراع بعض المعاني واكتشاف الصور حتى حسده أنداده من الشعراء[٨٢]:

ولكن حُسِدْتُ على قوافٍ
سبقْتُ بها، وقد جدّ الرِّهانُ

ولشعره سطوة تجذب العشّاق وتسحرهم، وتهز الحساد، وتثمل الركبان، والأمجد نفسه أنس إلى شعره في وحشته وتسلى عن أحزانه[٨٣]:

فليس لي مؤنِلٌ إن شفّني وَلَهُ
إلاّ ترنّم أغزالي وأشعاري

إذا تناشدها الركبان أثملهم
لفظٌ لأبرع نظّام ونثّار

فمن يساجلني فيها وأين له
منها عذوبة إيرادي وإصداري

ومثلما أخذ أحمد شوقي معنى المتنبي:

وما الدهر إلاّ من رواة قصائدي
إذا قلتُ شعراً أصبح الدهر منشدا

فقال شوقي:

رواة قصائدي فاعجب لشعر
يرويه بكل محلّة خلقُ

أخذ بهرام شاه معنى المتنبي وقال:

قصائد ما فاه الرواة بشبهها
قديماً ولم يفتح بمثل لها فمُ

قصّر عن شمولية المتنبي وإبداعه لكنه فاق احمد شوقي الذي خصَّ الرواية بفئة، وتصنّع في الدعوة إلى التعجب. أما بيت بهرام شاه فحقق شمولية ومغالاة مقبولتين لأن الرواة يختارون عيون الشعر للانشاد، وفي الشطرة الثانية اعتمد الفعل المضارع ليغطي حكمة المستقبل. لكن أداة الجزم (لم) خفّفت من الغلو وحسرت من الامتداد.

الأمجد بين التقليد والابداع

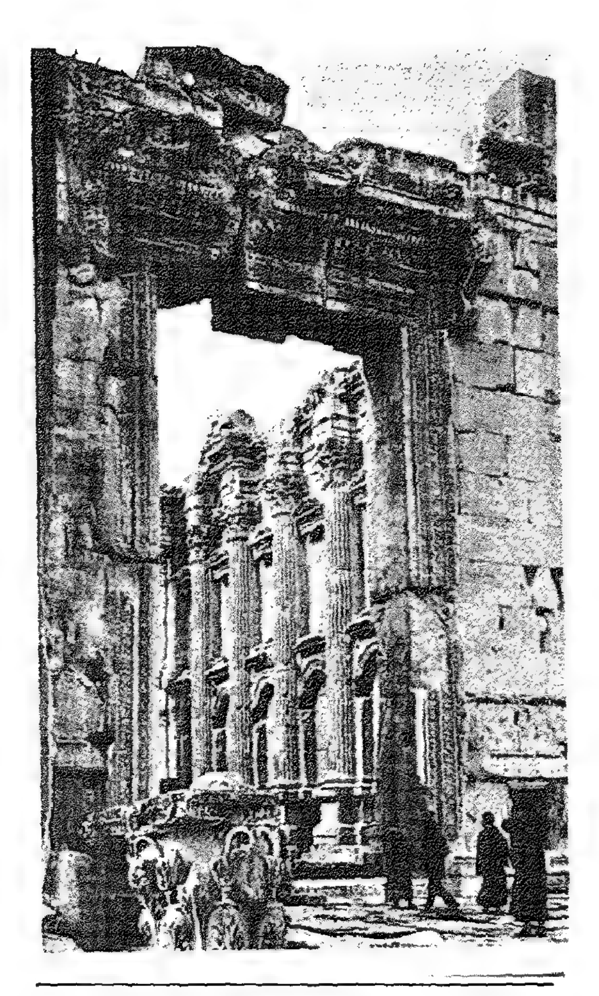
إن ثقافة الأمجد وتطلعات عصره إلى أمجاد الماضي واعتماده دواوين السلف أمور فرضت عليه منهجاً ضيّقاً. وقف على الاطلال، وبكى، ووصف الناقة والصحراء. واتكأ في صوره ومعانيه على الشعراء السابقين. قلّد ذا الرمة في وصف الناقة، وذكر الحبيبة والبكاء. وتطلع إلى عمر بن أبي ربيعة، وجميل بثينة وكثير عزّة في غزله. وأخذ من المتنبي اعتداده بشعره. وكانت لديه القدرة على أخذ الصورة والابتعاد بها عن الأصل[٨٤]. ولا نعدم في ديوان الأمجد بعض الصور الموحية التي حققت جدّة وطرافة له في كتم الحب:

إلى حيٍّ كتمتُ هواي فيه
إذا الأهواء دنّسها العلانُ[٨٥]

وله صور في تعريف الوجد وتفضيل أسبابه[٨٦] والصراع مع جيش الحب[٨٧]. ومن طرائفه قوله في أحد مماليكه وقد أقبل من جهة المغرب راكباً فرساً أشهبَ[٨٨]:

اقبل من أعشقه راكباً
من جانب الغرب على أشهبِ

فقلتُ سبحانك يا ذا العُلا
أشرقتِ الشمس من المغربِ



خلاصة

اتسم شعره بحسن السبك. لكن معانيه أتت تقليديّة. لم تكن موهبته الشاعرية مجدّدة مع أنه كان ملكاً غنياً تخلص من تكلف المديح فهو يعطي ولا يأخذ. وهب مداحيه أموالاً طائلة. بيد أنه عاش ثقافته المخزونة، وظل يدور في فلك السلف. سأل الأطلال، وبللها بدموعه، وشفّه وجد الدِّمن. لقد تطلّعت في الديوان ملياً فلاحت لي مآخذ على شعره: إذ لا نقع في ديوانه على قصيدة في أطلال بعلبك. ولم تهزه روعة البناء ودقة النقش فنياً... هزّته حربياً فحصَّنها أمّا شعرياً فنأت عن مخيلته وأفلتت من أفكاره. ومرة ثانية يظهر فراغ في ديوانه. كنت أحسبني أعثر على وصف الرياض والحدائق والمياه التي تصل بها حصاها، والثمار الضاحكة على أغصانها وخصوصاً المشمش الذي أكثر من وصفه شعراء دمشق في عصر الأمجد[٨٩]. لم أجد صورة واضحة لهذه المشاهد واستعاض عنها بذكر الصحراء والدمن. مع أن أصل موطنه — في جبال الأكراد — لا يمت بصلة إلى الحجاز.

وهناك خلل ثالث في ديوانه هو فقدان اللون الملحمي وذكر المعارك الحربية التي خاض بعضها بشجاعة ضد الصليبيين. لكنه وثب عنها إلى فخر مصطنع في مهاجمة أقرباء حبيبته كلما زارها.

واجزم مرة ثانية بأن الثقافة التي تلقاها سيَّرته نحو التقليد وما استطاع أن يتخلص من سطوة هذه الثقافة.

الهوامش

(١) في روايات اقطعه نصفها (ابو شامة: الروضتين: ١/٤٨؛ الكامل: ١١/٦٩).
(٢) الكامل: ١١/٦٩؛ شفاء القلوب: ٢٣؛ البداية والنهاية: ١٢/٢١٦؛ ابو الفداء: المختصر: ٣/١٧.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية: ١٢/٢١٧.
(٤) الذهبي: العبر في خبر من غبر: ٥/٥٨.
(٥) ولد صلاح الدين سنة ٥٣٢هـ. وفي العسجد المسبوك للأشرف الغساني ولد سنة ٥٣٤ وقيل ٥٣٨.
(٦) الروضتين: ١/٨٤.
(٧) كرد علي: خطط الشام: ٢/١٣.
(٨) ابو شامة: ١/٨٤؛ المختصر في اخبار البشر. ٣/١٩؛ تتمة المختصر لابن الوردي: ٢/٧٣.
(٩) الكامل ١١/١٧٩.
(١٠) ابو شامة ١/١٨٤.
(١١) الروضتين: ١/٢٤٧.
(١٢) شفاء القلوب: ٨٧؛ الكامل: ١١/٤٢٠؛ النجوم الزاهرة: ٦/٢٢.
(١٣) مرآة الزمان: ٨/٢٢٣.
(١٤) ابو شامة: ١/٢٦١.
(١٥) مرآة الزمان: ٨/٢٢٣؛ شفاء القلوب: ٥٤.
(١٦) ذكر سبط بن الجوزي أن فرخ شاه تسلم بعلبك في سنة ٥٧٤هـ. (مرآة الزمان: ٨/٢٣٥).
(١٧) الغساني: العسجد المسبوك: ١٧٦؛ شفاء القلوب: ٥٤.
(١٨) مرآة الزمان: ٨/٢٢٣؛ وفي شفاء القلوب استنابه ٥٧٦هـ (شفاء القلوب: ٢٢٣).
(١٩) شفاء القلوب: ٢٢٣.

(٢٠) ابو شامة: ٢/٣٤.

(٢١) طبقات الأطباء: ٧٢١.
(٢٢) مرآة الزمان: ٨/٣٧٢؛ الروضتين: ٢/٢٣؛ السلوك: ١/٧٩؛ البداية والنهاية: ١٢/٢١١،

العبر: ٤/٢٣٣؛ الدارس: ١/٥٦١؛ النجوم الزاهرة: ٦/٩٦؛ شذرات الذهب: ٤/٢٥٩.
(٢٣) النجوم الزاهرة: ٦/٨٧.
(٢٤) العماد الكاتب الأصفهاني: الفتح القدسي: ٤٣٤.
(٢٥) الفتح القدسي: ٦٣٣.
(٢٦) مفرج الكروب: ٣/١٨؛ الفتح القدسي: ٦٣٨؛ شفاء القلوب: ٣٠٦.
(٢٧) النجوم الزاهرة: ٦/١٢٢.
(٢٨) شفاء القلوب: ٢٥٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى: ٤/١٦٦.
(٢٩) أبو شامة: ٢/٢٣٣.
(٣٠) مرآة الزمان: ٨/٢٩٠.
(٣١) مفرج الكروب: ٣/١٤٣.
(٣٢) القليعات: موضع قرب طرابلس، ابن الأثير: ٩/٢٩٧.
(٣٣) أغناز: بلد بين الساحل وحمص، ياقوت: ١/٣١٦.
(٣٤) ابن نظيف: التاريخ المنصوري: ٥٣.
(٣٥) جرزم: جبل بديار بني سعد. ياقوت: ٢/٢٥٧.
(٣٦) تاريخ المنصوري: ٥٧.
(٣٧) مفرج الكروب: ٣/١٩٠، المقريزي: السلوك: ج ١ ق ١: ٢٠٤.
(٣٨) شفاء القلوب: ٣٠٦.
(٣٩) خطط الشام: ٢/٨٣.
(٤٠) توفيت ابنة الملك الأمجد زوج الملك المغيث سنة ٦٣٠هـ: (المنصوري: ٢٥٥).
(٤١) التاريخ المنصوري: ١٢٢.
(٤٢) شفاء القلوب: ٢٨٥.
(٤٣) مرآة الزمان: ٨/٤٤١.
(٤٤) التاريخ المنصوري: ١٥٨.
(٤٥) العزيز عثمان بن أبي بكر بن أيوب، صاحب بانياس وهونين والصبيبة. توفي سنة ٦٢٠هـ. (مرآة الزمان: ٨/٤٤٩، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/١٣٧؛ النجوم الزاهرة: ٦/٢٨١.
(٤٦) مرآة الزمان: ٨/٤٤٩.
(٤٧) التاريخ المنصوري: ١٦٠.
(٤٨) التاريخ المنصوري: ١٦٣.
(٤٩) نفسه: ١٧٧.
(٥٠) نفسه: ١٨٧.
(٥١) مرآة الزمان: ٨/٤٣٦.
(٥٢) نفسه: ٨/٤٣٦.
(٥٣) التاريخ المنصوري: ١٩٧.
(٥٤) مرآة الزمان: ٨/٤٤١؛ شفاء القلوب: ٣٣٦.
(٥٥) مفرج الكروب: ٤/٢٨٤؛ تاريخ أبي الفداء: ٣/١٤٦؛ البداية والنهاية: ١٣/١٣١؛ السلوك: ج ١ ق ١/٢٧٩؛ العسجد المسبوك: ٤٤٢ و ٥٤١؛ فوات الوفيات: ١/٢٢٦؛ الدارس: ١/١٧١؛ مرآة الجنان: ٤/٩٥؛ النجوم الزاهرة: ٦/٢٧٥؛ شذرات الذهب: ٥/٢٦.
(٥٦) تقرير بوخشتين عن حفائره في بعلبك: ٤١.
(٥٧) أقام الأمجد في بعلبك ثلاث وخمسون سنة، أربع منها في ظل والده، وتملك بعلبك تسعاً وأربعين سنة.
(٥٨) هو أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن سعيد بن عصمه بن حمير بن الحرث بن ذي رعين البغدادي (٥٢٠ ــ ٦١٣هـ). انتهت إليه القراءات والروايات، وعلم النحو واللغة (مرآة الزمان: ٨/٣٧٧).
(٥٩) مشيخة محيي الدين اليونيني: مخطوط: ورقة: ١٤.
(٦٠) الروضتين: ٢/٢٤.
(٦١) مرآة الزمان: ٨/٤٤١.
(٦٢) طبقات الأطباء: ٦٣٥.
(٦٣) مرآة الزمان: ٨/٤٤٢؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات: ١/٢٢٧.
(٦٤) توفي العبيدي سنة ٥٩٦هـ. (أبو شامة: ٢/٢٤١؛ النجوم الزاهرة: ٦/١٥٨).
(٦٥) ذيل مرآة الزمان: ٢/١.
(٦٦) ابن عنين هو محمد بن نصر الله بن عنين، توفي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م.
(٦٧) يكشف هذا البيت قضيّة غامضة في حياة الأمجد، وهي تاريخ ولادته وقد أغفله المؤرخون. ويشير إلى أن الأمجد لمّا تملّك بعلبك سنة ٥٧٨هـ كان يافعاً صبياً لم تنزع عنه التعاويذ. وبذلك تكون ولادته قريباً في سنة ٥٦٠هـ.
(٦٨) النمل والشعرا: سورتان من سور القرآن الكريم.
(٦٩) ديوان ابن عنين: ٥٥ ــ ٥٨.
(٧٠) مرآة الزمان: ٨/٤٤١.
(٧١) طبقات الأطباء: ٧٢٢ و ٧٢٣.
(٧٢) طبقات الأطباء: ٧٥٠.
(٧٣) شفاء القلوب: ١٤؛ تاريخ أبي الفداء: ٣/١٤٦.
(٧٤) ديوان الأمجد ورقة: ١٠.
(٧٥) ديوان الأمجد مخطوط ورقة: ٧.
(٧٦) المرجع نفسه: ورقة ٣٥.
(٧٧) المرجع نفسه: ورقة ٢٨.
(٧٨) ديوان أبي نواس: ١٢١.
(٧٩) ديوان الأمجد ورقة ٩.
(٨٠) نفسه: ورقة ١٤.
(٨١) نفسه: ٢٣، ١١، ١٣.
(٨٢) ديوانه: ورقة ١٨.
(٨٣) ورقة ٢٢.
(٨٤) ورقة ١٥ مقارنة مع الأخطل.
(٨٥) ديوانه: ورقة ١٧.
(٨٦) نفسه: ٣١.
(٨٧) نفسه: ٢٧.
(٨٨) نفسه: ٤٨.
(٨٩) أبو شامة: الروضتين: ٢/٢١٠.

التاريخ مسرح كبير

مسرحية جورج بشنر موت دانتون

«نحن نقف دائماً على خشبة المسرح، حتى حين نطعن في مقتل» (دانتون)

هذه المقالة مأخوذة عن مجلة «فكر وفن» عدد ٣٨، ١٩٨٣

□ الممثل الكسندر مويسي في دور دانتون (عام ١٩١٧).

موضوع جورج بشنر (Büchner) في دراما «موت دانتون» Dantons Tod هو الثورة الفرنسية في تعقداتها وتطوراتها الدموية. وقد استعان بشنر بالعديد من المصادر الأخبارية (كالخطب والمذكرات والرسائل..) سواء نقلاً عن الغير أو مباشرة عن الأصول الفرنسية، وأخذ عن هذه المصادر مقاطع وفقرات وأوردها على لسان الشخوص دون تغيير ما. ومع ذلك، فإن بشنر لم يكتب مسرحية واقعية كما يبدو على السطح، وكما قد توحي عبارته المعروفة: إن المؤلف المسرحي ليس إلا مؤرخاً، وواجبه الأسمى أن يقترب قدر طاقته من التاريخ كما جرت وقائعه. فمسرحية بشنر تغاير التاريخ في الكثير: في رسم الشخصيات ودوافعها وأسباب فشلها أو نجاحها المرحلي...

لا يقدم بشنر فاصلاً تاريخياً في صورة درامية، وإنما يعرض علينا التاريخ كمسرحية أو يعرض علينا عالم الثورة الفرنسية ووقائعها كمسرحية، بمعنى العالم كمسرح كبير. ومن البداية إلى النهاية تتخلل تعبيرات «المسرح» ومصطلحاته فقرات الحوار.

الخلفية التاريخية

يلخص «كارل جوتسكو» (K. Gutzkow) الخلفية التاريخية لمسرحية بشنر «موت دانتون»



□ منظر من مسرحية «موت دانتون» من إخراج نولته خلال عرض المسرحية بمدينة سالزوبورج بالنمسا ونرى في الصورة «مواطن» و «ملقن» و «شحاذ».

والتصور الذي يكتب منه المؤلف على النحو التالي:

الثورة تلتهم أبناءها على مراحل: كانت المرحلة الأولى هي سقوط «الجيرونديين»، أما المرحلة الثانية فهي سقوط المعتدلين «أتباع دانتون». كان «الجيروندين» رجالاً شاركوا في الثورة من خلال الحماس والتعاطف دون أهداف واضحة ودون أيديولوجية. كانت لهم بعض المبادىء، ولكن الحماس هو الذي جرفهم إلى أحضان الثورة، مات الجيرونديون بخطبهم الحافلة المنمقة وفكرهم المتعالي، ماتوا لأنهم أرادوا الثورة دون الجماهير.

أما المعتدلون أنصار دانتون، فقد لوثوا أيديهم أولاً «بدماء سبتمبر» (حوادث القتل في سبتمبر عام ١٧٩٤). كان هدفهم هو الردع من خصوم الثورة، ولذا أنشأوا محكمة الثورة بهدف منع تلك الجرائم التي ارتكبت في حوادث سبتمبر. ولكن هذه المحكمة بإجراءاتها الشكلية تحولت إلى ساحة للارهاب والقتل. ضحى «الدانتونيون» بمشاعرهم وبمبادئهم، وفعلوا الكثير من أجل الثورة، ولم يتصوروا أن الثورة قد تضحي بهم، ولكن نجم روبسبير الصاعد كان لهم بالمرصاد، وكانت التهمة التي وجهها إليهم روبسبير هي.. المبالغة في الاعتدال والشغف بمتع

الحياة والبعد عن «الفضيلة». وهكذا بدأت المرحلة الثالثة من مراحل الثورة، مرحلة اليعاقبة المتعصبين. تحولت الثورة من خلال اليعاقبة إلى أعراف طقسية وإلى عقيدة ديماجوجية. ويمكن تعريف «الثورة» خلال مراحلها الثلاث على النحو التالي: الثورة عند «الجيروندين»، عبء وشيء يمكن استبداله بشيء آخر. وعند «الدانتونيين» عقبة وشيء يجب أن يأتي إلى نهاية. أما روبسبير فقد اعتبر الثورة وحياً منزلاً يفوق حدود الارادة الانسانية، اعتبرها فكرة وبشرى، وهو المجسم لهذه الفكرة، وهكذا استعبدت «الفكرة» أصحابها وحولتهم إلى أدوات لهذه الفكرة، وبطبيعة الحال فقد تحدث الجميع باسم الثورة كقيمة عليا أو كشيء ميتافيزيقي، مع أن مصير الثورة كان في أيديهم. أما بؤس الناس وحاجاتهم فقد تحولت في أفواههم إلى فلسفات وخطب وأحاديث طنانة. هذه هي الخلفية التاريخية لمسرحية بشنر. وعنوان المسرحية (موت دانتون) يشير إلى المنظور الذي ينظر به المؤلف إلى أحداث الثورة.

التاريخ كمسرحية سيئة

كثوري قد مات دانتون قبل أن يرفع الستار عن الفصل الأول منها. من البداية نراه وقد انفصم عن الدور الذي أداه في مسرحية الثورة. قد أصابه السأم، وها هو الآن ينظر إلى نفسه من بعيد وكأنه قد عاش على خشبة مسرح كبير تحركه قوى خفية:

«ما نحن إلا دمى، تشد خيوطها قوى مجهولة. عدم نحن. ما نحن إلا عدم، سيوف تتصارع بها الأشباح. غير أن الانسان لا يرى الأيدي التي تحركها، كما يحدث في الخرافات تماماً».

لم يعد دانتون متوحداً مع نفسه. محور تأملاته هو تلك الحياة المؤجلة التي يعيش فيها الانسان مغترباً عن نفسه، لا يستطيع أن يعيش بأحاسيسه ومشاعره ولا يستطيع أن يكف عن تأمل ذاته.

لم يعد في استطاعة دانتون أن يمضي في أداء دوره السابق «لقد أحسست الملل من أن أتمشى دائماً في نفس الثوب وأضع على وجهي نفس التجاعيد! هذا شيء يثير الشفقة. أن تكون آلة بائسة، يرد المشدود فوقها نفس النغمة!

إنه شيء لا يحتمل. أردت أن أيسر الأمر على نفسي. وقد وصلت إلى هذا، إن الثورة تحيلني على المعاش، ولكن على غير ما كنت أتصور».

وهو ينظر إلى رجال الثورة كممثلين. والواقع أن خصومه يتصرفون كممثلين يؤدون أدواراً: يحسبون لكل موقف حسابه يركبون الكلام وفقاً للصدى الذي يهدفون إليه في خطبهم، بل إن إيماءاتهم وإشاراتهم محسوبة، وهم في نفس الوقت يراقبون أنفسهم على الدوام. هناك على الدوام فاصل بين حقيقتهم الباطنة وبين هذه الأدوار. قد أصبحوا شخوصاً صناعية، أرديتها وكلماتها مستعارة، أو كما يقول دانتون: «إنني أفضل أن تقطع رأسي على أن أتسبب في قطع الرؤوس. لقد سئمت. ما الذي يدعونا نحن البشر إلى أن نتصارع؟ خير لنا أن نجلس بجانب بعضنا البعض وننعم بالهدوء. إن هناك غلطة ارتكبت عندما خلقنا».

«نحن نقف دائماً على خشبة المسرح، حتى حين نُطعن في النهاية في مقتل».

«من الخير أن يختصر العمر قليلاً، لقد كان الثوب طويلاً جداً، وعجزت أعضاؤنا عن ملئه... وأخيراً — ليتني أستطيع أن أصرخ. هذا شيء لا يستحق كل هذا العناء. والحيا لا تستحق الجهد الذي يبذله الانسان في سبيل المحافظة عليها..».

خبرة دانتون — ومن خلال دانتون يتحدث جورج بشنر — تدفعه إلى النظر إلى التاريخ كمسرحية سيئة. وتتخلل تعبيرات «المسرح» ومصطلحاته كما أشرنا فقرات الحوار. إن زعماء الثورة — كما يرى الآن — عاجزون عن التأثير على مجرى التاريخ، وإن توهموا أنهم يملكون مقوده. قد أصبحوا سجناء مسرحية الثورة. كل يؤدي دوره وفقاً لقواعد المسرحية، ويخضع لقوانين المسرح. يقول دانتون:

«إننا لم نصنع الثورة، وإنما الثورة هي التي صنعتنا...» ولا يتحدث دانتون هنا عن نفسه فحسب، وإنما أيضاً عن خصمه روبسبير. إنه يعلم أن المقصلة تتربص به، وأنه سيغادر المسرح نهائياً عما قريب، ولكنه يعلم أيضاً أن خصمه روبسبير سيلاقي نفس المصير:



□ الممثل جراس هوف في دور روبسبير.

«إني أعطيه مهلة تقل عن ستة شهور. سأصحبه معي (إلى الموت)».

إن مقتل الثورة هي تلك العبارات الطنانة الجوفاء، وتلك الثرثرة الذكية، وذلك الادعاء باسم الشعب. وليس دانتون براء من ذلك:

دانتون: أعرف أن الثورة مثل ساتورن، فهي تفترس أبناءها (بعد تفكير) ولكنهم لن يجرأوا.

لاكروا: دانتون. أنت قديس ميت ولكن الثورة لا تعترف بالعظام الباقية. لقد ألقيت بعظام الملوك جميعاً إلى الشارع وقذفت بكل التماثيل من الكنائس. أتظن أنهم سيتركونك كتمثال أثري؟

دانتون: اسمي! الشعب!

لاكروا: اسمك! إنك معتدل، وكذلك أنا، وكاميل، وفيليبو، وهيرو. والشعب يعتبر الاعتدال والضعف شيئاً واحداً. ولذلك يقتل كل من يتباطأ ويتأخر.

دانتون: هذا حقي. أضف إليه أن الشعب كالطفل الذي يصر على أن يكسر كل شيء ليرى ما بداخله.

لاكروا: أضف إلى هذا أيضاً يا دانتون أننا كما يقول روبسبير نرتكب الرذائل، فنحن نستمتع، في حين أن الشعب فاضل، أي لا يستمتع، لأن العمل أصاب حواسه بالصدأ، ولا يسكر لأنه لا يملك المال، ولا يتردد على المواخير لأن رائحة الجبن والرنجة تصعد من رقبته...

يضع بشنر في مسرحيته دانتون وروبسبير موضع النقد على حد سواء. فإذا كان دانتون هو «قديس ميت»، فإن روبسبير «مسيح ملطخ بالدماء». من خلال هذين الخصمين يصور بشنر وقائع الثورة المختلفة التي انتهت إلى إفراغها من محتواها الشامل الأصلي. ويستعين على ذلك بتكنيك الأضداد الذي طوره الشاعر الألماني شيللر في مسرحياته. والمقصود هو الترابط والتفاوت بين الوجود الذاتي وبين الدور السياسي، بين الكيان الحقيقي وبين الظاهر.

فدانتون الابيقوري الذي يميل إلى متع الحياة يفضح روبسبير الذي يجسم فكرة الفضيلة

الخالصة لعجزه عن المتعة. وإذا كان دانتون يمثل العبقرية. فروبسيير يمثل العقيدة الديماجوجية. وإذا كان مرض دانتون هو الغربة وفقدان الحقيقة، فإن مرض روبسيير هو الوهم العصابي بأنه يمثل الحقيقية، وإذا كان «التأمل» يصيب دانتون بالاحباط والشلل، فالجنوح إلى «الفعل وإحداث الأثر» هما وسيلة روبسيير لكبت مخاوفه. فكلاهما يعاني من الاغتراب ومن الانفصام. وكلاهما يتحرك على أرض التاريخ بلا إرادة واضحة، فهما من صنع الثورة والتاريخ وإن تخيلا أنهما يصنعان الثورة.

روبسيير: قلت لك إن من يمسك بذراعي عندما أجرد سيفي فهو عدوي لا أهمية بعد هذا لقصده ونيته، ومن يحل بيني وبين الدفاع عن نفسي يقتلني تماماً كما لو كان يهاجمني.

دانتون: حيث يتوقف الدفاع عن النفس، تبدأ جرائم القتل. لست أرى سبباً يحملنا على الاستمرار في القتل.

روبسيير: إن الثورة الاجتماعية لم تنته بعد، من يكتف من الثورة بنصفها يحفر لنفسه قبراً. إن المجتمع المرفه لم يمت بعد، والقوة الشعبية السليمة يجب أن تحل محل هذه الطبقة المتفشية في كل اتجاه. يجب أن تلقى الرذيلة العقاب الرادع.وأن تحكم الفضيلة عن طريق الرعب.

دانتون: أنا لا أفهم معنى لكلمة العقاب. أنت وفضيلتك يا روبسيير! إنك لم تسرق، ولم تستدن ولم تزن. روبسيير! إنك مستقيم إلى حد مزعج. لو أنني عشت ثلاثين عاماً بأكملها أدور بين السماء والأرض بنفس السحنة الخلقية لمجرد الاحساس بهذه اللذة البائسة التي تجعلني أجد غيري أسوأ مني، لو فعلت هذا لخجلت من نفسي. أليس في داخلك إذن شيء يهمس لك في الخفاء قائلاً: أنت تكذب، تكذب؟

روبسيير: إن ضميري نقي.

دانتون:... هل من حقك أن تجعل من المقصلة حوض غسيل للملابس المتسخة لغيرك من الناس... هل أنت شرطي السماء؟...

روبسيير: هل تنكر الفضيلة؟

دانتون: والرذيلة أيضاً...

وعندما يخلو روبسيير بعد هذا الحوار إلى نفسه نسمعه يحدث نفسه.

روبسيير: (وحده) اذهب! يريد أن يوقف خيول الثورة أمام الماخور... لا بد أن يذهب. من المضحك أن تراقب أفكاري بعضها بعضاً...

أليست يقظتنا حلماً ناصعاً؟ ألسنا نسير نياماً؟ أليست أفعالنا هي نفس الأفعال التي نقوم بها في الحلم، ولكن بصورة أوضح وأدق؟... إن الخطيئة كامنة في الفكرة.

فروبسيير يمثل أيضاً دوراً كاذباً في هذه المسرحية الشاملة، وإن حاول أن يوهم نفسه بأنه هو «حقيقة الثورة» وأنه يعاني «عذاب الجلاد» من أجل «خلاص» الثورة، كما يقول. فما الذي رمى إليه بشنر بمسرحيته؟

لايعتقد بشنر أن التاريخ يسير نحو هدف معلوم. ولا يرى ــ كما رأى الكلاسيكيون من قبل ــ أن تاريخ البشرية يتطور تطوراً عضوياً مستمراً نحو آفاق حضارية أرقى وأوسع، فهو يرى الوقائع وحدها، ويرى أن الوقائع تقول عكس ما تقول به نظريات الكلاسيكيين. وقد تعبر مسرحيته «موت دانتون» عن اليأس من الثورة وعن فقدان الايمان في مغزى التاريخ. فمسرحيته لا تسير إلى هدف أو خاتمة، سواء كانت هذه الخاتمة نهاية سعيدة متخيلة أو كارثة شاملة تحرر النفس وتطهرها. فنحن نعرف ــ أيضاً من خلال المسرحية ــ أن موت دانتون لن يحسم شيئاً ولن ينقذ الثورة ولا الفضيلة، وأن روبسيير لن يلبث بدوره أن يلقي نفس المصير، فيسقط رأسه في دورة هذه الأرجوحة. ومع ذلك تبقى قضية الشعب الذي يتحدث باسمه أبطال الثورة معلقة أو مؤجلة، تبقى هي الحقيقة التي تطل علينا من خلال «التاريخ كمسرح كبير».

إن لعنة الثورة هي الألفاظ والخطب والثرثرة والادعاء، ومن خلال ذلك تبدو دراما «موت دانتون» كلون من المحاكاة التهكمية الساخرة لمسرحية الثورة. وتعبر عن موقف نقدي عام من مأساة الثورة الفرنسية. وهي مسرحية مفتوحة تقبل العديد من التفسيرات. ومن الخطأ أن نثبتها عند تفسير بعينه دون غيره من التفسيرات، ولكن من الواضح أيضاً أن الثورة كما تعرضها المسرحية قد استنفذت طاقتها التحررية الشاملة وأنها تدور في فلك الصراعات والتطلعات البرجوازية وتقف عند حدودها.

النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي (*)

د. خالد زيادة



أول ما يتوجب لفت الانتباه إليه في دراسة «النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادس الهجري»، إن صاحبها أحمد موسى قد استحصل على منحة من الجامعة السودانية لتحضير اطروحته في الجامعة الأميركية في بيروت، أما موضوع الأطروحة فيتناول المغرب العربي او الاسلامي. وهذا يدل، بشكل من الأشكال، على أن العمل الجامعي الأكاديمي لا زال قادراً على اختراق بعض الآفاق، بالرغم مما يعتري الدراسات الأكاديمية راهناً من الغرق في حدود وآفاق ضيقة. وإذا ما أخذنا بالاعتبار الشروط الصعبة التي تفترضها الدراسات الأكاديمية، فإن دراسة المغرب الاسلامي في بيروت يتطلب بعض الجرأة، فليس أمراً سهلاً الحصول على هذا العدد الهائل من المراجع التي تختص بحقبة محددة من تاريخ المغرب، ومع ذلك فإن صاحب الدراسة تمكن من الحصول على كمية كبيرة من المصادر والمراجع التي يحتاجها، ولا ريب أنه بذل جهداً مضنياً للحصول عليها.

ويمكننا أن نلاحظ بأن هذه الدراسة تطرح ثلاث مسائل كبرى على التوالي، انطلاقاً من عنوانها: النشاط الاقتصادي ــ المغرب الاسلامي ــ القرن السادس الهجري. وهذا ما يفسح لنا المجال لابداء ثلاث ملاحظات:

ــ من الملاحظ أن الدراسات الاقتصادية المختصة بالتاريخ الاسلامي لا تزال قليلة جداً، إذا ما قورنت بالدراسات الأدبية المقابلة أو الدراسات التاريخية أو غيرها، ولعل ذلك يعود إلى أسباب متعددة مترابطة. من ذلك مثلاً أن الدراسات الاستشراقية لم تستطع معاناة هذا الجانب بسبب إعداد روادها، هذا الاعداد الذي كان أدبياً أو ثقافياً بوجه عام، فالمستشرقون عادة ما يخرجون من الكليات اللغوية أو الأدبية أو التاريخية، وقلما جاءوا من المعاهد الاقتصادية.. والأمر ينطبق على الدارسين العرب أو المسلمين. من جهة أخرى فإن المصادر التي تتناول الجوانب الاقتصادية ليست بالكثرة، علماً أنها تتوزع شذرات في كتب الفقه والتاريخ، ولعل الوثائق العائدة للحقبة العثمانية تسهل هذا النوع من الدراسات الاقتصادية، إلا أن الباحث قلما يعثر على وثائق مشابهة للحقبات السابقة للفترة العثمانية. لذلك يمكننا القول بإن جهود عبدالعزيز الدوري، أو جهود موريس لومبار، على سبيل الأمثلة، لم تحل جميع المشاكل المحيطة بالدراسات الاقتصادية المتعلقة بالتاريخ الاسلامي الوسيط.

ــ الدراسات حول المغرب الاسلامي التي كتبها مشرقيون شبه نادرة، دون أن ننسى بكل تأكيد ما بذله إحسان عباس من جهد مميز في

(*) عزالدين أحمد موسى النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادس الهجري. دار الشروق ــ بيروت ١٩٨٣.

□ د. خالد زيادة: أستاذ في الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعيه، دكتوراه من السربون، باريس ١٩٨٠.

هذا المجال. إلا أن الاهتمامات المشرقية تنصب إما على الجوانب الحضارية (عظمة الأندلس) أو الجوانب الأدبية، أو الفلسفية (ابن رشد، ابن باجة). وهذه الاهتمامات متفرقة لم تجعل من المغرب موضوعاً سهلاً بالنسبة للباحثين. إن القطع بين المشرق والمغرب على مستوى البحث، لم ينته بالرغم من بعض الجهود التي حاولت ردم هذه الهوة.

ــ القرن السادس الهجري ليس فترة جاذبة للدراسات في المشرق الذي عرف خلال تلك الفترة سيادة السلاجقة والصليبيين والأيوبيين.. ولا شك بأن الدراسات التاريخية في الشرق العربي تمحورت إلى حد بعيد حول الأمويين والعباسيين وحول القرن الرابع الهجري الذي يعتبر عصر النهضة في الاسلام حسب الرأي الكلاسيكي «لآدم متز» والناسجين على منواله منذ حوالي قرن من الزمن. إلا أن الأمر ليس نفسه بالنسبة للمغرب الاسلامي الذي شهد في القرن السادس الهجري ظهور دولتين، أو سلالتين حاكمتين ــ هما: المرابطون والموحدون. جهدت الأولى وتمكنت الثانية من توحيد المغرب الاسلامي والذي شمل آنذاك: المغرب الشرقي من طرابلس إلى بجاية ــ والمغرب الغربي من وهران وتلمسان حتى مراكش وتول ــ والأندلس.

من خلال هذه الملاحظات نستطيع أن ندخل إلى دراسة عزالدين موسى حول النشاط الاقتصادي في المغرب. وقد حاول المؤلف أن يحدد المعطيات السياسية والاجتماعية والتاريخية التي تؤسس لدراسة النشاط الاقتصادي فجهد في تحديد هذه المعطيات (مئة صفحة أو ثلث الكتاب تقريباً) ونلاحظ على سبيل المثال، بروز الموحدين مع ابن تومرت ودعوتهم إلى التوحيد التي تحولت من توحيد إلهي إلى توحيد سياسي، بروز البربر كقوة اجتماعية وسياسية مع المرابطين وبشكل خاص مع الموحدين. وسيادة البربر ستؤدي إلى حد ما إلى تلوين الفقه آنذاك ببعض الأسس الاجتماعية ــ الاقتصادية الخاصة بالبربر. لكن سيادة البربر جاءت في أعقاب الغزوات العربية البدوية، عشرات الآلاف من بدو القبائل العربية الهلالية وغيرها قدمت إلى بلاد المغرب مما أدى إلى تغيير ديموغرافي لا ريب فيه. يضاف إلى ذلك هجرات داخلية، داخل الأندلس، ومن الأندلس إلى المغرب، ومن المغرب إلى الأندلس، أو من المغرب إلى المشرق.. وأخيراً فإن صعود غير المسلمين من يهود ومسيحية قد أعقبته محنة بسبب عقيدة أو سياسة الموحدين، مما أدخل عاملاً في النشاط الاقتصادي سلباً أو إيجاباً.

هذه هي المعطيات التي يجهد المؤلف في توضيحها في مطلع دراسته، إلا أننا لم نستطع أن نتبين الحدود بين العوامل التي اسهمت في بروز الموحدين وسعيهم إلى توحيد المغرب، وبين العوامل التي أضافها الموحدون، بسبب سياستهم، إلى الوضع فأثرت فيه أو عدلت من سيرورته. وكأمثلة على ذلك نذكر: لم نستطع أن نتبين ما إذا كان صعود البربر هو الذي أدى إلى قيام دولة الموحدين، أو أن دولة الموحدين هي التي عملت على استنهاض البربر؟ قد يكون الأمران مترابطان أو غير مترابطين إلا أن المؤلف لم يجب بشكل واضح على مسألة مركزية من هذا النوع. لم يستطع المؤلف أيضاً أن يوضح بشكل مناسب أثر الغزوات الهلالية القبائلية على الوضع الاقتصادي والوضع الزراعي خصوصاً مع أنه بذل جهوداً لتوضيح ذلك الخ.

لماذا يا ترى بقيت هذه الأمور وغيرها الكثير غامضة بالنسبة للقارىء؟ أعتقد أن الأمر يتعلق بالمنهج المتبع وبالتقنيات المستخدمة.

يعمل المؤلف على استنطاق مصادره استنطاقاً دقيقاً، وجل مصادره تعود إلى الحقبة المدروسة، وهذا يعني أنه قد قام بجهد كبير، خصوصاً أنه استغنى إلى حد بعيد عن دراسات المستشرقين. إلا أن المؤلف لم يستطع أن يربط بإحكام بين جميع المواد التي تجمعت لديه وتصنيفها تصنيفاً مناسباً واستخراج ما يريد استخراجه. بمعنى آخر يمكننا أن نجمع مواد ومعطيات كثيرة، وهو شيء لا بد منه، لكن يبقى أن نعطي معنى لتسلسل الوقائع او لتضارب المصالح والميول. ويمكنني أن أقول هنا بإن المؤلف قد سار في الطريق المعاكس كجمهرة الباحثين الذين يعثرون على معنى جاهز للتاريخ فيحاولون ان يجعلوه لباساً لوقائع يختارونها مناسبة لوجهتهم، أما

عزالدين موسى فإنه بحث عن الوقائع بحثاً مضنياً لكنه لم يعثر على الخط الذي ينظم هذه المواد وهذه الأحداث وهذه الوقائع، فبقي في وسط الطريق التي انتهجها. ويمكننا أن نبدي ملاحظة هنا حول الدراسات الأكاديمية التي:

— إما أنها تغلف أبحاثها بوجهة أيديولوجية محددة فتخرج عن هدفها العلمي.

— وإما أنها تنكب على الوقائع فتكتب تاريخاً ليس له معنى..

وليس هنا مجال الحديث عن أزمة الدراسات الجامعية، إلا أن الروح الجامعية تحتاج إلى تجديد عميق بدون شك.

يقسم المؤلف دراسته إلى ثلاثة أقسام تتناول ثلاثة أوجه من النشاط الاقتصادي: الزراعة — الصناعة — التجارة، ضمن الترتيب المذكور، وهو عكس الترتيب المتبع عادة في الدراسات المشابهة.

والترتيب الذي استخدمه المؤلف (زراعة — صناعة — تجارة) هو نفس الترتيب الذي استخدمه أستاذه عبدالعزيز الدوري في كتابه (تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري — دار المشرق، بيروت) وأعتقد أن هذا الترتيب ينطوي على ثغرة تسهم في غموض المعنى أو إضاعته.

فإذا أخذنا بالرأي الشائع القائل بإن حضارة الاسلام هي حضارة مدن، وإن الريف كان يوجه ويحكم من قبل المدن — وليس ثمة ما يدعو حالياً إلى مناقضة هذا الرأي — وإذا عرفنا بإن التجارة والصناعة هي التي أسهمت بشكل رئيسي في ازدهار المدن، فمن الضروري ان نتعرف إلى المدن، ودولة المدينة — المخزن بلهجة المغرب — التي كانت تتحكم بالريف. وبخصوص دراسة عزالدين موسى فقد كان من الأجدى البدء بشرح أوضاع التجارة أو الصناعة في المدن، وبشرح سياسة الموحدين الاقتصادية لنفهم أوضاع الريف أو الزراعة.

أبدي هذه الملاحظة لأن الطريقة التي يعالج فيها المؤلف شؤون الزراعة تسمح لنا بإبداء مثل هذه الملاحظة، فهو يعكف على تحديد سياسة المرابطين وبشكل خاص الموحدين تجاه الريف والأراضي الزراعية. مما كان يستوجب البدء بمعرفة أوضاع الموحدين والمعطيات التي حددت الشكل الذي اتخذته سياستهم الزراعية... على أي حال، لم يتضح لنا بشكل خاص أن السياسة الزراعية لدى الموحدين كانت تسبق في المقام الأول سائر أجزاء سياستهم الاقتصادية.

على أي حال فإن الدراسة عموماً تتبع المنهج الوصفي. فحين يتصدى المؤلف لبحث شأن الاقطاع نجده يعدد أشكاله على النحو التالي: إقطاع الرواتب — إقطاع التسكين — إقطاع التأليف — إقطاع لقاء خدمة — إقطاع هبة ومنّة. ولسنا ندري ما إذا كانت هذه الأشكال تندرج تحت ما نسميه فصلاً بالاقطاع، أم أن الاقطاع ينحصر بمعناه اللغوي. خصوصاً أن المؤلف يفصل بين الاقطاع وبين الملكية الخاصة للأرض. وبين هذين النوعين وبين الملكية العامة التي هي ملكية الدولة من الأراضي. إن الغموض الذي يلف الدراسات حول الزراعة والملكية الزراعية في التاريخ الاسلامي عامة لم تجله المعلومات التي يقدمها المؤلف، علماً بأن ما قدمه من معلومات ثمينة قد يسهم مستقبلاً في تطور الدراسات حول هذا الموضوع.

وبشأن الصناعة يدلي المؤلف بما يأتي: «كان الغالب على المغاربة في القرن السادس أنهم يعجبون بالصناعة ويحبون تعلم حرفها ويكرهون القصور فيها. والمهن لا تذم إلا لقلة عائدها أو قصور القائم عليها عن اتقانها» (ص ٢٠٧) ولسنا ندري من أين جاء المؤلف بهذا الرأي، فإذا عدنا إلى المراجع التي يعود إليها المؤلف مثل كتب ورسائل: السقطي وابن عبدون والجرسيفي، وابن عبدالرؤوف، نجد أن هؤلاء قد عبروا عن آراء مخالفة لا يذكرها المؤلف. ويذكر الجرسيفي على سبيل المثال قوله: «ليس ذوو الحرف الخسيسة كأهل الصناعات النفيسة (ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة، تحقيق بروفنسال القاهرة ١٩٥٥ ص ١٢١) والواقع أن المؤلف يقصر حديثه عن صناعات: النسيج — الورق — الجلد — الصناعة — الصناعة الخشبية — الآت الموسيقى — المطاحن — الزيوت — السكر — الخمور.. الخ. والمتبع هو وصف أحوال هذه الصناعات لديه، وليس لنا سوى التذكير بفائدة المنهج الوصفي في عرض المادة التي توفرت لدى الباحث، إلا ان المنهج

الوصفي يقصر عن القدرة في تعميق وتحليل الظاهرة التي يتناولها المؤلف. والواقع أن المؤلف لم يستطع أن يربط ربطاً منطقياً بين رأيين يوردهما، الأول في الصفحة ٢٠٧ وقد سجلناه سابقاً وبين رأي يورده في صفحة ٢١٧، وفيه: «إن وضع الصناع كان تعيساً، وحياتهم حياة تعب ونكد ودخلهم يكاد لا يقيم الأود. ولهذا فقد يتخذ الصانع غير مهنة في وقت واحد. وربما تفننوا في أساليب الغش في أعمالهم.. الخ».

ثم يتحدث المؤلف عن التجارة، ونجد ارتباطاً بين تدهور أو تقدم أحوال التجار وبين الوضع السياسي والأمني. ويلاحظ: «لقد نجح الموحدون في إشاعة الأمن في جميع أرجاء دولتهم خلال القرن السادس.. وقد أكد عبدالمؤمن على حماية التجار وتأمين طرق التجارة متوعداً بقتل من يخالف هذا الأمر، بل أنه أنزل العقوبات بأصحاب حوادث الاعتداء على التجار أو قطع الطرق التي عرفت منفذاً بذلك وعيده، وسار خلفاؤه على نهجه..» (ص ٢٧٠ ــ ٢٧١) ونلاحظ من خلال ذلك اهتمام الموحدين بالتجارة، يؤكد ذلك ما يورده المؤلف من وقائع تبين سياسة الموحدين في هذا المجال، ومنها ــ قطع جميع المغارم والقبالات والمكوس (على التجار) التي فرضها المرابطون ــ الدولة لم تدخل شريكاً مع التجار الذين افتتحت بلادهم ــ الدولة الموحدية كانت تبني الأسواق إن احترقت ــ الموحدون مهدوا الطرق في جميع أنحاء دولتهم وبنوا الجسور وشيدوا المنازل وجهزوا توفيراً للماء... كل هذا يدل على أن الموحدين قد اهتموا بالتجارة اهتماماً خاصاً، يفوق اهتمامهم بأحوال الزراعة مثلاً. وقد لحظ المؤلف ان تطور أحوال التجارة الداخلية قابله بعض التدهور في التجارة الخارجية بسبب موقف الموحدين المتشدد من الدول المعاصرة لهم أو بسبب حروبهم مع هذه الدول. ويستخرج المؤلف الخلاصات التالية بشأن التجارة: نوع من التكامل الاقتصادي ضمن بيئات المغرب الثلاث قد تم خلال العهد الموحدي ــ استيراد المواد الخام مما يدل على ازدهار صناعي ــ ازدياد سيطرة المدن الايطالية على التجارة المغربية في ذلك الوقت ــ مشكلة الموحدين مع السودان أدت إلى انخفاض في قيمة الدينار الذهبي بسبب اخفاق الموحدين في استكشاف معادن الذهب في المغرب (ص: ص ٢٣٠ ــ ٢٣١).

في الخلاصة يحاول المؤلف أن يرسم رؤية عامة للنشاط الاقتصادي في المغرب وأثره في الأحوال الاجتماعية. من ذلك: الازدهار الاقتصادي بشكل عام وأثره في نمو الطبقة الوسطى وانتعاشها. كما يشير إلى انتشار التصوف بسبب التباين الاقتصادي: «إذ كان الموحدون قد نجحوا في القضاء على المرابطين فقد اخفقوا في تحقيق آمال العامة، إذ استمر التباين الاجتماعي، وقد سبقت الاشارة إلى ذلك، ولهذا تعاظم نفوذ المتصوفة (٣٤٩) علماً بأن توحيد المغرب سياسياً واقتصادياً كان المحاولة الأخيرة التي بذلها الموحدون في التاريخ..

في النهاية سنبدي حول الكتاب ملاحظتين عامتين:

ــ لقد نجح المؤلف في جمع مادة كبيرة من المعلومات سيكون لها فائدة في كتاب التاريخ الاقتصادي في المغرب في الفترة المذكورة. إن كتاب عزالدين موسى بالاضافة إلى كتاب الدوري المذكور سابقاً تشكل مداخل إلى الموضوع، وهذا لا يقلل من قيمتها على الاطلاق. بقي أن توجيه هذه المواد وإعطائها معنى ومغزى مهمة تخرج عن الاطار الأكاديمي البحت، وأغلب الظن أن الأزمة المنهجية التي يعكسها الكتاب ضمنياً لا تقع على عاتق المؤلف بل على التأليف الجامعي بصفة عامة.

ــ نلاحظ من خلال سياق الكتاب، ومن خلال الخرائط المتقنة التي أعدها المؤلف، إن العلاقات الاقتصادية مع المشرق كانت شبه معدومة. وهو أمر يحتاج إلى دراسة خاصة بكل تأكيد. ولكن بالرغم من هذا الانقطاع على المستوى الاقتصادي، نلاحظ بأن الصلات على المستوى الثقافي، والبنى الذهنية كانت لا تزال قائمة وبقوة إلى حد بعيد. نذكر على سبيل المثال إن ابن تومرت كان قد تلقى علومه في المشرق وتأثر بذلك. إلا أن الأهم من هذا هو أن نفس الظواهر الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تبرز في المشرق، كانت تبرز في المغرب.

●



استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الدكتور: «عبدالعزيز محمد اللميلم» عرض لرسالته الدكتوراه بعنوان: «نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء من ٢٢١هـ إلى ٢٧٩هـ». ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتائج باحثينا مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، كما يفيد الجميع.

نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية

وأثره في قيام مدينة سامراء من ٢٢١ الى ٢٧٩ هـ

□ دكتوراه ـ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ كلية العلوم الاجتماعية قسم التاريخ ـ ١٤٠٠هـ.

«عرض موجز للرسالة»



قسم الباحث الرسالة إلى مقدمة وتمهيد وسبعة فصول وخاتمة ومجموعة من الملاحق تحتوي على العديد من الصور الفوتوغرافية والخرائط والرسوم والمسكوكات ـ إلى جانب فهرس للموضوعات وثبت بالمصادر والمراجع.

المقدمة:

تحدث فيها عن الدوافع لاختيار الموضوع.

التمهيد:

خصصه لبيان ملامح الحكم العباسي.

الفصل الأول:

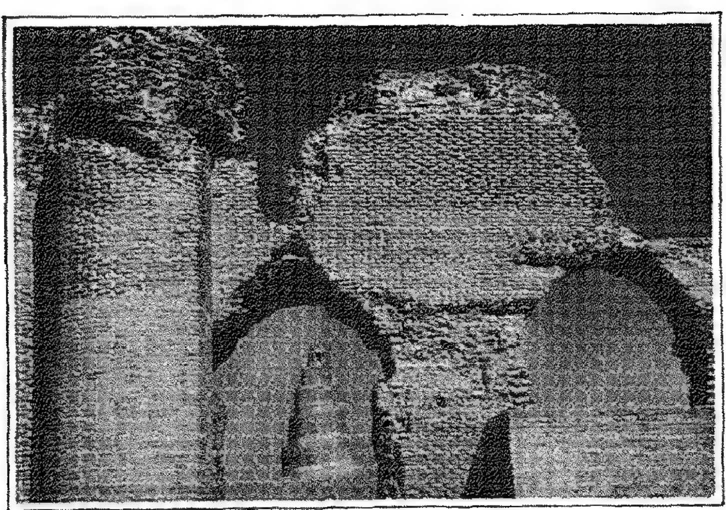
تحدث فيه عن موقف العرب والفرس من قيام الدولة العباسية منذ بدايتها وحتى عهد المعتصم. الذي بدأ فيه التحول باستبدال العرب والفرس بالأتراك وإحلال القوة التركية محل القوتين العربية والفارسية لأسباب ومبررات وضحها في نفس الفصل.

وفي الفصل الثاني:

تكلم عن الأتراك، موطنهم، نشأتهم، تقلباتهم في آسيا، قبائلهم، شيء من أعرافهم وخصائصهم، وفتح المسلمين لبلادهم، واتصالهم بالعرب، واستخدامهم في الدولتين الأموية والعباسية إلى أن تسللوا إلى مناطق النفوذ في الجيش في أيام المعتصم ومن تلاه من الخلفاء.

أما في الفصل الثالث:

فقد تحدث فيه عن خلافة المعتصم وموقفه من الأتراك، كما تحدث عن الفتن والاضطرابات التي سادت الدولة العباسية إثر خلافة المأمون، حتى استطاع المعتصم بحزمه القضاء عليها، وكيف تمكن من الحد من سلطات العنصرين العربي والفارسي وميله إلى عنصر جديد هو العنصر التركي الذي كان في نظره هو العنصر الوحيد الذي يمكن أن يكون سنداً بدلاً من العنصرين السابقين، بل ويمكن الاعتماد عليه في القضاء





على الفتن والثورات التي عجز المأمون عن إخمادها «مثل فتنة الزط، وفتنة بابك الخرمي» فاستكثر من الأتراك، كما أوضح موقف المعتصم من المشكلات التي خلفها عهد المأمون وأسلوب علاجه لها، كما أشار إلى تفكير المعتصم بل وتنفيذه لنقل الأتراك إلى عاصمة جديدة هي «سامراء» تخلف بغداد، والتي أصبحت فيما بعد العاصمة المركزية للخلافة العباسية.

وفي الفصل الرابع:

تحدث عن المرحلة الأولى من السيطرة التركية بعد المعتصم والتي امتدت من عهد الواثق إلى نهاية عهد المتوكل من سنة ٢٢٧ إلى سنة ٢٤٧هـ، وما حدث في تلك الفترة من وقائع وأحداث تطرق إليها وبسطها في ثنايا الفصل، كما ركز على الأحداث الهامة التي وقعت من الأتراك على الخليفة المتوكل، كما عني عناية كبيرة بتحقيق اتهام ابن المتوكل «المنتصر» بالاشتراك في التآمر مع الأتراك على قتل أبيه المتوكل، حيث وصل إلى نتائج لا بأس بها تنفي هذا الاتهام الذي دبره الأتراك أو بعضهم على الأقل، ونظراً لدقة هذا الاتهام وما أثير حوله فقد فصله بشكل واضح في الفصل التالي:

اما في الفصل الخامس:

فقد بين فيه صورة مجسمة لهذا النفوذ الذي أخذ يمتد ويتفاقم حتى ظن كثيرون أن الأمر أصبح لهؤلاء الأتراك، وقد ناقش الباحث أموراً كثيرة مما وصف به بعض الباحثين هذا النفوذ منذ المنتصر إلى المهتدي.

وفي الفصل السادس:

تكلم الباحث عن المعتمد وما حدث إبان عهده من انحسار للنفوذ التركي حتى كاد أن يصبح أثراً بعد عين، وهذا بالطبع نتيجة أسباب معينة لعل من أهمها ثورة الزنج وما ألحقته بالدولة العباسية من أضرار جسيمة «بقيادات تركية» وعجز الأتراك وهم عماد الجيش حتى ذلك الوقت عن هزيمة ذلك الدعي «قائد الزنج». عندها يسند المعتمد قيادة الجيش ومهمة القضاء على تلك الفتنة الزنجية إلى أخيه أبي أحمد الموفق، حيث نجح في ذلك وقضى على هذه المشكلة وحد من نفوذ الأتراك القادة وألزمهم حدودهم.

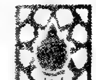
أما في الفصل السابع:

فقد تحدث الباحث عن سامرا، وأصل تلك التسمية، وعن سبب اختيارها لتكون عاصمة للخلافة العباسية تخلف بغداد العاصمة، هذا بالرغم من أن بناء تلك المدينة كان لأسباب خاصة وظروف معينة. كما تطرق الباحث إلى نماذج من حضارة سامراء، كما تحدث أيضاً عن المحاولات التي قام بها خلفاء بني العباس للانتقال منها إلى أماكن أخرى بدء بالمتوكل وانتهاء بالمعتمد الذي هجرها إلى غير رجعة في سنة ٢٧٩هـ متوجهاً إلى بغداد. حيث استحالت ابنيتها الضخمة إلى أطلال تمتد إلى مسافات شاسعة تزيد عن أربعة وثلاثين كيلو متراً من الجنوب إلى الشمال، وأخيراً واصل الحديث عن هذه المدينة ومدى مساهمتها في الحضارة العباسية.



مدرسة الإسكندرية ومكانتها العلمية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الأموي

فاضل خليل ابراهيم



تعتبر اسكندرية مصر، إحدى المدن الثلاث عشرة(١)، التي أنشأها الاسكندر سنة ٣٣٢ ق.م، وبعد وفاته، اتخذها أحد قواده، وهو بطليموس سوتير (٢٢٣ ــ ٢٨٥ ق.م)، قاعدة لملكه، ثم اقام بها أكاديمية للثقافة والعلوم اليونانية، وألحق بها مكتبة(٢)، بعد أن كانت مدينة منف «دار الملك والعلم»(٣).

وجاء إثراء المكتبة وإغناؤها على يد بطليموس فيلاذلفوس(٤) (٢٨٥ ــ ٢٤٧ ق.م)، الذي اهتم بجمع الكتب من مختلف الأرجاء(٥)، فأصبحت من أشهر وأعظم مكتبات العالم آنذاك، إلا أن هذه المكتبة قد أصابها الدمار سنة ٤٨م(٦)، بسبب حريق الأكاديمية. وأنشأ على أثرها مكتبة أخرى في معبد السرابيوم (سرابيس)، وأصبحت دراسة الفلسفة والعلوم في المعبد استمراراً لما كان عليه الحال في الأكاديمية(٧).

وفي سنة ٣٩١م، تعرض السرابيوم للخراب(٨)، وشمل ذلك ــ بطبيعة الحال ــ المكتبة الملحقة به(٩).

وعلى الرغم مما آل إليه مصير السرابيوم ومكتبته، فإن ذلك لم يؤثر على المسيرة العلمية للاسكندرية، إذ أن هناك أكاديميات ومدارس أخرى أشارت إليها وثائق في مجموعة كتب الآباء الشرقيين(١٠) إضافة إلى الأديرة(١١) والمكاتب الخاصة.

وعليه، فقد استمرت الاسكندرية في عطائها العلمي، ولو بدرجة أقل، طيلة القرون اللاحقة، على الرغم من قلة المعلومات في هذا المجال، فقد «كانت المبادىء العامة للفلسفة الأفلاطونية والأرسطوطالية المتأخرة، وطيدة البنيان تماماً في الاسكندرية... في القرن الرابع»(١٢). كما كانت كتب المنطق تُدرّس إلى آخر الأشكال الوجودية، منذ عهد النصرانية حتى مجيء الإسلام(١٣). وقد تواصل هذا النشاط الفلسفي خلال القرن السادس، عندما استقر فيها الفلاسفة اليونان، الذين عادوا من بلاد فارس، بعد أن أغلقت مدارسهم في أثينا سنة ٥٢٩م(١٤).

أما الدراسات الطبية، فقد كان لها مدرسة خاصة سميت بـ «دار العلم»(١٥)، قام بها جماعة من الأطباء، أطلق عليهم الاسكندرانيون، جعلوا من كتب جالينوس مادة أساسية لهم، فعملوا لها جوامع وتفاسير ومختصرات، ليسهل حفظها وحملها(١٦).


الاسكندر.

وهناك أطباء اسكندرانيون عاصروا الإسلام، منهم: ماغنس[١٧]، فوليس الأجانيطي، الذي ينسب إليه تأليف كتابين في الطب، أحدهما «الكناش في الطب» والآخر «كتاب في علل النساء»[١٨]، وكذلك أهرن القس[١٩]. ويحتمل أن يكون هؤلاء الأطباء ممن تخرجوا على يد الاسكندرانيين في دار العلم.

وعلاوة على الفلسفة والطب، فقد كانت الاسكندرية مركزاً للعلوم الكيمائية[٢٠]، إلا أنها امتزجت بالسحر والطلاسم والتنجيم[٢١]، وهكذا فقد كانت الاسكندرية موئلاً للاستقصاء العلمي، عشية الفتح العربي الإسلامي[٢٢].

ولقد اقترن أول اتصال للعرب المسلمين بالتراث العلمي الاسكندري، بالمسألة القائلة: إن عمرو بن العاص وبأمر من الخليفة عمر بن الخطاب، قام بإحراق خزانة الكتب[٢٣] (مكتبة) الاسكندرية. إلا أن البحث العلمي الحديث[٢٤]، قد توصل إلى نفي هذه المسألة.

وأخذ الاتصال بالعلم الاسكندري أبعاده الواضحة خلال العصر الأموي، وتمثل ذلك، باتصال خالد بن يزيد بعلماء وفلاسفة الاسكندرية، الذين ترجموا له كتباً في الحكمة[٢٥]. ودرس على أيدي بعضهم الكيمياء. وفي سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م، ذهب يعقوب الوهاوي إلى الاسكندرية، ليتم تحصيله للعلم[٢٦]. ودراسة الفلسفة[٢٧].

وفي مجال الطب، جلب العرب كناش الطبيب الاسكندري أهرن[٢٨]، ووُضع في خزانة الكتب في دمشق، ثم تُرجم إلى العربية. ولا بد أنه قد جُلب معه كتب طبية أخرى.

واتصل عمر بن عبدالعزيز، قبل توليه الخلافة، بأحد أساتذة مدرسة الطب في الاسكندرية[٢٩]، والتي نقلت فيما بعد إلى أنطاكيا.

لقد جاءت مسألة نقل مدرسة الاسكندرية إلى انطاكيا، في رواية كل من المسعودي[٣٠]، المقتضبة، ورواية ابن أبي أصيبعة[٣١]، التي نقلها عن الفارابي، وملخصها، ما يلي: كان التعليم أول أمره في الاسكندرية، ثم نافستها روما في عهد أغسطس، فأصبح التعليم في موضعين، إلى أن جاءت النصرانية فبطل التعليم

في روما وبقي في الاسكندرية، وإلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة، فانتقل التعليم من الاسكندرية إلى انطاكيا... في أيام عمر بن عبدالعزيز.

يقدم المستشرق مايرهوف، جملة أسباب، عن انتقال هذه المدرسة، منها: العزلة التي أصبحت عليها الاسكندرية، منذ أن فتح العرب مصر، وذلك بسبب الحروب التي أستعرّت بين العرب والبيزنطيين، وأنها قد فقدت أهميتها الثقافية والاقتصادية، بعد أن أصبحت دمشق عاصمة الدولة الجديدة، كما أن المدرسة لم تجد لها سنداً لدى الأقباط المصريين، وأن العلماء الذين يعرفون اليونانية قد تناقص عددهم(٣٢).

وعن أسباب اختيار أنطاكيا دون غيرها من المراكز الأخرى، يقول: إن ذلك يرجع إلى سهولة الحصول على المخطوطات اليونانية من آسيا الصغرى، لأن حركة التبادل كانت نشيطة دائماً على الحدود في أوقات السلم(٣٣).

ويضاف إلى هذه الأسباب، قرب أنطاكيا من عاصمة الخلافة(٣٤)، وعراقة تاريخها العلمي والفلسفي، الذي يعني بدوره، وجود علماء وكتب، تساهم في تدعيم هذه المدرسة، التي كادت أن تفقد دورها العلمي في مصر.

وتطرح في خضم هذه المسألة، تساؤلات عن دور الخليفة عمر بن عبدالعزيز في نقل المدرسة، وهل كان ذلك تحت إشرافه، أم أنها نقلت في عهده وحسب؟

لدى مطالعة رواية المسعودي وابن أبي أصيبعة، لا نجد أي تصريح، بأن عمر بن عبدالعزيز قد أمر بنقلها أو أشرف عليها. فرواية المسعودي تقول: إن التعليم قد «نُقِلَ... في أيام عمر بن عبدالعزيز من الاسكندرية إلى انطاكيا»(٣٥)، أما رواية ابن أبي أصيبعة، فلا تشير إلى اسم عمر وتكتفي بالقول: «إلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة، فانتقل التعليم من الاسكندرية إلى أنطاكيا»(٣٦)، وفي مكان آخر «فلما أفضت الخلافة إلى عمر، ذلك في صفر سنة تسع وتسعين للهجرة، نقل التدريس إلى أنطاكيا وحران وتفرّق في البلاد»(٣٧).

وعلى الرغم من ذلك، فهناك بعض القرائن، توحي بأن لعمر دور في نقل هذه المدرسة، منها،



□ العالم بطليموس الذي عاش وعمل في الاسكندرية.

اتصاله بابن أبجر، أحد أساتذة الاسكندرية، عندما كان في مصر، والذي يبدو، أنه قد اتفق معه على نقلها إلى الشام، إضافة إلى اهتمام عمر بالطب، بصورة خاصة، عندما أمر بنشر كناش أهرن في الطب بين الناس، واهتمامه بالعلم(٣٨)، الذي لا يتعارض معه تدينه، بصورة عامة.

وهناك مسألة أخرى متعلقة بنقل المدرسة، وهي تحديد شخصية المدرس والطبيب الاسكندري، الذي اتصل به عمر بن عبدالعزيز، والذي سمي بـ «عبدالملك بن أبجر الكناني»، فقد ذكر ابن أبي أصيبعة، أن عبدالملك بن أبجر الكناني، كان طبيباً ماهراً، من أساتذة الاسكندرية، أسلم على يد عمر بن عبدالعزيز في مصر، قبل توليه الخلافة، ثم صحبه إلى دمشق سنة ٩٩هـ، عندما تولى الخلافة، واعتمد عليه في صناعة الطب(٣٩). أما ابن جلجل، فلا يشير إلى اسمه كاملاً، بل يقتصر على «ابن أبجر»(٤٠)، وكذلك ابن صاعد، حيث يقول: هو «ابن الحبر»(٤١).

وهناك شخص آخر، يشابهه بالاسم والأصل والمهنة، اتفقت كتب الطبقات ورجال الحديث، على

أنه عبدالملك بن أبجر الكناني، المحدث والطبيب الكوفي، ذو النسب العربي الذي يرجع إلى قبيلة بني أبجر، توفي بعد سنة ١٦١هـ[٤٢].

ويظهر أننا أمام شخصيتين مختلفتين، حمل أحدهما اسم الآخر، فالأول، هو الطبيب والمدرس الاسكندري، الذي جاء اسمه عند ابن جلجل (ت ٣٨٢هـ)، مختصر وغير واضح، بصيغة «ابن أبجر»، ثم جاء مؤرخو العلوم بعده، فمزجوا بينه وبين ذلك الطبيب العربي الكوفي، لتشابه رسم الاثنين، فعرّفه ابن صاعد (ت ٤٦٢هـ)، بأنه الكناني، ونقل ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ)، اسمه كاملاً.

ومما يؤكد اختلاف الشخصيتين، أن جميع كتب الرجال، التي تحدثت عن الطبيب الكوفي، لم تشر إلى أنه قد اتصل يوماً بعمر بن عبدالعزيز، أو أنه كان في الاسكندرية أو اتصل بها.

بقيت المدرسة في أنطاكيا مدة طويلة، خلال العصر الأموي وبعده، إلى أن نقلت إلى حران. إلا أننا لا نعرف شيئاً عن طبيعة نشاطها الفكري والعلمي طيلة هذه الفترة، سوى ما نستشفه من قول للفارابي، أن هناك ـ فعلاً ـ مدرسة فيها أساتذة ومكتبة عامرة. ويرجح مايرهتوف، أنها كانت تمارس عملية الترجمة إلى السريانية[٤٣]، ولا يستبعد مشاركة طبيب عمر بن عبدالعزيز في التدريس فيها.

الهوامش والمصادر والمراجع

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر:١٩٥٧م، ١٨٣/١.
(٢) دي لاسي اوليري: علوم اليونان، القاهرة:١٩٦٢م، ص ٢٣ ـ ٢٤.
(٣) ابن صاعد: طبقات الأمم، بيروت:١٩١٢م، ص ٢٩.
(٤) أوليري: المرجع السابق، ص ٢٤.
(٥) القفطي: تاريخ الحكماء، ليبسك:١٣٢٠هـ، ص ٣٥٥.
(٦) الفردبتلر. فتح العرب لمصر، القاهرة:١٩٢٣م، ص ٣٥٤.
(٧) (٨) (٩) المرجع نفسه، ص ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦١.
(١٠) ماكس مايرهوف: مقال «من الاسكندرية إلى بغداد»، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية جمع وترجمة ـ عبدالرحمن بدوي، القاهرة:١٩٦٥م، ص ٣٨.
(١١) بتلر: المرجع السابق، ٣٦٦.
(١٢) اوليري: الفكر العربي، بيروت:١٩٧٢م، ص ٢٩.
(١٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، المطبعة الوهبية.١٨٨٢م، ١٣٥/٢.
(١٤) Dunlop, D.M.: Arab Civilization, London:1971, p 172
(١٥) القفطي: المصدر السابق، ص ٧١.
(١٦) المصدر نفسه، ص ٧١ ـ ٧٢.
(١٧) المصدر نفسه، ٣٢٢.
(١٨) ابن النديم: الفهرست، بيروت:١٩٦٤م، ص ٢٩٣.
(١٩) (٢٠) اوليري: الفكر العربي، ص ٤٠.
(٢١) احمد أمين ضحى الإسلام، ط ١٠، بيروت، ٢٦٢/١.
(٢٢) اوليري: الفكر، ص ٣٩.
(٢٣) أوردها المؤرخون العرب المتأخرون منهم، عبداللطيف البغدادي في كتابه الإفادة والاعتبار ص ٢٨ وتقي الدين المقريزي في كتابه الخطط جزء الأول ص ١٥٩.
(٢٤) أفضل من ناقش المسألة، هو المستشرق بتلر، حيث أفرد من كتابه «فتح العرب لمصر»، فصلاً كاملاً من ص ٣٤٨ ـ ٣٦٩، نفى فيه نفياً علمياً هذه المسألة.
(٢٥) ابن النديم: المصدر السابق ص ٢٤٣.
(٢٦) بتلر، ص ٣٦٨.
(٢٧) افرام الأول بوصوم: اللؤلؤ المنثور، بغداد:١٩٧٦م، ص ٢٩٣.
(٢٨) اوليري: علوم، ص ١٢٤.
(٢٩) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ١١٦/١.
(٣٠) المسعودي: التنبيه والإشراف، القاهرة:١٩٣٨م، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.
(٣١) عيون الأنباء، ١٣٤/٢ ـ ١٣٥.
(٣٢) مقال: «من الاسكندرية إلى بغداد»... ص ٦٨.
(٣٣) المرجع نفسه، ص ٦٩.
(٣٤) شاكر مصطفى: مقال «التعريب في الإسلام»، مجلة البيان، عدد ١٠٩، ١٩٧٥، ص ١٩.
(٣٥) التنبيه، ص ١٠٥.
(٣٦) عيون، ١٣٥/٢.
(٣٧) المصدر نفسه، ١١٦/١.
(٣٨) ابن عبدالحكم: سيرة عمر بن عبدالعزيز، بيروت:١٩٦٧م، ص ١٢٣.
(٣٩) عيون، ١١٦/١.
(٤٠) ابن جلجل: طبقات الأطباء، القاهرة:١٩٥٥م، ص ٥٩.
(٤١) طبقات الأمم، ص ٤٨.
(٤٢) انظر، ابن سعد: الطبقات، ليدن، ٢٣٦/٦.
ابن قتيبة: المعارف، مصر:١٩٦٩م، ص ٦٦.
(٤٣) مايرهوف، ص ٦٩.

حوليات كلية الآداب

— **الروابط العائلية ـ القرابية في مجتمع الكويت المعاصر**
الحولية الثالثة ـ الرسالة العاشرة: في الاجتماع
تصدر عن كلية الآداب ـ جامعة الكويت،
١٩٨٢م ـ ١٤٠٢هـ .... د. فهد ثاقب الثاقب

— **البيئة والسلوك**
الحولية الثالثة ـ الرسالة الحادية عشرة: في علم النفس
تصدر عن كلية الآداب ـ جامعة الكويت،
١٩٨٢م ـ ١٤٠٢هـ .... د. طلعت منصور

— **لورنس ومحفوظ**
دراسة أدبية سيكولوجية مقارنة
الحولية الثالثة ـ الرسالة الثالثة عشرة: في الأدب
تصدر عن كلية الآداب ـ جامعة الكويت،
١٩٨٢م ـ ١٤٠٢هـ .... د. محمد رجاء الدريني

— **آل قدامة والصالحية**
الحولية الثالثة ـ الرسالة الرابعة عشرة: في التاريخ
تصدر عن كلية الآداب ـ جامعة الكويت،
١٩٨٢م ـ ١٤٠٢هـ .... د. شاكر مصطفى

— **أسلوب إذ في ضوء الدراسات القرآنية والنحوية**
الحولية الرابعة ـ الرسالة الخامسة عشر
١٩٨٢م ـ ١٤٠٣هـ
تصدر عن كلية الآداب ـ جامعة الكويت .... د. عبدالعال سالم مكرم

— **مفهوم التفسير في العلم (من زاوية منطقية)**
الحولية الرابعة ـ الرسالة السادسة عشرة
١٩٨٣م ـ ١٤٠٣هـ
تصدر عن كلية الآداب ـ جامعة الكويت .... د. عزمي موسى إسلام

— **العمل الاجتماعي في المجال التربوي**
الحولية الرابعة ـ الرسالة السابعة عشرة
١٩٨٣م ـ ١٤٠٣هـ
تصدر عن كلية الآداب ـ جامعة الكويت .... د. جلال الدين الغزاوي

— **وحدة ميتافيزيقا أرسطو ومنزلة الرياضيات فيها**
الحولية الرابعة ـ الرسالة الثامنة عشرة
١٩٨٣م ـ ١٤٠٣هـ
تصدر عن كلية الآداب ـ جامعة الكويت .... د. أبو يعرب المرزوقي

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا




الفهرس العام
للسنة السادسة

الآثار والحضارات

تاريخ أوروبا والعالم

تاريخ الفنون

توثيق ومعلومات

متفرقـــات



□ مساكن البربر المسلمين




تاريخ العرب والعالم
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي
السنة السابعة • العددان ٧٥-٧٦ • كانون الثاني (يناير) - شباط (فبراير) ١٩٨٥م • الموافق ربيع الثاني - جمادى الأولى ١٤٠٥هـ

□ مخزن أسلحة إسلامي يعود للقرن الثالث عشر الميلادي.



□ مبخرة فضية، صنعت في مصر او سورية. تُعَد فريدة من نوعها، لأن المباخر المماثلة كانت تصنع عادة من النحاس الأحمر أو الأصفر تزينها النقوش العربية.

تاريخ العرب والعالم

العددان ٧٥/٧٦ — كانون الثاني — شباط ١٩٨٥

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها فاروق البربير

المستشار د. أنيس صايغ المدير المسؤول محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج. مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

البلد	الثمن	البلد	الثمن
لبنان	٨ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الإشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب ٥٩٠٥ ـ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

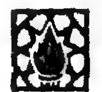
EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 7 – No. 75/76 – Jan-Feb. 1985

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



الحرف العربي واللغات الافريقية*

د. يوسف الخليفة أبو بكر

— ١ —

تطور الحرف العربي عبر القرون

قبل أن نتناول بالبحث قضية الحرف العربي في اللغات الأفريقية، يجدر بنا أن نعرض في إيجاز للأطوار التي مر بها حتى اكتسب المرونة التي جعلته قادراً على التعبير عن أصوات العشرات من لغات الأمم الإسلامية التي لا تتحدث العربية. ذلك لأن التطور الذي أصاب الحرف العربي عبر هذه القرون إنما يرجع إلى حركة الاصلاح التي تمت في القرنين الهجريين الأول والثاني، والتي جعلت الحرف العربي يؤدي دوراً خطيراً في تاريخ التراث البشري عامة، والتراث العربي والاسلامي خاصة، ويمتد مجاله من اللغة العربية إلى مجال العشرات من لغات الأمم الاسلامية التي يقارب تعدادها اليوم بليون نسمة.

— ٢ —

الحرف العربي قبل الاسلام

تحدث الباحثون من العرب والفرنجة حول الأصل الذي انحدرت منه الكتابة العربية. وقد اتفقوا على أن أصل الكتابة العربية يرجع إلى الكتابة المصرية القديمة (الهيروغليفية) التي اشتق منها الخط الفينيقي، ومن الخط الفينيقي اشتقت عوامل من الخطوط ينتمي الخط العربي إلى واحد منها. ويتفقون أيضاً على أن الصورة التي وصلت إلينا من الكتابة العربية اشتقت مباشرة من الخط الحيري والأنباري (الذي سمي فيما بعد بالخط الحجازي والأخير منحدر من الخط النبطي). وفي الفترة بين منتصف القرن الثالث الميلادي ونهاية القرن السادس الميلادي تحول الخط العربي من صورته النبطية الخالصة إلى صورته المعروفة لدينا[١] في المخطوطات الاسلامية المنسوبة إلى النصف الأول من القرن الهجري الأول. وبينما يتفق الباحثون على أن أول السلسلة التي انحدر منها الخط العربي وهي (الخط الهيروغليفي) ونهاية السلسلة (الخط النبطي)، فإنهم يختلفون في السلسلة الوسط. وليس هنالك من الوثائق التاريخية ما يؤيد هذا أو ذاك[٢].

الشيء المؤسف أن الوثائق التي وصلت إلينا عن صورة الكتابة العربية قبل الاسلام قليلة. ولا تتعدى بضعة نقوش عثر عليها في شمال الجزيرة العربية. وفي جملتها تكون جملا وعبارات معدودة، مكتوبة بخط بدائي. منها نقش حران

(*) ألقيت هذه المحاضرة في ندوة نظمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بعنوان «العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية» (٢١ — ٢٦ شباط ١٩٨١).

☐ د. يوسف الخليفة ابو بكر: خبير بمعهد الخرطوم الدولي للغة العربية.

(شمال جبل الدروز) ويرجع تاريخه إلى عام ٥٦٨م وهو أول نص عربي كامل بتراكيبه وجمله. وهنالك نقوش أخرى سابقة لنقش حران ولكنها مكتوبة بخط نبطي منها نقش زبد ٥١١م ــ ٥١٢م ونقش النمارة (الآن جبل الدروز) ويرجع تاريخه إلى عام ٣٢٨م ونصه عربي. وأقدم هذه النقوش جميعا نقش أم الجمال (غربي حوران) وهو بخط نبطي ولغة نبطية. ويقال أن ملوك العرب قبل هذا التاريخ كانوا يستخدمون الخطوط الأخرى كالثمودي واللحياني والصفوي المتفرعة من الخط المسند الجنوبي (٣).

والذي يهمنا هنا هو أن أقدم صورة وصلت إلينا من الكتابة العربية قبل الاسلام تميزت بالخصائص التالية:

١ ــ انها كانت متصلة الحروف.
٢ ــ انها كانت خالية من النقط (الأعجام).
٣ ــ انها كانت قاصرة على تمثيل الأصوات الصحاح دون الحركات.
٤ ــ إن كثيرا من حروفها كان يعبر عن أكثر من صوت واحد.

وكانت هذه هي سمة الكتابات السامية عموما. وإن كانت الكتابة السريانية قد استخدمت النقط للتمييز بين بعض حروفها(٤). هذا بخلاف الكتابة العربية الجنوبية المسماة بالخط المسند، والتي كانت تستخدم في اليمن، وهي منفصلة الحروف، الأمر الذي يؤكد انحدار الكتابة العربية من كتابات الشمال لا من كتابات الجنوب(٥).

ــ ٣ ــ

الحرف العربي عند ظهور الاسلام

لم يكن العرب قبل الاسلام يعيرون الكتابة اهتماما على نحو اهتمامهم بالكلام المنظوم والمنثور. وكان تعلم الكتابة متروكا للظروف الفردية. ولم تعرف مؤسسات عنيت بتعليم الكتابة بطريقة منظمة أو غير منظمة. ويبدو أنه لم يكن هنالك تشجيع على تعلمها أو افتخار بمعرفتها، ولم تكن واحدة من المهارات ذات الشأن في ذلك المجتمع الجاهلي. وقد وصف القرآن العرب بالأمية في قوله تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم..؟) ومع ذلك فقد كانت الكتابة معروفة لدى العرب في الجاهلية وكان يستخدمها ملوكهم في الرسائل والوثائق. وتشير بعض المصادر العربية إلى رجلين اشتهرا في الجاهلية بمعرفة الكتابة، وهما عمرو بن زراره (وكان يسمى «الكاتب»)، وغيلان بن سلمة الذي أسلم يوم الطائف. وقد اشتهرت الطائف بالكتابة. وهي موطن قبيلة **ثقيف**. ولذا فإننا نستطيع أن نفسر لماذا اهتم الحجاج بن يوسف **الثقفي** بإصلاح الكتابة، بل أن هذا يؤكد الرأي القائل بأن الحجاج الثقفي هو الذي أخذ المبادرة وأمر بإصلاح الحرف العربي في منتصف القرن الهجري الأول. ويؤيد انتشار الكتابة في قبيلة ثقيف قول سيدنا عثمان بن عفان للجنة التي جمعت المصحف في عهده (اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف).

دخلت الكتابة طورا جديدا بمجيء الاسلام، **وكانت نقطة التحول هي نزول الوحي وتدوينه بالحرف العربي على مدى ثلاثة وعشرين عاما**، وبذلك ارتبطت الكتابة بالقرآن وأصبحت جزءا لا يتجزأ من العمل الديني. ولأول مرة في تاريخ الكتابة العربية يوجه اهتمام مباشر بتعليم الكتابة على مستوى العامة، عندما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم فدية الواحد من أسرى قريش: أن يعلم الأسير (الذي يعرف الكتابة) عشرة من صبيان المدينة الكتابة. ثم صار تعلم الكتابة من شعائر الدين كما صارت الكتابة ــ فيما بعد ــ أصلا لكل تعليم.

ومن ناحية أخرى صارت الكتابة منذ الأيام الأولى للاسلام وسيلة للاتصال الخارجي، وارتبط بها انتشار الاسلام خارج الجزيرة العربية وداخلها، فقد كتب الرسول صلى الله عليه وسلم الرسائل إلى الملوك يدعوهم إلى الاسلام، وبذلك أصبحت وظيفة الكتابة سياسية واجتماعية ودينية.

وقد استنسخ كبار الصحابة القرآن حتى صار لكل منهم نسخته الخاصة به، وجمع القرآن وروجع فور انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق، ثم جمع وروجع مرة أخرى على عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وكان المصحف الامام الذي نسخت منه نسخ وزعت على

الأمصار الاسلامية آنذاك.

كان الحرف العربي الذي كتب به المصحف ونسخت منه المصاحف وكتبت به رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم، ورسائل الخلفاء الأربعة من بعده بدائيا من الناحيتين الوظيفية والجمالية. كانت الحروف غير مشكولة وغير منقوطة، وكانت بدائية من حيث أشكالها الهندسية حيث لم تكن تستوف مقوماتها الجمالية. وقد استمر الأمر على ذلك طوال النصف الأول من القرن الهجري الأول. على أن القلقشندي شكك في كتابه صبح الأعشى. عند حديثه عن نقط المصاحف الذي بدأه أبو الأسود ـــ شكك في أن تكون حروف القرآن ظلت عارية من النقط إلى حين نقط المصحف(٧).

ـــ ٤ ـــ

حركة إصلاح الكتابة

ما هو المعيار العلمي للكتابة السليمة؟

لقد وضع علماء اللغة المحدثون معيارا أو شروطا للكتابة السليمة، أو كما يسمونها «الكتابة الصوتية» أو «الكتابة الفونيمية». تتلخص هذه الشروط في الآتي: (١) أن يكون لكل صوت (فونيم) رمز خاص به، و (٢) الا يكون للصوت الواحد أكثر من رمز واحد يعبر به عنه. (One — to — one correspondance). فإذا اختل أحد هذين الشرطين في أي نظام هجائي عد ذلك عيبا واختلالا في نظام الكتابة بالمقياس العلمي. ويمثل لذلك بأن تشتمل حروف الهجاء على حرف يدل على أكثر من صوت واحد، كما هو الحال في اللغة الانجليزية حيث تجد صوت الحركة الممالة (الأمامية المتوسطة). يعبر بها عن أصوات كثيرة، فتعبر حينا عن الكسرة الممالة كما في كلمة (men) وتعبر حينا آخر عن الكسرة الصريحة كما في كلمة (Women) كما تعبر عن صوت الحركة المتوسطة (e) كما في كلمة (The) وكلمة (Writer) وتعبر أيضاً عن صوت الكسرة الطويلة كما في كلمة (be). وينطبق ذلك على الحركات الأخرى في اللغة الانجليزية كما نجد هذا الخلل في الصحاح الانجليزية (Consonants). وهذا العيب يسميه علماء اللغة (Underdifferentiation) أي ضعف التمييز.

أما النوع الثاني من العيوب الكتابية فهو أن تشتمل حروف الهجاء على صوت واحد يعبر عنه بحروف كثيرة (Allographs). ونجد لهذا أمثلة كثيرة في اللغة الانجليزية أيضا. من ذلك صوت الكاف الذي يرمز إليه حينا بـ k كما في كلمة (Book) ويرمز له حينا آخر بـ c كما في كلمة (Case) وحينا ثالثا يرمز له بـ ch كما في كلمة (Character) وحينا رابعا يرمز له بـ q كما في كلمة (Chêque) ومثل هذا العيب يسميه علماء اللغة (Overdifferentiation) وامثلته كثيرة أيضا في اللغة الانجليزية.

إذا حاولنا تطبيق هذين المعيارين على الكتابة العربية في صورتها قبل حركة الاصلاح (أي قبل الأعجام) وقارناها بما تم عمله بعد ذلك فسنجد أن الحروف الهجائية قبل حركة الاصلاح أي حتى النصف الأول من القرن الهجري الأول كانت تشتمل على ستة أحرف خصص كل منها للتعبير عن صوت واحد فقط وهي (ا ك ل م هـ و) أما بقية الحروف الهجائية وعددها ٩ أحرف فكانت تعبر عن ٢٢ صوتا إذ كان كل منها يعبر عن صوتين أو أكثر وهي (ب ح د ر س ص ط ع و)، وبذلك انطبق عليها العيب الكتابي الذي يسمى (Underdifferentiation) ناهيك عن أصوات الحركات التي لم يكن يرمز لها بأي رمز في ذلك الوقت البتة.

والعمل الذي قام به أبو الأسود الدؤلي ومن جاء بعده من العلماء حتى الخليل بن أحمد وضع الكتابة العربية في مصاف الكتابات العلمية التي تسمى الكتابة الصوتية (أو الفونيمية)، فبفضل جهود هؤلاء العلماء أصبح لكل صوت عربي رمز خاص به يعبر به عنه في الكتابة سواء أكان هذا الصوت صحيحاً أم حركة. وتم ذلك على مراحل، وكان لكل مرحلة ظروفها وعلماؤها. وتتلخص هذه المراحل فيما يلي:

(أ) المرحلة الأولى ـــ نقط الحركات:

كان السبب المباشر الذي دعا إلى اللجوء إلى ابتكار رموز تعبر عن الحركات هو فشو اللحن وخشية أن يؤثر ذلك على قراءة القرآن. فعلى الرغم من الاهتمام الذي وجهه المسلمون الأوائل

سورنول الفاتحة

كنكل ون جيسلت ينكل بلبيذي
عرنت ينكل جبتك كامل كل مكنكول.
دكل وحيبتي ميلا د عن يارد وب تيمط
جيكم ع سف ماسف ع كع. طم ون
هتاد نلا ط بن محمد هيتن د وب دب.
«الفاتحة» عن هيتر فزك د وب سف ع كع.
ون وبب د وب سف سب ناتدزكل هتاد
ناكنكور لو هتاد لو رنكور غط فلدربلط
سف ع كع. طمو هتاد ناكنكور بردلو
رنكور جونذ. د «الفاتحة» غو تلنتي توى
جونب كبيوى ها عن باو رنتذ جولد نكوروبر

نموذج من المخطوطات والكتب باللغات الافريقية المكتوبة بالحرف العربي.

لاستقامة اللسان وتمسكهم بقراءة القرآن على النحو الذي نزل به، فإن تطور اللغة لم يتوقف، وظل اللحن يفشو وينتشر حتى ظهر على السنة العامة والخاصة. وهنا سرى إحساس بخطورة فشـو اللحن عـلى كتـاب الله، وصحب هـذا الاحساس إدراك لقصور الكتابة العربية آنذاك عن الوفاء بتمثيل الألفاظ في شيء من الدقة.

وأول ظاهرة لغوية دخلها الفساد في اللغة آنذاك هي «إعراب أواخر الكلمات». وتذخر كتب النحو واللغة بالروايات التي تتضمن أمثلة للحن في الحديث اليومي وفي قـراءة القرآن، وكلهـا تتصل بإعراب أواخر الكلمات. هذا هو السبب الذي جعل الاهتمام يتوجه بادىء ذي بدىء إلى ابتكار رموز للحركات تضبط بها أواخر الكلمات قبل التفكير في نقط الحروف.

هنالك روايات مختلفة حول أول من أخذ زمام المبادرة ووجه بإصلاح الكتابة، وحول أول من بدأ عملية الاصلاح. قيل أن أبا الأسود قد فعل ذلك بأمر من سيدنا علي بن أبي طالب الذي سمع رجلا يقرأ (إن الله بريء من المشركين ورسوله) بجر لام رسوله بدلا من رفعها، وقيل أنه فعل ذلك بأمر من زياد أمير العراق، وقيل أنه

فعل ذلك بنفسه حين سمع رجلا يخطيء في هذه الآية.. وهنالك أقوال أخرى ليس هذا مجال الخوض فيها. ومهما يكن من أمر الذي دعا إلى الاصلاح فإن الراجح لدى العلماء أن أبا الأسود الدؤلي هو أول من أجرى تجربة ابتكار رموز الحركات.

ولما كان السبب في إصلاح الكتابة هو فساد اللسان بفشو اللحن كان من الطبيعي أن يبدأ هذا الاصلاح بالجانب الوظيفي للحرف العربي قبل الجانب الجمالي. ولما كان موضع الفساد هو إعراب أواخر الكلمات كان من الطبيعي أيضا أن يبدأ الاصلاح بضبط أواخر الكلمات، وأن يأتي نقط الحروف في مرحلة تالية لذلك.

كيف اكتشف أبو الأسود الحركات؟
وكيف رمز لها؟

لم يكن معروفا لأبي الأسود ولا لمن عاصروه أو سبقوه من العرب أن عدد الحركات في اللغة العربية ثلاثا أو أقل أو أكثر، إذ لم تكن هنالك رموز تعبر عنها. ومقدرة المتحدثين باللغة على الكلام بالسليقة لا يعني بالضرورة إدراكهم لنظامها الصوتي أو النحوي. والذي يقود السيارة بمهارة لا يعني ضرورة انه يدرك أسرار الآلات التي تعمل على تحريكها. وكان على أبي الأسود أن يجري تجربة ميدانية ليكتشف طبيعة الحركات العربية، ثم يرمز لكل حركة برمز خاص. وقد اختط أبو الأسود لنفسه منهجا علميا حين بدأ بملاحظة حركة أعضاء النطق وعلى التحديد حركة الفم والشفتين ليصل إلى القيم الصوتية للحركات (Vowel quality) التي تصاحب كل حركة للفم والشفتين. وطلب أبو الأسود إلى تلميذه أن ينظر إلى حركة فمه وأن يستمع جيدا إلى الصوت الذي يصاحب كل حركة للشفتين ثم أعطاه قلما وصبغا يخالف لونه لون المداد الذي كتب به المصحف الذي كان يجري عليه التعديل. قال أبو الأسود لصاحبه: «إذا رأيتني فتحت شفتيّ بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، فإن ضممت شفتيّ فانقط نقطة بين يدي الحرف، فإذا كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن اتبعت شيئا من هذه الحركات غنة (أي تنوينا) فاجعل نقطتين. واستمر أبو الأسود وصاحبه على ذلك أتيا إلى آخر المصحف.

بذلك وصل أبو الأسود إلى معرفة عدد الحركات في اللغة العربية، ووصل إلى معرفة التنوين، ووضع لكل من ذلك رمزا خاصا به يميزه عن الآخر. ورمز أبو الأسود لكل حركة من الحركات الثلاث بنقطة، **فوضع بذلك مبدأ التمييز بالنقط**. كما اختار **مبدأ اختلاف مواضع النقط** وسيلة للتمييز بين الحركات، واختار كذلك **تعدد النقط** وسيلة أخرى للتعبير عن الحركات أو التنوين. وهي تتلخص في الآتي:

١ ــ الفتحة، ورمز لها بنقطة فوق الحرف هكذا ـ

٢ ــ الكسرة ورمز لها بنقطة تحت الحرف هكذا ـ

٣ ــ الضمة ورمز لها بنقطة بين يدي الحرف هكذا ـ

٤ ــ التنوين بالفتحة ورمز له بنقطتين فوق الحرف هكذا ـ

٥ ــ التنوين بالكسره ورمز له بنقطتين تحت الحرف هكذا ـ

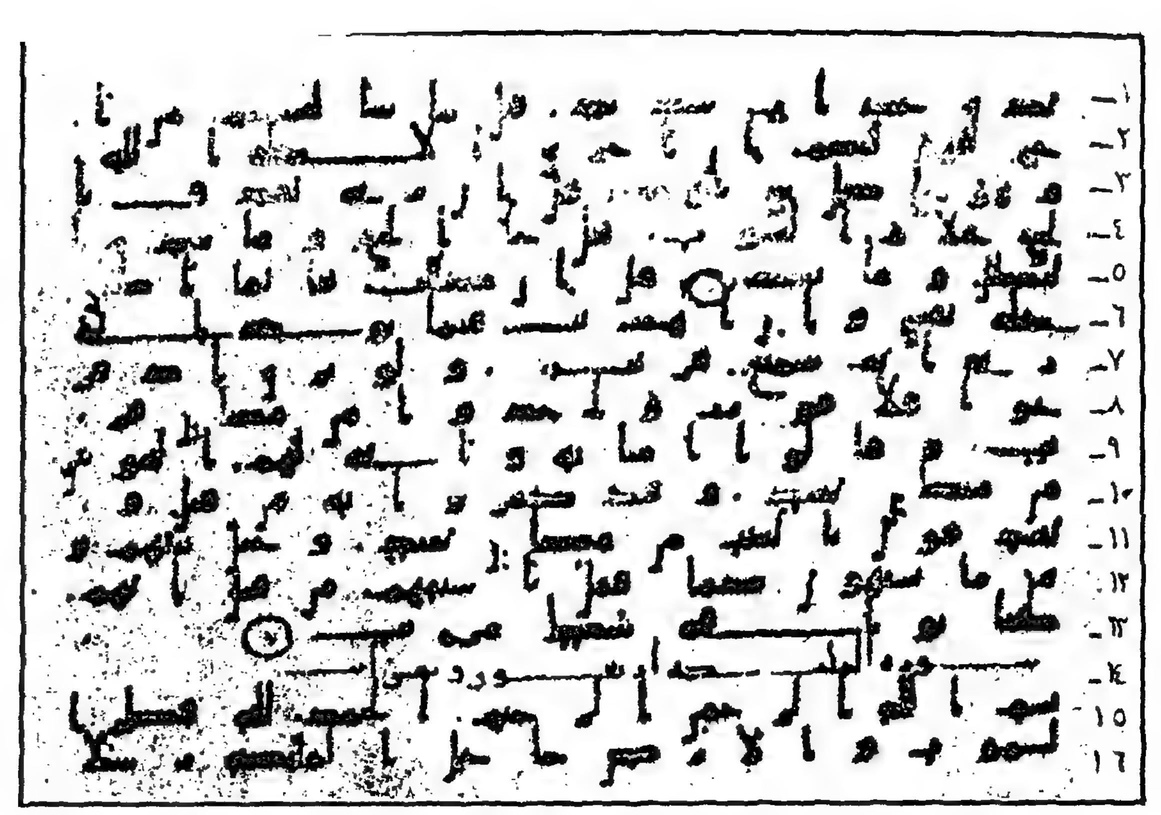
٦ ــ التنوين بالضمة ورمز له بنقطتين بين يدي الحرف هكذا ـ:

ويجدر أن نشير هنا إلى أن النماذج التي وصلت إلينا من العصور الاسلامية الأولى للاسلام توضح أن نقط التنوين يكون حينما نقطتين في شكل رأسي هكذا (:) ويكون حينا آخر في شكل أفقي هكذا (..)(انظر النموذج ص ٧) النموذج التالي عبارة عن الآيات الثمانية الأخيرة من سورة سبأ وأول سورة فاطر (سورة الملائكة)، وقد نسبت في بعض المصادر إلى عهد الخليفة عثمان بن عفان[٨]. إلا أنني أرجح أن تكون من عهد متأخر عن ذلك لأنها مشتملة على نقط الحركات كما اقترحه أبو الأسود الدؤلي. والمعروف أن المصاحف التي كتبت على عهد عثمان كانت خالية من نقط الحركات ونقط الحروف.

الآيات:

قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله. مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بينن.

١ ــ يدي عذاب شديد، قل ما سألتكم من أ



في هذا النموذج يتضح لنا ان نقط التنوين كان يكتب احياناً في شكل افقي ــــ ــــ ، ويكتب احياناً اخرى في شكل رأسي ــــ (قارن السطر ٧ «سميع قريب» بالسطر ٨ «مكان» والسطر ٨/٩ «قريب». انظر ايضاً السطر ١١ «مكان بعيد»).

٢ ــ جر فهو لكم أن أجرى إلا على الله
٣ ــ وهو على كل شيء شهيد، قل ان ربي يقذف با
٤ ــ لحق علاّم الغيوب، قل جاء الحق وما يبدىء ا
٥ ــ لباطل وما يعيد. قل أن ضللت فإنما أضل
٦ ــ على نفسي وأن اهتديت فبما يوحي إليّ
٧ ــ ربي إنه سميع قريب. ولو ترى إذ فز
٨ ــ عوا فلا فوت وأخذوا من مكان قر
٩ ــ يب. وقالوا آمنا به وإني لهم التناوش
١٠ ــ من مكان بعيد. وقد كفروا به من قبل و
١١ ــ يقذفون بالغيب من مكان بعيد. وحيل بينهم و
١٢ ــ بين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل أنهم
١٣ ــ كانوا في شك مريب.
١٤ ــ سورة الملائكة أربعون وخمس آيات
١٥ ــ بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله فاطر
١٦ ــ السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا

كما تجدر الاشارة إلى أن أبا الأسود هو من أطلق كلمة غنة لتعني التنوين.

(ب) المرحلة الثانية ــ نقط الحروف والشد:

المبدأ الذي وضعه أبو الأسود لاصلاح الكتابة عن طريق النقط أوحى لمن أتى بعده من العلماء الذين أكملوا عملية الاصلاح أن يميزوا بين الحروف أيضا بالنقط وباختلاف تعدد النقط واختلاف مكان النقط من الحرف. وأوصى كذلك للأجيال القادمة من الأمم التي دخلت الاسلام وكتبت لغاتها بالحرف العربي، أن تتخذ أيضا هذه المبادىء لتطويع الحرف العربي ليعبر عن الأصوات المختلفة في تلك اللغات.

هنالك خلاف حول أول من قام بأعجام الحروف أي نقطها. وتشير معظم الروايات إلى أن نقط الحروف تم على يدي العالمين المشهورين عمر بن عاصم الليثي ويحيى بن يعمر العدواني وكلاهما من تلاميذ أبي الأسود الدؤلي. ويقال أنهما قاما بهذا العمل بأمر من الحجاج بن

يوسف الثقفي. وليس غريبا على تلميذي أبي الأسود أن يقتفيا أثر شيخهما بتطبيق المبادىء التي وضعها لنقط الحركات، على الحروف للتمييز بينها حتى يصير لكل صوت رمز خاص به يعبر عنه. وهذه المبادىء هي:

١ ـ التمييز بالنقط.

٢ ـ التمييز باختلاف موضع النقط من الحرف.

٣ ـ التمييز بتعدد النقط.

وحتى لا يلتبس نقط الحروف بنقط الحركات جعل ناقطو الحروف نقطهم بالمداد الأسود وأبقوا على نقط أبي الأسود بصبغ يخالف لونه لون مداد الحروف. وبذلك صار نقط الحرف جزءا لا يتجزأ من صلب الحرف أي صارت شخصية الحرف تتكون من الشكل الأساسي للحرف زائداً النقط فوق الحرف أو تحته بنقطة واحدة أو نقطتين أو ثلاثة نقط.

وكان جملة ما أضيف من نقط للتمييز بين الحروف كما يلي:

(أ) النقطة الواحدة فوق الحرف وقد ميزت ثمانية حروف هي: خ، ذ، ز، ض، ظ، غ، ف، ن.

(ب) النقطة الواحدة تحت الحرف وقد ميزت حرفين هما: ب، ج.

(ج) النقطتان فوق الحرف وقد ميزت حرفين هما: ت، ق.

(د) النقطتان تحت الحرف وقد ميزت حرفاً واحدا هو: ي.

(هـ) النقط الثلاث وقد ميزت حرفين هما: ث، ش.

وهنالك ستة حروف لم يدخلها الأعجام هي: ا، ك، ل، م، هـ، و.

ويبدو أنه لم يكن هنالك أساس صوتي أو غير صوتي تقرر بموجبه عدد النقط أو مكانه بالنسبة للحرف هذا أو ذاك. وكان من الممكن أن تكون للباء نقطتان أو أكثر فوق الحرف أو تحته، وهذا ينطبق على كل الحروف الأخرى. ويبدو أن اختيار موضع النقط من الحرف كان أيضا اعتباطيا. وكل ما هدف إليه واضعو النقط هو إزالة اللبس بالتمييز بين الحروف بحيث يكون لكل صوت حرف خاص به يميزه عن الحروف الأخرى، مهملا كان أم معجما. وبذلك حققوا الهدف العظيم الذي رموا إليه بنجاح عظيم.

المرونة التي اكتسبها الحرف العربي بالنقط:

إن المبدأ الذي وضعه أبو الأسود ومن جاء بعده من العلماء من اتخاذ **مبدأ التمييز بين الحروف عن طريق النقط، وموضعه من الحرف، وتعدده،** جعل كل حرف من الحروف العربية قابلا لاحتمالات النقط الخمسة التي اقترحت، وهي: ـــبـــ: ـــبـــ وبذلك أصبحت الحروف المعجمة التي **يمكن إنتاجها** ٧٥ حرفا عبارة عن حاصل ضرب ٥ × ١٥ (ا ب ح د ر س ص ط ع ف ك ل م هـ و). يضاف إلى ذلك ثلاثة عشر حرفا مهملا بعد حذف الحرفين (ب) و (ف) اللذان لا يستعملان مهملين للتعبير عن صوت (فونيم)، وعليه تكون جملة الاحتمالات ٨٨ حرفا. اختير للغة العربية من هذه الاحتمالات الثمانية والثمانين ٢٨ حرفا. واستفادت لغات الأمم الاسلامية من الاحتمالات الأخرى واستخدمت بعضها في لغاتها لتعبر بها عن الأصوات التي لا توجد في اللغة العربية مثل: (ڭ ݣ ڭ ڤ پ چ ځ ۼ ڊ ڔ ژ ظ ڟ... الخ) وقد طبقت ذلك كثير من اللغات غير العربية التي كتبت بالحرف العربي.

واضافت بعض لغات الأمم الاسلامية مبدأ جديدا في النقط للتعبير عن بعض أصواتها التي لا توجد في اللغة العربية. من ذلك:

(أ) النقطتان الأفقيتان فوق الحرف أو تحته (ـنـ، ـپـ).

(ب) أربع نقط فوق الحرف أو تحته (ـنـ، ـپـ).

(ج) نقط الحرف ثلاثا فوقه في شكل مثلث قاعدته إلى أعلى ورأسه إلى أسفل (ـٿـ) وعكس ذلك تحت الحرف (ـپـ).

هذا بالاضافة إلى رموز اللغة العربية التي استخدمت ما يناسبها في لغتها واحتفظت بالبعض الآخر لتعبر به عن أصوات اللغة العربية عند تعلمها.

إذا أضفنا هذه الاحتمالات الجديدة الستة (ـنـ، ـپـ، ـٿـ، ـپـ، ـنـ، ـپـ) لكل حرف من الحروف الخمسة عشر (المهملة) أنتجت لنا ستين شكلا

جديدا يضاف إلى الثمانية والثمانين ليكون مجموع الأشكال الممكنة ١٧٨ هذا بخلاف الاضافات التي تمت في عدد من اللغات ولم يستخدم فيها النقط مثل الكاف الفارسية گـ والحروف المركبة المستخدمة في الأردو واللغات الأفريقية على النحو الذي سنفصله فيما بعد.

لقد سقنا هذه المقدمة لندلل على ان الاسهام الذي قدمه سلفنا الصالح وعلى رأسهم أبو الأسود الدؤلي ومن جاء بعده، كان له الفضل في إكساب الحروف العربية التي وجدوها (وعددها لا يزيد على ١٥ حرفا) مرونة جعلتها قادرة على توليد أشكال مختلفة عن طريق التمييز بالنقط حتى قاربت المائتي شكل. وبذلك أعطى الحرف العربي لغات الأمم الاسلامية فرصا واسعة لتولد منها ما يتناسب مع أصواتها من رموز أصولها عربية ولا تختلف إلا بالنقط.

الشد:

في هذه المرحلة (الثانية) من مراحل تطوير الحرف العربي، اختير أيضا رمز يعبر عن التضعيف (الشد) وهو ظاهرة لغوية يعتبرها علماء الأصوات (فونيما) يفرق بين معاني الكلمات. ومنذ القرن الهجري الأول فطن العلماء العرب إلى أهمية هذه الظاهرة الصوتية واقترحوا لها رمزا يعبر عنها في الكتابة.

ويبدو أن الرمز الذي اقترح للشد قد مر بمرحلتين قبل أن يستقر نهائيا على يد الخليل بن أحمد. وكان في المرحلتين متأثرا بالمبدأ الذي وضعه أبو الأسود لنقط الحركات من حيث مكانته بالنسبة للحرف (فوقه أو تحته أو بين يديه) وفي كل مرحلة كتب الشد بطريقة مختلفة. وتثبت المخطوطات طريقتين لكتابة الشد:

في الطريقة الأولى يرمز للشد بنصف دائرة مفتوحة إلى أعلى أو أسفل أو كما عبر صاحب كتاب «الخراز في الضبط» وصف شكلها بدال قائمة الجناحين هكذا: (◡)، (◠). وكانت تكتب مع الحركات على النحو التالي:

— الشد بالفتح (النقطة ترمز للفتحة).
— الشد بالكسر (النقطة ترمز للكسر).
— الشد بالضم (النقطة ترمز للضم).

أما في الطريقة الثانية فقد رمز للشد برأس شين هكذا:

— الشد بالفتح ـّـَ
— الشد بالكسر ـّـِ
— الشد بالضم ـّـُ

يلحظ هنا أن الشد بالكسر كتب تحت الحرف، وبالضم بين يديه على طريقة أبي الأسود ويبدو أن الكتابة العربية ظلت تتردد بين استعمال الشكلين السابقين للشد حتى منتصف القرن الثاني الهجري، أما في المصاحف فقد استمر العمل بها لبضعة قرون.

والراجح أن الانتقال برمز الشد من مرحلة نصف الدائرة إلى رأس الشين (ـّـ) تم على يدي الخليل بن أحمد الذي قدم إضافات أخرى إلى الكتابة العربية لم يستطع أحد بعده أن يضيف إليها شيئا إلى يومنا هذا، حيث استوفت كل مقوماتها الوظيفية. وإضافات الخليل التي سنذكرها فيما يلي هي المرحلة الثالثة لأطوار الحرف العربي.

(ج) المرحلة الثالثة ــ مرحلة نضج الكتابة:

في هذه المرحلة استوفت الكتابة العربية كل مقوماتها الوظيفية على يدي الخليل بن أحمد الفراهيدي. ويعزى إلى الخليل ابتكار الرموز التالية:

١ ــ رمز السكون ـْـ
٢ ــ رمز الهمزه ء
٣ ــ رمز المد ~
٤ ــ رمز الصلة ص

كما يعزى له استبدال نقط الحركات الذي اقترحه أبو الأسود برموز الحركات المعروفة لدينا الآن (ـَـ ـُـ ـِـ ـٌـ).

وبعد أن كان نقط الحركات معبرا عن حركات أواخر الكلمات صارت العلامات الجديدة (الفتحة والكسرة والضمة) ترمز إلى الحركات سواء اكانت في آخر الكلمة (الاعراب) أم في بنية الكلمة، أم كانت تخلصا من التقاء الساكنين. وتبعا لتغير علامات الاعراب من النقط إلى الشكل المعروف لدينا تغيرت أيضا علامات التنوين من النقط إلى العلامات المعروفة لدينا الآن.

واستقرت علامة الشد على الشكل المعروف لدينا، وصارت الشدة المحركة بالكسر تكتب فوق

الحرف بدلا من تحت الحرف.

ووضع الخليل علامة الامالة دائرة مفتوحة تحت الحرف الممال ـِ مثل «اليناس»، «مجريها».

الرموز الصوتية (الفونتيكية) في القرآن:

قام علماء الضبط والرسم القرآني بوضع مجموعة من العلامات الفونتيكية لضبط قراءة القرآن. وهي قاصرة على القرآن ولا تستخدم في نظام الكتابة العامة لعدم الحاجة إليه.

ومع أن الكتابة العربية قد استقرت من الناحية الوظيفية (لا الجمالية) على الصورة التي انتهت إليها في عهد الخليل، إلا أن كتابة المصاحف ظلت تعمل قرونا طويلة ببعض الرموز التي اختفت من النظام الهجائي والاملائي العام. فما نزال نجد في بعض المصاحف الرموز المكتوبة بالألوان الأحمر والأصفر. وقد بدأت تختفي كتابة الرموز بالألوان بظهور المطابع الحديثة حيث استبدلت الرموز الملونة برموز كتبت بلون المداد الذي كتب به المصحف (الأسود). وتم ذلك في أوائل هذا القرن العشرين.

كيف كتبت اللغات الأفريقية بالحرف العربي

الاحصائية التي قام بها كاتب هذه السطور حول عدد اللغات التي تمت كتابتها بالحرف العربي في أفريقيا وآسيا تشير إلى أن هنالك أكثر من ستين لغة ومن لغات الأمم والمجموعات الاسلامية كانت تكتب بالحرف العربي من بينها حوالي ثلاثين لغة أفريقية. وعلى الرغم من أن الاستعمار كان من أهم أهدافه محاربة العقيدة الإسلامية ومحاصرتها في أضيق نطاق، ومحاربة اللغة العربية ـ لغة القرآن ـ إلا أن هذه الحرب امتدت أيضا إلى الحرف العربي الذي كتبت به تلك اللغات. وقد يعجب المرء ويتساءل عن السبب الذي من أجله حارب الاستعمار الحرف العربي.. ولكن العجب يزول إذا علمنا أن الحرف العربي الذي تكتب به لغة قوم من شأنه أن يكون حلقة الوصل بينهم وبين القرآن المكتوب بالحرف ذاته، وهو مدخل سهل لتعلم القرآن. فالذي يتعلم كيف يكتب لغة بالحرف العربي يستطيع قراءة القرآن بأقل جهد فإذا كتبت اللغة بحرف غير عربي انقطعت الصلة بين متكلميها وبين قراءة القرآن، ما لم يبذل جهد مضن لمعرفة الحرف العربي ومن ثم تكون قراءة القرآن ممكنة.

ثم أن للحرف الذي تكتب به اللغة ـ أي لغة ـ تأثيراً نفسيا عميقا على أهل اللغة التي تكتب بهذا الحرف من حيث ارتباطهم بتراث هذا الحرف، فهو في كل لغة يمثل جزءا من التراث الشعبي للمتكلمين باللغة، ويمثل جزءا من تاريخهم وحضارتهم وشخصيتهم في الماضي والحاضر، ويمثل بالتالي جزءا من تكوينهم النفسي. لهذا فإن ارتباط الانسان بالحرف الذي تكتب به لغته تمتد جذوره إلى أعماق نفسية بعيدة الغور.

والكتابة أشد محافظة من اللغة، فاللغة بمرور الزمن تتطور وتتغير بعض أصواتها ومعاني مفرداتها وتراكيبها، ولكن الكتابة لا تتطور بنفس السرعة، وفي كثير من الأحيان تجد محاولات تطوير الكتابة مقاومة شديدة من المتكلمين باللغة حتى ولو كان التطوير ضروريا ومنطقيا ومفيدا. وقد تؤدي محاولة تغيير الحرف إلى ثورة، كما أن تغيير نظام الكتابة من حرف إلى حرف آخر لا يكتب له النجاح في أغلب الأحيان ما لم يكن مصحوبا بالعنف والقهر كما حدث في تركيا ولغات المسلمين في روسيا وأوروبا الشرقية.

ويمتد تاريخ الحرف العربي في اللغات الأفريقية إلى تاريخ دخول الاسلام والثقافة العربية والاسلامية في هذه القارة. فاللغة السواحلية كتبت بالحرف العربي منذ عهود سحيقة لم يعرف حتى الآن متى كانت بدايتها على وجه التحديد، ولكن الوثائق (المخطوطات الدينية والاشعار) تشير إلى أن بعضها كتب منذ القرون الأولى للاسلام بالحرف العربي، ودور الوثائق والمخطوطات في أفريقيا وعواصم البلدان الأوروبية تكتظ بالمخطوطات الأفريقية المكتوبة بالحرف العربي والتي يرجع تاريخها إلى عدة قرون مضت. ان المخطوطات الأفريقية تعتبر من المجالات البكر التي تستحق الدراسة، وهي تنطوي عن حقائق هامة في تاريخ الحضارة العربية والاسلامية وتاريخ الشعوب الأفريقية.

بسم الله الرحمن الرحيم

□ نموذج من المخطوطات والكتب باللغات الافريقية المكتوبة بالحرف العربي.

اللغات الأفريقية
التي كتبت بالخط العربي

عدد اللغات الأفريقية التي كتبت بالخط العربي عبر القرون وإلى يومنا هذا تناهز الثلاثين لغة، على رأسها كبريات اللغات التي تتكلمها عشرات الملايين اليوم في أفريقيا من هذه اللغات ما يلي:

لغة الهوسا التي **تتحدث في** نيجريا والنيجر والكمرون والسودان وغانا وبلاد أخرى في غرب أفريقيا.

لغة الفلاني بلهجاتها المختلفة وهي فلاني وفلفلدي وباغرمي وبورورو، وفونا جولان (وتسمى فوتا فولا) ويولار، وماتشينا. **وهي تتحدث في** المنطقة التي تمتد من السودان وحتى السنغال.

لغة السواحيلي التي **تتحدث في** تانزانيا وكينيا ويوغندا والكنغو.

لغة مانديكان وهي تلي الهوسا والسواحيلي والفلاني في الانتشار، ولهجاتها بامبارا (وتسمى بامانا) وديانغرتي، وكالونغو وكوغورو (كاكوورو)، وماساسي، ونلياماسا، وسامونو، وتورو، وخاسونكي، وهي **تتحدث** في سيراليون وغانا وليبيريا، وفولتا العليا وغينيا.

ولغة سوننكي وتسمى أيضا دياكانكي وماركا، وسراكوني، وسراولي، وتوباكاي، وواكوري، وغادياغا. ولهجاتها أزير، وبوزو **وتتحدث في**: مالي والسنغال وموريتانيا وغامبيا.

ولغة ولوف وهي تتحدث في السنغال وغامبيا.

ولغة تمنى وهي تتحدث في سيراليون.

واللغة الصومالية[9] **وهي تتحدث في** الصومال وجزء من كينيا وجزء من الحبشة. والصومال هي القطر المسلم الوحيد في أفريقيا شرقها وغربها الذي **يتحدث** أهله جميعهم لغة واحدة.

ومن لغات السودان (كتبت بالحرف العربي في الخمسينات من هذا القرن) **الدينكا والزاندي والباري والمورو واللاتوكا والشلك والنوير والمورلي والأنواك**. وسبق أن كتبت اللغة النوبية في شمال السودان[10] كما كتب إحدى لغات جبال النوبة بالحرف العربي حديثا وكتب الحرف العربي اللغات غير العربية التي تتحدث في الجزائر وهي:

(لغة كابيلي) وكذلك **لغة شلهي التي تتحدث** في جبال الأطلس، جنوب مراكش.

اللغات الأفريقية
بين الحرف العربي والحرف اللاتيني

على الرغم من أن الاستعمار شرع منذ أن وطئت أقدامه أرض افريقيا يوجه حربا ضد الاسلام عقيدة، ولغة وحرفا، وأحل الحرف اللاتيني محل الحرف العربي لكتابة هذه اللغات، فقد قاوم الحرف العربي وصمد ضد هذه الحرب طوال القرون الأربعة الماضية. وما زالت هذه اللغات ـ فيما عدا القليل منها ـ تكتب بالحرف العربي. بها تكتب العقود والمواثيق بين الناس، وبها تكتب العلوم الاسلامية ويشرح التفسير والحديث، وبها يكتب الشعر. بل أن الطفل الأفريقي المسلم يفتح عينيه على الحرف العربي منذ نعومة أظفاره قبل أن يفتحها على الحرف اللاتيني، وإذا فاته ذلك فقد يدركها في حلقات محو الأمية. لقد أجرى بعض العلماء الأوروبيين[11] تجربة بين الناطقين بلغتي ماندينغ (بمبارا) وتمن (Temne) بين الأميين الذين لم يتعلموا كتابة لغتهم بالحروف العربية ولكن تعلموا القرآن، والتجربة التي أجراها أوضحت أنهم استطاعوا أن يقرأوا ويكتبوا نصوصا بلغتهم بالحروف العربية دون صعوبة، ونصح بنشر كتابة الحرف العربي بهذه اللغات لأن ذلك من شأنه أن يزيد عدد القارئين في وقت وجيز. وأشار إلى أن ذلك مصدر هام لتعليم الكبار لم يتنبه إليه المخططون للتعليم في البلاد، وأن الذين تنبهوا إليه أهملوه. ودعا الباحث إلى ضرورة القيام بأبحاث في هذا الشأن للاستفادة من هذه الثروة في برامج التعليم والتنمية.

وفي غامبيا (غرب افريقيا) كانت هنالك نشرة إخبارية تصدرها الحكومة بلغة ماندينكا بالحرف العربي، وصادفت نجاحا عظيما على المستوى الشعبي، واستخدمتها حكومة غامبيا على نطاق واسع عندما اعتزمت إصدار عملة جديدة. كما صدرت بها الارشادات الصحية التي تصدرها

وزارة الصحة، والارشادات التي تعدها وزارة الزراعة للفلاحين[١٢]. ومن المألوف أن تجد أسماء المستشفيات وبعض المحلات العامة مكتوبة بلغات تلك البلاد بالحرف العربي.

ومنذ وقت طويل اتضح للارساليات التبشيرية المسيحية فعالية الحرف العربي عندما تترجم الأناجيل إلى هذه اللغات. وقد جمع الأستاذ إي. نورث نماذج من الانجيل المكتوب بهذه اللغات بالحرف العربي. وقد وجدت أن عدد اللغات ـ لغات الأمم الاسلامية ـ في أفريقيا وآسيا التي أورد هذا الكاتب لها نماذج من الانجيل بالحرف العربي تبلغ ٤٦ لغة وذلك في كتابه (كتاب الألف لسان) (A Book of Thousand Tongues) الذي نشرته جمعية الكتاب المقدس بالولايات المتحدة عام ١٩٣٣.

وبالمثل نجد الجماعة الأحمدية (القاديانية) تستغل الحرف العربي الذي كتبت به اللغات الأفريقية في أعمالها التبشيرية في أفريقيا. وقد شاهدنا في غامبيا عينات من رسائلهم ونشراتهم بلغة ماندينكا بالحروف العربية.

إن أفريقيا بعد الاستقلال، وبعد أن أفاقت إلى حد ما من الصدمة الحضارية الاستعمارية. بدأت تبحث عن شخصيتها الأصيلة بين ركام الماضي الذي خلفه الاستعمار. وقد وجدت من بين تراثها المشرق الحرف العربي، وبدأ تفكير جاد بين العلماء الأفارقة لتطوير الحرف العربي الذي تكتب به هذه اللغات من الناحيتين الوظيفية والجمالية. ويدعو الأستاذ كريم توري (Karim Turay) في بحث له قدمه إلى المعهد الدولي الأفريقي بلندن إلى ضرورة القيام بأبحاث لتقنين الكتابة بالحروف العربية التي كتبت بها لغات الهوسا وماندينكا وتمني، والاستفادة من مدارس القرآن بأفريقيا كمراكز لمحو الأمية حيث أثبتت التجربة نجاح هذه الفكرة.

إن الحرف العربي لم ينهزم أمام الحرف اللاتيني بل قاومه ثم عايشه عبر القرون الأخيرة. وظل يؤدي رسالته على المستوى الشعبي، ملبيا الحاجات الثقافية الأصيلة لهذه المجتمعات وحاجاتهم اليومية، وتطلعاتهم الدينية والأدبية والثقافية. أما الحرف اللاتيني فقد دخل تحت ظل السيف مع الاستعمار وانتشر تحت رقابته وعاش تحت رعايته محميا بكل الأسلحة وبكل المغريات. وعلى العكس من ذلك نجد الحماية التي وجدها الحرف العربي داخلية ذاتية وليست خارجية، لأنه صار جزءا من التكوين الحضاري للشخصية الأفريقية الأصيلة.

الأطوار التي مر بها الحرف العربي في أفريقيا

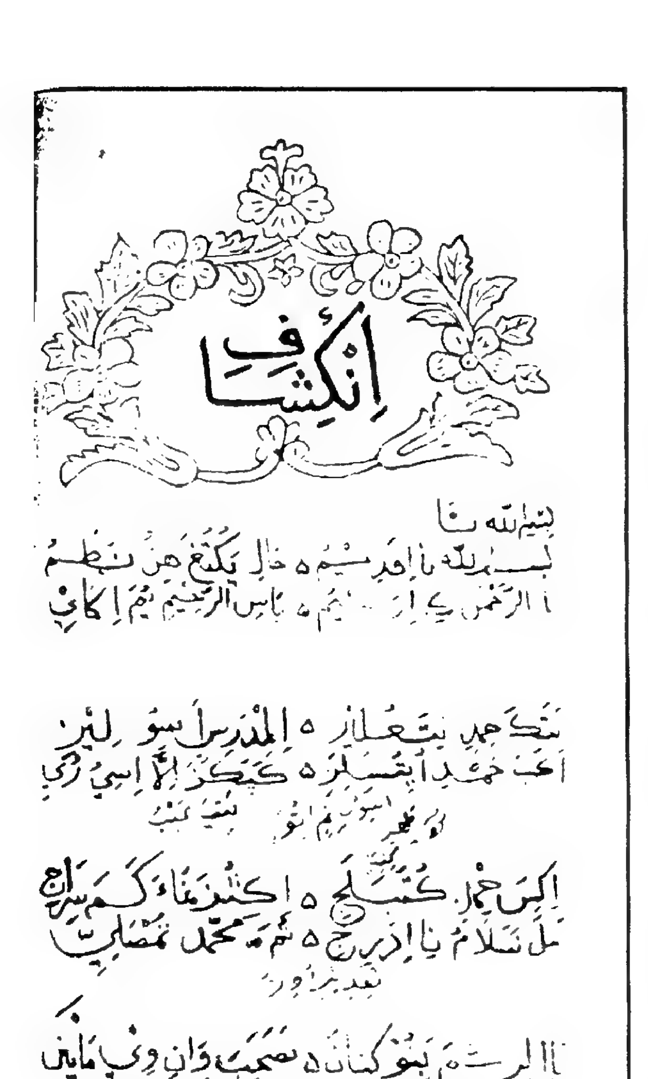
تقدم أن فكرة التمييز بين الحروف عن طريق النقط قد أكسب الحرف العربي مرونة جعلته قادرا على التعبير عن أصوات الكثير من اللغات غير العربية. وقد استفادت كثير من اللغات الآسيوية من هذه المرونة فأكملت هجاء أصواتها الصحاح حتى صار لكل صوت رمزه الخاص به (One — to — one correspondance) وذلك كاللغة الفارسية والأردية والسندية. ويبدو أن هذه اللغات قد مرت بالمراحل التي مرت بها الكتابة العربية، فبدأت أول الأمر تكتب لغاتها بالحروف العربية دون تعديل، ولما كانت هذه اللغات تشتمل على أصوات ليست لها مقابلات في الحروف العربية اضطرت إلى أن تحمِّل الحرف العربي عبء التعبير عن عدد من أصواتها الخاصة بها (Underdifferentiation) فصار الحرف العربي الواحد يعبِّر عن عدة أصوات، تماما كما كان الحال في الكتابة العربية قبل حركة الاصلاح التي بدأها أبو الأسود الدؤلي. ثم أحس أهل هذه اللغات بقصور الحروف العربية عن تمثيل أصوات هذه اللغات، فلجأوا إلى ما لجأ إليه أبو الأسود ومن جاء بعده بإضافة النقط إلى الحروف لكي تعبر عن أصواتها الخاصة بها مثال ذلك اللغة السواحيلية التي كانت وما تزال تكتب بالحرف العربي منذ أقدم العصور. فقد مرت كتابة هذه اللغة بالحرف العربي بالأطوار الثلاثة[١٣] التالية:

□ **في الطور الأول**: استخدمت اللغة السواحيلية في كتابتها الحروف العربية كما هي دون تعديل لكي تعبر بها عن جميع أصواتها الخاصة بها حتى تلك التي لا توجد في اللغة العربية وبذلك صار الحرف الواحد يعبِّر به عن أكثر من صوت واحد، كما كان الحال في الكتابة العربية في أول أمرها. مثال ذلك حرف الباء (ب)

كان يعبر به عن أربعة أصوات: (١) الصوت الشفوي المجهور الشديد b كما هو الحال في اللغة العربية، (٢) الباء المهموسة p، (٣) الباء الأنفية المجهورة mb، (٤) الباء الأنفية المهموسة mp. ولكل هذه الباءات أصوات لها وظيفة فونيمية في هذه اللغة. وكذا الأمر بالنسبة لكثير من الأصوات الأخرى. فقد استخدم حرف الغين (غ) ليعبِّر به عن الغين العربية في الكلمات العربية الأصل وعن الأصوات السواحيلية الأصل أيضا وهي: gɡ،ɡg وفي نفس الوقت كانت هنالك أصوات يعبر عنها بأكثر من حرف واحد مثل الـ g يكتب حينا (غ) وحينا آخر (ج) وهذا ما يسمى (Overdifferentiation) واستمر الحال على هذا المنوال حتى نهاية القرن التاسع عشر.

□ **الطور الثاني**: الفترة ما بين عام ١٩٠٠ و ١٩٣٥. جرت محاولة لاصلاحات جزئية على نظام الكتابة حيث أدخلت حروفا جديدة في هجاء اللغة السواحيلية مثل حرف الجيم المنقوطة ثلاثا ڃ ليعبر به عن الشين المهموسة كما في الكلمة الانجليزية (Church) كنيسة والكلمة الفارسية چهار بمعنى أربعة، ومن المحتمل أن يكون هذا الحرف مستعارا من الفارسية، غير أن عملية الاصلاح هذه كانت محدودة ولم تشمل جميع الحروف. ومع ذلك فقد وجدت معارضة من الكثيرين في تانزانيا.

□ **الطور الثالث**: كانت هنالك محاولة لتقنين كتابة اللغة السواحيلية، وكان ذلك بعد عام ١٩٣٥ حيث أدخل أحد القضاة واسمه الشيخ محمد الأمين بعض الحروف المستخدمة في كتابة اللغة الفارسية والأردية إلى الحروف السواحيلية فأدخل الفاء المنقوطة ثلاثا ڤ والغين المنقوطة ثلاثا كما أدخل الحروف المركبة للتعبير عن الأصوات المركبة مثل (مب) = mb و (ند) = nd و (ني) = ny وهكذا.. غيرأنه ما تزال هنالك عديد من المشكلات التي تركت وهي تنتظر الحل، بالنسبة لبعض الأصوات الصحاح وبالنسبة للحركات التي لا يوجد لها نظير في اللغة العربية خاصة وأن نظام هذه اللغة يسمح بتوالي أربع حركات دون أن يكون بينها صوت صحيح.



□ **نموذج من المخطوطات والكتب باللغات الافريقية المكتوبة بالحرف العربي.**

اللغات الأفريقية الأخرى

الظروف التي مرت وتمر بكتابة اللغة السواحيلية تنطبق تماما على كثير من اللغات الأفريقية الأخرى **فهي جميعا في طور محاولة التقنين**، ويسري إحساس عام بين العلماء الأفارقة من رجال الدين والمثقفين بأن الوقت قد حان لادخال تعديلات جذرية على كتابة اللغات الأفريقية بطريقة علمية وذلك بإضافة رموز عربية جديدة تعبر عن الأصوات الصحاح والحركات

التي لا توجد في العربية. غير أن هذه المحاولات يعوزها المدخل العلمي من ناحية وتحتاج إلى إجراءات لتوحيد الرموز التي تكتب به هذه اللغات حتى يكون النظام الكتابي عالميا. وفيما يلي موجز للمشكلات التي تواجه الحرف العربي في أفريقيا.

المشكلات التي تواجه الحرف العربي في أفريقيا

قبل أن نتحدث عن المشكلات التي يواجهها الحرف العربي في أفريقيا يجدر بنا أن نحدد الهدف من كتابة هذه اللغات بالحرف العربي، ثم نحدد النظام الهجائي الأمثل الذي نرمي إليه ثم نعود إلى الوضع الراهن لنحدد المشكلات التي يواجهها الحرف العربي ووسائل علاجها.

الهدف من كتابة اللغات الأفريقية بالحرف العربي

نستطيع أن نجمل الهدف من كتابة اللغات الأفريقية بالحرف العربي في الآتي:

١ ــ المحافظة على التراث الأفريقي الحضاري واستمراره.

٢ ــ التعبير عن أغراض الحياة المعاصرة: التعليمية والدينية والثقافية وأغراض الحياة اليومية.

٣ ــ الاتصال بمصادر الحضارة العربية الاسلامية.

٤ ــ محو الأمية الحضارية والمساعدة على التنمية المحلية.

٥ ــ أن يكون من الميسور الطباعة به على الآلات الكاتبة والمطابع.

لكي يتحقق هذا الهدف يجب أن يكون النظام الهجائي للغة دقيقا واضحا يزيل اللبس ويعبر عن النظام الصوتي للغة بدقة.

النظام الهجائي الأمثل

قدمنا في الصفحات السابقة أن المعيار العلمي للنظام الهجائي الأمثل هو: (١) أن يكون لكل صوت من أصوات اللغة (الفونيمات) حرف خاص به يعبر عنه (One — to — one correspondance) بمعنى أن الحرف يجب أن يعبر عن صوت واحد فقط، (٢) الا يكون هنالك صوت يعبر عنه بأكثر من حرف بمعنى الا يعبر عن الصوت نفسه مرة بحرف معين ومرة أخرى بحرف آخر. فنحن نريد إذا أن يكون لكل صوت من أصوات كل اللغات الأفريقية حرف خاص للتعبير عنه، سواء أكان هذا الصوت صحيحاً (Consenant) أو حركة (Vowel) أو نغماً (Lone). وقد قدمنا أن المرونة الكامنة في الحرف العربي تجعله قادراً على تمثيل العشرات من الأصوات اللغوية.

ومن ناحية أخرى يجب أن نضع في الاعتبار علاقة هذه اللغات باللغة العربية وحروفها.

اَلْمُطَالَعَةُ الأُوْلِيَّةِ بِلُغَةِ الزَّانْدِى

-١-

بَمبَتْ كِتَابُ

چَدَيِيْ

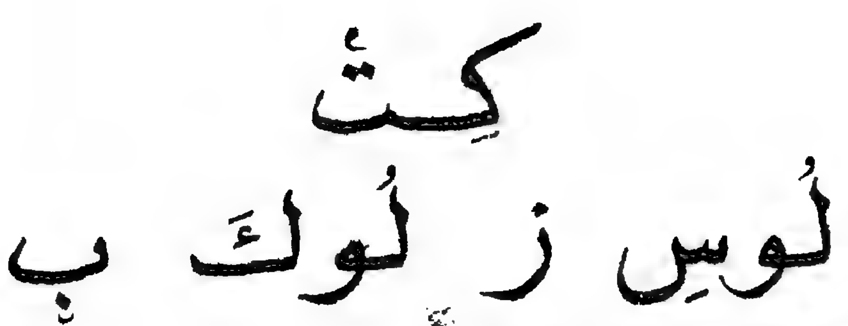


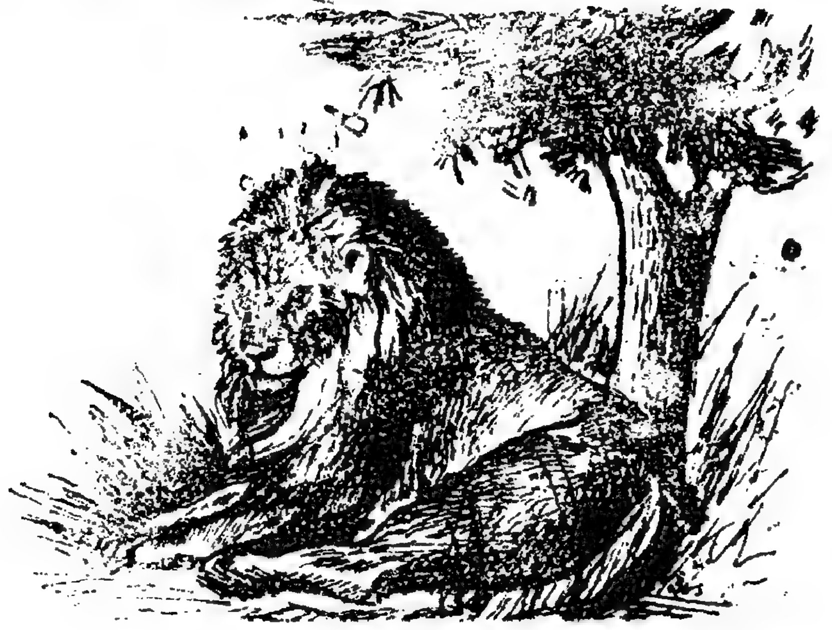
مكتب النشر بالخرطوم

١٩٦٠

□ نموذج من المخطوطات والكتب باللغات الإفريقية المكتوبة بالحرف العربي.

المُطالعَةُ الأَوَّلِيَّةُ بِلُغَةِ الفُورُو
— ١ —





طبع مكتب النشر بجوبا
١٩٦٠

□ نموذج من المخطوطات والكتب باللغات الافريقية المكتوبة بالحرف العربي.

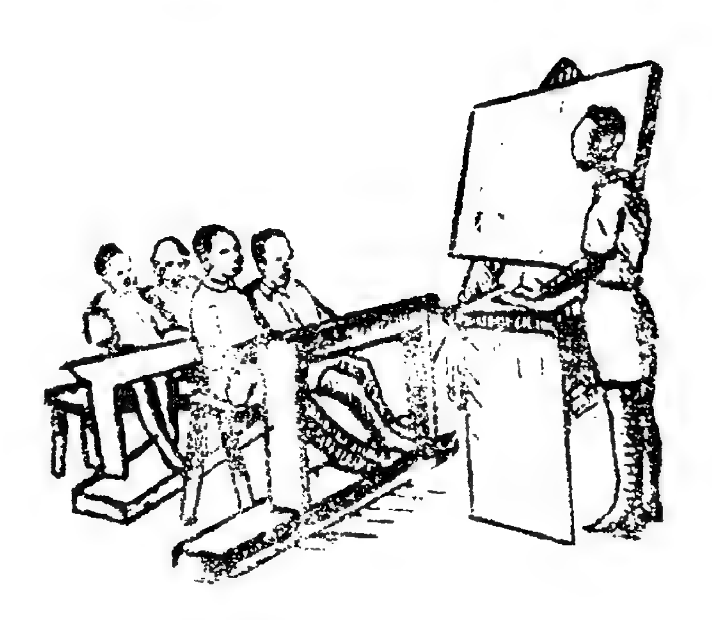
المطالعة الأولية بلغة اللاتوكا

- ١ -

آكِتابْ إهِبْ

إبَّرِ

ب إكْيَنَ أ بثُهْ



طبع مكتب النشر بجوبا

١٩٦٠

□ نموذج من المخطوطات والكتب باللغات الافريقية المكتوبة بالحرف العربي.

وبتعبير أدق العلاقة بين أصوات هذه اللغات وأصوات اللغة العربية حتى نتفادى اللبس الذي قد يحدث عند اختيار الرمز أو الحرف العربي الذي يعبر عن أصوات هذه اللغات ويعبر في نفس الوقت عن أصوات اللغة العربية. ولتوضيح ذلك نستطيع أن نقسم أصوات هذه اللغات وأصوات اللغة العربية إلى المجموعات التالية:

□ **المجموعة الأولى**: مجموعة من الأصوات تشترك فيها هذه اللغات الأفريقية مع اللغة العربية. وفي هذه الحال تستخدم هذه اللغات الحروف العربية ذاتها مثل صوت الباء b، والتاء t والكاف k على أن يعبر الحرف عن صوت واحد هو الصوت المشترك بين اللغتين العربية واللغة الأخرى.

□ **المجموعة الثانية**: هي مجموعة الأصوات التي تختص بها اللغة العربية ولا توجد في اللغة المعنية. وفي هذه الحال يجب الاحتفاظ بحروف هذه الأصوات لتعبر عن أصوات اللغة العربية، وذلك حتى لا يختلط الأمر على أبناء هذه اللغة عند تعلمهم اللغة العربية. مثال ذلك أن بعض اللغات الأفريقية لا يوجد فيها صوت الثاء (ث) وقد استفادت من هذا الحرف العربي لتعبر به عن صوت من أصواتها الخاصة بها ولا يوجد في اللغة العربية وهذا سليم من الناحية الهجائية المحضة غير أن الغرض من إصلاح الكتابة ليس أكاديميا وحسب وإنما له ارتباطات حضارية مع اللغة العربية. فأبناء هذه اللغة الذين يتعلمون هجاء لغتهم ويتدربون على ربط رمز التاء بصوت خاص بلغتهم سيواجهون مشكلة عند تعلمهم اللغة العربية حيث يجدون أن هذا الرمز (ث) يعبر عن صوت آخر في اللغة العربية. لذا فلا بد عند التفكير في ابتكار نظام هجائي لهذه اللغات أن يحتفظ للغة العربية بجميع أصواتها الخاصة بها ولا تستخدم هذه الأصوات للتعبير عن أصوات أخرى غير عربية.

□ **المجموعة الثالثة**: هي مجموعة الأصوات الخاصة باللغات الأفريقية ولا توجد في اللغة العربية وبالتالي لا توجد لها رموز بين الحروف الهجائية العربية الثمانية والعشرين. وهذه هي الأصوات التي تحتاج إلى أن يختار لها رموز تعبر عنها.

فما هي هذه الأصوات الأفريقية التي لا يوجد لها نظائر في اللغة العربية وتحتاج إلى ابتكار رموز خاصة؟

إذا ألقينا نظرة على اللغات الأفريقية فإننا نستطيع أن نلحظ أن الأصوات التي تشتمل عليها هذه اللغات ولا توجد في اللغة العربية تنحصر في الأنواع التالية:

□ **النوع الأول**: أصوات صحاح بسيطة (أي مخرجها واحد) مثل الباء المهموسة p والفاء المجهورة v والكاف المجهورة g.

□ **النوع الثاني**: أصوات صحاح مركبة (تصدر من مخرجين مختلفين) (Double articulation) مثل الباء الأنفية mb والنون الأنفية nd والكاف الشفوية kw.

□ **النوع الثالث**: الحركات البسيطة والمركبة.

بالنسبة للأصوات الصحاح ذوات المخرج الواحد والتي لا توجد في العربية فإننا لا نجد في أي لغة أكثر من بضعة أصوات. بل إذا أحصيناها في جميع اللغات الأفريقية فإن عددها ليس كبيرا بالدرجة التي يمكن أن يتصورها الانسان، وإذا أحصينا الشائع منها فسوف لا تتعدى عشرة أنواع. وأن عددا من هذه الأصوات سبق أن وجد له بالفعل حرف في لغات الأمم الاسلامية في آسيا التي كتبت بالحرف العربي. من هذه الأصوات:

الباء المهموسة پ p
الفاء المجهورة ڤ v
الكاف المهموسة گـ g
الدال الشفطة دط أو ڊ ɖ
التاء الشفطية تط ƭ
النون الحنكية الأمامية ني ɲ, ñ
النون الطبقية ڠ
الراء الشفطية ڕ
الجيم المهموسة چ
الشين المجهورة

اما النوع الرابع وهو الأصوات المركبة فهو شائع في اللغات الأفريقية ولا يوجد في اللغة العربية لأن أصوات اللغة العربية كلها بسيطة ويمكن أن نحصر معظم هذه الأصوات في الآتي:

١ ـ الأصوات الهوائية aspirated، مثل bh
٢ ـ الأصوات المهموزة glatlalized، مثل d̂ k̂

٣ ــ الأصوات الأنفية prenasalized، مثل mb

٤ ــ الأصوات الجانبية Laterally released، مثل tl

٥ ــ الأصوات الشفوية lab — ialized، مثل kw kp

٦ ــ الأصوات الحنكية palatalized، مثل ty ،ky

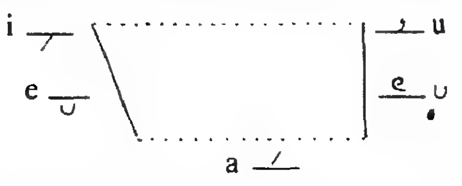
لأسباب عملية يمكن الرمز لمثل هذه الأصوات برمز الصوتين اللذين يتركب منهما فتكتبها مب ند كو... الخ. كأ دأ على نحو ما تم في الكتابات بالحروف اللاتينية. وقد استخدمنا ذلك في كتابة لغات جنوب السودان بالحروف العربية.

اما الحركات فالمعروف أن العربية لها ثلاث حركات هي الفتحة والكسرة والضمة. إلا أن معظم اللغات بما في ذلك اللغات الأفريقية يشتمل نظامها على خمس حركات هي الحركات العربية الثلاث مضافا إليها الكسرة الممالة والضمة الممالة، وبعض اللغات تزيد حركاتها على خمسة حركات. وهي مشكلة ليست مستعصية الحل على كل حال.

فقد جرت عدة محاولات لاضافة رموز لحركات جديدة تنسجم مع حركات اللغة العربية. لكتابة اللغات الأفريقية بعضها قديم ومتبع في كتابة لغة الهوسا (الفلاني) والآخر حديث كتبت به لغات جنوب السودان والمحاولات الأخيرة تشمل عددا كبيرا من الحركات الموجودة في اللغات الأفريقية.

منها محاولة د. عساكر وهي الرمز للكسرة الممالة هكذا ٮ والرمز للضمة الممالة ـــه هكذا ٮ.

وعليه يكون جدول الحركات القصيرة كالآتي:



الأولى: أن تكتب الحركة على الف مثلا كلمة (aliouona) بمعنى (الذي رآه)، يمكن ان تكتب هكذا: آلأ أ أنَ.

الثانية: إن تكتب الحركات على همزة ونبرة هكذا أَلِـئُـئُـئَ.

إلى جانب ذلك هنالك مشكلة اختلاف الرمز للصوت الواحد من لغة افريقية إلى لغة أخرى. فتجد لغة تستخدم الرمز غ وأخرى تستخدم الرمز غٌ وكلاهما يعبر عن صوت واحد. وأمثلة ذلك كثيرة في اللغات الأفريقية واللغات الآسيوية ايضا. فاللغة الأردية مثلا تعبر عن الدال الشفطية بالرمز دط بينما تعبر اللغة السندية عن نفس الصوت بالرمز ڊ وهكذا.

مقترحـات

إن تطوير كتابة اللغات الأفريقية بالحرف العربي يحتاج إلى الآتي:

أولا: إجراء دراسة وافية ومقارنة للرموز العربية التي تكتب بها لغات الأمم الاسلامية.

ثانيا: نشر تلك الدراسات على مجموعة من العلماء المختصين في اللغات الأفريقية لدراستها من جانبهم تمهيدا لاجتماع للخبراء في هذا المجال.

ثالثا: عقد اجتماع للخبراء الأفارقة بحيث يمثل كل لغة خبير أو أكثر للتفاكر حول أفضل السبل لتطوير رموز كتابة اللغات الأفريقية بالحرف العربي وتوحيد الرموز التي تكتب بها تلك اللغات.

رابعا: اتخاذ التدابير اللازمة لصنع مفاتيح للآلة الكاتبة للحروف الخاصة بهذه اللغات حتى تتوفر الآلات الكاتبة لكل لغة من هذه اللغات. وهو أمر ميسور.

خامسا: اتخاذ التدابير اللازمة لعمل حروف طباعة للحروف المقترحة علما بأن معظم هذه الحروف موجود بالفعل في الآلات الكاتبة وأحرف الطباعة باللغتين الأردية والفارسية.

سادسا: نلحظ من المخطوطات المرفقة أن هذه اللغات تكتب بخط بدائي يفتقد الناحية الجمالية. وعليه ينبغي وضع خطة لتحسين خطوط هذه اللغات.

سابعا: بعد الاتفاق على الرموز اللازمة **وتوحيدها** تقوم المنظمة بتدريب قيادات أفريقية تعمل على نشر الكتابة بالرموز العربية الموحدة وتعمل على تحسين الخط من الناحية الجمالية.

بذلك نكون قدمنا إسهاما تاريخيا للحرف العربي من ناحيتيه الوظيفية والجمالية.

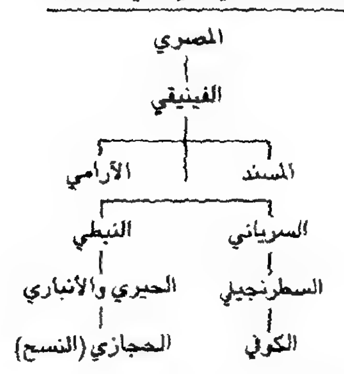
والله الموفق.

الهوامش والمراجع

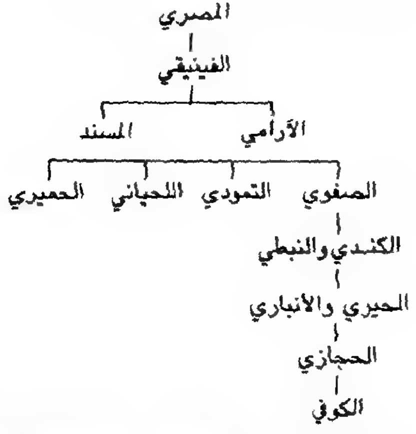
(١) عبدالعزيز الدالي: الخطاطة: الكتابة العربية. مكتبة الخانجي، القاهرة (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م)، ص ٢٥.

(٢) فيما يلي سلسلة الخط العربي عند العرب والفرنجة كما أوردها الشيخ احمد الاسكندري والشيخ مصطفى عناني في «الوسيط في الأدب العربي» ط. دار المعارف، القاهرة (١٩١٦)، ص ٣٥.

سلسلة الخط العربي على راي الفرنجة



سلسلة الخط العربي على راي العرب



(٣) Khalid Semmaan, Linguistics in the Middle Ages, Leiden, pp. 6, 7.

(٤) نفس المصدر، ص ١٤.

(٥) خليل محمود عساكر، **الكتابة العربية بين نموها الراسي ونمو افقي مقترح** (البحث قدم لمؤتمر الكتاب المدرسي الذي عقد بمركز تنسيق التعريب بالرباط، فبراير ١٩٨٠)، ص ٥.

(٦) سورة الجمعة: آية ٢.

(٧) **صبح الأعشى**، ج ٣، ص ١٥١ (نقلاً عن لبيب السعيد): المصحف المرتل، ص ٧٤.

(٨) انظر الخطاطة للدكتور عبدالعزيز الدالي، ص ٤١ و ٥٧.

(٩) انظر عبدالدائم عنبر: **الصومال واللغة العربية** (بحث أعد لمعهد الخرطوم الدولي للغة العربية عام ٧٤/١٩٧٥)، ص ١٣.

(١٠) أورد الأستاذ نورث محرر (كتاب الالف لسان) اللغة النوبية من بين اللغات التي سبق أن كتبت بالحرف العربي وقدم بعض النصوص من الانجيل المكتوب بهذه اللغة بالحرف العربي وقد اورد هذا الكتاب ٤٦ لغة غير العربية مكتوبة بالحرف العربي وقدم نماذج لكل لغة مما ترجمه إليها المبشرون من آيات الانجيل (انظر مراجع أخرى أدناه).

(١١) Karim Turay, *Arabic Sub — Saharan Africa. Hausa, Fulani and Swahili as Major Contact Languages in Africa (A paper* prepared to the International African Institute, London, 1975.

(١٢) نفس المصدر.

(١٣) من محاضرات القاها الأستاذ ياري كيهوري على طلبة الفرقة الاولى بمعهد الخرطوم الدولي للغة العربية في يناير ١٩٨١.

مراجع أخرى

(1) J. Berry, «The Making of Alphabet» in Readings in the Sociology *of Languages* ed. Joshua A. Fisherman, The Hagues, Mouton, 1968.

(2) Le Clezo, Yves, «Writing Shilluk with an Arabic Script» in *Directions in Sudanese Linguistics and Folklore* ed.
Sayyid H. Hureiz and Herman Bell, University of Khartoum Press 1975.

(3) Eric N. North (editor), The Book of a Thousand Tongues, New York and London, 1938.

(4) Salih al — Tuma, «The Arabic Writing Systems and Proposals *for Reform» in the Middle East Journal,* Vol. 15, 1961.

(5) Sebeok, T, A, (ed) Current Trends in Linguistics Vol. 7, (Linguistics in Sub — Saharan Africa), Mouton, 1971.

(6) W.A. Smalley, Writing Systems and their Characteristics» in Orthography Studies ed, W.A. Smalley, London 1964.
—— «The Use of Non — Roman Scripts for New Languages in Smalley; op. cit.

(7) Yousuf el — Khalifa Abu — Baker, The Medium of Instruction and Linguafranca in The Southern Sudan» in Education in Sudan (Proceedings of the Annual Conference of the Philosophical Society of the Sudan) ed. Yousuf Badri, 1968.

(8) United Nations Year Book (1966/67).

(٩) يوسف الخليفة ابو بكر، كتابة اللغات الجنوبية بالحروف العربية، مقال نشر بمجلة الدراسات السودانية، العدد الاول ١٩٦٨، جامعة الخرطوم ١٩٦٨.

التنظيمات الشعبية في بلاد الشام في خمسة قرون

الأحداث ، الزعر

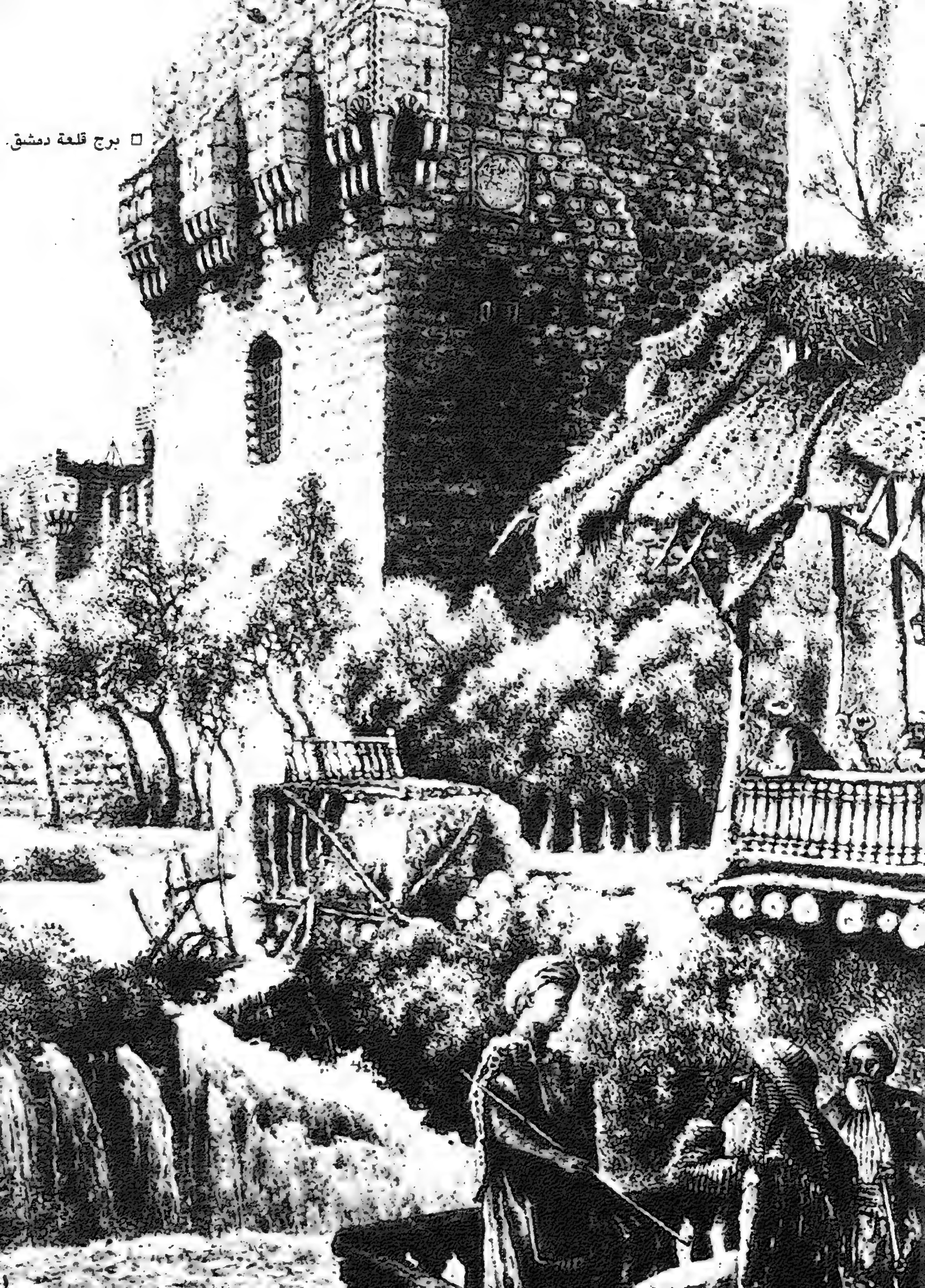
د. سهيل زكار

الفوارق شديدة بين باحث التاريخ في أيامنا هذه، ومؤرخ العصور الماضية، فلقد نظر المؤرخ السابق إلى التاريخ على أنه أخبار الملوك والحكام والقادة، في حين أن الباحث المعاصر، يرى التاريخ تاريخ الشعوب، وأن الجماهير هي البطل الحقيقي للتاريخ، ولهذا انصرفت الدراسات الحديثة نحو الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها من الجوانب التي ارتبطت بحياة الجماهير.

ومثل هذه الأبحاث صعبة جداً، فهي فن من الفنون التاريخية قائم بذاته، ثم إن المواد التي نجدها في مصادرنا جلها سياسي، وفي الماضي كانت النصيحة توجه إلى الباحث في التاريخ العربي بضرورة اللجوء إلى المصادر غير السياسية لجمع المواد الاقتصادية والاجتماعية، والمقصود بذلك كتب الجغرافية والرحلات والقصص والنقود وبعض المقطوعات الأدبية من شعر ونثر، ومع التمسك بهذه النصيحة نزيد واحدة تقضي بضرورة العودة إلى الكتب السياسية، إنما بعد أن نتعلم طرق توجيه الخبر السياسي اقتصادياً واستغلاله اجتماعياً.

إن لهذا قواعد خاصة أردت الاشارة إليها هنا، دونما توسع، ذلك أنني بصدد إخراج كتاب عن مدن الشام في العصر المملوكي ـ اقتصادياً واجتماعياً، يراعى فيه هذا المنهاج، وسأوقف بحثي هنا على بعض التنظيمات الاجتماعية التي شهدتها بلاد الشام في الماضي البعيد والأقرب، واخترت نموذجين يجمع بينهما الطبيعة الشعبية ويفرق الزمن، وهما: الأحداث، والزعر.

□ د. سهيل زكار: استاذ التاريخ الاسلامي في جامعة دمشق ـ كلية الآداب



□ برج قلعة دمشق.



لقد عرف مجتمع مدن بلاد الشام في القرن الخامس هـ / الحادي عشر م وقبله بعض التنظيمات الشعبية البلدية، ويمكن تقسيم هذه التنظيمات من حيث الأطر العامة إلى قسمين رئيسيين: واحد صغير مثّل القشرة العليا من المجتمع من تجار وأثرياء وأشراف، وبعض من شغلوا الوظائف الدينية من قاضٍ ومحتسب، وقسم كبير مثّل الجزء الأكبر من الناس، وعرف باسم الأحداث، ولقد قام التعاون والتآلف أحياناً بين هذين القسمين، ولكن نظراً لطبيعة القسم الأول الخاصة، وبالتالي بسبب مصالحه الذاتية المتميزة، فإن دوره كان في الغالب سلبياً، اتسم بالمداهنة للحكام، والاعتدال في المنهج.

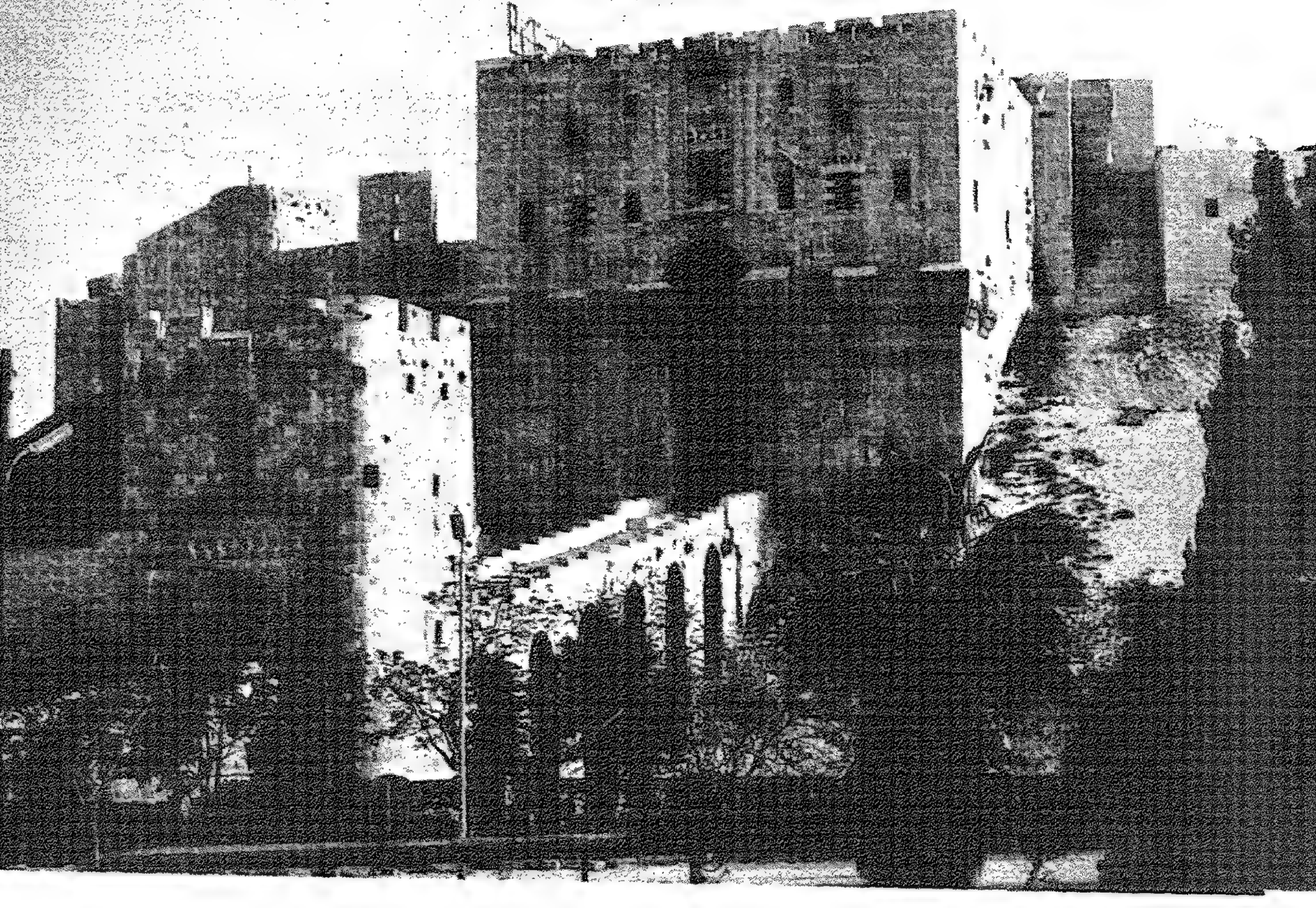
وفي التاريخ الاسلامي لئن كان من السهل تصور قيام اتحاد بين أغنياء وتجار وأشراف مدينة ما، وبالتالي تكوين طبقة خاصة، وتنظيم جامع، فإنه لمن الصعب، إن لم يكن من المستحيل التعرف إلى بداية نشوء منظمة شعبية، ثم كيفية تطور هذا التنظيم وتكامله؛ والسبب الرئيسي لهذا هو أن المؤرخ المسلم كان غالباً من الطبقة العليا، ونادراً ما أولى المحكومين اهتمامه، ولهذا فقد تحدث فقط عن الأمراء والملوك ذوي المؤسسات الظاهرة التي كانت تميز الدول.

وينطبق هذا على أصل منظمة الأحداث في بلاد الشام، حيث أنه من الصعب تحديد تاريخ لقيامها، ثم أسباب هذا القيام، وبعد ذلك المراحل التي اجتازها التنظيم حتى تكامل وأخذ شكله. ويقترح المستشرق الفرنسي كلود كاهن بأن من الممكن أن تكون منظمة أحداث الشام ذات صلة، أو بالحري هي امتداد للمنظمات التي عرفتها الامبراطورية البيزنطية التي كانت تحكم الشام قبل الفتح الاسلامي.

ليس هناك شواهد مادية تؤيد هذا الاقتراح، وعندي أن منظمة الأحداث قد ولدت في بلاد الشام المسلمة، ونمت في إطار هذه البلاد، ونبعت من مشاكلها الخاصة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ولم يكن لمنظمة الأحداث أية علاقة بمنظمات الامبراطورية البيزنطية ــ الزرق والخضر ــ، فلقد نشط الأحداث اكثر ما نشطوا في حلب ودمشق، وكانت هاتان المدينتان، وخاصة حلب مدناً من الدرجة الثانية زمن البيزنطيين، لأن القدس وانطاكية كانتا تحتلان مركز الصدارة، ولقد قلل الفتح الاسلامي من مكانة القدس وانطاكية وزاد من اهمية حلب ودمشق، ثم إنه ليس من الضرورة أبداً أنه عندما تتحكم امبراطورية أجنبية بأمة من الأمم أن تنجح في فرض عاداتها وأحزابها ومنظماتها على الأمة المحكومة. يضاف إلى هذا أن بلاد الشام كانت دائماً المؤثرة في بيزنطة من كافة النواحي، وخاصة النواحي الاجتماعية والدينية منها، ثم إن بلاد الشام كانت مشغولة قبل الفتح العربي بالمشاكل الدينية وذلك كوسيلة للتعبير عن تميزها عن بيزنطة، علماً بأنه لم يرد في أي من المصادر إشارة إلى وجود منظمات محلية سياسية اجتماعية أثناء الفتح الاسلامي وزمن الحكم الأموي.

بعد سقوط الخلافة الأموية كان ظل الحكم العباسي في الشام دائماً ضعيفاً، ولما ازداد ضعف الحكم العباسي تعرض الكثير من مدن الشام لعديد من المخاطر، ومن المحتمل أنه عندما وجد أهالي هذه المدن أن العباسيين ليس بإمكانهم درء هذه المخاطر، قام بعضهم بإنشاء بعض التنظيمات الدفاعية، وإليك مثال موضح لهذا: في سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠١ ــ ٩٠٢م أخفق جيش عباسي عداده عشرة الاف مقاتل في صد حملة قرمطية ضد حلب، وقام القرامطة بحصار المدينة، ولما رأى الحلبيون اخفاق الجيش العباسي، ووقوعهم تحت الحصار، كونوا قوة محلية لم تتول الدفاع عن المدينة فقط، إنما قامت بهجوم مفاجىء على القرامطة نتج عنه هزيمتهم، وفك الحصار عن حلب.

ومعروف أنه بعد قيام الدولة العباسية، اتخذت هذه الدولة العراق مركزاً لها، ثم انشغلت بمشاكل خراسان والمشرق، فاضطرت لهذا إلى الاعتماد على النظام الدفاعي في علاقاتها العسكرية مع الامبراطورية البيزنطية، فأقامت عدداً من الحصون والقلاع التي وضعت فيها الحاميات العسكرية للتصدي لأي هجوم بيزنطي، وبات اسم خط الحدود الأول مع بيزنطة يعرف باسم العواصم، ولقد تطور في هذه العواصم نظام دفاعي خاص، كانت له أسسه العسكرية التي



□ واجهة قلعة حلب.

تعتمد على سكان كل ثغر من الثغور، ولحسن الحظ أنه وصلنا جزء كبير من كتاب اسمه سير الثغور كتبه أبو عمرو عثمان الطرسوسي المتوفى حوالي سنة / ٤٠٠هـ ــ ١٠٠٩م / وذلك ضمن المجلد الأول من كتاب بغية الطلب لابن العديم (الذي قمت بتحقيق الجزء الأكبر منه).

لقد قدم أبو عمرو في كتابه سير الثغور وصفاً رائعاً مفصلاً للحياة العسكرية في الثغور، وكان أروع وصف ذاك الذي تناول به هذه الحياة في مدينة طرسوس، كبرى مدن الثغور، وابعدها شهرة. لقد كان غلمان طرسوس يدفعون قبل بلوغهم الحلم إلى بعض الشيوخ الأساتذة الثقات من أهل المدينة، فيقوم هؤلاء بتصنيف الغلمان إلى فئات ثم يأخذون في تدريبهم على الشؤون العسكرية، ويستمر ذلك حتى يبلغ هؤلاء الغلمان سن الرجولة حيث يلتحق آنذاك كل فتى منهم بسرية من سرايا الجهاد والدفاع عن الثغر.

إنه لمن المتصور والحالة السياسية كما وصفت من حيث الاضطراب، وتجارب العواصم العسكرية كما بينت، أن قام أهالي كل مدينة وبلدة في الشام بتشكيل منظمات عسكرية شعبية لأغراض الدفاع، ثم إن الاضطراب السياسي مع التبدل السريع في الدول الذي شهدته المنطقة لا بد وقد جعل بعض العسكريين الذين فقدوا مناصبهم مع قيام كل دولة جديدة يلتحقون بمثل هذه المنظمات، وهكذا أعاروها خبراتهم وساعدوا على تطويرها وزيادة صبغتها العسكرية إلى أن غدت نوعاً من «الميليشيا الشعبية»، ثم إن ضعف جميع الحكومات التي قامت في الشام منذ ما قبل القرن العاشر م لا بد وأنه جعل الحكام لا يتغاضون فقط عن نشاط هذه «الميليشيا» بل يستخدمونها من أجل مآربهم وأغراض حكمهم الخاصة، وهذا لا بد قد أثر في تطور منظمة الأحداث، وساعد على توطدها، وإن في بعض الأمثلة التي سأقدمها عن نشاط الأحداث ما يكفي للتدليل على صحة جميع ما افترضته.

إن الفترة الممتدة ما بين النصف الثاني للقرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وأواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م، قد شهدت ذروة

نشاط الأحداث، وتجلى هذا بصورة واضحة بشكل رئيسي في مدينتي دمشق وحلب، وخلال هذه الفترة خضعت أجزاء كبيرة من الشام للحكم الفاطمي. ولما كان الفاطميون قد قام مذهبهم على اطاعة الامام بشكل مطلق، فإنهم لم يسمحوا بوجود أي هيئة أو تنظيم إلى جانبهم، ولهذا اصطدموا عندما حاولوا فتح جنوب الشام بالأحداث، ولم يتمكنوا من دمشق إلا بعد القضاء بشكل مبرم على غالبية أفراد منظمة الأحداث، ورغم ذلك فقد بقي للأحداث قوتهم في شمالي بلاد الشام، وخاصة في حلب. وعندما قدم السلاجقة إلى الشام وألحقوه بسلطنتهم التي اتخذت من الأوتوقراطية العسكرية قاعدة لحكمها، قاموا بتصفية الأحداث، لذا عندما جاء الصليبيون إلى الشام وجدوه خالياً من جميع القوى والمنظمات الشعبية المحلية، فاستطاعوا فتح أجزاء كثيرة منه ومن مدنه دون كبير عناء.

بعد أن استولى الفاطميون على مصر، زحف في سنة ٣٥٩هـ / ٩٦٩م جيش فاطمي على رأسه القائد البربري جعفر بن فلاح، نحو بلاد الشام كي يعمل على ضمها إلى الحكم الفاطمي، ولقد لقي هذا الجيش أثناء زحفه في فلسطين مقاومة من بقايا الجيوش الأخشيدية، لكنه تغلب عليها، وتابع سيره نحو دمشق، وقبيل وصوله إليها فر حاكمها الأخشيدي منها، فخلت المدينة «من السلطان، فطمع الطامع، وكثر الزعار وحمال السلاح»، ونظم الدمشقيون أمور الدفاع عن مدينتهم بأن أغلقوا أبوابها، وأوقفوا الرماة على شرفات الأسوار، وأقاموا الحواجز داخل المدينة، وكسروا قني الماء، وحفروا الخنادق، ولقد اشترك الرجال والنساء والصبية في الاعداد للدفاع عن دمشق، وكاد أهالي دمشق أن يتمكنوا من صد قوات الفاطميين عندما هاجمت مدينتهم، لولا أن جماعة من التجار والأشراف قامت فشكلت وفداً قام بالتوسط لدى جعفر بن فلاح، وأخذ يبث التخاذل بين المدافعين مما سبب إيقاف المقاومة، وفتح أبواب دمشق لجيش ابن فلاح.

لقد كان القائم بأمر الدفاع عن دمشق رجلاً من عامة أهلها اسمه أبو اسحق محمد بن عصودا، وبعدما دخل جعفر بن فلاح دمشق هرب محمد بن عصودا إلى الأحساء، فاجتمع بزعيم القرامطة الحسن الأعصم، فحرضه على مساعدة دمشق، فلقي الاستجابة منه، وجاء جيش قرمطي إلى الشام، وتوجه نحو دمشق، فالتقى بجيش ابن فلاح فهزمه، ولقي ابن فلاح مصرعه أثناء المعركة، وهكذا تخلصت دمشق من الحكم الفاطمي، وعين القرامطة على المدينة من يحكمها، وتابعوا سيرهم نحو مصر كي يخلصوها بدورها من الحكم الفاطمي، ولكنهم أخفقوا وهزموا، وجردت الجيوش الفاطمية مجدداً في اثرهم للاحقتهم ولاعادة جنوب الشام إلى حظيرة الخلافة الفاطمية.

وحدث هذا كله سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م، وكان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يحكم في القاهرة، لذا قام بتعيين ظالم بن مرهوب (أو موهوب) العقيلي حاكماً على دمشق، وحاول ظالم العربي الأصل أخذ دمشق بالحديد والنار، فأوقع الحرائق بعدة أماكن من المدينة، لكن ذلك لم يفت من عضد الدمشقيين بزعامة الأحداث، وأخيراً تم الوصول إلى تسوية غادر بموجبها ظالم بن مرهوب المنطقة، وسمح الأحداث لحاكم فاطمي آخر من أصل بربري اسمه جيش بن الصمصامة بدخول مدينتهم، وكان هذا حلاً مؤقتاً وغير ناجع، إذ ما لبثت أن عادت الاضطرابات إلى دمشق، وهنا تدخل المعز لدين الله بالأمر، فأوعز إلى واليه على طرابلس بالقدوم إلى دمشق لحل مشاكلها، فقام هذا بصرف القوات الفاطمية وأجلاها عن دمشق، وهكذا تم الوصول إلى تفاهم مؤقت مع أحداث دمشق، الذين أحكموا قبضتهم على المدينة وأمورها، ولقد كان زعيم الأحداث في هذه الآونة رجلاً عامياً عرف باسم ابن الماورد، وكانت منطقة باب الصغير هي نقطة تمركز الأحداث، أو مكان ثكنتهم.

وحدثت في هذه الآونة مشاكل سياسية كبيرة في بغداد أدت إلى خلع الخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤ ـ ٣٦٣هـ/٩٤٦ ـ ٩٧٤) واستخلاف ولده الطائع، وقد نجم عن هذا فيما نجم قيام بعض العسكريين الأتراك بهجر بغداد، وكان من بين هؤلاء ألبتكين الحاجب، الذي ترك العراق، وجاء نحو دمشق، وعندما وصلها عسكر مع غلمانه خارجها، فخرج إليه شيوخ المدينة



□ طاسة محراب جامع فلوس في دمشق.
(العهد الفاطمي)

واشرافها فرحبوا به، وسألوه «الاقامة عندهم، والنظر في أحوالهم، وكف الأحداث الذين بينهم، ودفع الأذية المتوجهة عليهم منهم» وقبل ألبتكين العرض، ودخل دمشق فرتب أمورها، إنما بالاتفاق مع الأحداث، الذين كانت علاقته بهم جيدة، ولم تتأثر أوضاعهم بدخوله دمشق، ولم يضعف نفوذهم بها، لأنه اهتم بالمشاكل الخارجية، وترك أمور المدينة الداخلية لزعماء الأحداث ومقدميهم، وكان أكبر هؤلاء رجلاً عرف باسم قسام التراب، وقسام هذا كان أصله من «تلفيتا» إحدى قرى دمشق من قوم من العرب كان يقال لهم الحارثيون، وقد نشأ في دمشق، وكان يعمل في التراب ثم انضم إلى الأحداث، فتزايد أمره بينهم حتى غدا أول رجل فيهم.

وهكذا سارت أمور دمشق بشكل جيد، لكن الخلافة الفاطمية ما كانت لتسمح باستمرار الأوضاع هكذا، لما قد يسبب لها من مشاكل، لهذا جرد الخليفة العزيز قواته بامرة جوهر الصقلبي فاتح مصر، وأمره أن يسترد دمشق بأي ثمن، واخفق جوهر، واستطاع ألبتكين صد الفاطميين والحاق الهزيمة بهم في أكثر من معركة، مما اضطر العزيز إلى الخروج بنفسه لحربه، واستطاع العزيز إيقاع الهزيمة بألبتكين واخذه اسيراً، وعاد به إلى مصر في سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م، لكن ما حل بألبتكين لم يؤد إلى سقوط دمشق، بل حافظت المدينة على استقلالها، واستبد قسام وأحداثه بأمورها، فضبطوها ضبطاً جيداً، وكإجراء احتياطي قام قسام

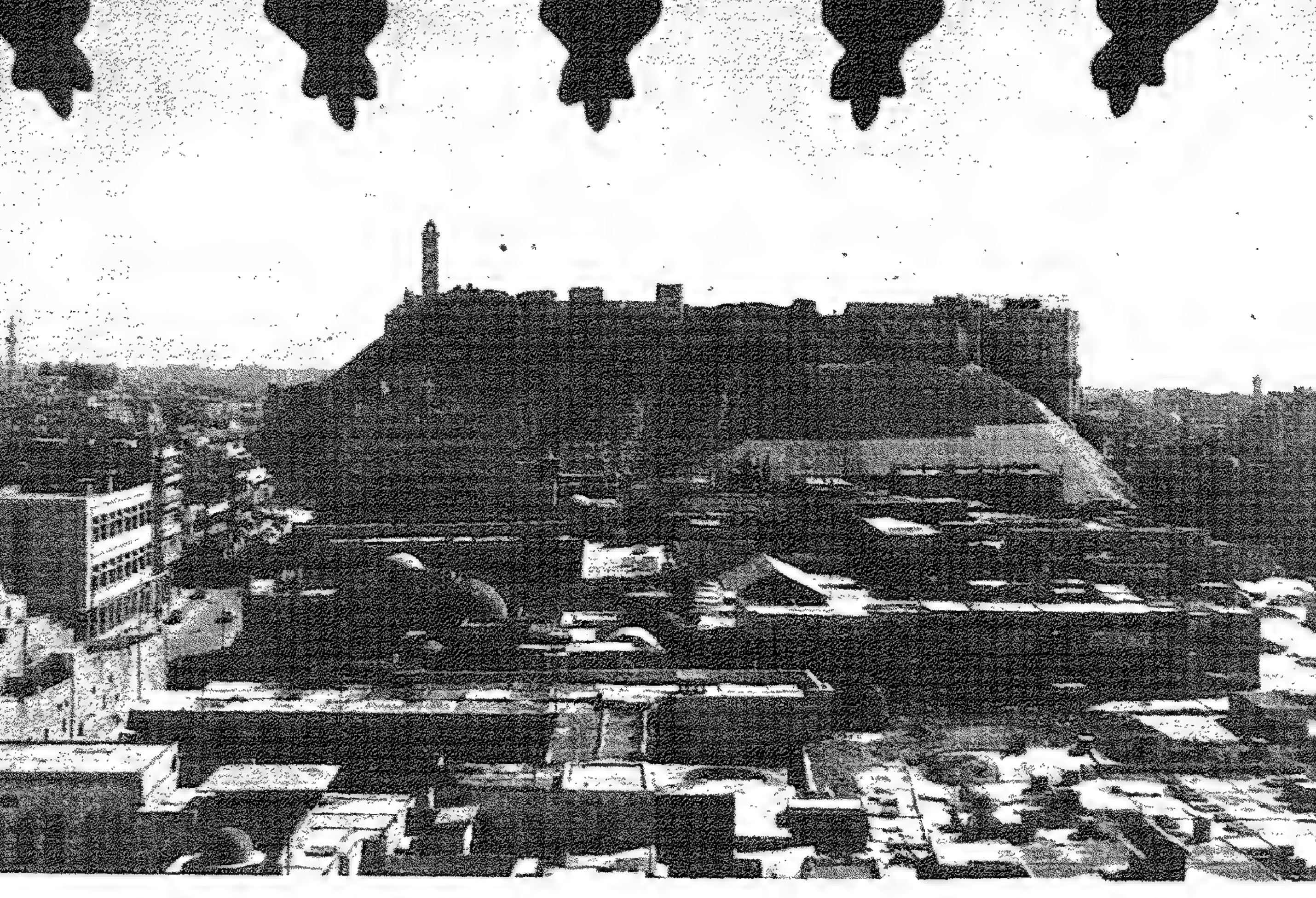
بمراسلة الخليفة العزيز، فاعترف اسمياً بسلطانه، ودافعه عن دمشق، وتظاهر العزيز بالرضا، لكنه قام في السنة التالية ٣٦٩هـ/٩٧٩م بإرسال جيش قوامه أربعة آلاف مقاتل من أجل استعادة دمشق، وقدم هذا الجيش نحو دمشق، لكنه أخفق في دخولها، واضطر إلى الانسحاب راضيا بتعهد من قسام وأحداثه الا يسلموا دمشق لحاكم يدين بالطاعة للعباسيين. ودام الحال على هذه الصورة حتى سنة ٣٧١هـ/٩٨١م حين جهز جيش فاطمي جديد لاعادة السيطرة على دمشق، وذلك بعدما اخفقت محاولات أخرى مختلفة مثل قطع المؤن والتجارة عنها، واثارة الأعراب ضدها، بعدما اخفقت جميعا في اسقاط حكم قسام.

ووصل الجيش الفاطمي إلى أسوار دمشق، وأخذ بحصارها، وطال الحصار واشتدت مقاومة قسام وأحداثه، وفي ذروة الصراع قام أشراف وأثرياء دمشق بالاتصال بقائد القوات الفاطمية، ثم أخذوا بتثبيط الناس عن قسام، وضغطوا عليه كي يوقف المقاومة ويسلم المدينة، وفي لحظة إعياء نفسي وجسدي شديد وخوف قبل قسام بتسليم دمشق للفاطميين على شرط الأمان له ولأصحابه. وهكذا فتحت دمشق أبوابها، ودخلت القوات الفاطمية، وأخذت بمقاليد الأمور بها، ولكن سلطتها لم تتعد الواقع النظري، فقد احتفظ الأحداث بسيطرتهم الفعلية، وبنفوذهم المؤثر، ودام الحال هكذا حتى سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م زمن الخليفة الحاكم بأمرالله، حين ثار أحداث دمشق على واليهم الفاطمي، وطردوه من مدينتهم.

ويبدو أن مدن الشام الأخرى قد وجدت فيها في هذه الفترة تنظيمات مشابهة للأحداث لها قوتها: ففي مدينة صور تزعم الأحداث رجل اسمه العلاقة الملاح، وثار هذا الملاح أيضاً على الفاطميين وطردهم من صور، وأعلن استقلال صور، وضرب نقوده الخاصة به، وهنا كانت ردة فعل الدولة الفاطمية شديدة، حيث جهزت قواتها البرية من أجل القضاء على أحداث جنوب الشام، واستطاع الأسطول الفاطمي أخذ صور، وأوقع الهزيمة بالعلاقة، وأخذه أسيراً، حيث تم حمله إلى القاهرة، وهناك سلخ هذا الثائر حياً وصلب بظاهر القاهرة، ولا نعرف بالدقة موقف أحداث دمشق من ثورة العلاقة، كما انه ليس لدينا ما يشير إلى أن هناك صلات وتعاون وتنسيق بين أحداث مدن بلاد الشام.

ومهما يكن الحال، يبدو أن الضربة القاسية التي حلت بأحداث صور قد أثرت على معنويات أحداث دمشق، لذلك عندما وصل الجيش الفاطمي إلى دمشق لم يقاوموه، بل استقبلوه بالطاعة المشروطة، ورضي الجيش الفاطمي بذلك، أو على الأقل تظاهر بالرضا، ولم يدخل المدينة وعسكر خارجها، وأخذ يحضر لضربة قاصمة ضد دمشق وأحداثها، وأرسلت القاهرة والياً جديداً لتولي شؤون دمشق مع خطة غدر للقضاء على الأحداث، وكان اسم الوالي الجديد بشارة الأخشيدي، الذي وصل دمشق في سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م، لكنه لم يدخلها، بل أقام خارجها في إحدى قراها، وأخذ يقيم علاقة ود وصداقة مع مقدمي الأحداث الذين كانوا اثني عشر رجلاً، على رأسهم زعيم اسمه الدهيقين، وكان بشارة يدعوهم دائماً إلى ولائمه حتى اطمأنوا إليه، ووثقوا به، وفي شتاء هذا العام دعا بشارة مقدمي الأحداث مع حوالي مائتي رجل منهم إلى وليمة، وكان بنفس الوقت قد أعد قواته مع أوامر بالاستعداد للهجوم المباغت على دمشق، وعين لكل قائد من قادة جيشه حياً من أحياء المدينة كي يبطش به وبأهله، وعندما فرغ الأحداث من تناول الطعام ودخلوا الحمام من أجل غسل أيديهم، أغلقت عليهم الأبواب، وفتك بهم جميعا بطريقة ليس من الصعب تصورها، حيث تكرر وقوع ما يشابهها مراراً في تاريخ الاسلام، سواء حين ذُبح الأمويون من قبل العباسيين، أو أخيرا حين فتك محمد علي بالمماليك في قلعة القاهرة.

لقد كانت ضربة مروعة قضت على أحداث دمشق، وأخمدت جذوتهم، فلم نعد نسمع بوجودهم المؤثر فيها، ورزحت دمشق تحت الحكم الفاطمي حتى فتحها أتسز بن أوق الزعيم التركماني. وكانت الحامية الفاطمية في دمشق مؤلفة من جند من أصل بربري، وإن وجود حكم مكروه مع حامية شبه أجنبية، ثم خلو المدينة من التنظيمات المحلية كان من أسباب تعثر دمشق،



□ قلعة حلب.

وأخذها دوراً سلبياً في بداية تاريخ الحروب الصليبية.

وبعد هذا العرض الذي نالت فيه دمشق الحظ الأوفى، نجد لزاماً علينا التوجه نحو الشمال، ففي حلب قام الأحداث بأدوار فاعلة لا تقل عما حدث في دمشق، فالأحداث شغلوا الدور الحاسم في تصفية بقايا الدولة الحمدانية، واستيلاء صالح بن مرداس على مدينة حلب وتأسيسه لحكم الدولة المرداسية. ولدى استعراض تاريخ الدولة المرداسية يلاحظ كثرة الصراعات بين أمراء الأسرة المرداسية، وانه اثناء هذه الصراعات انتصر الطرف الذي وقف إلى جانبه الأحداث، وعندما اجتاح الغُز بلاد الشام في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وقف الأحداث في وجههم وعادوهم، وتمكنوا في أكثر من مناسبة من طردهم من مدينة حلب، والأحداث هم الذين ساندوا مسلم بن قريش العقيلي في حروبه لتحرير الشام من التركمان. ففي معركة عفرين الحاسمة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، التقى جيش مسلم بن قريش العقيلي، وقوامه ستة آلاف مقاتل بجيش تركماني قاده سليمان بن قطلمش، وفي أثناء المعركة تخلى الأعراب من أتباع مسلم عنه، وتركوه يعاني مصيره، ولم يصمد مع مسلم سوى أحداث حلب، وكانوا ستمائة، وحاول مسلم الانسحاب إلى حلب، وجهد الأحداث في تغطية انسحابه، فسقط منهم أربعمائة من أصل ستمائة، وأخفق مسلم في الانسحاب وتلقى ضربة قاتله.

وسقط مسلم لكن مدينة حلب لم تسقط لجيش التركمان عندما قدم لأخذها، فقد حمل سليمان بن قطلمش جثة مسلم بن قريش، وأتى بها وطرحها أمام أسوار حلب، وكان يأمل بأن تسلم المدينة له، لكن الأحداث رفضوا، وكان زعيمهم اسمه الشريف الحُتَيْتي، وقام الحتيتي الذي لم يكن له سيطرة على قلعة حلب، ببناء قلعة لنفسه وأحداثه داخل مدينة حلب، ولا يزال موقع هذه القلعة معروفاً، فأحد أحياء حلب الواقعة إلى جنوب القلعة الكبيرة يعرف حتى الآن باسم «قلعة الشريف».

واتخذ الحتيتي من قلعته مقراً جديداً لحكم دولة حلب، وثكنة لأحداثه، وهكذا أديرت حلب إدارة شعبية، ووجد فيها نوع من أنواع الجمهوريات؛ وفي هذه الأثناء حاول سليمان بن قطلمش الاستيلاء على حلب فأخفق، وتلاه تُتُش بن أرسلان صاحب دمشق فأخفق بدوره، وجاء السلطان ملكشاه على رأس جيش هائل إلى حلب سنة ١٠٨٦م، فتمكن من الاستيلاء على المدينة، وأسر الحُتيتي وحمله معه سجيناً.

لقد كانت حملة ملكشاه هذا ثاني حملة كبيرة يقودها أحد سلاطنة السلاجقة حتى حلب، فقد سارت هذه الحملة على نفس الطريق الذي سلكته حملة والده السلطان ألب أرسلان من قبل، وحققت حملة ملكشاه ما لم تحققه حملة والده، فقد أوصلت الامبراطورية السلجوقية إلى ذروتها في الاتساع، واستطاع ملكشاه أخذ الرُها وحلب وانطاكية، الأمر الذي أخفق أبوه في تحقيقه.

وأصبحت حلب مثل دمشق وبقية أجزاء بلاد الشام تابعة للحكم السلجوقي المباشر، ولم يتساهل هذا الحكم مع الأحداث، بل عمل على تصفية قواهم.

لقد كان الأحداث يتقاضون أحياناً بعض المرتبات، وكانوا يقومون بوظائف الشرطة البلدية، يسهرون على الأمن، ويراقبون النظافة والنظام العام في المدينة. وبسبب نشاط الأحداث إحداث مؤسسة جديدة في كل من حلب ودمشق، اسمها «رئاسة المدينة» وفي البداية شغل مقدمو الأحداث هذا المنصب الهام، وفيما بعد كان هذا المنصب أخطر الأدوار في التأكيد على عروبة مدن الشام ونزعاتها الاستقلالية والعمل في سبيل تصفية وجود المؤسسات العسكرية الغريبة خاصة من التركمان.

ومهما يكن الأمر، فإن القضاء على الأحداث في بلاد الشام يمكننا من الاجابة على إحدى مشاكل تاريخ هذا البلد الاجتماعية والعمرانية، فلو نظرنا إلى مدن الشام، وخطط البناء الفوضوي بها، ثم تطور عمران هذه المدن، وقارنا تطور الحياة الاجتماعية في المدينة الشامية باحدى مدن أوروبة لشاهدنا فوارق ضخمة: وحين نبحث عن السبب نجد أن المدينة الأوروبية قد عرفت منذ زمن التنظيمات البلدية، ونجد أن هذه التنظيمات التي رافقت تطور المدينة في أوروبة وأشرفت عليه كانت معدومة حتى أواخر القرن الماضي في بلاد الشام.

إن القضاء على الأحداث، وازالتهم من مدن الشام قد حرم هذه المدن من هيئة اجتماعية، ربما لو كتب لها الحياة والاستمرار، كان وضع المجتمع والمدينة في الشام مخالفاً لما عليه الآن بشكل كبير.

إن الفراغ الذي أحدثه زوال الأحداث قد حاول شغله أكثر من تنظيم له الشكل العسكري الظاهري، مثل النبوية والفتيان، وأخيراً الزعر والحرافيش، ويبقى الزعر على رأس هذه التنظيمات، فقد كاد هذا التنظيم أن يرث النظام المملوكي ويأخذ مكانه.

الزعر

يستوجب موضوع زعر بلاد الشام بشكل عام، ودمشق بشكل خاص، عناية مركزة، فالأمر يتعلق بنوعية المقاومة الشعبية للنظام المملوكي، وبطبيعة المناورات السياسية لهذا الحكم العسكري، مع مسألة علاقات الطوائف الاجتماعية بعضها ببعض، وبروابطها بالدولة الحاكمة. ويظهر مصطلح الزعر لأول مرة في نهاية القرن الخامس عشر، ليدل على عصابات منظمة من الشباب، من أحياء المدن، وبلا شك إن هذه الظاهرة أقدم من ظهور هذا المصطلح، فالزعر كما هو مرجح هم نظائر القرن الخامس عشر لأحداث القرن الحادي عشر، وللزعر مكانة خاصة حيث كانت الجماعات الأكثر تنظيماً في مدن المماليك، وكانوا قوة فعالة ضد سيطرة المماليك، بسبب تنظيمهم العسكري، لذلك تكشف فعاليات العلاقات بين الزعر والمماليك، وبقية الشعب المدني مظاهر هامة لشخصية المقاومة الشعبية، والطرق التي تمكن المماليك من خلالها توجيه هذه المقاومة، تمشياً مع مصالح المماليك ونظام المجتمع الرسمي.

وكان الزعر عصابات منظمة، وواعية لذاتها من الشباب، وربما لم يكونوا متزوجين، حيث احتفظوا بزي مميز لشعرهم سمي باسم «قرعاني»، وارتدوا ثياباً على أكتافهم كشكل من أشكال البزات الرسمية، وورد ذكرهم في المصادر



□ سور دمشق.

أحياناً باسم الأوغاد، وأهل الزعارة، والأشرار، وغوغاء الزعران، وغوغاء الحارات، وأوباش الزعران، وهذه جميعاً عبارات استهدفت النيل منهم، والحط من قدرهم، وعلى العموم كان الزعر عناصر مشاغبة، معارضة للسلطة المملوكية، ولا نعرف غير ذلك سوى النذر القليل، وكان بعضهم أصحاب حوانيت، ونعرف أن واحداً منهم كان نجاراً وآخر سمساراً، وثالث غزالاً او بائع خيوط، كما ان واحداً من زعمائهم كان يعرف بابن الطباخ.

وتمركز الزعر في الأحياء التي وقعت خارج أسوار المدن وفي القرى المجاورة، وفي دمشق كانت محلات: الشاغور، والميدان، والصالحية، وباب الجابية، وباب مصلّى، والسويقة، أماكن نشاط للزعر والمعارضة للنظام المملوكي، ويلاحظ هنا أن هذه المناطق كانت تحوي كميات كبيرة من السكان بخلفيات ريفية لم تندمج بعد بحياة المدينة، وتربط بعض المصادر الزعر بالعصبيات القبلية للعصر المملوكي مثل قيس، وعلى العموم كان الحي هو الحقل الخاص بالنشاط الاجتماعي وغيره للزعر.

وجرت قيادة زعر كل حي أو زقاق من قبل «الكبار» أو «المقدمين» ونعرف من أحد المصادر وجود أربعة «كبار للزعر» لحي الشاغور، وانتمى الكبار في كثير من الأحيان للعامة، إنما يلاحظ أن بعضهم حمل لقب شريف أو سيد، وحتى قاضي، مما يشير إلى أهمية الالهامات الدينية وسط هذه التنظيمات، لهذا لا غرابة حين نجد «ابن كسار» وهو من زعماء زعر دمشق يحمل لقب «خطيب وواعظ».

وعلى الرغم من وجود هذه الظاهرة فإن الزعر لم تكن علاقاتهم وطيدة بالعلماء ورجال الاقطاع الديني المتعاونين مع النظام المملوكي، فلقد مثل الزعر، من أحد الجوانب، مصالح الاحياء، ودافعوا عنها ضد مخاطر الفساد، وغالباً ما هاجموا جامعي الضرائب الجشعين، فقد هاجموا وكلاء المماليك في عام ٩٠٢هـ/١٤٩٨ ــ ١٤٩٩، وقتلوا في الصالحية اكثر من ثلاثين

شخصاً، وكان من بين القتلى رئيس الشرطة، وأكثر من مئة رجل في المدينة نفسها. وفي الحقيقة كان الزعر العمود الفقري للمقاومة الشديدة ضد جبي الضرائب العالية، وشغلوا دور القياديين في إغلاق وسد الشوارع، ومحاربة جند المماليك، وفي كثير من الأحيان تحولت أعمال الشعب في منطقة من المناطق إلى ثورة عارمة في المدينة بأسرها كما حدث عام ٩٠٧ هـ/١٥٠١ ــ ١٥٠٢م، وغالباً ما تعاون زعر الأحياء، وكونوا رابطة على مستوى مصالح المدينة بأسرها، ففي سنة ١٥٠٥م قام «أبو طاقية» زعيم زعر الشاغور بتوحيد زعر الأحياء المختلفة والقرى ضد المماليك، ومع ذلك وجدت مشاعر التنافس والحسد بين زعر الأحياء وكان ذلك ثغرة ولج منها النظام المملوكي والقوى المتعاونة معه، وحدث في بعض الأحيان أن جرى استئجار بعض عصابات الزعر للقيام بأعمال اغتيال وحرق وأعمال لصوصية لصالح النظام المملوكي ورجاله.

وعلى الرغم من هذا فإن نشاط الزعر المتلون سبب انعدام النظام، وفقدان المماليك لسلطانهم، إلى درجة دفعت ضباط المماليك إلى الاعتصام بالقلعة، حيث نقلوا سلعهم إليها لحمايتها.

ولايقاف هذا الاندفاع لقوة الزعر، أدخل المماليك في حسبانهم هذا المظهر المزدوج، وأدرجوا هذه العصابات في جيوشهم كقوة مشاة مساعدة، فقد احتاج المماليك لدعم عسكري من سكان سوريا، لأنهم اضطروا إلى إيجاد مقاومة مستمرة ضد الأعداء الأجانب والبدو، وبدأت فترة من التجنيد الكثيف، ففي سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م جرى استعراض زعر الشاغور في موكب رسمي، وكان تعدادهم يقارب ثلاثة آلاف رجل، ساروا جميعاً في الأزياء الرسمية وكانوا مجهزين ومسلحين بشكل كامل.

وسلح المماليك عصابات الزعر وجهزوها، وأكرموا زعماءها، وربما دفعوا النقود ثمناً لولائها، وللاستفادة من رجال العصابات، واعتبارها بمثابة احتياط عسكري شعبي، وفي هذا المقام إذا لم يكن المماليك قد خلقوا تنظيم الزعر بالفعل، فإن سياساتهم قد أسهمت بشكل حاسم في دمج قوى الزعر وتعزيز صبغتها العسكرية، ومع الأيام ازدادت قوى الزعر وتنامت، حتى أن قوات الزعر باتت تظهر أثناء عمليات الاستعراض العسكرية أكثر عدة وعدداً من قوات المماليك النظامية كما وضح الحال بعد سنة ١٤٩٨م.

وتوفرت الفرصة بعد هذا التاريخ لأن يرث الزعر النظام المملوكي، ويحلوا محله، لكن لسوء الطالع عرف رجال المماليك كيف يتلاعبون بزعمائهم، الذين شجعهم ضعف الدولة وقوتهم المتزايدة، لا على إحكام الأمور والانتقال من الفوضى نحو تجربة السلطة، بل على المزيد من أعمال النهب والسلب، مما أوقع الصراع بين صفوفهم وأفقدهم شعبيتهم.

وعليه شكلت العلاقات المتشابكة للزعر والمماليك وبقية السكان نموذجاً للأعمال، أصبح عنف الزعر فيه وبوساطته جزءاً من توازن دمشق السياسي في أواخر العصر المملوكي، وبرز الزعر أحياناً كأعنف عدو للدولة، فقد دافعوا بتنظيم رائع عن الأحياء ورفضوا دفع الضرائب والمكوس، وقتلوا الموظفين. وأفادت أعمال الزعر هذه في إضعاف السلطة المملوكية وتقوية أنفسهم، وجاءت الفرصة للخطوة نحو الثورة المغيرة للأوضاع والنظام، لكن الزعر لم يقوموا بها؛ فذلك لم يكن بالأمر الهين، فقد وجهت السلطات العاجزة عن قمع نشاطات الزعر، زعماء هذه العصابات نحو النهب والسلب، كما مارست الضغوط عليهم بوساطة العلماء وبقية أفراد الطبقات العليا التي ارتبطت بالسلطة، وهكذا تحولت عصابات الزعر إلى الواقع الهامشي، بدلاً من احداث الثورة، تحولت من العنف السياسي إلى العنف الاجرامي الصرف، وهكذا كبح المماليك قواهم، لكن من يدري لو طال الزمن بالنظام المملوكي، وتعاظمت المشاكل هل كان بامكان الزعر التحول مجدداً إلى العنف السياسي الذي يقود إلى الثورة؟ هذه رغبات، وليس للرغبات مكان في التاريخ، فالذي حدث هو قيام السلطات العثمانية بوراثة الحكم المملوكي ودخول بلاد الشام مع الوطن العربي في مرحلة جديدة من تاريخها.

●

مـوطنهــا البـــــنـان
أرزة طيران الشـرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جـذورهـا راسـخة في الشـرق الأوسـط
وأغصانهـا ممتـدّة في أرجــاء الـدّنيـا



العلاقات

(١٦٨٧ - ١٨٧٨)

د. عبدالرؤوف سنّو



□ الامبراطور الروسي نيقولا الأول.

منذ سقوط القسطنطينية بأيدي العثمانيين ظلت العوامل الدينية والاقتصادية تدفع روسيا للسيطرة على الممرات العثمانية وبالتالي على العاصمة العثمانية في سبيل تأمين تجارتها وتنفيذ ادعاءاتها في وراثة الامبراطورية البيزنطية. فتارة بالتوسع العسكري وأخرى بأسلوب التفاهم الدولي. أعلنت روسيا مراراً عن سياستها التقسيمية للدولة العثمانية. إلا أن خططها اصطدمت في كل مرة بمصالح دول أوروبية أخرى. فالنمسا كانت تنازعها الزعامة على البلقان، في حين عارضتها بريطانيا وفرنسا القضاء على الدولة العثمانية لأسباب استراتيجية واقتصادية. ونتج عن تضارب مصالح الدول الأوروبية في الامبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر تأزم متواصل في العلاقات الروسية العثمانية. وفي النصف الثاني من ذلك القرن اشتعلت الحرب مرتين بين الدولتين وتعرف الحرب الأولى من التاريخ تبعاً للمكان الذي دارت فيه «حرب القرم» (١٨٥٣ ــ ١٨٥٦) وانتهت بمؤتمر باريس. وتسمى الحرب الثانية بـ «الحرب البلقانية» (١٨٧٧ ــ ١٨٧٨) وانتهت بمؤتمر برلين. وكلا الحربين والمؤتمرين كانا بعيدي الأثر بنتائجهما في التاريخ الأوروبي والعثماني الحديث.

إن غرضنا من هذه الدراسة هو تتبع علاقات الدولتين في أربع حلقات: الأولى تشمل سياسة الاندفاع نحو القسطنطينية حتى معاهدة الممرات ١٨٤١ ــ الحلقة الثانية تلقي الأضواء على دور الدبلوماسية الروسية في مشاريع تقسيم الدولة العثمانية ــ أما الحلقة الثالثة فمخصصة لحرب القرم ومؤتمر باريس. وتنتهي الدراسة بالحلقة الرابعة التي تتعرض للحرب البلقانية ومؤتمر برلين.

□ د. عبد الرؤوف سنو: دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر ــ جامعة برلين الحرة. دبلوم في التعليم العالي والتنمية الدولية ــ جامعة كاسل.

الروسية - العثمانية

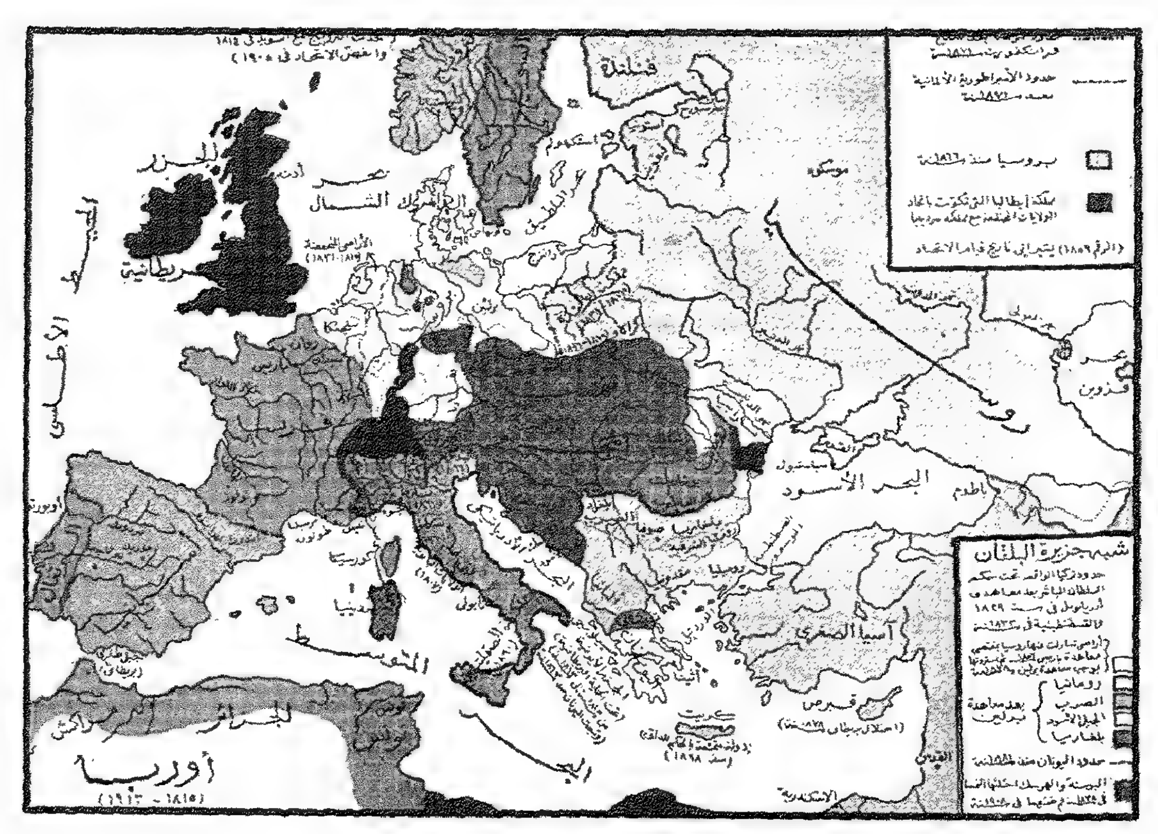
روسيا ومشاريع تقسيم الدولة العثمانية

الحلقة الثانية

أوروبا و «الرجل المريض»

قبل أن تسلك الامبراطورية العثمانية طريق التدهور والتجزئة، شغلت مسألة تقسيم ممتلكاتها الدوائر السياسية الغربية والراي العام الأوروبي. فبعد افتتاح القسطنطينية وضعت خطط ومشاريع من قبل أباطرة وملوك، بابوات ورجال دين، سياسيين وكتاب، تهدف كلها إلى تجزئة ممتلكات الدولة العثمانية[1]. إلا أن قوة الامبراطورية وجبروتها حتى القرن السابع عشر، وكذلك الصراعات التي انخرطت فيها الدول الأوروبية ضد بعضها البعض وأخيراً تضارب مصالح بعض هذه الدول من عملية التقسيم، حالت دون أن ترى هذه الخطط الطريق إلى النور.

ولكن العظمة العثمانية لم تستمر طويلاً. فقد



□ خريطة تبيّـن موقع الممرات المائية المطلة على البحر المتوسط.

أخذ الاعياء يدب في كيان الامبراطورية منذ نهاية القرن السابع عشر ويظهر بوضوح خلال القرنين التاليين مترجماً التدهور العثماني الداخلي وسياسات الدول الأوروبية المتعددة في تدمير الدولة العثمانية. ورغم اقتطاع أجزاء من ممتلكاتها، فإن تدمير الدولة العثمانية أو «الاجهاز» عليها بصفة نهائية لم يحدث خلال الفترة موضوع دراستنا. فكبت أنفاس «رجل أوروبا المريض» ـــ كما أطلق الغرب على الدولة العثمانية تشهيراً[٢] ـــ الذي أعيته أوروبا بسياستها الاستعمارية والعنصرية والدينية، كان لا بد من أن يترتب عليه نتائج خطيرة تورط أوروبا في صراعات داخلية حول تركته. فالمسألة الشرقية وبقاء «الرجل المريض» مريضاً على قيد الحياة كانا يدخلان في صميم التوازن الأوروبي والتجانس الأوروبي[٣].

فبسبب تضارب مصالحهما الاستعمارية والاستراتيجية في أمريكا الشمالية والهند خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، لم تهتم بريطانيا وفرنسا في مسألة تقسيم الدولة العثمانية. فقد كان الأفضل لمصالحهما الاقتصادية والاستراتيجية، وإن كانت متضاربة، المحافظة على الامبراطورية وحصر روسيا داخل البحر الأسود وإغلاق المضائق بوجهها[٤]. ولكن نهاية القرن الثامن عشر، والقرن التالي حملا انقلاباً في السياسة الفرنسية والبريطانية فيما يتعلق بسلامة الامبراطورية العثمانية. فبغض النظر عن فشل سياستها في احتلال مصر (١٧٩٩ ـــ ١٨٠١)، فقد استولت فرنسا على الجزائر (١٨٣٠) وفرضت حمايتها على تونس عام ١٨٨١. كما ساهمت في كثرة المشاريع التقسيمية للدولة العثمانية[٥]. وسارت بريطانيا على نهج فرنسا واستولت على المناطق الاستراتيجية في الدولة العثمانية المهمة لمواصلاتها مع الهند. فاحتلت عدن عام ١٨٣٩ وقبرص عام ١٨٧٨ ومصر عام ١٨٨٢ والسودان ١٨٩٩. وخلال العقد الأخير من القرن الماضي كانت الحكومة البريطانية تعرض على ألمانيا اقتسام ممتلكات الدولة العثمانية، لكن دون أن تحظى بموافقتها[٦]. وخلال الحرب العالمية الأولى وقعت بريطانيا مع روسيا ما يعرف بـ «اتفاقية الممرات»، التي نصت على استيلاء روسيا ـــ حليفة بريطانيا في الحرب ـــ على استانبول والممرات[٧].

أما النمسا فقد أنهت علاقاتها الحربية مع الدولة العثمانية مع نهاية القرن الثامن عشر بعدما تشبعت وحققت معظم أهدافها من جانب الدولة العثمانية ولم يتبق لها أطماع سوى بالبوسنة، والهرسك اللتين ضمتهما إليها عام ١٩٠٨[٨].

وبسبب مشاكلهما القومية، لحقت ألمانيا وإيطاليا متأخراً بالركب الاستعماري الأوروبي. فمصالحها الضخمة واستثماراتها الواسعة في الدولة العثمانية منذ الثمانينات من القرن الماضي جعلت ألمانيا تتبع سياسة المحافظة على سلامة الدولة العثمانية دون أن يمنعها ذلك من التفكير بالميراث الضخم الذي ينتظرها عند وفاة «صديقها» الرجل المريض[٩]. وكانت ألمانيا تتطلع للسيطرة على أسواق الشرق والاستيلاء على آسيا الصغرى لتكون منطقة امتصاص للفائض السكاني عندها. وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى شاركت الدولة العثمانية فيها إلى جانب ألمانيا ضد الدول الحليفة. واستفادت ايطاليا من سياسة الأحلاف والتكتلات الأوروبية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر في تنفيذ سياستها الاستعمارية على حساب الدولة العثمانية في منطقة شمال أفريقيا. فاحتلت طرابلس الغرب عام ١٩١١، وسط عدم مبالاة ألمانية[١٠].

«المشروع الشرقي» (اليوناني) ١٧٣٥ ـــ ١٧٨٩

كما رأينا سابقاً، لم تنه معاهدة قينارجة السياسة التوسعية الروسية على حساب الدولة العثمانية. فروسيا لم تكتف بما حصلت عليه من ممتلكات عثمانية وحق التدخل المزدوج لصالح الكنيسة الأرثوذكسية في استانبول وفي ولايتي الدانوب، بل ظل الاستيلاء على العاصمة العثمانية وممراتها الاستراتيجية شغلها الشاغل. وتبعاً لوصية بطرس الأكبر القاضية بالاستيلاء على البحر الأسود والممرات واستمالة النصارى الأرثوذكس من رعايا الامبراطورية العثمانية

سارت كل من الإمبراطورتين آنّة وكاترين الثانية.

وتعود المشاريع التقسيمية الروسية للدولة العثمانية إلى سنوات الحرب الروسية العثمانية (١٧٣٥ ـ ١٧٣٩) عندما عقدت روسيا تحالفاً مع النمسا لمشاركتها في الحرب ضد الدولة العثمانية وتقسيم ممتلكاتها بينهما. وكانت أطماع روسيا مركزة على السيطرة على البحر الأسود بضفتيه والقوقاز ومصب الدانوب الذي يشمل بسارابيا. وخلال معارك عام ١٧٣٨ طور الجنرال الروسي مونيش (Münnich) ما يسمى بـ «المشروع الشرقي»، ويقضي بزحف الجيوش الروسية إلى القسطنطينية بعد إثارة الشعوب المسيحية في البلقان وخاصة اليونانيين. ولكن هذه الخطة لم يكتب لها النجاح، إذ تمكن العثمانيون من إيقاف الزحف الروسي بعدما كبدوا النمساويين خسائر فادحة[١٢] ومع ذلك فإن المشروع الشرقي، أي الاستيلاء على القسطنطينية، ظل يشغل مكاناً بارزاً في السياسة الخارجية الروسية تجاه الدولة العثمانية وفي أية محاولة للتفاهم الدولي لتقسيم الدولة العثمانية.

وبتوقيع اتفاقية تقسيم بولندا (٥ آب ١٧٧٢) جرى الحديث عن تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية. فقد عرضت على بلاطات بطرسبرغ وفيينا ستُ خطط لتقسيم الدولة العثمانية[١٣]. وكان أهم هذه الخطط مشروعان: يقضي الأول بأن تحصل روسيا على ملدافيا وولاشيا وبلغاريا وروميليا وتراقيا مع القسطنطينية والممرات، في حين تنال النمسا البوسنة والهرسك ومقدونيا حتى المورة. أما المشروع الثاني فقضى بتأسيس دولة تتبع روسيا وتضم مقدونيا والبانيا وروميليا والقسم الأكبر من الأرخبيل مع بلاد ما بين النهرين في آسيا الصغرى وتكون استانبول عاصمتها. أما روسيا فتتولى المنطقة الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الدانوب ومناطق الأنهار في البحر الأسود باستثناء القرم، التي تبقى مستقلة تحت الحماية الروسية. ووعدت النمسا بولاشيا الصغرى وصربيا وبلغاريا والهرسك. وتقرر أن تشكل المورة دولة مستقلة يحكمها دوق نمساوي، أو تعطى للبندقية لقاء تنازلها للنمسا عن استريا وفريول وانضمامها للحلف المعادي للعثمانيين[١٣].

ويلاحظ هنا أن كلا المشروعين وضعا المصالح الروسية في استانبول بعين الاعتبار. ورغم مراعاة المشروعين للمصالح الروسية والنمساوية في البلقان ومناطق البحر الأسود وآسيا الصغرى، إلا أنه لم يتمخض عنهما أي اتفاق بين روسيا والنمسا وظلا مجرد أفكار أولية حول تقسيم الدولة العثمانية بين الدولتين.

وحركت ولادة قسطنطين، حفيد الامبراطورة كاترين الثانية، عام ١٧٧٩ المشاريع التقسيمية الروسية للدولة العثمانية، وخصوصاً لما يسمى بالمشروع الشرقي. فقد وضعت الامبراطورة خططا لتتويج حفيدها ملكاً يونانياً في الآستانة، وبذلك ترتبط هذه المملكة سلاليا بالأسرة الحاكمة في روسيا. وكانت استعادة القسطنطينية وإعادة نصب الصليب فوق آيا صوفيا حلما روسياً قديماً[١٤]. ويحدثنا الدبلوماسي البريطاني أيتون الذي كان يقيم في بطرسبرغ آنذاك ومقرباً من الدوائر السياسية الروسية، أن كاترين الثانية اتخذت كافة الترتيبات لاعداد حفيدها لهذا العمل الكبير. فقد تولت رعايته نساء يونانيات، كما لقن اللغة اليونانية منذ الطفولة وبعدها تعهده أساتذة يونانيون. وباختصار، كما يقول أيتون، «فإن مجمل تربيته (قسطنطين) كانت تلك التي تهيئه لتولي عرش القسطنطينية»[١٥].

وعلى ما يبدو فقد كانت الامبراطورة كاترين الثانية ميالة في بادىء الأمر للحصول على دعم بريطانيا في تنفيذ مشروعها. واستناداً لايتون فقد وضعت الامبراطورة والأمير بوتمكين (Potemkin) خططاً تقوم بموجبها روسيا بدعم بريطانيا في الحرب الأميريكية لقاء تأييد بريطانيا لهجوم روسي ضد الدولة العثمانية وتنازلها لروسيا عن جزيرة مينورقة في المتوسط لتكون قاعدة للأسطول الروسي هناك ومركزاً لتحريض اليونانيين على الثورة ضد الباب العالي. وكان بوتمكين يستعد لعرض المشروع على السفير البريطاني في بطرسبرغ عندما تمكن الكونت بانين (Panin)، وزير الخارجية الروسي، المعارض للنفوذ البريطاني، من حمل الامبراطورة على رفض التعاون مع بريطانيا في المشروع الشرقي،

رغم كل محاولات بوتمكين لاثبات أن نجاح المشروع يتوقف على التحالف مع بريطانيا[١٦]. وهكذا أخذت كاترين الثانية تبحث عن دولة اوروبية أخرى لتتعاون معها في مشروعها.

وفي عام ١٧٨٠ زار الامبراطور جوزيف الثاني عاهل النمسا روسيا والتقى الامبراطورة كاترين الثانية في موليف (Mohliev)، التي عرضت عليه المشروع الشرقي، والذي أسمته «المشروع اليوناني»، ويقضي بتنصيب حفيدها ملكاً يونانياً في القسطنطينية[١٧]. ولكن مباحثات العاهلين لم تتعد مجرد التعرف على وجهات النظر حول الموضوع، إلا أن الاثنين اتفقا على الدخول في مفاوضات في العام التالي.

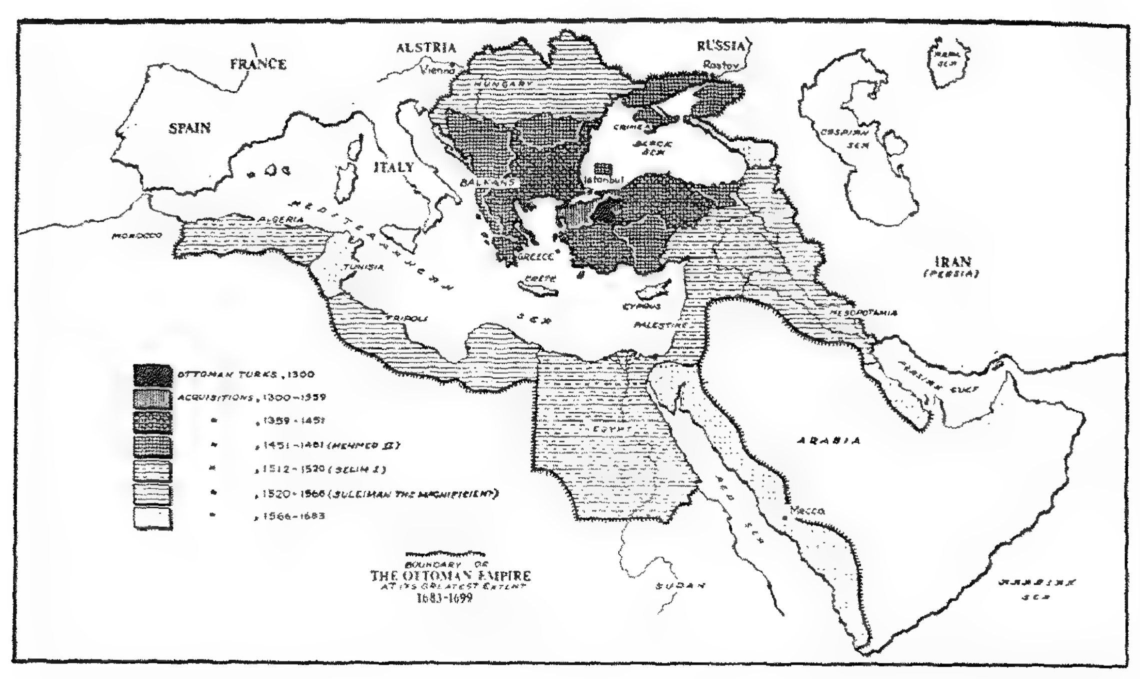
وبالفعل واصلت الدولتان مباحثاتهما في العام التالي بينما كانتا تستقبلان وفوداً بلقانية تسعى للحصول على دعمهما في الثورة ضد السلطان العثماني[١٨]. وكانت نقاط البحث تتركز على تحرير شعوب البلقان من الحكم العثماني — اعتراف كل دولة بمصالح الدولة الأخرى، بمعنى أن تتوسع النمسا في البلقان غرباً مقابل تعاونها مع روسيا في برنامجها ضد الدولة العثمانية[١٩]، وأخيراً مناهضة المسيحية للاسلام[٢٠]. وخلال المباحثات الدائرة كانت كاترين الثانية وجوزيف الثاني يتبادلان الرسائل حول موضوع تقسيم الدولة العثمانية. وقد استمر تبادل الرسائل بينهما حتى عام ١٧٨٣. ولعل أهم تلك الرسائل رسالة كاترين الثانية إلى الامبراطور جوزيف الثاني المؤرخة ١٠ أيلول ١٧٨٢ ورد جوزيف الثاني على هذه الرسالة في ١٣ تشرين الثاني نفس العام.

والواقع أن مشروع كاترين الثانية لتقسيم الدولة العثمانية كان ينص على إقامة دولتين مسيحيتين في البلقان. ففي رسالتها إلى جوزيف الثاني عرضت امبراطورة روسيا إقامة دولة مسيحية باسم داشيا وتضم بسارابيا وملدافيا وولاشيا تكون تحت النفوذ الروسي، على أن تحكم وراثياً ويتفق على حاكمها فيما بعد. وبخصوص المملكة اليونانية اقترحت كاترين الثانية تنصيب حفيدها قسطنطين ملكاً يونانياً في القسطنطينية، على أن تضم مملكته أيضا المناطق اليونانية السكان، بلغاريا، تراقيا ومقدونيا. أما روسيا فتستولي لنفسها على القرم وكوبان والمنطقة الممتدة بين البوغ والدنستر، التي نصت اتفاقية ١٧٧٩ بين روسيا والباب العالي على تبعيتها للدولة العثمانية. وبالاضافة إلى ذلك تستولي روسيا على جزيرتين في الأرخبيل لأجل مصالحها التجارية[٢١].

وفي رده على رسالتها وافق الامبراطور النمساوي على المقترحات الروسية وطلب بالمقابل أن تحصل بلاده على القسم الغربي من ولاشيا والجزء الأكبر من صربيا بما فيها بلغراد، وكذلك ممتلكات البندقية في استريا ودلماشيا، على أن تعوض البندقية بالمورة وكريت وقبرص[٢٢].

ومما يتضح من الرسائل أن مشاريع تقسيم الدولة العثمانية لم يتناول ممتلكاتها في أوروبا فحسب، بل تعداه إلى ممتلكاتها في الشرق أيضاً، مما يحمل على الاستنتاج بأن الدولتين كانتا تزمعان حصر وجود الدولة العثمانية في الأناضول فقط. ومما يؤكد ذلك أنهما رأتا ضرورة الاتفاق مع فرنسا، صاحبة النفوذ في الشرق، وأن تحصل هذه الأخيرة على مصر وسوريا كتعويض عن هذه الصفقة الضخمة[٢٣]. وسرعان ما رحب المسيو دو سجور، السفير الفرنسي في بطرسبرغ بالمشروع، وزاد عليه ضرورة تحالف الأمم المسيحية لطرد «المسلمين البرابرة» في آسيا[٢٤]. لكن حكومة لويس السادس عشر كانت على النقيض لتصورات سفيرها في بطرسبرغ ترى ضرورة المحافظة على سلامة الدولة العثمانية. فبعد مراسلات نمساوية — فرنسية استمرت أكثر من نصف عام أعلنت الخارجية الفرنسية في ١٤ حزيران ١٧٨٣ أنها ضد تقسيم الدولة العثمانية[٢٥].

ورغم أنه يجب أن ينظر إلى تحركات روسيا في القرن عام ١٧٨٢ وضمه إليها في العام التالي على أنها كانت تهدف إلى تنفيذ المشروع التقسيمي للدولة العثمانية، إلا أن هذا المشروع لم يرى النور. ولعل أسباب ذلك — كما يرى سول — هو أن خطة كاترين الثانية لم تكن هدفاً حقيقياً للسياسة الروسية الخارجية، ولا يمكن تطبيقها على الأرض، إذ أنها كانت ستدخل كثيراً من السلاف في البلقان، الذين تدعي روسيا حمايتهم وتسعى لتحريرهم من الحكم العثماني، تحت



□ النفوذ العثماني في أوجه.

حكم النمسا[٢٦]. وبالاضافة إلى ذلك فقد كان الامبراطور النمساوي منذ اللحظات الأولى للاتفاق مقيداً بعداوة فردريك الثاني، ملك بروسيا، ورأى ألا يتورط في البلقان، خاصة أنه أراد الابقاء على علاقات جيدة مع فرنسا التي عارضت مشروع تقسيم الدولة العثمانية. وهناك سبب آخر أفشل المشروع وهو اندلاع الثورة الفرنسية، التي قيدت إمكانيات روسيا والنمسا تجاه الدولة العثمانية خلال حروب ١٧٨٧ ــ ١٧٩٢[٢٧]. والواقع أن الدولة العثمانية توقعت فترة من الهدوء على جبهات القتال نتيجة لانشغال أوروبا بالثورة الفرنسية، مما حمل أحمد افندي، السكرتير الخاص للسلطان سليم الثالث، لأن يبتهل إلى الله بأن يجعل «الثورة في فرنسا تنتشر في أعداء الامبراطورية كمرض الزهري ويقذفهم في صراع طويل مع بعضهم البعض بحيث تكون النتيجة ما يدر بالنفع على الامبراطورية...»[٢٨].

ولم تعطل وفاة الامبراطورة كاترين الثانية (١٧٩٦) ولا المحالفة الروسية العثمانية (١٧٩٨) لطرد الفرنسيين من مصر خطط روسيا للقضاء على الدولة العثمانية والاستحواذ على العاصمة والممرات. ولقد خابت آمال الدولة العثمانية في أن ترى الهدوء المنشود نتيجة انشغال أوروبا بنزاعاتها الداخلية. فحتى مؤتمر فيينا كانت الحكومة العثمانية أشبه بكرة تتقاذفها الدول الأوروبية. فلكي تطرد الفرنسيين من مصر كان عليها أن تتحالف مع بريطانيا ومع عدوتها روسيا وتمنح الأولى امتيازات تجارية في البحر الأسود والثانية في الممرات. وعندما خرجت فرنسا من مصر واستعادت نفوذها مجدداً في استانبول بعدما هزمت التحالفات الأوروبية (١٨٠٥ ــ ١٨٠٦) ارتمى الباب العالي مجدداً في أحضانها، وسرعان ما ورطته الدبلوماسية الفرنسية في حرب ضد روسيا (١٨٠٦ ــ ١٨١٢) وأخرى ضد بريطانيا (١٨٠٧). ولكن التقارب الروسي الفرنسي في تلست (١٨٠٧) عاد وقذف بالحكومة العثمانية من مرمى بريطانيا. وكانت النتيجة مزيداً من الامتيازات لبريطانيا (معاهدة الممرات كانون ثاني ١٨٠٩).

نابوليون، الكسندر الأول ومشروع تقسيم الدولة العثمانية عقدة القسطنطينية والممرات

عقب انتصاره على روسيا وبروسيا في حزيران ١٨٠٧ فكر نابوليون بأن يتخذ من روسيا

حليفاً له ضد بريطانيا وبإعداد حملة برية روسية ـ فرنسية مشتركة لغزو الهند[٢٩]. ولكن هذا المشروع سرعان ما ارتبط بمشروع آخر وهو تقسيم الدولة العثمانية في أوروبا. ففي حزيران ١٨٠٧ عقدت اتفاقية تلست بين فرنسا وروسيا وبموجبها انسحبت روسيا من الجزر الأيونية لمصلحة فرنسا. ونصت المعاهدة في إحدى بنودها على إخلاء روسيا ولايتي الدانوب التي احتلتهما على الا يدخلها العثمانيون قبل التوصل لصلح مع روسيا. وبحال رفض الباب العالي ذلك تقوم روسيا وفرنسا باحتلال الممتلكات العثمانية في أوروبا باستثناء روميليا واستانبول[٣٠]. وهكذا وجدت الدولة العثمانية نفسها عام ١٨٠٧ تخوض الحرب التي ورطتها فيها الدبلوماسية الفرنسية منفردة، وفوق ذلك مهددة بمؤامرة تحيكها كل من فرنسا وروسيا.

وبعد صلح تلست تابع مفوضو روسيا وفرنسا مفاوضات تقسيم الدولة العثمانية، بعدما وضع القيصر الكسندر الأول ونابوليون خطوطه العامة. وكان الوزير رومانوف (Romanoff) ممثلاً لروسيا في المفاوضات، في حين مثل السفير كولانكور (Caulaincourt) الامبراطور نابوليون. وتركزت المناقشات مبدئياً حول حصول روسيا على ولايتي الدانوب وبلغاريا مقابل حصول فرنسا على البانيا واليونان وكريت، بينما تنال النمسا البوسنة وصربيا[٣١].

ولكن المباحثات سرعان ما اصطدمت بعقدة القسطنطينية والممرات. فروسيا أصرت على الاستحواذ على العاصمة العثمانية وممراتها الاستراتيجية، بينما عارض الفرنسيون ذلك، لأنه كان يتعارض مع سياستهم المتوسطية، حتى لا تكون الجيوش الفرنسية في حال غزوها لسوريا براً، تحت رحمة روسيا(*). وبالاضافة إلى ذلك رفض نابوليون أن تضع روسيا يدها على القسطنطينية كونها مدينة عالية لا يجوز أن تمتلكها أية دولة[٣٢].

ويبدو أن طرح نابوليون لعالمية القسطنطينية جعل القيصر الكسندر يقترح تدويل المدينة لتكون مدينة حرة كإحدى دول الهنزا هامبرج أو بريمن[٣٣]. واعتقد الكسندر الأول أن تدويل المدينة سيرضي نابوليون وبذلك تنتهي المسألة وتكون الممرات من نصيب بلاده. إلا أن المندوب الفرنسي سرعان ما ربط بين مسألة تدويل القسطنطينية وقضية الممرات، فاقترح أن تستولي روسيا على البوسفور الذي يطل على البحر الأسود مقابل أن تضع فرنسا يدها على الدردنيل، الذي يشرف على البحر المتوسط[٣٤]. ولكن هذا الاقتراح كان يتعارض مع الاستراتيجية الروسية المعلنة منذ أيام بطرس الأكبر، وهي الاستيلاء على الممرات والاطلال على المتوسط. وكان متوقعاً أن ترفض روسيا بأن تضع «بوابات منزلها» بأيدي غريبة[٣٥]. وخلال سير المفاوضات في النصف الأول من عام ١٨٠٨ أعرب القيصر الروسي عن رفضه القاطع لسيطرة فرنسا على الدردنيل، لأن ذلك يضر ببلاده، ولن يكسبها شيئاً من مشاريع التقسيم. كما شدد رومانوف أمام المندوب الفرنسي عن تمسك بلاده بالسيطرة على مفتاحي القسطنطينية، البوسفور والدردنيل، وعلى العاصمة العثمانية لأسباب اقتصادية ودينية، وهي تطوير التجارة الروسية في منطقتي البحر الأسود والمتوسط وكون القسطنطينية المدينة التي تضم آيا صوفيا، التي هي الكتدرائية الحقيقية للكنيسة اليونانية[٣٦].

وعندما وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود عرضت روسيا تطوير مشروع تقسيم الامبراطورية العثمانية من تقسيم جزئي إلى تقسيم شبه نهائي لها. فاقترح أن تضاف مقدونيا إلى حصة النمسا باستثناء سالونيك، في حين تنال فرنسا بالاضافة إلى حصتها السابقة، جزر الأرخبيل جميعها وكريت وقبرص ورودس وسمرنة وسوريا ومصر. واعتقدت روسيا أن حصول فرنسا على هذه الحصة الثمينة سوف يجعلها توافق على استيلائها على الولايات الأسيوية العثمانية القريبة من البوسفور. وكان يعني هذا دفع العثمانيين إلى خلف جبال طوروس، وربما حتى ضفاف الفرات[٣٧]. كما

(*) كان تفوق الأسطول البريطاني في المتوسط على الأسطول الفرنسي هو الذي جعل نابوليون يفكر في تأمين مواصلات برية مع الشرق.

تعهد القيصر الروسي مقابل سيطرته على الدردنيل بتخصيص طريق برية عسكرية لفرنسا وللنمسا تؤدي إلى سوريا وبدعم حملة لاحتلال سمرنة ومناطق أخرى في الأناضول. أما نابوليون فكان على استعداد للمساومة على القسطنطينية والتضحية بها، لكنه تشبث بأن يكون مضيق الدردنيل لفرنسا وحدها وبالتالي منع الروس من التوغل إلى المتوسط. وفي هذا الاطار عرض كولانكور استيلاء الروس على الآستانة والبوسفور مقابل استحواذ فرنسا على مضيق الدردنيل(٣٨).

فشلت المفاوضات وكانت عقدة الدردنيل السبب الرئيسي لذلك. وبعد قليل كانت روسيا عرضة للغزو الفرنسي. وما هي إلا سنوات قليلة حتى كانت باريس نفسها تستسلم أمام ضربات المدفعية الروسية. أما الدولة العثمانية فواصلت سيطرتها على القسطنطينية للقرن الرابع على التوالي.

الأزمة اليونانية والبحث عن شريك

كانت مسألة تقسيم الدولة العثمانية تطرح فعلياً أمام الدبلوماسية الأوروبية في كل مرة كانت تتعرض فيها الامبراطورية العثمانية لهجمة من الغرب أو ثورة رعاياها المسيحيين المدعومين من الخارج. وعندما اندلعت الثورة اليونانية (١٨٢١) طرحت مجدداً مسألة تقسيم ممتلكاتها، وككل مرة كانت روسيا أكثر الدول تورطاً في هذه المشاريع التقسيمية للدولة العثمانية.

وكما رأينا سابقاً، قدمت الحكومة الروسية بعد اندلاع الثورة اليونانية مذكرة إلى الدول الأوروبية في حزيران ١٨٢١ تسألها فيها عن موقفها في حال تورطها في حرب مع الباب العالي(٣٩). وبالاضافة إلى ذلك استوضحت الحكومة الروسية في مذكرتها «عما تقترحه الدول الأوروبية من بديل للحكم العثماني في حال انهياره»(٤٠). وبعبارة أخرى أرادت الحكومة الروسية معرفة مدى تجاوب هذه الدول مع مشاريع تقسيم الدولة العثمانية وممتلكاتها.

وفي الشهر التالي كانت الحكومة الروسية تقوم باتصالات دبلوماسية مع فرنسا بغية مشاركتها في صفقة لتقسيم الدولة العثمانية. لكن الحكومة الفرنسية أهملت الموضوع، إذ كانت غير متأكدة من جدية القيصر الروسي، كونه لم يقدم مقترحات حسية تتعلق بالتقسيم(٤١). وفي نفس الوقت كان الكونت شاتوبريان (Chateaubriand)، السفير الفرنسي في روما، يبعث إلى حكومته يحثها على الأخذ بمشروع القيصر الكسندر والتحالف معه(٤٢). ومن جهة أخرى بعث إلى فرونيه (Ferronnays)، السفير الفرنسي في بطرسبرغ، يحثه على أن يثير مسألة استيلاء روسيا على القسطنطينية وتوزيع ممتلكات الدولة العثمانية الأوروبية على الدول المسيحية، على أن يرتبط ذلك بتعويضات للدول الأوروبية التي لا يمكنها التوسع شرقاً على حساب الدولة العثمانية(٤٣).

ورغم جهودها هذه المرة أيضاً فلم تجد الدبلوماسية الروسية حليفاً أوروبياً يشاركها خططها التقسيمية في الدولة العثمانية. ومع ذلك فبعد مرور ثماني سنوات على فشل هذا المشروع فإن الدبلوماسية الفرنسية ستكون هي الداعية لتقسيم الدولة العثمانية، بينما ستكون روسيا هي المدافعة عن سلامة الدولة العثمانية. فما هي يا ترى هذه المتغيرات في السياسة الخارجية الروسية تجاه الدولة العثمانية؟

موقف روسيا المعارض لمشروع بولينياك لتجزئة الدولة العثمانية

خلال اجتماع السفراء في بوروس (آذار ١٨٢٩) الذي اضطلع بمسألة تكوين الدولة اليونانية، اقترح وزير الخارجية الفرنسي، المسيو دو لا فيرونيه، أن يترك لروسيا حرية العمل في ولايتي الدانوب(٤٤). وقد أتاح هذا الاقتراح حدوث تقارب فرنسي — روسي فيما يتعلق بالموقف تجاه الدولة العثمانية. وعندما سقطت مدينة أدرنة في خريف ذلك العام بيد القوات الروسية وأصبحت العاصمة العثمانية نفسها مهددة، بدا وكأن الامبراطورية العثمانية على وشك الانهيار وأن تقسيم ممتلكاتها قد أصبح أمراً واقعاً. وفي هذه الأثناء كان السفير الفرنسي في لندن الكونت دو بولينياك (Comte de Polignac) قد أصبح رئيساً للوزراء ويخطط لاتباع سياسة استعمارية

تقوي من وضع حكومته داخلياً. فبعد احتلال الجزائر (١٨٣٠) أخذ بولينياك يسعى للتحالف مع روسيا وتأييدها في سياستها تجاه الدولة العثمانية وبالمقابل الحصول على الدعم الروسي لفرنسا في المسألة البلجيكية[٤٥].

وفي هذا الاطار وضع بولينياك مشروعاً لاعادة النظر في خارطة أوروبا التي صاغها مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ولتسوية المسائل السياسية العالقة في الغرب والشرق[٤٦]. فأوعز إلى بوالوكونت (Boislecomte) رئيس الدائرة السياسية في وزارة الخارجية الفرنسية بإعداد مشروع لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية يكون أساساً للمفاوضات مع روسيا ومقبولاً من وجهة النظر الفرنسية على أن يمتزج بتعديلات إقليمية في أوروبا الوسطى ومنطقة الراين[٤٧].

وخلال إعداده للمشروع توقع بوالوكونت أن يأتي اليوم الذي يدخل فيه الروس القسطنطينية[٤٨]. ولهذا رأى أن من مصلحة فرنسا إبعاد روسيا دوماً عن تلك المنطقة وإعادة إحياء مشروع المملكة اليونانية من جديد وأن تكون القسطنطينية عاصمة لها يحكمها امبراطور يختار من البلاد المنخفضة. واقترح بوالوكونت أن تكون ولايتا الدانوب وجزء من آسيا الصغرى من نصيب روسيا، على أن تحصل النمسا على صربيا والبوسنة والهرسك. أما نصيب فرنسا فكان يتعلق بالتسويات على الأرض الأوروبية، وهو أن تقتسم فرنسا وبروسيا الأراضي المنخفضة، فتحصل الأولى على الجزء البلجيكي ولوكسمبورغ مقابل حصول الثانية على الجزء الهولندي ومملكة ساكس بعد أن تتخلى عن أراضيها على الضفة اليسرى للراين لملك ساكس السابق. أما بريطانيا فتنال المستعمرات الهولندية[٤٩].

ومنذ البداية كانت إمكانية نجاح المشروع ضئيلة، خصوصاً أنه كان من المستبعد الحصول على موافقة بريطانيا وبروسيا عليه[٥٠]. اما روسيا فهل كانت ستوافق على استبدال الحكومة العثمانية المنهارة في القسطنطينية عام ١٨٢٩ بحكومة فتية في الممرات تحصل على ضمانات دولية لوجودها؟ الجواب كلا. فما أن عرض المشروع على الحكومة الروسية حتى رفضته جملة وتفصيلاً، ليس لأنها كانت ترفض وجود دولة غيرها في القسطنطينية والممرات العثمانية فحسب، بل لأن القيصر نيقولا كان قد خرج في أيلول ١٨٢٩ عن السياسة التقليدية الروسية الداعية لتقسيم الدولة العثمانية وقرر اتباع سياسة جديدة وهي المحافظة على سلامة الدولة العثمانية وممتلكاتها[٥١]. فما هي إذن دوافع هذا التغيير في السياسة الروسية المتبعة تجاه الدولة العثمانية منذ القرن الثامن عشر؟

السياسة الروسية الجديدة رفض التقسيم والمحافظة على سلامة الدولة العثمانية

عندما احتلت القوات الروسية مدينة أدرنة، العاصمة العثمانية الثانية، في صيف ١٨٢٩ وأخذت تنتظر الأوامر بالزحف على القسطنطينية، كلف القيصر الروسي لجنة سرية برئاسة كوشوبك لتبحث في النتائج التي قد تترتب على انهيار الدولة العثمانية. وقد ضمت اللجنة كبار رجالات الدولة ومن ضمنهم نسلرود وداشكو، مستشار القيصر الخاص.

وقد طرحت أمام اللجنة ثلاث مذكرات تتعلق بمصير الدولة العثمانية: الأولى تعود إلى عام ١٨٠٢ قدمها الكونت كوشوبك إلى القيصر الكسندر، والثانية مذكرة أحد زعماء اليونان، وهو كابوديسترياس (Capodistrias) والأخيرة مذكرة الكونت داشكوف وتعود إلى عام ١٨٢٨. وبعد افتتاح اللجنة لأعمالها في ١٦ أيلول ١٨٢٩ تلى المستشار نسلرود مذكرة كوشوبك، التي أظهرت مصلحة روسيا في عدم انهيار الدولة العثمانية. فالاحتفاظ بها جارة ضعيفة مهددة بثورات رعاياها المسيحيين له من المزايا أكثر من المساوىء. وإذا ما انهارت الدولة العثمانية من تلقاء نفسها، فعلى روسيا أن تتخذ كافة الاجراءات لحماية مصالحها وتبدأ على الفور مفاوضات مع الدول الكبرى للاتفاق على توزيع ممتلكات الدولة العثمانية وشعوبها.

وبعد ذلك تليت مذكرة كابوديسترياس التي طالبت بتقسيم البلقان العثماني إلى خمس دول من الدرجة الثانية وبإعلان القسطنطينية مدينة



□ المستشار الروسي نسلرود.

حرة. وكانت مذكرة داشكو آخر المذكرات الهامة التي بحثتها اللجنة. فقد توقع هذا أن يؤدي تدمير الدولة العثمانية إلى حرب أوروبية عامة. ولهذا اقترح بأن تتركز جهود روسيا على عدم الاستحواذ على أراض جديدة، بل تدعيم سلطتها ونفوذها في المناطق التي كانت قد احتلتها من الامبراطورية العثمانية. فيما يتعلق بامتلاك روسيا للممرات تساءل داشكو في مذكرته عن الثمن المتوجب على روسيا دفعه لتحقيق ذلك. ورأى أن تقسيم الدولة العثمانية لن يكون في مصلحة روسيا، إذ أن دولاً أوروبية هي أقرب جغرافياً لروسيا منها، سوف تسبقها للسيطرة على المناطق العثمانية. فالنمسا قد تأخذ صربيا والبوسنة والهرسك والجبل الأسود. أما انكلترا وفرنسا فقد تستوليان على مصر وكريت والجزر اليونانية. وفي هذه الحالة فستجابه روسيا أعداء خطرين في جنوب أوروبا بدلاً من العثمانيين الضعفاء. واقترح أخيراً أن تحتل القوات الروسية ضفتي البوسفور إذا ما وافق القيصر على تحويل القسطنطينية إلى مدينة حرة[٥٢].

وبعد مناقشتها للأفكار المطروحة أوصت اللجنة بوقف الحرب ضد الدولة العثمانية وعقد السلام معها. وفيما يتعلق بالسياسة المطلوب اتباعها تجاه الدولة العثمانية اقترحت اللجنة ثلاثة مبادىء لتكون أساس السياسة الروسية تجاه هذه الدولة[٥٣]، وهي:

١ ــ المحافظة في الوقت الراهن على السلطنة العثمانية ضعيفة قدر الامكان.

٢ ــ أن تحتل روسيا المضائق العثمانية والقسطنطينية في حال انهيار الدولة العثمانية في أوروبا.

٣ ــ أن تتفاوض روسيا مع الدول الأوروبية الأخرى، في حال انهيار الدولة العثمانية التام، فيما يتعلق بتوزيع ممتلكات الأخيرة.

وعندما عرضت هذه التوصيات على القيصر نيقولا قبلها وجعلها أساس سياسته تجاه الدولة العثمانية، خاصة وأنها كانت تبعد الدول الأوروبية عن الممرات وتضبط اتساع الحركات القومية في البلقان[٥٤].

مشاورات بطرسبرغ ــ فيينا ــ لندن ومصير الدولة العثمانية (١٨٣٣ ــ ١٨٤٤)

وضعت الأزمة المصرية هذه المبادىء الروسية على المحك. ففي عام ١٨٣٣ كان على روسيا أن تقوم بحماية السلطنة العثمانية من الانهيار أمام ضربات محمد علي، ليس بسبب تحمسها أو رغبتها بأن تقدم للباب العالي دعم دولة حليفة، بل لأن روسيا كانت تريد جارة ضعيفة، لا قوية مدعومة من فرنسا. وكما جاء على لسان نسلرود في مطلع عام ١٨٣٣، فإن روسيا لم تكن في تلك المرحلة راغبة بتقسيم الدولة العثمانية. إلا أن الأزمة المصرية أبانت لروسيا مدى الضعف العثماني وعدم قدرة الادارة العثمانية على الصمود، وبالتالي فنهاية الامبراطورية أصبحت وشيكة. ولهذا قررت الحكومة الروسية استباق «الكارثة المنتظرة» والقيام بكافة الترتيبات مع الدول الأوروبية بهدف الاتفاق معها على توزيع ممتلكات الدولة العثمانية[٥٥].

ومنذ البداية كانت فرنسا مستبعدة من أي اتفاق على مصير الدولة العثمانية، أما بروسيا فكانت لا تستطيع أن تقدم لروسيا سوى تأييد

أدبـي في المسألة الشرقية. وهكذا لم يكن أمام روسيا سوى التفاهم مع النمسا وبريطانيا. وهذا الموقف كان يبـرز اثنين من المعـالم الرئيسة للسياسة الخارجية الروسية حتى حرب القرم: اتفاقية ميونيخ غراتز مع النمسا، واتفاقية ١٨٤٤ السرية مع بريطانيا.

وبموجب معاهدة ميونيخ غراتز (١٨ أيلول ١٨٣٣) ضمنت روسيا تأييد النمسا لهـا في سياستها تجاه الدولة العثمانية والمحافظة عليها ضعيفـة قدر الامكـان. كما اعتـرفت روسيا بالنمسا شريكاً كاملاً في أية تجزئة مستقبلية للدولة العثمانية[٥٦].

اتفاقية (١٨٤٤) الشفوية السرية بين روسيا وبريطانيا (مذكرة نسلرود)

وكانت هذه الاتفاقية ثاني المعالم الرئيسـة في السياسة الروسية الخارجية فيما يتعلق بمصير الدولة العثمانية، حدثت بعد أحد عشر عاماً على الاتفاقية مع النمسا. ويعود التأخر في ذلك إلى شدة الخلافـات الروسية ــ البـريطانيـة بعد معاهدة خنكار اسكلسي. ولكن بعد ١٨٣٩ حدث تقارب بين الدولتين فيما يتعلق بالمسألة المصرية وقد أسفر ذلك عن نتيجتين هامتين، وهما تعاون روسيا مع بريطانيا في حل المسألة المصريـة، ومعاهدة الممرات. وبعيداً عن المسألة الشرقية كانت هناك إشارات إلى تقارب الدولتين فيما يتعلق بالمسائل الفارسية والمنافسـة التجاريـة بينهمـا[٥٧]. وقد تكللت هـذه الجهود بتـوقيع اتفـاقية تجـارية روسيـة بريـطانية في مـطلع عـام ١٨٤٣[٥٨]، وبـزيـارة القيصر نيـقـولا لبريطانيا في حزيران ١٨٤٤.

والواقـع أن زيارة القيصر إلى لنـدن كانت للتوصل إلى اتفاق مع الزعماء البريطانيين حول مصير الدولة العثمانية. وخلال المفاوضات حاول القيصر اللعب عـلى التناقضـات البـريـطانيـة الفرنسية، وخصـوصاً تلك في منـطقة جنـوب الباسيفيك والاتفاق مع بـريطانيـا على تقسيم الدولة العثمانية، التي أطلق عليهـا لأول مرة «الرجل المريض على البوسفور»[٥٩]. وفي معرض حديثه عن الدولة العثمانية قال القيصر:

«إن تركيا أشبه برجل يحتضر، وقد نسعى لابقائه على قيد الحياة، ولكن مسعانا لن يكلل بالنجاح، فسيموت، بل يجب أن يموت. وعندها ستسود لحظة حرجة»[٦٠].

وفي منـاسبة أخـرى أبلغ نيقـولا الزعمـاء البـريـطانيـين، وفي مقـدمتهم أبـردين، وزيـر الخـارجيـة، بـأنـه لا يـود الاستحـواذ عـلى القسطنطينية ولا يريد إعادة إحياء الامبراطورية البيزنطية «ولكن إذا ما انهارت الامبراطوريـة العثمانية من تلقاء نفسها... فإني (القيصر) لن أسمح بسقوط القسـطنطينيـة بأيـدي فرنسـا أو انكلترا»[٦١].

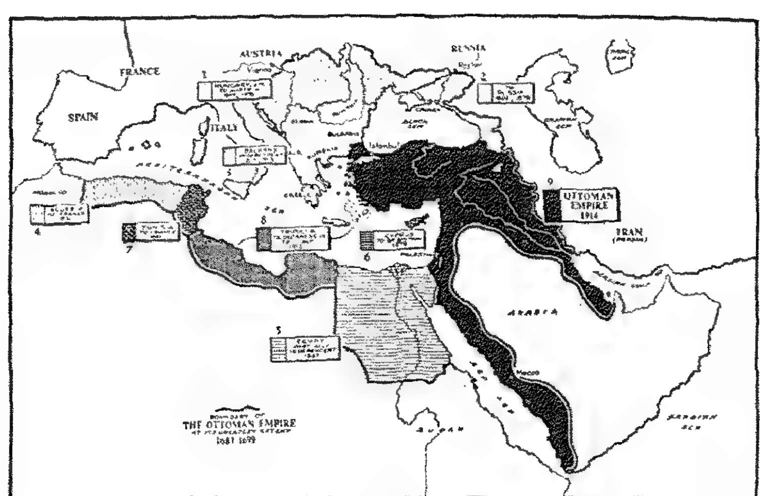
وتشير المصادر أن روسيا وبريطانيا توصلتا إلى اتفاق شفوي سـري بشأن تقسيم الدولة العثمانية في حال انهيارها، وبإخراج فرنسا من تلك الصفقة. ويعرف هذا الاتفاق أيضاً باسم «مـذكرة نسلرود» (Nesselrode Memorandum of 1844)، حيث أن تفاصيل تقسيم الدولة العثمانية من وجهة النظر الروسية كانت قـد تضمنتهـا مراسـلات نسلرود مـع المسـؤولين البريطانيين. ويمكن تلخيص هذا الاتفاق ببندين اثنين هما:

«١ ــ المحافظة عـلى الدولة العثمانيـة في حالتها الحـاضرة في ذلك الوقت (وهي حـالة صعبة، ولكنها ليست صعبة جداً إذا ما طبقت إصلاحات داخلية).

٢ ــ التـوصل إلى تفـاهم تمهيـدي عـلى تفاصيل التقسيم إذا ما تبين في المستقبل أنه لا يمكن المحافظة على تركيا ــ «إذا ما رأينا أنه ينبغي لها أن تتجزأ»[٦٢].

وقد أخطأ ماركس عندما توقع بأن تتورط بريطانيا نتيجة الاتفاقية في صراع مميت مع فرنسا، بينما تحصل روسيا على حرية تنفيـذ سيـاستهـا تجـاه الدولة العـثمـانيـة[٦٣]. فاتفاقية ١٨٤٤ لم تكن أكثر من تجميد مؤقت للخلافات والتناقضات الروسية البريطانية فيما يتعلق بمصير الدولة العثمانية. فبعد تسع سنوات على الاتفاقية كانت بريطانيا تخوض حرب القرم ضد روسيا مدعومة من فرنسا. أما أسباب هذا التحول في المواقف، فمرده إلى أن الاتفاقية كانت شفهية مما جعلها عرضة للتفسيرات المتناقضة.

الاستمرار ترضي الطرفين كانت إحدى الأسباب الرئيسية لاندلاع حرب القرم عام ١٨٥٣. ففي ذلك العالم اعتبرت روسيا أن الدولة العثمانية قد وصلت إلى درجة كبيرة من الاعياء وحان وقت تقسيمها، في حين كانت بريطانيا لا ترى أن الأمر قد وصل إلى هذا الحد وبالتالي لا يمكن التفكير الآن في عملية التجزئة(٦٤).



□ خريطة تبين تراجع نفوذ الدولة العثمانية ما بين ١٦٩٩ ــ ١٩١٤

فبندا الاتفاقية أعلاه كانا في الواقع رفضاً أدبياً بريطانياً لسياسة القيصر نيقولا الداعية لتقسيم فوري لممتلكات الدولة العثمانية، وهذا ما لم يدركه القيصر. فبريطانيا كانت ترى أن الدولة العثمانية قد أعياها الضعف، لكنها لم تقطع الأمل في إعطائها دفعة من الصحة والعافية من خلال إصلاحات داخلية. ومع ذلك شاركت بريطانيا روسيا بضرورة التشاور والتفاهم حول تجزئة الدولة العثمانية فيما لو تبين أن الامبراطورية العثمانية سارية لا محالة في طريق الزوال. أما القيصر نيقولا فاعتبر أن الاتفاقية ألزمت بريطانيا بضرورة التعاون معه في سبيل تقسيم الدولة العثمانية. ولعل عدم وضع تحديدات دقيقة لمعايير الضعف والانهيار العثماني أو العافية والقدرة على

ويبدو أن القيصر نيقولا أدرك أن الدول الأوروبية التي اتصل بها لم تأخذ مقترحاته بشأن تقسيم الدولة العثمانية على محمل الجد، فصرح منذراً تلك الدول:

«إذا كنتم (الدول الأوروبية) لا تستطيعوا أن تقرروا التحالف معي في هذا المسألة (تجزئة الدولة العثمانية)، فإني مصمم على التصرف منفرداً»(٦٥).

وبعد تسع سنوات على زيارته للندن بدأ القيصر نيقولا ينفذ إنذاره، بعدما يئس من موقف بريطانيا التقليدي تجاه الدولة العثمانية، وبعدما ظهر نابوليون الثالث على الساحة الدولية منافساً يريد إحياء أمجاد نابوليون بونابرت. ففي ١٨٥٣ اشتعلت حرب القرم واستمرت حتى عام ١٨٥٦، وهذا ما سنبحثه في الحلقة الثالثة من هذه الدراسة.

المراجع

(١) T.G. Djuwara: Cent Projets de Partage de La Turquie (1281 — 1913) Paris 1914, pp. 3 — 4.

(٢) عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج ٢، القاهرة ١٩٨٠، ص ٨٣٠ ــ ٨٣٤.

(٣) يقصد بـ «التجانس الأوروبي»، أو «التضافر الأوروبي» أساليب وطرق التشاور والتعاون بين القوى العظمى بهدف فض ومناهضة النزاعات والأزمات الدولية ولأجل إنهاء الحروب ومنع حدوثها. وليس هناك تأكيد متى استعمل هذا الاصطلاح لأول مرة في اللغة الدبلوماسية، لكنه بدأ يظهر باستمرار منذ صلح أوترخت عام ١٧١٣. انظر:

— Winfried Baumgart. Vom Europaeischen Konzert zum Voelkerbund. Friedenssicherung von Wien bis Versailles, Darmstadt 1974, p. 1.

هـ. أ. ل. فشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩ ــ ١٩٥٠)، الطبعة السادسة، تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، القاهرة، د.ت. ص ١١٨ ــ ١٢٠.

(٤) خيرية قاسمية: روسية القيصرية والمشرق العربي، في «دراسات تاريخية»، عدد ٩ و ١٠، جامعة دمشق، تشرين أول ١٩٨٢، ص ٤٢.

(٥) عن الامبريالية الفرنسية في الشرق حتى ١٨٣٣، انظر:

— Vernon John Puryear: France and the Levant. From the Bourbon Restoration to the Peace of Kutiah, 1. ed. 1941, reprinted California 1968.

عن تطور السياسة الفرنسية الدينية والسياسية والاقتصادية حتى نهاية القرن الماضي راجع:

— Noel Verney et George Dambann: Les Puissances étrangerès dans les Levant en Syrie et en Palestine, Paris 1900.

حول مشاركة فرنسا في المشاريع التقسيمية للدولة العثمانية، انظر:

— Djuwara: Cent prohects, op. cit.

(٦) انظر الاتصالات الدبلوماسية التي اجراها اللورد ساليزبوري مع هاتسفلدت، السفير الالماني في لندن، في الفترة من تموز حتى تشرين اول ١٨٩٥ في:

— E.T.S. Dugdale: German Diplomatic Documents 1871 — 1914, in four Volumes, Vol. II, from Bismarck's Fall to 1898, Cap. XXIII, pp. 327 — 347; Gebhardt: Handbuch der deutschen Geschichte, edited by Herbert Grundmann, Vol. III, Stuttgart 1973, p. 337.

(٧) عبدالعزيز الشناوي، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٣٢ ــ ٢٣٥.

(٨) Gebhardt, op. cit. Vol. III, p. 359f.

(٩) Abdel — Raouf Sinno: Deutsche Interessen in Syrien und Palaestina. 1841 — 1898. Aktivitaeten religioeser Institutionen, wirtschaftliche und politische Einfluesse, West Berlin 1982, pp. 295 — 298.

(١٠) M.S, Anderson: The Eastern Question 1774 — 1923. A Study in International Relations, N.Y. 1966, pp. 287 — 291.

(١١) Edward S. Creasy: History of the Ottoman Turks, 1. ed. London 1878, reprinted Beirut 1961, pp. 372 — 375; Djuwara, pp. 269 — 271.

(١٢) Djuwara, p. 279; Albert Sorel: La question d'Orient au XVIII[E] siècle, le partage de la Pologne et le traité de Kainardji, Paris 1889, p. 165.

(١٣) Sorel, op. cit. 166.

(١٤) انظر الحلقة السابقة من الدراسة في مجلة «تاريخ العرب والعالم» العددان ٧٣/٧٤، ص ٤٨.

(١٥) W. Eton: A Survey of the Turkish Empire, 2. ed. London 1972, pp. 431 — 432.

(١٦) المرجع السابق، ص ٤٣٢ وما بعد.

(١٧) Djuwara, op. cit., p. 279.

(١٨) Anderson, op. cit., p. 8.

(١٩) Norman E. Saul: Russia and the Meditterranean 1797 — 1807, Chicago / London 1970, p. 11.

(٢٠) Édouard Driault: La question d'Orient depuis ses origines jusqu'a la paix de sèvres (1920), Paris 1921, p. 56.

(٢١) Edmond Rabbath: La question d'Orient sous l'Empire Ottomane 1789 — 1919, 1. ed. s.d. Beyrouth, p. 21; Driault, p. 56f.; Djuwara 298ff.

(٢٢) Djuwara p. 300f.; Anderson p. 9.

(٢٣) Driault, p. 57.

(٢٤) المرجع السابق، ص ٥٧.

(٢٥) Rabbath, p. 21; Djuwara 302f.

(٢٦) Saul, op. cit., p. 13f.

(٢٧) Anderson, p. 9.

ويذكر أيتون وينقل عنه كريزي وسول أن مشروعاً روسياً آخر لتقسيم الدولة العثمانية تعطل بسبب وفاة الامبراطورة كاترين الثانية عام ١٧٩٦،

— Eton, p. 465; Creasy, p. 445; Saul, p. 15.

(٢٨) Bernard Lewis: The Emergence of Modern Turkey, 2. ed. London / Oxford / N.Y. 1968, p. 65.

(٢٩) Driault, p. 77f., 92f.

(٣٠) الشناوي، ج ١، ص ٢١٥ ــ ٢١٦.

(٣١) Creasy, p. 486; Diuwara, p. 347.

(٣٢) عندما طرحت مسألة استحواذ روسيا للقسطنطينية رفضها نابوليون رفضاً قاطعا وقال:

— «Constantinople! Constantinople! never! for it is the Empire of the World», نقلاً عن:

William Miller: The Ottoman Empire and its Successors 1801 — 1927, London 1934, p. 39;

وقارن ايضا:

— Carl Ritter von Sax: Geschichte des Machtverfalls der Tuerkei bis Ende des 19. Jahrhunderts und die phasen der «orientalischen Frage» bis auf die Gegenwart, Wien 1908, p. 165.

(٣٣) Creasy, p. 486.

(٣٤) Djuwara, p. 363.

(٣٥) Driault, p. 93.

(٣٦) Creasy, p. 486.

(٣٧) Djuwara, p. 362; Creasy, p. 486.

(٣٨) Rabbath, p. 47; Djuwara, p. 363.

(٣٩) راجع الحلقة السابقة في مجلة «تاريخ العرب والعالم» العددان ٧٣/٧٤، ص ٤٨.

(٤٠) Sax, p. 196.

(٤١) J. Hajjar L'Europe et les destinées du Proche — Orient (1815 — 1848) Tournai 1970, p. 76.

(٤٢) Djuwara, p. 388 — 89.

(٤٣) Hajjar, op.cit., p. 76.

(٤٤) بيير نوفان: تاريخ العلاقات الدولية (القرن التاسع عشر ١٨١٥ ـــ ١٩١٤)، تعريب جلال يحيى، القاهرة ١٩٨٠، ص ١١٩ ـــ ١٢٠.

(٤٥) Vernon John Puryear: France and the Levant. From the Bourbon Restoration to the Peace of Kutiah, 1. ed. 1941, reprinted California 1968, p. 76f.; Driault, pp. 130f.

(٤٦) Puryear, op. cit., p. 77.

(٤٧) بيير نوفان، تعريب جلال يحيى، ص ١٢٠ ـــ ١٢١.

— Djuwara, p. 380.

(٤٨) Djuwara, p. 380.

(٤٩) Puryear, p. 77; Driault, p. 131f.

(٥٠) نوفان، ص ١٢١.

(٥١) Handbuch der Europaeischen Geschichte, edited by Theoder Schieder Vol. V, Europa von der Franzoesischen Revolution zu den Nationalstaatlichen Bewegungen des 19. Jahrhunderts, Stuttgart 1981, p. 666f.

أ.ج. جرانت وهارولد تمبرلي: أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ١٧٨٩ ـــ ١٩٥٠، ج ١، ترجمة بهاء فهمي، القاهرة،د.ت.،ص ٤٠٦ ـــ ٤٠٧.

(٥٢) Vernon John Puryear: England, Russia, and the Straits Question 1844 — 1856, 1. ed. 1931, reprinted Hamden / Connecticut 1965, pp. 8 — 12.

وانظر ايضا جرانت تمبرلي، المرجع السابق، ج ١، ص ٤٠٧.

(٥٣) Puryear, England, Russia, op. cit. p. 12f.

(٥٤) انظر جرانت تمبرلي، ص ٤٠٧.

— HB, Vol. V, p. 667.

(٥٥) Puryear, England, Russia, op. cit., p. 15f.

(٥٦) انظر الحلقة الأولى من الدراسة في مجلة «تاريخ العرب والعالم»، العددان ٧٣/٧٤، ص ٤٨.

(٥٧) HB, Vol. V. p. 669.

(٥٨) Puryear, England, Russia, p. 37.

(٥٩) Charles Swallow: The Sick Man of Europe. Ottoman Empire to Turkish Republic 1789 — 1923, London 1923.

الشناوي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٨٣٠.

(٦٠) Puryear, England, Russia, p. 46.

(٦١) المرجع السابق، ص ٤٨ ـــ ٤٩.

(٦٢) المرجع السابق، ص ٥١، ٦٢ ـــ ٦٥.

(٦٣) Karl Marx: The Eastern Question. A Preprint of Letters written 1853 — 1856 dealing with the Events of Crimean War, London 1969, p. 288.

(٦٤) Puryear, England, Russia, p. 53.

(٦٥) المرجع السابق، ص ٣٩.

أهمية روافد العلم في الحياة الثقافية لمدينة طرابلس

د. أنيس مصطفى الأبيض

قبل الحديث عن أهمية روافد العلم في الحياة الثقافية لمدينة طرابلس خلال القرن التاسع عشر لا بد من القاء نظرة على التعليم قبل عصر التنظيمات العثمانية، فلقد كان التعليم قبل عصر التنظيمات تعليماً دينياً، يبدأ في المنزل على يد مرب أو شيخ ويتعلم التلميذ فيه ترتيل أجزاء من القرآن الكريم، اما مبادىء الحساب فكان يتعلمها من قباني القرية، كما كان تعلم القراءة والكتابة هو الحد الأقصى للتعليم في القرى.

اما في المدن فكان التلاميذ يتلقون العلم في المساجد، وكانت مادة التدريس الأساسية هي حفظ القرآن وتلاوته، وكثيراً ما استعملت مساجد القرى كمدارس، ولم تكن الحكومة تنفق على المدرسين أو على أبنية المدارس، بل كانت المدارس تدين بوجودها إلى تبرعات المحسنين الذين أنشأوها وحبسوا عليها الأوقاف الكافية.

اما في عصر التنظيمات، فقد شهدت ولاية سورية تطوراً فكرياً وثقافياً سريعاً إذا ما قارناه بتطور الثقافة والتعليم في العهد العثماني الأول، وقد مهدت الإدارة المصرية (١٨٣١ ــ ١٨٤٠م) لهذا التطور، وذلك بفضل المدارس الابتدائية التي أنشأها إبراهيم باشا في سورية وتطبيقه برنامجاً واسعاً للتعليم الابتدائي على نمط النظام الذي جرى تطبيقه في مصر.

وعلى هذا فان الحديث عن الروافد العلمية في طرابلس طيلة القرن التاسع عشر، يتطلب الوقوف على أماكن التعليم فيها ومعرفة الطريقة التعليمية التي كانت سائدة في ذلك العصر، حيث لم تكن هناك مدارس منتظمة، بل اقتصرت أماكن المعرفة والثقافة على المساجد والكتاتيب وبعض حلقات التعليم في البيوت يقوم بها المشايخ والعلماء. ولا يخامرنا شك بأن هذه الروافد العلمية قد افسحت المجال لبروز طائفة من العلماء والأعلام النابغين الذين لا يُمارى في اقدارهم ممار.

لقد ولدت هذه الروافد العلمية عند أبناء الفيحاء نزعاً إلى العلم والأدب والدين، فلقد حفلت حواضر سوريا ومصر بنماذج طليعية من حملة مشعل الفكر الطرابلسي النهضوي من أمثال حسين الجسر[١] ورشيد رضا[٢] وفرح انطون[٣] ونوفل نوفل[٤] ومحمود نشابه[٥] ومن إليهم من المتنورين الأفذاذ الذين أكثروا من الكتابة والتاليف في مختلف المباحث الدينية واللغوية والتاريخية والسياسية والاجتماعية والعسكرية، وكان لهم على تلافيف أدمغة من طلعوا بعد بصمات لا تمحى

خلال القرن التاسع عشر

المدارس والكتاتيب

يمكن القول أنه حتى منتصف القرن التاسع عشر لم يكن يوجد في طرابلس مدرسة بالمعنى الذي نفهمه الآن، تلقن فيها اللغات والعلوم والرياضيات والفلسفة، معلمون مختصون في مباحث معينة وكتب معلومة مخصوصة ووفق برامج مقررة، فقبل ذلك وفي أثنائها كانت المساجد والكتاتيب نفسها مكاناً رحباً لتلقين القرآن والحديث وبقية العلوم الدينية والعربية وخاصة الجامع المنصوري الكبير[٦]، الذي أحاطته مجموعة من المدارس القديمة، كان جل همها ينحصر في تدريس العلوم الدينية واللسانية ولا يقل عددها عن ست[٧]. وتعتبر المدرسة القرطائية[٨] أهمها على الاطلاق ومدرسة الناصر قلاوون[٩] ومدرسة الخيرية[١٠] حسن والمدرسة الطويشية[١١] التي يبرز بها البناء المملوكي والرفاعية والزريفية التي هي أقدم مدارس طرابلس.

أما مواضيع تلك الحلقات التي كانت تعقد في المساجد، فتناولت في بداية القرن الدروس الدينية

من حديث وتفسير وسيرة وقراءة وتجويد، في حين شملت تلك الدروس في منتصف القرن ونهايته المواضيع اللغوية والعقلية من فلسفة ومنطق وعلم الكلام، بدليل ما أخبرنا به الإمام رشيد رضا بأنه «قد تخرج في العلوم العقلية على يد الشيخ حسين الجسر الذي كان له المام واسع بالعلوم العصرية، يكتب وينظم في كل موضوع بعبارة سهلة، وكان له أسلوب خاص في التعليم يتحرى فيه السهولة في البيان»[١٥].

أما الطلاب فإنهم كانوا يفدون إلى المدارس في سن مبكرة. وكانت الدراسة فيها ابتدائية تعقبها مرحلة متقدمة من الدراسة يتلقى فيها الطالب على الشيخ دروساً في فروع معينة من الفقه، وكانت هذه الدراسة تتم في حلقات دينية وتتناول العربية وعلومها والفقه والمنطق ومبادىء الرياضيات والتصوف وعلم الحديث[١٦].

ومما يؤكد ذلك ما ذكره الإمام رشيد رضا، بأنه قد أدخل المدرسة الرشدية في مدينة طرابلس وهي مدرسة ابتدائية للدولة، يدرس فيها الصرف والنحو والحساب ومبادىء الجغرافيا وعلم الحال والعقائد والعبادات «ثم دخلت المدرسة الوطنية الإسلامية وهي أرقى من المدرسة الرشدية وجميع التعليم فيها باللغة العربية إلا اللغتين التركية والفرنسية، وتدرس فيها العلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية»[١٧]. وكذلك فيما يرويه الشيخ محمد سامي صادق[١٨] بأنه بعد أن تعلم القراءة والكتابة ومبادىء العلوم دخل المدرسة الشمسية[١٩] فتلقى فيها العلوم العربية والشرعية والعلوم العقلية المنطق وعلم الكلام والمقولات العشر مدة تزيد على عشر سنين[٢٠].

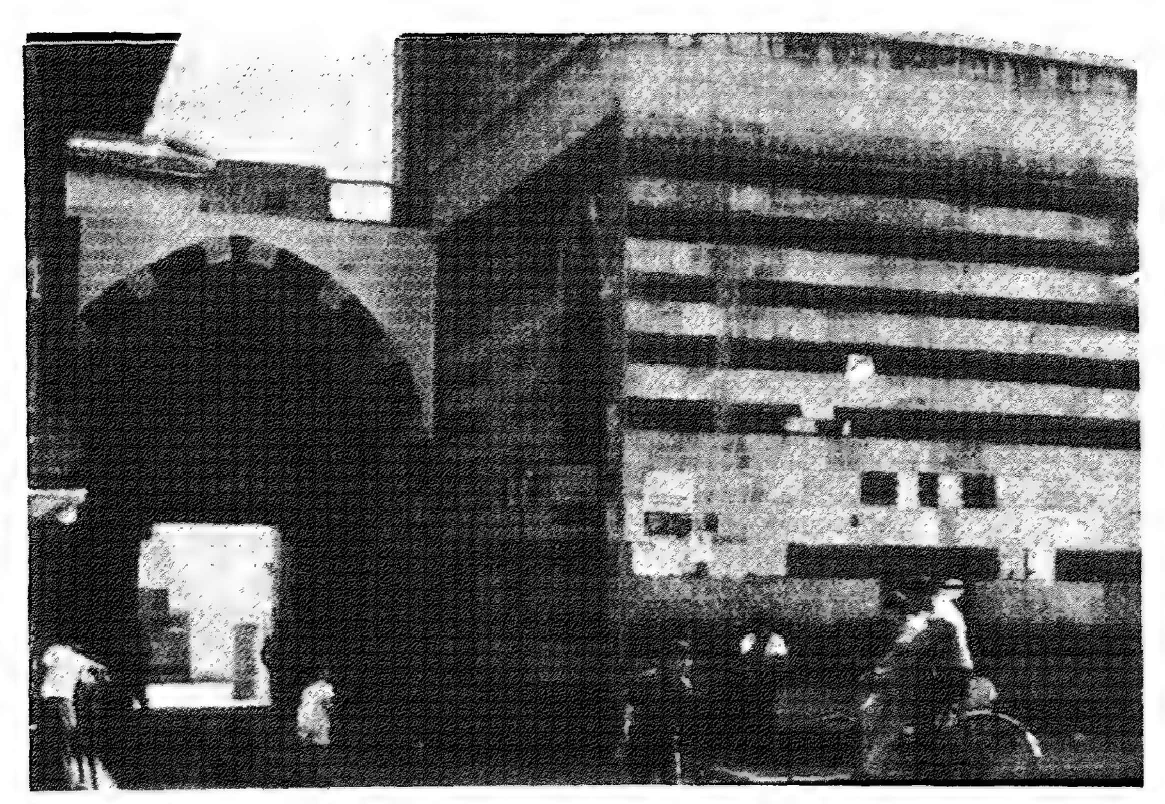
وفيما أفادتنا فيه سجلات المحكمة الشرعية لمدينة طرابلس بأنه كانت لهذه المدرسة أهميتها، بحيث أنها كانت مركزاً تعليمياً توجه فيه حجج التعليم لمشايخ المدينة وعلمائها للقيام بمهمة التدريس كما حدث للشيخ عبدالقادر مغربي[٢١] الذي أنيطت به وظيفتي التدريس والإمامة في المدرسة المرقومة وذلك لنفع المسلمين[٢٢].

أما **نظام التدريس** فلم يكن يخضع لامتحان أو شهادة، بل يعطى الطلاب بعد انتهاء دروسهم إجازة يمنحها الشيخ تلميذه فيصبح أهلاً للتعليم[٢٣]. وكثيرا ما كان الطالب يأخذ علومه على أكثر من شيخ، فالشيخ حسين الجسر كان استاذا للسيد رشيد رضا في العلوم العربية والشرعية العقلية[٢٤] في حين أجازه الشيخ محمود نشابه في علم الحديث وفقه الشافعية[٢٥]، أما الشيخ عبدالغني الرافعي[٢٦] فكان أستاذه في العلم والأدب والتصوف[٢٧] أما الأحاديث المسلسلة فقد تلقاها على يد الشيخ محمد القاوقجي[٢٨].

على أنه يجب أن نشير ومن خلال تراجم أبناء المدينة أن النشاط التعليمي كان محله في المقام الأول المساجد والكتاتيب، وحين الانتهاء من هذه الدروس كان بعض الذين يأخذون العلم في هذه المساجد والمدارس يتوجهون شطر مصر للمتابعة والتحصيل، فيدخلون الجامع الأزهر الذي كان له أكبر الأثر في نشر العلوم العربية من صرف ونحو وبلاغة ومنطق في جميع البلاد الإسلامية وخاصة طرابلس لتخرج عدد من علمائها في الجامع المذكور. ومما يؤكد هذا الكلام ما جاء في كتاب «نعمة البشام في رحلة الشام»[٢٩] حيث جاء قول المؤلف «ثم عزمنا على السفر إلى طرابلس الشام للتفسح وزيارة إخواننا الطرابلسيين الذين كنا نعرفهم في مدة المجاورة في الأزهر[٣٠].

ويورد مؤلف الكتاب أسماء نفر من هؤلاء الطرابلسيين كالشيخ عبدالغني الرافعي والشيخ عبدالقادر الرافعي[٣١] والشيخ حسين الجسر والشيخ محمود نشابه والشيخ علي الميقاتي[٣٢] ولعل أكثر هؤلاء الشيوخ نشاطاً وتدريساً في تلك الفترة هو الشيخ نجيب الزعبي الجيلاني[٣٣] الذي طبقت شهرته الأنحاء فوفد إليه الطلاب من كل صوب ينهلون من معين علمه[٣٤]. لقد انحصر النشاط التدريسي عهد ذاك في تلك المدارس والجوامع على أيدي مشايخ المدينة وعلمائها، كما انه كان لهؤلاء المشايخ المقام الرفيع من احترام الناس وتجلتهم[٣٥] ولكن هل توفر للمدينة في ذلك الوقت مدارس بالمعنى الذي نفهمه اليوم وبأي طريقة تلقى الطرابلسيون مبادىء العلوم؟

يمكن القول من خلال الحجج التعليمية التي حصلت عليها من سجلات المحكمة الشرعية لمدينة طرابلس أن المدينة شهدت في تلك الحقبة



□ المدرسة الاثرية وبوابة الجامع المنصوري الكبير.

إقبالا على العلوم من خلال ملفات التعليم التي كانت تعقد في أكثر مساجد المدينة ومدارسها وكتاتيبها، كما وان هذه المدارس والكتاتيب نشأت وازدهرت بريع الوقف الخاص أو باحسان المحسنين وان الدولة العثمانية من خلال ولاتها تكتفي فقط بتوجيه مناصب التعليم على نفر من العلماء، وحسبنا في الحجج التعليمية برهانا على نشطة العلم فيها[٣٦].

فهذا جامع العطار[٣٧] يشهد حلقات واسعة لطلاب العلم على يد الشيخ محمود منقاره[٣٨] وكذلك جامع طينال الذي وجهت حجة التدريس[٣٩] فيه على الشيخ حسيب الجسر، زد على ذلك ما زودتنا به تلك الحجج بأسماء المدارس التي كانت توجه فيها مهمة التدريس كمدرسة القادرية[٤٠] التي كلف بالتدريس فيها الشيخ عبدالمجيد المغربي[٤١] ومدرسة الدبها[٤٢] التي أنيط التدريس فيها للشيخ محمود الحسيني[٤٣] والمدرسة الرجيبية التي اختصت في تدريس العلوم الدينية من فقه وتفسير ومنطق ولغة عربية[٤٤]. واتخذ الشيخ عبدالكريم عويضة[٤٥] المدرسة الخاتونية مقراً للتدريس وإعطاء الطلاب ألوان العلوم العقلية والنقلية وكان عدد طلابه يربو على الستين طالبا[٤٦].

وفي سياق ترجمته لقريبه نقولا نوفل[٤٧] ذكر مؤلف كتاب تراجم علماء طرابلس أن قريبه تعلم في كتاتيب طرابلس، وما الكتاب يومئذ إلا غرفة صغيرة تكتظ بالطلبة وعليهم معلم جاهل مركب، فيقرأون عليه حروف الهجاء ويتدرجون في القراءة الركيكة حتى المزامير والبارع منهم يتعلم قراءة الانجيل وهذا كان منتهى ما يبلغ إليه سواء المتعلمين من العلم أو يظل أكثرهم أميا، على أن الأذكياء ينصرفون لقراءة ما تصل إليه ايديهم من الكتب أو الدخول في حلقات العلم التي يعقدها بعض الأعلام[٤٨]. وكان لنصارى المدينة بعض هذه الكتاتيب والمدارس التي تعني بتلقين الصبية مبادىء القراءة والكتابة والحساب وأصول الدين المسيحي، ولعل أهم تلك المدارس بروزاً تلك التي انشئت قبل عام ١٨٥٠م، وكانت تعلم الصرف والنحو والمعاني والبيان

والمنطق[٤٩]. كما انه كان للمسلمين مثل هذا النوع من الكتاتيب أو المدارس الذي كان منتشراً في جميع أنحاء المدينة، فيقرأ المعلم في كتابه والتلاميذ يتبعونه في كتبهم ويستمعون إلى شروحه، حتى إذا حان وقت الصلاة أدوها في هذه المدرسة جماعة، إذ بنيت هذه أصلاً لهذا الغرض، وكما أنه لم يكن هناك من نظام لهذه الدروس، إذ كان يحضرها من التلاميذ ويتغيب عنها من يشاء وساعة يشاء، وكان المعلم عندما ينتهي من تدريس فرع من الفروع الدينية أو العربية ينتقل إلى فرع آخر بعد أن يكتب لكل طالب حضر عنده تدريس هذه المادة شهادة مذيلة بإمضائه[٥٠].

إلا أن حلقات التدريس التي كان يعقدها بعض الشيوخ في مساجد طرابلس المخصصة للصلاة كانت تقوم على نطاق واسع من تلك الكتاتيب، إذ كان الناس يتحلقون كل جماعة حول معلم معين يلقنهم العلم الذي اشتهر به، فهذا معلم للتفسير وذاك للفقه وثالث للحديث ورابع للعلوم العربية كالصرف والنحو والمنطق.

وهكذا تابعت طرابلس مسيرتها العلمية تلقن عددا كبيرا من أبنائها مبادىء العلم الأولى، فتحثهم قبل كل شيء على القيام بالشعائر الدينية التي من أجلها أنشىء مثل هذه المدارس، ثم تهيء للمتفوقين منهم سبل السفر إلى الخارج واستكمال تحصيل العلوم المختلفة[٥١].

ويتوافق هذا النشاط العلمي الذي كان مرجعه الجوامع والكتاتيب مع ظاهرة انتشار المكاتب التعليمية في أحياء عدة من المدينة يشرف عليها أساتذة من ذوي الاختصاص، وهذه المكاتب نصف رسمية إذ للدولة العثمانية حق الرقابة عليها من ناحية المناهج، أما شهاداتها فمقبولة في وظائف الدولة وفي دخول المدارس السلطانية[٥٢].

ويمكن إيراد أسماء بعض هذه المكاتب:

☐ **مكتب محلة النوري** ومديره الشيخ عمر أفندي وعدد طلابه خمسون طالباً.

☐ **مكتب الحدادين** ومديره الشيخ محمد أفندي وعدد طلابه ستون طالباً.

☐ **مكتب محلة الطرطوسي** ومديره الشيخ عبدالقادر أفندي وعدد طلابه ستون طالباً.

☐ **مكتب العطار** ومديره الشيخ مصطفى أفندي وعدد طلابه ثمانية وأربعون طالباً.

☐ **مكتب باب التبانة** ومديره الشيخ علي أفندي وعدد طلابه ستون طالباً.

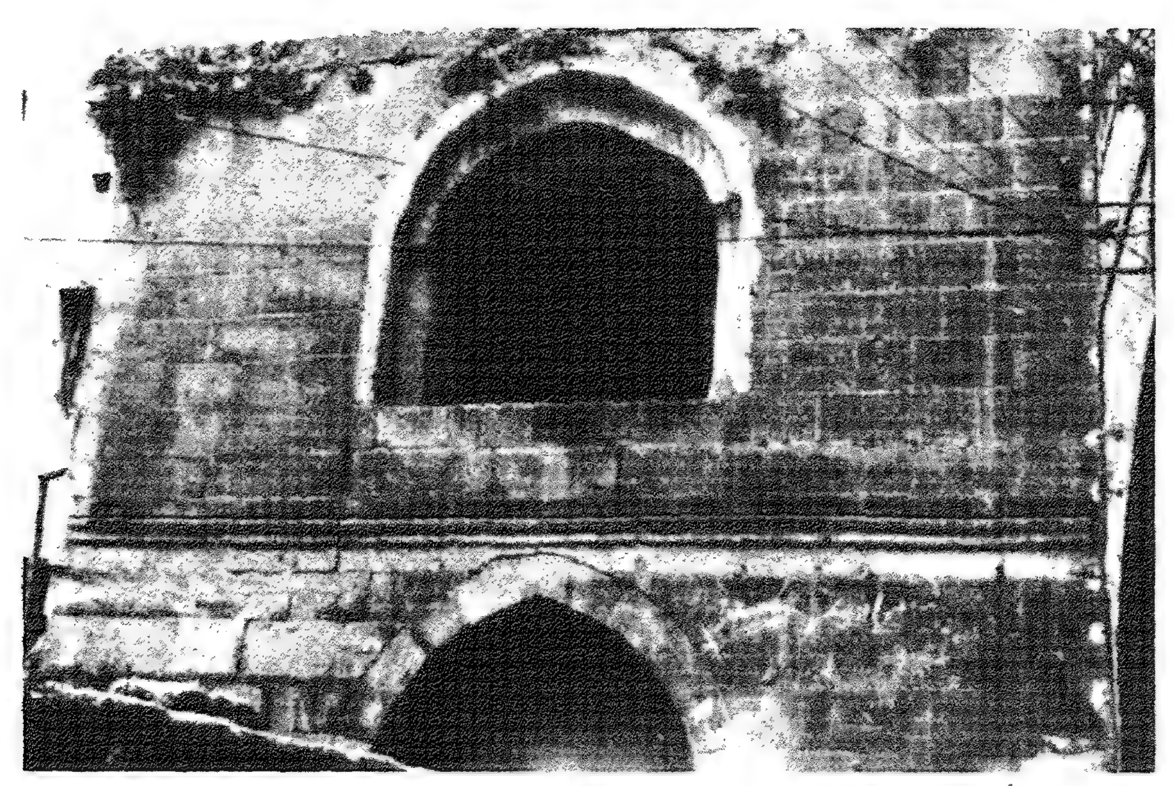
☐ **مدرسة الأناث** وعدد طلابها سبعون طالباً[٥٣].

أما المواد التي كانت تدرس في تلك المكاتب فهي اللغة العربية والتركية والحساب وحفظ القرآن والاجتماعيات[٥٤].

وعلى هذا بدت طرابلس بمدارسها التي ارتفعت في العام ١٣١٢هـ إلى ثلاث وعشرين مدرسة بلد العلم والعلماء وان السلطان العثماني عبدالحميد الثاني كان معجباً أشد الاعجاب بهذه المدينة الاسلامية التي رفعت الاسلام عاليا بما تركه علماؤها من كتب ومصنفات قيمة[٥٥].

الارساليات الأجنبية وأثرها في الحياة الثقافية الاسلامية

إلى جانب هذه المدارس والمكاتب والكتاتيب شهدت المدينة توافد الارساليات الأجنبية من كاثوليكية وبروتستانتية وأرثوذكسية. ففي العام ١٨٦٣ حضرت إلى طرابلس الدفعة الأولى لراهبات المحبة[٥٦]. وبعد ثلاث وعشرين سنة في سنة ١٨٨٦ ألقى اخوة المدارس المسيحية عصا الترحال في طرابلس فاستأجروا دير الآباء الكبوشيين[٥٧]. وإلى جانب الرهبنات الكاثوليكية برز على الساحة الطرابلسية المرسلون الأميركيون البروتستانت. وقد ورد في كتاب «Fifty Three Years in Syria» أن أبا سليم وهو معلم للعربية في ميناء طرابلس لقن القس كلهون العربية ١٨٤١[٥٨]. وبعد ذلك بخمس عشرة سنة استأجر المرسلون بيتا مؤلفا من غرفتين في الطبقة السفلى وأخريين من الطبقة العليا. وفي العام ١٨٧٦م تم بناء مدرسة الأناث في حي النوري. وكانت البعثة الروسية آخر الوافدين إذ أنهم حلوا في سوريا ولبنان وفلسطين في العقد الثامن من القرن التاسع عشر ونالت طرابلس نصيبها منهم بأربع مدارس توزعت بين البلدة والميناء إثنتين للذكور وأخريين للاناث[٥٩]. وقد أشرفت على هذه المدارس الروسية جميعا الجمعية الامبراطورية الأرثوذكية الفلسطينية[٦٠]



□ المدرسة الظاهرية.

وقد ساهمت في نشر اللغة الروسية إلى جانب المواد العلمية الأخرى.

أما عن مجيىء اللعازاريين، فتشير سجلاتهم إلى أنه ما إن ألغيت الرهبنة اليسوعية حتى صدرت الأوامر للآباء اللعازاريين ليحلوا محلهم في الشرق ومن عجب ألا يعمل الآباء اللعازاريون على إنشاء مدرسة إلى جانب الرهبنات اللاتينية الأخرى في هذا المحيط الطرابلسي، وإنما تركزت أعمالهم على خدمة بعض الأوروبيين المجاورين للكنيسة، ونفر قليل من المسيحيين المحليين. والواقع أن هذه الارساليات لم تباشر عملها التعليمي بشكل رسمي إلا في منتصف القرن التاسع عشر وهو التاريخ الذي يمثل المرحلة الثانية من الحياة الثقافية الطرابلسية في ذلك الوقت، إذ اقتصرت أعمال تلك البعثات في بداية القرن على الشأن التبشيري بين نصارى البلدة والاهتمام الروحي بالمقيمين الأجانب من الرعايا اللاتين. وكانت حصيلة أعمال هؤلاء المرسلين عبر مؤسساتهم التعليمية نشر اللغات العربية والفرنسية والانجليزية والايطالية والروسية بين نفر غير قليل من أبناء الفيحاء واطلاعهم على ما في الغرب من حركات علمية وأدبية وفكرية وسياسية تأثر بها المتخرجون أشد التأثر.

أما عن تأثير الارساليات الأجنبية في الحياة الثقافية الاسلامية في طرابلس وما مدى تأثر الخريجين بالروافد العلمية والثقافية والفكرية والسياسية الغربية فنود أن نشير إلى أن تأثير هذه الارساليات على مسلمي طرابلس ابان تلك الفترة غير ذي بال، فالمدارس الأجنبية كانت تؤسس بوجه خاص في القرى المسيحية والمدن التي يكثر فيها المسيحيون، فكانت تجذب وتجمع أطفال غير المسلمين بطبيعة الحال(٦١). ثم إن العرب المسلمين لم يؤسسوا مدارس خاصة بهم، بل ظلوا يرسلون أولادهم إلى المدارس الحكومية إذا أرادوا تعليمهم ولغة التعليم في المدارس الحكومية كانت اللغة التركية. وان هذه الحالة استمرت بعد انتهاء عهد التنظيمات وبدء عهد الدستور أيضاً(٦٢). ثم إن الذي يراجع أسماء المتخرجين من مدرسة فرير طرابلس ابتداء من سنة ١٨٨٦ حتى عام ١٩١٤، لا يجد بينهما

الا اسم عارف الرفاعي كطرابلسي مسلم، وأما الباقون فمسيحيون من عائلات زريق، كتسفليس، خولي، مبيض، بندلي، ملكي، نوفل، أضف إلى ذلك موقف السلطات الرسمية العثمانية من هذه المدارس وما كانت تثيره من العدائية في المسلمين الطرابلسيين ضد الأجانب، وهذا ما أشارت إليه سجلات الاخوة المسيحية الفرير من أن متصرف طرابلس عارف بك كان ذا موقف يتسم بمجافاة المدارس الأوروبية مما حمل أهل المدينة المسلمين على النفرة والحذر من كل ما هو أجنبي، ثم ان الامتيازات الأجنبية التي تمتع بها المرسلون الغربيون كانت تمنحهم حق إنشاء المدارس وبناء المستشفيات والمياتم والمعابد، ولكنها لم تكن تمنحهم حق جر الأطفال المسلمين إلى مدارسهم، كما جاءت امتيازات إنشاء المدارس بدعوى الاهتمام بالرعايا الأجانب والمسيحيين، لذلك اعتبر أي اختراق في فئات المسلمين تجاوزا في العرف العام وهذا أمر كان يجابه بسلبية ومقاطعة أبقتا مسلمي طرابلس محافظين لهم ريبه بكل غريب وجديد(٦٣).

النساخة في طرابلس

لقد انعدم وجود أي أثر للمطابع في طرابلس طيلة النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهذا ما يفسر ندرة وجود الكتب المطبوعة في المدينة آنذاك ورواج نساخة الكتب على أيدي أبناء المدينة الذين برز منهم العديد من النساخ ممن مارسوا هذه المهنة، فكان منهم العلماء والأدباء الذين نسخوا كتبا بخطوطهم.

ومما يدل على نشاط هذه الظاهرة الثقافية والعلمية إقبال الناس على تعلم الخط إذ كان يمثل جزء من ثقافة المدينة وبه الشهرة التامة، وما أكثر ما نقع في تراجم أعلام العصر على مثل هذه العبارة «كان صحيح الانشاء، نسخ كتبا بخطه، المشهور ببراعته في اللغة العربية وبخطه البديع»(٦٤).

فعائلة كرامه الطرابلسية أنجبت العديد من النساخ الذين توارثوا هذه المهنة فها هو مصطفى الشهير بابن كرامه ينسخ مخطوطة «الدرر المستحسنة في شرح منظومة ابن الشحنة»، أما عبدالحميد بن عبدالله كرامه فقد نسخ «حواشي على شرح الأزهرية»، وكذلك فعل محمد بن عبدالحميد كرامه الذي نسخ مخطوطة في «علم المنطق» في حين نسخ عبدالله بن عبداللطيف كرامه مخطوطة «التنوير في إسقاط التدبير»(٦٥).

ولم تكن هذه الظاهرة الثقافية محصورة في اسرة آل كرامه وإنما نرى رواجها عند سائر الأسر الطرابلسية. فالناسخ عبداللطيف ابن إبراهيم الملقب بسلطان نسخ العديد من المخطوطات لعل أبرزها مخطوطة دينية مؤلفة من «مئة مقالة» ومخطوطة «خلاصة القول المرعي في بيان الصاع والمد والمثقال والدرهم الشرعي» ومخطوطة دينية «مجلس في ختم البخاري على مؤلفه رحمة الباري»(٦٦).

كما ان انتشار النساخة في مدينة طرابلس، أصاب العلماء الذين كانوا ينسخون بعض مؤلفاتهم، كما فعل الحاج حسين منقارة الطرابلسي في نسخ مخطوطة «الشعري»(٦٧) والشيخ محمد كامل بن محمد في مخطوطة «مسائل حسان في رسالة موقد الأذهان»(٦٨).

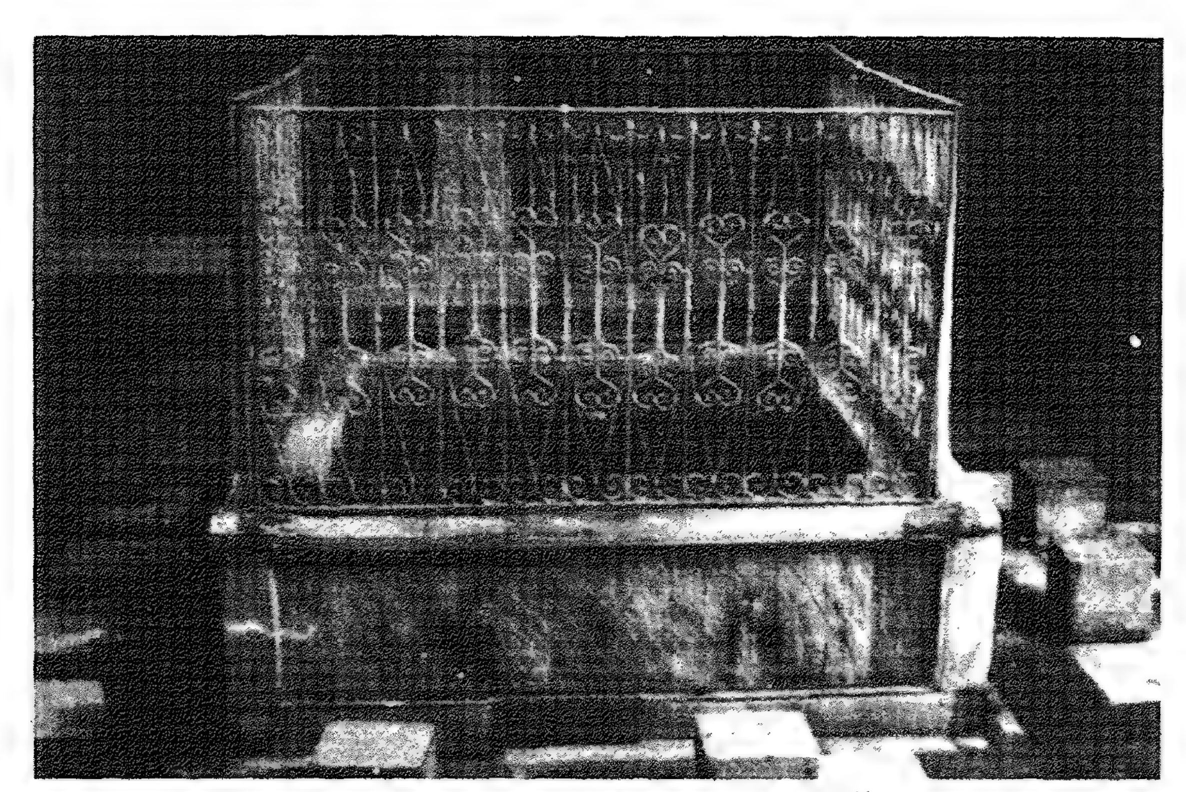
وفيما قام به عبدالقادر توفيق الشلبي المدرس الحنفي الطرابلسي في نساخة بعض الفتاوى(٦٩). وكذلك فيما نسخه الشيخ عبدالرحمن الصوفي في مخطوطة «رسالة في بيان حقيقة الاسلام والأعيان وفيما لا بد من معرفته لكل إنسان»(٧٠).

وفيما نسخه أيضا الشيخ محمد المؤذن الطرابلسي في مخطوطة «نظم متن النقابه لناظمه ذي الدراية»(٧١) ومخطوطة «البرقة الدهشية في الخرقة الصوفية»(٧٢) للشيخ محمد القاوقجي.

إن وجود وتوافر هذا العدد من النساخ من أبناء الفيحاء يفسر ظاهرة إنتشار الكتب والمخطوطات ويبيّن أهمية النساخة كاحدى الروافد العلمية المهمة في الحياة الثقافية للمدينة خلال القرن التاسع عشر.

الكتب والمكتبات

يمكن القول أن طرابلس عرفت بعض المكتبات الخاصة التي أدت خدمات جلى لأبناء المدينة في وقت قلت فيه روافد الارتواء من المعرفة والثقافة،



□ بركة الوضوء في مدرسة الدُّبُّها.

إلا في مسار ضيق لقلة من أبنائها الذين توفرت لهم سبل التزود من هـذه الكتب بحيث أنها اصبحت سبيلهم الوحيد للوقوف على ما أنتجته قرائح الأقدمين في علوم التاريخ والأدب والدين واللغة. صحيح أن طرابلس لم تعرف في القرن التاسع عشر تلك المكتبات العامة التي ترعاها الدولة وتنشطها، إلا أنهـا وفي فترات تاريخية سابقة شهدت رواج مكتباتها العامرة. ففي عصر الفاطميين وبني عمار عم المدينة ازدهار علمي لم تشهد نظيرا له في عصورها السابقة واللاحقة، وأصبحت بحق مركزا علميا حليلا يقصده طلاب المعرفة للدرس والتحصيل، فمكتبة بني عمار التي انشئت سنة ١٠٧٩م وعرفت بدار العلم كانت تضم من الكتب ما يتجاوز المائة ألف مجلد[٧٣]. وبقيت طرابلس تحتفظ بشهرتها العلمية في ظل الاحتلال الصليبـي وغدت مركزا علميا متقدما يفد إليه طلاب العلم من أوروبة لأخذه عـلى علمائها المسلمين والنصارى البلديين[٧٤].

ولقد ظلت المدينة أمينة لهذه الشهرة العلمية بفضل وجود نفر من أبنائها العلماء والأدباء حتى غدت بالفعل مدينة العلم والعلماء، ولولا هذه القلة من أبنائها التي كانت تنير من حين إلى حين زوايا المساجد والمدارس والبيوت والكتاتيب، لكان انقـطع من شريـط تاريخهـا العلمي والفكري ما اتصل طرفه ببني عمار ومكتبتهم الشهيرة وطرفه الآخر بالدور الرائد الذي قام به علماؤها في مطالع القرن التاسع عشر من عائلات الجسر ورضا ونوفل ويني والرافعي والمغربـي وصدقة وصـادق وكرامـه وغيرهم من أعـلام نهضتها الحديثة.

وأهم المكتبات الخاصة.

□ **مكتبـة الجامـع المنصوري الكبيـر** التي تحتوي على عـدد كبير من المؤلفات الدينيـة والتفاسير وكتب اللغة والفقه[٧٥].

□ **مكتبـة الشيـخ عبـدالفتـاح الزعبـي**[٧٦] وتحتوي على الكثير من التفاسير وكتب الحديث والكتب الدينية.

□ **مكتبة جورجي يني**[٧٧] وتقدر محتوياتها بخمسة آلاف مطبوعة موزعة ما بين المجـلات والآثار الشرقية والكتب ودوائر المعارف والمعاجم والمخطوطات، أما أهم محتوياتها فهي:

□ **المجلات**: المباحث، المقتطف، الهلال، الطبيب، الضياء، الآثار الشرقية، الجامعة، الجنان، الجوائب، حمص، الحوادث، المورد الصافي، لغة العرب.

□ **الكتب**: نفح الطيب، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، كتاب البلدان، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مروج الذهب، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، تاريخ الرسل والملوك، ذيل تاريخ دمشق، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تاريخ القسنطينية، الفهرست.

□ **المخطوطات**: تاريخ سوريا ثلاثون مجلداء، تاريخ أشور، تاريخ بابل، تاريخ فارس، معجم الأساطير، تاريخ الماسونية(٧٨).

□ **مكتبة حكمت شريف**: التي تضم العديد من الكتب وبعض مؤلفاته المطبوعة وغير المطبوعة فمن الكتب المطبوعة كتاب قصارى الهمم مختصر شرح لأمية العجم، سياحة في التيبت ومجاهل آسيا ــ تاريخ سيام ــ النفح الوردي في شرح لأمية ابن الوردي.

ومن المخطوطات تجاريب الحياة، آمال وآلام، شيء جديد من أحاديث الحياة، نظرات من نافذة الـ ٥٠ من العمر، حكم شريفة، قاموس الأمثال، الخلافة الاسلامية، قاموس القرآن، الدولة العثمانية، تاريخ فرنسا، تاريخ الأصنام عند العرب قبل الاسلام، اشتقاق في الألفاظ، غادة الفيحاء، تاريخ سوريا ولبنان، تاريخ الاعلام الواردة في تاريخ طرابلس، تاريخ الأديان وهو ٣٢ جزء، سجعات، سياحات في عالم الخيال(٧٩).

□ **مكتبة آل كرامه**: وقد تأسست في أوائل القرن التاسع عشر، وهي تحتوي على الف كتاب مخطوط ومجلد في شتى صروف الأدب والدين واللغة والتاريخ.

فمن المخطوطات: كشف السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، روضة الأنوار في فصل التعمير والازكار، روضة المشتقا في بهجة العشاق، القواعد الدينية، علم المنطق، شرح الأجرومية في علم العربية، شرح صحيح البخاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، فتح القريب، شرح ملتقى درّ المنتقى، السيوف الحداد في أعناق الزندقة والألحاد، مقامات الحريري، الفتاوى العمادية في مذهب الحنفية، ملتقى الأبحر، حواشي على شرح الأزهرية في علم النحو، تحفة الأخيار على الدر المختار، منظومة النفي، مختصر علم اللغة، الرائق في شرح كنز الدقايق، صرة الفتاوى، الكواكب الدرارى في شرح صحيح البخاري.

ومن الكتب المطبوعة: حياة الحيوان الكبرى، تاريخ ابن خلدون، ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، شرح البحر الرائق كنز الدقائق، رد المختار على الدر المختار، وفيات الأعيان في شرح منظومة أبناء الزمان، السيرة الحلبية، تاريخ عاصم(٨٠).

□ **مكتبة الشيخ خليل صادق**: وهي تحوي على اكثر من ألف وخمس مابة كتاب ومخطوط ومجلد في مختلف العلوم الأدبية والدينية والتاريخية واللغوية.

فمن الكتب المطبوعة: سمير الليالي، الدرر المنيعة في مختصر شرح البراءة الشريفة، التحفة الوطنية في المنحة البلدية، إحياء القلوب، التحفة السنية في تاريخ القسطنطينة، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، حقوق المرأة المسلمة، رسالة في المذاهب الأربعة.

المخطوطات: التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، البرقة الدهشية في الخرقة الطرابلسية، أسماء الظروف في أسماء الحروف، الخط المقصور في اللفظ المقصور، الكلم الحسان في علم الانسان، معترك الألحاظ في مشترك الألفاظ، رسالة في علم العروض والقوافي، خلاصة القول المرعي في بيان الصاع والمد والمثقال والدرهم الشرعي، بيان حقيقة الاسلام والأعيان وفيما لا بد من معرفته لكل إنسان، نظم متن النقاية لناظمه ذي الدراية(٨١).

□ **مكتبة ابرشية الروم الكاثوليك**: وقد تضمنت مئات الكتب العربية والفرنسية ولكن جلّها يدور على الدين المسيحي والدراسات اللاهوتية وهي تزيد على سبعمئة كتاب. وأهم محتوياتها:

□ **المجلات**:

ــ مجلة المسرة منذ تأسيسها في العام ١٩١٠م.

ــ مجلة المشرق منذ سنتها الأولى ١٨٩٨م.

— مجلة الجنات للسنوات ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ و ١٨٧٢م.

□ **الكتـب**:

— Histoire générale de l'église 20 Vol.

— La vie de jesus christ 5 Vol.

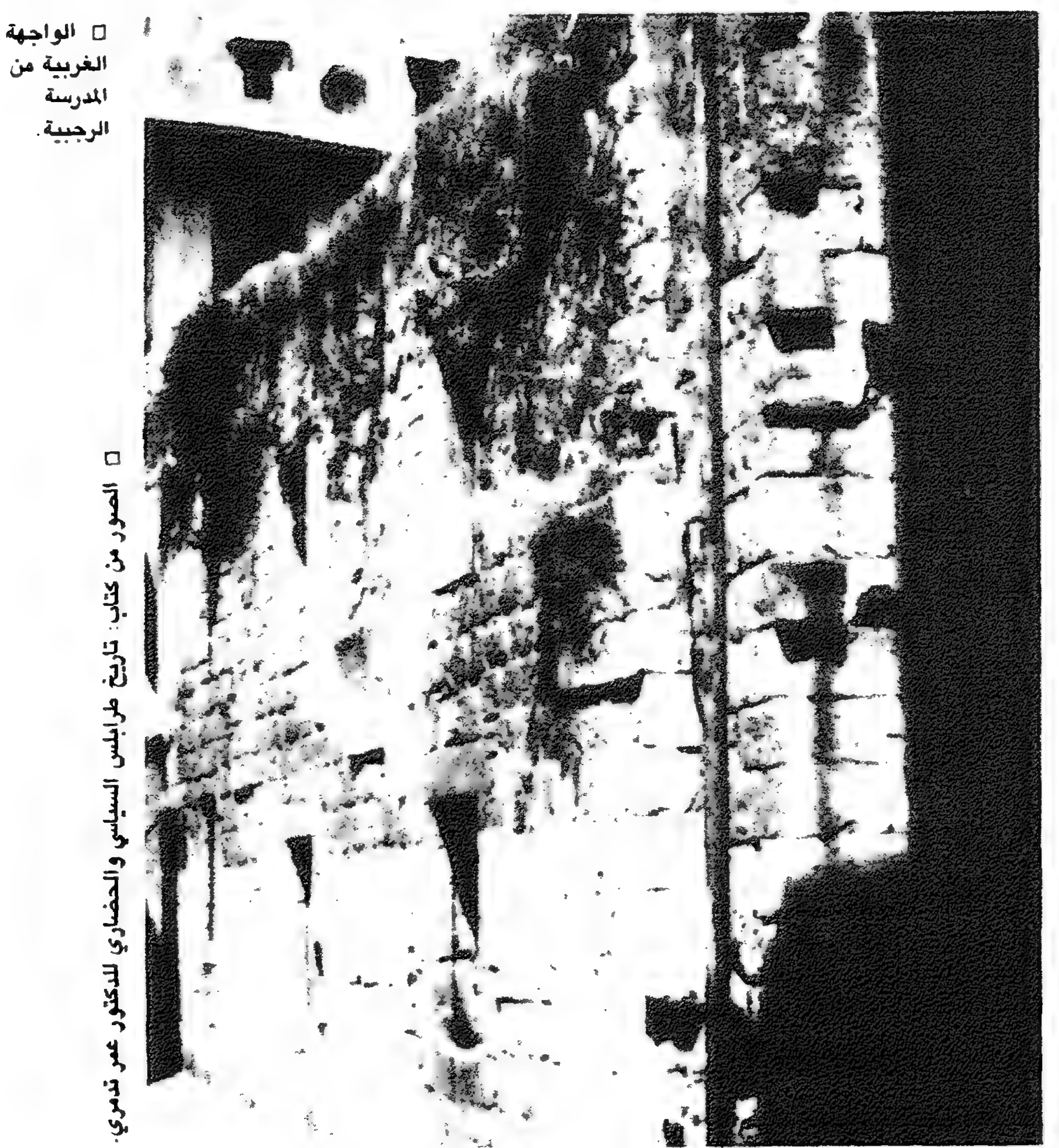
— مختصر تاريخ طائفة الروم الكاثوليك[٨٢].

الطباعة في طرابلس

ساعد تأسيس أول مطبعة عام ١٨٨٩ في مدينة طرابلس بتنشيط مظاهر الحياة الثقافية في المدينة، إذ أقبل علماء الفيحاء على طباعة بعض مؤلفاتهم في مطبعة البلاغة الطرابلسية التي أسسها محمد كامل البحيري[٨٣]... والمستعدة لطبع الكتب من أي نوع كان وبأي لغة من اللغات المتداولة حسب الامكان[٨٤].

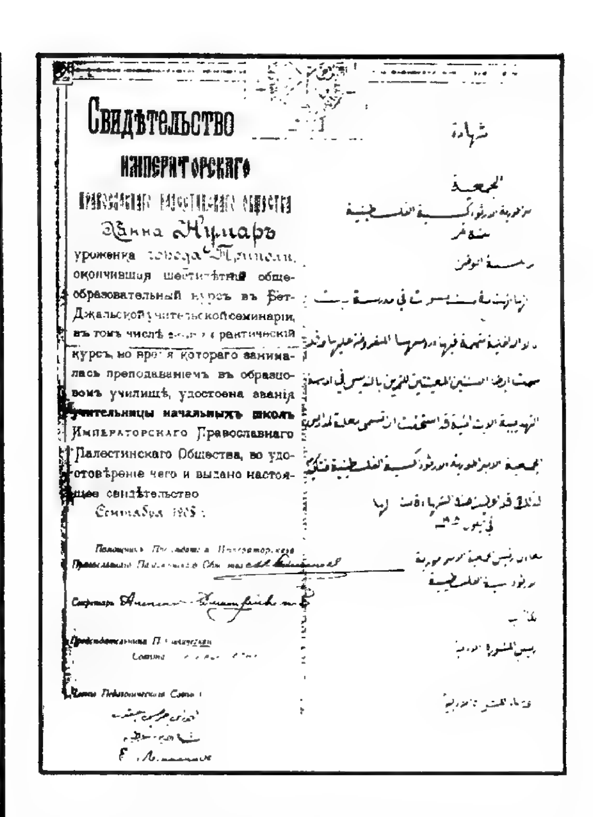
فمن الكتب التي طبعت فيها:

□ إشارة الطاعة في صلاة الجماعة، للشيخ حسين الجسر.



□ الواجهة الغربية من المدرسة الرجبية.

□ الصور من كتاب: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري للدكتور عمر تدمري.



Свидѣтельство
Императорскаго
Православнаго Палестинскаго Общества
Анна Нуцаръ
уроженка города Триполи,
окончившая шестилѣтний обще-
образовательный курсъ въ Бет-
Джальской учительской семинарии,
въ томъ числѣ ... практический
курсъ, во время котораго занима-
лась преподаваніемъ въ образцо-
вомъ училищѣ, удостоена званія
учительницы начальныхъ школъ
Императорскаго Православнаго
Палестинскаго Общества, во удо-
стовѣреніе чего и выдано настоя-
щее свидѣтельство
Сентября 1905 г.

شهادة

☐ البدر التمام في مولد خير الأنام، للشيخ حسين الجسر.

☐ تحفة المحبين ومنحة المسترشدين، لأبي المحاسن القاوقجي.

☐ سمير الليالي، لمحمد أمين صوفي السكري.

☐ ورد الأسرار في ورد الأسحار، للشيخ خليل صادق.

☐ الجليل في مناجاة الخليل، الشيخ خليل صادق.

☐ تاريخ سيام، لحكمت شريف[٨٥].

وجملة القول ان هذه الروافد العلمية سهلت لأعلام الفيحاء فرصة التعبير عن مختلف النشاطات العلمية التي قاموا بها، مما وفر للمدينة مناخاً ثقافياً رحباً أعاد للمدينة بريقها العلمي الذي عرفته أيام بني عمار وجعل منها في آن واحد داراً للعلم ومدينة للعلماء.

هوامش البحث

(١) (الشيخ حسين الجسر ١٢٦١/١٨٤٥ ــ ١٣٢٧/١٩٠٩) عبدالله نوفل: تراجم علماء طرابلس، ص ١٦٧.

(٢) (محمد رشيد رضا ١٢٨٢/١٨٦٥ ــ ١٣٥٤/١٩٣٥) صاحب المنار، خيرالدين الزركلي: الأعلام، ج ٦ ص ٣٦١.

(٣) (فرح انطون ١٢٩٠/١٨٧٤ ــ ١٣٤٢/١٩٢٤) نوفل: المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٤) (نوفل نوفل ١٢٢٥/١٨١١ ــ ١٣٠٤/١٨٨٧) نوفل: المصدر نفسه، ص ٧٥.

(٥) (محمود نشابه ... ١٣٠٨/١٨٩٠) نوفل: المصدر نفسه، ص ٩٤.

(٦) شيد هذا الجامع سنة ٦٩٣/١٢٩٤ في عهد السلطان محمد بن قلاوون؛ عمر تدمري: تاريخ وآثار ومساجد طرابلس في عهد المماليك، ص ٥٧.

(٧) أنيس الأبيض: الحياة العلمية ومراكز العلم في طرابلس خلال القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه، اختصاص في التاريخ الحديث غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، ص ٤.

(٨) ينسب بناؤها إلى الأمير سيف الدين قرطاي، السيد عبدالعزيز سالم. طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، ص ٤١٨.

(٩) بنيت في عهد حسن بن محمد بن قلاوون أثناء فترة حكمه الثانية. عمر تدمري: المرجع السابق، ص ٢٧٣ ــ ٢٧٤.

(١٠) يرجع تاريخ بناءها إلى أوائل القرن الثامن الهجري. السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ٤٢٤.

(١١) مؤسسها سيف الدين الطويشي. عمر تدمري: المرجع السابق، ص ٤٣٣.

(١٢) بنيت سنة ٨٧٠/١٤٦٥. عمر تدمري: المرجع السابق، ص ٣٢١.

(١٣) بنيت سنة ٦٩٧/١٢٨٨. السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ٤٢٩.

(١٤) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ٤.

(١٥) رشيد رضا: المنار والأزهر، ص ١٤١.

(١٦) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ٤.

(١٧) رشيد رضا: المنار والأزهر، ص ١٣٩.

(١٨) (الشيخ سامي صادق ١٣٠٤/١٨٨٦ ــ ١٣٧٩/١٩٦٠) صاحب جريدة الوجدان التي كانت تصدر في طرابلس. فيليب دي طرزي: تاريخ الصحافة العربية، ص ٢٤.

(١٩) منشئها شمس الدين المولوي ٧٤٩/١٣٤٩. السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ٤١٩.

(٢٠) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ٥ ــ ٦.

(٢١) راجع سجل المحكمة الشرعية لمدينة طرابلس ١٢٢٥/١٨١٠، حيث وردت فيه حجة تعليم للشيخ عبدالقادر المغربي.

(٢٢) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ٦.

(٢٣) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٦.

(٢٤) رشيد رضا: المصدر السابق، ص ١٤١.
(٢٥) رشيد رضا: المصدر نفسه، ص ١٤٢.
(٢٦) (الشيخ عبدالغني الرافعي ١٢٣٦/١٨٢٠/...) من كتبه: ترصيع الجواهر المكية. عبدالله نوفل: المصدر السابق، ص ٨٣.
(٢٧) رشيد رضا: المصدر السابق، ص ١٤٢.
(٢٨) (١٢٢٤/١٨٠٩ ــ ١٣٠٥/١٨٨٧) من كتبه: الذهب الأبريز على المعجم الوجيز. عبدالله نوفل: المصدر السابق، ص ٥٨.
(٢٩) (نفحة البشام في رحلة الشام، مطبعة جريدة الاسلام، مصر، ١٣١٩/١٩٠١.
(٣٠) (الشيخ محمد عبدالجواد القاياتي المصري: نفحة البشام في رحلة الشام)، ص ٥٨.
(٣١) (الشيخ عبدالقادر الرافعي ١٢٤٨/١٨٣٢ ــ ١٣٢٣/١٩٠٥) عبدالله نوفل: المصدر السابق، ص ٨٨.
(٣٢) (الشيخ علي الميقاتي ١٢٥٠/١٨٣٤/...) عبدالله نوفل: المصدر نفسه، ص ١٥٦.
(٣٣) (الشيخ نجيب الزعبي الجيلاني .../...) عبدالله نوفل: المصدر نفسه، ص ٦٦ ــ ٦٧.
(٣٤) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ٨.
(٣٥) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٨.
(٣٦) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٩.
(٣٧) تم بناء الجامع سنة ٧٥١/١٢٥٠ سميح وجيه الزين: تاريخ طرابلس قديما وحديثا، ص ٤٢٢، راجع سجل المحكمة الشرعية لطرابلس ١٣٠٦/١٨٨٨.
(٣٨) الشيخ محمود منقارة (.../...) من اعلام طرابلس عبدالله نوفل: المصدر السابق، ص ٩٥ ــ ٩٦.
(٣٩) سجل المحكمة الشرعية لمدينة طرابلس، ١٣٠٦/١٨٨٨.
(٤٠) سجل المحكمة الشرعية لمدينة طرابلس ١٣٠٤/١٨٨٦.
(٤١) (الشيخ عبدالمجيد المغربي ١٢٨٢/١٨٦٦ ــ ١٣٥٢/١٩٣٤) من علماء طرابلس المشهورين، سميح الزين: المرجع السابق، ص ٥٦٦.
(٤٢) سجل المحكمة الشرعية طرابلس ١٣١٧/١٨٩٩.
(٤٣) (١٢٧٦/١٨٦٠ ــ ١٣٦١/١٩٤٣) من اشهر علماء طرابلس، سميح الزين: المرجع السابق، ص ٤٨١ ــ ٤٨٢.
(٤٤) صبحي الصالح: نثر اللآلي في ترجمة أبي المعالي الشيخ عبدالكريم عويضة، ص ١٢.
(٤٥) (الشيخ عبدالكريم عويضة ١٢٨٢/١٨٦٥ ــ ١٣٧٥/١٩٥٥) سميح الزين: المرجع السابق، ص ٥٢٢.
(٤٦) صبحي الصالح: المرجع السابق، ص ٧٥.
(٤٧) (نقولا نوفل ١٢٣١/١٨١٧ ــ ١٣١٢/١٨٩٥) عبدالله نوفل: المصدر السابق، ص ٩١ ــ ٩٢.
(٤٨) عبدالله نوفل: المصدر السابق، ص ٩١ ــ ٩٢.
(٤٩) المقتطف ١٢٩٧/١٨٨١، عدد ٨، ص ٤٧٤.
(٥٠) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ١١.
(٥١) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١١.
(٥٢) انيس الأبيض: الحياة العلمية ومراكز العلم في طرابلس منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر وحتى بداية الانتداب الفرنسي ــ رسالة ماجستير في التاريخ غير منشورة، الجامعة اللبنانية ــ بيروت ١٩٨٠، ص ١٦٨.
(٥٣) راجع سلنامة ولاية سوريا للأعوام ١٨٤٦ ــ ١٨٧٨ ــ ١٨٨٠م.
(٥٤) راجع سلنامة ولاية سوريا ١٨٨٠م.
(٥٥) راجع سلنامة ولاية بيروت ١٨٩٤م.
(٥٦) انيس الأبيض، المرجع السابق، ص ١٢
(٥٧) انيس الأبيض، المرجع نفسه، ص ١٢.
(٥٨) Henry Harris jessup: Fifty thrée years in Syria Vol: 2-p. 113.
(٥٩) انيس الأبيض. المرجع السابق، ص ١٢.
(٦٠) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٢.
(٦١) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٤.
(٦٢) ساطع الحضري: البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ٨٣.
(٦٣) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ١٥.
(٦٤) عبدالله نوفل: تراجم علماء طرابلس، ص ٥٢.
(٦٥) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ١٧.
(٦٦) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٧.
(٦٧) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٨.
(٦٨) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٨.
(٦٩) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٨.
(٧٠) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٨.
(٧١) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٩.
(٧٢) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٩.
(٧٣) السيد عبدالعزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، ص ٢٨٥ ــ ٢٨٦.
(٧٤) جواد بولس: تاريخ لبنان، ص ٢٨٣.
(٧٥) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ٢١.
(٧٦) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٢١.
(٧٧) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٢١.
(٧٨) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٢٢.
(٧٩) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٢٢.
(٨٠) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٢٣.
(٨١) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٢٤.
(٨٢) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٢٥.
(٨٣) (محمد كامل البحيري.../١٣٣٥/١٩١٧) اصدر جريدة طرابلس الشام ١٣١١/١٨٩٣، وكان عضو مجلس العموم لولاية بيروت، يوسف أسعد داغر، قاموس الصحافة اللبنانية، ص ٣٨٩.
(٨٤) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ٢٧.
(٨٥) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٢٧.

مُوجَز تاريخ

عرقا

د. فاروق حبلص



هناك، عند أقدام التل، وسط سهل عكار الفسيح، تربض قرية عرقا، قابعة منزوية، وكأني بها تتوارى متخفية عن أعين الزمان. نعم انها تتوارى وتتوارى خجلاً وإستحياء، فهي تخشى أن يسألها المستقبل عن ماضيها، يوم كانت تغشى الوغى، وتتحدى الغزاة، لتخطَّ صفحات مشرقة بالمنجزات الحضارية. ولكن أين هي اليوم من ذاك الماضي؟ إن هي إلا ذكرى، طواها الدهر بغدره، وكاد النسيان يطمسها لولا أن حفظها التاريخ. فالحفريات الأثرية والنقوشات القديمة تروي لعرقة اليوم ملاحم تاريخها الغابر، علها تنتفض من كبوتها وتنهض من سباتها، فتنفض الغبار عن وجهها، لتعود إلى سابق ازدهارها وتستعيد مكانها في مواكبة التطور الحضاري.

— I —

تحقيق اسم عرقا

اختلف المؤرخون في أصل وتفسير كلمة عرقا، فردوها إلى أصول عربية أو سريانية أو فينيقية.

فقد ذكرها ابن الأثير على شكلين: تارة عِرْقَةَ[١]، وتارة أخرى عَرْقَةَ[٢]. كما ذكرها الواقدي على شكل عرقا[٣]. أما ياقوت الحموي فقد كتبها عِرقة، وقال انها مؤنث عَرْقُوَة، وأن معناها أكمة قليلة الارتفاع تشرف على ما حولها[٤]. ويشير هذا التفسير إلى أن تسمية عرقا عربية الأصل؛ وقد يركن له القارىء خاصة وان القرية المذكورة تقع على تلة قليلة الارتفاع.

ويخالف الكونت فيليب دي طرازي هؤلاء في الرأي، فهو يرى أن عرقا مدينة عريقة في القدم، وان تسميتها سريانية، تعني شجر الساج الذي كان يكثر في غاباتها[٥]. ويشاطره الراي الرحالة الانكليزي (Bruce Condé)[٦]. ويتقارب رأي الأستاذ أنيس فريحة مع هذا التفسير: فهو يذكر أنَّ اسم عرقا ورد في الكتابات الآشورية (ar-qa)، والمصرية (ar-qa-tu)، وفي رسائل تل العمارنة (Ir-qa-ta) ذقا (arqé)، وان هذه التسميات تعني أخشابا وجسورا تستخدم في البناء. ثم يتابع قائلا أن العَرَقَة تعني في اللهجة العامية اللبنانية جذعا أو خشبة غليظة توضع فوق الباب أو النافذة. ويخلص بعد ذلك إلى الاستنتاج أن هذه المدينة نشأت منذ القدم كمركز لتصريف الأخشاب والجسور[٧]. وقد يبدو هذا التفسير معقولا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن بلاد عكار كانت مكسوة بالغابات من أعلى قممها حتى سواحل البحر المتوسط[٨].

وقد خالف إدوارد روبنصون هذين الرأيين وقال ان عرقا مدينة فينيقية عريقة في القدم، وانها كانت موطن العرقيين المذكورين في أقدم تواريخ بني كنعان[٩].

أما الكتابات القديمة، فقد أتت على ذكر اسم عرقا بشكل أدق وأوضح. فقد وردت في كتابات قصر الكرنك على صورة (Irqata-arca)؛ كما ورد في تواريخ مرور شلمانصر الثالث الامبراطور الآشوري أن أهل عرقا كانوا يعرفون بـ الـ (Arkites)[١٠]، مما يرجح احتمال أن تكون هذه التسمية قد أطلقت على المدينة نسبة إلى سكانها الأوائل العرقيين. بيد أن كلمة (Arkites) هي عينها لفظة العرقيين الذين ورد ذكرهم في التوراة على أنهم من أبناء كنعان[١١].

نستخلص مما تقدم أن عرقا مدينة قديمة وان تسميتها ليست عربية بدليل أنها عرفت بهذا الاسم قبل مجيء العرب إلى بلاد الشام، كما انها ليست سريانية، بل نرجح أنها كنعانية لأن المدينة كانت قائمة منذ عصور الكنعانيين، ويوم كانت لغتهم هي اللغة المحكية في بلاد الشام[١٢].

— II —

تاريخ عرقا

ما يزال تاريخ عرقا في العصور الحجرية مجهولاً تماما لندرة التنقيبات الأثرية فيها: وما توفر لدينا حتى الآن من مصادر وتنقيبات اثرية لا يمكننا من دراسة تاريخها في المراحل السابقة للألف الرابع قبل الميلاد. فقد ورد في الوثائق الهيروغلوفية أن الغابات كانت ما بين الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد، وتغطي المنطقة بأسرها، من قمم الجبال حتى الساحل، وتشكل مرتعا للأسود والحيوانات المفترسة، في حين كان سكانها يعملون في قطع الأخشاب والصيد[١٣].

بيد أن بزوغ الحضارات في مصر وبلاد ما بين النهرين انعكس على تطور الحياة البشرية في عرقا في الألف الثالث قبل الميلاد. فثرواتها الحرجية جعلتها محط أنظار ملوك بلاد ما بين النهرين وفراعنة مصر، فقدموا إلى سوريا لتأمين حاجاتهم من الأخشاب التي افتقروا إليها في مواطنهم الأصلية[١٤]. كما ان موقعها الاستراتيجي المتوسط بين مراكز أقدم حضارتين (مصر ـ وبلاد الرافدين) جعلها ميدان التفاعل الحضاري بينهما. فمنذ ذلك التاريخ بدأ ملوك هذه البلدان يأتون إلى عرقا تارة لقطع أخشابها وتارة لبسط نفوذهم وتأمين خطوط تجارتهم[١٥].. فظهر اسمها مع جاراتها حلبا وسميرا في رسائل تل العمارنة والوثائق الآشورية وأرشيف مدينة أوغاريت. وتحدث هذه الوثائق عن الدور التاريخي الذي لعبته عرقا على مسرح الأحداث والتطورات في الشرق الأدنى عامة. وقد ساعد الفينيقيون في تنشيط دور عرقا عندما انطلقوا باتجاه الداخل ليشقوا الطرق التجارية الأولى عبر

التلال والغابات[١٦] بين طرابلس ووادي العاصي[١٧] مروراً بعرقا وخربة عروبة ومرجحين[١٨] في الألف الثالث قبل الميلاد. وتشير نتائج الحفريات الأثرية في عرقا إلى النمو والبحبوحة، والرفاهية التي نعمت بها المدينة في العصرين البرونزيين الوسيط والحديث[١٩]. فقد كشفت عن مدافن وآثار هامة تعود إلى ذلك التاريخ، وتدل على مساهمة عرقا في بناء حضارة الشرق الأدنى القديمة[٢٠]. ثم لم يلبث أن خنق هذا الانتعاش في المهد؛ فقد شارك ملك عرقا مع جيرانه الفينيقيين في الجنوب، والميتانيين في الشمال، في تدبير مؤامرة ضد المصريين. فقام تحتموس الثالث (١٥٤٢ ــ ١٤٥٠ق.م) بشن حملة على سوريا بهدف خنق المؤامرة في مهدها. فاستولى على الساحل وعرقا، ثم تابع زحفه إلى قادش ليخضع ملكها[٢١]. ويرجح أن تحتموس الثالث مارس أعمال التخريب والتدمير التي دلت عليها الحفريات في عرقا. وتؤيد تواريخ قصر الكرنك هذا الرأي، فهي تذكر امتلاك وتخريب سميرا وعردانا القريبتين من تل عرقا وتأتي على ذكرها أيضاً. وكان من نتيجة ذلك أن خضعت عرقا للنفوذ المصري وتأثر الفن العرقي بالفنون المصرية أيضا. فالتأثير المصري يبدو واضحا في الفنون العرقية في تلك المرحلة، وبصورة خاصة في تماثيل النساء التي حاكت النمط المصري في نهاية الأسرة الثامنة عشر[٢٢].

وأثناء حكمه على مصر (١٣٦٧ ــ ١٣٥٠ق.م)، انشغل أخناتون بثورته، فتقلص النفوذ المصري عن سوريا، ودخلت عرقا في نفوذ الأموريين[٢٣] ثم لم تلبث أن خضعت للنفوذ الحثي عندما نجح شيبلوليوما في أن يحمل دول سوريا الشمالية على الانضمام تحت لوائه. وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد حاولت مصر، بقيادة رعمسيس الثاني، استعادة نفوذها على سوريا، فاصطدمت مع الحثيين بسلسلة من الحروب[٢٤]، حصل من جرائها تدمير وتخريب أجزاء من مدينة عرقا التي تقوقعت في رأس التل وأصبحت قرية صغيرة تعمل على تجديد بنائها واستعادة دورها الرائد في المنطقة. وبعد أربعة قرون متتالية من العزلة، تمكنت عرقا من استعادة نشاطها وعظمتها، فوقفت إلى جانب جاراتها الآراميين والفينيقيين في حروبهم ضد الآشوريين إبان القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد. فقد ورد في التواريخ الآشورية أن عرقا دفعت بعشرة آلاف مقاتل إلى معركة قرقر سنة ٨٥٣[٢٥]، وتمكنت مع حلفائها من الحاق الهزيمة بالملك الآشوري شلمانصر الثالث. إلا أن هذا الأخير كرر هجماته في الأعوام ٨٤٩ و ٨٤٨ و ٨٤٥ ق.م حتى تمكن من فرض سيادته على عرقا وسائر حلفاء دمشق[٢٦].

يعتبر العصر الآشوري رحلة تطور حضاري في عرقا، خاصة في صناعة الأدوات المعدنية. فقد كشفت الحفريات عن تقدم صناعة الحلقات البرونزية والسيوف والسكاكين والمطوات الحديدية والجرار الخزفية وغيرها من المصنوعات التي وجدت موضوعة إلى جانب الميت في إحدى المدافن التي تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد[٢٧].

وقد استمرت عرقا تنعم بالهدوء والرخاء في ظل الحكم الفارسي (٥٥٦ ــ ٣٣٢ق.م) الذين احسنوا معاملة السكان المحليين وتركوا لهم حرية المعتقدات وتسامحوا في الشؤون الدينية حتى اعتبروا محررين في نظر السكان[٢٨]. وتشير الآثار المنقولة من مصر إلى عرقا في تلك المرحلة إلى استمرار التبادل التجاري بين البلدين[٢٩].

وفي عام ٣٣٣ق.م غزا الاسكندر المقدوني سوريا وألحقها بإمبراطوريته التي قسمت بعد وفاته بين أبنائه، وكانت سورية من نصيب السلوقيين (٣١٢ ــ ٦٤ق.م)[٣٠]. وقد اعتنى الاسكندر بمدينة عرقا، فأنشأ فيها هيكل الزهراء[٣١] حيث كان يحتفل سنويا بتكريمه. وقد ولد الامبراطور الكسندر سيفروس يوم عيد الاسكندر المقدوني، في هذا الهيكل وبهذه المناسبة سمي باسمه[٣٢]. وقد شهدت عرقا تطورا ملحوظا في العصر السلوقي وازدهرت فيها صناعات الفخار والمعادن، فكشفت الحفريات عن وجود جرار من الطين المالس تمتاز بتطاول اعناقها التي تحمل أختام تبين تواريخ صنعها ــ ٢٥٠ق.م ــ، ناهيك عن الزجاجيات المزخرفة التي تعود إلى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الأول قبل الميلاد. كما تم أيضا اكتشاف موازين

للاقمشة مصنوعة من الحجر المشوي، ورؤوس حراب برونزية ترجع إلى التاريخ عينه(٣٣)، مما يدل على تطور وازدهار اقتصادي في ميادين الصناعة والتجارة وبصورة خاصة تجارة الاقمشة.

وبعد انهيار الامبراطورية السلوقية عام ٦٤ق.م، خلفتها روما في حكم سوريا، ويعتبر العصر الروماني بمثابة العصر الذهبي في المنطقة عامة(٣٤). وقد اعتنى الرومان بعكار لغناها بالثروة الحرجية، كما نالت عرقا اهتمامهم فأطلقوا عليها اسم قيصارية لبنان. فبرز فيها رجالات عظام لعبوا أدوارا هامة في العاصمة روما حتى باتوا مقربين من القصر. وقد اقترن أحد أعيان عرقا من ابنة شقيق الامبراطور سبتيموس سويروس السيدة يولية ممية فأنجبت له غبسيوس العكاري، وأشرف على تربيته وتعليمه حتى نشأ أديبا يجيد اللغاة اليونانية واللاتينية، وأصبح مواطنا صالحا يحترم روما وتقاليدها. وبعدما اغتال الحرس الامبراطوري الامبراطور با (بسان)، نادى بغيسيوس العكاري امبراطورا على روما. فاعتلى العرش عام ٢٢٢ وعرف باسم الاسكندر(٣٥). وفي عهده نعمت عرقا بالرخاء والعمران، فبنى فيها قصرا، وجر إليها المياه في قناة من الجبل على بعد خمسة عشر ميلا(٣٦). كما استفادت أيضا من ازدهار حركة الترانزيت في ذلك العصر، عبر ممر عكار بسبب ازدهار التبادل التجاري بين الهند والصين من جهة وأوروبا من جهة ثانية. أضف إلى ذلك ما كان للقوانين التي حظّرت على الحرفيين هجر أعمالهم وفرضت على أولادهم خلافتهم في صناعاتهم، من أثر فعال في تنشيط اقتصاد مدينة عرقا(٣٧).

وبعد وفاة الامبراطور الروماني تيودوسيوس الأول ٣٩٥م، قسمت الامبراطورية إلى شرقية وغربية، عرفت الأولى بالامبراطورية البيزنطية، وكانت عرقا من نصيبها. وفي هذا العهد، في القرن الخامس الميلادي، تبنت عرقا الثقافة واللغة السريانية. وكان الحكم البيزنطي أقل ليبرالية، وزهداً من سابقه؛ فقد اعترى البيزنطيين الضعف وأحسوا نقمة الأهالي في سوريا عامة بسبب تجريدهم من السلاح وإبعادهم عن الخدمة العسكرية وزيادة الضرائب، فلجأوا إلى تدعيم قواهم في المدن تحسبا لغزوات محتملة قد يقوم بها قبائل الهون والفرس والعرب(٣٨). وكان من نتيجة ذلك أن أقامت الدولة البيزنطية منشآت دفاعية هامة في مدينة عرقا نظرا لموقعها الاستراتيجي العسكري الهام، كحصن لحماية المنطقة الساحلية من هجمات قد تأتيها من الداخل(٣٩). ويرجح أن بناء السور البيزنطي الذي اكتشفته الحفريات في مدينة عرقا دون أن تتمكن من تحديد تاريخه، قد تم في هذه المرحلة، إلا أن تردي الأوضاع في المنطقة، أدى إلى تقلص المدينة وتوقف امتدادها الأفقي، لتنحصر داخل السور خوفا من الغزوات الفارسية(٤٠).

أما من حيث المعتقدات فقد اعتنق أبناء عرقا الأديان السامية التي عرفتها سوريا وفينيقيا، كما قدسوا أيضا آلهة الرومان، فبنوا في مدينتهم معبدا للاله فنوس(٤١). ثم بعد ظهور المسيحية، سارع أبناء عرقا إلى اعتناقها بأعداد غفيرة، وبسبب تزايد عدد المسيحيين فيها، بادرت البطريركية الانطاكية إلى جعلها ثانية الأسقفيات التابعة لمطرانية صور. وقد ظهر فيها أساقفة مشهورين أمثال لوقيان أو (نوهرا) وبغران(٤٢). وبذلك يعتبر كرسي أسقفية عرقا من أقدم أسقفيات السريان، وكان يشرف على رعاية كثير من القرى المجاورة لها(٤٣).

وبعد انتصار المسلمين في معركة اليرموك، فتحت أبواب سوريا أمامهم، ولم يبق فيها سوى بعض الحاميات البيزنطية في بعض المدن، فسار يزيد على سواحل صيدا وبيروت، وعلى مقدمة جيوشه أخوه معاوية الذي استولى على عرقا وفتحها بنفسه. وبعد ذلك عاود الروم غزواتهم على السواحل في بداية خلافة عثمان، واستعادوا عرقا، فقصدها معاوية مجددا «وأعاد فتحها ثم رممها وشحنها بالمقاتلين وأعطاهم القطائع»(٤٤). ويبدو أن معاوية، في حملته الثانية على عرقا، قد هدم سورها الذي بناه البيزنطيون لكي يحول دون احتماء الروم فيه، فيما لو فكروا بإعادة غزو السواحل؛ فالحفريات الأثرية، قد دلت على تدميره بعد الفتح الاسلامي بقليل(٤٥). ويجتمع المؤرخون على أن معاوية بذل جهده لتدعيم الفتح في السواحل الفينيقية، فأقام فيها

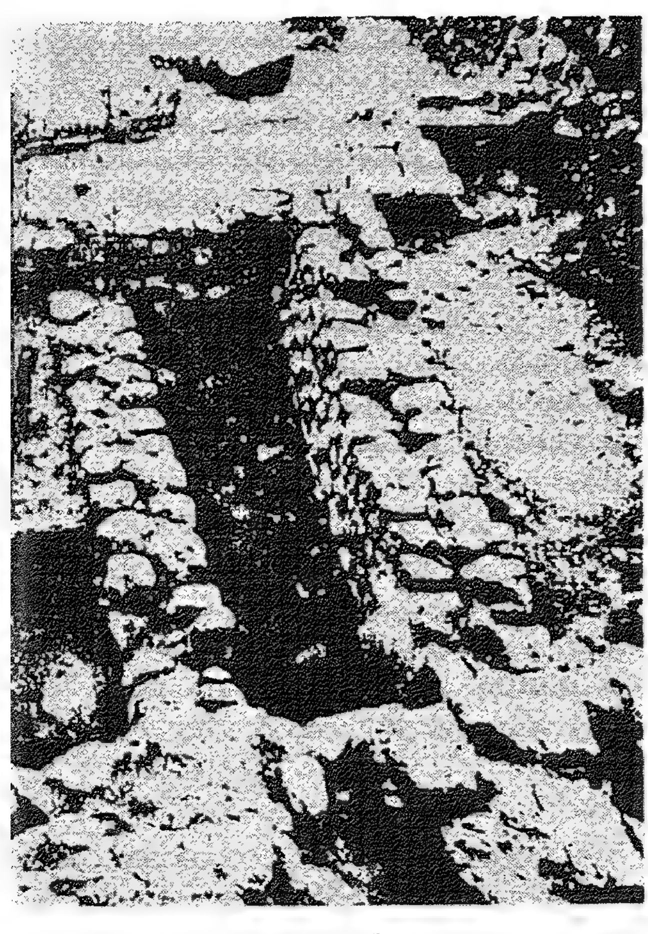
الحاميات العسكرية، كما نقل إليها قبائل عربية من العراق لكي يملأ الفراغ الناتج عن هجرة سكانها الأصليين[٤٦]. يستدل مما تقدم أن تغييرا سكانيا قد رافق الفتح الاسلامي في عرقا نتيجة جلاء أو إجلاء بعض سكانها السريان، وتوطين عناصر عربية مكانهم. ومنذ ذلك التاريخ تعايش سكان عرقا مسلمين ومسيحيين، ونعموا في ظل الخلافة الأموية بالحرية والرخاء، فبقيت الأديرة والكنائس ترفع الصلبان وتعج بالكهنة، كما استمر الازدهار الزراعي في ذلك العصر[٤٧].

ظلت الرغبة في استعادة السواحل السورية تراود أفكار البيزنطيين إبان العصور العباسية، فأعد الامبراطور نقفور حملة على هذه المناطق واستولى على حمص وعرقا وحلب واحتفظ بها لمدة يسيرة[٤٨] إلى أن استردها سيف الدولة الحمداني، فأنشد شاعره أبو العباس قائلا:

وعرقة قد سقيت سكانها الردى
ببيضٍ خفاف لا تكل ولا تنبو[٤٩]

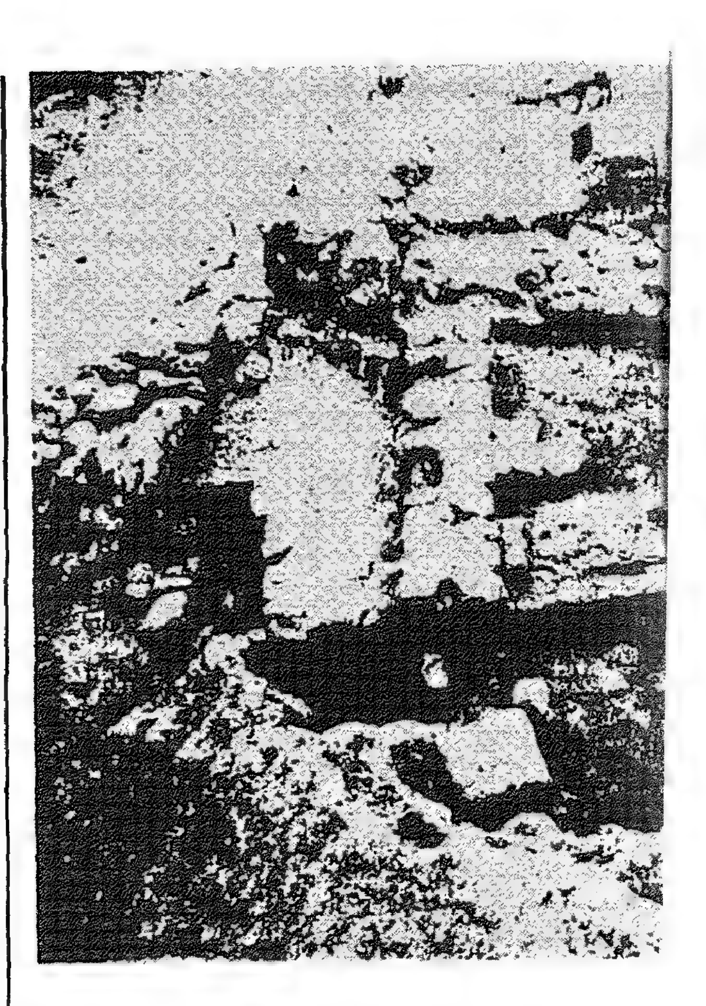
ثم عاود البيزنطيون هجماتهم على السواحل السورية في العهود الفاطمية. ففي عام ٩٩٢م، اجتاح الامبراطور باسيل عرقا ووصل إلى طرابلس ثم أدبر عائدا إلى بلاده دون أن يستقر في هذه البلاد[٥٠]. وتدل الحفريات في عرقا على ازدهار ملحوظ في تلك الرحلة من تاريخها: فقد كشفت النقاب عن كتابات عربية تحمل اسم حسان بن مُعمَّر في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي[٥١]. وعشية الحروب الصليبية، كانت عرقا تابعة لامارة بني عمار في طرابلس، ويقال ان سكانها كانوا بأغلبهم من الشيعة في ذلك التاريخ[٥٢].

يستنتج مما تقدم أن عرقا ومنطقة سوريا عامة، وقعت، في الفترة الممتدة من الألف الثالث حتى بداية الألف الأول قبل الميلاد، تحت غلبة الحضارات المتطورة في مصر وبلاد ما بين النهرين، مما أعاق ولادة حضارتها الشخصية ونموها الذاتي بمعزل عن التأثير المصري أو السوري أو الأكدي. لذلك جاءت أعمالها الفنية متأثرة بمصر في عصر الأسرة الثامنة عشرة كما يظهر من الحفريات في عرقا. وبعد سيل من الأحداث، اكتسبت عرقا خبرات عميقة، فوعت مكانتها الاستراتيجية اقتصاديا وعسكريا،



□ الحفريات الأثرية في عرقا.

وبدأت تسعى إلى تحقيق ذاتها بالعمل مع جيرانها الفينيقيين، والميتانيين على الافلات من السيطرة المصرية بدءا من النصف الثاني للألف الثاني قبل الميلاد. إلا ان هذه الخطوة لم تحظ بالنجاح إلا بعد انحسار النفوذ المصري الحثي عن المنطقة في أوائل القرن الأول قبل الميلاد. فمنذ ذلك التاريخ بدأت تظهر بوادر حضارة جدية في عرقا، لا يبدو فيها تأثير العوامل الخارجية، إلا بمقدار قليل. فقد دلت الحفريات فيها على مدافن تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد وتشبه المدافن الفينيقية، بالاضافة إلى أدوات فخارية وخزفية ومعدنية تحاكي منجزات سوريا وفلسطين في القرن الثامن قبل الميلاد[٥٣]. إذن لقد انحرف الخط الفني في عرقا بعيدا عن التيار المصري ليتجه نحو أنماط محلية في سوريا عامة. من هذا المنطلق يمكننا فهم وتفسير ظاهرة وقوف عرقا إلى جانب جاراتها الفينيقيين



والعبرانيين والآراميين في معركة قرقر، في محاولة منهم لطرد السيطرة الآشورية في المنطقة. بالاضافة إلى ذلك فقد تمثل الوعي للذات باعتماد اللغة الكنعانية في عرقا وباقي بلاد الشام، باستثناء الآراميين، بين الأعوام (٩٥٠ ـ ٧٥٠ق.م)(٥٤). وقد استمر تشكيل الذات في العصور اليونانية والرومانية، يتجلى بمظاهر حضارية وعطاء فني يغلب عليه الطابع الفينيقي والآرامي(٥٥)، ثم الطابع السرياني واللغة والثقافة السريانية في العصر البيزنطي. إلى جانب ذلك احتفظ السكان بآلهتهم السامية واستمروا في تقديسها إلى جانب الآلهة اليونانية والرومانية التي عرفوها مؤخرا.

وبعد الفتح الاسلامي، انصهرت عرقا في بوتقة المجتمع العربي والحضارة العربية الاسلامية، بفضل العناصر العربية التي استوطنتها، وبفضل التسامح الديني الذي نعمت به المنطقة إبان الحكم الأموي في بلاد الشام، فأصبحت تشكل وحدة مع ساحل فينيقيا وداخل سوريا التي سعت دائما إلى السير في ركبها الحضاري كما رأينا.

الهوامش

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت ١٩٦٥، المجلد الثاني، صفحة ٤٣١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت ١٩٦٥، المجلد العاشر، الصفحات ٢٦٧ ـ ٢٧٨.

(٣) الواقدي: فتوح الشام، دار إحياء التراث، الجزء الأول، صفحة ٥٦.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر بيروت، مادة العين.

(٥) فيليب دي طرازي: أصدق ما كان عن تاريخ لبنان وصفحة في أخبار السريان، مطابع سليم صيقلي بيروت ١٩٤٨، المجلد الثاني، صفحة ٢٥.

(٦) Bruce Condé: See Lebanon, Second Edition, Harb Bijjani Pren, Beyrouth 1960, p. 550.

(٧) انيس فريحة: أسماء المدن والقرى اللبنانية، منشورات كلية العلوم والآداب في الجامعة الأميركية في بيروت ١٩٥٦، مادة العين.

(٨) H. Lammens: La Syrie Précis Historique, Imprimerie Catholique, Beyrouth 1921, V. 1. p. 2.

(٩) اسعد شيخاني: مباحث أجنبية في تاريخ لبنان، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، بيروت ١٩٥١، المجلد الثالث، صفحة ١٦٠.

(١٠) Mission archéologique française, sous la direction de P. Laville: Article tell Arqa, 1972-1974, Pages 102-103.

(١١) الكتاب المقدس: منشورات المطبعة الكاثوليكية بيروت، سفر التكوين، الفصل العاشر، العدد السابع عشر.

(١٢) ارنولد توينبي: تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة، الدار الأهلية للنشر، الجزء الأول، صفحة ١٣٣.

(١٣) H. Lammens: La Syrie... V. 1. p. 2.

(١٤) ارنولد توينبي: المرجع السابق، الجزء الأول، صفحة ٨٥ وصفحة ٦٩.

(١٥) ارنولد توينبي: المرجع السابق، الجزء الأول، صفحة ٧٠؛ وسليم هشي: محاضرة في التاريخ الفينيقي، منشورات دائرة المطبوعات في كلية الآداب والعلوم الانسانية في الجامعة اللبنانية، سنة ١٩٧٢، صفحة ٧٩.

(١٦) H. Lammens: La Syrie... V. 1. p. 3.

(١٧) سليم هشي: المرجع السابق، صفحة ٤٦.

(١٨) رفيق التميمي ومحمد بهجت: ولاية بيروت، دار لحد خاطر ١٩٧٩، الجزء الثاني، صفحة ٢٢٩.

(١٩) Mission archéologique Française: Tell Arqa... p. 98.

(٢٠) Mission archéologique Française tell Arqa, p. 103.

(٢١) سليم هشي: المرجع السابق، صفحة ٨١؛ وارنولد تونبي: المرجع السابق، الجزء الأول، صفحة ١٠٤.

(٢٢) Mission archéologique Française: Tell Arqa... ps. 101-102.

(٢٣) Bruce Condé: Seé Lebanon, p. 550.

(٢٤) ارنولد تونبي: المرجع السابق، الجزء الأول، صفحة ١٠٦ وصفحة ١٠٧.

(٢٥) Mission archéologique Française: Tell Arqa, p. 103.

(٢٦) ارنولد تونبي: المرجع السابق، الجزء الأول، صفحة ١٢٨.

(٢٧) Mission archéologique Française: Tell Arqa, p. 87.

(٢٨) ارنولد تونبي: المرجع السابق، الجزء الأول، صفحة ١٨٧.

(٢٩) Mission archéologique Française: Tell Arqa, p. 80.

(٣٠) H. Lammens: La Syrie... V. 1. ps. 24-27.

(٣١) رفيق النميمي وبهجت: المرجع السابق، الجزء الثاني، صفحة ٢٣٩.

(٣٢) اسعد شيخاني: المرجع السابق، المجلد الثالث، صفحة ١٦٢.

(٣٣) Mission archéologique Française: Tell Arqa, p. 66-68.

(٣٤) H. Lammens: La Syrie... V. 1, ps. 11-28.

(٣٥) أسد رستم: آراء وابحاث، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٧، صفحة ٢٥٤ ــ ٢٥٦.

(٣٦) Bruce Condé: Seé Lebanon... ps. 550.

(٣٧) فؤاد قازان لبنان في محيطه العربي في التكوين الجيولوجي حتى أيامنا، دار الفارابي، بيروت ١٩٧٢، المجلد الأول، صفحة ٧٦.

(٣٨) H. Lammens: La Syrie... V. 1, ps. 6-26.

(٣٩) Mission archéologique Française, Tell Arqa, p. 49.

(٤٠) Bruce Condé Sée Lebanon... p. 104.

(٤١) Bruce Condé: Sée Lebanon... ps. 550-553.

(٤٢) فيليب دي طرازي: المرجع السابق، المجلد الأول، صفحة ٢٥ ــ ٢٦.

(٤٣) فيليب دي طرازي: المرجع السابق، المجلد الأول، صفحة ٤٤؛ واسعد شيخاني: المرجع السابق، المجلد الثالث، الصفحة ١٦٢.

(٤٤) ابن الأثير: المرجع السابق، المجلد الثاني، صفحة ٤٣١.

(٤٥) Mission archéologique Française: Tell Arqa... p. 104.

(٤٦) فؤاد قازان: المرجع السابق، الجزء الأول، صفحة ١٤١ ــ ١٤٢؛ و:
— H. Lammense, La Syrie... V. 1, p. 64.

(٤٧) H. Lammens: La Syrie... V. 1, p. 114-121.

(٤٨) H. Lammens: La Syrie.. V. 1, p. 142.

(٤٩) ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة العين.

(٥٠) اسماعيل أبو الفدا: تاريخ أبي الفدا، دار الطباعة الشاهانية بالقسطنطينية، سنة ١٢٨٦هـ، الجزء الثاني، صفحة ١٣٥.

(٥١) Mission archéologique Française: Tell Arqa, p. 29.

(٥٢) كمال الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار، بيروت، الطبعة الرابعة، صفحة ٥١؛ وأبو الفدا: المرجع السابق، الجزء العاشر، صفحة ٤٦٧ ــ ٤٦٨.

(٥٣) Mission archéologique Française: Tell Arqa, p. 61-83.

(٥٤) أرنولد تونبي: المرجع السابق، الجزء الأول، صفحة ١٢٥ ــ ١٢٧.

(٥٥) Mission archéologique Française: Tell Arqa, p. 61-68.



ليس امر من الفقر

□ نصحني النصحاء ووعظني الوعاظ شفقة ونصيحة وتأديبا، فلم يعظني مثل شيبي ولا نصحني مثل فكري. وعاداني الأعداء، فلم أر أعدى إلـيّ من نفسي إذا جهلت. وأكلت الطيب وشربت المسكر، فلم أجد شيئا ألذ من العافية والأمن. وأكلت الصبر وشربت المر، فلم أر أمر من الفقر. وعالجت الحديد ونقلت الصخر، فلم أر حملا أثقل من الدين. وطلبت أحسن الأشياء عند الناس، فلم أر شيئا أفضل من الخلق الكريم.

الحكيم الفارسي «بزرجمهر»

مرصد «مراكي» في إيران

أكبر مرصد في العالم القديم

بقلم: د. ب. فاردجافند
إعداد: د. سامي زكي



□ القاعة الرئيسية في البرج. وترى السلم والمرتبة المحززة التي كانت تحمل الاطار.

د. سامي زكي: باحث في العلوم الاجتماعية.

يعتبر مرصد «مراكي»، الذي يعرفه الفلكيون جيداً، اكبر واهم مرصد في العالم القديم، منذ اكتشاف مرصد سمرقند في القرن التاسع عشر. وقد بني بعد مجمع مراكي العلمي بنحو ١٦٧ سنة. وجه العلماء والآثاريون عنايتهم إلى الكشف عن موقع وبنية مرصد مراكي.

اتيح لي، خلال ابحاثي في منطقة اذربيجان، عام ١٩٦٥، ان أزور «رازداكي» (جبل المرصد)، القائم شمال مراكي.

عام ١٩٧٢ قامت اول حملة تنقيب. ولما كانت النتائج التي حصلنا عليها رائعة، فقد استانفنا التنقيب، بعد سنتي توقف، خلال صيفي ١٩٧٥ و١٩٧٦. واستطعنا ان نعد تصميماً كاملاً للسور الرئيسي والمجمع العلمي التابع لمرصد مراكي.

اكبر مرصد في الشرق

لم تكن معلوماتنا عن المراصد قبل الاسلام واضحة حتى ذاك الوقت. اما اليوم فلدينا معلومات التي بنيت بعد الفتح الاسلامي. نعلم أن مراصد بنيت، لأول مرة بعد الاسلام، في عهد المأمون، في مدن «سيماسي» وجبل قاسيون. وفي إيران، في القرن التاسع الميلادي، بنى ابو حنيفة الدينوري، مرصداً في أصفهان. ولكن المراصد الهامة بنيت في عهد ملكشاه، في القرن الحادي عشر. ويقال إن الحكيم عمر الخيام، مع باحثين آخرين، قام بأبحاث فلكية في تلك المراصد.

كان مرصد مراكي، الذي شيد في القرن الثالث عشر، أكبر مرصد عرفه الشرق. فقد أمر السلطان المغولي هوليغو، ببنائه عام ١٢٥٨م، بناء لطلب العلامة نصر الدين الطوسي. وبناء لنصائح العلامة ذاته، خصص عشر الأوقاف، على كل ارض المملكة، لنشاطات المرصد والباحثين العاملين فيه. وقد كلف بناؤه عشرين ألف دينار، وكلفت الأدوات والآلات ثلاثين الف دينار. ورغم إلحاح هوليغو بالإسراع، فإن الأعمال والأبحاث العلمية استغرقت خمسة عشر عاماً. وقد طبعت الأبحاث في عهد ابقاخان (١٢٦٥ ــ ١٢٨١) عام ١٢٦٥ أو ١٢٧١ ــ ٧٢، في كتاب ترجم إلى اللاتينية، وطبع في أوروبا عام ١٦٥٢.

استمرت شهرة مرصد مراكي حتى نهاية القرن الثالث عشر. وكان في عهد حكم أولجيتو (١٣٠٤ ــ ١٣١٦) ما يزال ناشطاً. وقد عين أصيل الدين، ابن نصر الدين الطوسي، مديراً للمرصد مكان أبيه.

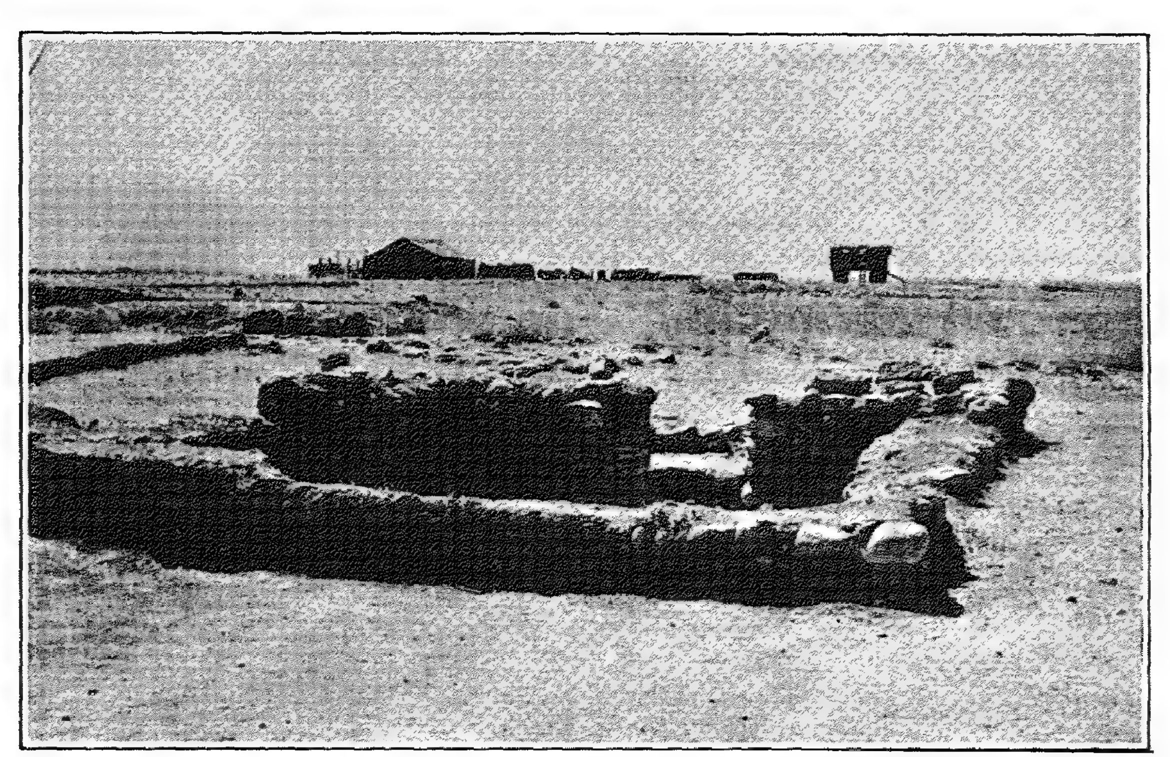
وقضت الفوضى التي شملت إيران بعد موت الخان ابو سعيد (١٣١٦ ــ ١٣٣٥) على المرصد. يذكر حامد الله مستوفي، في كتابه نزهة القلوب أن مرصد مراكي كان مدمرا عام ١٣٤٠.

وإذا كانت عدة مؤلفات تعرفنا إلى أبحاث مركز الدراسات هذا، فليس ثمة مؤلف واحد بيننا ينبئنا عن بنية مختلف اقسام المرصد. لذلك علينا الاعتماد بشكل رئيسي على نتائج ثلاث حملات تنقيب، وعلى آراء وشروح عدد من العلماء والفلكيين الحديثين.

مجمع هندسي واسع

إلى الشمال من مدينة مراكي، وعلى بعد خمسمائة متر من آخر بناء فيها، يقول تل طوله ٥١٢م وعرضه ٢٢٠م وارتفاعه ١١٠م، تتخلله آكام مختلفة الأهمية، لأنها بقايا ابنية كانت تشكل مجمع مرصد مراكي العلمي. وقد نجحنا خلال حملات التنقيب الثلاث، في إبراز ثلاث مجموعات مختلفة: الجدران الممتدة من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال، والبرج المركزي، وخمسة أبنية دائرية، وقاعة مربعة، فيها مقعد دائري، والمكتبة، وقاعة الاجتماعات، وفرن، هو في الواقع معمل صناعة الآلات الفلكية، وبناء يضم إيواناً مركزياً، ومربعات مطلية بالمينا، ومسكن ريفي بني بعد دمار المرصد.

يقسم تل المرصد إلى قسمين، جدار طوله ١٣٩م، وعرضه ١,١٠م. أما القسم لجنوبي الذي يمده هذا الجدار، فيضم آثار الأبنية،



□ منظر للفرن ــ المصنع، حيث كانت تصنع ادوات المرصد.

وطوله ٢٨٠م وعرضه ٢٢٠م. أما القسم الشمالي فطوله ٢٢٠م، ويقل عرضه تدريجياً باتجاه الشمال فيتراوح بين ٢٢٠م و ٥٠م. ولكن الأبحاث دلت على عدم وجود أثر لأي بناء.

أما الجدار الثاني الذي كشف عنه فوق التل، ففي محاذات القسم الجنوبي من الشرق. طوله ٢٢٠م، وعرضه ١,٢٠م، وارتفاعه ٠,٤٠م. وهو متعامد مع طرف الجدار الممتد من الشرق إلى الغرب. ويبدو أن الجدارين، في البدء، لم يرتفعا أكثر من متر واحد. ويمكن الافتراض انهما كانا يستخدمان كمعلمين مستقيمين لاجراء مختلف القياسات بمساعدة أدوات المراقبة.

البرج المركزي أو نواة المرصد

خلال حملتنا التنقيبية الأولى، عملنا في أكثر الآثار أهمية، وهو مساحة قطرها ٤٥م تقريباً، وارتفاعها ٢,١٥م، قائمة في المركز بالقياس إلى آكام الخراب. في هذا الموقع كشفنا عن بناء البرج المركزي، شعاعه ١٤م.

كان الباب الرئيسي متجها إلى الجنوب. فإذا اجتزته، انحدرت درجتين، بين دكتين من الحجر، علوهما ٠,٨٠م، فوجدت نفسك في القاعة الرئيسية (٢٢م × ٣,١٠م) الممتدة على شكل ممر متجه حسب قطر المرصد (شمالاً جنوباً).

في هذه القاعة ــ الممر، المواجهة للواجهة، حامل آلة المراقبة، والاطار الجداري. وهو عبارة عن سلم قاعدتهما (٧,٥٠م ــ ١,٤٠م)، وقد بقي منها اليوم ٢,٢٠م. أي ثلاث درجات. كانت السلم تحمل الاطار الأهليلجي، الذي كان رأسه الأسفل قرب الباب، ورأسه الأعلى في مركز البناء. هذا الرأس هو الذي سماه واصف «العتبة»، والذي كان، في رأيه، يستقبل كل صباح أشعة الشمس منذ الشروق، من خلال ثقب، في قبة البناء. من هذا المنطلق كان العلماء يقيسون درجات ودقائق حركة الشمس المركزية، وارتفاعها خلال كل الفصول. وكذلك الساعة، ومواقع البلدان (الطول والعرض).

بنيت هذه المرتبة بكتل حجرية مقطوعة، عرض الواحدة ٠,٢٠م، وطولها من ٠,٤٤م إلى ٠,٧٢م مرصوفة بعضها إلى جنب بعض. ولقد وجدنا خلال التنقيب بعض القطع، ونأمل أن نجد غيرها. وسط هذه المرتبة ثلم عرضه ٠,٧م، تقوم

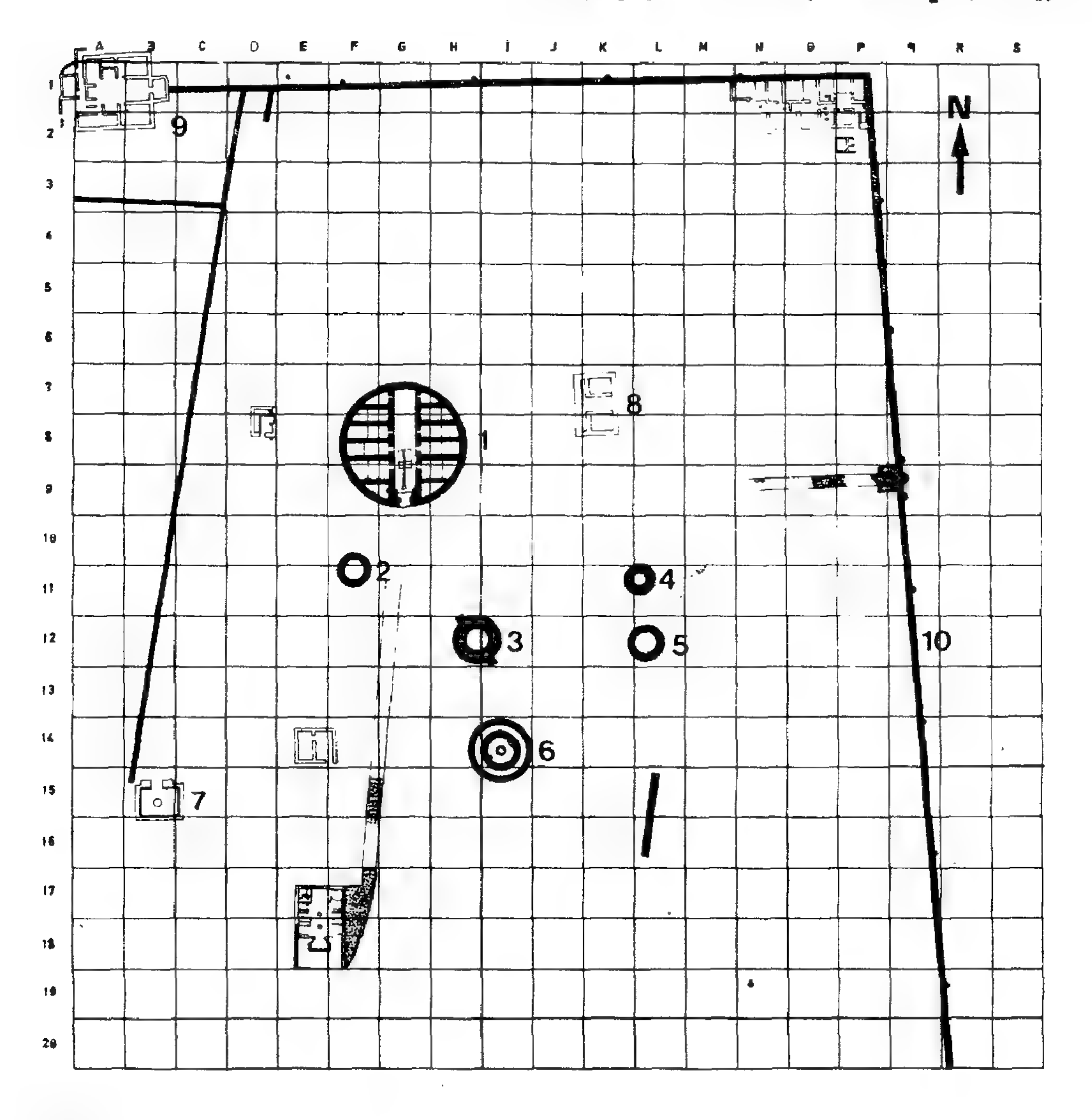
عليه، وعلى أبعاد متساوية (٠,٥٨م) أخاديد لتثبيت الاطار الجداري المعدني المرقم.

يرتفع، عند النهاية الشمالية للقاعة الرئيسية، عمودان من القرميد، مبنيان على قاعدة مربعة ضلعها ٠,٩٠م. وعلى جوانب القاعة ــ الممر تقوم ست غرف للعمل، يفصل بين كل اثنتين منها جدار سمكه ٠,٩٠م . من هذه الغرف أربع قاعات كبيرة مستطيلة تقريباً لكل منها أرضيتان (الفرق ٠,٢٥م)، واثنتان صغيرتان، مستطيلتان تقريبا، أرضيتهما مستوية.

وقد بنى المرصد بحجارة صغيرة (١٥ سم ضلع الواحدة)، ضمت إلى بعضها بعضا بالجص. أما الركيزة الأولى الخارجية للبناء، والركيزة الداخلية للقاعة الرئيسية فمن الحجارة المقطوعة. وقد غطي الداخل بالجص، بينما باقي الجدران بنيت بالآخر المشوي، المضموم إلى بعضه بعضاً، بالفخار، أو بمزيج من الفخار والجص. وكانت الجدران المطلية بالجص، مزينة بمربعات، وفسيفساء. أما الأرضية فكانت مرصوفة بالقرميد.

الآثار قليلة بالقياس إلى مجموع البناء الأساسي. ثم إن أرضية القاعات التي كانت مطمورة، أو مجردة من طلائها، تشير إلى أن المرصد لم يدمر طبيعياً. ولعله، بعد إهماله، قد

□ مخطط مجموع البناء: ١ ــ البرج ٢ ــ ٦ ابنية دائرية، ٧ ــ حجرة مربعة وسطها مرتبة مدورة، ٨ ــ بناء مع إيوان مركزي، ٩ ــ المكتبة، ١٠ ــ جدار يحيط بالمرصد.





□ الجدار الممتد من الشرق إلى الغرب ويقسم تل المرصد إلى قسمين. ولم يكن يعلو اكثر من متر. ويبدو انه كان مرقبا لتصحيح القياسات التي تؤخذ بواسطة أدوات المراقبة.

دمر بوحشيـة، ربما عـلى دفعات، ومن أجـل استخدام أوائله ثانية.

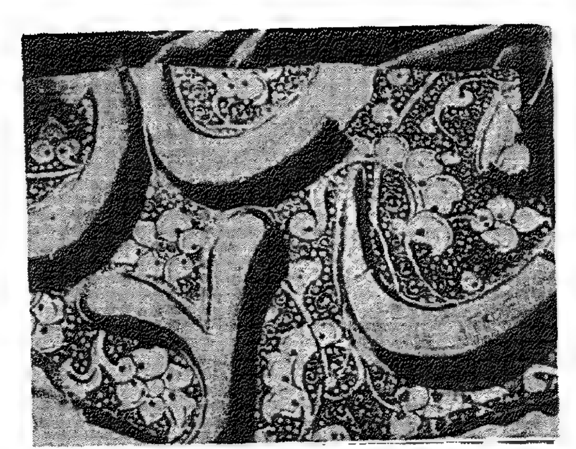
ابنية دائرية غريبة

يشـير المخطط الطوبـوغرافي لمجمـوع بنـاء المرصد، إلى وجود خمس ابنية دائرية، تتبدى على ثلاثة نماذج: دائري بسيط، دائري تحف به مصطبة أدنى منه بـ ٠,٢٥م وثالث مكون من دائرتين، فيها مرتبة دائرية، وسط ثلاث مراتب مربعة، لصيقة بداخل الدائرة الداخلية.

كانت هذه الأبنية الخمسة مبنية من الحجر العـادي (الدبش)، يشـده إلى بعضـه بعضاً بالفخار. وقد وجدت بعض القرميدات المشوية، على الحجارة، مما ساعد على إعادة بنائها.

اما وظيفة هذه الأبنية فغير معروفة لدينا حتى الآن، ذلك أن معرفتنا بالفلك الاسلامي، والعالم الايراني، قبل التقدم الغربي في هذا المجال غير كاملة. ولكن، حين نقارن بين شكل هذه البنية، وبين وحدات فلكية اخرى، فما تزال عاملة في مراصد هندية في دلهي وجيبور، بنيت في القرن الثـامن عشر، على النمـط القـديم للمـراصـد الايرانية، كتلك التي في سمرقند ومراكي، يخيل إلينا أنها كانت تستخدم لإقامة مختلف المقاييس الفلكية والعلمية.

فإذا رجعنا إلى مؤلف العلامة «الأرزي» الذي اشتهر في مرصد مراكي، إذ كلف بصنع الأدوات المخصصة لمختلف الدراسات، وجدنا أن عدة وحدات فلكية علمية كانت مقامة في الهواء الطلق.



□ مقطع من بلاط الكاشي كتب عليه بالثلث، وفيه اشكال نباتية.

مكتبة محفوظة

كشفنا، إلى الجنوب الغربي من البرج قاعة مربعة طول ضلعها ٤,٩٠م، وسطها مقعد مدور قطره ٢,١٠م. وليس لها إلا مدخل واحد. أما جدرانها فبنيت بحجارة عادية موصولة بالفخار. عند أسفل الجدار، تلاحظ، حتى الآن، بعض الحجارة المستطيلة، اما المقعد الدائري المركزي فيشير إلى استخدام القاعة، كبناء للعمل والبحث.

يقع البناء الذي سميناه «المكتبة» عند الزاوية الشمالية الغربية من مجمع المرصد. مساحته ٣٣٠م٢، ومكون من تسع غرف، بقياسات مختلفة. مخطط البناء هام جداً: فحول الغرفة المركزية، المتينة على شكل صليب، خمس قاعات. وسط الضلع والبناء، من الخارج، غرفة أخرى (٣,٣٠م × ٢,٢٠م)، تتصل بالغرفة المركزية. ومدخل البناء على شكل ممر، وبزاوية متجهة شمالاً ــ غرباً. ورغم أن الزاوية الجنوبية الغربية مهدمة، يمكن أن نفترض مدخلاً آخر: كان من يستخدمونه يعبرون من باب ويخرجون من آخر. أما مواد بناء هذا المبنى فالحجارة غير المقصوصة أساسها قرميد غير مشوي، وأعلاها قرميد مشوي.

لعل البناء كان مكتبة، فنوافذه، ومخارجه المحفوظة جيداً، والسور المربع الذي يفصله عن باقي المجمع، يشير إلى ذلك.

تؤكد بعض المصادر ان المكتبة كانت تضم أربعمائة ألف مجلد، قد يكون الرقم مبالغاً فيه بالقياس إلى قدرة البناء على الاستيعاب، ولكنه، وحده من بين كل المباني، كان يمكن أن يكون مكتبة.

حين فسرنا طبيعة بنية كل بناء، أشرنا إلى المواد المستعملة، وقد بينا أن المهندسين استعانوا بحجارة عادية (دبش) وحجارة مقصوصة، وقرميد عادي، وقرميد مشوي وبلاط فخار أو جص.

وإذا لم نجد نماذج مزخرفة داخلية أو خارجية، فقد وجدنا قطعا مربعة مطلية بالميناء، (كاشي)، تشير إلى أربعة نماذج: مربعات كبيرة (ضلعها ٤٥ سم) عليها كتابات ورسوم ثلث، وزخارف نباتية، لعلها كانت على واجهة البرج المركزي. ثم بلاط مستطيل (٢١ سم × ٩سم) مزخرف بخطوط ملتوية، تعود إلى النمط الخاني (نسبة إلى الخان). وثمة بلاطات من حجوم مختلفة (مربعة، مدورة، نجمية، مستطيلة، معينية، الخ..) وبعدة الوان، أزرق، أزرق فاتح، رمادي، بني، أسود، الخ... تشكل مع قطع من القرميد المشوي نوعاً من الفسيفساء. أخيرا، بلاطات على شكل نجوم ثمانية كوكبية. بالاضافة إلى هذه النماذج الأربعة، من الكاشي، استخدمت مواد أخرى، كالقرميد المشوي المضلع، والحجارة المضلعة برسوم هندسية ونباتية.

ليست هذه النماذج المكتشفة كثيرة، مما يدل على تدمير تام للأبنية، ربما لاستخدامها في مكان آخر. ولكن جهودنا لم تفلح في معرفة المكان الذي استخدمت فيه.

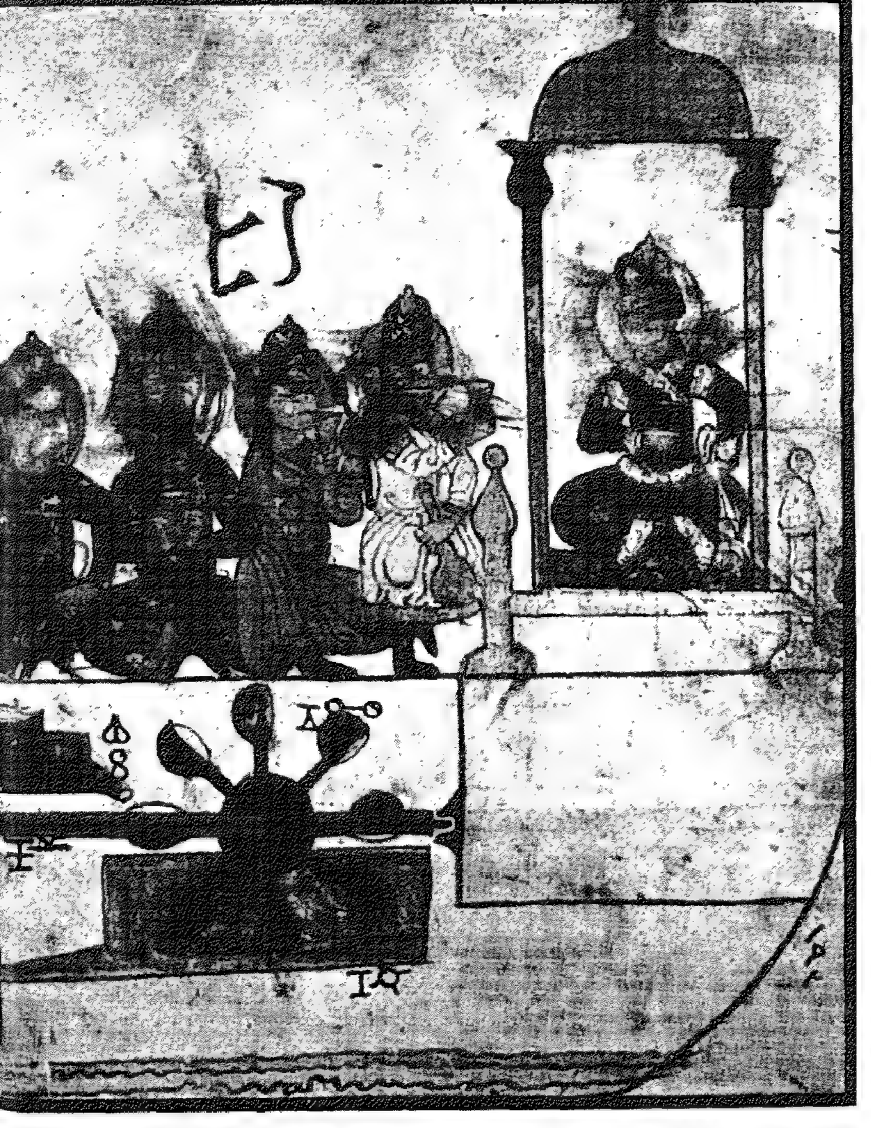
علماء مشهورون يعملون في مراكي

يبدو أن مرصد مراكي كان مركزا علميا لأبحاث في مجالات عدة: الفلك، الفيزياء، البصريات، الحساب. تدلنا مراجع ومؤلفات تاريخية على أن عددا كبيرا من العلماء عملوا فيه، ومنهم: قطب الدين شيرازي، مؤيد الدين الأرزي الدمشقي، محيي الدين المغربي، نجم الدين دابيران، كاتب قزويني، فخر الدين مراكل، فخر الدي اخلاطي. وقد عملوا باشراف نصر الدين الطوسي. ولقد كان مرصد مراكي مركز تعليم يخرج المختصين والعلماء. وتشير المراجع إلى أن طلابا من الصين، طلبوا العلم فيه. ●

تاريخ ظهور التكنولوجيا

الأساس المادي لمنشأ التكنولوجيا

لا يزال العلم البرجوازي يعلم على ان التكنولوجيا قد نشأت وتطورت في الغرب فقط، كما لا يزال العديد من الاقتصاديين والعلماء في «العالم الثالث» يعتقدون ذلك، وهم يرون أن التكنولوجيا بعد ان نشأت وتطورت ووصلت لما هي عليه من الارتقاء في سلم التطور في الغرب، حينئذ بدأت بهجرتها ونزوحها إلى «العالم الثالث»، وهي حسب رأيهم قد هاجرت في بادىء الأمر إلى الدول ذات العلاقة الوطيدة مع الدول الأوروبية، والدول القريبة منها، ثم انتقلت إلى بلدان «العالم الثالث» الأخرى. وقد



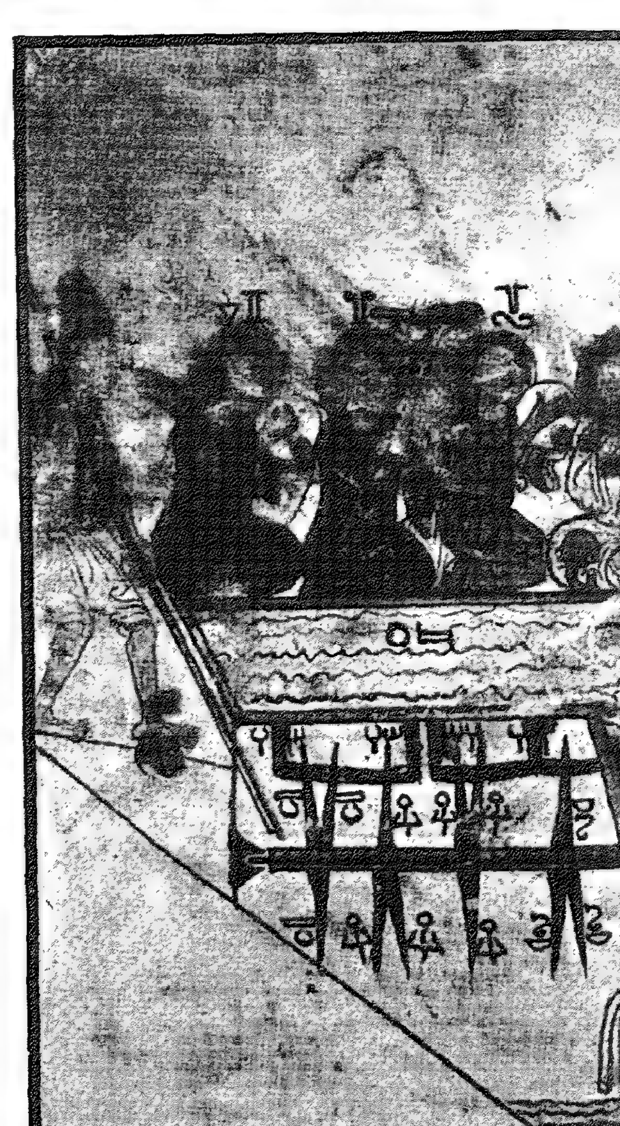


□ قارب آلي يحمل دمى صغيرة متحركة، صممه الجزري.

في «العالم الثالث»

عبد الباقي شنان

انتقلت التكنولوجيا حسب رأيهم إلى بلدان «العالم الثالث» بعد أن تلمست هذه البلدان التنمية والبناء، ورغم اقتناع العديد من العلماء والاقتصاديين والباحثين في «العالم الثالث» بهذا الزعم، إلا أن زعمهم يبقى زعماً خاطئاً تماماً. على الرغم من أن لمزاعم هؤلاء تأثيراً مباشراً في اقتصاديات بلدانهم ومسار



التنمية الاجتماعية فيها. وأن الأمر لا ينتهي ضرره بحدود زعمهم الخاطىء على الاقتصاد والتنمية الاجتماعية، بل يتعداه إلى ضرر جسيم يصيب أو يشمل البنية الاجتماعية.

وفي حال كهذا ليس غريباً أن نجد المثقف في «العالم الثالث» يندهش حينما يدور الحديث عن تاريخ أو منشأ التكنولوجيا العربية، او الآسيوية، أو الافرقية، الأميركية اللاتينية. ذلك لأنه يقف على ارث أو أرضية تعليمية رسخت عنده القناعة على أن التكنولوجيا ذات أصل أوروبي غربي، انتقلت حديثاً من أوروبا إلى بلدان «العالم الثالث».

لقد استطاع الاستعمار الأوروبي والدوائر التعليمية والاقتصادية البرجوازية في «العالم الثالث» ترسيخ الاعتقاد القائل: بأن بلداننا لا علاقة لها بالتطور العلمي — التكنولوجي. ذلك لأن للاستعمار أطماعه الاستغلالية في سلب خيراتنا، وطبيعي فأن ذلك لا يتحقق له دون تضليل هذه الشعوب بإشاعة الجهل والفقر والتخلف والمرض. والاستعمار استغل تصدير التكنولوجيا الحديثة من الغرب إلى بلدان «العالم الثالث» ليتبجح على أنه المنقذ لهذه الشعوب من تخلفها وجهلها.

أما الدوائر التعليمية كالمدرسة والجامعة فقد خدمت غايات الاستعمار بشكل مقصود أو غير مقصود، وذلك بربطها لتراث بلداننا بالسلالات القبلية (العشائرية) والطائفية، وبسلالات الأسر المتعاقبة على دفة الحكم والسلطان. ناهيك عما كان يفرزه التعليم الشعبي (الملالي) والاجتماعات والمناسبات اللاهوتية، والمشعوذين، والجدات، وانتشار المجالس الاقطاعية. حتى أن الناس كانوا يعتبرون أن المجالس الاقطاعية بمثابة مدارس أو أنها تعوض عن المدرسة، ولعل المثل الشعبي القائل «المجالس مدارس» قد جاء تعبيراً عن ذلك.

لقد علمت المجالس الاقطاعية أسوة بالمدارس الملائية (الملالي) والمناسبات اللاهوتية: بأن العلم والتكنولوجيا أعمال شيطانية وزندقة، لا بل كانت المجالس الاقطاعية والاهوتية تحارب حتى المدرسة البرجوازية نفسها، فعلى سبيل المثال، كان الاقطاع يحارب فكرة إيجاد مدارس في الأرياف، كما كانت العادات والتقاليد البائدة تحرم على البنات الذهاب إلى المدارس، وقد شمل ذلك المدن الكبرى، وإذا حدث وسعف الحظ بعضهن في الدخول إلى المدرسة، فإن عدد كبير منهن يحرمن من التعليم الجامعي وأحياناً كثيرة يحرمن من التعليم الثانوي. ولذلك فإن مجتمعاتنا لا تزال تعاني من انتشار الأمية خاصة في صفوف النساء. هذا ناهيك عن التخلف المريع في مناهج المدرسة البرجوازية، تلك المناهج التي اهملت الأدب وأصناف التراث المختلفة، ولم تهتم سوى بأنواع محددة من الأدب والفن وبأصناف قليلة وسطحية من التراث.

ولفترة قريبة من الزمن، أي قبل ثلاثة أو أربعة عقود زمنية كان الناس المحترمون في العديد من بلدان «العالم الثالث» هم: المشايخ ورجال الاقطاع وحاشيتهم، في حين كان المجتمع يحتقر أولئك الناس الذين يمتهنون الحرفة كالحياكة (الحائك) والنجارة (النجار) والحدادة (الحداد).. إلخ. وهؤلاء كانوا في العديد من البلدان يعاملون معاملة أناس من الدرجة الثانية، الأمر الذي حد كثيراً من تطور الحرف لا بل ادى إلى ضمور واختفاء العديد منها.

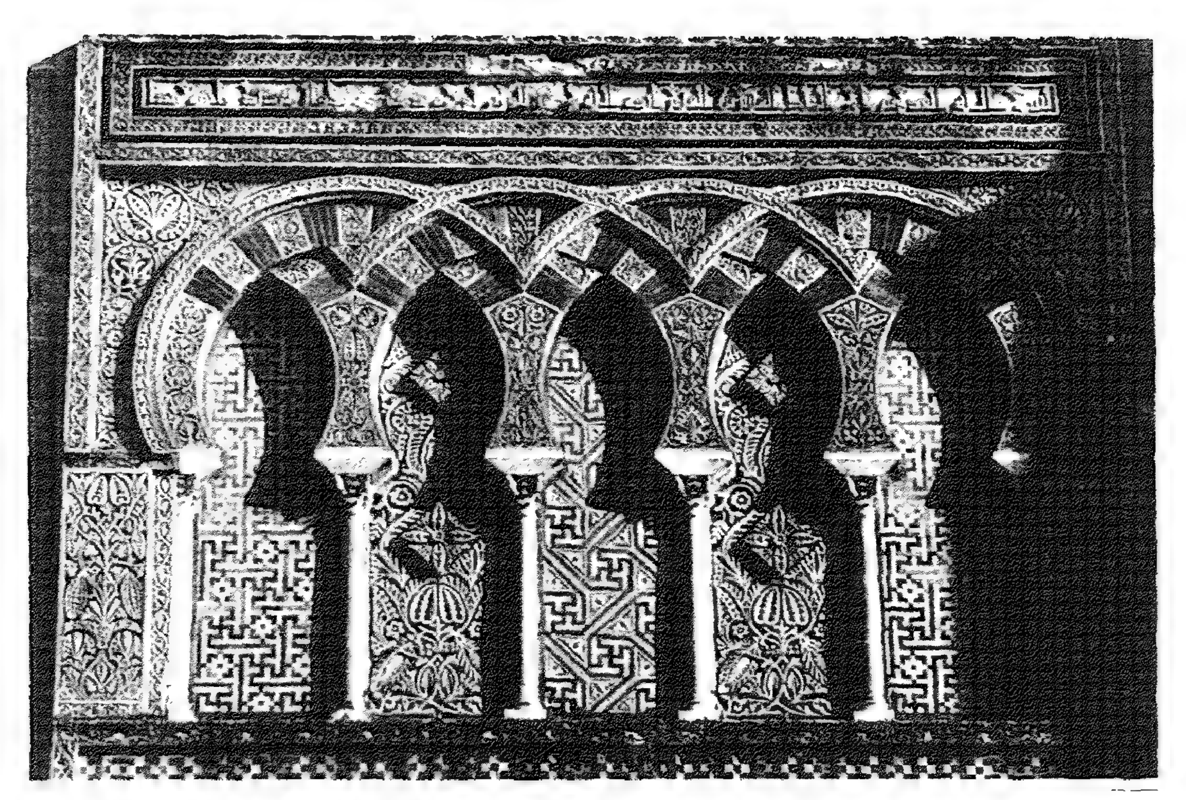
إذن في وضع كهذا كان لا بد أن تسود فيه الأنماط الانتاجية المتخلفة، كالأنماط الانتاجية البضاعية البسيطة، والأنماط الانتاجية الاقطاعية، أو شبه الاقطاعية، والأنماط الانتاجية البطريركية (الأبوية). وطبيعي فأن شيوع مثل هذه الأنماط الانتاجية في البنى الفكرية والاقتصادية والاجتماعية ظلت فاعلة لأزمنة حديثة، جعل من مجتمعات «العالم الثالث» وحتى الساعة مجتمعات استهلاكية بدل أن تكون مجتمعات إنتاجية.

ولكن مع أفول عصر الاستعمار، وغروب عصر السيطرة الامبريالية والاستعمار الجديد، ومع بروز عصر التحرر الوطني، برزت في «العالم الثالث» مجموعة فاعلة من العلماء والمفكرين والاقتصاديين والسياسيين والايديولوجيين، وتعتمد في تفكيرها وبحوثها ودراساتها الفكر العلمي التقدمي. وقد تناسق التطور الفكري والعلمي لهذه المجاميع الطلائعية مع تطور حركة التحرر الوطني في «العالم الثالث»، وتطورت أكثر فأكثر حينما برزت دول وطنية تهتدي بأفكار نقيضة للامبريالية والاستبداد، لا سيما وأن العديد من هذه الدول قد تبنت عن حق وبإخلاص أعمال ونشاطات علمائها واقتصادييها، وشجعت نتاجاتهم العلمية والتكنولوجية، كما شجعت كل عودة بحثية أو تنقيبية إلى التاريخ، وكان رائدها في ذلك هو دفع شعوبها نحو الرقي والتقدم.

وإلى رعيل الرواد في عصر الاستعمار، ورعيل الرواد في عصر النهوض، الوطني، إلى هؤلاء العلماء والباحثين والاقتصاديين والتكنولوجيين، يعود الفضل الأول في تنظيف أذهان جماهير واسعة من ظلمات البرامج التعليمية للمدرسة البرجوازية، ومن الشعوذة والخرافات، وإلى هؤلاء الرواد يعود الفضل الأول أيضاً بإعادتنا إلى حضارات قارات آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، ودراستها دراسة نقدية ما أمكن إلى ذلك سبيلا.

وقد ساهمت هذه المجاميع الطليعية، المفكرة والباحثة، بمعرفة تاريخ التكنولوجيا في «العالم الثالث»، واستدلالنا إلى هذا التاريخ، كما ساهمت أيضاً وإلى درجة معلوم بدحض الآراء القائلة بأن منشأ التكنولوجيا في أوروبا فقط.

وبمساعدة هذه المجاميع الطليعية استطعنا أن نرى العلماء والاقتصاديون والباحثون البرجوازيون الغربيون على حقيقتهم، واستطعنا أن نميز دراساتهم ذات الاتجاهات المعادية لحضارات بلدان «العالم الثالث»، خاصة تلك الدراسات التي تتناول علوم واقتصاد وتاريخ «العالم الثالث»، وبذلك يشير الدكتور أحمد يوسف الحسن، إلى تناول هؤلاء للحضارة العربية واصفاً دراساتهم لحضاراتنا بأنها «تميزت بتصاعد الاتجاه المعادي للحضارة العربية، وتعمد تشويه الحقائق التاريخية»[1]، وبذلك فلا غرابة في الأمر حينما يرمز الأوروبي



□ جانب من الجدار الخارجي فوق إحدى بوابات جامع قرطبة الكبير، وفيه استخدم «التوريق» (الارابسك) كوسيلة معمارية وزخرفية استخدمها العرب في البناء.

الغربي إلى العربي، على أنه: إنسان بدوي متخلف لا يعرف في حياته سوى الجمال (جمع جمل)، في حين يتناسى مفكروا الغرب البرجوازي، إنه في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تغرق في ظلام دامس، كان العرب يحملون ظهور جمالهم بمختلف البضائع لتصديرها إلى بقاع مختلفة من الأرض، كما تناسوا أيضاً: أن جيوش أجدادنا العرب كانت قد دكت حصون جنوب فرنسا، كما غضوا الطرف وعن عمد عن أصل حضارتهم الحديثة، أصلها العربي (السومري والبابلي والفرعوني واليمني والكنعاني والأموي والعباسي والأندلسي) وأصلها والهندي والصيني، نقلها لهم العرب عبر الأندلس، ونقلوها هم عبر حروبهم الصليبية (سيئة الصيت). لقد نسوا بأن صناعة الطباعة والورق والبارود هي ليست لهم، بل للأمة الصينية العظيمة، وإن علم الحيل الميكانيكي هو علم أبدعه المهندسون العرب قبل عدة قرون.

وكان وما يزال العديد من العلماء والاقتصاديين والباحثين في الغرب ينكرون على حضارات «العالم الثالث» أسسها المادية ومستوياتها التكنولوجية، وبطبيعة الحال فإن هذا الأمر أمراً باطلاً وظالماً، لأن الحضارة العربية امتازت بأسسها المادية ومستوياتها التكنولوجية، خاصة في العصر العباسي. والعرب الذين لقنوا المعتدين الصليبيين درساً بالغاً، والحقوا الهزيمة بجيوشهم الجرارة، تلك الجيوش التي أعدتها أكبر الدول الأوروبية وزودتها ما لديها من أسلحة ومعدات حربية، لم يتمكنوا من كل ذلك دون أن يكون لهم قوة عسكرية تكنولوجية هامة، لا سيما وأن جيوشهم كانت أقل عدداً من الجيوش الأوروبية الجرارة، وبذلك فقد تمكن العرب من سحق العدوان الهمجي للجيوش الأوروبية بشجاعة الجندي العربي واستبساله وإيمانه بدفاعه عن أرضه، وبإعداده للقتال إعداداً جيداً، وبامتلاكه أداة قتالية متطورة في أساسها المادي ومستواها التكنولوجي.

تاريخ التكنولوجيا في المنطقة العربية

للتكنولوجيا في المنطقة العربية ماض سحيق في

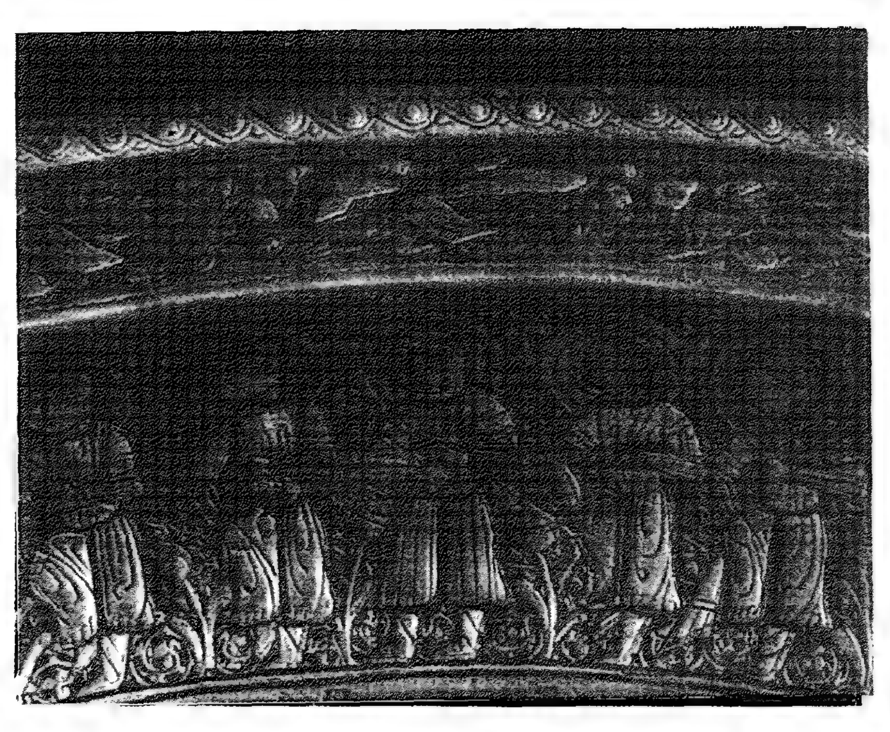
القدم، يعود إلى أولى أدوات إنتاج الانسان البدائي. وكان وجود التكنولوجيا محدد بوجود الانسان وأدواته الانتاجية البدائية، فقد استطاع الانسان البدائي بأدواته الانتاجية البسيطة إنتاج النار بعد أن اكتشفها عن طريق الصدفة، كذلك الحال بالنسبة للزراعة، وبعد أن تقدم وتطور في إنتاجه الزراعي استقر حول الأنهار ومناطق الرعي والصيد البري والبحري، ثم أوجد وبنى الحضارات التي تعمقت وتعقدت بتعمق معرفته وتعقد أدواته الانتاجية، حيث بنى الطرق والجسور والقصور الفخمة والحدائق الزاهرة الغناء، وأوجد له صناعات معينة وطورها، كما طور زراعته وفنونه وعلومه، وبنى المدن الكبيرة والعامرة والمعابد المهيبة. ثم تطورت كأدوات عمله كثيراً، ومارس الزراعة والتجارة والصناعة، وطور صناعاته وتاجر بمنتوجاته، مثلاً: اهتم المصريون بالصناعة في الألف الثالث قبل الميلاد(*). يقول في ذلك مؤلفوا كتاب «تاريخ العرب» لقد كان مبعث اهتمام المصريين في شبه جزيرة سيناء، لما فيها من مناجم النحاس والفيروز المتوافرة في وادي مغارة بجنوب سيناء قريباً من البلدة المعروفة اليوم بالطور، وفي العهد السابق لفجر التاريخ المصري كان بدو سيناء يبيعون هذه المنتوجات الثمينة في أسواق وادي النيل. ولقد تولى فراعنة السلالة الأولى شؤون التعدين في سيناء ولكنها لم تبلغ دور استثمارها الزاهر إلا أيام سنغرو نحو (٢٧٢٠ ق.م) من فراعنة السلالة الثالثة، وكانت الطريق العظمى التي تربط مصر بسورية وفلسطين وتصل منها إلى أنحاء الهلال الخصيب وآسيا الصغرى — وهي أول طريق أممية سلكها الانسان في التاريخ — يتجه منها فرع جنوبي غربي إلى مناجم النحاس والفيروز في سيناء»[٢].

وتوصل المصريون إلى اكتشاف النحاس نحو عام (٥٠٠٠ق.م)، واستخدموه في وجوه كثيرة، وبعد ذلك التاريخ وقعوا على عدد كبير من المعادن، واستطاعوا مزج النحاس بالقصدير للحصول على (النحاس الأصفر)، وكان ذلك نحو (٣٠٠٠ ق.م). ويشير بعض الباحثين بأن المصريين كانوا يأتون بالقصدير من جنوب العراق. ولما حلل العلماء المعاصرون عدداً من أدوات المصريين القدماء المصنوعة من النحاس الأصفر تحليلاً كيماوياً وجدوا فيها من القصدير مقادير تبلغ من ثلاثة بالمائة إلى أربعة عشر بالمائة، كما وجدوا في بعضها مقادير قليلة من الكوبالت والزرنيخ والحديد والنيكل.

كما عرف المصريون طلاء الفخار بالألوان نحو (٣٤٠٠ ق.م)، وحصلوا على الصبغ الأزرق من النبات نحو (٢٠٠٠ ق.م)، وصنعوا الزجاج على نطاق واسع، وقد صنعوا الزجاج من الرمل بنسبة (٦٦ — ٧٣ ٪) مضافاً إليه أوكسيد الصوديوم والكلس الحي وأوكسيد الحديد المائي وأوكسيد الألمنيوم وأوكسيد المنغنيز. وكانت تستخدم هذه المواد في صناعة الزجاج لتصفية لونه أو لتلوينه بألوان مختلفة، ألوان عدة كانت مرغوبة في ذلك العصر. كما عالجوا الحديد فجعلوا منه فولاذاً[٣].

وبرع المصريون القدماء في الميكانيكا القديمة المتسمة بالمهارة والبراعة والحذق، وقد سمى المصريون علم الميكانيكا بالآلات الرافعة، وكانوا يستعملونها في البناء خاصة بناء الاهرامات. وقد استعملوا وسائل وأساليب هندسية شديدة الأحكام والتعقيد، ومن اهم الوسائل على الاطلاق التي استعملوها كان «السطح المائل»، فقد استخدموا السطح المائل في بناء الاهرامات، كما هو الحال في هرم خوفو الذي يرجع تاريخ تشييده إلى ثلاثة آلاف سنة خلت، وهرم خوفو يتكون من ٢٣،٣ مليون قطعة حجرية، يصل وزن

(*) قد يتساءل القارىء أو المثقف العربي، عن جدوى عودتنا إلى الماضي، وما الضرورة التي تكمن في البحث عن أمجاد عابرة؟ لكن سؤال كهذا قد يكون قد تولد عن مشاعر سلبية رافضة البحث في الواقع المادي للحضارة ومستوياتها التكنولوجية، ولمثل هذه المشاعر السلبية ضرر كبير، حيث أنها تفل من عزيمة المثقف وتؤثر على مسيرته التقدمية والعلمية، لذلك يقتضي الفهم على ان «البحث في التراث ليس عودة إلى الماضي فحسب، (بل) إنه دراسة للعوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي بعثت الحضارة... وهو أيضاً بحث في العوامل السلبية التي أوقفت مسيرة تلك الحضارة. وهو بالتالي بحث في العوامل التي تساعد على نهضة الأمة من جديد» د. أحمد يوسف الحسن، المصدر السابق.



□ فن ترصيع البرونز بالفضة والنحاس والذهب في العالم العربي (القرن السادس للهجرة).

الحجر الواحد منها بالمتوسط ٢,٥ طن. يقول في ذلك الدكتور محمد عبدالرحمن مرحبا: «لقد كان استعمال السطوح المائلة من أهم الوسائل التي تساعد على بناء هذا الهرم، لأن الطريق إليه كان مائلاً يبلغ ارتفاعه ٤٥,٨ متراً وبذلك تكون زاوية الارتفاع ٥,٣ درجة، وقد أعطى هذا الارتفاع بناة الهرم مكسباً كبير في رفع الأجسام الثقيلة على هذا الطريق. وقد استعانوا لتحقيق ذلك طبعاً بوسائل أخرى كالذراع والحلقة والحبل... إلخ»[٤]، ومن هنا نستدل أن هذا الاستخدام العظيم للأساليب التكنولوجية يدلل على تطور المعرفة التكنولوجية عند المصريين.

وإذا ألقينا نظرة عامة على تطور الأساليب التكنولوجية في حضرة وادي الرافدين، فأننا سنجد أن العراقيين كان لهم مبادىء عامة في علم الميكانيكا وظهر ذلك فيما توصلوا إليه من نتائج باهرة في علم الفلك ودراسة النجوم.. وكما هو معروف كان البابليون قد عرفوا «الشبه» (النحاس الأصفر) نحو عام (٣٠٠٠ ق.م)، ثم صنعوه نحو عام (٢٦٠٠ ق.م)، وذلك بمزج مقدار واحد من الرصاص بثلاثة مقادير من النحاس[٥].

ويستدل من الاستكشافات والأبحاث: إن طلاء الأواني النحاسية بالقصدير لمنع الصدأ والائتكمال (التأكسد) صناعة قديمة جداً، وهي لا تزال معروفة إلى اليوم بطريقة بدائية جداً حيث يحمون النحاس بالنار ثم يمررون عليه بقطعة من القصدير فيكتسي النحاس طبقة رقيقة من القصدير[٦].

وقد حدث في المنطقة العربية أول صهر للحديد في العالم وذلك نحو عام (١٤٠٠ ق.م)، وكانت خاماته تصهر في أفران مبنية من الحجارة نحو عشرة أقدام في الارتفاع، وأما قطرها فطوله ثلاثة أقدام. وكان الوقود الذي يستخدم لتلك الأفران هو الفحم، وتنفخ النار بمنفاخ ويظهر أن الفلسطينيين[*] كانوا قد استخدموا الحديد،

(*) الفلسطينيون: هم أقوام نزحوا من جزيرة «كريت» في القرن الخامس عشر، واستقروا في منطقة «الكسلوحيم» التي هي الشطوط المصرية على البحر المتوسط، وقد أطلق عليهم المصريون «الكسلوحيم» أو سكان البحر، اما اسمهم الحقيقي فهو «بلست» ولكن التوراة ذكرهم باسم «الفسلطينيين».. وحينما تكاثروا ضايقوا القوافل المصرية وأغاروا على بعض البقاع، وبذلك جهز الفرعون رعمسيس الثالث جيشاً جراراً فضربهم، وقتل معظمهم وأسر الباقين وأسكنهم الساحل الجنوبي من فلسطين وذلك في القرن الثاني عشر قبل الميلاد... راجع: مقالة لي في مجلة «تاريخ العرب والعالم»، نيسان (ابريل) ١٩٨٣، ص ٧٢ ــ ٨٥.

وحافظوا بتدقيق على أساليب صنعه، وانتشر استخدام هذا المعدن بين العبرانيين بعدما هزم شاول وداود الفلسطينيين[٧].

وعرف الفلسطينيون (الكريتيون) أصباغ الأرجوان (اللون الأحمر) الجميل المعروف باسم «لون الملوك» وقد استخرجوه من نوع خاص من التراب، والفينيقيون أيضاً كانوا قد استخرجوا الأرجوان، إلا أنهم استخرجوه من حيوان بحري صدفي يكثر في مياه الشواطىء اللبنانية والسورية.

هذه صورة موجزة عن الأسس المادية للتكنولوجية العربية في أصل الحضارات العربية القديمة. وقد تطورت هذه الأساليب في مرحلة ما قبل الاسلام.

التقدم العلمي ـ التكنولوجي العربي قبل الاسلام

بمرور الزمن تحسنت معارف العرب العلمية وأساليبهم التكنولوجية في تطوير صناعاتهم، كما تقدموا في الاستكشافات الجديدة وإيجاد طرق فاعلة في التعامل مع أنواع المعادن والمواد الأخرى التي أدخلوها في صناعاتهم. وقد ورد في شعر الحطيئة إشارات إلى ذلك حيث قال:

وحصى الكثيب بصفحتيه كأنه
خبث الحديد(*) اطارهن الكير(**)[٨]

ومن هذا القول يمكن الاستنتاج أن العرب الذين سبقوا الاسلام بقرنين أو ثلاثة قرون كانوا على قدر من المعرفة تخولهم التمييز بين أنواع الحديد المختلفة.

ويبدو أن صناعة الحديد كانت منتشرة في الجزيرة العربية وخاصة في اليمن السعيد، ويمكن الاستدلال على ذلك من قول أمية بن خلف الهذلي وهو يذكر الكير والنفخ في شعره.

يمانيا يظل يشد كيرا
وينفخ دائبا لهب الشواظ[٩]

وقد اشتهرت بلاد اليمن في صناعات مختلفة، وهذه البلاد كانت قد سبقت غيرها من بلدان الجزيرة العربية في صناعة المعادن وخاصة الصناعات الحديدية، ولعل كثرة الحديد في بلاد اليمن، واشتهارها به هو الذي جعل بلاد اليمن ذات شهرة واسعة بين العرب قبل الاسلام.

ويكثر الحديد «بعدن وفي الأراضي الممتدة بين صعدة والحجاز وفي نجران أيضاً جبل يستخرج منه معدن الحديد، وفي نقم وغمدان يوجد أيضاً معدن الحديد»[١٠].

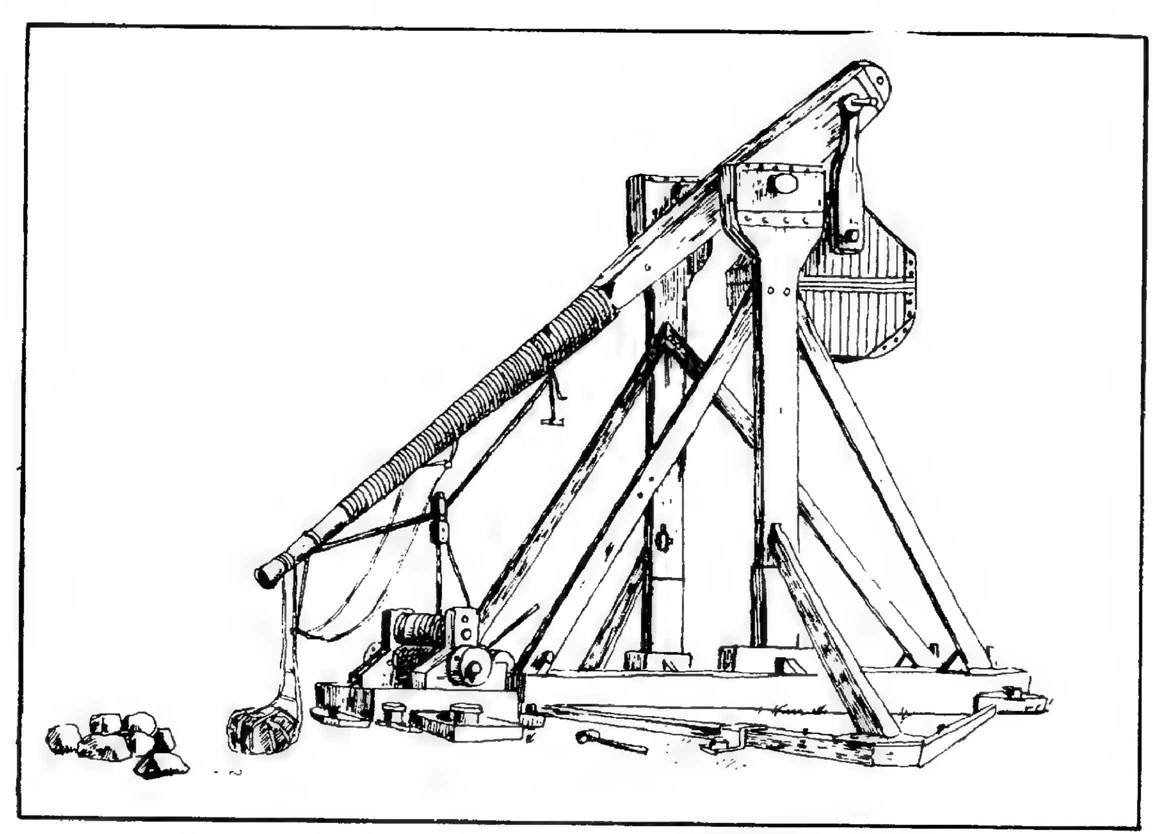
ولوجود الحديد بكثرة في بلاد اليمن والجزيرة العربية تفنن العرب بصنعه في هذه البقاع كما طوروا علومهم ومعارفهم في استخراجه وتصنيعه. يقول الدكتور حسين مروة: «كان معدن الحديد متوفراً في مضارب قبيلة بني سليم التي اشتهرت بصناعة الحديد، كما اشتهروا بصهره وتنقيته»[١١]. كما يذكر أن أول من صنع السنان هو «ذويزن» (ديرون الحميري)[١٢].

وقد عثر المنقبون العرب وغيرهم على عدد كبير من أدوات الصهر والأفران المستخدمة في صهر الحديد واستخلاصه من المواد الغريبة العالقة به وتصنيعه، وقد ذكر «فؤاد حمزة» في معرض تطرقه لهذا الموضوع أنه عثر في جبل (تهلل) بجوار السودة في عسير على عشرات النقر لاذابة المعادن. وقد كان العرب في هذه البقاع يصنعون خام الحديد بعد عملية استخراجه في هذه النقر، ولاذابته يوقدون الأغصان والأخشاب لايجاد النار الكافية لاذابة المعدن، فإذا ذاب المعدن بالشكل المطلوب قاموا باستخلاصه من المواد العالقة به، ثم تجري له معالجة خاصة لتنقيته واستخراج فحمه، والمواد الأخرى التي تجعله هشاً قابلاً للكسر والثلم بسهولة، وتجري معالجته عدة مرات إذا كانوا يريدون حديداً تام النقاوة لاستخدامه في صناعة أدوات (مواد تتطلب تلك النقاوة، كصناعة السيوف الجيدة)[١٣].

ولم يقتصر وجود صناعة الحديد في المدن العربية الكبرى، بل انتشر في المدن الصغيرة وحتى في البادية، وقيل أن أول من عمل الحديد في البادية هو «الهالك بن مراد بن أسد بن

(*) المقصود هنا بخبث الحديد هو، الحديد غير الجيد، حيث كان العرب يطلقون على الحديد، الحديد الجيد والحديد الخبيث.

(**) الكير أو المنفاخ، هو من أهم أدوات الحدادين، والحداد يوقد في الكير النار ليحمي الحديد ويجعله ليناً يسهل طرقه واعطاؤه الشكل المطلوب. وعادة يستعمل الحداد المطرقة لطرق الحديد.



□ المنجنيق، إحدى الآلات التي استعملها العرب في فتوحاتهم الأولى.

خزيمة»[١٤]. وقيل: أن «بني أسد يقال لهم القيون، لأن أول من عمل الحديد بالبادية الهالك بن أسد»[١٥].

والصناعات الحديدية عند العرب في الجزيرة العربية عديدة ومتنوعة فمن الفولاذ (الحديد الجيد) صنعوا أجود أنواع السيوف، ومن الحديد صنعوا أيضاً باقي الأسلحة.

وصناع السيوف لم يكتفوا بصناعة السيوف فقط، بل كانوا يملكون المعارف والطرق لتجميل صناعاتهم. ويذكر العرب «أن سعد بن جد قصي لامه، كان أول من حلى السيوف بالذهب والفضة وهو الذي أهدى إلى (كلاب) — والد قصي — مع ابنته (فاطمة) — والدة قصي — سيفين محليين، فجعلا في خزانة الكعبة»[١٦].

وقد استخدمت الأدوات والآلات الحديدية ذات الصنع العربي في الزراعة «بما في ذلك سكة المحراث»[١٧].

وما ينطبق على التفنن في الطرق والأساليب في الصناعات الحديدة ينطبق على الصناعات النحاسية، فتكنولوجيا الآلات والأدوات كانت هي الأخرى قد شهدت عزاً وتطوراً ملحوظين، فلنتأمل الأبيات الشعرية الثلاثة للهمداني[١٨] في وصف قصر غمدان.

يسموا إلى قصر السماء مصعدا
عشرين سقفاً سمكها لا يقصر
ومن السحاب معصب بعمامة
ومن الرخام منطق ومؤزر
وبكل ركن رأس نسر طائر
أو رأس ليث من نحاس يزأر

كان في قصر غمدان رؤوس أسود صنعت من النحاس وهي التي قصدها الهمداني في شعره، ومن براعة الصناعة والتفنن في هذه الرؤوس النحاسية، ندرك مدى التقدم التكنولوجي عند العرب الحميريين وإلى أية درجة من المستويات الفنية كانوا قد وصلوا في صناعاتهم، فمثلاً أسودهم النحاسية مارة الذكر كانوا قد صمموها بحيث إذا حدث ريح ودخلت أجواف الأسود

النحاسية، فأن هذه الريح تزار في أجواف الأسود كما تزأر الأسود الحية.

وإن استخدام الحميريون للأساليب التكنولوجية في صناعاتهم أوصلهم إلى صناعة سك النقود، حيث ضرب ملك حمير نقوداً «من الذهب والفضة والنحاس، تحمل صورته على أحد وجهيها، وصورة بومة على الوجه الآخر»[١٩].

اما صناعاتهم البرونزية فما وصلنا منها يدل أيضاً على تقدم تكنولوجي ومعرفي هام، فمن الأشياء الثمينة التي عثر عليها في (تمنع) القتبانية تمثالا أسدين صنعا من البرونز على ظهر أحدهما راكب، يحمل بإحدى يديه سهماً وباليد الأخرى سلسلة قد انفصمت، وفي رقبة الأسد طوق يطوق عنقه. كما ورد في كتابات الدكتور جواد علي، حيث كتب قائلاً: «وكتب التوفيق لسائح أوروبي آخر، هو الضابط الانكليزي (Coghlan) فحصل سنة ١٨٦٠م على عشرين لوحاً برونزياً سليماً، عثر عليها في أنقاض مدينة عمران. وقد أرشدت هذه الألواح المعدنية المستشرقين»[٢٠] إلى ناحية مهمة من البراعة التكنولوجية والتقدم العلمي والفني عند أجدادنا العرب.

وقد اشتهرت الجزيرة العربية أيضاً باستخراج الذهب، وقد ورد في الأغاني «انهم حفروا حفيراً في زمن مروان، فوقفوا على أزج له باب، فإذا هم برجل كأعظم ما يكون من الرجال، عليه خاتم من ذهب وعصابة من ذهب وعند رأسه لوح من ذهب مكتوب فيه»[٢١]، وقد استطاع العرب من صنع تيجان ملوكهم من الذهب والعاج والحجارة الثمينة، كما صنعوا اثاثاً فاخراً وآنية منقوشة[٢٢].

كما كتب الدكتور جواد علي بأن علماء الآثار كانوا قد عثروا «في تمنع عاصمة القتبانيين على رأس لفتاة منحوت من رخام أبيض معرق، كما عثر على بقايا ملابس وأخشاب متآكلة وعلى حلي بعضه من ذهب، ومن جملتها عقد ذهب يتألف من هلال فتحته إلى الأعلى، اما حاشيته فإنها مخرمة، وقد زين الهلال باسم صاحبته»[٢٣].

وجاء ذكر الذهب في أكثر من مكان مما يدلل على أن الذهب كان رائجاً في شبه الجزيرة العربية، وذكر القرآن الذهب في الآيات التالية: «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث»[٢٤]، و «الذين يكنزون الذهب والفضة»[٢٥]، و «أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب»[٢٦]، و «جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً»[٢٧].

ولأهل الجزيرة العربية طرقهم الخاصة في استخراج الذهب وتصنيعه، فقد عثرت «شركة التعدين السعودية العربية» على أدوات استعملها العرب قبل الاسلام في استخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه، ومن الأدوات التي عثر عليها هي: رحى وأدوات تنظيف ومدقات ومصابيح وشاهدت آثار القوم في حفر العروق التي تكون الذهب[٢٨].

ويذكر أن في «يثرب»[٢٩] كان يوجد سوق للصناعة، وتعتبر مدينة «تدمر» مركزاً من مراكز الصناعة، فقد أشارت كتابة ترجع إلى منتصف القرن الثالث الميلادي إلى وجود نقابة «لصانعي الذهب والفضة»[٣٠].

وقد دخلت صناعة الذهب في عدة مواد مصنعة كالسيوف التي زينت فيها الأواني المنزلية الثمينة و «الجلود المذهبة (الأدم) التي كانت تصنع في الطائف واليمن»[٣١].

وشهدت الجزيرة العربية تطوراً في الأساليب التكنولوجية الخاصة باستخراج وصناعة كل من الحديد والنحاس والبرونز والذهب، كما تطورت أيضاً الأساليب التكنولوجية لصناعة الرصاص والكبريت والملح والفضة والمرجان واللؤلؤ والنقود والصناعات الدباغية والجلدية، وتطورت الأساليب التكنولوجية لصناعات أخرى مثل التطبيب والتجميل والخياطة وطحن الحبوب والخبز ــ إلخ.

تطور العلوم والتكنولوجية العربية بعد ظهور الاسلام

لم تتوقف حركة تطور العلوم والابداع التكنولوجي في المنطقة العربية بعد ظهور الاسلام سوى لفترة زمنية قصيرة، مردها انشغال العرب في نشر دينهم الجديد (الاسلام) واهتمامهم

بالفتوحات، ولكن حتى في هذه الفترة وجدت عندهم الأساليب التكنولوجية في صناعة السيوف، وبرز رائد الاسلام الأول النبي محمد ومعه ابن عمه الشاب الامام علي بن أبي طالب كرجلي سياسة وعلم. فمن أقوال النبي محمد الشائعة قوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» و «طلب العلم واجب على كل مسلم ومسلمة» و «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» و «اطلبوا العلم ولو كان في الصين».

والنبي محمد أول من حارب الأمية في الجزيرة العربية في السنوات الأولى لثورته، حيث أمر الأسرى القريشيون الذين يقرأون ويكتبون، أن يعلمون أتباعه (الصحابة) القراءة والكتابة وهذا بحد ذاته عمل جليل للانطلاق بالجزيرة العربية من الظلمات إلى النور.

إن أول من مارس الأمور العلمية والمعرفية في الاسلام بشكل ملموس واتخذها له عملاً، هو خالد بن يزيد بن معاوية، الذي درس الكيمياء والطب، وأمر بنقل الكيمياء والطب إلى العربية[٣٢]، ولكن للأسف الشديد لم يصل إلينا اي كتاب مؤلف أو مترجم من العصر الأموي لحد الآن.

أما العصر العباسي فيعتبر عن حق، عصر العلم العربي والابداع التكنولوجي، حيث بلغت الحضارة العربية في هذا العصر أوج تطورها.

ففي هذا العصر اتسعت الثقافة العربية اتساعاً كبيراً لما دخل عليها من ثقافات الأمم الأخرى، نتيجة حركة الترجمة الواسعة، وتبني الدولة بشكل رسمي للثقافة والعلوم. فمنذ أيام أبي جعفر المنصور (ت ٧٧٥م) أصبحت الترجمة إلى اللغة العربية من اللغات في رعاية الدولة، وفي زمن الخليفة المأمون، نشأت أكبر مكتبة عرفها العالم في ذلك الزمان وهي، «مكتبة الحكمة» وقد زودها المأمون بأنفس الكتب من شتى أصقاع الأرض وأبقاعها، حتى أنه حينما انتصر على ملك الروم، سنة (٨٣٠م)، علم بأن اليونان كانوا ــ لما انتشرت الديانة المسيحية في بلادهم ــ قد جمعوا كتب الفلسفة من المكتبات وألقوا بها في السراديب، فطلب المأمون من ملك الروم أن يعطيه هذه الكتب مكان الغرامة التي كان قد فرضها عليه فقبل الملك «توفيل (يثوفيلوس)» بذلك وعده كسباً كبيراً له. أما المأمون فعد ذلك نعمة عظيمة عليه[٣٣].

كما اتسعت المعرفة في ميدان التكنولوجيا، خاصة التكنولوجيا الميكانيكية، التي انتقلت في بعض الأحيان عن طريق الكتابة، والتي اشتملت على زمرتين واضحتين: الأولى هي تلك الآلات المصممة للاستعمال اليومي كالطواحين وآلات ضخ المياه وأدوات الحرب، والثانية تلك الأجهزة التي صممت كي تثير الدهشة والمتعة الجمالية بالنسبة لدوائر البلاط التي كانت تأمر بصنعها. وقد برع في صناعة الزمرة التكنولوجية الميكانيكية الأولى أهل العراق، حيث عالج أهل البصرة مشكلة من أحدث مشكلات حركة الماء، وذلك أنه كان عندهم الجزر والمد، وكان الماء يزورهم كل يوم وليلة مرتين (كما هو اليوم)، ففي أثناء المد يدخل الماء الأنهار، وفي أثناء الجزر ينحسر راجعاً، فعمدوا إلى أرحية أقاموها على أفواه الأنهار ليديرها الماء في أثناء حركته خارجاً وداخلاً[٣٤]. ولم يكن الناس يستعملون الدواب في إدارة الطواحين إلا في الجهات التي ليس بها أنهار.

وكانت أكبر الأرحاء العائمة تقوم على نهر دجلة وتحديداً في مدن الموصل وتكريت وبلد والحديثة وبغداد. ولهذه الطواحين فصل تدور فيه، وهو المدة التي تحمل فيها الحنطة في السفن إلى العراق من أرجاء الامبراطورية العباسية إلى العراق. ويكتب آدم منز أستاذ اللغات الشرقية بجامعة «بازل. بسويسرا في كتابه «الحضارة الاسلامية في عصر النهضة في الاسلام» قائلاً: «وقد انتهى إلينا وصف مطاحن الموصل، فكانت تسمى الواحدة منها عربة، وهي مصنوعة من الخشب والحديد الذي لا يمازجه شيء من الحجر والجص، وهي تقوم في وسط الماء بسلاسل حديد، كل عربة فيها حجران، يطحن كل حجر منها خمسين وقراً في كل يوم. وكان أكبر رحى ببغداد رحى يقال لها البطريق، فقد كانت مائة حجر تغل في كل سنة مائة ألف درهم»[٣٥]

ويحكى عن أبي لؤلؤة فيروز، قاتل خليفة المسلمين الثاني عمر بن الخطاب، أنه قال: لو شئت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت[٣٦].

وكانت الرحى عادة تتكون من ثمانية أجنحة، وتكون وراء عمودين ينفذ بينهما الهواء كالسهم، والأجنحة تقوم عمودية على قائم عمودي أيضاً، طرفه الأسفل يحرك حجراً، فيدور هذا الحجر على حجر آخر(٣٧).

إن هذه الأساليب التكنولوجية التي تعتبر في وقتها أساليب متطورة جداً، كانت قد خدمت الزراعة والتجارة معاً، إضافة إلى كونها إنجاز صناعي هام.

أما بالنسبة للزمرة الثانية من التكنولوجية الميكانيكية فهي لم تكن بعيدة كل البعد عن الزمرة الأولى حيث أن بعض مبتكري الأجهزة البارعة أو «الحيل» مثل ابن الرازي، الجزري قد صمموا أيضا آلات مفيدة، فقد كانوا على معرفة كبيرة بأعمال النجارين ومركبي الطواحين واقتبسوا من هؤلاء الكثير من مفرداتهم، والكثير من تقنياتهم وأدواتهم وآلاتهم، كما تعلموا قدراً كبيراً جداً من تقنية الصناع المهرة الذين كانوا يصنعون أشياء وأشياء لأغراض كمالية وبيتية كالحدادين والصائغين والرسامين وصناع السيراميك(٣٨).

وإن الحديث عن الزمرة الثانية للتكنولوجيا الميكانيكية يعني الحديث عن أهم فروعها ألا وهو علم «الحيل»، والحديث عن علم الحيل هو من جهة حديث ممتع وشيق ومن جهة أخرى حديث يضعنا أمام أعظم الانجازات التكنولوجية للعرب.

□ **علم الحيل (الآلات)**: في السنوات السبع الماضية نشرت ثلاث مؤلفات هامة جداً في الهندسة الميكانيكية العربية، في اللغتين العربية والانكليزية في كل من حلب ولندن، والكتب هي «الجامع بين العلم النافع في صناعة الحيل» لأبي العز الرزاز الجزري، و «الحيل» لبني موسى، و «الطرق السنية في الآلات الروحانية» «لتقي الدين محمد بن معروف الراصد» وقد نشرت هذه الكتب الثلاثة والتي صدرت بالعربية نشرت في حلب.

وتمثل هذه الكتب تراث تكنولوجي عالي الرقي وغني في المعرفة، إضافة إلى كونها تعكس المستوى الميكانيكي والأساليب التكنولوجية عند أجدادنا العرب في العصر العباسي.

لقد كان للعرب في علم الحيل أهدافاً كثيرة، وكانوا يهدفون من وراء علم الحيل إلى البحث في الطرق الأسهل لجر ورفع الأثقال وتسيير الأجسام والآلات بالقوة اليسيرة، «فكان لهم في هذا المجال بحوث نفسية في الروافع وآلات الرفع وكلها مبنية على قواعد ميكانيكية. كما كانوا يهدفون إلى صناعة الآلات النافعة والمسلية في آن واحد. لذلك فقد انتشرت عند العرب صناعة الدمى والتماثيل المتحركة والأواني العجيبة»(٣٩).

ويأتي في طليعة العلماء الذين برزوا في علم الحيل والهندسة الميكانيكية كل من أبناء موسى بن شاكر والجزري والراصد وأبو عامر الأندلسي وكتابه «الباهر في عجائب الحيل» وابن العظيم كما نقل العرب عدة كتب تتناول التكنولوجية الميكانيكية، حيث نقلوا كتاب «الثقل والخفة» لاقليدس، وكتاب آلة ساعات الماء التي ترمي بالبنادق لارشميدس، وكتاب «المخروطات» لابلونيوس، وكتاب الآلات المصوتة المسماة بالارغن (ارغانون)(٤٠).

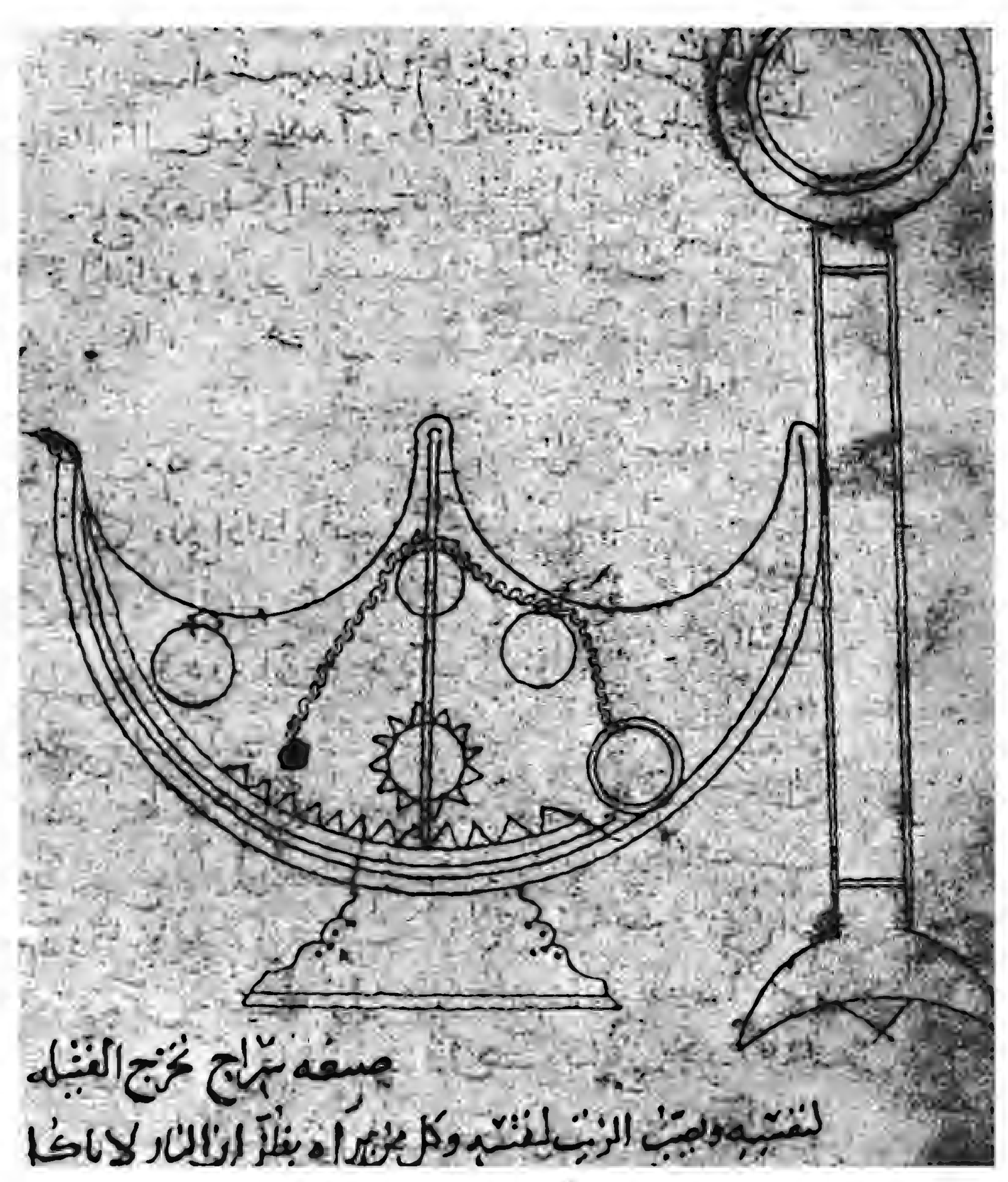
□ **أبناء موسى وعلم الحيل(*)**: ذكرنا أن لبني موسى كتاب مشهور هو «الحيل»، وقد وجد الباحثون ثلاث نسخ لهذه المخطوطة، النسخة الأولى في الفاتيكان تحت رقم ٣١٧، والثانية في توب كابي تحمل الرقم ٣٤٧٤، والثالثة في برلين وغوته، حيث وجد قسم في برلين تحت رقم ٥٥٦٣، وآخر في غوته تحت رقم ١٣٤٩(٤١).

وقد اطلع على هذه المخطوطة علماء غربيون فدرسوها وحللوها (منهم) «دونالد هيل» الذي ظهر كتابه تحت عنوان:

The Book of ingenious devies (Kitab al-Hiyal) by the Bana musa bin Shakir.

ويصف كتاب الحيل مائة جهاز: ثمانون منها من النوع الذي سماه العرب «الأواني العجيبة»

(*) موسى بن شاكر احد اشهر المنجمين في عهد الخليفة العباسي المأمون، له ثلاثة ابناء اكبرهم ابو جعفر محمد (ت ٨٧٣م)، يليه اخويه احمد والحسن، وقد اشتهر بنو موسى هؤلاء بالبراعة في الرياضيات والهندسة والحيل وعلم النجوم وفي الموسيقى، وقد اهتموا كثيراً بالترجمة، وبنوا في دارهم ببغداد مرصد للنجوم. ويعتبر فيهم أخوهم أبو جعفر محمد أوفرهم حظاً في الالمام بالهندسة وعلم الفلك، واحمد برع في علم الحيل، والحسن انفرد بعلم الهندسة.



□ رسم بياني لسراج من السرج المتبرقشة تلقائياً، من «كتاب الحيل» لأحمد بن موسى.

وهي أجهزة تعمل تلقائياً. وتتألف الأجهزة الباقية من الفوارات التي تتغير أشكالها تلقائياً في فترات زمنية معينة، ومن المصابيح التي تغذي نفسها تلقائياً، ومن أجهزة أخرى. ومنها جرافة ميكانيكية لالتقاط الأشياء من قاع البحار والأنهار(٤٢).

ووصف بنوا موسى أجهزتهم بكل وضوح ودقة في كتاباتهم، وقد كانت آلاتهم وأوانيهم بمثابة «النواة التي تطور منها علم التحكم الآلي». ولا تزال بعض مبادىء التحكم الآلي الحالية مشابهة لبعض المبادىء الواردة في كتاب الحيل. وتعتمد معظم أجهزة بني موسى على مبدأ توازن

السوائل.. وعلى مبادىء الميكانيك»[٤٣].

وقد كان بنوا موسى إضافة إلى تمكنهم من المبادىء النظرية على جانب كبير من الخبرة العملية، حتى أنهم كانوا يتعاونون مع حرفيين ماهرين من أجل تنفيذ تصاميمهم، وهذه الصلة الرابطة بين المصممين والحرفيين تدل على تبادل الرأي للتأكد من سلامة التصميم، وتدل أيضاً على أن العلم كان لا يقف عند حدود النظرية، بل يتحول إلى تطبيق عملي.

ونشير هنا إلى بعض التصاميم أو التركيبات الميكانيكية عند بني موسى في كتابهم الحيل، فالمضخة المائية التي كانت تسمى كأس العدل، يصفون لنا بنو موسى فيها كيفية عملها على الشكل التالي: «نريد أن نبين كيف نعمل كأساً يصب فيه مقدار من الشراب أو الماء فإذا زيد عليه بقدر مثقال من الشراب أو الماء خرج كل شيء فيه.

مثال ذلك كأس (آبَ) ونعمل فيه أنبوب (دَحَ) وطرفه الذي عليه أنبوباً آخر عليه (ة و) ويكون خلافاً لأنبوب (ح د) ويكون طرف (ة) مسدوداً وطرف (وَ) مفتوحاً قريباً من أسفل الكأس فقد يبين أنه إذا صب الشراب في كأس (آبَ) لا يزال يرتفع فيه ولا ينصب منه شيء حتى يبلغ إلى علامة (حَ) التي هي في طرف أنبوب (دَحَ) فإذا زيد عليه من الرطوبات بقدر مثقال يسيل الشراب من أنبوب (حَ دَ) وخلف بعضه بعضا يتفرغ كل شيء في الكأس لأن طرف أنبوب (حَدَ) الذي عند (دَ) أسفل من طرف أنبوب (ةَ) الذي عليه (وَ) ولأن المواد السائلة طبعها أن تنحدر فلذلك نبين أنه إذا صب في كأس (آبَ) المقدار الذي هو إلى نقطة (حَ) ثم يزداد منه مثقال فإنه يصب كل شيء فيه إلى الخارج من أنبوب (آدَ) وذلك ما أردنا أن نبين»[٤٤].

إن هذا النص الذي أشرنا إليه مقتطع من مخطوطة الفاتيكان التي تحتوي على (١٧٨) صفحة كتبت بلغة عربية صحيحة.

إنه كتاب الحيل لبني موسى الذي قال عنه ابن خلكان (ت ١٢٨٢م): «كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة. ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها. وهو مجلد واحد»[٤٥].

ولبني موسى كتب أخرى فلم يقتصر تأليفهم على كتاب الحيل المشهور، فلهم بعلم الحيل كتاب القرسطون (الميزان الذي يوزن به الذهب)، وكتاب وصف الآلة[٤٦].

□ **عباس بن فرناس (ت ٢٤٧هـ ــ ٨٦١م):** وهو واحد من مشاهير الأندلس وأحد حكمائها، وهو صاحب اختراعات وتوليدات: صنع (المنقانة» وهي آلة لحساب الزمن، ويحكى أنه احتال في تطير نفسه فكسا جسمه بالريش وركب له جناحين (ثم قفز من منارة ــ مئذنة ــ قرطبة) في الجو مسافة بعيدة. ولكنه لم يجعل لنفسه ذنباً لموازنة جسمه عند الهبوط ولحمايته من السقوط أثناء الهبوط، فما كان منه إلا أن وقع على مؤخرته وقوعاً شديداً فمات[٤٧].

أما أبو سعيد عبدالرحمن بن أحمد بن يونس المصري (ت ٣٩٩هـ ــ ٩٣١م) فهو الذي اخترع الرقاص.

ويليه أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز بن أبي الصلت (ت ٥٢٩هـ ــ ١١٣٤م)، الذي برع في فنون الأدب والعلم، ومن مآثره العلمية، أنه حدث في إحدى المرات أن وصل إلى الاسكندرية سفينة محملة بالنحاس، وحدث أن غرقت في القرب من شاطئها، وكان الزمن زمن الحروب الصليبية، فتقدم أبو الصلت للأفضل حاكم الاسكندرية وعرض عليه خطته لرفع السفينة من قاع البحر.

وكانت خطته أن بنى مركباً وجعله على سطح الماء بموازات المركب الغارق، ثم ربط المركب بحبال البريسم (الحرير) بعد أن برمها برماً جيداً، وجعل أطراف تلك الحبال على عتلات، ثم أمر الرجال بإدارة تلك الدواليب، وبالفعل فقد تمكن من رفع السفينة فوق سطح الماء، إلا أن السفينة بعد أن ارتفعت فوق سطح الماء زاد وزنها فانقطعت الحبال.

إن خطة أبي الصلت لاخراج السفينة واستعماله العتلات يدلان على اية درجة من التطور كان قد وصل إليها علم الحيل، كما يدلان على براعة أبي الصلت في علم الحيل من الناحيتين النظرية والعملية[٤٨].

ثم تلا أبي الصلت عالم آخر هو كمال الدين موسى بن يونس بن محمد العقيلي الموصلي الذي

عرف أشياء كثيرة عن تذبذب الرقاص.

اما الخازن فيعد احد علماء الصف الأول الذين تناولو علم الحيل وكتابه «ميزان الحكمة» الذي يعد من اكثر الكتب استيفاء لبحوث الميكانيكا.

ففيه بحوث في الطبيعة ــ ولا سيما في الميكانيكا ــ بلغ فيه صاحبه الذروة... ويستفاد من هذا الكتاب أنه كان لدى الخازن آلات خاصة لأوزان النوعية ولقياس حرارة السوائل، كما بحث فيه أيضاً الجاذبية وخواص الجذب والضغط الجوي، ونبه إلى أن الهواء قوة رافعة كالسوائل سواء بسواء. وله شرح واف لبعض الآلات البسيطة وكيفية الانتفاع بها، وإلمام واسع بالقوانين التي يقوم عليها اتزان الميزان والقياس(٤٩).

□ **بديع الزمان ابو العز اسماعيل بن الرزاز الجزري**: لقد أكمل المهندس العربي الكبير الجزري كتابه «الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل» ومن المعروف أن ما يوجد من هذا الكتاب خمسة عشر مخطوطة منسوخة أربعة عشر منها باللغة العربية، ويحمل أقدمها تاريخ عام ١٢٠٦م وتحمل اسم «كتاب معرفة الحيل الهندسية».

وقد أجمع المؤرخون على أن الكتاب يعد عملاً فريداً من نوعه ومن أعظم الكتب في الهندسة الميكانيكية حتى في العصور الحديثة. يقول (د. ر. هيل): «لم تكن بين أيدينا حتى العصور الحديثة أي وثيقة من أي حضارة في العالم فيها ما يضاهي كتاب الجزري من غنى في التصاميم وفي الشروحات الهندسية المتعلقة بطرق الصنع وتجميع الآلات» ويقول سارتون: «هذا الكتاب أكثر الأعمال تفصيلاً من نوعه ويمكن اعتباره الذروة في هذا المجال بين الانجازات الاسلامية».

ويحتوي الكتاب على وصف خمسين آلة أو جهاز كالساعة المائية والأباريق التي تعمل بصورة تلقائية وأواني مجلس الشراب والأقفال التي تعمل بالحروف وآلات رفع الماء (٥٠).

ونعود إلى دونالدر. هيل الذي يعد له الفضل الكبير في التعريف بالجزري وأعماله الهندسية العظيمة، نعود له ليحدثنا عن أعمال هذا المهندس العربي الكبير بقوله: «كرس الجزري



□ آلة موسيقية على شكل قصر، أورد الجزري تصميمها في «كتاب في معرفة الحيل الهندسية». وفيها دمية على شكل خادمة تقدم الشراب للضيوف.

عدة فصول إلى الأجهزة الحاذقة. فمثلاً ثمة أباريق يمكن إفراغ أنواع مختلفة من السوائل منها وذلك من خلال وضع الصنابير في وضعيات مختلفة، وأباريق أخرى يمكن صب الماء الساخن أو البارد أو الفاتر من ميزاب واحد فيها، وأخرى تفرغ أوتوماتيكياً كمية محددة من الماء ولقد تم الحصول على هذه النتائج من خلال البراعة في استعمال السيفونات وعوامات خزانات المياه والصمامات ومن خلال تطبيق تجريبي لمبادىء علمي توازن السوائل وتوازن الهواء... وساعات الجزري الخالدة على وجه التحديد هي ما تبدي اكثر سلسلة مؤثرة من آليات الحيل. فثمة دوائر تمثل منطقة البروج والشمس والقمر وتدور في سرعة ثابتة، وطيور تطلق من مناقيرها كرات صغيرة على الصنج لكي تدق الساعة معلنة الوقت، وأبواب مفتوحة تكشف عن تماثيل

متناهية الصغر في داخلها. كما يظهر في فترات زمنية منتظمة الموسيقيون ــ الطبالون ونافخو الأبواق وناقروا الدفوف وغيرهم ــ يعزفون على آلاتهم. وكان يشغل هذه الحيل عادة تيار مائي هابط من خزان بمعدل ثابت. وكان المحرك الرئيسي للساعة سلك يلتف حول بكرة في أعلى التيار، ويدير دائرة البرج بمساعدة بكرات أخرى، ويسحب عربة صغيرة ذات عجلات ــ يثبت عليها قضيب عمودي مهمته تحريك التقنيات المتحركة. وأما الموسيقيون فقد كانوا يباشرون عزفهم من خلال إفراغ الماء من الخزان بشكل ثابت إذ كان الماء يسقط في وعاء ما نقطة فنقطة ليتحرر في اللحظة المطلوبة، وكان يسيل في مغارف (دلاء) دولاب الماء الذي كان محوره مجهزاً بحدبات (بندقات) يصطدم بقطع إضافية بأذرع العازفين الناقرين ومن قنات تحت دولاب الدلاء كان ينطلق الماء في حجرة هوائية ترتبط في صفارة آلية تمثل أصوات نافخي الأبواق. وحين كان الماء يرتفع إلى قمة الحجرة الهوائية كان يتم إفراغه في الخزن بواسطة سيفون (زراق)...[٥١].

والجزري الذي عرف مهندساً ميكانيكياً ومخترعاً مرموقاً كان يصف ما اخترعه بنفسه «ولم يسبقه إليه أحد»، وهو يمتاز بمهارة عالية في التأليف الهندسي وفي الرسم الصناعي وفي التعبير الجيد بوصفه لأدق الآلات وأكثرها تعقيداً بكل سهولة ويسر، ويؤمن إيماناً كبيراً بالتجارب والمشاهد العلمية ولا يؤمن بعكس ذلك. وكان يحمل لقب «الشيخ ريس الأعمال» وهو يرادف لقب رئيس المهندسين في عصرنا.

تقي الدين دفع التكنولوجيا العربية خطوات إلى الأمام

حينما يدور الكلام عن أبناء موسى بن شاكر وعن الجزري فان الكلام سيكون ناقصاً إذ لم يشمل تقي الدين صاحب كتاب «الطرق السنية في الآلات الروحانية».

فقد جاء كتاب تقي الدين كاستمرار لتقاليد الهندسة الميكانيكية العربية، فهو إضافة إلى اهتمامه بالعديد من الآلات التي وصفها الجزري فقد أضاف الكثير من الآلات التي استجدت والتي لم تذكر في كتب سابقة.

ومن الجدير بالذكر أن كتاب الآلات الروحانية قد انتهى تقي الدين من تأليفه عام ١٩٥٢م اي قبل أربع سنوات من ظهور كتاب (اغريكولا)، كما سبق (راملي) بـ ٣٦ عاماً، وهكذا فقد وصف تقي الدين نفس الآلات قبل غيره من العلماء الأوروبيين بعدة سنوات.

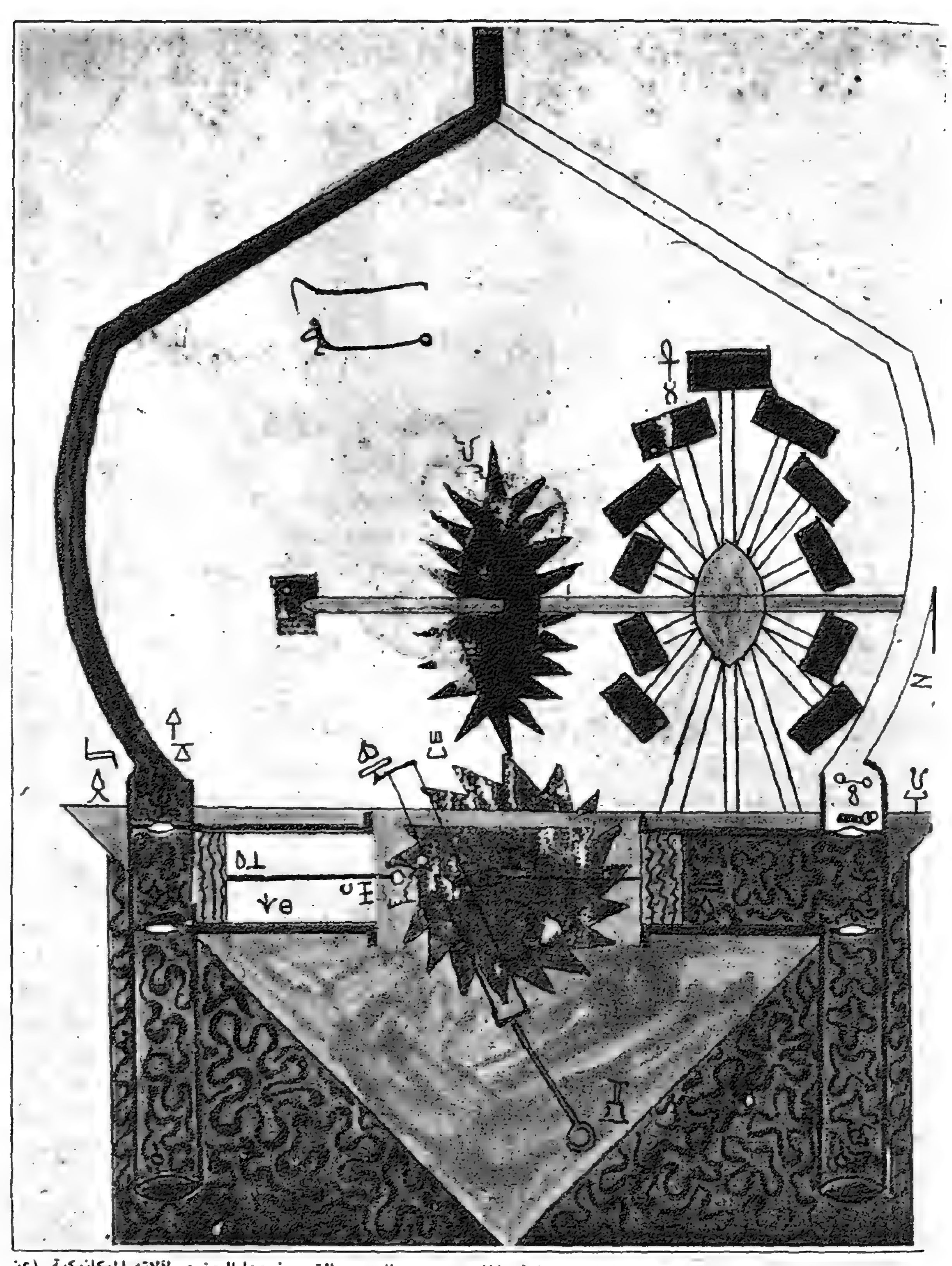
وقد حوى كتابه وصفاً وافياً «للساعات الفلكية والمائية وآلات جر الأثقال وآلات رفع الماء وآلات عمل الزمر الدائم والفوارات وانواع من اللطائف»..[٥٢].

وفي نهاية كتابه يصف لنا أحد التصاميم الذي صممه بمساعدة اخيه والتصميم هو «العنفة البخارية»، ومن الجدير بالذكر أن هذه الآلة مرتبطة باسم ويلكنز على اعتبار انه أول من وصفها وذلك في عام ١٦٤٨م علماً أن تقي الدين صمم آلته المذكورة عام ١٥٥١م.

كما ورد في كتابه «المضخة ذات الاسطوانتين المتقابلتين» التي وردت في كتاب الجزري ولهذه المضخة أهمية كبيرة في دراسة تاريخ الهندسة المعاصرة، لأنها احتوت لأول مرة في عصرهما عصر الجزري وتقي الدين بالشكل التطبيقي على ثلاثة مبادىء هامة: «هو مبدأ المحرك المزدوج المفعول (doubel acting)، والثاني هو استخدام الآلية المعروفة باسم (scotch yoke) لتحويل الحركة الدورانية إلى حركة ترددية، والثالث هو استخدام أنابيب الامتصاص الحقيقية لأول مرة في المضخات، ولهذه الأسباب كلها اعتبر مؤرخوا التكنولوجيا هذه الآلة بأنها الرائدة في تطوير المحرك التجاري والمضخات المكبسة فيما بعد[٥٣].

علم الحيل شكل قمة الابداع التكنولوجي العربي بعد الاسلام

لقد اعتمد العرب على أنفسهم في تطوير علم الحيل، وبالتالي في تطوير صناعاتهم التي تعتمد اعتماداً مباشراً على أساليب علم الحيل، الأمر الذي دفع الابداع التكنولوجي شوطاً إلى الأمام ونتيجة الاعتماد على الذات العربية والصنع المحلي العربي، فقد قام العرب بأنفسهم بتصميم آلات رفع الماء والساعات والمنجنيقات وبنوا السدود وأنظمة الري، وأنتجوا المنسوجات



□ مضخة ترددية ذات اسطوانتين، صممت لرفع الماء. وهي من الرسوم التي وضعها الجزري لآلاته الميكانيكية. (عن مخطوطة في متحف «فرغ» للفنون في كمبريدج، ماساشوستس).

□ رسم زخرفي على ساعة الطواويس المائية التي صنعها الجزري.



والورق والمشروبات الروحية، والصابون، والسكر، والأصباغ، والأسلحة العسكرية باختلاف أنواعها، وأدخلوا النفط في الصناعات الحربية.

ويشير أحد مؤرخي التكنولوجيا الغربيين إلى أهمية الآلات والأجهزة الميكانيكية والهدروليكية الذاتية الحركة بقوله: «ليست هذه التكنولوجية الغنية بالألعاب الفلسفية نوعاً من اللهو التافه لمجتمع مترف يكثر فيه استخدام العبيد بحيث يصرفهم ذلك عن الاهتمام بالآلات المفيدة، بل أنها تمثل الاتجاه أو التيار الرئيسي للمهارات الميكانيكية الدقيقة التي استمرت وازدهرت في الأجيال اللاحقة في ورشات صانعي الساعات، وصانعي الأجهزة العلمية، تلك التكنولوجيا التي كانت القوة الدافعة الأساسية وراء كل من الثورتين العلمية والصناعية»[٥٤]. كما أشار إلى نفس الموضوع «تشارلز سنجر»[*].

إن ما وصلنا من الابداع التكنولوجي والتطور العلمي ما هو إلا النزر اليسير، أو نتف قليلة من إبداعات تراكمت عبر القرون، بحيث لم يتوقف الابداع التكنولوجي إلا بعد انحطاط الدولة العربية.

إن ازدهار علم الحيل كان يعني ازدهار العلم والتكنولوجيا، لا سيما وأن الدولة العربية تبنت هذا العلم، وعملت على تطويره واهتمت بالقائمين عليه، فحينما كانت توجد الدولة كان نصيب علم الحيل التطور والازدهار، ويمكن القول أن العصر الذهبي للعلم والتكنولوجية العربية كان في زمن المأمون، ولكن لم يقتصر الازدهار التكنولوجي بعد ذلك في عصر المماليك، وتجلى ذلك على النطاق «المدني وفي إنشاء أقنية الري وفي إقامة النواعير وطواحين الماء وفي صناعة النسيج والورق والسكر وغير ذلك»[٥٥].

عوامل تطور التكنولوجيا في المنطقة العربية

لقد جاء التطور العلمي والتكنولوجي في المنطقة العربية نتيجة عوامل عديدة نذكر أهمها:

١ ـ تشجيع الدولة للعلماء والمهندسين والمترجمين والحرفيين:

أولت الدولة العربية وخاصة في العصر العباسي اهتماماً كبيراً بالعلماء العرب والمسلمين وشجعتهم على ممارسة الكتابة والتأليف والنقل

(*) يقول «تشارلز سنجر»: «نجد أن الشرق الأوسط قد طور واستخدم بعض العمليات والمنتجات الهامة في الفترة ما بين القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر، ونجد ذلك واضح في المجالات التالية: الري، الدراسات المائية ... زراعة محاصيل هامة كالقطن والكتان، وتكرير السكر... إنتاج الصابون وحامض الكبريت ـ إلخ» راجع تشارلز سنجر، تاريخ التكنولوجيا، ص ٢٢ ـ ٣٨.

من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، كما اهتمت بنشاطات المهندسين والصناع والحرفيين.

وبذلك فقد كان هذا العامل أحد العوامل الهامة التي دفعت التكنولوجيا العربية نحو التقدم والازدهار.

٢ ــ تطور الجيوش العربية والحاجة الماسة إلى سلاح متطور وجديد:

نتيجة إلى الفتوحات التي سادت العصرين الأموي والعباسي، فقد أولت الدولة والمجتمع اهتماماً كبيراً بالجيش وبتطويره وتسليحه بأحدث الأسلحة، الأمر الذي انعكس على تطور الصناعة الحربية والتكنولوجية العسكرية، حيث كانت الجيوش في حاجة ماسة إلى سفن كبيرة وجيدة وقوية، وإلى الفولاذ والسيوف والمنجنيقات، وإلى الاهتمام بالأسلحة التي كانت تعتمد على النفط وتكريره وتطوير البارود.. كما كانت الجيوش في حاجة إلى اللباس العسكري والأفرشة والأغطية والخيام والصابون.. إلخ.

٣ ــ حاجة المجتمع إلى البحث العلمي والتجربة والاختراع:

لقد كان المجتمع العباسي في حاجة ماسة إلى النتاجات العلمية المتميزة، كالمراصد العلمية الفلكية مثل مرصد بني موسى بن شاكر ومرصد بيت الحكمة، كما كان المجتمع في حاجة إلى دراسة الظواهر وتدوين تلك الدراسات والمشاهد، إضافة إلى حاجته إلى المدارس العلمية كالمدرسة المستنصرية، وإقامة دور العلم والمكتبات الكبيرة كمكتبة الحكمة، كما وضعت الأجهزة والتصاميم، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل خلقت صلة وثيقة بين المهندسين من جهة والصناع والحرفيين من جهة أخرى، وقد تولت تلك الصلات عند تطبيق المعارف والعلم على أرض الواقع، وبذلك دعى الجزري في كتابه «الجامع بين العلم والعمل» المهندسين الذين يضعون الكتابات والتصاميم، أن يخضعوا تصاميمهم وكتاباتهم الهندسية إلى التجربة، وهذا ما سار عليه المهندس تقي الدين أيضاً.

٤ ــ اعتماد العرب على إمكاناتهم الذاتية في العلوم والتكنولوجية مع الاستفادة من الترجمة:

لم يعتمد العرب والمسلمين في السابق على مهندسين أجانب في بناء آلاتهم أو رسم تصاميم ولم يستوردوا آلات أو تصاميم جاهزة من الخارج، كما أنهم لم يستوردوا عقولاً أجنبية من الخارج كي تؤلف لهم أو تبني لهم صناعاتهم كما هو الحال اليوم، بل كان كل اعتماد المهندسين والصناع العرب على إمكاناتهم ومقدراتهم الذاتية وعلى ما حصلوا عليه من تطور تكنولوجي من أجدادهم، إلا أنهم درسوا تجارب الاغريق واليونان والصينيين والهنود وترجموا إلى العربية بعض كتاباتهم.

٥ ــ إيمان الدولة والمجتمع بالعلم ونبذ روح التزمت:

في الفترات الزمنية التي ازدهرت فيها التكنولوجيا والعلم وانتشرت الصناعات، تحرر المجتمع خاصة المجتمع العباسي من الكثير من الخرافات والشعوذة في المجالات الطبية والفلكية والكيمياء والهندسة والصناعة وتدوين التاريخ وحتى في الكتابات الأدبية، الأمر الذي جعل العرب ينظرون إلى حضارات المنطقة العربية والاسلامية والحضارات العالمية السابقة نظرة متفتحة وموضوعية إلى حد ما، وتعاملوا مع العلوم على اعتبارها حاجة اجتماعية ضرورية لا بد منها، وجعلوا العلم وسيلة لخدمة الدولة والجيش، ولمحاربة الأمراض والشعوذة والتزمت. وقد ساهم في انتشار العلوم ومحاربة الشعوذة والتزمت ظهور حرية نسبية للفكر.

هذه هي أهم العوامل التي أدت إلى ازدهار العلوم والتكنولوجيا وقد دفعت هذه العوامل التكنولوجيا إلى عصرها الذهبي في زمن الخليفة العباسي المأمون، إلا أن التكنولوجيا العربية لم تستمر طويلاً في رقيها وازدهارها، بل تراجعت بسبب جملة من العوامل نذكر أهمها.

العوامل التي أدت إلى تدهور العلوم والتكنولوجيا في المنطقة العربية

١ ــ ضعف الدولة العربية وتراجع قوة الجيش:

أدى ضعف الدولة العربية إلى انشغالها عن العلم والعلماء وعن تطوير الصناعات وإهمال

البحث والترجمة، كما اهملت المراصد، ولم تهتم بالمدارس كالسابق.

أما الصناعات الحربية فقد أصيبت هي الأخرى بتراجع كبير نتيجة تراجع قوة الجيش.

٢ ــ ظهور التزمت الديني:

ادى ظهور التزمت الديني إلى انتشار «الوهن والتزمت في الحياة الثقافية والعلمية للمجتمع الاسلامي، وأصبح أقل تسامحاً وأكثر تزمتاً»[٥٦]. وقد ظهر التزمت بسبب ضعف الدولة العربية وتراجع قوة الجيش.

وقد تجمد المجتمع العربي وبدأ بالتقهقر بعد القرن السادس عشر، حيث شن المجتمع الاسلامي حملة واسعة ضد العلم والعلماء، وقد «تجلى إثر الميول المتزمتة ضد العلم في مأساة تقي الدين»،بحيث حمل شيخ الاسلام قاضي زادة وجماعته،تقي الدين ومرصده الذي بناه وجهزه في عام ١٥٧٧م، كل ما حدث من خسائر في حرب العثمانيين مع الفرس في ذلك العام، وغذوا السلطان العثماني بالميول الدينية المتزمتة ضد تقي الدين ومصده على أنه سبب البلوة للمسلمين، وقد «استطاعوا أن يقنعوا السلطان بهدم» مرصد تقي الدين. «وقد تم هدم المرصد فعلاً عام ١٥٨٠م»[٥٧].

٣ ــ خضوع العرب للعثمانيين وتدمير بغداد من قبل المغول والتتار وظهور الحروب الصليبية:

إن الغزوات المتلاحقة والحروب المدمرة التي تعرضت لها الدولة العربية عملت على تمزيق قوة الدولة العربية وجعلتها عرضة إلى الأطماع الأجنبية الأمر سهل على الجيوش الطامعة دخول بغداد العاصمة وتحطيم معالمها التاريخية وإتلاف الحضارة العربية وإنجازاتها العلمية، وهذا ما فعله المغول والتتار، ثم خضع العرب إلى الدولة العثمانية، وبذلك فقد تمزق الكيان العربي القوي الموحد، ونتج عن ذلك أن تحولت البلاد العربية إلى مجتمعات شبه إقطاعية لا تسمح مؤسساتها بتحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي ولو بدرجة مقبولة. كما أدت الحروب بين تركيا والفرس التي استمرت ثلاثة قرون إلى عرقلة انتعاش العراق اقتصادياً. وفضلاً عن ذلك فقد اتسع نطاق السلب والنهب[٥٨]، وتعرضت المدن العربية إلى هجمات اللصوص والبدو كهجوم الوهابيين بدو الجزيرة العربية على مدينة النجف ونهب خيراتها، ونهب العتبات المقدسة فيها خاصة مرقد الامام علي، وعملوا السيف في اهلها.

وكانت تلك الظروف قد انعكست على أحوال المنطقة العربية الزراعية والصناعية وعلى السكان، حيث تقلصت المساحات المزروعة في العراق في القرن الثامن عشر بشكل كبير جداً خاصة إذا ما قورنت عما كانت عليه في القرن العاشر الميلادي، كما تناقص بشكل كبير عدد السكان، وفي سورية حدث ما حدث في العراق، حيث تناقص عدد السكان إلى مليوني نسمة بدلاً من خمسة ملايين، أما الجزيرة العربية فقد اختفى فيها الرخاء تماماً في القرن الثامن عشر، كما تدهورت أحوال مصر للغاية.

أما إذا قارنا مستوى الانتاج الصناعي في القرن الثامن مع مستوى الإنتاج الصناعي للقرن الثامن عشر فسنجد أن الفارق كبيراً، حيث كان الانحطاط الصناعي هو ما يميز القرن الثامن عشر، ولم يشمل الانحطاط الصناعة وحسب، بل تعداه إلى الحرف اليدوية، فقد تدهورت الحرف اليدوية كما تناقص عدد الحرفيين بدرجة كبيرة في المدن مثل بغداد والبصرة والموصل، وبدرجة أقل في القاهرة.. أما الموانىء كالاسكندرية والبصرة وانطاكية وبيروت وطرابلس فقد اضمحلت وتعرضت تجارتها إلى الركود، كما اختفت تقريباً العمليات المالية المعقدة والمتقدمة التي صاحبت تلك التجارة[٥٩].

الهوامش

(١) راجع: د. أحمد يوسف الحسن، مجلة «المستقبل العربي» العربي، العدد: ٢٧، ص ٧٦.

(٢) راجع: د. فليب حتي، د. ادوارد جرجي، د. جبرائيل جبور، «تاريخ العرب» ص ٦٢، الطبعة الخامسة، بيروت ١٩٧٤.

(٣) راجع: د. عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص ٦٤.

(٤) راجع: د. محمد عبدالرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، ص ١٢٣.

(٥) راجع: د. عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص ٦٦.

(٦) راجع: المصدر نفسه.

(٧) راجع: قاموس الكتاب المقدس، ص ٢٩٥.

(٨) راجع: ديوان الحطيئة، ص ٢٩ ــ المؤسسة العربية للطباعات والنشر ــ بيروت.
(٩) راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص ٤٤٧، دار صادر.
(١٠) راجع: د. حسين مروه، النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، الجزء الأول، ص ١٩٠.
(١١) راجع: المصدر نفسه.
(١٢) راجع: د. عبدالعزيز سالم، تاريخ العرب في العصر الجاهلي، ص ١١٨، دار النهضة بيروت.
(١٣) راجع: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء السابع، ص ٥٦٨.
(١٤) راجع: واضح الصمد، الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي، ص ١١٢.
(١٥) راجع: المصدر نفسه.
(١٦) راجع: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء الرابع، ص ٣٨.
(١٧) راجع: د. حسين مروه، النزعات المادية في الفلسفة الاسلامية، الجزء الأول، ص ١٩٠.
(١٨) راجع: واضح الصمد، الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي، ص ١٧٨.
(١٩) راجع: المصدر نفسه.
(٢٠) راجع: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء الأول، ص ١٢٦.
(٢١) راجع: الأغاني للأصفهاني، ٤، ص ٢١٨.
(٢٢) راجع: غوستاف لوبون، حضارة الغرب، ترجمة عادل زعيتر، ص ١١٨.
(٢٣) راجع: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء الثاني، ص ٢٣٠.
(٢٤) راجع: سورة آل عمران، الآية ١٤.
(٢٥) راجع: سورة التوبة، الآية ٣٤.
(٢٦) راجع: سورة الكهف، الآية ٣١.
(٢٧) راجع: سورة فاطر، الآية ٣٣.
(٢٨) راجع: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء الأول، ص ١٩٣.
(٢٩) راجع: د. حسين مروه، النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، ١، ص ١٩٧.
(٣٠) راجع: د. ليلى صباغ، المرأة في تاريخ العرب قبل الاسلام، ص ١٧٠، ودليل المتحف الوطني بدمشق، ص ١٦٢ ــ ١٦٨.
(٣١) راجع: د. ابراهيم بيضون، مجلة «تاريخ العرب والعالم»، العدد ٤٢، ١٩٨٢، ص ٣٣.
(٣٢) راجع: د. عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص ١١٣.
(٣٣) راجع: المصدر نفسه، ص ١١٦.
(٣٤) راجع: المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٢٥.
(٣٥) راجع: آدم متز، الحضارة الاسلامية في عصر النهضة في الاسلام، ص ٣٦٤. ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريده، دار الكتاب العربي.
(٣٦) راجع: مروج الذهب للمسعودي، الجزء الرابع، ص ٢٢٧.
(٣٧) راجع: المقدسي، ص ٢٢٣.
(٣٨) راجع: عدد من المؤلفين، عبقرية الحضارة العربية منبع النهضة الأوروبية، ص ٣٥٧.
(٣٩) راجع: د. منى سنجقدار، مجلة «تاريخ العرب والعالم»، العدد ٤٢، ١٩٨٢، ص ١٠.
(٤٠) راجع: الفهرس لابن النديم، ص ٢٦٥. طبعة فلوغل، ليّد طبع الكتاب بالتصوير في بيروت مكتبة خياط ١٩٦٤.
(٤١) راجع: مجلة «تاريخ العرب والعالم» العدد (٤٢)، ١٩٨٢، ص ١٥.
(٤٢) راجع: مجلة «المستقبل العربي»، العدد (٣٧)، ١٩٨٢، ص ٧٥.
(٤٣) راجع: المصدر نفسه.
(٤٤) راجع: وفيات الأعيان، الجزء الثاني، ص ٥٠٥، مطبعة الوطن، القاهرة ١٢٩٩هـ.
(٤٥) راجع: وفيات الأعيان، الجزء الثاني، ص ٥٠٥، مطبعة الوطن، القاهرة، ١٢٩٩هـ.
(٤٦) راجع: مجلة المشرق (بيروت)، المجلد الثامن (١٩٠٦م)، ص ٤٤٤ ــ ٤٥٧.
(٤٧) راجع: نفح الطيب، ٣، ص ٣٧٤. دار صادر، بيروت.
(٤٨) راجع: عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص ٢٢٩.
(٤٩) راجع: د. محمد عبدالرحمن مرحبا، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، ص ١٣٣.
(٥٠) راجع: د. أحمد يوسف الحسن، مجلة «المستقبل العربي»، العدد ــ ٣٧ ــ ص ٧٦.
(٥١) راجع: دونالدر. هيل، عبقرية الحضارة العربية منبع الحضارة الأوروبية، ص ٢٦١.
(٥٢) راجع: د. أحمد يوسف الحسن، مجلة «المستقبل العربي»، العدد ــ ٣٧ ــ ص ٧٦.
(٥٣) راجع: المصدر نفسه.
(٥٤) راجع: د. أحمد يوسف الحسن، مجلة «المستقبل العربي»، العدد ــ ٣٧ ــ ١٩٨٢، ص ٨١.
(٥٥) راجع: مجلة «المستقبل العربي» العدد ــ ٣٧ ــ ص ٧٦.
(٥٦) راجع: شارل عيساوي، مجلة «قضايا عربية» العدد الأول ١٩٧٩، ص ٣٣. وقد اعتمد الكاتب على عدة مصادر منها: كتاب أعده تيني فرانك عنوانه «مسح اقتصادي لروما القديمة»، وكتاب جيوليوس بيلوك» سكان العالم اليوناني الروماني».
(٥٧) راجع: مجلة «المستقبل العربي»، العدد ــ ٣٧ ــ ١٩٨٢، ص ٨٤.
(٥٨) راجع: مجلة «قضايا عربية»، العدد الأول، ١٩٧٩، ص ٣٣.
(٥٩) راجع: المصدر نفسه.

اخبار التراث اخبار التراث اخبار التراث اخبار التراث

● المنظمة تدرس إنشاء «جامعة العرب»

انتهت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مؤخراً من دراسة مشروع إنشاء أول جامعة عربية سترى النور قريباً باسم «جامعة العرب». وستسهم هذه الجامعة في توفير الهيئات والكوادر التعليمية للجامعات العربية في إطار اتجاه ثقافي جديد يهدف إلى تعريب الدراسة في هذه الجامعة تعريباً كاملاً.

● صدور معجم «فهارس المخطوطات العربية في العالم»

صدر عن معهد المخطوطات العربية معجم «فهارس المخطوطات العربية في العالم» من إعداد الأستاذ كوركيس عواد.

والكتاب هو ثمرة سنوات طويلة من الجهد للمؤلف. وقد رتبت مواده على السياق الهجائي لأسماء الأقطار التي تحتوي مخطوطات لها فهارس مطبوعة، كما رتبت المواد داخل كل قطر حسب تسلسل أسماء المدن.

والهدف من الكتاب هو تعميق الصلة بين المثقفين العرب وتراثهم عن طريق تعريفهم بمواطن المخطوطات في العالم، وهو الهدف الذي يسعى المعهد لتحقيقه.

وقع المعجم في جزأين حاول فيهما الأستاذ كوركيس استقصاء ما صدر من فهارس المخطوطات العربية في مكتبات العالم العامة والخاصة، وقد استوعب ما أورده الدكتور فؤاد سزكين في كتابه «تاريخ التراث العربي» واستدرك عليه بإضافات كثيرة وواضحة، كما استدرك على كتاب «تاريخ الأدب العربي» الذي وضعه المستشرق الألماني كارل بروكلمان بإضافات بينة ومفيدة.

● كتاب «القولنج» للرازي

صدر عن «معهد المخطوطات العربية» التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم كتاب «القولنج» تأليف أبي بكر الرازي، مع دراسة مقابلة لرسالة ابن سينا في القولنج، وهو من أهم كتب التراث الطبي العربي في مجال أمراض القولنج، حققه الدكتور صبحي محمود حمّامي.

وتناول الكتاب تجربة الرازي وتشخيصاته وملاحظاته تجاه أمراض القولنج الجوفية التي كان المؤلف علماً من أعلامها. وقد وقع الكتاب في ثمانية عشر باباً.

المحقق أبرز الناحية العملية عند الرازي عندما قابل كتابه مع المقالة الثانية لرسالة الشيخ الرئيس ابن سينا في نفس الموضوع، والتي جاءت في ثمانية فصول.

● من منشورات معهد التراث العلمي العربي

صدر عن معهد التراث العلمي العربي، فهرس المخطوطات الطبية العربية في مكتبة الدكتور سامي إبراهيم حداد.

وضع الفهرس الدكتور فريد سامي حداد بالاشتراك مع الدكتور هانس هينريش بيسترفيلد.

يصف الفهرس ١٢٥ مخطوطاً في الطب العربي وصفاً فيه «الإيجاز مع التفصيل دون الشرح والتطويل مما يساعد القارىء والباحث على التعرف والتثبت في أسماء الكتب والمؤلفين التي لا تزال مجهولة».

ومما يزيد في أهمية الفهرس أنه يكشف النقاب عن مخطوط وحيد النسخة في العالم.

إلى المشتركين الكرام

نرجو من جميع مشتركينا في الخارج، إفادتنا عن أي نقص يحصل لديهم في اعداد المجلة، خلال مدة أقصاها ثلاثة أشهر من تاريخ صدور العدد، وخلال شهرين بالنسبة لمشتركينا في الداخل.

وذلك، لتعذر تامين الأعداد لهم بعد هذه المدة، بسبب تحويلها إلى قسم التجليد.

الإدارة



استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الدكتور: «فرج توفيق زخور» عرض لرسالته الدكتوراه بعنوان «تاريخ عكار السياسي والاقتصادي والاجتماعي ١٩٠٨ ــ ١٩٤٣». ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتائج باحثينا مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد الجميع.

تاريخ عكّار السّياسي وَالاقتصَادي والاجتماعي ١٩٠٨ - ١٩٤٣

- دكتوراه حلقة ثالثة ــ قسم التاريخ ــ جامعة القديس يوسف، بيروت ١٩٨٤/٦/٢٣.
- اللجنة مؤلفة من الدكتور انطوان الحكيم والدكتورين شيرين خيراله وراوول عساف.
- التقدير: جيدجداً.

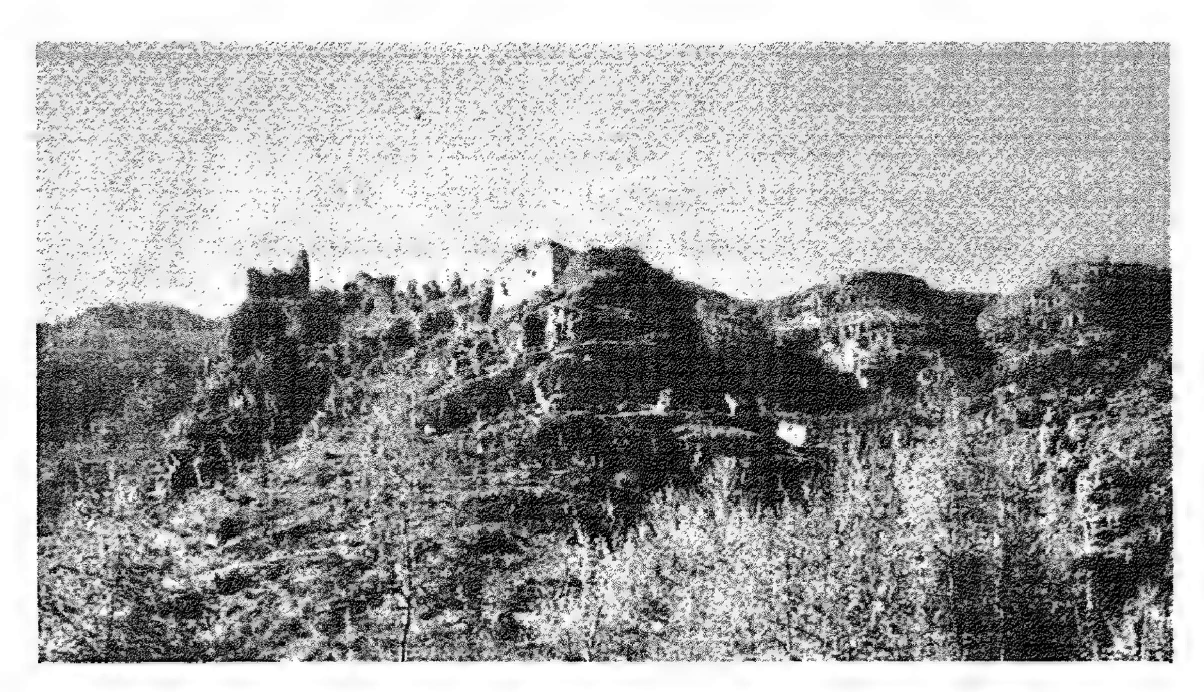


ليس من السهل أن يطرق التاريخ أبواب المناطق اللبنانية النائية، لا لأنها غير جديرة باهتمام الباحثين والمؤرخين، بل لأن الأبواب الموصدة تتطلب المزيد من الترقيب، والمزيد من الفرضات التي قد تقودهم إلى تحمل المشقات والتبعات الكثيرة...

من هنا كان اختياري موضوع «تاريخ عكار السياسي والاقتصادي والاجتماعي ١٩٠٨ ــ ١٩٤٣»، إيماناً مني بضرورة أن يطرق التاريخ أبواب المناطق اللبنانية كلها لأن العناية بتاريخ لبنان يجب أن يتم بجمع ما تبعثر من أصوله، والتفتيش عن أوراقه في كل بلد وقرية، بل في كل حي وزاوية...

لقد أردت من هذه الدراسة أن تكون الموضوع الرئيسي لتاريخ «بلاد عكار» بين سنتي ١٩٠٨ و ١٩٤٣. إلا أنه لا يمكن أن ننظر نظرة واضحة إلى تطور هذه «البلاد» إلا من زاوية ارتباطها بالظروف الموضوعية للمقاطعات والولايات المحيطة بها. وبدا بالامكان الاستجابة إلى ضرورة هذا الوضع الذي يجعل من هذه الدراسة تاريخاً لعلاقات عكار بخاصة مع «ولاية بيروت» قبل ١٩٢٠ من جهة، ومع لبنان ــ بعد إعلان دولة لبنان الكبير ــ من جهة أخرى. وبنظرة شاملة إلى تطور «بلاد عكار»، نستطيع أن نقسمه، زمنياً، إلى عهدين رئيسيين، ينقسم كل منهما بدوره إلى فترات طويلة أو قصيرة.

العهد الأول يشمل حكم الدولة العثمانية لهذه البلاد، والذي يمتد من عام ١٩٠٨ (تاريخ احياء الدستور) إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، وقد كانت عكار آنذاك قضاء من أقضية ولاية بيروت،



ويتبع متصرفية طرابلس.

أما العهد الثاني، فيشمل ضم عكار إلى دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠ إلى الاستقلال عام ١٩٤٣، حيث ارتبط القضاء بالجمهورية اللبنانية، مع ما شهد من موجات سياسية ازاء موقفين متناقضين، الأول مؤيد للوحدة اللبنانية، والآخر مؤيد للوحدة مع سورية.

إن الأطروحة تقع في ٤١٤ صفحة، وقد احتوت ثلاثة أقسام، عدا المقدمة والتمهيد والخاتمة والفهارس. وتضمن كل قسم فصلين اثنين.

□ **القسم الأول**: في التاريخ السياسي والاداري. وتضمن الفصل الأول منه الحياة السياسية في ظل الدولة العثمانية، وفي لبنان الجمهورية، مروراً بالاحتلال الفرنسي، وموقف العكاريين من ضم القضاء إلى دولة لبنان الكبير.

وتضمن الفصل الثاني الادارة والمجالس البلدية والاختيارية في القضاء.

□ **القسم الثاني**: في التاريخ الاقتصادي. وتضمن الفصل الأول منه نظام الملكية، واستثمار الأرض، والانتاج الزراعي، والآلات وأساليب الري، وأنواع الضرائب وطرق جبايتها.

وتضمن الثاني الصناعات بطابعها الزراعي والمواصلات وأثرها على انفتاح السوق التجاري العكاري

□ **القسم الثالث**: في التاريخ الاجتماعي. وشمل الفصل الأول منه التطور الديموغرافي، والأسرة، والتجمعات السكنية، وبعض العادات والتقاليد.

أما الفصل الثاني فتضمن الحياة العلمية والثقافية، وانتشار المدارس الخاصة والرسمية في عكار.

وقدمت الدراسة، إلى جانب أقسامها، عدة فهارس أهمها:

١ ــ فهرس الوثائق: وقد حوى ٣٤ وثيقة (مخطوطة) تعود بالفائدة لمضمون الدراسة.

٢ ــ فهرس الملاحق: وقد شمل ١٧ ملحقاً، أكثرها من الجداول التي تصور الواقع بشكل علمي ودقيق للغاية.

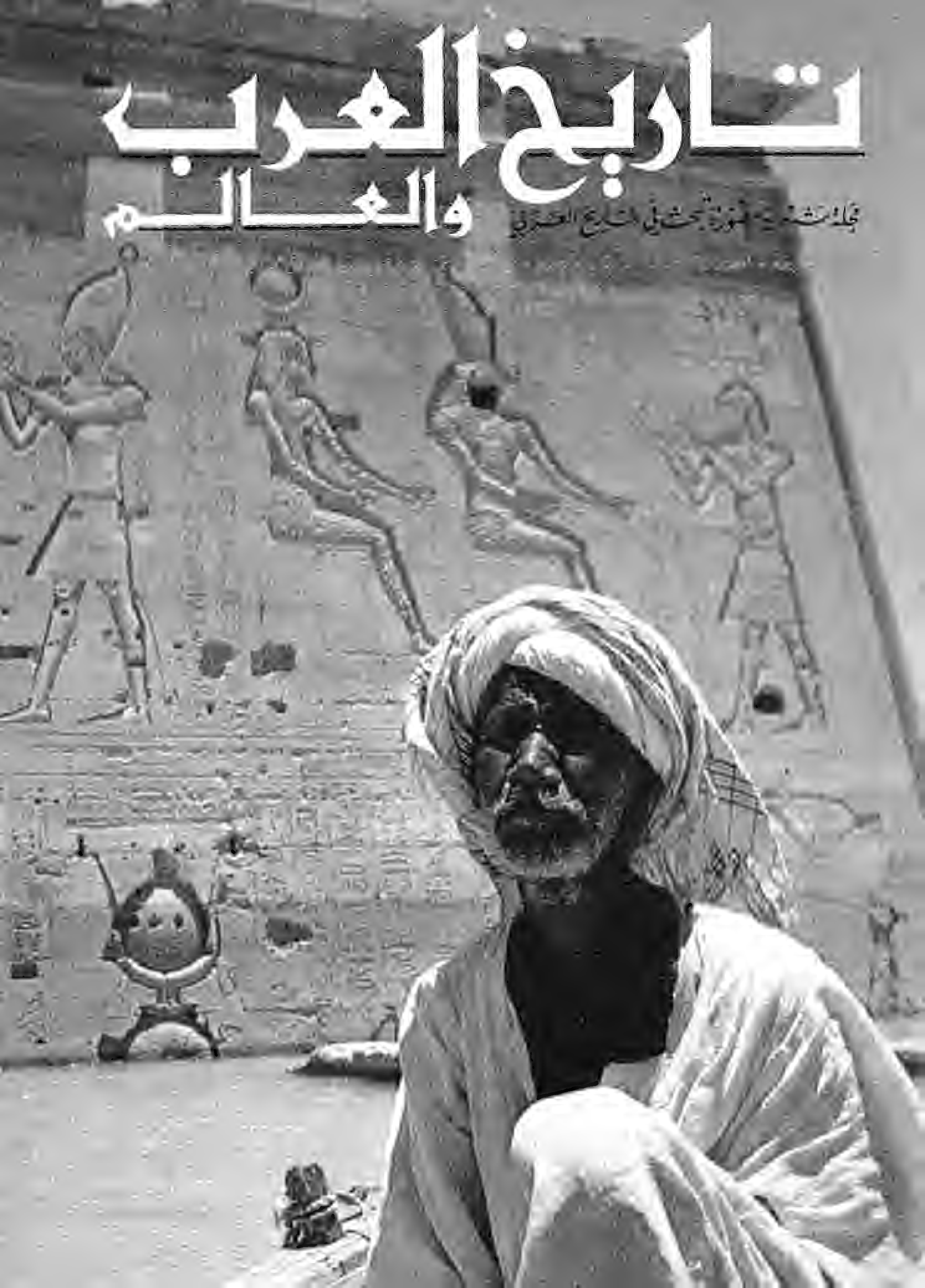
٣ ــ فهرس الرسوم البيانية والخرائط: وعددها ٢٣ رسماً بيانياً وخريطة تناولت التطور الديموغرافي في القضاء، وتطور الرسوم البلدية.

هذا إضافة إلى فهارس المقابلات الشخصية، والجريدة الرسمية، والجرائد والمجلات، وأرشيف البلديات، وأرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، والمصادر والمراجع باللغتين العربية والفرنسية.

إن بهذه الأطروحة التاريخية، يضاف إلى مكتبتنا اللبنانية والعربية، ارث تاريخي جديد، لأنها تشرع أمامنا أبواب النصف الأول من القرن العشرين لمنطقة لعبت وما تزال دوراً مهماً في التاريخ اللبناني.



□ اجتماع علماء الفلك العرب، (القرن السادس عشر الميلادي).


تاريخ العرب والعالم
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

■سوق على الشاطيء، للفنان فرانك برنجوين. متحف اورازي، باريس.



■معبد إيزيس عند نقله من مكانه قبل ان تغمره المياه (مصر).

تاريخ العرب والعالم

العددان ٧٧/٧٨ — آذار — نيسان ١٩٨٥

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها: فاروق البربير

المستشار: د. أنيس صايغ — المدير المسؤول: محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث: شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات: علي عبدالساتر

المخرج الفني: سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

البلد	الثمن	البلد	الثمن
لبنان	٨ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	٢,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الاشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية.

ص.ب: ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 7 — No. 77/78 — Mar-April. 1985

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■



● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.



□ نساخ مصريون يحملون الألواح ورقائق البردى وتبدو الفراشين خلف آذانهم.

كانت المدرسة ملازمة لقيام المجتمعات المتحضرة. وتاريخ المدرسة هو تاريخ نشر العلم. إلا أن المدرسة لم تكن دوماً حقاً عاماً لأفراد الشعب. ففي العصور المتوغلة في القدم أُعتبر التعليم شيئاً يقتصر على الكهنة ومن إليهم، خاصة فيما يتعلق بأمور العلوم الدينية والفلكية والرياضية والطبية. يتضح هذا في مصر الفرعونية والدول التي قامت في أرض الرافدين. ولكن الأمر تبدل مع ظهور اليونان والرومان على مسرح التاريخ الحضاري. فأصبح لكل من يستطيع أن يحصل على نفقات التعليم أن يدخل المدرسة. ومثل ذلك يقال عن المدرسة البيزنطية.

أما في عصور الحضارة العربية الإسلامية فقد كان الأمر على خلاف ذلك تماماً. كان لكل من رغب مجال للتعلم في المسجد أو في الكتّاب أو في المدرسة النظامية. وينطبق هذا الأمر على الجامعة الاسلامية مثل الأزهر والزيتونة والقرويين وغيرها من معاهد الدراسات التخصصية.

وفي أوروبة في العصور الوسطى كان ثمة مجال للقادرين على التعلم. إلا اننا إذا قارنا بين المجال المفتوح أمام المتعلمين في المجتمع العربي الاسلامي، بما كانت عليه الحال في أوروبا المعاصرة لذلك، وجدنا فرقين مهمين: الأول أن عدد المدارس كان أقل (حتى القرن الخامس عشر على الأقل)؛ والثاني هو أن المتعلم كان عليه أن يتقن اللغة اللاتينية أولاً، لأنها كانت لغة التعليم عموما. ومن ثم فإن المجال أمام الطالب المسلم كان أوسع.

وقد أسهمت منطقة الشرق العربي في العصور الحديثة في فتح المدارس على اختلاف أنواعها. فكانت هناك المدرسة التقليدية والمدرسة الحديثة (هذا بقطع النظر عن الجامعات).

وفي هذه السلسلة من المقالات يعرض نقولا زياده لتطور المدرسة تاريخياً منذ عهد المدرسة الهيكل في عالم الشرق القديم إلى المدرسة في عصر النهضة العربية الحديثة، مروراً بالمدرسة اليونانية والرومانية والعربية الاسلامية والأوروبية في العصور الوسطى وعصر النهضة.

والمقال الأول يتناول المدرسة الهيكل والمدرسة اليونانية وجامعة الاسكندرية. وسنتابع نشر مقالاته الباقية في الأعداد اللاحقة.

---

١ المدرسة الهيكل

المدرسة، من حيث أنها مؤسسةٌ تعليمية، مرتبطةٌ تاريخياً بقيامِ المجتمعاتِ المتحضرة. ذلك أن المجتمعاتِ البدائيةَ كانت تكلُ أمرَ تربيةِ أبنائِها للأسرة. فقد كان ينشأُ الشابُ والفتاةُ على قواعدِ السلوك، ويُدَرَّبُ على أساليبِ التعاملِ مع الناسِ، ويُرَبَّى على احترامِ قيمٍ معينةٍ والتقيدِ بها في أحضانِ الأسرةِ أو العشيرةِ. وقد يكون

□ د. نقولا زيادة: يحمل شهادة دكتوراه في التاريخ الاسلامي من جامعة لندن. درس في الكلية العربية في القدس، وعمل استاذ للتاريخ العربي في الجامعة الاميركية ربع قرن. له من المؤلفات بالعربية: رواد الشرق العربي في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٤٣)؛ والرحالة العرب (القاهرة ١٩٥٧)؛ ولمحات في تاريخ العرب (بيروت ١٩٦٢). وقد ترجم عدة كتب عن الانكليزية منها: تاريخ البشرية لأرنولد توينبي (بيروت ١٩٨١ ـ ١٩٨٢).

في العشيرةِ من يُنْظَرُ إليه نظرةً خاصة، لذلك يتولى هو الإشرافَ العامَ على هؤلاءِ الشباب. ويغلبُ على القبيلةِ أو العشيرةِ أن يكون بينَ رجالها جماعةٌ من أهلِ الطب والسحرِ، فيقومُ هؤلاءِ على تدريبِ الصغار في هَذه المجالاتِ، كما أن الصُنَّاعَ كانوا يُدَرِّبون فئةً من الصغار للسيرِ في ركابِهم واقتفاءِ آثارِهم فيما بعد. ولكن يجب أن نتذكَر دوماً أن كلَّ هذا كانَ يتِمُ في إطارِ الأسرةِ أو العشيرة.

إلا أن انتقالَ المجتمعاتِ البشريةِ إلى الطور الحضاري المستقر تبعَه نوعٌ من توزيعِ الأعمال وتنظيمها. وهنا نجد النواةَ الأولى للمدرسة. وعندها أصبحَ العملُ تعليماً وتعلّماً وصار يتمُ في مكانٍ معينٍ هو المدرسة.

والقضيةُ في واقع الأمر قضيةُ حاجة. ذلك أن المجتمعَ المتحضرَ احتاج إلى أصحابِ مهاراتٍ خاصةٍ يعتمدُ الكثيرُ منها على الكتابة. ومن هنا فقد كانت الوظيفةُ الأولى للمدرسة أن تعلمَ الطلابَ الكتابةَ، وذلك كي يحصلَ الملكُ على حاجتِه من الكتابِ، وليكونَ لحكامِ الأقاليمِ والوزراءِ من يعينُهم على تدوينِ الأمور. كما أن الكهنةَ كانوا يعنون بتعليم الكتابة ليضمنوا الحصولَ على كهنةِ المستقبل.

وإذا كانت هذه من أهم الغاياتِ الأولى لتعليمِ الكتابة، فمعنى هذا أن تعلمَها كان مقصوراً على الفئاتِ أو الطبقاتِ التي يمكنُ لأفرادِها الوصولُ إلى المناصبِ ذات النفوذِ، أي الطبقاتِ العليا. وإذن فعددُ الذين كانت تتاحُ لهم هذه الفرصُ كان صغيراً. يضاف إلى هذا أنه ما دام التعليمُ مصدرَ قوة، فإن الذين كان باستطاعتهم أن يعلموا الكتابةَ كانوا يحافظون على احتكارِ هذه القوة، فلا يسمحون لها بأن تخرجَ من أيديهم.

هذا الوضع نجدُه في مصرَ القديمة وفي بلادِ الرافدين. فقد كان الكاهنُ في الأغلبِ من الحالات، هو رجلُ الدينِ والطبيبُ والمهندسُ والفلكيُ. وإذن فهو الرجلُ الذي يستطيع أن يُعَلِّم.

وفي مصر القديمة بالذات كانت الكتابةُ تلزمُ للأحياءِ كما تلزم للموتى، فجدرانُ الغرفِ الداخليةِ للأهرامِ والمقابرِ الأخرى منقوشٌ عليها كلُّ ما يتوجبُ على المرءِ أن يراعيَه في حياتِهِ، ويهتمَ به في الحياةِ الأخرى سواء في بلاطِ الملك أم في قصورِ الحكام أو هياكلِ الآلهة.

ولعل مما يوضحُ أهميةَ الكتابةِ في مصرَ القديمة، ومن ثَمَّ أهميةَ تعليمها، ما قاله إرمان:

«إن الموظفينَ الكبارَ في المملكةِ القديمةِ كانوا مغرمين بالظهورِ وهم يكتبون، لأن الكتابةَ كانت المهنةَ التي تقوم عليها منزلتُهم وسلطتُهم. فكلُّ مَن تعلَّمَ الكتابةَ كان الطريقُ

□ الكتابة ركيزة الحضارة الأولى، كانت وظيفة المدرسة الأولى. وهذه هي الأحرف الأبجدية التي اخترعها الفينيقيون وحملوها إلى أصقاع العالم.



□ كاتبان آشوريان يسجلان تقاريرهما في لغتين مختلفتين. أحدهما يستعمل أداة مستدقة الرأس للكتابة على الشمع باللغة الأكادية، والآخر يكتب بالقلم في الآرامية.

مفتوحاً أمامَهُ لجميعِ الوظائفِ، وخاصةً إذا كان يحسنُ التعبيرَ عن أفكاره. كان الأولادُ يتعلَّمونَ فيما بين الرابعةِ والعاشرةِ تقريباً تعليماً أولياً يَقْتصرون فيه على نقلِ بعض رموزِ الكتابةِ الهيروغليفيةِ القديمة. وعندما يصلُ الولد إلى هذه السن كان ينتقلُ إلى مرحلةٍ أرقى يمكن أن يُطْلَقَ عليها جوازاً مرحلةَ التعليم الثانوي. وفيها يقومُ بنقلِ بعضِ الكتب المعتمدة التي يختارها من يقوم على تعليمه».

وقد قال بيكي:

«إنه قد وصلت إلينا من مصرَ القديمة بعضُ الكتبِ المنقولةِ عن كتبٍ قديمة.. وإن هذه الكتبَ قد حملت تصويبَ المدرسين على هوامشِها، كما كانت هناك بعضُ الرسومِ وقد أثبتتْ هذه الكتُبُ المنقولةُ أنها ذات قيمةٍ كبرى في إخبارنا عما كان المصريون يتعلمونه».

ولم يكن كل ما يتعلمُهُ التلاميذُ قائماً على النقل، إذ كانوا يُدَرَّبون أيضاً على كتابةِ

موضوعاتٍ من ابتكارِهم تلائمُ المواقفَ المختلفة. فكانوا يكتبون عن رحلاتِ فرعون وموظفيه الكبار، وعن الشؤونِ المتعلقةِ ببناءِ المعابدِ والمدن، وإصلاحِ السفن، ويتخيلون في كتاباتِهم ما يكتبُه الموظفون الصغار لرؤسائهم، وإجابات الرؤساء، وتقديمَ الشكاوى، وغيرَ ذلك من الموضوعات. وكان التلاميذ في كل هذه الحالاتِ يُوَجِّهون ما يكتبونَهُ لمعلميهم أو للفرعون أو لأحدِ الموظفين. وقد وجدتْ كتابات للتلاميذ وجَّهوا فيها لأنفسهم خطاباً بالإهمال والكسل، وإنهم يستحقون الضرب مائة جلدة.

وقد عثر المنقبون في آثار مدن سومر وبابل وآشور على لوحاتٍ من الآجرِّ اتضح لدارسيها أنها كانت كتباً مدرسية. ويبد أن المواد التي كانت تعلم هناك لم تختلف في جوهرها عن هذا الذي ذكرناه عن مصر القديمة.

وقد عرفت مصرُ وأرضُ الرافدين المدرسةَ العالية. وهذه كانت المعابدُ فقط مراكز لها. يقول وهيب سمعان في ذلك:

«وإذا ما تركنا مرحلة التعليم الثانوي إلى التعليمِ العالي، وجدنا أن المعابدَ كانت مراكزَ لذلك التعليم الأخير، أو بعبارة أخرى كانتْ جامعات ذلك الوقت. وكانت مدينةَ أونَ (هليوبوليس) أكثر المدن شهرة في العلم. ومما يدل على تقدمها تدريس علوم الرياضة التطبيقية، والفلك، والطبيعة فيها. كما كانت تقدم برامج إعدادية في الهندسة، والقياس والمسح. وقد ذكر هيرودوت أن كهنة هليوبوليس كانوا أكثر الكهنة تقدماً في التاريخ».

والذي نريد أن نقوله هو أن المدرسة ظهرتْ بظهور المجتمعات المتحضرة، ورافقت تطور هذه المجتمعات. وقد اختلفت المدرسة على توالي العصور في برامجها وأساليب التعليم فيها ونظرتها إلى دورها. ففي الفترة الأولى التي أثرنا الحديث عنها الساعة كانت المدرسة محدودة الغاية ضيقة نطاق العطاء محتكرة في معلميها وتعليمها محافظة على مراكز القوة والسيطرة على هذه السبل.

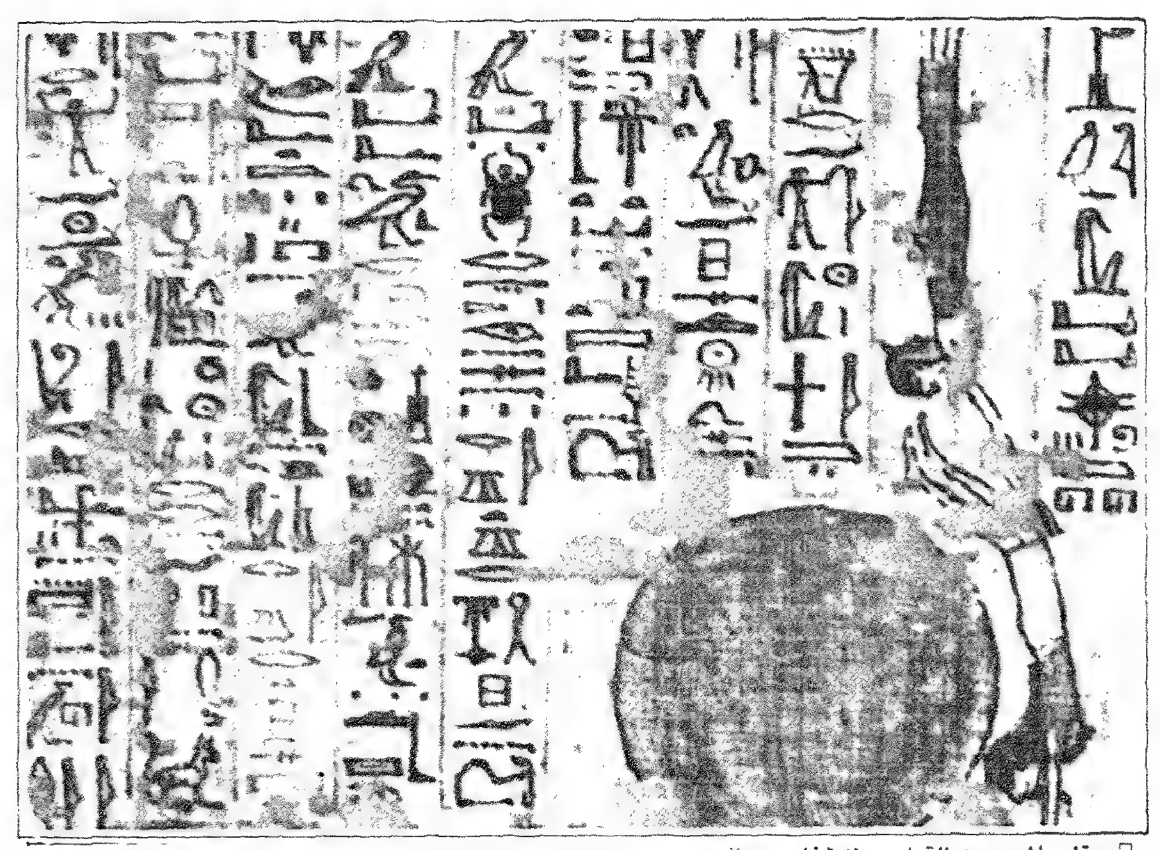
٢ المدرسة اليونانية

إن بلاد اليونانِ القديمةَ كانت مكونةً من عددٍ كبيرٍ من الدولِ المدينية، أي التي تتكونُ كلٌ منها من مدينةٍ وأرباضِها. كما أنهم يعرفون أنَّ هذه المدنَ كانت تختلفُ فيما بينَها في أمورٍ كثيرة. ونحن إذا أخذنا على سبيلِ المثالِ إسبارطةَ وأثينا وجدنا أن الأولى كانت ذاتِ نظامٍ عسكريٍ في كل شأن من شؤونها، بينما كانت أثينا النموذجَ الأفضلَ للديمقراطية. وكان من الطبيعي أن تختلف المدرسةُ في المدينتين.

على أنه حريٌّ بالذكرِ أنَّ الذي عاش في عقولِ الناسِ وقلوبهم عبرَ التاريخ وكان له أثر «في الحضاراتِ التاليةِ هو أثينا بديمقراطيتَها. ولذلك فإننا نود أن نتحدث هنا عن المدرسةِ اليونانيةِ كما عرفتْها أثينا في القرنِ الخامسِ قبلَ الميلاد، والقرنين اللذين عقباه.

كان الطفلُ اليونانيُّ يذهبُ إلى المدرسة في سنِّ السادسةِ إذا كان أبواه ميسوري الحال، وقد يتأخَّرُ عن ذلك قليلاً إذا كان من أبناءِ الصُنَّاع ومن إليهم. وفي هذا الدورِ من التعليم، وهو دورُ المدرسةِ الابتدائية، إذا جازت التسمية، كانت الموضوعاتُ التي تُعَلَّمُ هي الآدابُ والموسيقى والرياضةُ البدنية. وكانت مادةُ الآدابِ يدخلُ فيها القراءةُ والكتابةُ وشيءٌ من النحو. والموسيقى كانت تشملُ اللعبَ على القيثارة. وقد أُضيفَ في القرنِ الرابعِ قبلَ الميلادِ الرسمُ والتصويرُ إلى موادِ التعليم.

وحريٌّ بالذكر أن الموادَ المذكورةَ المختلفةَ كان يقومُ بتدريسِها معلمون أصحابُ اختصاص. بل أن المدارسَ نفسَها كانت، في كثير من



□ مقابر المصريين القدامى، لا تخلو من الرسوم كما لا تخلو من الكتابة، التي كانت أساسية بالنسبة لهم وهي تلزم للموتى كما تلزم للأحياء.

الأحيان، تختصُ بتدريسِ مادةٍ واحدة دون الأخرى. وكانت هذه المدارسُ خاصةً أي ملكاً لأفرادٍ أو هيئات.

كان الأولادُ منذُ الصغر قد سمعوا أشعارَ هوميروس وهزيود وحفظوا بعضَها. فإذا تعلموا القراءةَ وتعرفوا إلى الحروفِ كانوا يبدأون الكتابةَ. وكانوا يستعملون ألواحاً شَمْعِيَّةً بحيث يمكنُ إزالةُ الكتابةِ عنها بمجردِ تسويتها.

كانت مرتبات المعلمين في المدارسِ الابتدائيةِ ضئيلة، ولم يتمتع هؤلاء المعلمون بمكانٍ مرموقٍ في المجتمع.

وكانت المدارسُ تفتحُ أبوابَها يومياً باستثناءِ أيامِ الأعيادِ العامة.

وقد اقتصرَ التعليمُ في كثيرٍ من المدنِ اليونانيةِ على الدورِ الابتدائي، لكنَّ أثينا تخطَّتْ ذلك منذ القرنِ الخامسِ قبلَ الميلاد، فكان فيها دراسةٌ ثانوية وعليا إذا جاز التعبير. ولعلَّ من خصائصِ الدورِ الأولِ من قيامِ المدارسِ الثانوية هو أنَّ أكثرَها لم يُعمَّر طويلاً. ويعود ذلك إلى أن المدرسين كانوا يتنقلون كثيراً من مدينةٍ إلى أخرى. وكان الطلابُ يَؤُمُّونَ هذه المدارسَ حتى سن الثامنة عشرة أو ما إليها.

أما موادُ الدراسة في هذه المدارس، الدائمةِ والمؤقتةِ منها، فقد كانت تتوقفُ على ذوقِ المدرس وهوايتِهِ ورغباتِهِ. فأيٌّ من الموادِ المدرسيةِ المعروفةِ كان يصح أن يُدَرَّس في أي من هذه المدارس. ونحن إذا أخذنا الرياضيات على سبيلِ المثال وجدنا أن ما يَدْخُلُ تحت هذا العنوان فيه: الهندسةُ المسطحة والمجسمةُ ونظريةُ العددِ والحساب. وقد كان مدرسون آخرون يحاضرون في الفلك والفيزياء. لكنَّ كلَّ الدروسِ كانت نظريةً، إذ لم يكن هناك مختبراتٌ للفيزياء أو غيرِها. وقد كان هناك اهتمامٌ خاص بالأدب والموسيقى على مستوياتٍ أعلى من التي

أشرنا إليها قبلاً. كما كان ثمة من يُوْلي التاريخ والقانونَ بعضَ العناية في التدريس.

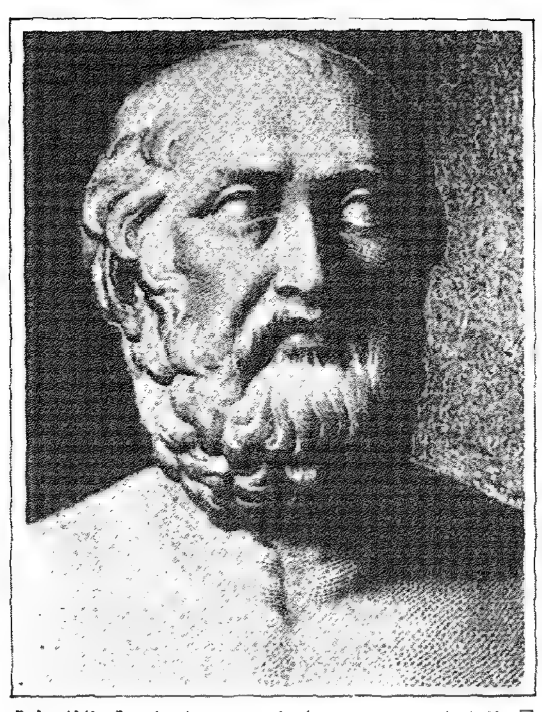
هـذه المدارس، بسبب اعتمادها على المدرسين المتنقلين، كانت دوماً في حالةِ مرونةٍ من حيث كيانُها وموضوعاتُها، ولذلك فقد كان لها أثرٌ في التطورِ الفكري ما كانت لتبلغُهُ المدرسة المستقرةُ نظاماً ومكاناً. يضاف إلى ذلك أن هذا التنقلَ المستمرَ الذي كان المدرسون يقومون به أدَّى إلى انتشارِ الثقافةِ في جهاتٍ نائيةٍ أحياناً.

والسؤالُ الذي يواجِهُنا هو ــ أين كان موضعُ مدارسِ الفلسفةِ في النظامِ المدرسي اليوناني؟ والجوابُ هو أن المدارسَ التي كانت تعنى بالفلسفةِ كانت القضايا التي تطرح فيها تحتاجُ إلى جَنانٍ واعٍ وعقلٍ ثاقبٍ واهتمامٍ مستمرٍ ووعيٍ تامٍ. لذلك فهي في واقعِ الأمرِ مدارسُ لا تحدِّدُ السنُّ وضعَ طلابِها بقدرِ ما تحدِّدُ صفاتُ النضجِ والرغبةُ في التطلعِ وضعَ هؤلاء الطلاب. لذلك فبعضُ هذه المدارس كانت ثانوية وبعضُها كان يُحْسَبُ في عداد المدارس العالية.

ولعلنا نحسن صنعاً إذا نحن لخصنا رأي وهيب سمعان في أهدافِ التعليمِ ومناهجِهِ في المدارسِ العليا في أثينا:

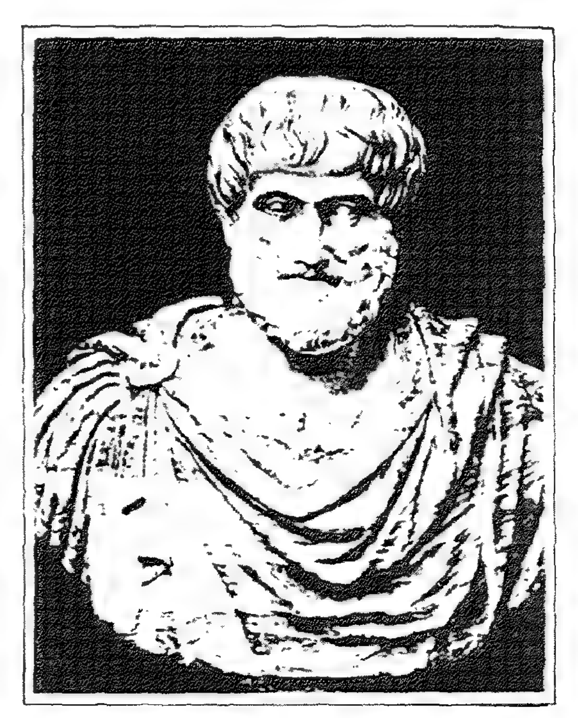
«وبإنشاءِ المدارسِ العليا في القرنِ الرابعِ قبلَ الميلاد بدأ تقليدٌ عظيمٌ أثرٍ في المدنيةِ الغربيةِ منذ ذلك الوقت. فقد اشتهرتْ مدرستا أفلاطون وأرسطو، الأكاديميةُ والليسيوم، شهرةً كبيرةً استمرت بعدَهما عدةَ قرون. وعن طريق هاتين المدرستين نُقِلَتْ أعمالُ هذين الفيلسوفين من جيلٍ إلى جيل، ونُقِشَتْ تعاليمُهُما على عقولِ العالمِ الغربي. وكأنَّ التعاليمَ غيرَ المنظمة للسفسطائيين أفسحتْ الطريقَ للأكاديمية والليسيوم، فإن الاتجاه العمليَّ الذي كان يميز السفسطائيين أفسحَ الطريقَ للاتجاه الفلسفي لأفلاطون وأرسطو.

وقد كرست أكاديميةُ أفلاطون نفسَها لدراسةِ



□ افلاطون، كرست أكاديميته لدراسة الفلسفة والمنطق وفيما وراء الطبيعة.. وغيرها من العلوم.

الفلسفة والمنطق، وفيما وراء الطبيعة، والأخلاق، والسياسة، والقانون، والأدب، والرياضة (الحساب، والهندسة، والموسيقى، والفلك، والطبيعة). أما الليسيوم فكانت تعكسُ اهتمامَ أرسطو بالعلوم، ولذلك تضمَّنَتْ مناهجُهُا العنايةَ بدراسةِ ما وراءِ الطبيعة والمنطق، وعلمِ الجمال، والأخلاقِ، والسياسةِ والبلاغةِ بجانبِ الاهتمامِ الزائدِ بالعلومِ الطبيعية: الطبيعةِ والميكانيكا، والميترولوجيا، والنباتِ والحيوانِ، والتشريحِ والجغرافيا، والجيولوجيا، والطب. وكانت كتاباتُ أرسطو الواسعةُ على شكلِ مذكراتٍ يستخدمُها في محاضراتِهِ في الليسيوم. ومن الملاحظ أنه حتى القرن الخامس قبل الميلاد لم تكن المجالاتُ العديدةُ للمعرفة كما نعيها اليوم قد نُظِّمت وصُنِّفت. وإلى أرسطو يعود الفضلُ الأكبرُ في تنظيمِ وتصنيفِ هذه المجالات. وقد ساهمَ الإسكندر الأكبرُ في تمويلِ بحوثِ أرسطو بأموالٍ طائلة، كما كَلَّفَ رجالَهُ بجمعِ المادةِ العلميةِ لأرسطو من كلِّ أجزاءِ امبراطوريتِهِ الواسعة.



□ الفيلسوف ارسطو.

وهناكَ نوعٌ من المدارس اتسمَ بالطابعَ العمليِ أكثر من غيره من المدارس التي كانت شائعةً في القرنِ الرابعِ قبل الميلاد. وكان يطلقُ على هذه المدارسِ اسمَ مدارسِ البلاغة. ومن أكثر هذه المدارسِ شهرة المدرسةُ البلاغيةُ لايسوقراط. وقد استغلَّ ايسوقراط احترامَ الديموقراطية فقط. كما نادى بأنه إذا استخدمنا البلاغةَ كوسيلةٍ لتنميةِ الديمقراطية، فإن الخطيبَ لا بد وأن يكون شخصاً فاضلاً حقاً يهدف إلى الصالحِ العام وليس للمصلحة الشخصية كما كان السفسطائيون ينادون. وبهذه الطريقة وحدَها يمكنُ اعتبارُ التدريبِ على الخطابةِ تدريباً على المواطنةِ الصحيحة. وكان ايسوقراط يحاولُ في مدى سنتينِ أو ثلاث أو أربع سنوات إمداد تلاميذهِ بأسسِ الأسلوب الخطابي الجيد، كما كان يُقَدِّمُ لهم برنامجاً واسعاً من المعرفةِ يعتبرهُ أساساً لدراسة البلاغة.

٣ جامعة الاسكندرية اليونانية

يروي بلوتارك:

«بعد فتحهِ لمصر، عَمِلَ الاسكندرُ مشروعاً لبناء مدينة عظيمة يملؤها باليونان، ويعطيها اسمَه. قدَّرَ مساحتَها وعَمِلَ رسمَها حسبَ رأيِ مهندسيه. إذ جاءه في النوم حلمٌ غريب، رأى فيه شيخاً أبيضَ الشعر، جليلَ الخلقة، يقتربُ منه ويُنْشِدُه قائلاً:

في وسطِ البحارِ التي تسبحُ مصرُ فيها، قامت جزيرةُ فاروسَ الذائعةُ الصيت».

ويغلب على الظنِ أن مدينةَ الاسكندرية لم يبدأ بناؤها أثناءَ حياةِ الاسكندر لانشغالهِ بأمورٍ أخرى، وأن بطليموس الأولَ هو الذي شرعَ فعلاً في بناء المدينة. وقد اضطرَ بطليموس مدةً ما إلى اتخاذ منفيس مقراً لحكومته حتى إتمامِ بناءِ المدينةِ أو الجناحِ الملكي فيها على الأقل. وقد أوصى بإنشاء المَتحف (الموسايون)، أي مَعْبدِ رباتِ الفنونِ والعلومِ في هذا الجناح. والمقصود هنا بكلمة «متحف» هو معهد للعلمِ والدراسة، الحِقَ بِهِ معبدٌ لتلك الربّات، وذلك على مثال ما كان متبعاً في المدارس الفلسفية اليونانية.

وأنشأ بطليموس بجوارِ هذا «المتحف» بناءً آخرَ للمكتبة اتسع شيئاً فشيئاً حتى أصبح محتوياً لما لا يقل عن مائتي ألفِ مخطوط، ثم اضطر بطليموس بعدئذ إلى إنشاءِ مكتبةٍ أخرى بالمدينة هي مكتبة «السرابيون» التي جمعت من أنفسِ المخطوطات وأندرها ما لا يقل عن خمسين ألفاً. وأقام بطليموس على «المتحف» رئيساً مسؤولاً أمامَه، هو كاهنٌ وظيفتُهُ الرسمية رعايةُ معبدِ الربات، ثم عيَّنَ على الدراساتِ العلميةِ بالمتحف مُشْرفاً اختارَهُ من كبارِ رجالِ العلمِ في هذا الوقت؛ كما أقامَ على المكتبةِ مُشْرفين من أعظمِ رجالِ الأدبِ أو التاريخ.

يقول استرابون:

«المتحفُ جزءٌ من القصورِ الملكية وله ممرٌ عمومي، ورواقٌ فيه مقاعد، ودارٌ متسعةٌ بها

مطعمٌ لعلماء المعهد. يعيش هؤلاء حياةً مشتركة، ويشرف على امورِهم وامورِ المتحف ذاتِه كاهنٌ يعيِّنُهُ الملك».

كـان علماءُ «المتحف» يعيشـون فيـه إذن كرهبان دير من الأديرة، وكانت الحكومةُ تتكفلُ بنفقاتِ معيشتِهم ونفقاتِ المتحفِ كلِها. وكان الملك مهيمنـاً على شؤونـه عن طريقِ راعيه، كما كان يتصل به اتصالاً مباشراً، يزوره من حين لآخر، ويشارك العلماء في مناقشاتهم.

وقد اشتهر «المتحف» منذ نشأتـه تقريبـاً بحلباته في المناقشةِ والجَدَلِ إلى حد أن الكتابَ المعاصرين كانوا يتهكّمون على علمـائه، وعلى تفاهةِ عملِهم.

كان المتحفُ أولَ منشأةٍ علميةٍ حكوميةٍ في اليونان وخارجَها. ولذلك صح مقارنَتُهُ بجامعاتِنا، لولا أنه لم يكنْ يَضُمُّ فصولاً دراسية ولا يمنح شهـادات، بـل ربمـا لم يُلقِ الأسـاتـذةُ فيـه محاضراتٍ بالمعنى المفهوم. كان قبل كل شيء مقرَّ علماءِ الاسكندرية وباحثِيهم وملتقى العلماءِ والباحثين من مختلفِ الأقطار. يتصـل بهؤلاء وأولئـك الطلبةُ من مصـرَ ومن بلادٍ أخـرى، يستمعون إليهم في حلقاتٍ خاصةٍ، ويتابعونهم في عملهم بالمَعْمَلِ أو بالمَشْرَحَةِ أو بالمكتبة.

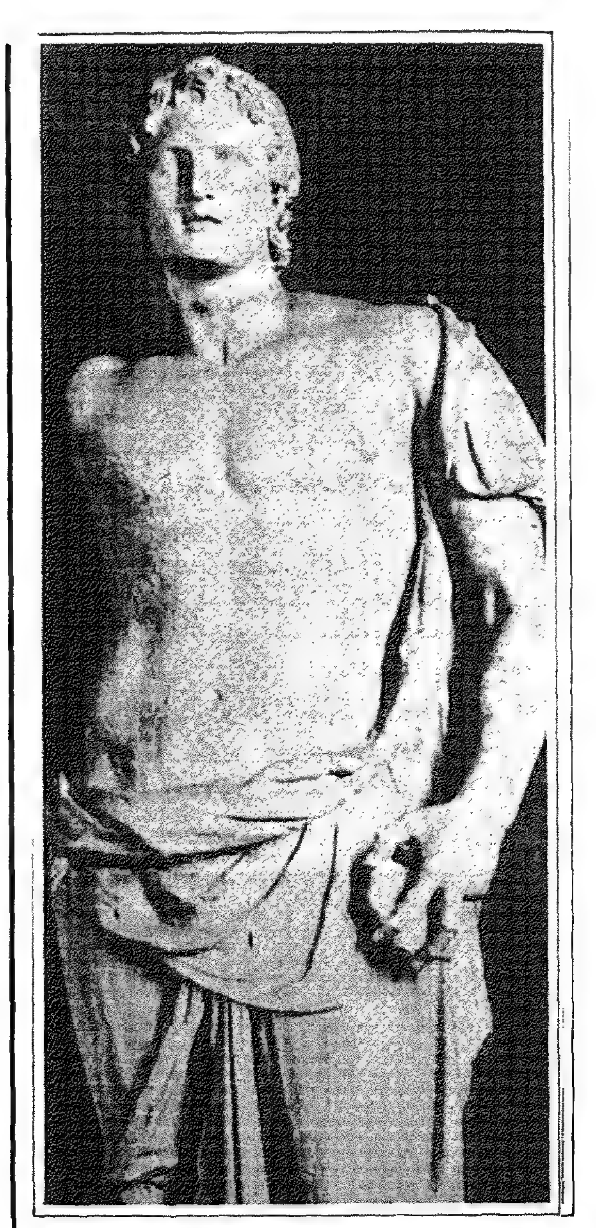
يشبه المتحفُ إذن جامِعاتنا في أنه كان تابعاً للحكومة في ميزانيته، وفي الإشراف عليه، وفي أنه كان يُعِدُّ الطلبةَ لمستقبلِهم العلمي والعملي. ولكنـه يشابِـهُ أيضاً مـدارسَ أثينا الفلسفيـة وحلباتِها في الدرسِ والمناقشة، وفي أنه كان مفتوحاً لمختلفِ العلمـاءِ والزوار. ولذلك وجبَ عـدمُ فصلِه عن المكتبـةِ الملحقـةِ بـه وعن «السرابيون» وغيرهما من المكتبات.

بطليموس الأول كلَّفَ بالإشرافِ العلمي على «المتحف» ديمتريوس الفاليروني الذي كان مقيماً بأثينا وكان تلميذاً لثيوفراسطوس، خليفةِ ارسطو في رياسة مدرسته وكان ديمتريوس قبلَ مجيئِه إلى الاسكندرية من كبار الساسة بأثينا، اضطرَ إلى تركِها بسبب تهجمِ خصومه السياسيين عليه، والتجأ إلى الاسكندرية عند صديقه القديم بـطليموس. فَعَهِـدَ هذا إليـه بالاشـراف على المتحف. ثم عهدَ بطليموس بهذا العملِ ذاتِهِ إلى ستراتون اللمساقي، وهو تلميذٌ لأرسطو ايضاً. أشرف مدة على «المتحف»، ثم أصبح ــ بعد وفـاة ثيـوفـراسـطوس ــ رئيسـاً للمـدرسـة المشائية بأثينا.

ودلالة هذا التعيين المزدوج واضحة بشأن المتحف وروحه العلمية واتجاه الدراسات فيه عند نشأتِهِ وتأسيسه. فقد أخـذت المدرسـةُ «المشائية» بعد وفاةِ أرسطو اتجاهاً علمياً. فاهتمَّ ثيوفراسطوس ببحوثِ علمِ الحيـوانِ والنباتِ، وخصَّصَ ستراتون بحوثَه في علمِ الطبيعـةِ، عاملاً على توجيهِ هذا العلم توجيهاً «ميكانيكياً» مادياً، بخلافِ أرسطو نفسِه الذي غلبت على كتبه في «علم الطبيعة» الروحُ الميتافيزيقية.

وقد ارتبطَ العلمُ الريـاضي بالمتحفِ منـذ نشأته ارتباطاً وثيقاً. كان ذلك في البداية على يدِ أوقليدس صاحبِ كتابِ «الأصول»، الذي عاش وألَّفَ بمدينةِ الاسكندرية في عهد بطليمـوس الأول. وكان أوقليدس أرسطياً في منهجِهِ، أي في إعطاءِ الصورةِ القاسيةِ لبراهينه الهندسية. ولكنه أخذ الرياضةَ وتعلَّمَها من الأفلاطونيين، واستمـدَ منهم بعضَ قضايـاهم، كما استمَـدَ البعضَ الآخرَ من الفيثاغوريين ويعتبرُ مؤرخو أوقليدس في العصرِ الحاضرِ أجزاء كتابِهِ كلَّها مقـدمة لجـزئه الثـالث عشـر، وهـو الخـاصُ بـالأجسـامِ الهنـدسيـةِ التي عني أفـلاطون بدراستها، وجاء ذكرها في «طيماوس».

ومما لا شك فيه أن كبارَ علماءِ الرياضةِ أثناء العصْـرِ البـطلمي والعصــرِ الرومـاني، زاروا الاسكندرية واتصلوا بالمتحف، وتعلَّمَ بعضُهم هناك، وعَلَّمَ بعضُهم الآخر فيه، أو في معاهدَ دراسيةٍ متصلةٍ به. فأرخميدس صاحبُ القاعدة الطبيعية المعروفـة باسمـه واحدُ كبـار علماء الميكـانيكا، وممن اهتم بـدراسـةِ المنحنيـاتِ الهنـدسيةِ في تغيُّـرها المتصـل، زار مدينـة الاسكندرية، وأقام بها مدةً طويلة في النصف الثاني من القرن الثالثِ قبل الميلاد، وأخذ العلمَ



□ الاسكندر.

عن علمائها، ومن أخصِّهم كونون الساموسي، ودويزيتيه البيلوسي. ولا شك أنه اتصل أيضاً باراطُسَثِنِيس العالمِ الفلكي والجغرافي، ومن مؤسسي علم التقويم. كذلك كانَ أمرُ اريستارخوس الساموسي، العالمِ الفلكي الكبيرِ وتلميذُ ستراتون، والذي درس كسوف الشمس، وتوفي في عام ٢٠٠ ق.م. والذي كان مهتماً بدراسة الأشكال المخروطية. أما أراطسثنيس الذي كان مشرفاً على مكتبة المتحف، أثناء حكم بطليموس سوتير، فقد كان من أعظمِ فلكيي وجغرافيي العصر.

أما التخصصُ الأصيلُ للمتحف ــ إن اعتبرنا هذا بصرفِ النظرِ عن المكتبة ــ فقد كان في بحوثِ علمِ الحيوانِ بوجهٍ عام، وهي البحوث التي اهتم بها أرسطو وتلميذه ثيوفراسطوس، وفي البحوثِ الطبيةِ بوجه خاص.

وأهم ما يجب ذكره عن الدراسات الإنسانية، التي انحصرت عند البداية في علم اللغة والأدب والتاريخ، أن القائمين بها في المكتبة، عملوا على صبغها بالصبغة العلمية الموضوعية، كما عمل نظراؤهم في «المتحف»، على اتباع المنهج العلمي الدقيق في دراساتهم. ولم يكن عملهم بالمتحف دون عمل نظرائهم هؤلاء، بل ربما فاقه أهمية وخطراً، هذا لو اعتبرنا أن دراسات «المتحف»، والدراسات العلمية بوجه عام، كانت قائمة في بلاد اليونان، منذ قرنين من الزمن أو ثلاثة على الأقل. أما التوجيه الموضوعي لعلوم اللغة، ولدراسات الأدب والتاريخ، أما تنظيم الكتب والمراجع الخاصة بهذه الدراسات في المكتبة، فإنه أمر جديد أو يكاد يكون جديداً، وذلك إذا راعينا نوع العمل الذي قام به رجال مكتبة الاسكندرية.

وكان أول منظم للمكتبة زينودوتس الأفسي، وكان ميدان تخصصه ملحمتي «الألياذة» و «الأوديسية» لهوميروس.

ويلي زينودوتس في المكتبة، كاليماخوس القوريناني المولود في ٣١٠ ق.م. والذي عمل ثبتاً لمحتويات المكتبة، يتكون من ١٢٠ لفافة. ولو لم تحترق هذه مع ما احترق من المكتبة، لعرفنا محتوياتها من المخطوطات معرفة واضحة. وقد كان هذا الثبت مرجعاً مرتباً حسب الموضوعات، ثم حسب أسماء المؤلفين ترتيباً أبجدياً، وكانت الإشارة فيه إلى كل مخطوط، تصحبها الملاحظات التاريخية والنقدية اللازمة. ويمكن ــ بسبب هذه الملاحظات القيمة، وبسبب ترتيبها حسب المخطوطات والمؤلفين ــ اعتبار الثبت المذكور نواة لتاريخ نقدي للأدب اليوناني.

التنظيمات العثمانية

مُحاولات فاشِلة للإفلات مِن براثن التغلغُل الأورُوبي

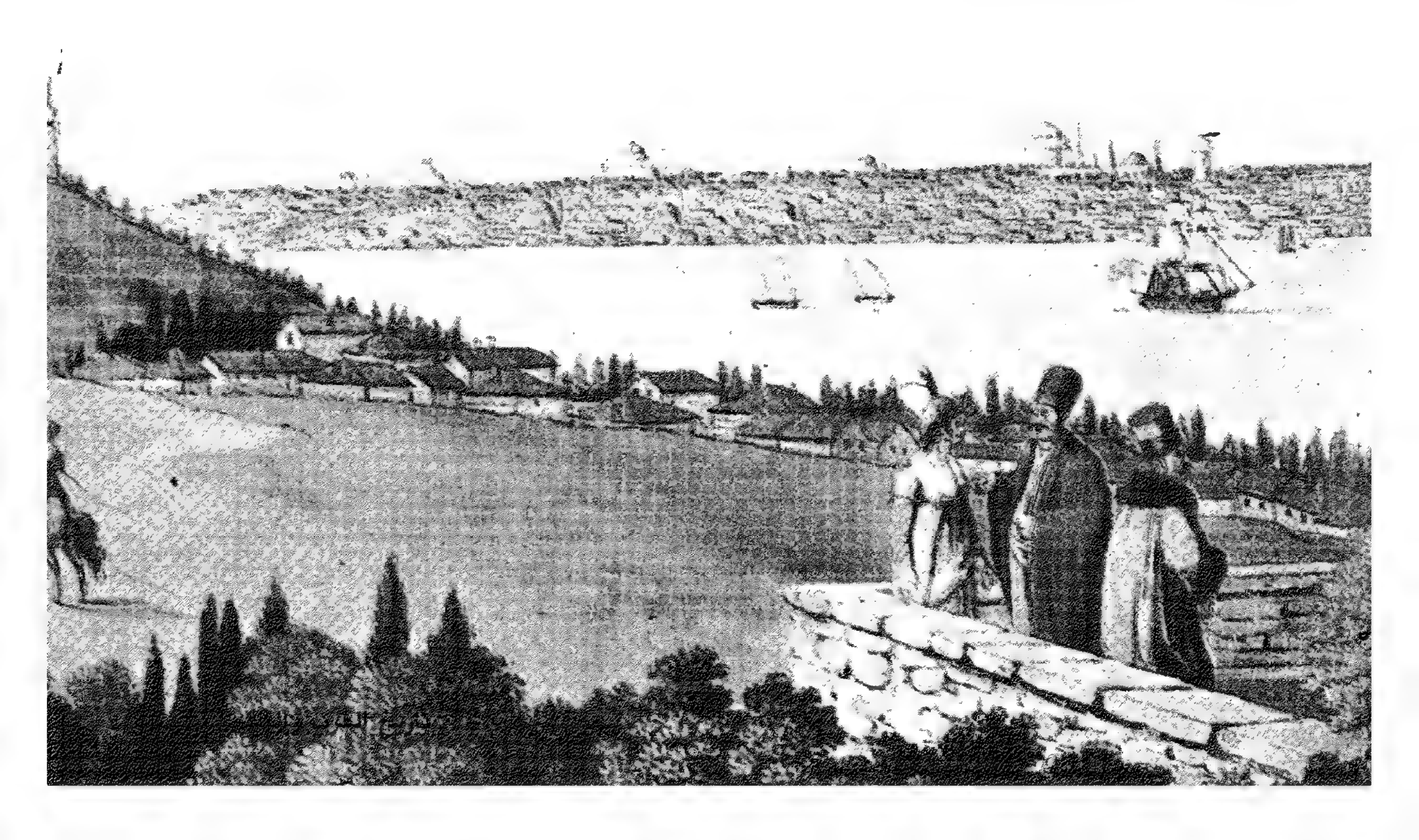
د. محمّد مخزوم



لقد صمدت النظم العثمانية بوجه التأثيرات الغربية حتى أواخر القرن الثامن عشر على أثر الهزائم العسكرية المتتالية التي منيت بها الدولة العثمانية في حروبها ضد أوروبا. ولم يكن الأوروبيون قبل هذا التاريخ بنظر المسلمين سوى جنس من البرابرة قام العثمانيون بردهم عن مراكز الحضارة الاسلامية بواسطة قواتهم العسكرية المرهوبة. ولم يبدأ الشعور بالنقص تجاه التفوق الأوروبي إلا بعد أن أصيبت الدولة العثمانية بسلسلة من الهزائم بدأت منذ حصار فيينا (١٦٨٣) حيث استطاع الروس بعدها أن يفرضوا معاهدة كارلوڤيتز (Carlowitz) سنة ١٦٩٩ وانتهت باحتلال شبه جزيرة القرم سنة ١٧٨٣. إلّا أن أشد الهزائم التي مني بها العثمانيون هي التي استطاعت فيها الروسيا التقدم باتجاه القوقاز وضم مقاطعة جورجيا إليها (١٨٠٠)، ثم باحتلال الحملة الفرنسية بقيادة نابوليون بونابرت (١٧٩٨) لمصر حتى اعتبرها برنارد لويس أنها «أول قوة مسلحة عبّدت الطريق للغرب الحديث في الشرق الأوسط. وكانت أول صدمة للسماحة الاسلامية وأول شرارة كهربائية في طريق «التغريب» والاصلاح!! في الشرق الأوسط»[1].

□ د. محمد مخزوم: استاذ التاريخ الأوروبي في كلية الآداب والعلوم الانسانية ـ الجامعة اللبنانية.

□ القسطنطينية أيام الحملة الفرنسية.



هكذا جاءت محاولات كل من السلطان سليم الثاني وخليفته محمود الثاني حثيثة لأصلاح فرق الجيش. فأطاحت ثورة الانكشارية بالأول عام ١٨٠٧ بينما استطاع الثاني إخضاعهم والقضاء عليهم[٢]. ولكن أهم العوامل التي أقنعت الحكام العثمانيين بوجوب اتباع النظم الأوروبية، خاصة فيما يتعلق بالنظم العسكرية التي اثبتت فشلها المطلق أمام تقدم الجيوش الذي أصبحت تدين به لدول أوروبا التي نصّبت نفسها حامية لممتلكات السلطان العثماني. فقد أصبح على السلطان إذن الخضوع الكامل لمطالب الدول الأوروبية التي ساهمت في تثبيت سلطته من جديد. لهذا توجهت مطالب الدول الأوروبية المغلفة بالطابع «الاصلاحي» نحو اكتساب مزيد من الامتيازات التجارية والدينية توضحت في الخطوط «الهمايونية» ومشاريع الدساتير التي عززت مواقف الرعايا والمواطنين الليبراليين على السواء وساعدت على اتباع الحركة الاصلاحية التركية وأكدت على وجوب اتباع نظم الغرب في الاصلاح مدفوعة بمصالح دول أوروبا وخاصة انكلترا التي كان هدفها دعم الدولة العثمانية للوقوف امام أطماع الروس وتخليصها من وصاية هذه الدولة التي فرضت عليها معاهدة هنكيار اسكله سي[٣].

لم تقتصر هذه الاصلاحات على ضرورة اكتساب الرأي العام الأوروبي في تلك الفترة فحسب. بل أن هذه الفكرة كانت ترمي ايضاً إلى تجريد محمد علي باشا من ادعائه بأنه المصلح الوحيد للامبراطورية العثمانية[٤]. فعندما صدر خط كلخانه (١٨٣٩) كان ما يزال خطر الاحتلال المصري لبلاد الشام والتطلع نحو استانبول جاثماً أمام أعين السلطان العثماني. وقد ذيل الخط الهمايوني الذي قرىء في كلخانة بوجوب إبلاغ هذه الارادة إلى جميع سفراء الدول الأوروبية ليكونوا شهوداً على استمرار هذه التنظيمات «ينبغي أن تعلن إرادتنا هذه السلطانية مشاعة إلى أهالي دار السعادة وجميع ممالكنا المحروسة وأن يعلم بها رسمياً جميع السفراء المقيمين في دار سعادتنا لتكون الدول المتحابة أيضاً شهوداً على بقاء هذه الأصول إلى الأبد إن شاء الله تعالى»[٥].

أما الفرمان الصادر سنة ١٨٥٦ الذي يؤكد على بيان الاصلاحات المقتضى إدخالها فقد تضمن بصراحة اعترافاً بجميل دول أوروبا وأنها «تأيدت بعناية الله تعالى وبمساعي عموم تبعتنا الملوكية الجميلة وبهمة ومعاونة الدول

□ السلطان عبدالحميد في طريقه إلى المسجد.



المتحابة حقوق دولتنا العليا الخارجية»[٦].

ومع أن الفكرة الدستورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تقدمت شوطاً بعيداً في العالمين الاسلامي والعربي على حد سواء، إلا أن نشاط الحركة التنويرية واتساع مفهوم الدعوة «التغريبية» التي نمت مترابطة مع نمو مفهوم الحقوق الانسانية كان لها تأثير بالغ على اصدار هذه الفرمانات الاصلاحية التي أدت إلى المزيد من إضعاف السلطة العثمانية وتيسير التغلغل الرأسمالي الأجنبي. إذ حصلت الشركات الأجنبية بعدها على امتيازات مصرفية واسعة جداً وعلى تأكيد حقها في استثمار المشاريع التي نفذتها كمد خطوط السكك الحديدية وغيرها مما أدى إلى تحويل الامبراطورية العثمانية إلى مستعمرة اوروبية[٧]. مما حدا بالمؤرخ بازيلي إلى القول: «لقد صدرت فرمانات أوضح السلطان عن طريقها لباشواته في عبارات بليغة، ونزولاً على رغبة السفارات، أن القانون يكفل أرواح الرعية وأعراضهم وممتلكاتهم، دون تفرقة في الدين، وقد ترك كل هذا أثراً عميقاً في نفوس الجماهير فمن ناحيته، أخذ ينمو (جنين) مفهوم الحقوق الانسانية، ومن ناحية أخرى، أخذ الضعف يصيب فكرة جبروت الباب العالي وعملائه والحاشية التركية عموماً»[٨].

لقد مرت الحركة الاصلاحية الدستورية في الدولة العثمانية من سنة ١٨٣٩ حتى سنة ١٩١٤ في ثلاثة أدوار اشتمل الدور الأول منها (١٨٣٩ ــ ١٨٧٦) على ثلاثة خطوط رئيسية بينما اشتمل الدور الثاني على خط واحد عرف بدستور ١٨٧٦ أو القانون الأساسي الذي وضع في بداية عهد السلطان عبدالحميد الثاني الذي ما لبث أن أوقف العمل به حتى سنة ١٩٠٨ عندما أقر من جديد تحت ضغط أعضاء جمعية «الاتحاد والترقي» حيث مر الدستور في عهدها في المرحلة الثالثة من تطوره.

الدور الأول: التنظيمات الاصلاحية

(أ) خط كلخانة[٩] سنة ١٨٣٩:

صدر هذا الخط في عهد السلطان عبدالمجيد (١٨٣٩ ــ ١٨٦١) بحضور الوزراء والعلماء والسفراء الأجانب. وقد تضمن عدة إصلاحات إدارية وقضائية ومالية وعسكرية كما تضمن التأكيد على المساواة الاجتماعية بين جميع الرعايا العثمانيين دون تمييز بينهم.

واهم ما جاء فيه:

١ ــ أن سبب ضعف الدولة منذ مائة وخمسين عاماً يعود إلى عدم الامتثال للشرع الشريف والقوانين المنيفة التي كانت سبب تلك القوة التي عرفتها الدولة قبل ذلك. «لقد علم الجميع أنه لما كانت حصلت الرعاية التامة للأحكام الجليلة القرآنية والقوانين الشرعية منذ بداية ظهور دولتنا العلية وصلت قوة واستحكامات سلطتنا السنية وجميع تبعتها إلى أعلى مرتبة من الرفاه والمعمورية لكن بحسب ما وقع منذ مئة وخمسين سنة من عدم الانقياد إلى الشرع الشريف والامتثال إلى القانون المنيف بداعي الغوائل المتعاقبة والأسباب المتنوعة قد تبدلت تلك القوة الأولى والعمار بما هو عكس ذلك من الضعف والافتقار».

٢ ــ إلغاء الالتزام وتنظيم توزيعها على المكلفين لوضع حد لتعسف الملتزمين لأنه يعتبرها «من آلات الخراب ولم يجن منها ثمر نافع في وقت من الأوقات جارية حتى اليوم وكأنما هي عبارة عن تسليم مصالح إحدى البلاد السياسية وأمورها المالية لادارة أحد الناس». كما أكد الفرمان أيضاً على ضرورة وضع ضريبة مناسبة على الأرض «كيلا يؤخذ من أحد شيء زائد عن مقدرته».

٣ ــ تضمن الفرمان أيضاً وعداً بإصلاح الادارة والقضاء وإجراء القرعة العسكرية والشرعية. «وإذا لم تتحصل هذه القوانين النظامية لا يمكن تحصيل القوة والعمار والراحة».

٤ ــ الوعد بالمحافظة على النفوس والأعراض والناموس وتوفير الأمن لكافة الرعايا.

٥ ــ وجوب التقيد بالقوانين الصادرة عن السلطان وتأديب الذين يخالفون من العلماء والوزراء لأن هذه القوانين وضعت لاحياء الدين والدولة والملك والملة».

٦ ــ اعتبار الرشوة أعظم سبب لخراب الملك لأنه منفور فيها شرعاً وهي «السبب الأعظم في خراب الملك».

٧ ــ وجوب إبلاغ هذه الارادة ليس إلى اهالي البلاد والممالك فحسب، بل أن يعلم بها رسمياً «جميع السفراء المقيمين في دار سعادتنا لتكون الدول المتحابة أيضاً شهوداً على إبقاء هذه الأصول إلى الأبد».

إن السلطان العثماني ينبه ويعترف في هذا الفرمان إلى أن سبب ضعف الدولة يكمن في عدم الامتثال للشرع والقوانين المعمول بها في الدولة العثمانية. ومع ذلك فهو يؤكد على ضرورة وضع قوانين جديدة لتحسين إدارة الممالك وحفظ الأمن والروح والعرض والمال... «كذلك نرى من اللازم المهم لأجل حسن إدارة ممالكنا المحروسة وضع بعض قوانين جديدة تتعلق موادها الأساسية بأمنية النفوس والمحافظة على الأموال والعرض والناموس. لكن عندما تفقد الأمنية على المال لا يعود يلتفت لا إلى الدولة ولا إلى الملة ولا ينظر إلى إعمار الملك، بل يكون دائماً غير خال من بلبلة الفكر والاضطراب»[10].

إن إعلان ١٨٣٩ يعتبر بحق منشوراً تمهيدياً يتضمن وعداً بتنظيم شؤون الدولة وفقاً للنظم المرعية في الدول الأوروبية[11] أكثر مما يعتبر دستوراً بالمعنى الحديث أو حتى مقدمة له لأن السلطان لم يقيد نفسه في تطبيق هذه المبادىء العامة الاصلاحية التي أطلقها بدوافع عديدة كما لم يحدد لها مؤسسات معينة لتنفيذها والعمل على وضعها موضع التنفيذ، لذلك بعد أن تخطى السلطان عبدالمجيد خطر التهديد المصري اغفل تنفيذ هذه المطالب طيلة ستة عشر عاماً[12]. حتى وقع من جديد في خطر غيابها عندما اشترطت عليه دول أوروبا المنتصرة في حرب القرم والمتحالفة معه الاعلان عنها مجدداً سنة ١٨٥٦ في الفرمان المعروف بالخط الهمايوني لسنة ١٨٥٦[13].

(ب) التنظيمات الخيرية سنة ١٨٥٦:

لقد أكد خط التنظيمات الخيرية الذي صدر سنة ١٨٥٦ على التعهدات التي منحها السلطان عبدالمجيد نفسه في خط كلخانة. وقد جاء صدور هذا الخط كهدية قدمها السلطان إلى حلفائه (الانكليز والفرنسيين) بالدرجة الأساسية كونهم وقفوا إلى جانبه في حرب القرم[14] ضد أطماع الروسيا في الدولة العثمانية وأظهروا غيرتهم الشديدة في المحافظة على أراضي الدولة العثمانية المعرضة للاقتطاع دون المساس بالمصالح

الامبـريـاليـة التي كـانت تنخـر مجتمعـات الامبراطورية العثمانية برمتها. حتى أن معاهدة باريس (١٨٥٦) وضعت الامبراطورية العثمانية تحت الضمانة الجماعية للدول الموقعة عليها[١٥].

وأهم ما اشتملت عليه هذه التنظيمات:

١ ــ حفظ المال والناموس لأي تابع من أي دين ومذهب كان تـأكيداً وتـأييداً للتنـظيمات الخيرية التي صـدرت في كلخانـة مع وجـوب إخراجها إلى الفعل.

٢ ــ إبقاء كافة الامتيازات التي منحت من قبل أجدادنا للطوائف المسيحية وكافة الملل الغير مسلمة. على أن تقترح كل طائفة الاصلاحات أو التغيرات التي تتفق مع «الوقت وآثار التمدن والمعارف المكتسبة في مجالس مخصوصة تتشكل في البطركخانات بإرادتي واستحساني الملوكي وتحت نظارة بابنا العالي.

٣ ــ تزال إلى الأبد من المحررات الرسمية الديوانية كافة التعبيرات والألفاظ التي تحط من قيمة غير المسلمـين بسبب المذهب أو اللســان أو الجنسية.

٤ ــ عدم إجبار أحد على ترك ديانته ومذهبه وقبـول جميـع رعـايـا السلطان في الوظائف والمدارس الملكية والعسكرية دون فرق ولا تمييز «وبما أن جميع تبعة دولتي العلية من أية ملة كانوا سوف يقبلون في خدمة الدولة ومأمورياتها فيستخدمون في المأموريات امتثالاً إلى النظامات المرعية الاجراء في حق العموم بحسب أهليتهم وقابليتهم والذين هم من تبعة سلطنتي السنية يقبلون جميعاً عندما يفون الشرائط المقررة سواء كان من جهة السن أو الامتحانات في النظامات الموضوعة للمكاتب بدون فرق ولا تمييز في مكاتب دولتي العلية العسكرية والملكية».

٥ ــ إنشـاء محـاكم مختلطة للفصـل في القضـايا بـين المسلمين وغـير المسلمـين عـدا الدعاوي الخاصة بالأحـوال الشخصية فـإنها تحال إلى المحاكم الشرعية الاسلامية أو المحاكم الطائفية لغير المسلمين: «أما جميع الدعاوي التي تحدث فيما بين أهل الاسلام والمسيحيين وباقي التبعة الغير المسلمة أو بين التبعة المسيحية وبين بـاقي تابعي المـذاهب المختلفة الغـير المسلمة تجـارية كـانت أو جنائيـة فتحـال إلى دواوين مختلطة والمجالس التي تعقد من طرف هـذه الدواوين لأجل استماع الدعوى تكون علنية... أما الدعاوي الخاصة مثل الحقوق الارثية فيما بين شخصين من المسيحيين وباقي التبعة الغير المسلمة فتحال على أن ترى إذا ارادت أصحاب الدعوى بمعرفة البطرك أو الرؤوساء والمجالس».

٦ ــ المساواة في الحقوق والوظائف. وإجراء أحكام المعافاة من الخدمـة العسكريـة بتقديم البـدل الشخصي أو النقـدي لجميـع الرعـايـا «وكما أن مساواة الويركو توجب مساواة باقي التكـاليف كذلك المسـاواة الحقـوقيـة تستلزم المساواة في الوظائف أيضاً. فينبغي أن يكون المسيحيون وباقي التبعة الغير مسلمة مجبورين ان ينقادوا إلى القرار المعطى أخيراً بحق إعطاء الحصة العسكرية مثل أهل الإسلام وتجري في هذا الخصوص أصـول المعافيـة من الخدمـة الفعلية إما بإعطاء البدل وإما بـإعطاء دراهم نقدية وتعمـل النظامـات اللازمة بحق صـورة استخدام التبعة عـدا عن الاسلام فيمـا بين صفوف العسكرية وتنشر وتعلن في أقرب وقت ممكن».

٧ ــ الوعـد بإعـطاء الأجانب حق التملك والتصرف في الأملاك داخل الدولة العثمانية.

٨ ــ التأكيد على منع التزام الضرائب.

٩ ــ وعد رؤوساء الطوائف بالاشتراك في مناقشات المجلس العـالي بما يتعلق بشـؤونهم «وتحصل المباشرة بحسن تسويـة المعاشـات المخصـوصـة لكن من المـأمـوريـات وتجلب مخصوصات من طرف جلالة مقام وكالتي المطلقة رؤوساء كل جماعة والمأمور المعين لها من طرفي الأشراف الشاهافي بكي يوجدوا في المجلس العالي عند التذكر في المواد العائدة والراجعة لعموم تبعة سلطنتي السنية»[١٦].

تعود أهمية هذه التنظيمـات إلى أنها أول اعتراف رسمي بالمساواة المدنية والاجتماعيـة بشكل واسع بين جميع رعايا الدولة العثمانية. إلا أنها ساهمت في نفس الوقت في ازدياد التكتل الطائفي عندما منحت رجال الدين صلاحيات كثيرة مكنتهم من صيانة مفاهيمهم الطائفية[١٧]. فسهلت بذلك مهمة الاختراق الغربـي للمجتمع العثماني. وخاصة أن السلطان العثماني وجميع

ممثليه قد أهملوا تنفيذ الوعود التي جاءت في هذه التنظيمات الأمر الذي زاد من تطلعات مختلف الملل نحو دول أوروبا كل بحسب ميولها ومبشريها لتحقيق مزيد من المكاسب الاجتماعية والاقتصادية بواسطتها، ويعلق أحمد سرحال على نتائج هذه التنظيمات بقوله «وعلى الرغم من احتوائه لمبادىء المساواة بين جميع الرعايا العثمانيين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم إلا أن خط ١٨٥٦ يمكن أن يعتبر نتيجة تقنية للحياة الطائفية وشكلاً من أشكال التجميد وإعاقة مسيرة الدمج بين المسلمين وغير المسلمين، على الأقل في إطار البلاد العربية، حيث ينتمي السكان سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين إلى أصل واحد ولغة واحدة»[١٨].

(ج) التنظيمات التي صدرت بين ١٨٥٦ و ١٨٧٦

تابع السلطان عبدالمجيد إصدار الفرمانات الاصلاحية تحت وطأة الضغط الأوروبي تنفيذاً للوعود التي قطعها قبيل معاهدة الصلح في فرساي (١٨٥٦) فأصدر في سنة ١٨٥٨ قانون الأراضي الذي نظم بموجبه الأراضي الأميرية والمتروكة والموات وألغى تبعية الفلاحين للتمارجية.

وعندما تولى السلطنة عبدالعزيز (١٨٦١ ــ ١٨٧٦) أكد في خطابه الصادر إلى الصدر الأعظم على كل ما تضمنه كلخانة والتنظيمات من مراعاة لمبدأ المساواة والعدل في معاملة الرعية «ولما كانت رغبتي الشاهانية بحق استراحة ورفاه تبعتي غير قابلة الاستثناء يعاين جميع الموجودين من أديان وأقوام مختلفة من طرفي الهمايوني أيضاً الدقة المتساوية في أمر العدالة والهمة وتأمين حسن أحوالهم»[١٩].

أما الاصلاحات التي جرت في عهد السلطان عبدالعزيز فهي كثيرة منها القانون الصادر سنة ١٨٦٨ والقاضي بجواز انتقال الأراضي الميرية والموقوفة بورثة صاحب المنفعة ومنها أيضاً وضع مجلة الأحكام الشرعية ليعمل بها في المحاكم النظامية وذلك بإشراف لجنة من أشهر متشرعي ذلك العصر. إلا أن أهم منجزات السلطان عبدالعزيز كانت في خط الاصلاحات والتنظيمات الذي ظهر سنة ١٨٧٤ وأهم ما تضمنه[٢٠]:

١ ــ الفصل بين السلطتين التنفيذية والقضائية.

٢ ــ حق جميع الرعايا في انتخاب مميزين وأعضاء المحاكم النظامية ومميزين وأعضاء مجلس الادارة.

٣ ــ التأكيد على وجوب المحافظة على أموال جميع الرعايا وعلى ناموسهم وأعراضهم وسن القوانين المتعلقة بالضابطة.

٤ ــ التأكيد على المساواة بين جميع أصناف رعايا الدولة مع الابقاء على امتيازات الملل غير المسلمة.

الدور الثاني:

العهد الدستوري الأول (١٨٧٦ ــ ١٩٠٨)

شهد عهد السلطان عبدالحميد الذي وسم «بالعهد الاستبدادي» تطوراً مهماً على صعيد المفاهيم الدستورية. فقد أدى اتساع العلاقات مع الغرب من جهة والجدل الذي قام بين المنورين العرب حول مفهوم السلطة السياسية في هذه الحقبة من جهة ثانية إلى انتشار واسع للآراء الحرة ووجوب تنظيم الدولة على قاعدة القوانين الدستورية الموضوعة المتمثلة في الحكم الديموقراطي وإنشاء المجالس النيابية التمثيلية على غرار النظم الأوروبية.

لقد جاء تعيين السلطان عبدالحميد، آخر المؤمنين بالحكم الدستوري، لمدحت باشا صدراً أعظم تأكيد على ضغط النخبة وإصرارها على تقييد سلطة السلطان والحد من استبداده. فجاء القانون السياسي الذي وضعه مدحت باشا مقتبساً عن الدساتير الأوروبية بشكل يتلائم مع احكام الشريعة الاسلامية وكأنه إيعاز من السلطان نفسه الذي رأى فيه استمرار لخط التنظيمات الذي بدأه والده عبدالمجيد. وقد تضمن هذا القانون الذي اشتمل على مائة وتسعة عشر مادة نصوصاً تناولت أسس الحكم في الدولة العثمانية: وأهم ما جاء فيه[٢١]:

١ ــ اعتبار مركز السلطنة بمنزلة الخلافة الاسلامية وأن السلطان حامي الدين، حقوقه



□ السلطان عبد المجيد في شبابه.

مقدسة، يتمتع بحق عزل الوكلاء وتنصيبهم وعقد المعاهدات وإعلان الحرب وإجراء الحركات العسكرية والأحكام الشرعية والقانونية وحق عقد المجلس العمومي وفضه وفسخ هيئة المبعوثين (المواد ٣ و ٥ و ٦ و ٧).

٢ ــ يتمتع جميع الرعايا بالحرية الشخصية التي يصونها القانون ولا يجوز إجراء مجازاة أحد بأي وسيلة كانت إلّا بالأسباب والأوجه التي يعينها القانون (المادتان ٩ و ١٠).

٣ ــ حرية الرأي المتمثلة بحرية المطبوعات ضمن دائرة القانون. واعتبار جميع العثمانيين متساوون أمام القانون وحقوق وظائف الدولة (المادة ١٧).

٤ ــ صون المال والمسكن (المادة ٢١).

٥ ــ تشكيل مجلس عمومي من هيئتين إحداهما هيئة الأعيان والأخرى هيئة المبعوثين وتجتمع الهيئات في أول تشرين الثاني من كل سنة ويتم افتتاح المجلس العمومي بموجب إرادة سنية بحضرة السلطان نفسه أو الصدر الأعظم كنائب عنه. كما نص القانون أيضاً على تمتع اعضاء المجلس العمومي بحرية إبداء الرأي ضمن النظام الداخلي للمجلس على أن لا يقيد أحد بوعد أو تهديد بسبب آرائه أو بيان أفكاره.

٦ ــ أعطى القانون أيضاً الحق لكل من هيئتي الأعيان والمبعوثين أن تطلب تجديد قانون أو تغيير بعض القوانين مع أن سن القوانين وتغييرها متعلق بمجلس الوكلاء (الوزراء) ولهذا اشترط استئذان السلطان على أن يجري ترتيبها

في مجلس شورى الدولة ثم تعرض على هيئة المبعوثين أولاً، ثم هيئة الأعيان ثانياً حتى إذا وافقت الهيئتان عليها في اجتماع مشترك صدرت الارادة السنية بإجرائها (المادتان ٥٣ و ٥٤).

٧ ــ يتم تشكيل هيئة الأعيان وتعيين رئيسها من قبل السلطان نفسه على أن يكون العضو أهلاً للثقة وله خدمات حسنة مشهودة في الدولة من الوكلاء والولاة والمشيرين وقضاة العسكرية والسفراء والبطاركة ورؤوساء الحاخامية. وتكون عضوية الواحد منهم مدى الحياة سوى الذين يعينون لاحدى مأموريات الدولة بطلبه. أما عدد أعضاء هيئة الأعيان فلا يتجاوز ثلث هيئة المبعوثين. وقد حدد القانون مهمة هيئة الأعيان بالتدقيق في القوانين ولوائح الموازنة الصادرة من هيئة المبعوثين ولها حق رفضها أو ردها إلى هيئة المبعوثين لاصلاحها وتعديلها.

٨ ــ إن عدد أعضاء هيئة المبعوثين يكون باعتبار شخص واحد من كل خمسين ألف نفس من ذكور التبعة العثمانية. ولا يمكن الجمع بين عضوية هيئة المبعوثين ووظيفة أخرى في الحكومة عدا الوزراء المنتخبين. وقد استبعد القانون انتخاب من كان حائزاً على امتياز خدمة أجنبية أو من لم يكن عارفاً باللغة التركية أو من كان سنه دون الثلاثين أو من حكم عليه بالافلاس ولم يعد اعتباره أو من حكم عليه الحجر ولم يفك عنه أو من ادعى أنه من التبعية الأجنبية. أما مدة انتخاب المبعوثين فتجري مرة كل أربع سنوات على أن يعتبر الفائز نائباً عن جميع العثمانيين وليس من الدائرة التي انتخبته فقط. كما يجوز تجديد انتخابه مرة ثانية (من المادة ٦٥ إلى المادة ٧١).

جرت انتخابات مجلس المبعوثين على أساس التعليمات الانتخابية الموضوعة من قبل أعضاء مجالس الادارة في الولايات والألوية والأقضية[٢٢]. وفعلاً جرى افتتاح المجلس العمومي بحضور السلطان نفسه، حيث تليت خطبة على لسانه شرح فيها الأسباب التي أدت إلى انحطاط الدولة وتأخرها معترفاً في نفس الوقت بأن تأخر الدولة يعود إلى عدم المثابرة على وضع القوانين والأنظمة التي ترتكز على قاعدة



□ نابوليون بونابرت: اعتبر البعض حملته إلى مصر عام ١٧٩٨، اول شرارة كهربائية في طريق التعريب والإصلاح.

المشورة كما فعلت الدول المتمدنة «ان تأخرنا عن الترقيات الحاضرة في عالم المدنية كان لاهمالنا المداومة على الاصطلاحات المحتاج ملكنا إليها ولعدم المثابرة على القوانين والنظامات المتعلقة بها ومنشأ ذلك ليس هو إلا صدور هذه الأشياء من يد الحكومة بدون استناد على قاعدة المشورة والحال أن ترقي الدول المتمدنة ونجاحها وأمنية الممالك وعمرانها إنما هو ثمرة تأسيس مصالحها وقوانينها العمومية بالاتفاق وإجماع الآراء كما

هو مسلم فبناء عليه رأيت أن تحري أسباب الترقي في هذه الطريق واستناد قوانين المملكة على الآراء العمومية هو ألزم ما لدينا فلذا قد أعلنت القانون الأساسي أما مقصدنا من تأسيسه فليس هو عبارة عن دعوة الأهالي للحضور في رؤية المصالح العمومية وإنما بالأحرى لاعتقادنا القطعي بأن هذه الأصول هي وسيلة مستقلة لاصلاح إدارة ممالكنا ومحو سوء الاستعمالات واستئصال قاعدة الاستبداد»(٢٣).

الدور الثالث:

العهد الدستوري الثاني (١٩٠٨ ــ ١٩١٤)

انقلاب في السلطة:

منذ أن أوقف السلطان عبدالحميد العمل بالدستور، أخذت تنمو داخل المجتمع العثماني نزعات التحرر في صفوف الأتراك والعرب على حد سواء. فأحاط السلطان عندها نفسه بجيش من الجواسيس والموظفين وأخذ ينكل بالأحرار أينما كانوا حتى استطاع أن يمسك بدفة الحكم طيلة المدة التي تراوحت بين ١٨٧٨ و ١٩٠٨. وفي هذا الجو نمت الجمعيات السرية لمكافحة الاستبداد الحميدي داخل الامبراطورية وخارجها. ومن أهمها «جمعية الاتحاد والترقي» التي تمكنت أن تضع السلطان نفسه تحت رقابة شديدة، وإن تعلن المشروطية الثانية في سنة ١٩٠٨ على أساس القانون الأساسي الذي وضع سنة ١٨٧٦.

وهكذا جرت الانتخابات الثانية لمجلس المبعوثان في الامبراطورية العثمانية فتمكن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي باسم الدستور والحرية أن يفوزوا بأكثرية ساحقة في هذا المجلس(٢٤). كما تمكنوا من تعديل بعض مواد القانون الأساسي(٢٥). بحيث نزعوا من السلطان حق تعيين وإقالة جميع الوزراء. إذ نص التعديل على حق تعيين الصدر الأعظم وشيخ الاسلام. أما الوزراء فيختارهم الصدر الأعظم ويصدق السلطان على تسميتهم كما أصبح للمجلسين (الأعيان والمبعوثان) حق الاجتماع بدون دعوة من السلطان. وحق مجلس المبعوثان في انتخاب الرئيس ونائبيه مكتفياً فقط بإعلام السلطان عن أسماء المنتخبين. كما اقتضى التعديل أيضاً حرمان السلطان من حق حل مجلس المبعوثان في حالة خلافه مع مجلس النظار بعد أن كان هذا الحق مطلقاً دون قيد أو شرط. أما الآن فلم يعد باستطاعة السلطان أن يحل المجلس إلا في حالة واحدة محدودة بدقة، أي حينما يختلف مجلس المبعوثان ويرفض الخضوع لقرار هذا الأخير، ويستقيل ثم يتبنّى مجلس النظار الجديد وجهة نظر سلفة عندئذٍ فقط يستطيع السلطان حل المجلس. ولكن بعد موافقة مجلس الأعيان مع تحديد مدة ثلاثة أشهر لاجراء انتخابات جديدة. وقد اعتبر رجال تركيا الفتاة هذه المادة حجر الزاوية في البناء البرلماني العثماني(٢٦).

حاول السلطان عبدالحميد الافلات مرة ثانية من الدستور الذي فرضته جمعية الاتحاد والترقي، فأوعز إلى حامية الأستانة بالثورة فهجم هؤلاء على البرلمان وقتلوا وزير العدل وأحد النواب العرب (محمد إرسلان نائب اللاذقية) رافعين شعار إحياء الشريعة حتى ينضم إليهم أهالي المدينة. فقام عندها محمود شوكت (أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي) على رأس فرقة من الجيش ودخل الأستانة وقضى على حامية السلطان وقبض على أنصاره فاجتمع عندها أعضاء المجلس العمومي وخلعوا عبدالحميد بموجب فتوى من شيخ الاسلام محمد ضياء الدين. «إذا اعتاد زيد الذي هو امام المسلمين أن يرفع من الكتب الشرعية بعض المسائل المهمة الشرعية وأن يمنع بعض هذه الكتب ويمزق بعضها ويحرق بعضها وأن يبذر ويسرف في بيت المال ويتصرف فيه بغير مسوغ شرعي وأن يقتل الرعية ويحبسهم وينفيهم ويغربهم بغير سبب شرعي وسائر أنواع المظالم ثم ادعى أنه تاب وعاهد الله وحلف أنه يصلح حاله، ثم حنث وأحدث فتنة عظيمة جعلت أمور المسلمين كلها مختلة وأصر على المقاتلة وتمكن منعة المسلمين من إزالة تغلب زيد المذكور ووردت أخبار متوالية من جوانب بلاد المسلمين أنهم يعتبرونه مخلوعاً وأصبح بقاؤه محقق الضرر وزواله محتمل الصلاح. فهل يجب أخذ الأمرين خلعه أو تكليفه بالتنازل عن الامامة والسلطنة على حسب ما يختاره أهل الحل والعقد وأولي الأمر

من هذين الوجهين»؟ «الجواب: يجب»[٢٧].

إن الشعار الذي رفعه أنصار عبدالحميد من رجال الدين والدراويش وبعض الجنود القاضي بوجوب إلغاء المشروطية المخالفة للشريعة إنما يدل على أن هذه الفئات المستفيدة من نظام عبدالحميد قد رفعت هذا الشعار ليس لكون الأنظمة القائمة على «الدساتير الحديثة» مخالفة بحد ذاتها للشريعةفحسب، بل لأن هذا الشعار يمتلك من المواجهة ما لا يمكن أن يمتلكه عبدالحميد نفسه من القوة. وإلا لماذا لم تتحرك هذه الفئات عندما كان عبدالحميد يخالف نصوص الشريعة في أحكامه وجوره واستبداده؟ بل لماذا لم تتداع قبل إعلان الدستور لتقويم اعوجاج سلطته. ومهما قيل في ذلك فإن نص الفتوى ذاتها القائم على قاعدة الشريعة ليس مخالفاً لروح الدستور الذي فرضه الاتحاديون على عبدالحميد.

إلا أنه كان من الطبيعي أن يتمسك الأتراك بتطبيق شريعة الاسلام بالشكل الذي يلائمهم كونها الشرعية الوحيدة للقضاء على الانفصاليين. وهذا ما يفسر برأينا أيضاً رفض السلطة الحاكمة الأخذ بالمفهوم الغربي للديموقراطية او اللامركزية التي كانت تدعم الحركات الانفصالية التي تكاتف على الدعوة لها جميع شعوب الامبراطورية التي كانت تشعر بالغبن، مع الأخذ بعين الاعتبار مساندة دول أوروبا لهذه الدعوات التي اعتبرها السلطان عبدالحميد نفسه بأنها «تشكل خطراً كبيراً علينا وكارثة اليمة»[٢٨] ويقول مبرراً استبداديته «لم تتطور بلادنا التطور الكافي لتقبل الحكم الدستوري، فإن هذا الطراز من الحكم خطر كبير علينا. إذ بمقتضاه يكون جميع الرعايا متساوين في الحقوق والواجبات. وهذا أمر يستحيل تطبيقه في بلادنا. فالامبراطورية العثمانية تشكلت من الأتراك والعرب والروم والأرمن والبلغار والأولاخ (الافلاق) والأرناؤوط (الألبان) واليهود. لا دين ولا لسان يجمعنا»[٢٩]. وهكذا فإن كلّ تبرير لعدم تشكيل حكومة دستورية سواء كانت على النمط الأوروبي أو شوروية على النمط الاسلامي مسؤولة أمام جمهور المسلمين، أو جميع الرعايا فهو ساقط أساساً. لأن السلطة المشيئية نفسها



□ الصدر الأعظم مدحت باشا.

تتطلب مثل هذه الحكومة. فالوقت الذي كان السلطان يعتبر نفسه فيه مطلق الصلاحيات غير مسؤول مباشرة أمام أحد قد جنت فيه حكومته ما وصلت إليه «الدولة» من ضعف وانحطاط أمام القوة الأوروبية التي سمحت لها ظروف تكوّن «الدولة» نفسها بهذا الاختراق.

إن كل إشارة نحو اعتبار الغرب مسؤولا عن تفسخ الدولة العثمانية يعتبر تبريراً لتصرفات السلطة العثمانية محلية كانت أم مركزية. وإلا فما هو مبرر وجود السلطة التي يجب أن تكون متقدمة على المجتمع نفسه الذي انبعثت منه. هذا هو السلطان عبدالحميد يعتبر أن تشكيل حكومة نيابية يعني حدوث الفوضى وانقسام الناس شيعاً وأحزاباً ليس لأن تشكيلها قد اقترحه المتعاطفون مع الانكليز كما يدعي بل كونها تتعارض مع «حرفته» المقدسة «إن الأتراك الشباب قوم خياليون، فاعلان الدستور وتشكيل حكومة نيابية في بلادنا يعني حدوث الفوضى وانقسام الناس شيعاً وأحزاباً يقاتل بعضها بعضاً، ويؤدي بالدولة العثمانية إلى الخراب. وتعاطف الانكليز مع الأتراك الشباب أمر يلفت انتباهنا. فهم يشجعون هؤلاء المفترين على المطالبة بإعلان الدستور ويرفضونه لأنفسهم في الهند المستعمرة. مع أن أوضاع الهند تشبه أوضاع بلادنا، حيث يعيش فيها عناصر غير

متجانسة من المسلمين والنصارى واليوذيين والبراهمة. ومن الصعب جمعهم في مجلس واحد[٣٠]. لهذا اعتبر بعضهم أن دستور ١٨٧٦ لم يكن أقل من ثورة ضخمة عظيمة الخطر كونه جاء بعد حكم أكثر من خمسمائة سنة كان حكم الشريعة خلالها مطلقاً، وإرادة السلطان فوق كل إرادة وفتوى شيخ الاسلام لا محيص عنها[٣١].

إن الفترة التي تولى الحكم فيها أنصار جمعية الاتحاد والترقي بعد خلع السلطان عبدالحميد لم تكن تختلف عن سابقتها رغم أن «الجمعية وصلت إلى الحكم برفعها لشعار وجوب إرساء قواعد الحياة النيابية والدستورية. إذ ما لبث الاتحاديون أن شددوا قبضتهم على البلاد بحجة أن الثورات الداخلية تدفع دول أوروبا نحو مزيد من المطالب والمواجهة. فالهزائم التي منيت بها الامبراطورية العثمانية حيث قضي تماماً على نفوذها في البلقان دفعت الاتحاديين إلى التمسك بما تبقى من الولايات العربية التي ما لبثت أن اشتعلت بها الثورات الداخلية كثورات اليمن والجزيرة العربية في نجد وعسير وبعض المناطق في سورية والعراق.

في هذا الجو المصيري الذي كانت تعانيه الامبراطورية العثمانية تمثلت فيها المعارضة الداخلية العلنية منها والسرية باسم «اللامركزية» والأخذ بنظام الحكم الدستوري، إذ جاء في بيان حزب اللامركزية الادارية العثماني الذي تأسس في كانون الأول عام ١٩١٢ «إن أفضل أشكال الحكومات هو الدستورية وأفضل أشكال الحكم الدستوري هو اللامركزي، خصوصاً في الممالك التي تعددت فيها الفروق والمذاهب واللغات»[٣٢] ففي مادتيه الأولى والثانية نص على «أن الدولة العثمانية دولة دستورية نيابية وكل ولاية من ولاياتها تعد جزءًا من السلطة لا ينفك عنها بحال من الأحوال، وإنما تبنى إدارة هذه الولايات على أساس اللامركزية الادارية»[٣٣]. كما أعطت بقية المواد حقاً واسعاً للمجلس العمومي المشكل على قاعدة الانتخاب في كل ولاية: كحق المراقبة على الحكومة والميزانية والنظر في جميع شؤون الادارة المحلية. أما اللائحة الاصلاحية التي وضعتها الجمعية العمومية الاصلاحية (١٩١٣) فقد أعطت المجالس العمومية التي يجري انتخاب أعضائها على قاعدة التمثيل النسبي العددي في دوائر الانتخابات أكثر مما أعطاها حزب اللامركزية الادارية العثماني. وهكذا توسعت قبيل الحرب العالمية الأولى الدعوة إلى وجوب قيام نظام الحكم في الامبراطورية العثمانية على أساس دستوري حتى شكلت هذه الدعوة عند مختلف شعوب الامبراطورية ومن بينها العرب بالتأكيد، وإن كانت العوامل الأخرى قد طغت عليها، عاملاً مهماً من عوامل المواجهة ضد السلطة القائمة الذي لم يكن ادعاؤها بعدم جدوى القفز عن تطبيق أصول الشريعة والحكم سوى وسيلة لابقاء سيطرتها التي كانت تمدها ببعض التأييد الأدبي لمواجهة التدخل الغربي[٣٤]. ●

هوامش البحث

(١) برنارد لويس: الغرب والشرق الأوسط. تعريب نبيل صبحي (لاغوس ١٩٦٥) ص ٤٤.

(٢) قضى السلطان محمود الثاني على أنظمة الانكشارية وفرقها. واستبدلها بأنظمة وقوانين أوروبية على أساس تشكيلات عسكرية جديدة سماها «العساكر المحمدية».

(٣) توفيق برو: العرب والترك (معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠) ص ٦. أما معاهدة هنكيار اسكله سي فقد وقعت بين تركيا والروسيا بعد صلح كوتاهية سنة ١٨٣٣. وقد التزمت الروسيا بموجبها تقديم العون للدولة العثمانية ضد اعتداء خارجي على أساس إغلاق المضائق في وجه الأساطيل المعادية للروسيا. راجع جوزيف حجار: أوروبا ومصير الشرق العربي (ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمه، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر حزيران ١٩٧٦) ص ٨٧.

(٤) جوزيف حجار: أوروبا ومصير الشرق العربي ص ١٨٠.

(٥) الدستور: (ترجمة نوفل. المطبعة الأدبية في بيروت ١٣٠١هـ) المجلد الأول ص ٤.

(٦) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية (دار الجبل بيروت ١٩٧٧) ص ٢٥٦. أما الخالدي فيذكر في أسباب الانقلاب العثماني ص ٣٧ «إن الدولة إنما أصدرت هذه التنظيمات إرضاءً لأوروبا ولا سيما إنكلترا. والأمة الاسلامية لم تفهم معنى هذه التنظيمات ولا معنى تأمين الناس على الأرواح والأحوال والأعراض كأنه الشريعة التي كانت دستور العمل

تبيح التجاوز والتعدي على الأرواح والأحوال والأعراض وحاشاها من ذلك. فالبلاء لم يكن سببه فقدان القانون والشريعة حتى يزول بإصدار التنظيمات وإنما سببه الاستبداد المتسلط على كل قانون وشريعة».

(٧) لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية ص ١٦١.

(٨) انظر ليفين: الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث (ترجمة بشير السباعي دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٨) ص ٥١.

(٩) كلخانة: محل الورود. اسم الحديقة التي تلي فيها هذا الفرمان في ٣ تشرين الثاني سنة ١٨٣٩.

(١٠) الدستور المجلد الأول الصفحات ٢، و ٣ و ٤.

(١١) انظر ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية (دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٠) ص ٨٨.

(١٢) لم يتحقق من هذه الوعود سوى قانون التجارة الذي صدر سنة ١٨٥٠ وقد جاء هذا القانون ممسوخاً عن القانون الفرنسي القديم. وقد صدر له ذيل سنة ١٨٦٠ يبحث في المحاكم التجارية واختصاصها. كما صدر قانون الجزاء سنة ١٨٥١ مقتبساً عن أحكام الشريعة والعرف المحلي.

راجع صبحي المحمصاني: الأوضاع التشريعية في الدول العربية ماضيها وحاضرها. (دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٢) ص ١٧٥.

(١٣) تذكر لنا المخطوطات التي جمعها أسد رستم «الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ان السلطان بعث إلى محمد علي باشا بمضمون التنظيمات لاشاعتها والعمل بها في الجهات التابعة له. وطلب منه أن يقرأ الفرمان في ميدان عام في مصر.

المجلدان ٣ و ٤ وما بعدها.

(١٤) وقعت الحرب بين روسيا من جهة والدولة العثمانية وانكلترا وفرنسا وسردينيا من جهة ثانية. ومن أسبابها محاولة الروسيا السيطرة على المضائق للوصول إلى المتوسط ومطالبتها بامتيازات للأرثوذكس في أراضي الدولة العثمانية على حساب الكاثوليك. راجع تفاصيل هذه الحرب عند جرانت وتمبرلي: أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين (ترجمة بهاء فهمي مؤسسة سجل العرب ١٩٦٧) الجزء الأول ص ٤١٧ وما بعدها.

(١٥) بيير رنوفان: تاريخ العلاقات الدولية (تعريب جلال يحيـى. الطبعة الثانية ١٩٧١. دار المعارف بمصر) ص ٣٤١.

انظر أيضاً: ENGELHARDT: La Turquie et le tanzimat t, I. P, 115

(١٦) الدستور المجلد الأول الصفحات ٦ و ٧ و ٨.

(١٧) أميل توما تاريخ مسيرة الشعوب العربية الحديث (دار الفارابـي ١٩٧٩) الجزء الأول ص ٨١.

انظر أيضاً عبدالعزيز عوض: الادارة العثمانية في ولاية سورية (دار المعارف بمصر ١٩٦٩) ص ٣٠.

(١٨) احمد سرحال: النظم السياسية والدستورية في لبنان والدول العربية (دار الباحث) بيروت ١٩٨٠) ص ٤٠.

(١٩) الدستور المجلد الأول ص ١١.

(٢٠) انظر نص الخط في كنز الرغائب في منتخبات الجوائب جمع سليم فارس الشدياق الجزء الخامس ص ٢٦٠.

(٢١) نص القانون منشور في كتاب ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٢٥٧.

(٢٢) عبدالعزيز عوض: الادارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤ ــ ١٩١٤) ص ٤٣.

(٢٣) محمد فريد: مرجع مذكور ص ٣٢٣.

(٢٤) تمثل العرب في مجلس المبعوثان بـ ٥٠ مبعوثاً والأتراك بـ ١٥٢ مبعوثاً على الرغم من تفوق العرب العددي في الامبراطورية العثمانية على الأتراك بنسبة ١٣ إلى ٢ أما بقية العناصر فتمثلت بـ ٢٥ البان، ٢٣ يونان، ١٢ ارمن، ٤ بلغار، ٥ اسرائيليين، ٣ للعرب واحد للفلاخ: توفيق برو العرب والترك ص ١٠٨.

(٢٥) توفيق برو: ص ١٢٣.

(٢٦) المرجع السابق ص ١٣٥.

(٢٧) محمد فريد: مرجع مذكور ص ٤١٣ ايضاً يوسف الحكيم: سورية والعهد العثماني (دار النهار للنشر ١٩٨٠) الجزء الأول ص ١٦٨.

(٢٨) السلطان عبدالحميد: المذكرات ص ١٩٦.

(٢٩) المرجع السابق ص ١٠٤.

(٣٠) المرجع السابق ص ١٠٥.

(٣١) عبدالعزيز عوض: مرجع مذكور ص ٤٥.

(٣٢) توفيق برو: مرجع مذكور ص ٤٣٥.

(٣٣) المرجع السابق ص ٤٣٦.

(٣٤) يذكر محمد أنيس أنه رغم سقوط السلطان عبدالحميد. فالنظام الدستوري نفسه الذي أقيم من بعده ظل يتمسك بالفكرة الاسلامية محاولاً استغلالها في لم المسلمين حول الدولة العثمانية، وقد استغلت فكرة الوحدة الاسلامية بالفعل في الحرب الطرابلسية ضد إيطاليا وفي حروب البلقان. الدولة العثمانية والشرق العربـي (مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة) ص ٢٤٤.

العلاقات الروسيّة - العثمانيّة

(١٦٨٧ - ١٨٧٨)

الحلقة الثالثة

حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦)

د. عبد الرؤوف سنو

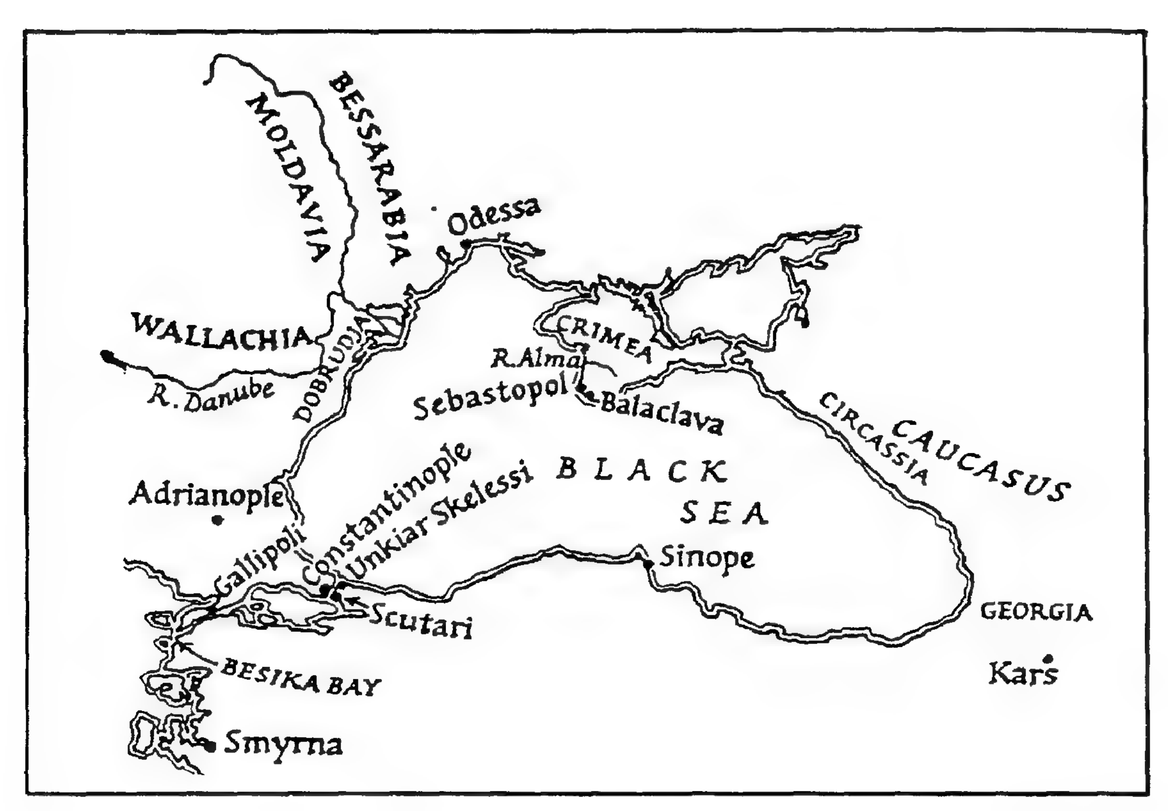


منذ سقوط القسطنطينية بأيدي العثمانيين ظلت العوامل الدينية والاقتصادية والاستراتيجية تدفع روسيا للسيطرة على الممرات العثمانية وبالتالي على العاصمة العثمانية في سبيل تأمين تجارتها وتنفيذ إدعاءاتها في وراثة الامبراطورية البيزنطية. فتارة بالتوسع العسكري وتارة أخرى بأسلوب التفاهم الدولي أعلنت روسيا مراراً عن سياستها التقسيمية للدولة العثمانية. إلا أن خططها اصطدمت في كل مرة بمصالح دول أوروبية أخرى. فالنمسا كانت تنازعها الزعامة على البلقان، في حين عارضتها بريطانيا وفرنسا القضاء على الدولة العثمانية لأسباب استراتيجية واقتصادية. ونتج عن تضارب مصالح الدول الأوروبية في الامبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر تأزم متواصل في العلاقات الروسية ــ العثمانية. وفي النصف الثاني من ذلك القرن اشتعلت الحرب مرتين بين الدولتين، وتعرف الحرب الأولى من التاريخ تبعاً للمكان الذي دارت فيه «حرب القرم» (١٨٥٣ ــ ١٨٥٦) وانتهت بمؤتمر باريس. وتسمى الحرب الثانية بـ «الحرب البلقانية» (١٨٧٧ ــ ١٨٧٨) وانتهت بمؤتمر برلين. وكلا الحربين والمؤتمرين كانا بعيدي الأثر بنتائجهما في التاريخ الأوروبي والعثماني الحديث.

إن غرضنا من هذه الدراسة هو تتبع علاقات الدولتين في أربع حلقات: الأولى تشمل سياسة الاندفاع نحو القسطنطينية حتى معاهدة الممرات ١٨٤١ ــ الحلقة الثانية تلقي الأضواء على دور الدبلوماسية الروسية في مشاريع تقسيم الدولة العثمانية ــ أما الحلقة الثالثة فمخصصة لحرب القرم ومؤتمر باريس. وتنتهي الدراسة بالحلقة الرابعة التي تتعرض للحرب البلقانية ومؤتمر برلين.

ما بين انتهاء الأزمة المصرية واندلاع حرب القرم (١٨٤٠ ــ ١٨٥٣)، شهد الشرق الأدنى حوادث لم تكن ذات اهمية كبيرة بحيث تعكر صفو السلام النسبي الذي ساد المنطقة. لكن حرب القرم التي تعتبر في التاريخ الحديث من أهم مراحل المسألة الشرقية اوصلت العلاقات الدولية إلى مأزق خطر. فبعد إجهاض الثورات في أوروبا من قبل الأنظمة المحافظة (١٨٤٨/١٨٤٩)، غيرت تلك الحرب في العلاقات الدولية وضربت ما كان يسمى بـ «**التجانس الأوروبي**»، الذي كان قد تكرس في ١٨١٥. كذلك أعطى تدخل بريطانيا وفرنسا في الحرب للدفاع عن سلامة السلطنة العثمانية وبالتالي «**تحجيم**» الخطر الروسي عنها، أعطى الدولة العثمانية دفعة جديدة من الحياة استمرت حتى الحرب الروسية ــ العثمانية (١٨٧٧/١٨٧٨).

وينقسم المؤرخون فيما بينهم حول أسباب حرب القرم. فمنهم من يضع الخلافات الدينية بين فرنسا وروسيا حول الأماكن المقدسة بفلسطين في مقدمة مسبباتها[1]، في حين أن بعضهم الآخر لا يرى في النزاع الديني المذكور سوى سبب مباشر للحرب، وأنّ المصالح السياسية والاقتصادية والاستراتيجية المتضاربة بين الدول الأوروبية، وخصوصاً بين روسيا من جهة وبريطانيا وفرنسا والنمسا من جهة أخرى: هي أسبابٌ غير مباشرة للحرب، لا تقل في اهميتها عن الاعتبارات الدينية[2]. فاعتقاد روسيا أن الوقت قد حان بعدما أُخمدت الثورات في أوروبا للعودة لسياسة تقسيم الامبراطورية العثمانية وتأمين مصالحها في تلك الدولة كان يتناقض أساساً مع مصالح الدول الأوروبية الأخرى في الدولة العثمانية وفي منطقة الشرق الأدنى: رغم التعاون المشترك الذي كان قد تحقق بين روسيا وبقية الدول الأوروبية لإنهاء الأزمة المصرية. فالفترة الفاصلة بين معاهدة الممرات وحرب القرم تسجل تنافساً سياسياً واقتصادياً واستراتيجياً بين روسيا الداعية لتقسيم السلطنة العثمانية وبقية الدول الأوروبية المدافعة عن مصالحها المرتبطة بسلامة تلك



□ حرب القرم.

— ١ —

أسباب حرب القرم

• تضارب المصالح الاقتصادية البريطانية ـــ الروسية، والنمساوية الروسية:

كانت مسألة السماح للتجارة الروسية بعد معاهدة قينارجة بحرية استخدام المرات العثمانية إحدى المكاسب الهامة التي حققتها روسيا بعد قرن من الصراع مع الدولة العثمانية. ونتيجة لذلك تحول الثقل الاقتصادي الروسي إلى المنطقة المشرفة على البحر الأسود في جنوبي البلاد[٥]. فقامت مرافىء روسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر وفي مقدمتها ميناء أوديسا بتطوير صادراتها من الحبوب عبر المرات فالمتوسط ومنه إلى بلدان غرب أوروبا وخاصة إلى بريطانيا[٦].

ورغم هذا النمو، فقد كانت هناك عوامل تسير في غير مصلحة التجارة الروسية وهي دخول الدولة العثمانية بولايتيهما الدانوبيتين السوق الدولة. هذا التنافس امتزج بالنزاعات الدينية بين روسيا وفرنسا حول الأماكن المقدسة. كما تتميز تلك الفترة باستمرار الدولة العثمانية بسياسة الإصلاحات الداخلية المدعومة من بريطانيا، التي كانت قد بدأت في ١٨٣٩ واتخذت في ١٨٥٦ منحىً خاصًا[٣]، وكذلك سياسة بريطانيا للاختراق التجاري (معاهدة بلطاليمان ١٨٣٨) والاختراق المالي (أول قرض بريطاني للدولة العثمانية، ١٨٥٤)[٤]. وبالنسبة للنمسا فكان عليها أن تدافع عن مصالحها في البلقان والبحر الأسود والمرات ضد «**الهيمنة الروسية**».

وفيما يتعلق بفرنسا التي كانت قد خسرت الكثير من سمعتها في المشرق بعد الأزمة المصرية، فقد حاولت استرجاع نفوذها مستخدمة المسائل الدينية وسيلةً لذلك. أمّا بروسيا ـــ أكبر الدويلات الالمانية ـــ فكانت لا تزال تعير المسألة الشرقية أهمية ضئيلة، إذ أنصبّ همها على تبوىء مركز مرموق في المجموعة الأوروبية، خاصةً بعد أذلال أولمتز على يد النمسا (١٨٥٠).

الدولية لتجارة الحبوب كمنافسة لروسيا[٧] والتحول التدريجي لبريطانيا عن الأسواق الروسية إلى الأسواق العثمانية، بعدما أصبح المتوسط بالنسبة لبريطانيا طريقاً تجارياً واستراتيجياً مع الهند والشرق الأقصى، وبعدما فتحت معاهدة بلطاليمان واتفاقية التعرفة البريطانية العثمانية (١٨٥٠) السوق العثمانية أمام المنتجات الانكليزية وأصبحت الدولة العثمانية في المرتبة الثالثة بين الدول المستوردة من بريطانيا[٨]. هذا في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية قد تحولت إلى مصدر هام لبريطانيا فيما يتعلق باستيراد المواد الخام لصناعتها. وبعد ١٨٤٦، عندما رفعت بريطانيا ضرائب الحماية الجمركية عن استيراد الحبوب، حلّت الدولة العثمانية في المرتبة الرابعة أو الثالثة بين الدول المصدرة إليها. وكانت الحنطة المصدرة من ولايتي الدانوب أهم الصادرات العثمانية[٩].

وهكذا أخذت بريطانيا تستبدل بالحنطة الروسية الحنطة العثمانية وتؤمن لمصنوعاتها ــ في وقت كثرت فيه شكاوى التجار البريطانيين من المضايقات التي تتعرض لها منتجاتهم الصناعية في الأسواق الروسية ــ أسواقاً أكثر انفتاحاً واوسع استيعاباً في الدولة العثمانية[١٠] هذا إلى جانب استيراد ما تحتاجه هذه الصناعة من المواد الخام. وبذلك أخذ التبادل التجاري بين بريطانيا وروسيا يتراجع بشكل ملحوظ، مقترناً في الوقت ذاته بتضارب مصالح الدولتين التجارية والسياسية والاستراتيجية في وسط آسيا والهند[١١].

إن هذه العوامل الاقتصاديةوالسياسية مجتمعة توضح لماذا أخذت بريطانيا تتحول من جانب روسيا إلى جانب الدولة العثمانية، ولماذا أصبحت المرات العثمانية ومنطقة وسط آسيا منطقتين استراتيجيتين لبريطانيا، ولماذا أصبحت بريطانيا تخشى سيطرة روسيا عليهما، التي يمكن أن تُعَرِّضَ تجارتها الشرقية ومركزها في المتوسط للخطر[١٢]. ولهذا اتسمت سياسة كل من روسيا وبريطانيا بالتضارب: روسيا الداعية لأسباب اقتصادية واستراتيجية لتدمير الدولة العثمانية، وبريطانيا التي سعت للأسباب ذاتها طوال القرن التاسع عشر للحفاظ على السيادة العثمانية وإقصاء روسيا عن أسواق المنطقة.

وقبل حرب القرم بقليل (١٨٤٩) عبر بالمرستون في مجلس العموم عن الدوافع الاقتصادية التي كانت تدفع بلاده لمناهضة النفوذ الروسي والوقوف إلى جانب الدولة العثمانية بقوله: «**فإذا كان استقلال تركيا من الناحية السياسية ذا أهمية كبيرة لنا، فانه، (اي استقلال تركيا) لا يقل أهمية لبريطانيا من الناحية التجارية**»[١٣]كذلك وصف احدالسفراء الانكليز في العاصمة العثمانية أهمية الدولة العثمانية بالنسبة لمنتجات بلاده بقوله: «**إن انهيار تركيا قد يكون مؤشراً للقضاء على التجارة الانكليزية**»[١٤].

* * *

أما النمسا فكانت إحدى الدول الكبرى ذات الاهتمام المباشر بالتجارة مع الدولة العثمانية فيما يتعلق باستيراد الحنطة من ولايتي الدانوب أو بالتبادل التجاري مع مناطق عثمانية أخرى عبر مصب الدانوب فالبحر الأسود والمضائق. لذلك قامت النمسا في الثلاثينات من القرن الماضي بتطوير خطوطها الملاحية مع مرافىء الدولة العثمانية[١٥] ولكن التجارة النمساوية كانت تعتمد بالدرجة الأولى على حرية الملاحة في الدانوب ومصبه. بيد أن تزايد طلب النمسا على الحنطة العثمانية شكل تحدياً لصادرات ميناء أوديسا في تلك المادة، فأخذت روسيا، التي لم تكن عملياً دولة دانوبية، تعرقل التجارة النمساوية، والبريطانية أيضاً في نهر الدانوب مستندة إلى معاهدة ١٨٢٩، التي أعطتها الحق بالإشراف على مصب ذلك النهر وتجارته[١٦]. وقبل حرب القوم كانت النمسا تسعى لازاحة روسيا عن مصب الدانوب. ولما قامت الأخيرة باحتلال ولايتي الدانوب (تموز ١٨٥٣) أدركت النمسا أن عليها أن تدافع عن مصالحها التجارية والاستراتيجية أمام روسيا.

وهكذا كان وجود الدولة العثمانية مستقلة غير مهددة هو ضمان لتجارة بريطانيا والنمسا مع تلك الدولة. ولهذا كان القضاء على الدولة العثمانية بالمفهوم الروسي يعني القضاء على شريك تجاري مربح لهما.

إن العوامل التجارية والاقتصادية التي اوجزناها قد لا تفسر وحدها أسباب نشوء حرب القرم. فالتحليل الاقتصادي لا يكفي وحده لفهم دبلوماسية فترة ما قبل تلك الحرب، التي أعقبت الاتفاق السري الروسي البريطاني في ١٨٤٤ واستمرت حتى ١٨٥٣ ــ هذه الفترة التي يطلق عليها بوريير وتمبرلي بحق «جرثومة حرب القرم»[١٧].

● النزاع الروسي ــ الفرنسي حول الأماكن المقدسة في فلسطين:

وفيما شكلت الاعتبارات الاقتصادية والاستراتيجية، الأرضية الخصبة لنزاعات الدول الكبرى في الدولة العثمانية، بدأت في فلسطين عام ١٨٤٧ بوادر أزمة سياسية بين روسيا وفرنسا ذات طابع ديني وتتعلق بحقوق كل من الطائفتين الكاثوليكية والأرثوذكسية في الأماكن المقدسة. وقد أدت إلى صدام بين الرهبان الأرثوذكس واللاتين استخدمت فيه شمعدانات كنيسة بيت لحم وصلبانها[١٨]. وكانت هذه المسألة قديمة العهد وتعود إلى عام ٦٣٦م عندما اعترف الخليفة الراشد عمر بن الخطاب للطائفة الأرثوذكسية بحق الاشراف على الأماكن المقدسة[١٩]. وخلال الحروب الصليبية أصبحت هذه الأماكن ملكاً مشتركاً للكنائس الشرقية الست في فلسطين. إلا أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت أرفع تلك الكنائس شأناً بفضل عدد اتباعها البالغ ١٣ مليوناً[٢٠] وحماية روسيا لها. والمقابل تمتع رجال الدين الكاثوليك بالحماية الفرنسية. فبفضل الامتيازات التي حصل عليها ملوك فرنسا في ١٥٣٥ و ١٧٤٠ بوجه خاص، حصلت فرنسا على نفوذ ديني وسياسي واسع في المشرق[٢١]. ولحقت روسيا فرنسا بعد معاهدة قينارجة وحصلت بدورها على امتيازات تتعلق بحماية رعايا السلطان من الأرثوذكس[٢٢] واستخدمتها لتقوية نفوذها السياسي[٢٣]. ومنذ بداية القرن التاسع عشر استطاعت روسيا الأرثوذكسية أن تضع الأماكن المقدسة تدريجياً تحت إشرافها مستغلة ضعف فرنسا في المشرق واشتداد تيار العلمنة داخلها، وتم ذلك لها نهائياً عند منتصف ذلك القرن[٢٤]. ولكن الأزمة المصرية عادت ووجهت أنظار فرنسا مجدداً نحو الشرق، في محاولة لاسترجاع ما فقدته من نفوذ. ففي ١٨٤٣ وصل القدس أول قنصل فرنسي[٢٥]. وقبل عامين على ذلك التاريخ وصلت تلك المدينة أول بعثة روسية لدراسة أحوال الأرثوذكس السوريين وإمكانية تأسيس مؤسسات تعليمية لهم[٢٦]. وبعد سنوات قليلة (١٨٤٨) عين جوزيف فاليرغا كأول بطريك لاتيني على القدس بعد انقطاع طويل. وكانت التعليمات التي زود بها فاليرغا - مقاومة النفوذ الأرثوذكسي. وقد فسرت كل هذه التحركات على أنها سياسة كاثوليكية جديدة في المشرق وتحد لنفوذ روسيا الأرثوذكسية، خاصة أن البابا كان قد أعلن أنه لن يعترف بالكنيسة الشرقية[٢٨].

وفي فترة ضعف النفوذ الكاثوليكي في الشرق انتخب لويس نابوليون (١٨٤٨) رئيساً للجمهورية الفرنسية. لكن نابوليون، الذي كان يخطط لضرب الجمهورية وإعادة إحياء الامبراطورية، أخذ يتقرب من الجماعات الكاثوليكية داخل البلاد، بعدما اتخذ الراديكاليون منه موقفاً معادياً. وليحظى بتأييد الكاثوليك أعاد لويس نابوليون للبابوية نفوذها السياسي في روما (١٨٤٩)[٢٩] وكلف ــ بعدما حصل على دعم الدول الكاثوليكية وفي مقدمتها النمسا ــ مندوبه لدى الباب العالي (أيار ١٨٥٠) ليطالب بـ«**حقوق الكاثوليك المغتصبة**» في الأماكن المقدسة من قبل الأرثوذكس استناداً لمعاهدة ١٧٤٠[٣٠].

وطبيعي أن يؤدي التحرك الفرنسي باتجاه الباب العالي إلى إحراج الحكومة العثمانية، التي كانت تدرك حساسية المسألة وأنها قضية سياسية تتعدى مجرد حقوق أي من الطائفتين في الأماكن المقدسة. ولهذا حاولت أن تماطل والا تحسم لمصلحة فريق ضد الآخر (٢٤ ت ٢، ١٨٥١). لكن مقدرة كل من روسيا وفرنسا في ممارسة ضغط عسكري وسياسي عليها، جعل الحكومة العثمانية تصدر قرارات تارة لمصلحة الأولى (٨ شباط، ١٨٥٢) وتارة أخرى لمصلحة الثانية (٢٢ ك ١، ١٨٥٢)[٣١]. وهكذا انتهى عام ١٨٥٢ دون أن تستطيع الدولة العثمانية أن ترضي أياً من الفريقين في مسألة الأماكن المقدسة.

• عودة القيصر نيقولا لمشروع تقسيم الدولة العثمانية:

رغم مناهضة فرنسا لنفوذ روسيا السياسي فيما يتعلق بمسألة الأماكن المقدسة، ظل مركز روسيا في المشرق حتى نهاية ١٨٥٢ قوياً. فالخلافات البريطانية الفرنسية حول بلجيكا، والقلق الذي أصاب الدوائر السياسية البريطانية نتيجة انقلاب ٢ ك ١، ١٨٥١ وإعلان الامبراطورية في فرنسا، وأخيراً سقوط حكومة دربي (Derby) وعودة ابردين (Aberdeen) للحكم (ت ٢، ١٨٥٢)، بالاضافة إلى التقارب بين بطرسبرج وفيينا بعد وفاة شفارتسنبرغ (Schwarzenberg)، رئيس وزراء النمسا (نيسان ١٨٥٢)، الذي تودد إلى فرنسا وتحفظ تجاه روسيا[٣٢] ــ كل هذه الأمور مجتمعة اقنعت القيصر نيقولا بأن الظروف الدولية اصبحت مواتية للعودة إلى مشروعه لتقسيم الدولة العثمانية وأن يعرض على ابردين، شريكه في اتفاقية ١٨٤٤ اتمام ما بداه[٣٣].

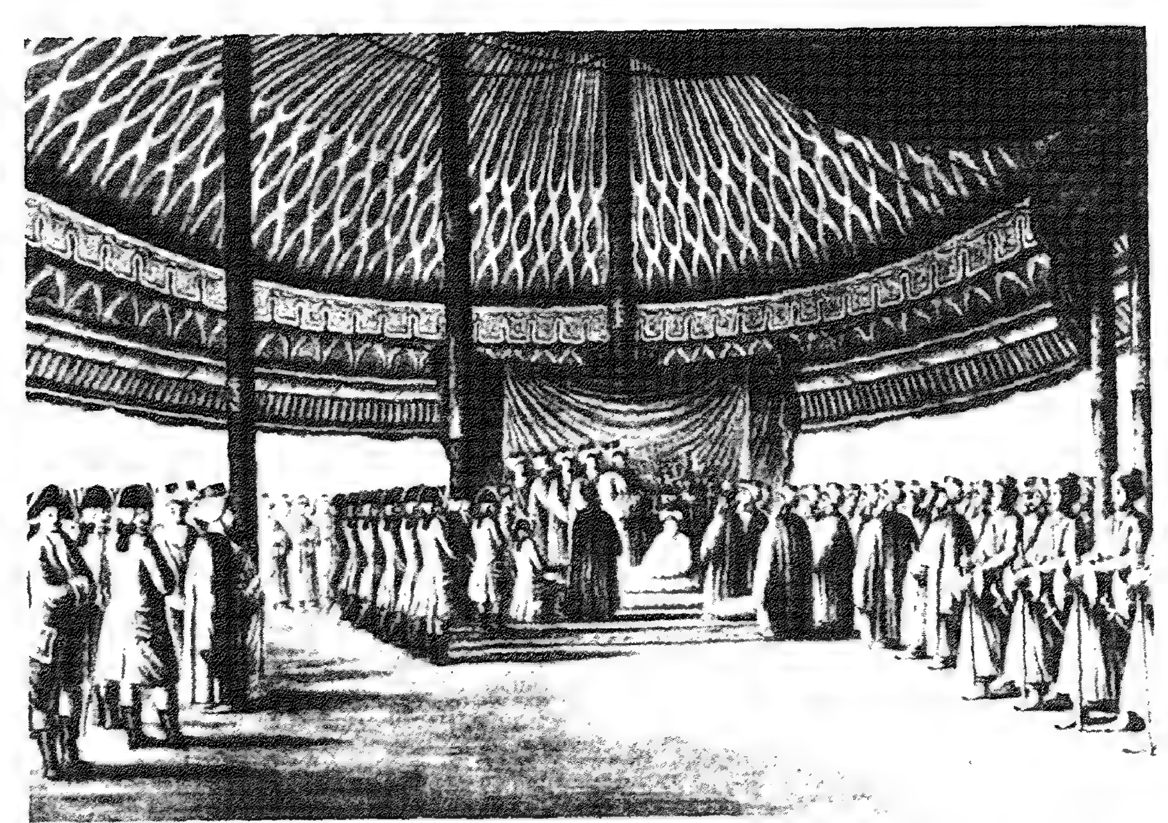
ففي ٩ و ١٤ ك ٢ و٢١ شباط، ١٨٥٣ اجتمع القيصر نيقولا بهاملتون سيمور (Hamilton Seymour) السفير البريطاني في بطرسبرج، وطرح معه المسألة الشرقية من كافة جوانبها وضرورة اتخاذ الترتيبات للحيلولة دون تورط الدول الأوروبية في نزاع فيما بينها نتيجة انهيار الدولة العثمانية لارتباط ذلك بالتوازن الأوروبي[٣٤]. لكن سيمور، الذي لم يظهر تحمساً لمشروع القيصر، أجاب بأن «**بلاده لا ترحب بفكرة تقسيم ممتلكات صديق وحليف قديم قبل أن يكون قد قضى نحبه**»[٣٥]. بيد أن القيصر كرر وجهة نظره معتبراً الدولة العثمانية بمثابة «**دبٌ يحتضر**» وأن «**إعطاءه المسك لن يبقيه على قيد الحياة**»[٣٦]. ومن المؤكد أن «**المسك**» الذي عناه القيصر لم يَك سوى محاولات الاصلاح الداخلي بالدولة العثمانية المدعومة من قبل بريطانيا، والتي رآها عديمة الجدوى لأن الدولة العثمانية في طريقها إلى الزوال.

وفي معرض حديثه حول تقسيم الدولة العثمانية، ولتبديد شكوك بريطانيا بنواياه تجاه المضائق، وأن يقتصر تقسيم الدولة العثمانية على روسيا وبريطانيا وحدهما، فقد أوضح نيقولا لسيمور أنه لا يريد إعادة إحياء مخططات الامبراطورة كاترين الثانية بتأسيس مملكة يونانية أو جمهوريات صغيرة على انقاض الدولة العثمانية. لكنه صرح بأن تكون ولايتا الدانوب وصربيا وبلغاريا في حال انهيار السلطنة العثمانية مستقلتين تحت الحماية الروسية. أما بالنسبة للاستانة فقد رأى القيصر ضرورة تحييدها لأهميتها الاستراتيجية بالنسبة للدول الكبرى. مقابل ذلك أعلن القيصر أنه لا يعارض أن تضم بريطانيا مصر وكريت إليها لأهميتهما الاستراتيجية لها[٣٧].

ورغم ما انطوى عليه حديث القيصر من مكاسب لبريطانيا، إلا أن سيمور أبلغه أن اقتصار تقسيم الدولة العثمانية على الدولتين وحدهما سوف لن يمنع حرباً في المنطقة، بل سيشعلها حرباً عامة[٣٨]. أما راسل (Russell)، وزير الخارجية البريطانية، فكتب إلى السفير البريطاني في بطرسبرج ليخبر القيصر بأن الدولة العثمانية ليست في الطريق إلى الزوال، بل لا تزال لديها مقومات البقاء، وإن مجرد الدخول في مفاوضات مع روسيا حول تقسيم الدولة العثمانية «**قد يعجل بأحداث خطيرة لا تريدها بريطانيا**»[٣٩].

ورغم ما انطوت عليه محادثات نيقولا وسيمور من مخاطر قد تتعرض لها الدولة العثمانية من جانب روسيا، ظلت الدوائر السياسية البريطانية تعتقد أن القيصر نيقولا لن ينجرف وراء سياسة تقسيمية للدولة العثمانية دون موافقتها[٤٠].

وفي بداية ١٨٥٣ كان القيصر يرى أن انهيار الدولة العثمانية قادم لا محالة، مستشفاً ذلك من النزاع النمساوي العثماني حول الجبل الأسود، وتحقيق النمسا لانتصار دبلوماسي على الباب العالي بعد انذارها الشهير (شباط ١٨٥٣)[٤١]. وهذا ما شجعه على التمثل بالدبلوماسية النمساوية في تعامله مع العثمانيين لتحقيق مصالح بلاده الدينية والسياسية وذلك عن طريق إيفاد مبعوث إلى الاستانة، وهو الأمير منتشيكوف (Menshikov). وباختصار فقد كان القيصر يريد إعادة إحياء معاهدة خنكار اسكلسي.



□ الصدر الأعظم يستقبل سفيراً بريطانياً.

— ٢ —

مرحلة المفاوضات المباشرة بين روسيا والدولة العثمانية

● مهمة منشيكوف:

تشير المصادر إلى أن القيصر نيقولا لم يشأ أن يبدأ الحرب ضد الدولة العثمانية أو أن يتورط بمجابهة مع أية دولة أوروبية أخرى(٤٢)، وأن تحرك روسيا في اتجاهين: دبلوماسي باتجاه الاستانة (بعثة منشيكوف) وعسكري باتجاه ولايتي الدانوب واحتلالهما (تموز ١٨٥٣) كان بقصد تحقيق مصالحها في الدولة العثمانية وإلحاق الهزيمة السياسية بفرنسا. وبالاضافة إلى اعتبارات تتعلق بالتوازن الدولي وسنعالجها في حينه، فقد كانت روسيا غير مهيأة للحرب. فعشية حرب القرم كان الجيش الروسي غير مستعد نتيجة تخلف روسيا الاقتصادي الذي انعكس على تسليحه بشكل واضح وكان يمنعه من تحمل أعباء حرب طويلة. وبالاضافة إلى مصاعب روسيا المالية، فقد كانت البلاد تفتقر إلى شبكة مواصلات حديدية لنقل قواتها واحتياطها من الجنود(٤٣).

وفي شباط ١٨٥٣ عين القيصر نيقولا الأمير منشيكوف، قائد الأسطول في بحر البلطيق، رئيساً للبعثة الروسية في استانبول ومفاوضاً مطلق الصلاحيات مع الباب العالي. وحددت مهمته بتحقيق أربعة أهداف(٤٤):

— تأمين اعتراف الباب العالي بحماية القيصر الروسي لرعايا السلطان من الأرثوذكس.

— استحصال مرسوم بإعادة الأوضاع في الأماكن المقدسة إلى ما كانت عليه قبل ١٨٥٢.

— عقد اتفاقية مع الحكومة العثمانية تضمن بموجبها حقوق الطائفة الأرثوذكسية.

— عقد تحالف سري بين الدولتين تقوم بموجبه روسيا بدعم الباب العالي عسكرياً ضد أي اعتداء فرنسي نتيجة للاتفاقات الثلاث الأول.

وبالإضافة إلى ذلك حصل منشيكوف على معلومات مفصلة عن مواقف الدول الأوروبية من

الأزمة، هذا إلى جانب معلومات وافرة عن مجلس الوزراء العثماني ومقرراته[٤٥]. ويبدو أن تزويد منشيكوف بتلك المعلومات يعود إلى انه كان قد وضع نصب عينه ضرب الحكومة العثمانية من الداخل عن طريق[٤٦] دفع بعض الوزراء للاستقالة، وفي مقدمتهم فؤاد باشا، وزير الخارجية العثمانية المعادي لروسيا.

في ٢٨ شباط وصل منشيكوف إلى العاصمة العثمانية واجتمع بعد أيام إلى الصدر الأعظم محمد علي باشا، بعدما تمكن من تحريض السلطان على عزل فؤاد باشا وتعيين رفعت باشا مكانه[٤٧].

وخلال النصف الأول من شهر آذار قدم المفاوض الروسي مذكرتين إلى الحكومة العثمانية (٨ و ١٠ آذار) تتعلقان بالمطالب الروسية بشأن حماية الكنيسة الأرثوذكسية واتباعها في الدولة العثمانية، وباستعداد روسيا لعقد معاهدة دفاعية مع الباب العالي موجهة ضد فرنسا[٤٨]. وفي مذكرتين أخريين (١٦ و ٢٢ آذار) قدم منشيكوف قسماً من المعاهدة التي يتبع بموجبها بطريرك وأساقفة الأرثوذكس القيصر الروسي مباشر، الذي يملك صلاحيات تعيين هؤلاء، تجديد مددهم وعزلهم. كذلك بأن ترفع شكاوى هؤلاء إليه مباشرة بصفته المرجع الأول للكنيسة الأرثوذكسية[٤٩].

● منشيكوف ومناورات كاننغ:

وفيما يقوم منشيكوف بمناوراته الدبلوماسية في الأستانة، كانت الحكومة الروسية تتحرك بدورها دبلوماسياً باتجاه لندن لتؤكد للحكومة البريطانية بواسطة سفيرها هناك على الطابع السلمي لمهمة منشيكوف، ولتمنع في الوقت ذاته أي تقارب بريطاني فرنسي. وخلال الربع الأول من عام ١٨٥٣ كانت الحكومة البريطانية لا تزال تثق بالقيصر نيقولا وبنواياه السلمية تجاه الدولة العثمانية ولا ترى في مطالبه إلى الاستانة اية أهداف عدائية. يضاف إلى ذلك.

شعور ابردين بأن نيقولا لن يتصرف بالمسألة الشرقية بمعزل عنه[٥٠]. ولهذا رأى ابردين، الذي كان يقر لروسيا بحقوق فيما يتعلق برعايا السلطان الأرثوذكس، أن تستجيب الحكومة العثمانية للمطالب الروسية سواء أكانت محقة أم لا[٥١]. ولذلك رفض في ٢١ آذار اقتراح روزن (Rosen)، القائم بالأعمال البريطاني في استانبول، بأن يشارك الأسطول البريطاني الأسطول الفرنسي في مظاهرة بحرية في الممرات خشية أن يستفز ذلك الساسة الروس[٥٢].

ولكن التقارير التي كان يبعث بها سيمور من بطرسبرج وتحذيراته المتلاحقة لنوايا روسيا العدائية في الدولة العثمانية ومحاولتها عزل بريطانيا عن فرنسا، بالإضافة إلى المذكرات العنيفة التي قدمها منشيكوف إلى الباب العالي — كل هذه الأمور أبانت للحكومة البريطانية أن أهداف روسيا تتعدى مسألة الأماكن المقدسة. فعند نهاية آذار كان راسل قد أصبح أكثر اقتناعاً مما مضى «**بأن قيصر روسيا يعمل بجلاء لانجاز تدمير الدولة العثمانية، وانه يجب أن يقاوم**»[٥٣] ورغم ذلك لم تسر الحكومة البريطانية في نهج معاد للروس، بل اكتفت بأن تبقى على مقربة من الأحداث بسفير ضالع بالمسألة الشرقية، وهو ستراتفورد كاننغ (Stratford Canning)، وكانت اعادة تعيين كاننغ في الاستانة دليلاً على المرحلة الدقيقة التي كانت تمر فيها الدولة العثمانية، وعلى رغبة الحكومة البريطانية في الدفاع عن سلامة واستقلال تلك الدولة الحيويان لمصالحها في المنطقة.

ونحن لا نريد هنا أن نخوض في الجدال حول مسؤولية كاننغ عن اندلاع حرب القرم وتأثر الحكومة البريطانية بتقاريره. إلا انه مما لا شك فيه أنه كان يكره روسيا ويدرك الأخطار المحدقة بالدولة العثمانية نتيجة ضعفها، ولهذا كان مصمماً على دعم سيادتها، استقلالها، وكان هذا كافياً لأن يسعى نحو الحرب[٥٤].

وكما ذكرنا سابقاً، فقبل وصول كاننغ إلى استانبول كان منشيكوف قد طالب الباب العالي بمعاهدة تحفظ الامتيازات القديمة «**للديانة الأرثوذكسية الشرقية وللاكليروس وللممتلكات التابعة لها**» وكان كاننغ يرى في اصطلاح «**الديانة**» مطاطية بحيث يشمل جمع رعايا السلطان الأرثوذكس، وان معاهدة من هذا



□ منشيكوف في زيه العسكري.

القبيل تتعارض «**مع الرغبة للحفاظ على سيادة واستقلال الامبراطورية العثمانية**»[٥٥] وتعطي النفوذ الروسي في الدولة العثمانية الغطاء الشرعي. وبناء على ذلك اتسمت سياسته بجعل منشيكوف يفصل ما بين مسألة الأماكن المقدسة وقضية الحماية الروسية على الأرثوذكس، وبأن يجعل الباب العالي يوافق على ما يتعلق بالأولى ويتصلب في المسألة الثانية. وكان كاننغ يدرك[٥٦]، ويشاركه لوكور (Lo Cour) السفير الفرنسي في الاستانة، إن أهداف روسيا تتعدى مسألة الأماكن المقدسة. وقد صحت توقعاتهما بعدما قبل الباب العالي في ١٤ أيار معظم المطالب الروسية فيما يتعلق بالأماكن المقدسة ـــ عندها عاد منشيكوف وتقدم في ٦ أيار بمطالب جديدة تتعلق هذه المرة باستقلال الجبل الأسود والهرسك وعزل وزراء الصرب المعادين لروسيا. وبإيعاز من كاننغ رفض الباب العالي المطالب الروسية الجديدة رابطاً المسألة بالتوازن الأوروبي وبموافقة الدول الكبرى[٥٧]. وهذا ما دفع منشيكوف في ٥ و ١٣ أيار إلى توجيه انذارين إلى الحكومة العثمانية لتنفيذ مطالبه. كما طالب بعزل كل من محمد علي باشا، الصدر الأعظم ورفعت باشا، وزير الخارجية[٥٨].

وفي محاولة أخيرة لمنع انهيار المفاوضات، وافق الباب العالي على اقتراح كاننغ بالاستجابة للمطالب الروسية فيما يتعلق باحترام حقوق رعايا السلطان الأرثوذكس وحصانة الكنيسة الأرثوذكسية لكنه رفض أن يوقع على ذلك بمعاهدة كما طالب منشيكوف. كما رفض أيضاً بأن توضع الكنيسة الأرثوذكسية ورجال الدين الأرثوذكس تحت إشراف المبعوث الروسي في استانبول[٥٩]. وهذا ما جعل منشيكوف يعتقد أن السلطان سوف يتنصل في أول فرصة من تعهده الشفوي، مما جعله يربط بقاءه في العاصمة العثمانية بتنفيذ مطالبه خلال ثلاثة أيام تنتهي في ١٧ أيار، وأخبر منشيكوف الباب العالي أن القيصر يعتبر رفض مطالبه «**عملاً عدائياً لروسيا ودينها**»[٦٠].

أدى الانذار الروسي إلى موجة استياء في الأوساط العثمانية ـــ الأوروبية مما دفع السلطان إلى إقالة الوزارة العثمانية وإسناد الصدارة العظمى إلى رشيد باشا. وفي ١٧ أيار وبعد ست ساعات من الاجتماع أبلغ الديوان العثماني منشيكوف رفضه لمطالبه. لكن الديوان وعد بإصدار مرسوم لصالح الكنيسة الأرثوذكسية في استانبول والسماح لروسيا ببناء كنيسة ومستشفى في القدس[٦١]. وبهذا الرفض انتهت مهمة منشيكوف وغادر العاصمة العثمانية في ٢١ أيار، وبعد أسبوع على ذلك قطعت روسيا علاقاتها الدبلوماسية مع الباب العالي. ويعود فشل مهمة منشيكوف إلى طبيعة المطالب الروسية والمتعجرفة وإلى المؤامرات التي حاكها كل من كاننغ ولوكور.

ولم تمر تلك التطورات دون ردة فعل بريطانية. ففي اليوم التالي على مغادرة منشيكوف للاستانة بعث كاننغ بتقرير إلى حكومته (وصل التقرير لندن في ٣١ أيار) حول مخاطر السياسة الروسية في الدولة العثمانية. وقد دفع هذا ابردين للكتابة إلى نسلرود (Nesselrode)

المستشار الروسي، حول تناقض التصريحات الروسية مع مطالب منشيكوف. وأكد ابردين للمستشار الروسي تمسك بريطانيا بمعاهدتي ١٨٤٠ و ١٨٤١[٦٢]. وقبل يوم على ذلك كانت الحكومة البريطانية قد أعطت كاننغ صلاحات استثنائية باستدعاء الأسطول البريطاني إلى الاستانة إذا ما وجد أن سلامة الدولة العثمانية بخطر[٦٣]. وكان هذا تحذيراً غير مباشر لروسيا حول عزم الحكومة البريطانية بالدفاع عن مصالحها المرتبطة بسلامة الدولة العثمانية.

— ٣ —

مرحلة ما بين الحرب والسلم

● استراتيجية الحرب الروسية وردود الفعل الدولية:

وفي بطرسبرج قرر القيصر بعد مشاورات مستفيضة القيام بإجراءات على مراحل اعتبرها وسطاً ما بين الحرب والسلم، وهي احتلال ولايتي الدانوب، على أن تتبعها إجراءات أخرى إذا ما استمرت الحكومة العثمانية في تجاهلها للمطالب الروسية[٦٤]. وفي هذا المعنى وجه نسلرود في ٣١ أيار إنذاراً إلى الباب العالي بضرورة تلبية مطالب منشيكوف خلال ثمانية أيام، وبعدها إذا لم يستجب إلى المطالب — ستعبر القوات الروسية الأراضي العثمانية **«ليس بقصد الحرب، بل للحصول على ضمانات مادية من السلطان»**[٦٥]. ولم تكن تلك **«الضمانات المادية»** سوى احتلال القوات الروسية لولايتي الدانوب.

وفي محاولة عثمانية للمناورة الدبلوماسية اصدر السلطان في السادس من حزيران مرسوماً يعلن فيه الحرب الدينية لمختلف الطوائف[٦٦]. وبعد عشرة أيام على ذلك بعث إلى عواصم الدول الكبرى يخبرها أنه لا يستطيع أن يلزم نفسه باتفاقية تمس سيادته واستقلاله[٦٧].

وبين الثالث والسادس من تموز عبرت القوات الروسية نهر بروث (Pruth) واحتلت بوخارست. وبهذه العملية السريعة أرادت روسيا أن تضغط على الباب العالي من جهة، وأن تضع الدول الكبرى أمام الأمر الواقع من جهة أخرى. لكن السؤال الذي يطرح نفسه: تُرى ما هي الأسباب التي جعلت روسيا تقدم على هذه الخطورة وهي تدرك أنها ستورطها بمجابهة مع الدول الكبرى؟ إن الاجابة عن هذا السؤال تكمن في إلقاء ضوء على الاعتبارات التي بنت روسيا عليها استراتيجيتها الحربية، وهي:

— ضعف الجيش العثماني وعدم مقدرته في التصدي للجيوش الروسية.

— استحالة قيام تحالف بريطاني فرنسي ضد روسيا.

— القطيعة بين بروسيا والنمسا والتي لا يمكنها أن تجمع بينها في عمل موحد ضدها. بالاضافة إلى إمكانية تحييدهما إن لم يكن دفع النمسا لتحريك جيشها إلى الحدود الفرنسية للضغط على باريس.

وإذا كان للاعتبار الأول ما يبرره، فإن الاعتباران الأخيرين اثبتا خطأً استراتيجياً روسياً وكانا سبباً في اندلاع حرب القرم، وهزيمة روسيا[٦٨].

ففيما يتعلق بالتحالف البريطاني — الفرنسي رأى الساسة الروس ضرورة استخدام أسلوب المناورة وعدم إظهار أية نيات عدائية علنية تجاه الدولة العثمانية كي لا يؤدي ذلك إلى الانجراف وراء مجابهة مع بريطانيا. وإن مثل هذه السياسة — إلى جانب التناقضات البريطانية — الفرنسية — كفيلة بأن تمنع أي تقارب بريطاني فرنسي. وطالما أن تحالفاً لن يجمع بين بريطانيا وفرنسا، فقد افترض القيصر أن بريطانيا سوف لن تعارض بلاده، ولن تقوم بعمل منفرد للدفاع عن الدولة العثمانية[٦٩]. ولكن بعد أيار ١٨٥٣ عندما وضحت شكوك بريطانيا بالنوايا الروسية الحقيقية في الدولة العثمانية ومخاطرها على مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية وحدث تقارب فرنسي باتجاه لندن بهدف التحالف، أخذت العلاقات البريطانية — الفرنسية تسير في مسار جديد غير الذي افترضه الساسة الروس. وحتى بعد تحريك بريطانيا وفرنسا لأسطولهما الحربي إلى خليج بزيكا (حزيران ١٨٥٣)، ظل قيصر روسيا يعتقد أن هذا الوفاق لن يعمر[٧٠] رافضاً الأخذ بعين الاعتبار استراتيجية الدولتين في

المسألة الشرقية، وهي المحافظة المشتركة على سلامة الامبراطورية العثمانية. وعلى حد قول فيليبسون وبوكستون، فقد كانت الدولتان «**طرفاً في اتفاقية دولية يعود مبرر وجودها إلى تصميمها واتفاقهما المشترك في المحافظة على السيادة الاقليمية للامبراطورية التركية. إن الغزو الروسي لولايتي الدانوب مهما كان هدفه الظاهري، كان تهديداً خطراً لهذه السيادة، إن لم تكن المرحلة الأخيرة لتدميرها**»[٧١].

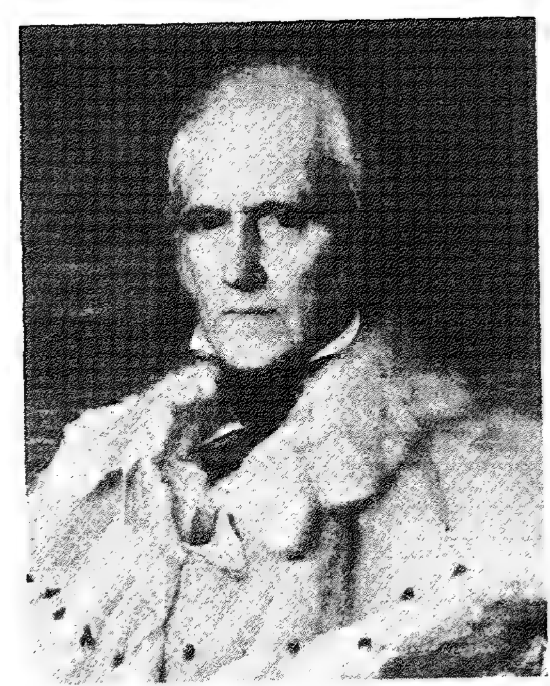
وإذا كان قيصر روسيا قد استبعد قيام تحالف بريطاني ـ فرنسي إلا انه كان متأكداً من حياد دول وسط أوروبا (النمسا وبروسيا) وبعدم إمكانية بريطانيا وفرنسا جر أحدهما إلى تحالف ضد بلاده. ولقد أخطأ القيصر في التقدير عندما اعتقد أن اتفاقتي ميونيخ غراتز وبرلين ودعم بلاده للنمسا في ١٨٤٩ و ١٨٥٠، كفيلان بأن يجعل الأخيرة تحرك جيشها إلى الحدود الفرنسية للمارسة ضغط على باريس[٧٢]. فبدلاً من ذلك تحرك الجيش النمساوي إلى جبهة الدانوب، بعدما كانت النمسا قد تلقت تقارير سرية عن خطط لجنرالات روس «**للوصول إلى الاستانة مع فيينا أو عبرها**»[٧٣]. وما لم يدركه القيصر نيقولا هو قلق النمسا من دبلوماسية منشيكوف واحتلال روسيا لولايتي الدانوب وتهديد التجارة النمساوية في الدانوب والبحر الأسود، وكيف ان ذلك كان إخلالاً للتوازن في البلقان من وجهة النظر النمساوية[٧٤]. وحتى الافتراض القائل بأن القطيعة بين النمسا وبروسيا سوف لن تجمعهما معاً وسوف تدفع بروسيا لأخذ جانب روسيا، أثبت عجز القيادة الروسية في إدراك لعبة التوازن الدولي. فرغم إزلال اولمتز (١٨٥٠) فضل بسمارك، الذي لم تكن لديه اهتمامات مباشرة بالمسألة الشرقية، الوقوف على الحياد وعدم الانجراف وراء روسيا خشية الاصطدام بالنمسا[٧٥]. لكنه رأى في الوقت ذاته أن ينتهج لروسيا سياسة خاصة بها، دون أن يمنعه ذلك من الاتفاق معها حول استراتيجية موحدة في البلقان إذا ما تجاوزت روسيا حدود المعقول[٧٦]. وهكذا كانت كل الدلائل تشير عشية حرب القرم بأن النمسا ستكون الدولة الأوروبية الثالثة التي ستنضم إلى التحالف البريطاني الفرنسي.

مذكرة فيينا ومشروع أولمتز:

الواقع فقد اتسم موقف النمسا بين معسكري الحلفاء من جهة، وروسيا من جهة أخرى بالدقة. فكان الانحياز إلى جانب فريق سيؤثر حتماً على تماسك النمسا ويهددها بكارثة، وذلك بسبب أوضاع البلاد الداخلية الصعبة في إيطاليا وهنغاريا، فضلاً عن تدهور مالية البلاد. لهذا اتبعت النمسا سياسة خاصة بها، وهي أن تحرم روسيا من أية مكاسب سياسية أو إقليمية في الدولة العثمانية، وبالتلويح بالقوة دون التورط في مجابهة عسكرية معها ـ هذه السياسة التي أطلق عليها باومغارت «**الحيادية المسلحة**»[٧٧].

وفي إطار هذه السياسة دعا الغراف بول (Buol)، وزير خارجية النمسا، (آب ١٨٥٣) سفراء الدول الكبرى في العاصمة النمساوية إلى اجتماع لأجل تسوية النزاع. وبامتناع سفيري روسيا والدولة العثمانية عن المشاركة، صدر عن سفراء بريطانيا وفرنسا، بروسيا، بالاضافة إلى باول، ما عرف بـ «**مذكرة فيينا**» (١٩ آب)، التي كانت أهم بنودها التأكيد على اهتمام روسيا الدائم في المحافظة على حرية الكنيسة الأرثوذكسية، وامتيازاتها القديمة والمستمرة في الدولة العثمانية وكذلك حقوق رعايا السلطان الأرثوذكس. ومقابل ذلك الحصول على وعد من السلطان العثماني بأنه «**سيظل أميناً لنص وروح معاهدتي قينارجة وادرنة فيما يتعلق بحماية الديانة المسيحية**»[٧٨].

وبينما وافقت روسيا على المذكرة معتبرة أن معاهدة قينارجة وادرنة قد أعطتاها حق حماية الأرثوذكس في الدولة العثمانية، ربط الباب العالي موافقته على المذكرة بإجراء تعديل على النص، «بأن السلطان سيظل أميناً لنص وروح معاهدتي قينارجة وادرنة **فيما يتعلق بحماية الباب العالي للديانة المسيحية**»[٧٩]. وكان تأكيد الباب العالي على ذلك يظهر جوهر المشكلة حول تفسير نصوص المعاهدتين المذكورتين: هل روسيا هي التي تحمي رعايا السلطان من الأرثوذكس، أم ان ذلك من مسؤولية السلطان؟ وكانت اختلافات



□ السفير البريطاني سترادفورد كاننغ.

وجهات النظر هذه كفيلة بأن تدفع المفاوضات إلى طريق مسدود وتجهض «مذكرة فيينا». وقد اتهم الروس كاننغ بأن أصابعه كانت وراء رفض العثمانيين للمذكرة وللتفسير الروسي لها. ورغم أن مسؤولية كاننغ عن هذه النقطة لا تزال غير ثابتة، إلا أنه من المؤكد أن الباب العالي كان متصلباً بموقفه نتيجة إدراكه بأن بريطانيا وفرنسا لن تتركاه فريسة لروسيا، بل ستدافعان عن سلامة أراضيه المرتبطة بالتوازن الأوروبي ومصالحهما. كذلك كان الباب العالي مدعوماً في موقفه بتعهدات تونسية ومصرية بتقديم المساعدة إليه ضد روسيا. ففي ١٢ آب وصلت وحدات بحرية مصرية إلى ميناء استانبول[٨٠].

وفي الشهر التالي على فشل مذكرة فيينا (٢٤ أيلول) حدث في اولمتز اجتماع مفاجىء بين القيصر نيقولا والامبراطور النمساوي فرانز جوزيف تم الاتفاق فيه على أن تتوسط النمسا بين روسيا والدول الأوروبية وأن يقوم سفراء الدول الكبرى الثلاث في الاستانة نتيجة ذلك بإصدار مذكرة يعترفون فيها بنوايا روسيا السلمية في الدولة العثمانية وعدم رغبة الأخيرة التدخل بشؤون الدولة العثمانية الداخلية وإن حماية الأرثوذكس في الدولة العثمانية من مسؤولية الباب العالي وحده وإن دور روسيا يقتصر فقط على مراقبة تنفيذ تلك الحماية وفقاً لمعاهدة قينارجة[٨١]. ولما كان هذا العرض يتعارض مع السياسة الروسية على الأرض، فقد رفض من جانب بريطانيا، بل إن مجلس الوزراء البريطاني أمر كاننغ بعد أسبوعين (٨ ت١) باستدعاء الأسطول البريطاني الراسي في خليج بزيكا إلى استانبول. وكانت هذه خطوة دافعة نحو الحرب، وفي الوقت ذاته كان الجناح المؤيد للحرب قد تسلم مقاليد الأمور في العاصمة العثمانية[٨٢].

— ٤ —

الحرب الروسية ــ العثمانية

● حملة الدانوب:

كانت أول ردة فعل عثمانية على فشل مبادرات السلام هو الانذار الذي وجهه الباب العالي لروسيا بإخلاء ولايتي الدانوب خلال خمسة عشرة يوماً، وموافقة الديوان العثماني على إعلان الحرب (٢٧ أيلول) ودعوة القيصر نيقولا شعبه (٣٠ أيلول) إلى حرب صليبية ضد الدولة العثمانية[٨٣]. وفي اليوم التالي لاعلان الحرب دعا الباب العالي أساطيل بريطانيا وفرنسا لعبور البسفور، وهو ما حصل وسط احتجاج روسيا. وفي ٤ ت ١ أعلنت الدولة العثمانية الحرب رسمياً على روسيا وبدأت قواتها بمهاجمة المواقع الروسية عبر نهر الدانوب، واضعة بذلك بريطانيا وفرنسا أمام الأمر الواقع. لكن تدمير الأسطول الروسي لوحدة بحرية عثمانية صغيرة قرب سينوب (٣٠ ت ٢ ١٨٥٣) كان كافياً لأن يعجل بعبور الأسطولان البريطاني والفرنسي للمرات إلى البحر الأسود (٤ ك ٢ ١٨٥٤)[٨٤].

وفي تطور دراماتيكي شهد شهرا شباط وآذار ١٨٥٤ الأحداث التالية:

ــ ٦ شباط قطعت روسيا العلاقات الدبلوماسية مع كل من بريطانيا وفرنسا.

ــ ٢٧ شباط انذار بريطاني فرنسي لروسيا بإخلاء ولايتي الدانوب.

ــ ١٢ آذار وقعت بريطانيا وفرنسا اتفاقية مع الدولة العثمانية تتعهدان فيها بدعمهما.

ـ ٢٣ آذار، جيش روسي يعبر الدانوب ويحقق انتصاراً ساحقاً على الجيش العثماني عند سيلستريا.

ـ ٢٨ آذار بريطانيا وفرنسا تعلنان الحرب على روسيا.

وبعد أقل من أسبوعين لاعلانهما الحرب وقعت بريطانيا وفرنسا اتفاقية للتعاون العسكري بينهما (١٠ نيسان). وكانت كلتا الدولتين قد وقعتا اتفاقية مع النمسا وبروسيا للحفاظ على سيادة الامبراطورية العثمانية (آذار ١٨٥٤). أما بروسيا والنمسا فتوصلتا في ٢٠ نيسان إلى معاهدة دفاعية مشتركة موجهة ضد روسيا[٨٥]. إذن تقوي مركز النمسا السياسي والعسكري نتيجة تلك الاتفاقات والتي توجت بإنذارها لروسيا رسمياً بإخلاء ولايتي الدانوب (٣ حزيران) وبالمعاهدة التي وقعتها مع الدولة العثمانية لاجلاء روسيا عن ولايتي الدانوب واحلال قواتها «**مؤقتاً**» محلها (١٤ حزيران)[٨٦].

ولاعتبارات عسكرية وبناء على نصيحة ملك بروسيا، اضطرت روسيا للرضوخ للتهديد النمساوي وأنهت انسحابها من ولايتي الدانوب عند نهاية آب[٨٧]. وقبل ذلك تصاعدت العمليات العسكرية بعدما تمركزت قوات الحلفاء في غاليبولي وفي مرفأ بيروس باليونان[٨٨].

وبانسحاب الجيش الروسي من ولايتي الدانوب ودخول القوات النمساوية محلها تغير مجرى الحرب. فتهديد روسيا لسيادة الدولة العثمانية انتهى، وأصبحت الولايتان الدانوبيتان بعهدة دولة خليفة للسلطان. ومع ذلك فلم تتوقف الحرب، بل ان الحلفاء نقلوا عملياتهم العسكرية إلى القرم لضرب قوة روسيا الحربية في البحر الأسود، مما كان يتناسب مع استراتيجيتهم المتوسطية وبشكل خاص المصالح البريطانية[٨٩]. ففي تموز ١٨٥٤ نزل حوالي خمسون ألف جندي بريطاني وفرنسي وعثماني في خليج أوباتوريا (Eupatoria) شمالي سباستبول (Sebastopol). وبذلك بدأت حرب القرم الحقيقية. ولهذا ستدعي الدول المتحالفة بأنها لا تخوض الحرب ضد روسيا لأجل مصالحها الخاصة، بل لأجل سلامة أوروبا جمعاء. ولهذا أيضاً سعى الحلفاء للحصول على مؤيدين لهم ولايجاد «تجانس» أوروبي ضد روسيا (Anti-Russian «Concert of Europe») مشابه للتجانس الأوروبي الذي حدث عند نهاية الحروب النابوليونية[٩٠].

● حرب القرم و «مذكرة الضمانات الأربعة»:

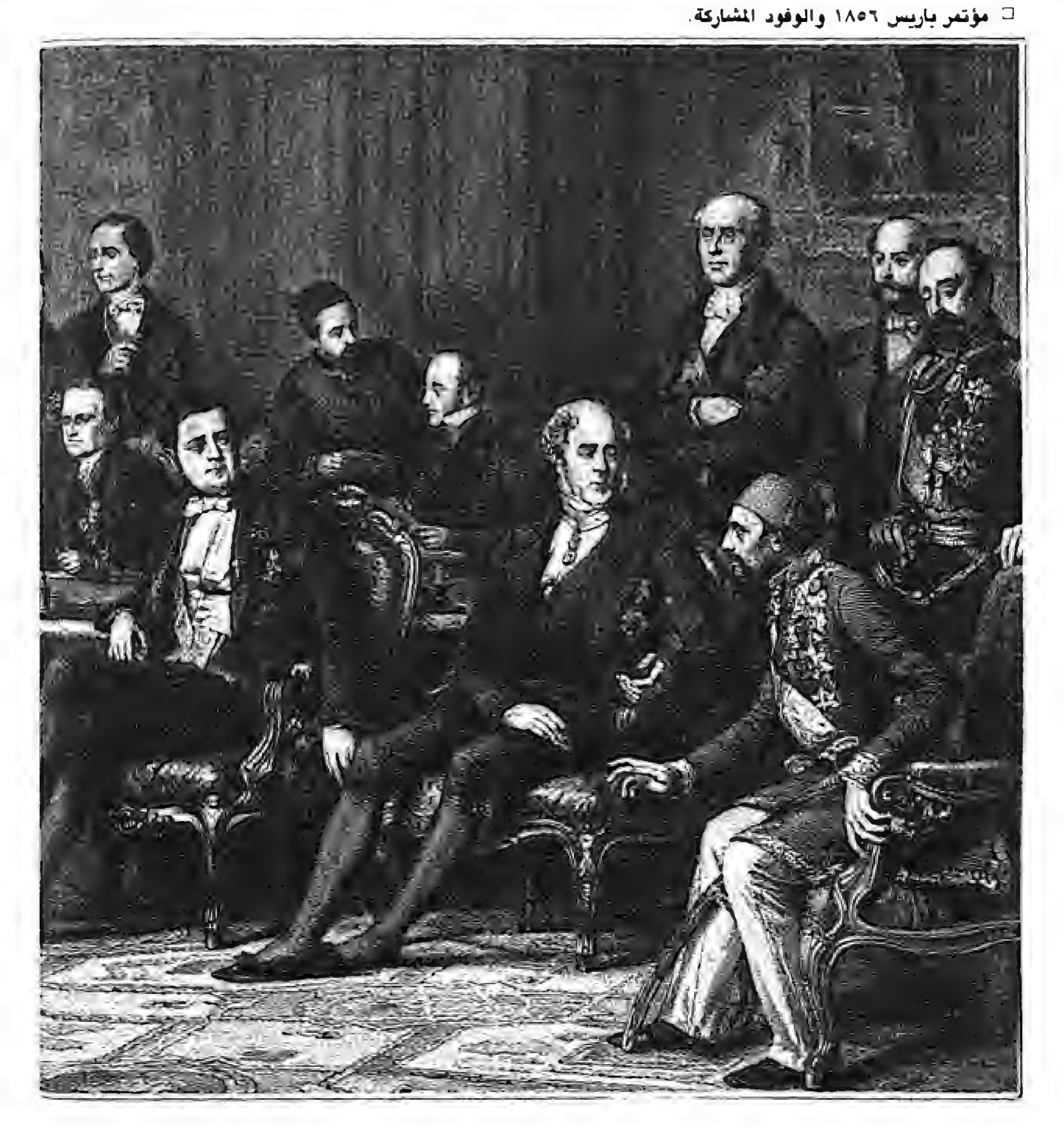
يعتبر انسحاب روسيا من ولايتي الدانوب وحلول القوات النمساوية محلها بهدف عدم ترك المنطقة تقع تحت سيطرة قوات الحلفاء نصراً دبلوماسياً باهراً للنمسا[٩١]، ولكن بثمن باهظ، هو العداء مع روسيا واحتمال تورطها معها في حرب تخوضها منفردة دون مساعدة الحلفاء. ولهذه الأسباب رأت النمسا أن تؤمن لنفسها تغطية سياسية وعسكرية مما يحرم روسيا من أية فرصة للانفراد بها. وكانت النمسا تدرك أن مقدار تقربها إلى الحلفاء كفيل بأن يجعل روسيا تسارع للقبول بتسوية سلمية للأزمة وفقاً للشروط التي تلائم سياسة ومصالح الأولى. وبناء على اقتراح من نابليون الثالث تقدمت النمسا وبريطانيا وفرنسا بمذكرة عرفت بـ «**مذكرة الضمانات الأربعة**»، الهدف منها انهاء الحرب وفقاً لمصالح تلك الدول. ونص البند الأول من المذكرة بأن تستبدل الحماية الروسية على ولايتي الدانوب والصرب بضمان أوروبي بموافقة الباب العالي. أما البند الثاني فكان يتعلق بحرية الملاحة في نهر الدانوب دون أية عوائق. وفي البند الثالث قررت الدول إعادة النظر باتفاقية الممرات لصالح التوازن الأوروبي وتحديد قوة الأسطول الروسي في البحر الأسود. وأخيراً تقرر في البند الرابع تخلي روسيا عن ادعاءاتها بحماية رعايا السلطان الأرثوذكس، على أن يقوم الباب العالي بتحسين أحوال هؤلاء دون المساس بسيادته[٩٢].

وسلمت المذكرة إلى الحكومتين العثمانية والروسية. ففي استانبول أحدثت المذكرة انقساماً في الديوان. لكن كانغ نصح السلطان بقبولها. وعندما تسلم السفير الروسي في فيينا المذكرة رفضها لانتقاصها من كرامة وشرف بلده. كما عارضها نسلرود وخصوصاً بندها الثالث الذي نص على إعادة النظر باتفاقية الممرات لصالح «**التوازن الأوروبي**». واعتبر

نسلرود أن هذا النص «**ينسف كل المعاهدات السابقة ويدمر منشئات الأسطول الروسي في البحر الأسود ويحدد قوته هناك**»[93]. ولهذا رفضت روسيا المذكرة لأنها «**لا تشجع على السلام في أوروبا، بل تبقيه بعيداً عنها**»[94].

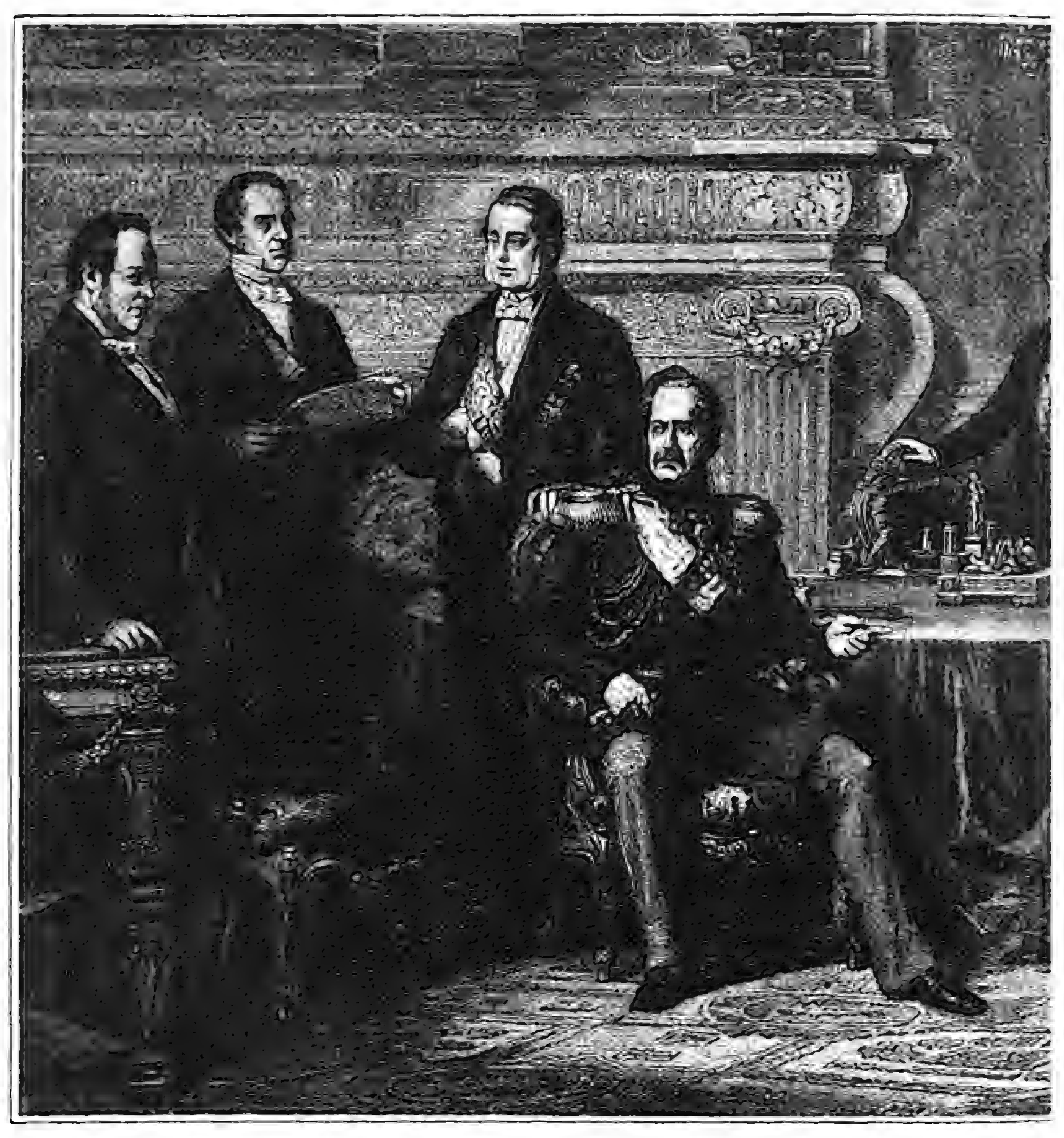
وبرفض روسيا للمذكرة شدد الحلفاء من عملياتهم العسكرية في القرم ودحروا القوات الروسية عند علما (أيلول ١٨٥٤) وضربوا الحصار على سباستبول واستولوا على انكرمان (ت ٢ ١٨٥٤) ولكن هذا لم ينه الحرب، مما دفع النمسا إلى توقيع اتفاقية تحالف مع بريطانيا وفرنسا على أساس الضمانات الأربعة (٢ ك ١٨٥٥) مقابل اعتراف الحلفاء بمركزها في إيطاليا[95]. أما بروسيا ففضلت البقاء بعيداً عن

□ مؤتمر باريس ١٨٥٦ والوفود المشاركة.



التحالف الجديد[٩٦].

ولم تنه المعارك الضارية ولا انضمام سردينيا إلى الحلفاء (٢٦ ك ٢ ١٨٥٥) ولا صعود القيصر الكسندر إلى عرش روسيا بعد وفاة القيصر نيقولا (٢ آذار ١٨٥٥) حرب القرم. فبسبب رفض روسيا للبند الثالث من الضمانات الأربعة المتعلق بتحجيمها في البحر الأسود، شدد الحلفاء من حصارهم لسباستبول، في الوقت الذي ظلت مشاركة النمسا في الحلف اسمية إذ انها لم تكن على استعداد لدخول حرب ضد روسيا لغرض تفسير البند المتعلق بتحديد قوة تلك الدولة في البحر الأسود[٩٧]، بل ان النمسا وعدت القيصر بعدم التوقيع على معاهدة تكون مذلة لبلاده[٩٨]. ومن الواضح أن تشدد النمسا تجاه روسيا قد خف بعض الشيء بعد زوال الخطر الروسي على ولايتي الدانوب. وفي ٨ ك ١ سقطت سباستبول



بيد الحلفاء بعد حصار دام ٣٤٩ يوماً. وقبل ذلك بقليل (٢٨ ت ٢) كانت قارس قد سقطت بيد الروس. وكان سقوط سباستبول نقطة حاسمة في مجرى الحرب وفي مواقف الحلفاء تجاه روسيا. فرغم تذمر الرأي العام عندها من مواصلة الحرب ظلت الحكومة البريطانية على تشددها، خاصة ان بالمرستون هو الذي كان برأس الحكومة البريطانية بعد ابردين في بداية ١٨٥٥. وكان بالمرستون يرى ضرورة الاستمرار في إزلال روسيا حتى انهاكها[٩٩]، في حين اتخذت فرنسا موقفاً مغايراً للموقف البريطاني. فبعدما حقق نابوليون ما كان يريده من الحرب، من مجد وتمزيق للتكتل الروسي ــ النمساوي ــ البروسي، لم يعد على استعداد لمواصلة الحرب لأجل مصالح بريطانيا، واعتبر أن سقوط سباستبول النقطة التي يجب أن تتبعها المفاوضات. ولهذا اخذ يسعى لأجل السلام مع روسيا مهدداً بريطانيا باثارة المسألة البولندية إذا لم توقف الحرب[١٠٠]. وعندما علمت النمسا أن وفاقاً فرنسياً روسياً تحاك خيوطه في الخفاء، سارعت إلى توجيه انذاراً لروسيا (ك ١ ١٨٥٥) بتنفيذ الضمانات الأربعة كما فسرها الحلفاء. وكانت النمسا تدرك أن روسيا قد استنزفت تماماً وستقبل انذارها لا محالة. وصحت تلك التوقعات عندما أذعن القيصر الكسندر للانذار بناء على نصيحة ملك بروسيا، وأصبحت بذلك الطريق بباريس إلى مؤتمر الصلح سالكة. وانتهت بذلك حرب القرم رسمياً (أول شباط ١٨٥٦) بعدما كلفت أوروبا الخسائر البشرية والمادية الفادحة[١٠١].

— ٥ —

معاهدة باريس ٢٧ نيسان ١٨٥٦

تعتبر معاهدة باريس انتصار للسياسة البريطانية والفرنسية في المحافظة على السيادة العثمانية. فقد وضعت المعاهدة الدولة العثمانية واستقلالها تحت الضمانة الجماعية للدول الموقعة عليها، بعدما تعهدت تلك الدول بعدم التدخل منفردة أو مجتمعة بشؤون الدولة العثمانية الداخلية. كذلك سمحت المعاهدة للدولة العثمانية بالانضمام إلى «**التجانس الأوروبي**»[١٠٢]، مقابل المرسوم العثماني الذي كان قد صدر قبل قليل (خط همايون ١٨ شباط ١٨٥٦) ووعد فيه السلطان بتحسن أحوال رعاياه المسيحيين والقيام بإصلاحات اقتصادية وضريبية والقضاء على الفساد[١٠٣].

ولعل أهم ما تضمنته معاهدة باريس ما تعلق بتحييد البحر الأسود وجعله مفتوحاً للملاحة التجارية لجميع الدول وإقفاله بوجه السفن الحربية. كذلك جعلت الملاحة في مصب الدانوب بإشراف لجنة دولية[١٠٤]. وفيما يتعلق بولايتي الدانوب (ملدافيا وولاشيا) فقد حررتا من الوصاية الروسية ومنحتا الاستقلال تحت السيادة العثمانية، بعدما ضمت إلى ملدافيا جزءً من بسارابيا[١٠٥]. كذلك استعادت الدولة العثمانية سيطرتها على قارس. وفي معاهدة منفصلة تعهدت بريطانيا وفرنسا والنمسا باحترام سيادة الدولة العثمانية واستقلالها والدفاع عنها.

وحول حرب القرم وأهمية معاهدة باريس لا بد من ملاحظة الاعتبارات الآتية فيما يتعلق بالدولة العثمانية وبقية الدول الأوروبية الأخرى. فبالنسبة للدولة العثمانية كانت معاهدة باريس أول معاهدة لا توقعها الدولة العثمانية بصفتها دولة مهزومة. وضمنت المعاهدة لها حياد البحر الأسود وهدوءً بالنسبة للمرات بعدما تلاشى الخطر الروسي عنها للخمسة عشرة سنة القادمة، بعدما دمرت قوة روسيا الحربية في البحر الأسود. لكن حرب القرم أوقعت الدولة العثمانية بضائقة مالية جعلتها تستدين للمرة الأولى في تاريخها (١٨٥٤) وكانت هذه نقطة انطلاق في سياسة الاستدان أفسحت المجال للامبريالية المالية الأوروبية باحكام سيطرتها على البلاد[١٠٦].

ومن ناحية النمسا، فقد أنهت حرب القرم سياسة الوفاق التي سارت عليها تجاه روسيا منذ ١٨٣٣ وحكمت على نفسها بعزلة أضعفتها. وفيما يتعلق ببروسيا فقد سببت حرب القرم ومعاهدة باريس شعوراً بالانتقام من بريطانيا والنمسا وكشفت عن خلل البنية التحية عندها. ولهذا استجابت روسيا إلى التقارب الفرنسي إليها، الذي كان قد بدأ خلال مؤتمر الصلح. وفي

السنوات التالية التي أعقبت حرب القرم قامت روسيـا بسلسلة من الاصـلاحـات الاداريـة والاقتصادية والاجتماعية وتنـظيم النقل(١٠٧). ولما كانت معاهدة باريس قد حطمت ثلاثة من المعالم الرئيسية للسياسة الروسية الخارجية مع الدولة العثمانية: السيطرة العسكرية والتجارية على البحر الأسود ــ تأمين مخرج من الممرات إلى المتـوسط ــ اعتـراف الدولة العثمـانيـة بالحماية الروسية على الأرثوذكس من رعاياها، فقد اعتبرتها روسيا مسألة تمس بـ «**الكرامة الوطنية**» ونظرت إليها مجرد هدنة مؤقتة(١٠٨) ولهذا سعت روسيا في السنوات التالية لاقتناص أية مناسبة دولية لتحطيم تلك المعاهدة وقد تم لها ذلك في ١٨٧١ وكانت مقدمة للحرب الروسيـة العثمانية ١٨٧٧/١٨٧٨، وهي التي سنختتم بها هذه الدراسة. ●

الهــوامش

(١) في مقدمة هؤلاء المؤرخين: هـ. ا. ل. فيشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩ ــ ١٩٥٠). تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، الطبعة السادسة، القاهرة (ب ت)، الفصل ١٦، ص ٢١٧ ــ ٢٢٧.

— Verdy du Vernois: Die Frage der Heiligen Staetten Paläestinas, Berlin 1901; Felix Bamberg: Geschichte der orientalischen Angelegenheit im Zeitraume des Pariser und des Berliner Friedens, Berlin 1892; Edouard Driault: La question d'Orient depuis ses origines jusqu'a la Paix de Sèvres, Paris 1921.

(٢) من هؤلاء المؤرخين:

— Vernon John Puryear: England, Russia, and the Straits Question, 1844-1856, California 1935, reissued Connecticut 1965; L. S. Stavrianos: The Balkan since 1453, N.Y./London 1958, pp. 319-323; G. D. Clayton: Britain and the Eastern Question: Missonlonghi to Gallipoli, London 1971, pp. 90-92; Winfried Baumgart: Vom Europaeischen Konzert zum Voelkerbund. Friedenschluesse und Friedenssicherung von Wien bis Versailles, Darmstadt 1974, p. 45; Weltgeschichte in Zehnbaenden, Redaktion: J. J. Sutis, Vol. VI, p. 502.

ــ موسوعة «تاريخ العالم» الروسية المترجمة إلى اللغة الالمانية.

(٣) لمزيد من المعلومات، انظر:

— F.E. Bailey: British Policy and the Turkish Reform Movement, Cambridge, Mass. 1942.

(٤) — Jean Ducruet: Les capitaux européens au Proche-Orient, Paris, p. 80 ff.

(٥) راجع: Baumgart, op.cit., p. 32.

(٦) — M. Anderson: The Eastern Question, 1774-1923, London 1966, pp. 7-8, 60; Puryear, op.cit., 85, 88, 96ff, 102, 105-106.

(٧) انظر: Puryear, op.cit., p. 123.

(٨) راجع: Puryear, p. 127-128, 136; Clayton, p. 90-91, D.C.M. Platt: Finance, Trade, and Politics in British Foreign Policy 1815-1914, oxford 1968, p. 184.

(٩) انظر بيير رنوفان: تاريخ العلاقات الدولية، (القرن التاسع عشر ١٨١٥ ــ ١٩١٤)، ترجمة جلال يحيـى، القاهرة ١٩٨٠، ص ٣١٠.

— Clayton, p. 91-92; Stavrianos, p. 320-321.

(١٠) انظر: Puryear, p. 89, 125.

(١١) راجع:

— Stavrianos, p. 213; Puryear, p. 89-91, 128; Iwan Kirchner: Der Nahe Osten. Der Kampf um Vorderasien und Aegypten vom Mittelalter bis zur Gegenwart, Bruenn/Muenchen/Wien 1943, p. 398-399; F. Eichmann: Die Reformen des Osmanischen Reiches mit besonderer Berueksichtigung des Verhaeltnisses der Christen des Orients zur tuerkischen Herrschaft, Berlin 1858, p. 145-146.

ولتفاصيل وافرة عن تضارب مصالح الدولتين، انظر:

— Firuz Kazemzadeh: Russia and Britain in Persia, 1964-1914: A Study in Imperialism, New Haven / London, 1968.

(١٢) Platt, op. cit., p. 182-183.

(١٣) قارن: بيير رنوفان، ص ٣١٠، و Clayton, p. 90.

(١٤) قارن:

— Handbuch der Europaeischen Geschichte, edited by Theodor Schieder, Vol. 5, Europa von

der Franzoesischen Revolution zu den nationalistaatlichen Bewegungen des 19. Jahrhunderts, Stuttgart 1981, p. 53; Puryear, p. 127.

ـ وانظر ايضاً تصريح ستراتفورد كاننغ حول اهمية تركيا التجارية والاستراتيجية لبريطانيا لدى Platt, op.cit, p. 182.

(١٥) — Chevallier (D): La société du Mont-Liban à l'epoque de la révolution industrielle en Europe, Paris 1971, p. 183; Handels-Archiv, Berlin 1854/II, Gesetzebung, p. 151.

(١٦) Baumgart, op. cit., p. 41; Puryear, p. 83, 131-135.

(١٧) انظر الفصل الرابع من كتاب Puryear, pp. 139-180:

ـ وقارن أيضاً الجزء الأول من كتاب: ا. ج. جرانت وهارولد تمبرلي: أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ١٧٨٩ ــ ١٩٥٠، ترجمة بهاء فهمي، القاهرة (ب ت)، ص ٤١٧.

(١٨) — Sydney Nettleton Fischer: The Middle East. A History, London, 2 ed., Edition 1971, p. 303.

(١٩) Verdy du Vernois, op. cit., p. 24.

(٢٠) حول مكانة الكنيسة الأرثوذكسية بين الكنائس الشرقية، انظر: كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، ط ٨، بيروت ١٩٧٩، ص ٥٦٧ـ وفيما ذكر بروكلمان أن عدد المسيحيين الأرثوذكس من رعايا السلطان قبل حرب القرن بلغ عشرة ملايين، ترى مصادر أخرى أن عددهم بلغ ١٢ ــ ١٣ مليوناً. انظر:

— Driault, op. cit., p. 172; Eichmann, p. 78; Edward S. Creasy: History of the Ottoman Turks: From the Beinning of their Empire to hte Present Time, London 1878, Reprint Beirut 1961, p. 537.

(٢١) حول هذه النقطة راجع الدراسة الممتازة لـ:

— Joseph Lammeyer: Das franzoesische Protektorat ueber die Christen im Orient, historisch, rechtlich und politisch gewuerdigt. Ein Beitrag zur Geschichte der diplomatischen Beziehungen der Hohen Pforte, Borna-Leipzig 1919, pp. 35-52, 58; Eichmann, 109ff.

(٢٢) Verdy du Vernois, op. cit., p. 58f.

(٢٣) — Christophilos Alethes: Die Lage der Christen in der Tuerkei und das russiche Protectorat, Berlin 1954, p. 80; Eichmann, p. 50.

(٢٤) تفاصيل وافية حول تطور نفوذ روسيا الديني لدى: Verdy du Vernois, pp. 59-62.

(٢٥) انظر: محمد مصطفى صفوت: المسألة الشرقية ومؤتمر باريس، القاهرة ١٩٥٨، ص ٢٩.

(٢٦) — Derek Hopwood TheRussian Presence in Syria and Palestine 1843-1914. Church and Politics in the Near East, Oxford 1969, cap. II, pp. 33-45.

(٢٧) — J. Hajjar: Le Christianisme en Orient. Etudes d'Histoire Contemporaine 1684-1968, Beyrouth 1971, p. 103; Fisher, op. cit., p. 303.

(٢٨) صفوت، المسألة الشرقية، ص ٢٩.

(٢٩) Driault, op. cit., p. 167; Stavrianos, p. 324.

(٣٠) — Driault, 167f; G. Rosen: Geschichte der Tuerkei von dem Siege der Reformen im Jahre 1826 bis zum pariser Tractat vom Jahre 1956, vol. II, p. 141, 143f.; Vernois, 63; H. Temperley: England and the Near East. The Crimea, London 1964, p. 286; Carl Ritter von Sax: Geschichte des Machtverfalls der Tuerkei bis Ende des 19. Jahrhunderts und die Phasen der «orientalischen Frage» bis auf die Gegenwart, Wien 1908, p. 319.

(٣١) انظر: — Anderson, op.cit., p. 117; Sax, p. 320; Vernois 65f.; Clayton, p. 104; Eichmann, p. 130.

(٣٢) Anderson, p. 117f.

(٣٣) Clayton, p. 101.

(٣٤) — Barbara Jelavich: A Century of Russian Foreign Policy 1814-1914, Philadelphia/N.Y. 1964, p. 115; Driault, p. 170f.; Alethes, op.cit., p. 80, 82.

(٣٥) نقلاً عن:

— E.C. Vulliamy: The Crimea. The Campaign of 1854-1856, London 1939, p. 52.

(٣٦) نقلاً عن: صفوت، المرجع السابق، ص ٢٧.

(٣٧) راجع: Creasy, op.cit., p. 534-535; Driault, p. 170f.

(٣٨) انظر: Stavrianos, p. 325.

(٣٩) نقلاً عن: Rosen, Vol. II, p. 159; Sax, p. 324f.

(٤٠) Stavrianos, p. 325f.

(٤١) Sax, pp. 322-324; Rosen II, 160-164.

(٤٢) من أهم هذه المصادر: Puryear, p. 206f; Baumgart, p. 36; Rosen II, 156; Clayton 105; Sax 325. —
— وموسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦، ص ٥٠٣.

(٤٣) راجع: موسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦، ص ٥٠٨ ــ ٥٠٩، والموسوعة العسكرية، ج ١، بيروت ١٩٨١، ص ٧٥٢.
— Jelavich, op. cit., p. 119

(٤٤) انظر: Bamberg, op.cit., p. 52.

(٤٥) Temperley, p. 306.

(٤٦) Eichmann, p. 165.

(٤٧) انظر: صفوت، ص ٣٢.
Puryear, p. 236، والهامش; Bamberg, p. 54.

(٤٨) Bamberg, p. 56, 58f.

(٤٩) انظر: قطف الزهور في تاريخ الدهور، مجهول المؤلف، (ب ت)، ص ٢٩٨. و
— Kirchner, op. cit., p. 400.

(٥٠) — Temperley, pp. 310-313; Bamberg, 62; Eichmann, p. 147; Rosen, II, 155.

(٥١) انظر: Puryear, p. 232، والهامش رقم ١٢٣.

(٥٢) Anderson, p. 121.

(٥٣) نقلاً عن المرجع السابق، ص ١١٩.

(٥٤) تمبرلي، جرانت: ص ٤٢٢ ــ ٤٢٣؛ وفيشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ص ٢٢٠.

(٥٥) نقلاً عن: Stavrianos, p. 327.

(٥٦) — R.A.J. Marriott: The Eastern Question, An Historical Study in the European Diplomacy, Oxford 1917, p. 231; Eichmann, p. 149.

(٥٧) انظر:
— Der tussisch-tuerkische Krieg und der Kriegschauplatz in politischer, öertlicher und militaerischer Beziehung, Pest/Wien/Miepzig 1854, p. 125.
— وقارن، عمر عبدالعزيز عمر: محاضرات في التاريخ المعاصر (١) (أوروبا ١٨١٥ ــ ١٩١٩)، بيروت، ١٩٦٧، ص ٧٦ ــ ٧٧.

(٥٨) انظر: صفوت، ص ٣٣ حول تفاصيل وافرة عن فحوى إنذارات منشيكوف إلى الباب العالي.
راجع: Eichmann, p. 151-153.

(٥٩) عمر عبدالعزيز عمر، ص ٧٧.

(٦٠) نقلاً عن المرجع السابق، ص ٧٧.

(٦١) Der russisch-tuerkische Krieg, p. 124f.

(٦٢) Rosen II, p. 180.

(٦٣) Anderson, p. 124.

(٦٤) Sax, p. 329.

(٦٥) نقلاً عن: Anderson, 124; Bamberg, 68.

(٦٦) Das russisch-tuerkische Krieg, p. 126; Eichmann 179.

(٦٧) — Das russichsch-tuerkische Krieg, p. 126; Marriott, op. cit., p. 232.

(٦٨) انظر موسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦، ص ٥٠٣.

(٦٩) بيير رنوفان: تاريخ العلاقات الدولية، ص ٣٠٩.

(٧٠) المرجع السابق، ص ٣١٢.

(٧١) نقلاً عن: C. Phillipson, N. Buxton: The Question of the Bosphorus and Dardanelles, London 1917, p. 86. —

(٧٢) — Kirchner, op.cit., p. 401; Driault, p. 173; Jelàvich, op. cit., p. 118.

(٧٣) نقلاً عن: Bamberg, p. 87; Sax, p. 337f.

(٧٤) انظر بيتر رونوفان، ص ٣١٤.
— Sax, p. 337f; Anderson, 125.

(٧٥) راجع صفوت، ص ٤٦.
— Baumgart, p. 51.

(٧٦) Jelavich, p. 121f.

(٧٧) Baumgart, p. 39f.

وقارن أيضاً صفوت، ص ٤٦.

(٧٨) نقلاً عن:

— Bamberg, p. 76; Russisch-Tuerkische Krieg, p. 127f.; Eichmann, p. 190f.

(٧٩) نقلاً عن: Marriott, p. 233.

(٨٠) انظر:

— Eichmann, p. 194, 196-197; Handbuch der EuropaeischenGeschichte, vol. V, p. 672; Fischer, op.cit., p. 304;

— فيشر: تاريخ أوروبا الحديث، ص ٢٢١.

(٨١) انظر: Sax, p. 330; Stavrianos, p. 329f.; Rosen II, p. 187f.

(٨٢) Fischer, p. 304; Stavrianos, p. 330.

(٨٣) راجع: Alethes, op.cit., p. 9; Rosen II, p. 193.

(٨٤) Anderson, p. 129f.;

— ويرى (Temperley) أن الوصف «مذبحة سينوب» الذي أطلقته الصحافة الانكليزية على إغراق الأسطول العثماني من قبل الأسطول الروسي لا يتماشى مع الواقع، إذ أن العثمانيين قاموا بسلسلة من العمليات العسكرية عند الدانوب وفي آسيا دون إعلان للحرب وإن ردة الفعل الروسية في سينوب كانت متوقعة، p. 371.

(٨٥) Jelavich, p. 121f.; Rosen II, p. 208; Sax, p. 334.

(٨٦) Bamberg, p. 110; Rosen II, p. 210.

(٨٧) Anderson, p. 132f.

(٨٨) Vulliamy, p. 76f.

(٨٩) — Paul Haury: Exposé simple et clair de la question d'Orient 1770-1915, Paris 2 ed., 1968, p. 24;

— وايضاً موسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦، ص ٥٠٣.

(٩٠) Stavrianos, p. 332;

— وقارن: Baumgart, p. 36.

(٩١) Driault, p. 175.

(٩٢) انظر: Bamberg, p. 113f.

(٩٣) نقلاً عن المرجع السابق: Bamberg, p. 114.

(٩٤) المرجع السابق: Bamberg, p. 114.

(٩٥) انظر: بيير رنوفان، ص ٢١٧.

(٩٦) Sax, p. 337.

(٩٧) صفوت، المسألة الشرقية، ص ٤٧.

(٩٨) Puryear, p. 367f.

(٩٩) انظر: صفوت، ص ٤٨.

(١٠٠) فيشر، ص ٢٢٥.

(١٠١) راجع مجلة «الجنان» البيروتية، ١٨٧٠، عدد ٧ ص ٣٠٩ — ٣١٠.

— Vulliamy, p. 341f.

(١٠٢) Jelavich, p. 130; Eichmann, p. 210.

(١٠٣) — J.C. Hurewitz: The Middle East and North Africa in World Politics; A Documentary Record, Vol. I, European Expansion, 1535-1914, 2 ed., London 1975, pp. 315-318.

(١٠٤) حول تحييد البحر الأسود، انظر بندي المعاهدة XI و XIII في المرجع السابق، ص ٣٢٠ — ٣٢١؛ فيما يتعلق بالملاحة في نهر الدانوب، انظر بندي المعاهدة XV و XIX عن:

— Driault, op. cit., p. 183.

(١٠٥) انظر بندي المعاهدة XX و XXIX عند Driault, p. 381.

(١٠٦) راجع: Ducruet.

(١٠٧) انظر:

— Handbuch der Europaeischen Geschichte, op. cit., Vol. 5, p. 673.

(١٠٨) انظر: Jelavich, op. cit., p. 130.

أهداف قسم إحياء التراث الاسلامي في بيت المقدس

يتطلع القسم إلى عدة اهداف منها:

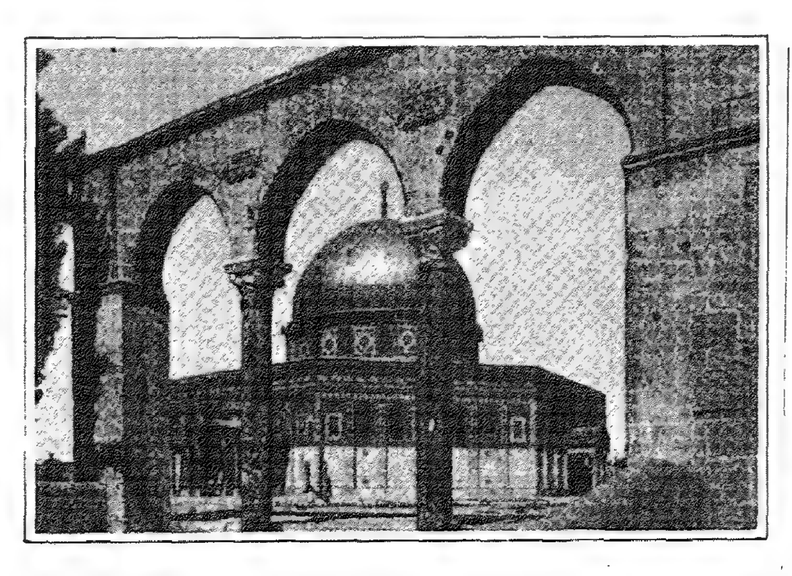
● لما كانت دائرة الأوقاف الاسلامية في القدس الشريف تشتمل على مخلفات العهد التركي والمجلس الاسلامي الأعلى في فلسطين من بيانات ووثائق هامة، وهي نهب للرطوبة والأرَضَة، فإن هدف القسم إنقاذ هذه الوثائق وخدمتها ليستفيد الباحثون بها. وقد بدأ القسم بتصنيفها وفهرستها وحفظها في ظروف جيدة. وتم حتى الآن فهرسة حوالي مليون ومائة وعشرين ألف وثيقة.

وتجري الآن عملية تصنيف وفهرسة مجموعة من الوثائق، وجدت في أحد القباب في ساحة الحرم القدسي الشريف. وقد طبع المركز فهرساً أولياً لهذه الوثائق.

● يعمل القسم على تشجيع الباحثين والدارسين المتخصصين من أجل إعداد بعض دراسات التراث الهادفة، وتحقيق عدد من النصوص، وقد قام بعض الباحثين بعدد من الدراسات المهتمة بتراث القدس وفلسطين ومنها:

— وقفية أمينة الخالدي.

— وقفية خاصكي سلطان.



— مخطوط «الخمرة الحسية في الرحلة القدسية» للبكري الصديقي.

— مخطوط «الدّرة في الاعتقاد» لابن حزم.

— مخطوط «فلسطين وحدودها» للتمرتاش.

— مخطوط «فضائل زيارة بيتت المقدس» لابن تيمية.

● يعمل القسم في تصوير سجلات المحكمة الشرعية في القدس، والتي تصل إلى نحو ألف سجل، لما لها من فوائد كثيرة تفيد الباحثين والدارسين في تراث بيت المقدس والمدن الفلسطينية، خاصة في الجوانب العلمية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية. وسيعمل القسم بعد الانتهاء من التصوير في فهرسة موضوعات هذه السجلات بهدف تسهيل الاستفادة منها، ومساعدة الباحثين في معرفة تاريخ وحضارة بيت المقدس ومدن الأرض المحتلة في فلسطين، كما أن تصويرها يحفظها من الأرضة أو الضياع.

● يتطلع القسم إلى ترميم وصيانة مخطوطات حصل عليها من مدن مختلفة في فلسطين المحتلة، للحفاظ عليها خاصة أنها تعاني من الرطوبة والأرضة، كما يتطلع إلى تصوير الف مخطوط موجودة لديه الآن (إهداءات).

ومن أصحاب الأيادي البيضاء الذين أوقفوا مقتنياتهم من المخطوطات:

— محمد مزيد العجلوني: أوقف (٦٧) سبعة وستين مخطوطاً للقسم.

— آل العفيفي: تبرعوا بمكتبة عائلتهم التي تحتوي على (٥٠) خمسين كتاباً تراثياً

مطبوعاً و (٢٠) عشرين مخطوطاً.

هذا ويخلو القسم من مكتبة خاصة به بسبب ضعف الامكانات.

معهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب يعقد مؤتمره التاسع لتاريخ العلوم عند العرب

● **الاحتفال بالذكرى الألفية لوفاة العالم العربي الرّقي ابي عبدالله البتاني**

يعقد معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب في الرابع والعشرين من إبريل (نيسان) الجاري ولمدة يومين، مؤتمره السنوي التاسع لتاريخ العلوم عند العرب، كما يحتفل بذكرى مرور عشرة قرون على وفاة العالم العربي الرّقي أبي عبدالله البتاني.

يهدف المؤتمر إلى تقديم أبحاث أصيلة، لم تنشر سابقا في موضوعات تاريخ العلوم والطب والتكنولوجيا عند العرب وذلك تمشيا مع أهداف معهد التراث والجمعية السورية لتاريخ العلوم (المشاركة في المؤتمر) للنهوض بالأبحاث المتعلقة بتاريخ العلوم، والقيام بالدراسات والبحوث الأساسية الرامية إلى بيان مكانة العلوم العربية، ومدى ما أسهم به العلماء العرب في تقدم العلوم وفي إغناء الحضارة الانسانية.



□ البتاني.

كما يتطلع المؤتمر الذي سيعقد في مدينة الرقة السورية إلى الاحتفال بمرور عشرة قرون على وفاة العالم العربي الرقي أبي عبدالله البتاني.

وستدور أبحاث المؤتمر الذي سيعقد بالتعاون مع الجمعية السورية لتاريخ العلوم عند العرب في عدة نقاط أهمها:

— تاريخ العلوم الأساسية، وتشمل: الرياضيات — الكيمياء — الفيزياء — النبات — الحيوان — الجيولوجيا.

— تاريخ الفلك والتنجيم.

— تاريخ الطب والطب البيطري والصيدلة والعلوم الطبيعية.

— تاريخ التكنولوجيا والصناعات العربية وتشمل: الهندسة الميكانيكية — الهندسة الحربية — الصناعات الكيميائية.

— موضوعات تتعلق بالاحتفال بمرور عشرة قرون على وفاة العالم العربي الرقي أبي عبدالله البتاني.

هيئة عليا لكتابة التاريخ العربي

الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب تستعد لاعلان تشكيل أول هيئة لاعادة كتابة التاريخ العربي. ستكون أعلى هيئة تضم علماء ومؤرخين لاعادة تاريخ الأمة العربية.

الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار، الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب ذكر أن الهيئة المذكورة ستضم أكثر من ١٢ عالماً ومؤرخاً عربياً في مختلف حقول الدراسات التاريخية. كما ستمثل الهيئة معظم الأقطار العربية وستعكف على كتابة تاريخ الأمة العربية في شكل نابع من صميم الواقع وتنطلق هذه الكتابة من التطور الذي يشهده الوطن العربي لترافقه عبر مساره التاريخي العريق.

وقد تم ترشيح كل من الشيخ حمد الجاسر (السعودية)، الدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى (مصر)، عبدالكريم فرابية(الأردن)،

حدثت بين الدولة العباسية ودولة شارلمان ومعنى ذلك أننا لا نستبعد وجود الهدايا المتبادلة بين الجانبين.

والأمر الهام في هذه الهدايا المتبادلة هو ما يترتب على تلك المبادلات خاصة إذا عرفنا أن الدولة العباسية كانت ذات تقدم حضاري في حين عم الغرب الأوروبي تأخر حضاري، وكانت النتيجة الحتمية هي تأثير الغرب الأوروبي عن طريق المبادلات بالحضارة الاسلامية، وخير شاهد على ذلك أنه عندما وصلت هذه الهدايا خاصة الساعة المائية الدقاقة التف حولها القسيسين وكانوا في الغرب الأوروبي آنذاك هم عنوان الحضارة الأوروبية فالتفوا عليها واندهشوا اندهاشاً كبيراً ولم يصدقوا أنها تعمل بطريقة علمية ولذلك عزوا أمر تشغيلها إلى السحر والجان وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى تأخر الغرب الأوروبي في تلك الفترة ونخلص من ذلك أن الهدايا التي تم تبادلها بين شارلمان والرشيد حدثت ونتج عنها تأثر الغرب الأوروبي بالحضارة الاسلامية[١٨].

خلاصة

لقد تعاونت حقائق التاريخ مع روايات ألف ليلة وليلة والأساطير الفولكلورية الأخرى، لتجعل من شخصية هارون الرشيد، شخصية أسطورية نسجت حولها القصص الخيالية وهذا ما جعل اسمه معروفاً وخطب وده حكام عصره من الصين إلى أوروبا. من هذا المنطلق يمكن أن ندرك هدف إينهارد مؤرخ البلاط الكارولنجي حين بالغ في رواياته عن حقيقة الصلات بين البلاط العباسي والبلاط الكارولنجي، ألا وهو تفخيم اسم سيده شارلمان عن طريق ربطه باسم هارون الرشيد وبالأماكن المقدسة في فلسطين حيث أشار هذا المؤرخ إلى أن العاهلين تبادلا السفراء والهدايا، وأسفرت مفاوضاتهما عن إعطاء شارلمان امتيازات معينة في فلسطين وانقسم مؤرخو الغرب بين مؤيد لوقوع هذه الصلات والامتيازات ومعارضة لها[١٩].

إن الصلات بين الشرق والغرب لم تنقطع منذ أقدم العصور إلى الآن، ولكنها مرت بفترات من المد والجزر وتباينت بين صلات سلمية وحربية. وتشير بعض الكتابات إلى أن الاسكندر المقدوني حين فتح بعض أقاليم الشرق اشترط على أهلها أن يؤووا الاغريق المهاجرين والمستوطنين في أراضيهم ويعفوهم من الضرائب. وأشارت بعض الروايات الاسطورية الأوروبية إلى أن شارلمان قام بحملة صليبية لتحرير الأراضي المقدسة في فلسطين وكما ترك هارون الرشيد أثراً في الخيال الأوروبي المعاصر لتلك الفترة كذلك ترك «الحشيشية» نفس الأثر. فقد زخرت الكتابات الأوروبية بالقصص حول الجنان الأرضية لهذه الفرقة الدينية ـــ السياسية ومجدت شجاعة الحشيشية ومهارتهم في التخفي، ودقتهم في اقتناص الضحية واغتيالها. ونسجت الأساطير حول شخصية زعيم الحشيشية الغامضة المسمى شيخ الجبل. كل ذلك كان له صداه في التاريخ والرحلات والشعر والأدب والأسطورة في أوروبا[٢٠].



العباسيون والسياسة الخارجية

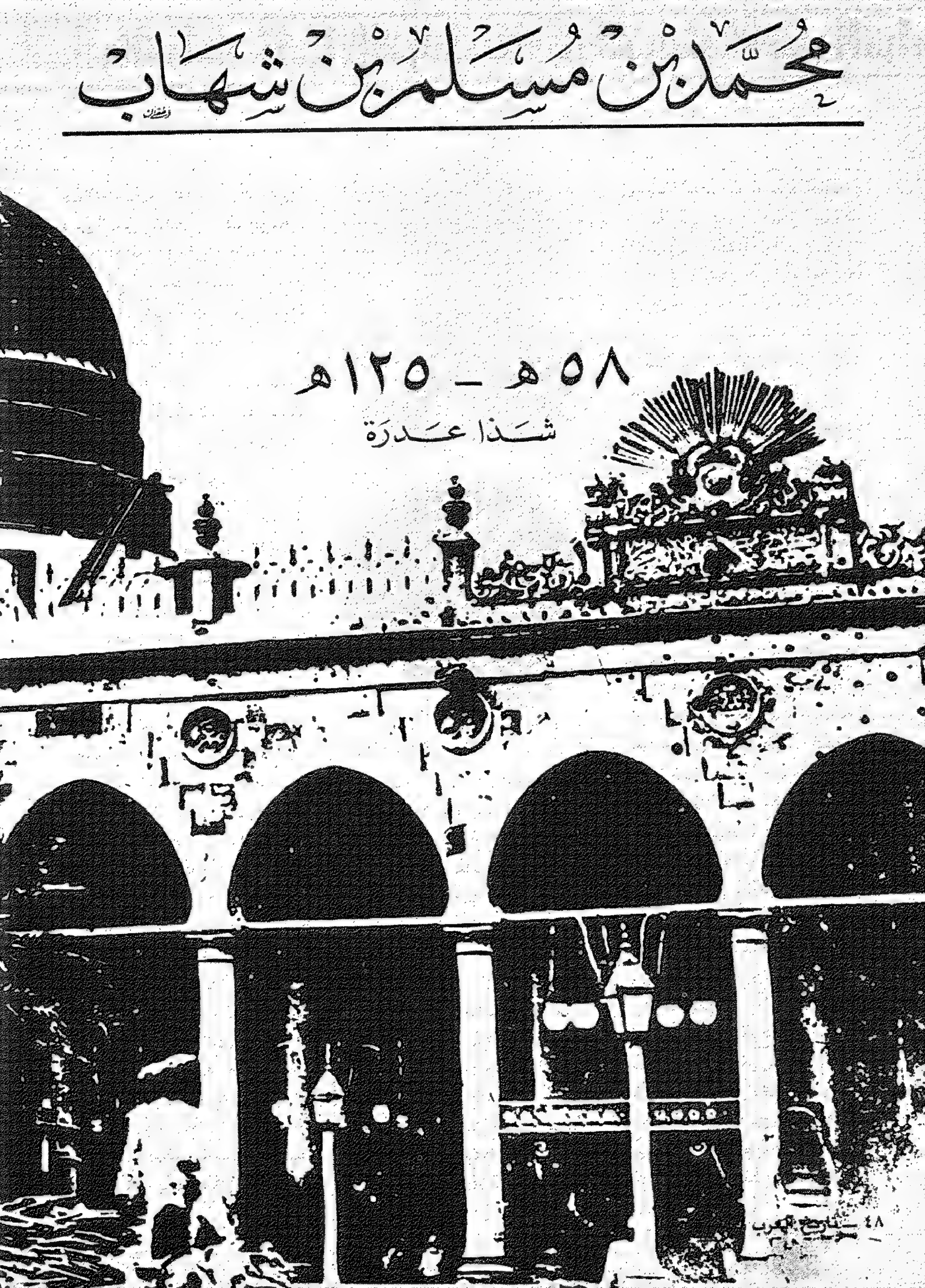
• أولاً ـــ الرشيد والشرق الأقصى:

تشير رواية تاريخية إلى زيارة وفد أرسله ملك من ملوك الهند إلى بلاد الرشيد وقدم للخليفة هدايا تتضمن السيوف والثياب والكلاب، وقد أعجب الرشيد بالكلاب السيورية وقدم للوفد هدايا وجوائز سنية. والظاهر أن الرشيد استقبلهم استقبالاً رسمياً لأنه أمر الأتراك فصفوا صفين ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم إلا الحدق، ولعل في هذه الرواية دليلاً جديداً يشير إلى اصطناع الترك لم يبدأ منذ عهد المعتصم، بل كان كما ذكرنا، قبل المعتصم، ومنذ عهد المنصور ولكن نسبتهم كانت قليلة، وغير ذات بال، كما تبادلت الخلافة في عصر الرشيد الذي تميز بزيادة

محمد بن مسلم بن شهاب

٥٨هـ - ١٢٥هـ

شذا عدرة

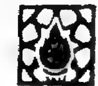




□ المدينة، احد اهم المراكز العلمية الإسلامية، والتي شهدت نشاة ابن شهاب.

التاريخ هو سجل لكل ما صدر عن الانسان وارتبط بحياته بشكل ما. ولّما كانت أعمال الانسان متعددة بتعدد مداركه وتنوّع قواه، لم يعد التاريخ خبراً سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو غير هذا، بل هو كل شيء حوى خبراً من أخبار الماضي الانساني وقد صدق الأقدمون عندما قالوا: «إن التاريخ هو معلم الحياة»[1]، على اعتبار انه سجل حافل بالخبرات والتجارب الانسانية.

أمّا كتابة التاريخ، فهي مرتبطة بسجل ذلك الانسان ولا يمكن لها أن تقوم على الإبداع الخيالي، بل تعتمد إعتماداً كلياً على الوقائع المروية التي تشكل بدورها المصادر الأساسية التي لا يمكن لأي باحث في التاريخ القيام بأي عمل دون العودة إليها لذلك فإن أول شروط البحث في التاريخ هي جمع تلك المصادر والعودة إليها ومحاولة استيعاب ما جاء فيها فهماً ودراية.



المصادر الأولى للتاريخ العربي الاسلامي تعود في الأساس إلى فترة ما قبل الاسلام. وهي لا تتعدى الأخبار المتفرقة والروايات المتعددة وبعض القصائد المسجلة في العصر الجاهلي وأنساب بعض القبائل المدونة وما كتب فيه بعض الحكم، كصحيفة لقمان الذي تنسب إليه الحكم والأقوال والأمثال وجاء ذكره في القرآن الكريم. إلّا أن الحقيقة التي لا يمكن معارضتها، هي أن أوّل مصدر كامل في اللغة العربية هو القرآن الكريم، من حيث أنه سجل أحداث الغابرين وشيئاً غير قليل من تاريخ الأنبياء وشيئاً كثيراً من سيرة محمد رسول الله وأمر بإتباع الرسول وطاعته[2].

هذا بالاضافة إلى أن القرآن يعتبر الخطوة الأولى نحو الكتابة التاريخية العربية الإسلامية[3]، من حيث أنه فتح الباب للدراسة التاريخية المرتبطة بالماضي، لما في ذلك من عِبَر وعظات للمسلمين، والمرتبطة كذلك بسيرة النبي محمد. إذ كان على المسلمين اتّباعه في كافة شؤونهم، وعلى ذلك كان يتحتّم عليهم أن يكونوا على علم تام بسيرته ليؤدّوا ما فرض عليهم من اتّباعه.

وهكذا نجد أن السيرة النبوية تشكل المدخل الرئيسي لدراسة التاريخ الاسلامي[4] وبالتالي يقتضي هذا، الاهتمام الكبير بمصادر أخبار تلك السيرة الشريفة التي يشكل القرآن الكريم أحد اهم مصادرها وأهم دافع لوجودها من خلال الأوامر الربّانية:

قال تعالى:

«يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله». (الأنفال:٢٠)

«من يطع الله ورسوله فقد أطاع الله». (النساء:٨٠)

«لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً». (الأحزاب:٢١)

أمّا الصحابة، وهم من خالَط النبي في المسجد والسوق والبيت والسفر، وكانت أفعال النبي وأقواله محور حياتهم الدينية والدنيوية. وكانوا يتناوبون ملازمة مجلسه يوماً بعد يوم، ويقطعون المسافات الطويلة ليسألوه عن حكم شرعي، ويسألون زوجات النبي فيما يتعلق بشؤون الرجل مع زوجته[5]. كان يشكّل هؤلاء، وما كان يصدر عنهم من أحاديث مكتوبة أو منقولة شفهياً، المصدر الرئيسي والمباشر للسيرة النبوية. وقد كان أولئك الصحابة، يعتبرون بدورهم أنه قد أصبح لزاماً عليهم،

□ **شذا عدرة: ماجستير في التاريخ الحديث من الجامعة اللبنانية وتتابع دراستها حالياً في الجامعة الأميركية في بيروت.**

خاصة بعد وفاة الرسول، أن يحافظوا على سيرته حيّة عن طريق محاكاتها وبكل السبل المتاحة لهم. فصبغوا حياتهم وحياة أولادهم وتلاميذهم بأسلوب حياة النبي. وتجاوز اهتمامهم أيضاً بالسيرة من مجال العمل إلى مجال العلم، فأصبحت سيرة الرسول ومغازيه ذات مكانة مرموقة في مجال الدراسة في عهد الصحابة والتابعين حيث كانت تخصص حلقات لدراسة المغازي، كما كان يفعل عبدالله بن عباس المتوفى سنة ٦٨هـ، الذي كان يخصص جزءاً من يومه لتدريس المغازي[٦]. وعبدالله بن عمرو بن العاص المتوفى سنة ٦٣هـ، الذي سجّل عدة غزوات وبعض الحوادث الأخرى من سيرة الرسول لمعرفته بالقراءة والكتابة وقد كان له صحيفة تعرف باسم الصحيفة الصادقة[٧].

ولكن لا بد هنا من الاشارة، إلى أن الصحابة كانوا متفاوتين في التحديث عن رسول الله، منهم المكثر، كأنس بن مالك، الملازم خدمة رسول الله، وكأبي هريرة، الذي كان يعتبر من أوعية الحديث التي فاضت على المسلمين بأخبار الرسول. ومنهم المقل، كعبدالله بن الزبير، الذي كان يخاف من أن لا تسعفه ذاكرته فيقع في خطأ لم يقصده وهو الذي سمع النبي يقول: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[٨]. ومنهم من اكثر ثم أحجم عن ذلك حين بدأ الوضع في الحديث، كعبدالله بن العباس، الذي قال: «إنّا كنّا نحدّث عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذ لم يكن يكذب عليه. فلمّا ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث»[٩].

لذا نستطيع القول، أن عملية قيام الصحابة بنشر الحديث وارتباطها بالانتباه والحذر الشديدين خوفاً من الوقوع في أي خطأ قد يتبوأ صاحبه «مقعداً من النار»، قد اكسبها صدقاً وثقة وأبعد عنها كل شك أو ريبة.

ثم جاء دور التابعين وحرصوا على لقيا صحابة النبي الذين صاروا قدوة لهم ولغيرهم في أقوالهم وأفعالهم حتى أنها صارت مشمولة بالحديث. ونقل التابعون ما في صدور الصحابة واتسع اهتمامهم بدراسة تلك الأحاديث حتى أصبحت خلال القرن الأول الهجري تشمل جميع فعاليات الأمة[١٠]. وقد برز من بين هؤلاء التابعون المحدّثون رجال اهتموا اهتماماً خاصاً بمغازي النبي[١١]، وهي تعني لغوياً غزوات الرسول وحروبه، ولكنها تناولت في الحقيقة فترة الرسالة بكاملها.

والسبب الرئيسي، على ما أعتقد، لانتشار دراسة المغازي انتشاراً واسعاً عن غيرها من الأحاديث النبوية ــ وهي طبعاً تعتبر من ضمن دراسة الحديث ــ لارتباطها الوثيق أولاً بميل العربي الطبيعي لحب الفروسية والأعمال الحربية. ثانياً، ميلهم لسماع القصص خاصة البطولية منها. «تنوقلت الأخبار والقصص عن المغازي وتوسع فيها القصّاص وجعلوها أدباً شعبياً»[١٢]. ثالثاً، وهذا الأهم، لكون بطل هذه المغازي وفارسها إنسان ارتبط بهم وأحبوه وودّوه وأجلّوا قدره وعظمة رسالته، وهو النبي محمد.

ولكن لكي لا تختلط الحقائق بالخيال وتنقلب الوقائع إلى ملاحم، لجأ المحدثون إلى التشديد على الاسناد أو سلسلة الرواة ــ في تقدير قيمة المغازي، ويعني ذلك ربط قيمة الحديث أو الرواية بمنزلة المحدّثين أو الرواة. وأدخل هذا الاتجاه عنصر البحث والتحري في جميع الروايات وكوّن أساساً متيناً للدراسة التاريخية[١٣].

يعتبر آبان بن عثمان بن عفّان المتوفى بين (٩٥ ــ ١٠٥هـ)، وهو المحدّث والفقيه، أول من وضع مجموعة مكتوبة تضم مغازي الرسول[١٤]. إلاّ أن ابن سعد في طبقاته يصفها بأنها من الحديث[١٥]. وعلى العموم، فإن ابن عثمان بن عفّان على الرغم من عدم ذكر مغازيه في كتب المغازي والسِّيَر، إلاّ انه يعتبر ممثلاً لمرحلة إنتقالية بين دراسة الحديث ودراسة المغازي[١٦].

أمّا الرجل الذي كان له تأثير في علم المغازي واعتبر مؤسس دراسة المغازي، إذ كان أول من ألّف كتاباً في المغازي[١٧]، فهو المحدّث والفقيه عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤هـ.

روى مغازي عروة عدد من تلامذته أمثال الزهري وابنه هشام بن عروة وأبو الأسود يتيم عروة، ولكن لم يتسنّ لدارسيه الحصول على كل رواياته، وجلّ ما توفر لهم هو عبارة عن روايات قليلة مبعثرة لم تمكنهم من الحصول على فكرة واضحة عن مغازيه أو عن الهيكل الذي انتظمت فيه رواياته[١٨].

تتناول مغازي عروة بن الزبير جوانب مختلفة من حياة الرسول، كبدء الوحي، وبعض الغزوات، وبعض الشؤون الخاصة بالرسول، ولم يدخل في رواياته في تفاصيل القتال في المغازي، كما كانت بعض رواياته أجوبة مكتوبة على أسئلة وجّهت إليه من البلاط الأموي[١٩].

يبدو أن عروة استعمل «الاسناد» في رواياته ذات الحوادث المهمة فقط، مثل بدء الوحي والهجرة وأهمل استعماله في رواياته الأخرى، ربما ليقينه بأنه من جلّة التابعين وأن الرواية المباشرة عن تابع سبيل موثوق. هذا بالاضافة إلى أنه استعمل الاسناد الجمعي، إذ جمع عدّة روايات في كتابة السيرة وبيّن أسانيدها أولاً ثم مزج متونها ليؤلف منها حادثة متكاملة. وقد وجد هذا المثال في رواية الزهري: وروى «معمر، قال الزهري، أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل منهما حديث صاحبه...»[٢٠] وبذلك يكون عروة أول من ابتدأ في استعمال الاسناد الجمعي.

وعني عروة بالوثائق المكتوبة إلى جانب الروايات الشفوية، فكان يستشهد بآيات من القرآن الكريم، كحديثه عن غزوة بدر، واستعماله لبعض الجمل من كتب الرسول إلى جهات مختلفة[٢١]. ويورد عروة، أحياناً، بعض الأشعار مما يعكس حبه للشعر الذي كان يعتبر من مقاييس الثقافة في زمانه. وقد أعطى أيضاً أهمية خاصة للأنساب في السيرة، فلم يكتف، على حد قول محمد الأعظمي، بذكر المشتركين في الغزوات أو الشهداء فيها بل بذكر أنسابهم بالتفصيل. يبدو هذا الاهتمام أنه امتداداً لاهتمام العرب بالأنساب التي وضع لها عمر بن الخطاب ديواناً خاصاً، تم فيه تسجيل أسماء المحاربين وأهليهم حسب قبائلهم، مما أعطى الأنساب أهمية جديدة. وقد سكب عروة كل ذلك في قالب الرواية بأسلوب بسيط سهل بعيد عن الإنشاء والمبالغة، وكان يمهد أحياناً للحادثة بمقدمة يضعها في موضعها التاريخي ويجعل الحديث متسلسلاً متصلاً[٢٢]. مما يضفي على روايته طابع الشمول. ومما يلفت الانتباه أن اهتمام عروة بالتاريخ قد امتد إلى فترة الخلفاء الراشدين، كتناوله للردّة ومعركتي القادسية واليرموك[٢٣]، وهذا يعكس الاهتمام المبكر بأحداث الأمة.

وأخيراً يعتبرعروة محدثاً ثقة، اتّبع أسلوب أهل الحديث في رواياته، ومكّنته منزلته الاجتماعية من تحقيق منزلته العلمية عن طريق الحصول على المعلومات من مصادرها الأولية، من آل الزبير أسرته ومن خالته عائشة أم المؤمنين التي كان لها دور كبير في تعليمه وتربيته حتى أنه استنفذ ما عندها من العلم قبل وفاتها بثلاث سنين[٢٤].

ابن شهاب الزهري

تدرّجت دراسة المغازي من آبان بن عثمان إلى عروة بن الزبير، لتصل مع ابن شهاب الزهري، الذي يعتبر من رعيل تابعو التابعين[٢٥]، ذروتها من حيث وضوح معالمها وهيكلها وترسيخ دعائمها وتنميتها بحيث لم تعد مقتصرة على رواية مغازي عروة بل تعدى بها الزهري إلى روايات المدينة وأحاديثها فمحّصها ووضعها ضمن إطار واضح ومتين. وقد استعمل الزهري تعبير «السيرة» بدلاً من «المغازي» وقد كان محقاً في ذلك، لاعتقادي بأن خطوته في جعل المغازي من ضمن سيرة حياة الرسول وأفعاله وأقواله، كانت خطوة شاملة ومنطقية تستوجب إطلاق اسم الكل على الجزء وليس العكس. ولكن بالرغم من ذلك، فقد ظل اسم «المغازي» عند الزهري هو الشائع لدى الدارسين لشموله القسم الأكبر من السيرة.

ولكن قبل التطرق للحديث عن الزهري ومغازيه، لا بد من التلميح للصعوبات التي تعترض الباحث عند معالجته إيّاها والتي أكثر ما تتمثل بعدم وجودها كاملة ضمن دفتي كتاب أو مجلد واحد، بل على الباحث أن يستقصيَها ويستلّها من عدة مصادر تختلف وتتباين في تاريخ صدورها أو في طريقة معالجتها. وصحيح أن عدداً كبيراً من كتب الحديث قد أفردت أبواباً خاصة للحديث عن سيرة النبي محمد ومغازيه واعتمدت معظمها على روايات الإمام الزهري، إلا أن كثرة تلك الكتب وتباينها، في قلة أو كثرة اعتمادها على روايات الزهري، تجعل من المستحيل على الباحث الالمام بها جميعاً.

ولقد بذلت جهدي في ضبط مغازي ابن شهاب



□ كان الزهري يدور على مجالس العلم والحلقات ويسجل الأحاديث حتى لا يفوته شيء منها.

الزهري من خلال مواد توزعت ما بين مقالات وكتب ومصادر قديمة وجديدة اعتمدت أهمها مع طبعات مختلفة لنفس المصدر في بعض الأحيان، وذلك لوضوح بعض المواد فيها أكثر من غيرها. وصدف أثناء عودتي إلى كتاب المصنّف للامام عبدالرزاق بن همّام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، أن وجدت هذا الامام يفرد قسماً كبيراً من كتابه لمغازي الزهري ــ الجزء الحادي عشر ــ مع زيادات طفيفة. وقد روى عبدالرزاق هذا القسم عن الامام معمر بن راشد تلميذ الزهري وراوية علمه. لذلك اعتمدت هذا المصنف في جلّ دراستي عن مغازي الامام الزهري.

تستوقفنا دراسة المغازي، عند الوصول إلى مغازي رسول الله لابن شهاب الزهري لأنها تشكل مدخلاً حقيقياً نحو الدراسات التاريخية بما حوته من عناصر مهمة تتطلبها صناعة التأريخ من تفتيش ونقد وإثبات وعرض[٢٦]، إلى جانب جرأته في قول الحق مما أكسبه صفة العالِم الصادق.

هو محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب بن عبدالله بن الحرث بن زهرة بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب أبو بكر القرشي الزهري المدني أحد الأئمة الأعلام وعالم أهل الحجاز والشام[٢٧].

ولد سنة ٥٠ هجرية، وهناك روايات أخرى هي: ٥١، ٥٦، و ٥٨، وكانت وفاته سنة ١٢٤ هجرية، وفي روايات أخرى: ١٢٣ و١٢٥[٢٨]. فقد عاش إذن النصف الثاني من القرن الأول الهجري والربع الأول من القرن الثاني الهجري. نشأ في المدينة أحد أهم المراكز الاسلامية للحياة العلمية في القرن الأول الهجري كانت تضم أشهر من أسلم من أهل مكة الذين هاجروا إليها مع النبي. وكانت بعد وفاة الرسول مقر الخلافة ومركز كبار الصحابة حتى أن عمراً قد حرّم على كبار قريش أن يبرحوها إلا لحاجة ماسة. كان يقصدها طلاب العلم من أقاصي البلدان لتلقي العلم عن علمائها[٢٩]. لذلك كان طبيعياً لمدينة شهد أهلها غزوات رسول الله وسمعوا أحاديثه وعرفوا حياته وحياة خلفائه من بعده، أن تكون

مركزاً إسلامياً علمياً أكثر ما اهتم بدراسة سيرة الرسول وبالتالي بكل ما يتعلق بالدراسات الإسلامية من فقه وتفسير وحديث، التي شكّلت بدورها مدخلاً للدراسات التاريخية[٣٠].

يعتبر الزهري أحد علماء المدينة الذين ينتمون إلى طبقة تابعو التابعين، أو أحد كبار صغار التابعين، لرؤيته ولقائه القليل من الصحابة الذين لا يزيد عددهم عن عشرة أشخاص، أبي هريرة، سهل بن سعد وانس بن مالك[٣١] خادم رسول الله، الذي روى عنه الزهري ما يقرب من خمسين حديثاً وهي منتشرة في كتب الحديث الستة[٣٢].

وقد درس ابن شهاب الزهري في أول عهده بالعلم على الصحابي عبدالله بن ثعلبة بن صعير العدوي، فكان يتعلم منه الشعر والنسب، خاصة نسب قومه ــ بني زهرة ــ[٣٣] ثم تحول إلى دراسة القرآن الكريم والحديث والفقه، فدرس على فقهاء المدينة، وأهم الذين أثّروا في نشأته العلمية واستقى علمه منهم: هم: سعيد بن المسيّب (ت ٩٤هـ)، عروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٤هـ)، أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام (ت ٩٤هـ) وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود (ت ٩٨هـ). وقد لازم الزهري هؤلاء العلماء الأربعة الذين كانوا من أهم ما يدار عليهم العلم والفتوى في المدينة في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، ملازمة تامة لسنين طويلة، كسعيد بن المسيّب الذي لازمه مدة عشر سنين قال عنها الزهري: «جالست سعيد بن المسيب عشر سنين كيوم واحد»[٣٤]. وبلغ من حرص الزهري على العلم أنه كان يتولى خدمة بعضهم في منزلهم، كعبيدالله بن عتبة بن مسعود الذي كان يسقي له الماء. ولكن أشدهم تأثيراً عليه هو عروة بن الزبير الذي تشكل رواياته المصدر الرئيسي لمغازي الزهري والذي قال عنه بأنه «بحر لا ينزف»[٣٥].

الزهري ومكانته العلمية

كان ابن شهاب يتمتع بهمة عالية وعزيمة قوية، ودأب متواصل، مكّنوه جميعاً من تحصيل العلم حتى برّ شيوخه وفاق أقرانه من علماء المدينة. قال عراك بن مالك ــ أحد الثقاة ومن تلاميذ الزهري ــ «أفقه أهل المدينة، أعلمهم بقضايا رسول الله (صلعم) أبي بكر وعمر وعثمان وأفقههم فقهاً وأعلمهم بما مضى من أمر الناس فسعيد بن المسيّب وأما أغزرهم حديثاً فعروة ولا نشاء أن نفجر من عبيدالله بن عبدالله بحراً إلا فجرته وأعلمهم عندي ابن شهاب لأنه جمع علمهم إلى علمه»[٣٦]. وكان يدور على مجالس العلم وحلقات الدروس وقد شدّ ثوبه إلى صدره والألواح والصحف بيده يسائل كل من يلقاه في المجالس والحلقات، كهلاً كان أم شاباً، عاماً أو خاصاً، كما كان يدور على بيوت الصحابة والمهاجرين والأنصار فيطرق الأبواب ويسائل أبناءهم ويسجل كل ذلك، حديثاً كان أم سنّة من سنن الرسول أم رأياً لصحابي، أو قولاً لتابعي، ولم يقصرّ همته في ذلك ولم تضعف عزيمته على الرغم من ضحك أقرانه وسخريتهم من حالته تلك[٣٧].

ولكن عندما كبر ابن شهاب وكبر معه أقرانه وأصحابه، رأوا منزلة صاحبهم العالية وازدحام الناس عليه لينهلوا من علمه الغزير فندموا على ما فاتهم. ولكن كان قد فات الأوان وأصبح الزهري قبل أن ينهي القرن الأول الهجري سنواته «أعلم الناس بسنّة ماضيه» «ولولاه لضاعت أشياء كثيرة من السنن»[٣٨].

وأطرف رواية من الممكن أن ترسم لنا صورة عن تعلق مدى شغف الزهري بالعلم وسعيه وراء كسبه، ما جاء عند ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان»: «وكان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا فقالت له امرأته يوماً والله لهذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر»[٣٩].

الصفة الثانية التي ميّزت الزهري إلى جانب عنائه في طلب العلم، هي شدة حفظه وقوة ذاكرته. ويروي الليث ابن سعد عن شيخه الزهري، أنه قال: «ما استودعت قلبي شيئاً قط فنسيته»، وقال عبدالرحمن بن إسحق عن الزهري قال: «ما استعدت حديثاً قط ولا شككت في حديث إلا حديثاً واحداً، فسألت صاحبي فإذا هو كما حفظت»[٤٠]. كان يحفظ الحديث في المجلس نفسه فلا يبرحه إلا وقد حفظه، وإذا



□ شراب العسل، كان يكثر الزهري في تناوله لأنه يساعد في تقوية الذاكرة.

كان الحديث طويلاً استعان بورقة يدون الحديث فيها ليستظهره حتى يحفظه ومن ثم يمحوه.

هنا لا بد من الاشارة إلى أن دعوة الزهري للتدوين من خلال إصراره على تدوين كل حديث مهما كان مصدره، وهو الأقوى عنده، كانت تبدو وكأنها لم تتعارض مع دعوته إلى الاعتماد على الذاكرة عن طريق تقويتها بالاكثار من شرب العسل الذي كان هو يكثر من شربه، وصيانتها عن طريق عدم إهمالها بالاعتماد الكلي على التدوين.

ولقد لعبت ذاكرة الزهري إلى جانب حفظه وغزارة علمه، دوراً مهماً في حياته العلمية والعملية، إذ كانت سبباً في اتصاله مع بني أمية في الشام عن طريق قبيصة بن ذؤيب – كان على خاتم عبدالملك بن مروان – الذي أوصله إلى الخليفة عبدالملك، الذي كانت تشغله مسألة فقهية تتعلق بأمهات الأولاد وكان في شبابه قد سمع فيها رأياً ولكنه لا يتذكره جيداً، كما أن أحداً من محدثي الشام لم يسعفه بنصها، بواسطة قبيصة اتصل الزهري بعبدالملك وحكى له الرأي في تلك المسألة فأعجب الخليفة بعلم الزهري وقضى عنه ديونه وضمه إلى صحابته وأمر له براتب يكفيه مؤونة هموم العيش وأمره بالعودة إلى المدينة والاستزادة من العلم والتفرغ له[٤١].

الزهري العالم وخلفاء بني أمية

كانت تلك الحادثة، بمثابة البداية لعلاقة طويلة مثمرة، قامت بين الزهري وخلفاء بني أمية. قال الزهري: «توفي عبدالملك بن مروان، فلزمت الوليد بن عبدالملك حتى توفي، ثم سليمان بن عبدالملك، وعمر بن عبدالعزيز ويزيد بن عبدالملك ثم لزمت هشام بن عبدالملك»[٤٢]. أي أن علاقته بهم لم تنقطع إلا بوفاته سنة ١٢٤هـ، ولم يدرك خلافة الوليد بن يزيد الذي كان ينوي قتله بسبب قدحه له عند سلفه هشام في سبيل خلعه[٤٣]. فعلاقة الزهري، إذن، مع بني أمية، استمرت نحواً من أربعين سنة، كان خلالها سمير الخلفاء ومستشارهم ومحدثهم ومفتيهم ومعلماً لأبنائهم ثم قاضياً لهم.

يبدو من تشجيع لخليفة عبدالملك لابن شهاب، ان هذا الأخير كان ما يزال يافعاً، وكل الروايات اجمعت على أنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره، لهذا كان أمامه متسع من الوقت لمعاودة تحصيل العلم الذي عاد ينهل منه، فأخذ يدرس ويجمع ويدوّن ويحفظ ما يقارب الست سنوات، كان خلالها يقوم بزيارات متقطعة للبلاط الأموي الذي ما لبث أن التحق به منذ زمن تولي الوليد بن عبدالملك الخلافة عام ٨٦هـ، ولكنه لم يتخذ دمشق مقراً لسكناه، حتى زمن يزيد بن عبدالملك الذي عيّنه قاضياً، وهشام بن عبدالملك الذي كانت صلته وثيقة مع الزهري وجعل منه مؤدباً لولده وطلب منه أن يملي الحديث لفائدة أولاده[٤٤]، وقد جعل من أدامى جنوبي فلسطين قرب حدود الحجاز وطناً ثانياً له يقوم من هناك بزيارات متقطعة للمدينة ولدمشق[٤٥].

تجمع لدى الزهري، خلال كل تلك السنوات من المعاناة في سبيل التحصيل العلمي، علماً غزيراً تميّز بضم علم فقهاء المدينة إلى علوم الآخرين وعلم أهل الحجاز إلى علم أهل الشام، وبذلك بلغ منزلة عالية من العلم وأصبح من أبصر الناس في الحديث، حتى أنه عندما كان يتردد على المدينة يتوقف محدّثوها عن التحديث ويمتنع فقهاؤها عن الافتاء إجلالاً له، بل أن بعضهم كانوا يذهبون إلى مجالسه لسماع الحديث منه بالرغم من كبرهم وصغره، فنجد عالماً كعمرو بن دينار الذي كان يفاخر بلقائه بعض الصحابة ودراسته عليهم مما لم يتيسر للزهري لأنه لم يدركهم، كان — على مرضه — يذهب إلى الزهري ولا يعود إلى أصحابه إلا في وقت متأخر، وهو يعجب بعلم الزهري[٤٦].

كانت الصفة العامة التي ميزت علاقة الزهري ببني أمية، هي الاحترام المتبادل. فعلى الرغم من المصلحة المشتركة التي كانت تربط بين الطرفين — حاجة الخلفاء في دمشق إلى علم الزهري ولما كان يمثله، في ذلك الوقت، من منزلة عالية في علم الحديث والسيرة، وحاجة الزهري المادية التي كانت تضغط عليه في بعض الأحيان إلى درجة الاستدانة من خدمه بسبب كرمه وسخائه المفرط[٤٧]؛ بالرغم من تلك المصلحة، فلا خلفاء دمشق ضغطوا عليه لوضع أحاديث تخدم مصالحهم، ولا الزهري استغل تقديرهم لعلمه وكرمهم له لتصحيح أوضاعه المادية أو الإثراء من ورائهم، أو تحقيق أي مكسب مادي دنيوي، بل على العكس، فقد كان صداحاً بالحق لا يخاف في الله لومة لائم منسجماً مع نفسه من ناحية توافق أقواله مع أفعاله. وهو الذي كان يحدث بحديث عمر بن الخطاب إلى الرجل الذي جاء يسأله: «ألا أكون في منزلة من لا يخاف في الله لومة لائم؟ فقال: إما أن تكن من الناس شيئاً فلا تخف في الله لومة لائم، وإمّا انت خلوّ من أمرهم فأكب على نفسك وأمر بالمعروف وانه عن المنكر»[٤٨]. والزهري هو من أكبّ على نفسه فأمر بالمعروف ونهى بني أمية عن المنكر.

جاء في العقد الفريد: «دخل الزهري على الوليد بن عبدالملك فقال له: ما حديث يحدثنا به أهل الشام؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات». قال الزهري: باطل يا أمير المؤمنين! أنبي خليفة أكرم على الله، أم خليفة غير نبي؟ قال: بل نبي خليفة قال: فإن الله تعالى يقول لنبيه داود عليه السلام: «يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب» فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة فما ظنك بخليفة غير نبي؟ قال الوليد: إن الناس ليغووننا عن ديننا»[٤٩].

إن موقف الزهري من الخليفة الوليد لا يمكن وصفه إلا بموقف العالم الناصح لدين الله، فقد وضع الزهري الوليد على الطريق الصحيح بأن الأمير لا يختلف عن غيره من الناس تسجل له حسناته كما تسجل سيئاته أيضاً وأزال بذلك ما يدعوه إلى الاستكبار والانحراف عن جادة الصواب، كما أن موقفه من هشام بن عبدالملك في جداله في خبر «الافك» ومن تولى كبره، صريح في صدحه بالحق، إذ اتهم عبدالملك الزهري بالكذب في الحديث، فردّ عليه الزهري وقد امتلأ غضباً: «أنا أكذب؟ لا أباً لك! فوالله لو ناداني منادٍ من السماء أن الله أحلّ الكذب ما كذبت.. حدّثني سعيد بن المسيّب وعروة وعبيدالله وعلقمة بن وقاص عن عائشة أن الذي تولى كبره

عبدالله بن أبي قال: فلم يزل القوم يغرون بـ فقال هشام: ارحل فوالله ما ينبغي لنا أن نحمل عن مثلك. قال: ولِمَ أنا اغتصبتك على نفسي أو أنت اغتصبتني فخلّ عني. قال: لا ولكنك استدنت ألفي ألف فقال: قد علمت وأبوك قبلك أني ما استدنت هذا المال عليك ولا على أبيك. فقال هشام: إنّا نهيّج الشيخ وذكر كلمة فأمر فقضي عنه ألف ألف فأخبر بذلك فقال الحمد لله الذي هذا هو من عنده»[٥٠].

نستدل من هذا النص، ليس فقط على جرأة الزهري بصدحه بالحق ومدى ورعه وشدة تمسكه بالدين، بل مدى ثقته بنفسه ودينه واعتزازه بعلمه واستهانته بالمال، فهو يعتبر أن بني أمية ليس لهم عليه أية منّة في قضاء دينه، فالمال مال الله، وبيت المال هو بيت مال المسلمين وله فيه حق معلوم كأي مسلم آخر: «إني ما استدنت هذا المال عليك ولا على أبيك».

الزهري بمواقفه الصريحة الصادقة والقوية، فرض احترامه على بني أمية الذين قصدوا إرضاءه والاحتفاظ به إلى جانبهم والانتفاع قدر الامكان من علمه، فسليمان بن عبدالملك جعل منه مستشاراً له في بعض أمور الدولة والخلافة، وعمر بن عبدالعزيز توثقت صلته به حتى أصبح سميره ومحدّثه بأمور الدين والدنيا، وها هو الزهري يقول: «سمرت مع عمر بن عبدالعزيز ليلة فحدثته، فقال: كل ما ذكرت الليلة قد أتى على مسامعي ولكنك حفظت ونسيت»[٥١]. ويزيد بن عبدالملك عيّنه قاضياً[٥٢]، اما هشام بن عبدالملك فقد توثقت صلته به لدرجة أن جعل منه مؤدباً لولده وطلب إليه أن يملي الحديث على بعض ولده، وطلب فيما بعد من كاتبين أن يصحباه ويحضرا دروسه وأن يدونا أحاديثه ففعلا لمدة سنة[٥٣].

هنا لا بد من الاشارة، إلى أن هذا الطلب قد أثار في الزهري دافع عدم اقتصار نشر العلم بين الخاصة، بل عند الضرورة، وجوب نشره بين العامة. وهذا ما يفسر لنا تصرفه بعد انتهائه من إملاء أربعمائة حديث على كاتب هشام، إذ خرج وقال: «أين أنتم يا أصحاب الحديث». وحدّثهم بتلك الأربعمائة[٥٤]. ومن ثم أخذ يردد «كنّا نكره كتاب العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء، فرأينا أن لا نمنعه أحداً من المسلمين»[٥٥].

ومعنى ذلك أن الزهري، كان لا يرغب في كتابة الأحاديث لنشرها لكي لا يتكل الناس على الكتب، وليبقى اعتمادهم على ذاكرتهم. ثم شرع في الكتابة، بعد إلحاح الخليفة هشام عليه ليملي على ولده. وهناك إحتمال آخر أن عمر بن عبدالعزيز قد حمل الزهري أيضاً على جمع الحديث وتدوينه[٥٦] بهدف حفظه من الضياع أو التزوير.

يبرز هنا تناقضاً في مسألة التدوين، وهو كيف كان الزهري يدعو إلى التدوين وتسجيل الأحاديث، وهذا ما أشرت إليه من قبل، وفي نفس الوقت «يكره كتاب العلم»؟

إن ما نذكره على هذا التساؤل، يكمن في أن دعوة الزهري إلى التدوين، كان يعني تسجيل الأحاديث من أجل حفظها للصالح الشخصي — وهذا لم يكن مألوفاً عند أهل زمانه — وليس لصالح النشر العام ضمن دفتر أو دفتيّ كتاب. ومما يؤكد صحة هذا التفسير، هو عدم وجود كتاب كامل للزهري، اللهم إلا ما كتبه بإيعاز من الخليفة الأموي الوليد الأول الذي وضع له بما يشبه اللائحة الزمنية التي تتناول الخلفاء الأمويين وزمن توليتهم وطول مدة خلافتهم، وما كتبه بإيعاز من خالد بن عبدالله القسري، والي العراق يتناول أنساب العرب، ولكن لم يكمله. والكتاب الوحيد الذي وضعه هو كتاب يتناول فيه نسب قومه[٥٧]. أما ما عدا ذلك، فليس هناك عملاً تأليفياً مستقلاً قام به الزهري. ولكن مجموعات كبيرة من الأحاديث نقلت عنه تحت عنوان «الزهريات» وقد أطلق عليها هذا الاسم جامعوها ممن لحقه من حفّاظ من تلامذته[٥٨]. ويقول معمر تلميذ الزهري «كنّا نرى أنّا أكثرنا عن الزهري حتى قبل الوليد فإذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزانته من علم الزهري»[٥٩].

هذا بالاضافة إلى أن الزهري بدأ يخاف الأحاديث الملفقة التي تسيل عليهم من المشرق، إذ قال: «لولا أحاديث سالت علينا من المشرق ننكرها لا نعرفها ما كتبت حديثاً ولا أذنت في كتابه»[٦٠].

يتبين لنا من خلال استعراض علاقة ابن شهاب الزهري ببني أمية، أن طابع تلك

العلاقة لم يكن سياسياً، فهو لم يداهنهم ولم يجاملهم على الرغم من أن والده، أبو مسلم بن عبيدالله، كان ضدهم مع عبدالله بن الزبير. وهو الذي قال فيه عبدالملك «كان أبوك لنعّاراً في الفتن»[٦١]. ومع ذلك لم تتأثر علاقة الزهري بهم وظلت ملتزمة حدود العلم والدين، فكان يخاطبهم بلقب «خليفة» أو «أمير المؤمنين» وليس بلقب «ملك» أو «سلطان»، مما يعني أنه اعتبر حكمهم امتداداً لحكم الخلفاء الراشدين. ولكن لا يخفي تعاطفه مع أهل بلده التي عمل من أجلها خيراً، إذ أشار على مسلمه بن هشام،وكان قد استعمله أبوه هشام بن عبدالملك سنة ست عشرة ومائة على الحج وأمر الزهري أن يسير معه، أشار عليه أن يصنع خيراً إلى أهل المدينة، فأقام فيها مسلمة مدة نصف شهر وقسم الخمس على أهل الديوان، وفعل أموراً حسنة كثيرة[٦٢].

تمثل المرحلة الأموية من حياة ابن شهاب الزهري، المرحلة الأهم. فقد كانت بالنسبة إليه مرحلة الانتاج والعطاء من النفس التي اختزن فيها الكثير من العلم والحديث حتى أصبحت بمثابة مستودعاً للأحاديث النبوية الشريفة.

كان يروي بإسناد، إذ أن قيمة الرواية آنذاك هي في الثقة براويها وقد أخذ ابن شهاب من ثقاة. وقد قيل له يوماً «زعموا أنك لا تحدث عن الموالي؟ فقال: إني لأحدث عنهم، ولكني إذا وجدت أبناء المهاجرين والأنصار أتكىء عليهم فما أصنع بغيرهم»[٦٣]. وكان يقول أيضاً، «ما هذه الأحاديث التي لا أزمّة لها ولا خطم»[٦٤]. أي شبه أسانيد الأحاديث بالأزمّة والخُطُمْ ووجه الشبه بينهما الضبط، فكلما تضبط حركة الدابة وتوجه إلى الطرق السالكة السليمة، كذلك الحديث فإنه يضبط بمعرفة رجال سنده ويميز صحيحه من سقيمه. كان يقصد الزهري أهل العراق، حيث يقول في موضع آخر: «نخرج الحديث شبراً فيرجع ذراعاً ــ يعني من العراق ــ وأشار بيده إذا وغل الحديث هناك فرويداً به»[٦٥]. يقول الزهري رويداً، كأنه يريد التأمل والتدقيق في الحديث الذي يدخل العراق، إشارة إلى التلاعب بالأحاديث هناك في تلك الفترة[*].

عمل الزهري على نشر علمه فلا يمنعه على مسلم: «ما نشر أحد من الناس هذا العلم نشري ولا بذله بذلي»[٦٦]. وهو القائل أيضاً: «لا يرضي الناس قول عالم لا يعمل ولا عمل عامل لا يعلم»[٦٧].

ومسألة التدوين التي سبق ابن شهاب غيره من أبناء عصره في القيام بها، تعتبر مرحلة مهمة من مراحل جمع التراث والانتقال به من الرواية الشفوية إلى الرواية المدونة.

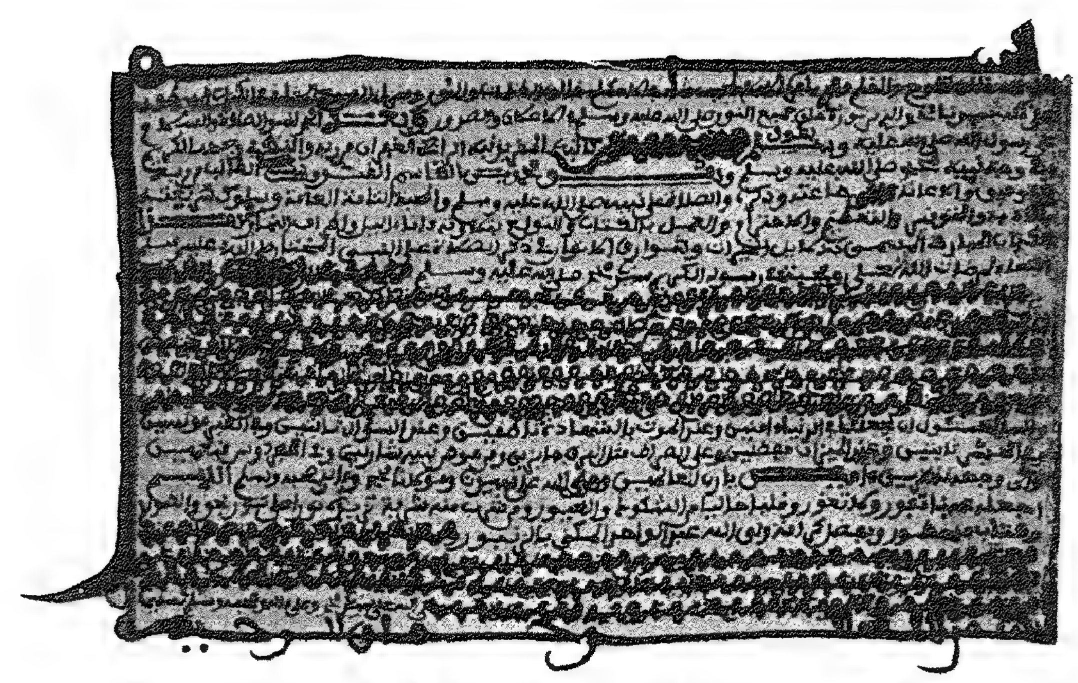
التهم التي وجهت إلى الزهري

جلب اتصال الزهري ببني أمية الاتهام عليه والكلام فيه، ابتداءً بشيوخه وانتهاءً بعصرنا هذا، فأما السلف فقد أخذوا عليه صحبته للسلطان وتوليه القضاء له. «روى عليّ بن حوشب الفزاريّ عن المكحول قال: أيّ رجل الزهري لولا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك»[٦٨]. فقد كان الفقهاء والمحدثون الورعون يتجنبون مصاحبة الملوك لما في ذلك من خطر مجاراتهم والتساهل معهم في أمور الدين، من ناحية تأويل الأحاديث أو تفسيرها حسب ما تقتضي مصالحهم.

اما المحدثون وعلى رأسهم المستشرق اليهودي إجناس غولدتسهير، فقد ذهبوا إلى أن الزهري ذهب إلى الشام واتصل بعبدالملك بن مروان وأخذ يضع له الحديث لنصرته في حربه مع عبدالله بن الزبير[٦٩].

إن رأي أولئك وهؤلاء من الزهري، فيه كثير من التجني على الحقيقة. فأمّا معاصروه فكانوا يعلمون مدى صدق الزهري وصدحه بالحق الذي تبين لهم من مواقفه مع بني امية، فلم يكن، كما سلفت الاشارة، مجارياً لهم ولامتساهلاًمعهم في أمور الدين بل صدّاحا بالحق ناصحاً أميناً.

أما ما ذهب إليه المحدثون، من وضع الزهري للأحاديث في خدمة مصالح بني أمية زمن عبدالملك بن مروان في حربه مع عبدالله بن الزبير، ففيه بعداً عن المنطق. فالزهري أيام عبدالملك، كان لا يزال فتياً مغموراً، وإن أراد الخليفة الأموي وضع أحاديث تخدم مصالحه لاستعان بشيخ من شيوخ الحديث أمثال سعيد بن المسيّب وليس بشاب طريّ العود



□ التدوين، اعتمده الزهري ودعا إليه لحفظ الأحاديث النبوية الشريفة من الضياع.

وجديد العهد بالحديث. وقد أشبع كل من السباعي وهوروفتس الحجج في ردّهما على غولدتسهير

المآخذ

أمّا المسائل التي أخذت على الزهري فتتعلق ببعض الأمور الشخصية والعلمية.

فالشخصية، هي كثرة استدانته بسبب سخائه المفرط، الذي كان يضطره إلى الاستدانة حتى من الخدم والعبيد، وبالتالي اللجوء إلى السلطان لتسديد تلك الديون وما يتطلب ذلك من الالتماس والمجاراة. إلّا أن موقف الزهري من قصة «الأفك» مع الخليفة هشام والتي انتهت بقضاء دين الزهري، تُبيّن وكأنّ الزهري لم يكن يفكر يوماً بمداهنة بني أمية ليحظى بتسديد ديونه، لاعتقاده أن بيت المال هو بيت مال المسلمين ولكل مسلم حق معلوم فيه. «الحمد لله الذي هذا هو من عنده»، هذا ما قاله الزهري عندما أخبر بقضاء هشام ديونه.

أمّا الأمور العلمية، فهي إجازاته كتبه وحديثه دون أن تقرأ عليه أو يقرأها هو وينظر فيها[٧٠]، الأمر الذي لا يؤمن معه تحريف بعض النصوص أو الزيادة عليها. وقد أنكر ذلك عليه المحدثون، حتى أن سفيان الثوري رفض أن يروي من كتاب للزهري كان أعطاه إياه لم يقرأه عليه[٧١].

ولكن هذا الأمر، بالرغم من كل الأخطاء التي قد تصحبه، إلا أن البعض قد اعتبره كدعوة تشجيعية إلى التأليف ونشر العلم وتعميم الفائدة[٧٢].

وهناك من عابه أيضاً في كثرة إسناده وردّه الحديث، فرد عليهم قائلاً: «تلومونا في ردّ الحديث، لهو أشد من نقل الصخر»[٧٣].

تلك هي المسائل التي أخذت على الزهري، وهي ليست بالأمور الهينة ولكنها لا تغض من شأنه ولا تقلل من مكانته العلمية ولا توثيقه.

تلامذة الزهري

درس على الزهري علماء كثيرون لا يحصون، نبغ عدد غير قليل منهم في القرن الثاني الهجري، وتولوا نشر العلم وتصدروا للافتاء وكوّنوا مدارس فقهية، ومن أشهر هؤلاء التلاميذ الذين أصبحوا فقهاء الأمة فيما بعد، مالك بن أنس، النعمان بن ثابت، عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي، الليث بن سعد، عبدالملك بن جريج، سفيان بن عيينة وغيرهم كثير من المحدّثين كمعمر بن راشد،

محمد بن الوليد الزبيدي، يونس بن زيد وعقيل بن خالد وغيرهم[٧٤].

وبعد حياة طويلة جاوزت السبعين عاماً قضاها الزهري في طلب العلم وتدوينه ونشره، توفي في آدامى ــ على الحدود ما بين الحجاز وفلسطين ــ وأوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليدعو له من يمر به[٧٥].

مغازي الزهري

«كان محمد بن مسلم الزهري مقدماً في العلم بمغازي رسول الله(ص) وأخبار قريش والأنصار، راوية لأخبار رسول الله (ص) وأصحابه»[٧٦] هذا ماجاء على لسان الطبري، ملخصاً دور الزهري المؤرخ الذي أكثر ما يظهر ويتضح في «مغازي رسول الله (ص)» وقد قال بعضهم «إن الزهري وضع كتاباً في المغازي»[٧٧].

وردت مغازي الزهري ضمن مقتطفات تتباين في قلتها أو كثرتها، في طولها أو قصرها بين مؤرخ وآخر، فابن اسحق والواقدي والطبري والبلاذري وابن سيد وموسى بن عقبة، تعدّ مؤلفاتهم من أكثر المؤلفات ذكراً لمغازي الزهري، إلا أن مصنف الحافظ أبي بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، من الممكن اعتباره من الأهم، ليس لاحتوائه الكثير من مغازي الزهري، بل لأنها وردت بشكل منظم على الرغم من تشابكها مع بعض الروايات الأخرى، إلا أنها تكاد تؤلف كتاباً مستقلاً للزهري في المغازي.

خطة الزهري في المغازي تبدأ بتناول بعض الأخبار عن مكة وأهلها وأسرة النبي مع حياة النبي محمد الخاصة قبل الإسلام. فيذكر ما جاء بصدد حفر زمزم، ونذر عبدالمطلب من أن ينحر أحد أبنائه، تزويج عبدالله بن عبدالمطلب آمنة بنت وهب، ضم أبي طالب الرسول إليه وخروجه معه إلى الشام، هدم قريش الكعبة وتجديد بنائها، تزويج رسول الله خديجة بنت خويلد[٧٩].

تعتبر هذه القطعة بمثابة توطئة تاريخية، يدخل الزهري من بعدها، ليبدأ في سرد سيرة حياة الرسول الكريم ليقسمها إلى قسمين، فترة مكّية وأخرى مدنية. تتناول الأولى الجوانب المهمة من حياة النبي إلى وقت الهجرة. بدأها بذكر الوحي إلى رسول الله وما سبقه من رؤيا صادقة وتحنّث في الخلوة ومن ثمّ ما رافقه من اضطراب الرسول ومساعدة خديجة له وذهابها به إلى ورقة بن نوفل، حتى نزول أول الآيات وذكر أول المسلمين وإسلام عمر بن الخطاب، وقصة الإسراء والمعراج، ثم جاء على ذكر بعض الوقائع المهمة كوقعة حنين[٨٠]. أمّا الفترة المدنية، فتعرض لأخبار المرحلة المدنية، من مخرج رسول الله ونزوله في بني عمرو بن عوف، وقد حددها الزهري بالتاريخ، «يوم الاثنين من شهر ربيع الأول..»[٨١] حتى نهاية العصر الراشدي. وعلى هذا تحدث عن بعض الغزوات، كغزوة قينقاع والخندق ومعركة أحد وفتح مكة، وعن بعض السفارات، إلى هرقل وكسرى، والوفادات. ثم يذكر الزهري تفاصيل أخرى كحديث الافك[٨٢]، مع بعض الإشارات إلى أزواج النبي حتى يصل إلى مرحلة مرضه الأخير الذي يذكره بالتفصيل. يذكر الرسول وهو يلقي نظرة على المسلمين في المسجد في آخر ايامه من الدنيا ويفوض أبي بكر إمامة المسلمين في الصلاة. آخر ما عهد به الرسول الكريم وانتقاله إلى دار الخلود وتاريخ ذلك وعمره وأثر الوفاة[٨٣]. ثم يذكر الزهري بيعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة، ويستمر في سرد أهم الوقائع كمقتل عمر وعثمان وخبر علي ومعاوية مع ذكر معركة الجمل وصفين ويوم التحكيم. وهكذا إلى أن استولى معاوية على مقاليد الأمور وأسس حكم الأسرة الأموية. ويلاحظ أن الزهري أثناء عرضه للأخبار، كان يقدم تواريخ بعض الحوادث بشكل مفصل ودقيق.

يتبين لنا بعد هذا العرض الموجز لمغازي الزهري، الهيكلية أو الخطة التي اتبعها في بناء «السيرة»، فهو قدّم لها بتوطئة تاريخية تناولت البيئة التي ظهر فيها النبي مع ذكر لأهم الأحداث التي تركت بصماتها على تلك الفترة من أخبار الأنبياء الماضين وأهل الكتاب. وهنا تتجلى معرفته بعلم الأنساب الذي كان مقياساً للعلم في ذلك الوقت.

بعد التوطئة ينتقل الزهري إلى صلب الموضوع إلى قلب السيرة وفحواها، فيقسمها بشكل منطقي إلى فترتين: مكّيّة ومدنية، ويدرج



□ الزهري، كان مرجعاً في حلّ القضايا الفقهية.

تحت كل منهما وحسب التسلسل الزمني وبالتفصيل، أهم الأحداث التي وقعت، من الدلائل على ظهور النبوة، إلى بدء نزول الوحي إلى التطبيق العملي للرسالة إلى آخر النواحي الهامة في الفترة المكية، إلى الهجرة وبداية المرحلة المدنية التي تشكل بداية انتشار رسالة الإسلام خارج حدودها الضيقة وما رافقها من غزوات وسرايا وفعاليات أخرى من سفارات ووفود، حتى يصل إلى مرض الرسول الكريم ووفاته. ثم يأتي إلى فترة الخلفاء الراشدين، من بيعة أبي بكر إلى عمر ومقتله إلى عثمان ومقتله إلى علي وخلافه مع معاوية. ويستمر في السرد حتى يصل إلى تنازل الحسين بن علي لمعاوية الذي استولى على مقاليد الأمور وأسس حكم الأسرة الأموية.

عالج الزهري روايات المغازي عنى حسب المذهب الذي تعامل به مع مختلف الأحاديث النبوية الشريفة. فقدم معلومات واقعية متزنة بأسلوب يتصف بالصراحة والبساطة والتركيز والتناسق فيه استقصاء كامل للحقيقة. ولكن كل هذا دون أن يصرّح برأيه أو يعكس لنا موقفه من تلك الأحداث، اللهم تعليقه على صلح الحديبية وأهميته ونتائجه: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وآمن الناس بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في

الحديث والمنازعة ولم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر»[٨٤].

هذا بالاضافة إلى ما نستشفه من بين السطور لمواقف الزهري من بعض الأحداث الكبرى خاصة التي لعبت دوراً أساسياً في تطور أحداث الأمة والتي تناولها الزهري بالتفصيل، كمسألة انتخاب أبي بكر والأثر الذي تركه وما رافقه من ردّات فعل[٨٥]، كنظرة علي إلى الانتخاب ثم بيعته فيما بعد وطلب فاطمة الزهراء أن ترث، وسلوك أبي بكر كخليفة وتجاه كل تلك الأمور. ثمّ يخص عصر عمر بن الخطاب بالتفصيل ويذكر الانجازات التي حققها من إنشاء ديوان الجند وتنظيم الأعطيات وقول عمر في أهل الشورى[٨٦].

إن تفاصيل تلك الأحداث التي تعمّد الزهري ذكرها، إنما تظهر موقفه الإيجابي من أبي بكر وعمر، فقد كان يمدحهما بطريقة غير مباشرة، فجعل أفعالهما تنطق بخصالهما. أما عثمان، فقد فصّل الزهري أمر خلافته وأسهب في ذكر الانتقادات الموجهة إليه، ثم يورد تفاصيل دقيقة عن الفتنة، ويذكر أن عثمان كان محبوباً في السنوات الست الأول من حكمه ومن ثمّ اشتدت انتقادات الناس وأنكروا عليه مفاضلته لأهل بيته وكأنه بذكر ذلك يحاول التبرير لبعض مواقف وأفعال عثمان. ثم يعرض الزهري للانقسامات الخطيرة في المدينة، وانتخاب علي، وموقف طلحة والزبير من علي، الخليفة الجديد، ومفاوضتهما مع عائشة، وأخيراً موقعة الجمل[٨٧]، وبعد ذلك يتناول النزاع بين علي ومعاوية ومعركة صفين ثم التحكيم. ويذكر علاقة الحسين بالكوفيين ومفاوضته مع معاوية وينتهي بتنازل الحسن واستيلاء معاوية.

من خلال كل ذلك كان الزهري يعرض وجهة نظر أهل المدينة التي بدأت تشكو الانقسام، وبالتالي وجهة نظره فهو أولاً وأخيراً ابن بيئته.

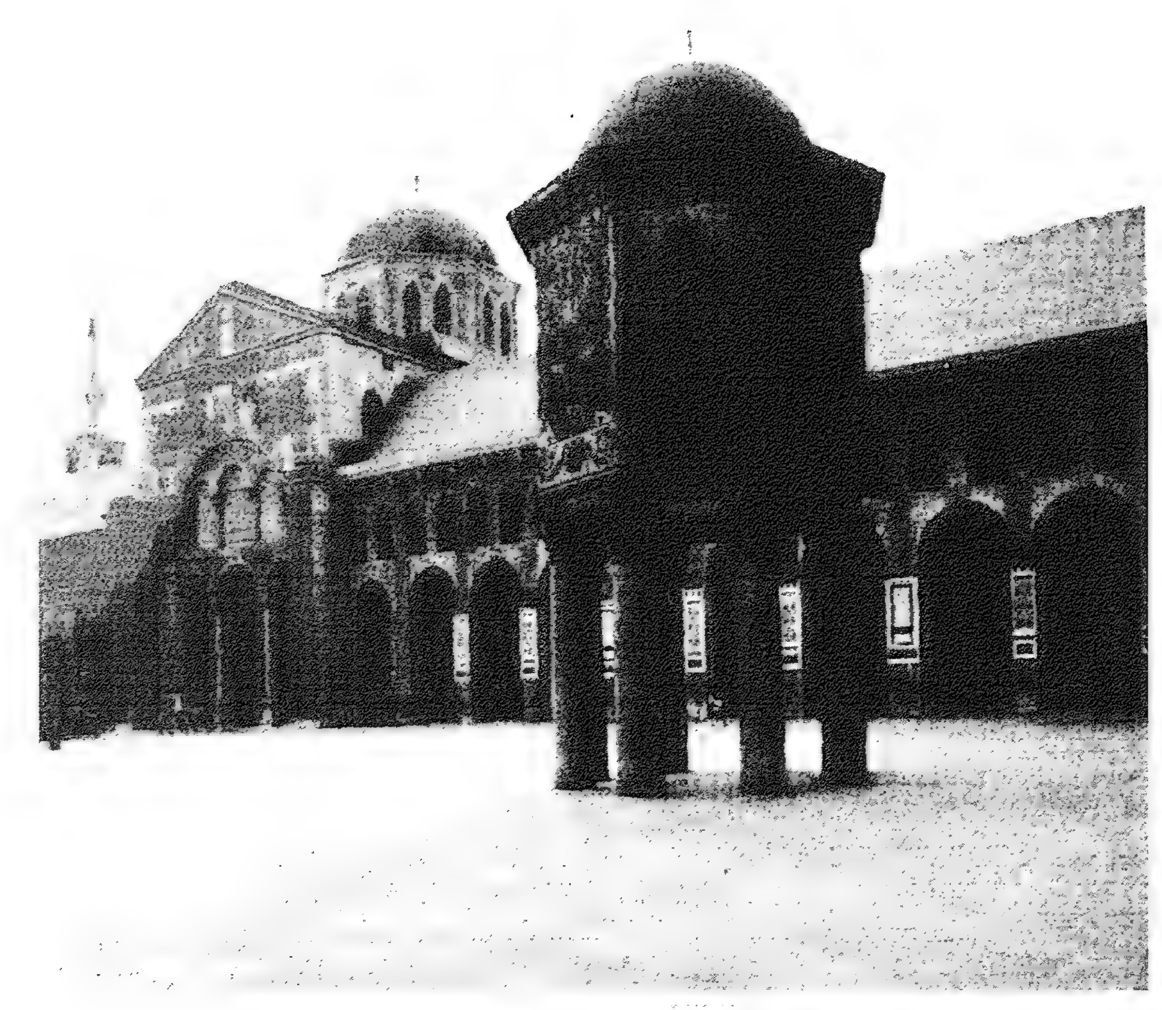
إن اهتمام الزهري بتجارب الأمة، كان عاملاً مهماً في نشأة الدراسة التاريخية. فمبدأ الشورى والاجماع وظهور الأحزاب السياسية والفتنة ومسألة الخلافة والجدل الذي قام حولها، وإنشاء الديوان، كل هذه المسائل كانت تتطلب إيضاحاً عن طريق الدراسة التاريخية فتلقفها الزهري عن أستاذه عروة بن الزبير واستطاع أن يضع لها أسساً ثابتة واضحة المعالم.

اتبع الزهري في محاولة تحقيق الأحاديث والروايات طريقة اعتماد الاسناد، «ما رأيت أنصّ للحديث من الزهري»[٨٨]، وكان، كما بيّنا من قبل، من المتشددين في اتباع هذه الطريقة التي كان يراها ضرورية ولا بدّ لكل محدّث من اتّباعها لاثبات وقائعه. وقد مشى الزهري بالاسناد خطوة نحو الأمام، إذ جمع عدّة روايات في خبر متسلسل تتقدمها رجال أسانيد، أي اتّبع ما يسمونه بالاسناد المدرّج أو الاسناد الجمعي(**) فدخل بذلك مرحلة الأخبار التاريخية المتصلة. وقد ذكرت بعض المصادر أن الزهري هو أول من اتّبع الاسناد الجمعي، ولكن يبدو أن شيخه ابن الزبير قد سبقه بذلك ولو على نطاق ضيق[٨٩]، إلى جانب بعض رواياته التي وردت دون إسناد، لاعتباره «تابع» فهو إذن سبيل موثوق، والبعض الآخر ورد بإسناد عادي.

أمّا الزهري فهو الذي اعتمد الاسناد الجمعي بشكل واسع وبصورة صريحة وواضحة، مما أكسبه مرتبة الأولوية في هذا المجال. هذا إلى جانب اعتماده الاسناد العادي، أي أنه كان يكتفي بذكر رواية أحد التابعين مما يسمح له بحرية أكثر في التحديث. أما الروايات التي وردت بإسناد جمعي عند الزهري فهي كثيرة، نذكر منها، وقعة بدر، وقعة أحد، وموقعة حنين[٩٠].

إلى جانب الاسناد، أكثر الزهري من ذكر الآيات القرآنية التي تتصل بما يورد من أخبار فجاءت بمثابة استشهادات تدعم ما كان يذكر من أخبار ووقائع، كما في حديثه عند نزول الوحي، وفي حديثه عن قريش عندما أرسلت إلى النبي تناشده الله والرحم لينقذها من عصابة أبي صير وأبو جندل بن سهيل، وفي حديثه عن استفتاح وقعة بدر[٩١]. وبما أن القرآن حافل بالاشارات إلى شؤون المسلمين ويعتبر أحد أهم المصادر الرئيسية للتاريخ الاسلامي، فقد ساعدت تلك الاستشهادات في إضفاء طابع الجدية والأهمية على روايات الزهري.

أمّا التسلسل التاريخي الذي بدا واضحاً جداً مع الزهري، فقد حدّده بالتواريخ مثل تاريخ



□ دمشق الأموية التي احسنت وفادة الزهري.

الهجرة، تاريخ غزوة بدر، «يوم الجمعة لسبع أو ست عشرة ليلة مضت من رمضان»، فتح مكة، «على رأس ثمان سنين ونصف من مقدم النبي (ص) إلى المدينة، لليلة ثلاث عشرة خلت من رمضان»[٩٢]. وقد ساعدت هذه الطريقة — تواريخ — على تثبيت إطار وقائع مغازيه أو بالأحرى إطار السيرة عنده.

والشعر عند الزهري كان لا بدّ منه، ولو بكمية ضئيلة، فهو المولع بالشعر[٩٣] والمتضلّع فيه، ولكن ليس إلى حد التأثير على أسلوبه.

ومما تجدر الاشارة إليه، أن القالب الذي صبّت فيه تلك المغازي، فيبدو على شكل فتاوي تاريخية يردُّ بها على أسئلة وجّهت إليه، والأرجح أن يكون معظمها قد وجّه إليه من قبل تلاميذه[٩٤].

والأسلوب الذي عالج فيه الزهري مغازيه، كان سلساً مباشراً صريحاً بعيداً عن المغالاة والتكلف، جعل الأخبار متصلة متسلسلة، مما أضفى على رواياته صفة الشمول والجدية. وهو لا يختلف عن أسلوبه في كامل أحاديثه، فالزهري محدّث أولاً وأخيراً ومغازيه لا تخرج عن إطار السيرة.

الخاتمة

يتضح لنا بعد كل هذا، أن ابن شهاب الزهري باعتماده الأسانيد والتشديد عليها،

واستشهاده بالآيات القرآنية، مما دعّم أحاديثه وأعطاها قوة وفاعلية، واستعماله التواريخ، قد قدم خدمة جليّة للتاريخ الاسلامي، ليس فقط من ناحية حفاظه على التراث الاسلامي، بل من ناحية تحديده للاطار التاريخي للسيرةالنبوية وإعطائها شكلاً ومضموناً منهجياً، إن من ناحية الأساليب التي استعملها لدعمها، أو من ناحية المضمون وما حواه من معلومات وأخبار قيّمة.

أما التدوين، وهو الخطوة الأخرى والهامة جداً التي أخذ يدعو إليها الزهري، أشارت معه إلى مرحلة جديدة من مراحل جمع ذلك التراث والانتقال به من الرواية الشفوية إلى الرواية المدونة. وبذلك يكون قد انتقل بالدراسات التاريخية نقلة نحو الأمام ساعدت فيما بعد على وضعها على أسس ثابتة، وأدّت إلى حفظ الروايات الأولى.

وهكذا نجد أن محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، بتفتيشه عن الأحاديث من خلال سعيه وراء الحديث، كبيراً كان أم صغيراً، تابعاً أو غير تابع، وبتدوينه إياها، ومن ثم نقدها لمعرفة الأصيل من الدخيل عن طريق تحقيقها بالأسانيد، ومن ثم جمعها (عن طريق الاسناد الجمعي) وأخيراً عرضها ضمن أسلوب سلس وواضح، كل هذه الأمور كانت كفيلة لتظهر ملكة التأريخ عند ابن شهاب ولتجعل منه المؤسس الحقيقي للمدرسة التاريخية في المدينة.

حواشي الموضوع

(١) Somogyi, Joseph: «The Development of Arabic Historiography», *Journal of Semetic Studies*, 3, (1958), p. 373.

(٢) الأعظمي، محمد مصطفى: **مغازي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لعروة بن الزبير**، ص ١٢ ــ ١٥.

(٣) Gibb, H.A.R.: «Tarikh», in *Encyclopedia of Islam*, 1st ed. *Supplement*, p. 234.

(٤) السباعي، مصطفى: **السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي**، ص ٦١ ــ ٦٢.

(٥) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٢، قسم ٢، تحقيق إدوارد سخاو، ص ١٢١ ــ ١٢٢.

(٦) للدراسة التفصيلية في هذا الموضوع، انظر: الأعظمي، محمد مصطفى: **دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه**، ص ٩٢ ــ ١٤٢.

(٧) السباعي، مصطفى: المصدر السابق، ص ٦٦ ــ ٦٧.

(٨) السباعي، مصطفى: المصدر السابق، ص ٦٧.

(٩) الدوري، عبدالعزيز: **بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب**، ص ٢٠.

انظر أيضاً:

— Horovitz, J. : «Early Biographies of the Prophet and their Authors», *Islamic Culture*, I (1927), p. 536.

(١٠) Horovitz, J.: Ibid., p. 536

(١١) الدوري، عبدالعزيز: المصدر السابق، ص ٢٠.

(١٢) الدوري، عبدالعزيز: المصدر السابق، ص ٢٠.

(١٣) Horovitz, J.: Ibid., p. 539.

(١٤) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٥، ص ١٥٦.

(١٥) الدوري، عبدالعزيز: المصدر السابق، ص ٢١.

(١٦) الحاجي، خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ج ٢، ص ١٧٤٧.

(١٧) الدوري، عبدالعزيز: المصدر السابق، ص ٢١. انظر أيضاً:

— الأعظمي، محمد مصطفى: **مغازي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لعروة بن الزبير**، ص ٣٠ ــ ٧١، يذكر الأعظمي في دراسته التي يعتمد فيها على رواية أبي الأسود يتيم عروة، أنه ليس دليلاً كافياً في أكثر الحالات، هل نقلت تلك المعلومات عن عروة شفاهاً أو سجلت تسجيلاً، إلا رواية أبي الأسود يتيم عروة.

(١٨) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٥، ص ١٣٣.

(١٩) الأعظمي، محمد مصطفى: المصدر السابق، ص ٦٨.

(٢٠) الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، ج ٢، ص ٤٨٠. انظر أيضاً:

— ابن هشام: **سيرة النبي**، ص ٤٧٤ ــ ٤٧٥.

(٢١) الدوري، عبدالعزيز: **علم التاريخ عند العرب**، ص ٧٥ ــ ٧٦.

(٢٢) الطبري: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٧١.

(٢٣) الأعظمي، محمد مصطفى: المصدر السابق، ص ٤٦.

(٢٤) Horovitz, Joseph, Ibid., p. 536.

(٢٥) زريق، قسطنطين: **نحن والتاريخ**، ص ٧٠ ــ ٧٥.

(٢٦) الذهبي، شمس الدين: **تراجم رجال روى محمد بن إسحاق رئيس اهل المغازي عنهم**، ص ٦٤.

(٢٧) الذهبي، شمس الدين: المصدر السابق، ص ٧٤.

(٢٨) أمين، أحمد: **فجر الإسلام**، ص ١٧١ ــ ١٧٣.

(٢٩) Duri, A.A. : «Alzuhri, A Study on the Beginnings of History Writing in Islam», *BSOAS*, 19 (1957), pp. 1-12.

(٣٠) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٦٤ ــ ٦٥.

(٣١) المـزي، جمـال الدين أبـو الحجـاج يـوسف بن عبدالرحمن بن يوسف القضاعي المزي الدمشقي: **تحفـة الأشـراف بـمعـرفـة الأطراف**، ج ١، ص ٣٧٥ ــ ٤٠١.

الأئمة الأربعة وأصحاب الكتب الستة للسنة:

ــ الامام أبو حنيفة: ٨٠ ــ ١٥٠هـ.

ــ الامام مالك: ٩٣ ــ ١٧٩ هـ.

ــ الامام الشافعي: ١٥٠ ــ ٢٠٤هـ.

ــ الامام أحمد: ١٤٦ ــ ٢٤١ هـ.

أصحاب الكتب الستة:

ــ الامام البخاري: ١٩٤ ــ ٢٥٦ هـ.

ــ الامام مسلم: ٢١٤ ــ ٢٦١ هـ.

ــ الامام النسائي وسننه: ٢١٥ ــ ٢٧٥ هـ.

ــ الامم أبو داود وسننه: ٢٠٢ ــ ٢٧٥ هـ.

ــ الامام الترمذي وجامعه: ٢٠٩ ــ ٢٧٩ هـ.

ــ الامام ابن ماجه وسننه: ٢٠٧ ــ ٢٧٣ هـ.

(٣٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي اهل المدينة ومن بعدهم**، تحقيق: زياد محمد منصور، ص ١٥٧ ــ ١٥٨.

(٣٣) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٣٤) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٣١.

(٣٤) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٣١.

(٣٥) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٦٨. انظر أيضاً:
— Horovitz, J.: Ibid, II (1928), p. 44-45.

(٣٦) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٦٦ ــ ١٦٨.

(٣٧) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٩٨ ــ ٩٩.

(٣٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٥٧١.

(٣٩) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٩٨.

(٤٠) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٥٧ ــ ١٦٢.

(٤١) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٦٢.

(٤٢) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٨١ ــ ١٨٢.

(٤٣) أمين، أحمد: المصدر السابق، ص ٣٠٦.

(٤٤) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٧٠ ــ ٧١.

(٤٥) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٧٣ ــ ٧٤.

(٤٦) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٧٤ ــ ١٧٩. انظر أيضاً:

ــ السبـاعي، مصطفى: المصـدر السـابق، ص ٣١٦ ــ ٣١٧.

(٤٧) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٧٠.

(٤٨) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٦٣ ــ ١٦٤.

(٤٩) ابن عبد ربه: **العقد الفريد**، ج ١، ص ٧٠.

(٥٠) الذهبـي: لمصدر السابق، ص ٧٢ ــ ٧٣.

(٥١) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٥٢) الذهبـي: المصد السابق، ص ٧٢.

(٥٣) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٦٩ ــ ٧١. انظر أيضاً: — Horovitz, J.: Ibid., p. 46-47.

(٥٤) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٦٩.

(٥٥) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٥٦) Horovitz, J.: Ibid., p. 47.

(٥٧) Horovitz, J.: Ibid., p. 48-49.

انظر أيضاً:

ــ الذهبـي، المصدر السابق، ص ٦٨.

(٥٨) Horovitz, J.: Ibid., p. 49-50.

(٥٩) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٧١.

(٦٠) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٦٦.

(٦١) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٧٠.

(٦٢) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٦٣) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٢٩.

(٦٤) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٧٩.

ازمة، جمع زمـام وهو الحبـل الذي يستعمل لضبط حركة الدابة إلى مسالك الطرق. والخطم، هو ما يوضع على أنف الدابة لتقاد به، فهو الزمام بنفسه.

(٦٥) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٧١.

(٦٦) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٦٩.

(٦٧) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٧١.

(٦٨) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٧٢.

(٦٩) للتوسع في هذا الموضوع انظر كتـاب السباعي، مصطفى: المصدر السابق، ص ٢٩٦ ــ ٤٤١؛ و
— Horovitz, J.: Ibid., p. 46-50.

(٧٠) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٧٢ ــ ٧٣.

(٧١) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٦٩ ــ ٧٠.

(٧٢) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٦٨.

(٧٣) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٦٦ ــ ٦٨.

(٧٤) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٧٥) الطبري: **المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين**، ص ٩٧.

(٧٦) الحـاجي، خليـفـة: المصـدر السـابـق، ج ٢، ص ١٧٤٧.

(٧٧) الدوري، عبدالعزيز: **بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب**، ص ٨٢.

(٧٨) ابـي بكر عبدالرزاق بن همامالصنعاني: **المصنف**، ج ٥، ص ٣١٣ ــ ٣٢١.

(٧٩) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٣٢٢ ــ ٣٩٤.

(٨٠) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٣٩٥.

(٨١) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٤١١.

(٨٢) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٤٢٨ ــ ٤٣٧.

(٨٣) ابن هشام: **سيرة النبـي**، ص ٥٤٦.

(٨٤) الطبـري: **تـاريـخ الرسـل والمـلوك**، ج ٣، ص ٢٠٠ ــ ٢٠٤.

(٨٥) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٤٤٧.

(٨٦) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٤٥٦ ــ ٤٥٨.
(٨٧) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٤٥٧.
(٨٨) الذهبي: المصدر السابق، ص ٦٨.
(٨٩) راجع هذه الدراسة.
(٩٠) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٣٦٢، ٢٧٩.
(٩١) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٣٢٢، ٣٤٢ و ٣٤٧.
(٩٢) الصنعاني، المصدر السابق، ص ٣٤٨ ــ ٢٧٣.
(٩٣) الذهبي: المصدر السابق، ص ٧٣.
(٩٤) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٣٢٥ و ٣٣٠.

(*) كان أهل العراق يمثلون مدرسة تاريخية تقوم على علم الأنساب تختلف عن مدرسة المدينة القائمة على علم الحديث وما يرافقه من علوم الفقه والتفسير.
انظر الدوري: **بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب**، ص ٦١ ــ ١٠٢ و ١١٨ ــ ١٣٠.

(**) هذا ما أطلق عليه الدوري في كتابه **بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب**.

مصادر الدراسة

الكتب القديمة

(١) ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع: الطبقات الكبرى. (تحقيق إدوارد سخاو، ٩ أجزاء، ليدن ــ بريل، ١٩٤٠).
(٢) ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم. (من ربع الطبقة الثالثة إلى منتصف الطبقة السادسة)، (تحقيق زياد محمد منصور، الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، المجلس العلمي، إحياء التراث الاسلامي، الطبعةالأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣).
(٣) الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك. (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢، ج ٢ و ج ٣).
(٤) الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير: المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين. (ملحقاً بتاريخ الطبري، ج ١٣، ط. الحسينية، القاهرة).
(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان. (جزءان، القاهرة، ١٢٩٩هـ).
(٦) المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبدالرحمن بن يوسف القضاعي المزي الدمشقي: تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف. (تحقيق عبدالصمد شرف الدين، بومباي، ١٩٦٥ ــ ١٩٧٢).
(٧) ابن عبد ربه. العقد الفريد: (تحقيق ورتب فهارسه، أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الابياري، ج ١، القاهرة، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠).
(٨) ابن هشام: سيرة النبي، كما رواها ابن هشام عن البكائي عن المطلبي. (دار ريحاني للطباعة والنشر، بيروت).
(٩) الذهبي، شمس الدين: تراجم رجال روى محمد بن إسحاق رئيس أهل المغازي عنهم. (ليدن ــ بريل سنة ١٨٩٠).
(١٠) الحاجي، خليفة: كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون. (جزءان، استانبول، ١٩٤١ ــ ١٩٤٣).
(١١) أبي بكر عبدالرزاق بن همّام الصنعاني: المصنّف. (تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، ج ٥، منشورات المجلس العلمي، ط ١٠، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢).

الكتب الحديثة

(١٢) الأعظمي، محمد مصطفى: مغازي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لعروة بن الزبير. (منشورات مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٤٠١هـ/١٩٨١).
(١٣) الأعظمي، محمد مصطفى. دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه. (جامعة الرياض، الرياض، ١٣٩٦هـ).
(١٤) السباعي، مصطفى: السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي. (الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١).
(١٥) الدوري، عبدالعزيز: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب. (المطبعة الكاثوليكية، بيروت).
(١٦) زريق، قسطنطين: نحن والتاريخ. (دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤).
(١٧) أمين، أحمد: فجر الاسلام. (دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٩٦٩).

المقـــالات

(1) Somogyi, Joseph: «The Development of Arabic Historiography». Journal of Semetic Studies, 3, (1958).
(2) Gibb, H.A.R.: «Tarikh», in Encyclopedia of Islam, 1st ed., Supplement.
(3) Horowitz, Joseph: «Early Biographies [illegible] Prophet and their Authors». Islamic Culture, I (1975); II (1928).
(4) Duri, A.A.: «Alzuhri, A S[illegible] of History Writing in Islam», BSOAS 19 (1957).

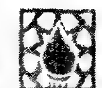
خلفية تاريخية عن سياسة حكومة السودان (الحكم الثنائي)

الطيب أبشر الطيب



دنقلا أرض المحس

في مجال التعدين ومنح الرخص والامتيازات على ضوء وثائق مصلحة الأراضي



هذه المجموعة التي وصلت لدار الوثائق المركزية في السودان ــ صنفت بالطريقة العلمية المتبعة وأعدت محتوياتها في قوائم لتكون في متناول الباحثين والدارسين.

ترتكز خطة التصنيف أساساً على نظام ترقيم الملفات وفي حالة ملفات الأراضي هذه اتضح أنها لم ترقم على حسب نظام السكرتير الاداري ولكنها أخذت أرقاماً متسلسلة كما أن المصلحة نفسها كانت تابعة للقضائية ثم انتقلت إلى وزارة الداخلية ثم إلى وزارة الحكومات المحلية.

وضعت كل طائفة من الملفات التي تحمل رقماً واحداً، وهي بالتالي تتحدث في موضوع واحد، في قسم خاص بها فتفصل عن بقية الأقسام الأخرى تحت المجموعة الأم وبذلك انقسمت هذه الأخيرة إلى عدد ٢٤ قسماً تتناول موضوعات مختلفة.

من بين هذه الأقسام قسم يعالج موضوع المناجم وهو الفصل الرابع في المجموعة يحكي عن مناطق التعدين والرخص والامتيازات التي منحت للشركات للعمل في هذا المجال.

ويتناول البحث الكلام عن:

(أ) الثروة المعدنية في السودان.

(ب) سياسة الحكومة فيما يختص بمنح رخص وامتيازات التعدين في السودان في فترة الحكم الثنائي.

(ج) نماذج من الشركات التي عملت في مجال التعدين في السودان.

(د) إحصاء بالرخص الممنوحة لبعض الشركات.

الثروة المعدنية

نقب المصريون القدماء عن المعادن في السودان وفي فترة حكم محمد علي باشا استعان بالباحث الأوروبي المسيو روسيجر وجماعته من النمسا في عام ١٨٣٥ للبحث عن الذهب وزودهم بألف جندي ليخدموا البعثة[١].

يمكن القول بأن صحراء النوبة تمتد جنوباً حتى تصل إلى خط عرض ١٤ شمالاً وفي الجزء الغربي بين النيل والبحر الأحمر تكثر الأحجار النارية والأحجار المتحولة بفعل العوامل الطبيعية كما تكثر صخور الكوارتز والميكا والصخور ذات الطبقة المكونة من بعض المعادن في الأراضي الواقعة جنوبي خط عرض ١٤.

وفي وسط كردفان تمتد صخور الكوارتز والميكا والصخور النارية إلى مسافات تبلغ مئات الأميال المربعة وتكون تلالاً يصل ارتفاعها في بعض الأحيان إلى أكثر من ألف قدم فوق سطح السهل.

أما في بحر الغزال ومنجلا فتكثر صخور الكوارتز والميكا[٢].

صناعة استخراج الذهب

انتشرت في أجزاء كثيرة وخاصة في العتبى ودنقلا وكانت رابحة. كانت أيضاً في مركز فازوغلي وأم باردي والتزامندي وقد هجرت المناجم عند قيام الثورة المهدية. كما أن الذهب موجود في جبيت وقد عمل في المنجم في جبيت آلاف العمال حتى أن السودان صدَّر الذهب بكميات كبيرة في عام ١٩٢٧ إلى انجلترا.

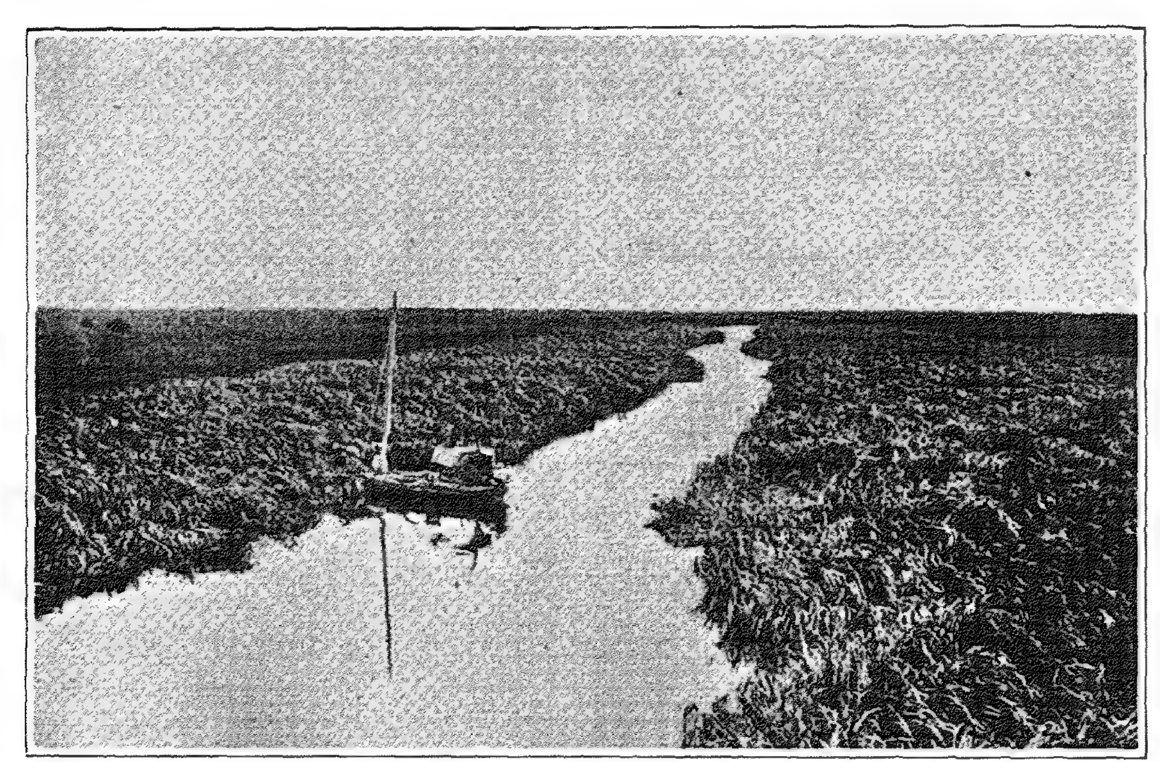
استمر منجم فازوغلي طويلاً. أما المنجم الوحيد بالسودان الذي كان يستخرج منه الذهب عام ١٩١١ فهو منجم أم باردي وقد كان يستخرج منه الذهب بتكسير أحجار الكوارتز التي تحتوي على الذهب.

استخرجت كميات كبيرة من الذهب من المناجم النهرية في مراكز بني شنجل والتومات ودبوس وقد كانت خواتم الذهب تباع في سوق أم درمان[٣].

إلى جانب الذهب هناك معادن أخرى موجودة في السودان فهناك الفحم اكتشف في دنقلا وفي شلجا شمال بحيرة تانا قريباً من القلابات.

ثم يوجد النحاس وأهم مناطقه حفرة النحاس على أحد روافد بحر العرب وتغطي مساحة قدرها نصف ميل مربع.

أما الجبس فتوجد كميات كبيرة منه في شاطىء البحر الأحمر في منطقة تبعد ٤٠ ميلاً شمال بورتسودان ويتراكم ليكون تلالاً تواجه البحر. وإن جزيرة ماكاو تتكون كلها من الجبس ويبلغ سمك الطبقات ثلاثين قدماً[٤].



□ منطقة بحر الغزال حيث تكثر صخور الكوارتز والميكا.

في مطلع الحكم الثنائي الانجليزي ـ المصري في السودان عادت الحركة للمناجم بعد أن توقفت بقيام الثورة المهدية وكان لا بد أن تجذب هذه الأرض الواسعة ومعادنها هذه العديد من المستغلين في مجال التعدين من الشركات وفعلاً فيبدو أن سيلاً انصب على البلاد من هؤلاء وكان لا بد للحكومة أن تواجه هذه الحركة الهامة بالضوابط التي تحقق لها الفوائد المالية الكبيرة فكان لا بد لها أن تسن القوانين التي تحكم مسار عمليات التعدين ومن مجملها ـ أي هذه القوانين وتعديلاتها والرخص والامتيازات التي منحت بمقتضاها ـ تتضح سياسة الحكومة آنذاك فيما يختص بالتعدين كمورد اقتصادي ومصدر من مصادر الدخل.

سياسة الحكومة فيما يختص بمنح رخص وامتيازات

التعدين:

إن مساحة السودان الانجليزي ـ المصري تساوي مرتين ونصف مساحة مصر. وقد خضعت هذه المساحة في كثير من أرجائها لعمليات التنقيب عن المعادن منذ القدم، وقد نشطت هذه العمليات في السودان تحت الحكم الثنائي. ويمكن الحديث عن تمليك الأراضي بصفة عامة في هذا الزمن علماً بأن الحكومة تعتبر المالك الوحيد لجميع الأراضي في المساحة المحددة.

تملك الأراضي:

يباح تداول ملكية الأراضي في أنحاء السودان بشرط تسجيلها الذي لا يمكن أن يتم إلا بتصديق من مدير المديرية ولفترة لا تنتقل فيها الملكية مجال وللمدير الرأي النهائي في أن يعطي ويمنع. يعزو بعض الناس هذه الطريقة إلى الرغبة في الرقابة وجعل الأمر في يد الحكومة بحسب ما يلائم سياستها ولكن الحكومة تعلل هذه السيطرة الادارية بالرغبة في منع سوء الاستغلال وانتهاز بعض المرابين فرصة ضعف الأهالي وجهلهم وعدم تعلقهم بالأرض فيطغون عليهم وينزعون ملكياتهم بثمن بخس. لا شك في سلامة هذا الاجراء من الناحية الادارية وإن تعارض مع القواعد الاقتصادية وحرية التداول في المعاملات[٥].

أمـا الأراضي التي لا ملاك لهـا فهي ملك للحكومة وإذا رغب أحد في استغلالها ووافقت الحكومة على طلبه فإنها لا تبيعها له بيعاً وإنما تعـطيه حق استعمـالها ويكـون لها الحق في استردادها ولا شك أن في عدم تمليك الأهالي تمليكاً نهائياً ما يبعث على خلقهم من ناحيـة المستقبل وعدم استقـرارهم في خدمـة الأرض وإصلاحها كما لو كانت ملكاً لهم[٦].

أمـا فيما يتعلق بـإيجار الأرض لأغـراض التنقيب فقد منحت الحكومة الرخص والعقود للمناجم واستخراج المعادن وكان أول تشريع بصدد ممثلو الشأن هو قانون استخراج المعادن (رخص البحث) ١٨٩٩.

قانون استخراج المعادن (رخص البحث) ١٨٩٩[٧]

أصدر هذا القانون السيرريجنالدونجت حاكم السودان وسردار الجيش المصري ويحتوي على عشـرة بنود ويبـدأ بـأن البحث عن المعـادن الخالصة والمشوبة والمـواد المعدنيـة والحجارة الكريمة سواء كانت في بـاطن الأرض أو على سطحها هي جميعاً ملك الحكومة وقد أصدرت هذا الأمر وبمقتضاه يمكن الحصول على رخص البحث عن المعادن واستخراجها.

يحدد القانون في البند (٢) نوعين من الرخص التي يمكن الحصول عليها وهي:

١ ــ رخصة بحث عامة (General Pros-pecting License)، يقدم طالبها طلباً مكتوبـاً يشتمل على التفصيلات الآتية:

(أ) اسم الطالب وعنوانه وجنسيته.

(ب) القسم الذي يـرغب الطالب إجـراء البحث ضمن دائـرتـه.

٢ ــ رخصة بحث خصوصية (Exclusive Prospecting License)، يقدم للحصول عليها طلب مكتوب يشتمل على:

(أ) اسم الطالب وعنوانه وجنسيته.

(ب) موقع وحـدود الأرض المقدم بشـأنها الطلب مع بيان مساحتها.

(ج) عما إذا كانت الأرض المقدم بشأنها الطلب في حيـازة خصوصيـة أو منتفـع بهـا أو مستعملة بأي طريقة كانت كلها أو بعضها مع بيان مقدار ذلك البعض.

(د) المعـادن الخالصـة والمشوبـة والمواد المعدنية والحجارة الكريمة التي يراد البحث عنها ويجدد القانون في البند (٦) الحقوق والامتيازات والشروط والنصوص التي منحها الحاكم العام على الرقعة في كل حالة على حدتها.

حقوق وامتيازات رخص البحث العمومية

١ ــ تخول لصاحبها حق البحث شخصياً مع عماله وفعلته على جميع المعادن الخالصة والمشوبة والمواد المعدنية والحجارة الكريمة في كل الأراضي المتروكة الكائنة في القسم أو الأقسام المبينة في الرخصة وتخرج منها الأراضي الداخلة مؤقتاً في رخصة بحث خصوصية وكذلك حق البحث في الأراضي التي في الحيازة الخصوصية الكائنة في القسم أو الأقسام.

ويكون مالكها أو المنتفعون بها قد وضعوها تحت تصرفه لهذا الغرض.

٢ ــ مـدة رخص البحث العموميـة سنـة واحدة.

٣ ــ لا تنتقـل هـذه الرخصة للغـير إلا بموافقة الحكومة.

٤ ــ لا تتـرتب عليها حقـوق وامتيـازات خاصة.

حقوق وامتيازات رخصة البحث الخصوصية

١ ــ تخول لصاحبها دون غيره حق البحث لشخصه أو بواسطة وكيله المسمى مع عمـاله وفعلته عن المعادن المعينـة في الرخصة وضمن دائرة الأرض المحدودة واتسـاع هذه الأرض يحـدد تحديـداً واضحاً في الرخصـة. وهـذه الرخصـة لا تخول لصـاحبهـا حق البحث في الأراضي التي في الحيازة الخصوصية إلا برضـاء ملاكها أو الذين ينفقعون بها.

٢ ــ مدتها سنة واحدة وفي نهايتها إذا تبين للحاكم العام أن صاحب الرخصة قـد أجرى البحث المقبول وأنه اتبع من كل الوجوه أحكام

هذا القانون ونصوص رخصته يكون له الحق بعد دفع الرسوم المعنية بأخذ رخصة جديدة عن الجزء الذي يختاره من الأرض التي كانت داخلة في رخصته السابقة بشرط أن الأرض التي يختارها لا تتجاوز نصف الأرض التي كانت داخلة في رخصته السابقة وأن تكون قطعة واحدة.

٣ ــ لا تنتقل هذه الرخصة للغير. ولا يجوز تحويل حقوقها أو حقاً منها أو ترتيب أي حق كان عليها إلا برضاء الحاكم العام.

٤ ــ تخول الرخصة حقوقاً ممتازة بنص صريح وذلك بحسب استصواب الحاكم العام.

حقوق وامتيازات وشروط أخرى على الرخص

١ ــ لصاحبها أن ينقل ويتصرف بجميع المعادن الخالصة والمشوبة والمواد المعدنية والحجارة الكريمة التي تستخرج أو تكتشف أثناء عمليات البحث وذلك بعد دفع الرسوم المعنية.

٢ ــ يجب عليه أن يقدم بلاغاً إلى الحاكم العام عما يكتشفه من الذهب والفضة والحجارة الكريمة قبل أن ينقله للغير أو يرسله إلى الخارج.

٣ ــ له الحق أن يباشر ما يلزم فقط من العمل لاختبار حالة الأرض المعدنية ويداوم عليه إلى أن يتم اختباره.

٤ ــ يجب عليه أن يسمح للحاكم العام أو لأي مندوب من رجال الحكومة ينتدبه الحاكم العام للتفتيش في جميع الأوقات المناسبة على أي عمل يتم بموجب الرخصة أو لا يزال تحت العمل.

٥ ــ عليه إبراز رخصته عندما يطلبها منه أحد رجال الحكومة أو أي شخص آخر بيده رخصة بحث بشرط أن يكون للأخير رخصة أيضاً.

٦ ــ تلغى رخصة البحث إيجازياً بدون محاكم إذا خالف صاحبها أو وكلاؤه أو خدمه أو عماله أو خرق شرطاً من شروطه نصاً من نصوص هذا القانون.

٧ ــ المحاكم القضائية المؤسسة في السودان هي المحاكم التي لها وحدها



□ ريجنالد ونجت، حاكم عام السودان.

الاختصاص بفصل المسائل أو المنازعات التي تحصل بين الحكومة وبين صاحب الرخصة فيما يختص برخصة البحث.

٨ ــ كل شخص سواء كان بيده رخصة أولاً إذا أرسل إلى الخارج أو نقل إلى الغير ما يكتشفه من الذهب أو الفضة أو الحجارة الكريمة بدون أن يكون قد سبق وقدم بلاغاً عما اكتشفه إلى الحاكم العام يضاف ما اكتشفه مع النقود أو المنفعة التي تحصل عليها إلى جانب الحكومة وعلاوة على ذلك يعاقب بغرامة غايتها ١٠٠ جنيهاً مصرياً وإن تأخر عن دفع الغرامة يعاقب بالحبس لمدة غايتها ثلاثة شهور.

وكل شخص يجري البحث عن المعادن الخاصة والمشوبة والمواد المعدنية أو الحجارة الكريمة في أرض تكون في حيازة خصوصية أو في أرض متروكة بدون أن يكون بيده رخصة بحث وكل شخص يباشر أو يشتغل في حفر مناجم بدون رخصة لحفر المناجم أو تصريح كاف من الحاكم العام يعاقب بغرامة غايتها ١٠٠ جنيهاً

مصرياً وإن تأخر عن دفع الغرامة يعاقب بالحبس لمد غايتها ثلاثة شهور.

غير أنه يجوز لصاحب أرض أن يجري البحث في الأرض التي تحت حيازته بدون رخصة بحث بشرط أن يقدم بلاغاً أولاً عن ذلك إلى الحاكم العام[٨].

صدرت أيضاً مذكرة من الحاكم العام تحوي الشروط التي يجب أن تتوفر لكي تتم بموجبها عمليات التعدين في السودان. وقد حدث أن تعدل قانون رخص البحث لسنة ١٨٩٩ في عام ١٩٠٦.

كيفية الحصول على رخص البحث

يقدم الطالب طلباً مكتوباً لمصلحة الأراضي يكون مستوفياً البيانات الأساسية المنصوص عنها في القانون، فإذا وافقت الحكومة على هذا الطلب تحول له الرخصة بعد دفع مبلغ ٢٥ جنيه مصري للبحث لمسؤوليته وبدون تحمل الحكومة لأية خسائر تحدث ولمدة سنة تحدد بدايتها ونهايتها في الرخصة كما تحدد المعادن التي يريد البحث عنها وفي غالبية الرخص تحدد هذه بالمعادن الخالصة والمشوبة والأحجار الكريمة.

يستثنى من المعادن البترول. وقد منحت رخصة بحث عن البترول في عام ١٩٢٣ لشركة (The D'Arcy Exploration Co.) للبحث في منطقة البحر الأحمر وقد انفردت بهذه الرخصة بعد مفاوضاتها مع الحكومة شركة سودان ماركنتايل[٩] (Sudan Mercentile Co.) كما لا يشمل حق البحث الأراضي الآتية:

(أ) أراضي متعاقد عليها أو داخلة في منطقة بحث أخرى مرخصة للغير.

(ب) أراضي تستخدمها الحكومة في أعمال عامة.

(ج) أراضي زراعية.

(د) أراضي تعلن الحكومة أنها غير مفتوحة للتنقيب.

(هـ) أراضي على بعد أو خلال ١٠٠ متراً من أي منزل مسكون إلا بموافقة الساكن.

(و) أراضي تبعد ١٠٠ متراً من أية مباني حكومية، سكك حديدية، قنوات أو أي منشآت عامة تخص الآثار بدون موافقة الحكومة.

(ز) لا يحق لصاحب الرخصة مزاولة عمله في مناطق خاصة بالأهالي.

هذه الرخصة لا تعني بداية العمل في التنقيب وإنما هي موافقة للدخول للمساحة المعنية والمبينة في الرخصة للدراسة والاستكشاف والحصول على النتاج التي بمقتضاها يقرر سواء بتجديد الرخصة أو عدمه وغالباً ما تجدد لسنة واحدة بنفس الرسم السابق إذا رأت الحكومة أن المرخص له يدير أعماله ويوجهها بطريقة سليمة ونافعة ويكون التجديد بواسطة مصلحة الأراضي أيضاً وقد تعلن الحكومة رفضها لتجديد أية رخصة بعد إعلانها في الغازيتة الرسمية لذلك يشترط أن يتقدم طالب التجديد بطلبه قبل ١٤ يوماً من انتهاء مدة الرخصة للمرخص له أن يختار المنطقة التي يود التنقيب فيها كما يحق له في حالة الرخصة المجددة، أن يختار منطقة معينة لعمله على أن لا تزيد المساحة عن ٢ كيلومتراً × كيلومتر واحد في العرض وتحدد هذه المساحة بعلامات بارزة في أطرافها حسب اللوائح المعمول بها وتكتب على الحامل المرتفع البيانات الآتية:

(أ) الموقع.

(ب) اسم حامل الرخصة.

(ج) تاريخ بداية العمل.

(د) نمرة الرخصة.

وتقدم خريطة بهذا لمكتب الأراضي بالخرطوم وعليها نفس البيانات السابقة[١٠].

وعلى صاحب الرخصة أيضاً أن يرسل نتيجة دراسته إلى مدير الأراضي خلال ١٤ يوماً من اكتمالها ويرفق معها خريطة تبين الموقع الجغرافي وحدود مساحة البحث.

لا يعني تسجيل منطقة التنقيب ضماناً صريحاً من الحكومة بأن هذه المنطقة لها صلاحيات معينة بالنسبة للأرض التي تشملها.

يكون المرخص له متمتعاً بحقه في البحث في منطقة الرخصة الممنوحة له ولكنه لا يعطى الحق في اختيار منطقة عمل أخرى بمقتضاها مالم ترسل ملاحظاته بهذا الشأن لمساعدي مدير الأراضي.

عليه أن يبدأ عملياته بعد ستة شهور من تسجيل المنطقة بواسطة الحكومة وأن يكون



□ محمد علي باشا، استعان بالباحث الأوروبي روسيجر وجماعته من النمسا عام ١٨٣٥ للبحث عن الذهب وزودهم بألف جندي.

العمل مستمراً ولا يتوقف لأكثر من ٩٠ يوماً إلا بموافقة الحكومة وبتصريح مكتوب من الأراضي.

على المرخص له أن يحتفظ بسجل مضبوط للعمل والعاملين وأن يمد مدير الأراضي بالمعلومات الخاصة بهذا في أورنيك خاص يقدم مرة كل ثلاثة شهور.

في أثناء سريان هذه الرخصة أو عند تجديدها لفترة قادمة يحق لصاحبها المطالبة بالحصول على عقد للتنقيب في المنجم (Mining Lease) في أي مساحة من منطقته يحددها حسب اختياره على خريطة ولا تزيد المنطقة المتضمنة في أي عقد عن ٢ فداناً في حالة الأراضي على الأنهار ولا تربو على ٢٠٠ فداناً في كل الحالات إلا في حالة التنقيب عن الفحم ولا تزيد مساحته عن ١٥٠٠ فدان ويكون الايجار السنوي بواقع ١ جنيه عن الفدان الواحد ويدفع في حالة الفحم ١٢ قرشاً.

بمجرد منح العقد لأي جزء من منطقة التنقيب بمقتضى الترخيص يسقط حق صاحب الرخصة في المطالبة بالتعاقد على الأجزاء المتبقية من المنطقة بمقتضى الرخصة ويسلمها للأراضي وتستبدل بالعقد.

لا تنتقل هذه الرخصة للغير إلا بموافقة الحكومة، وبعد دفع رسوم الانتقال للجهة المتعاقد معها.

إذا وجد المنقب شيئاً من الآثار فعليه إخطار الحكومة بذلك حسب قانون الآثار لعام ١٩٠٥.

صاحب الرخصة مسؤول عن الأشخاص الذين يستخدمهم في عملياته من حيث السكن والصحة وبعد نهاية أعماله ورجوعهم إلى أماكنهم بدون مسؤولية الحكومة عن هذا الأمر.

يدفع المرخص له تكاليف تصرفها الحكومة على ترحيلات البوليس لحفظ النظام وسلامة العاملين في منطقة التنقيب. وعليه أيضاً أن يسهل مهمة الحكومة في تفتيش المنطقة بواسطة مفتش المديرية ــ المأمور ــ أو أي ضابط يعين لهذا الغرض وأن يبرز رخصته متى ما طلب منه شخص ذلك.

كما يقوم بتسجيل عنوانه لدى مصلحة الأراضي ويخاطب الحكومة عن طريق هذه المصلحة.

تلقى الحكومة الرخصة إذا حدث إخلال أو نقص لأي من الشروط الواردة فيها وإذا ثبت أن المرخص له لم يتمكن من معالجة هذا الخلل وإصلاحه.

عقد المناجم The Mining Lease

ينص في الترخيص الذي يسمح للمرخص له دخول المنطقة ودراستها تمهيداً لاختيارها للعمل لاستخراج المعادن، بأن له الحق أن يختار جزءاً من هذه المنطقة ويطالب بالحصول على العقد الذي يخول له المشروع في فتح المنجم أو استغلال ما به من معادن. والسلطة التي تمنح العقد هو الحاكم العام. توضح في العقد كل الحقوق والامتيازات الواردة في الرخصة ولكن مدة التعاقد بالعمل بمقتضاه تكون لفترة ٢١ عاماً قابلة لتجديد مدة مماثلة على أن يدفع المتعاقد إيجاراً سنوياً عن العقد بواقع ٢٥ جنيهاً مصرياً كما يمكن أن يمد فترة التعاقد لأكثر من هذا على حسب الاتفاق مع الحكومة كما يتفق أيضاً على الضريبة والايجار السنوي حسب الفئات التي تحددها الحكومة على معظم المعادن فيما عدا الماس الذي تعتبره الحكومة ملكاً لها ويجب أن يسلم حالاً حال العثور عليه.

يدفع المتعاقد في كل سنة الإيجار الجاري كما يدفع أتاوة عن الانتاج تقدر بنسبة ١٠٪ من الفائدة الموزعة(١١).

كما تدفع نسبة ٢٪ من قيمة المعادن المستخرجة بحساب سعر السوق بلندن.

إذا حدث في نهاية فترة العقد أن المتعاقد قد نفّذ أعماله بصورة مرضية تحت الاتفاقية وتقدم بإخطار الحكومة قبل ستة شهور بذلك كتابة يعطى فترة عشرة سنوات أخرى بنفس الشروط الواردة في العقد الأول.

للمتعاقد أن ينهي هذا العقد وذلك بإشعار للحكومة وعندها يعطى مدة ثلاثة شهور ليتمكن من إبعاد ممتلكاته وأن تبقي شيء منها بعد انقضاء المدة تصبح ملكاً للحكومة بدون أن تدفع تكاليفها أو تعويضاً عنها.

لا تزيد مساحة أي منجم على الأبعاد التالية:

الذهب	٦٤ هكتار
الفضة	٦٤ هكتار
المعادن اخرى	١٢٨ هكتار
الفحم	٥١٢ هكتار

قلنا أن منح العقد من اختصاص الحاكم العام ويوقع عليه من جانب الحكومة مع توقيع المتعاقد سواء كان شخصاً أو شراكة. وقبل هذا العقد شرحنا الشروط الواردة في الرخص حتى يصل الفرد أو الجماعة إلى العقد. تشترك معه في هذه الاجراءات مصالح كثيرة أولها مصلحة الأراضي ثم مصلحة السكرتير القضائي — وعليهما متابعة الأداء في عمليات البحث في منطقة التعدين بعد الحصول على العقد.

كما على مدراء المديريات الإشراف على المناجم ومتابعة الأداء بها ويقوم الجيولوجيون بدورات تفتيشية مستمرة على المنجم كما يهم هذا النشاط السكرتير المالي من ناحية الأموال التي تجيء من هذه المناجم سواء عن الرخص أو العقود أو الإتاوات المفروضة على الانتاج. ثم تهتم أيضاً مصلحة المساحة بالتعديل وتحتفظ بالخرط التي تصلها من الجهات التي تقوم بالتنقيب حسب ما هو متفق عليه في الرخص والعقود.

بموجب الاتفاقيات تحتفظ الشركة أو المنجم بسجل للحسابات ويخضع هذا للمراجعة، كما على المنجم أن يقدم بلاغات بالأشياء والمعادن التي يكتشفها والكميات التي بيعت وأثمانها للحكومة ولمكتب الأراضي.

كثيراً ما تراكمت الطلبات على مكاتب الأراضي بشأن الحصول على رخص البحث وفي هذه الحالة تقرر وتعطى الرخص على حسب الأسبقية.

كما أن الحكومة تعتمد إلى حد بعيد في منحها للرخص والعقود أن يكون الشخص قادراً مالياً على تنفيذ برامج التعدين وأن تكون له خبرة في هذا المجال. فكثيراً ما تصدق وترفض الطلبات في حالات لا تتوفر في المتقدمين الشروط والمؤهلات ولذلك كان الذي يحظى برخصة يتعاقد مع شركة معروفة ويعتمد على ضماناتها المالية.

ثم هناك عقبة كبيرة تحول دون الحصول على الرخصة وذلك بأن تكون المنطقة المحددة للبحث والمطلوبة لهذا الغرض من قبل مقدم الطلب داخله مسبقاً في منطقة بحث خصوصية تعاقدت الحكومة مع طرف آخر أو أن تكون في



▫ صاغة سودانيين، وطريقة عرضهم التقليدية لحلي بلادهم المحلية الصنع.

منطقة مقفولة (Closed District) حسب قانون المناطق المقفولة وهذه المناطق غير مسموح بدخولها إلا بموافقة السكرتير الاداري للحكومة.

نماذج من الشركات التي عملت في مجال التعدين في السودان

تلقت مصلحة الأراضي العديد من الطلبات لرخص البحث عن المعادن في السودان منذ مطلع فترة الحكم الثنائي ذلك لأنها هي الجهة الرسمية التي تقدم لها هذه الطلبات حسب ما ورد في الرخص الصادرة من الحكومة.

تقدم المستر جولدبيرج (Mr. Goldberg) بطلبه للمصلحة في تاريخ ٢٨/٥/٣٠ طالباً منحه رخصة بحث عن الأحجار الكريمة في مساحة حدودها ٤٠٠ × ٤٠٠ ميلاً في الخريطة وقال أنها تقع في منطقة دنقلا وقد ردت عليه مصلحة الأراضي بأن هذه المساحة كبيرة جداً ولا تقع في مديرية دنقلا وحدها كما تبين الخريطة ولكنها تشمل مديريات البحر الأحمر، كسلا، كردفان، الخرطوم، بربر، النيل الأزرق بالاضافة إلى دنقلا وورد في خطاب الأراضي بأن الحكومة لا تعطى ترخيصاً إلا إذا اقتنعت بأن المراد الترخيص له سواء كان فرداً أو شركة قادراً مالياً على القيام بهذه المهام(١٢)..

وقد ذكر مقدم الطلب أنه يطمع في الرخصة لخمس سنوات بدون دفع ضرائب وإذا نجح في الاكتشاف تمد فترته إلى ٥٠ سنة وفي حالة عثوره على أحجار كريمة يدفع للحكومة ١٠ ٪ من فائدتها.

ومثال آخر يبين دور مصلحة الأراضي في تنسيقها لعمل التنقيب كطرف هام في تسيير عمليات التعدين في البلاد. منحت رخصة بحث عادية لمنطقة أم نباردي في ١٩٣٤ للمسمى لورنزاتو واخوانه(Lorenzato Brothers) ويبدو انهم لم يوافقوا في الحصول على نتائج طيبة فخاطبوا الأراضي بأن تجدد لهم التخريص لسنة أخرى بدون دفع الرسوم فجاء رد مدير الأراضي بأنه لا يمكن التخلي عن دفع مبلغ الـ ٢٥ جنيهاً وهي الرسوم المنصوص عليها في القانون وعليه فقد امتنعوا عن تجديد الرخصة وانتهت في ١٩٣٥/٣/٣٠(١٣).

ومثال ثالث رفع مستر هـ ويزر (Mr. H. Wither) طلبه بتاريخ ٢٦/٤/٢٩ للبحث عن النحاس في منطقة تسمى بحفرة النحاس على بعد ميل غرب نهر الأبلاشر ــ أحد روافد بحر العرب ــ وقد جاء رد المصلحة على هذا الطلب بأن هذه المنطقة قد سبق التعاقد عليها بين الحكومة وآخرين وما زال التعاقد سارياً(١٤).

يتضح مما سبق أن مصلحة الأراضي تقوم بتنسيق عمل التعدين فيما يختص بمنح الرخص والامتيازات وتحتفظ بسجلات تتضمن الرخص الممنوحة والشركات التي تعمل بمقتضى هذه

الرخص ولعل القائمة التالية تبين جانباً من هذا التنظيم إذ تبين إحصائية بالرخص والشركات التي تحملها من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٢٧ وتتعامل مع المتقدمين للطلبات بإمدادهم بمثل هذه الإحصاءات ليكونوا على بينة من أمرهم وهم يتقدمون بطلباتهم للحصول على رخص البحث.

قائمة تبين الرخص الممنوحة والنتائج التي ترتبت عليها من سنة ١٣ إلى سنة ٢٧

السنة	مقدم الطلب	منطقة الرخصة	النتيجة النهائية
١٩١٣	فرانسيس نورتون	بربر ٢ × ١ كيلومتر	انتهت في ١٥/٣/٣١
١٩١١	شركة جبيت	البحر الأحمر هيل	عقد منجم ١٣/١٢/٢٠
١٩١٤	شركة السودان الذهبية	بربر / أم نباردي	بدأت في ١٩١٩/٩/١٧
١٩١٦	شركة السودان الذهبية	حلفا / ام كروش	انتهت في ١٩/١١/٣٠
١٩١٩	شركة السودان الذهبية	البحر الأحمر	
١٩١٩	شركة السودان الذهبية	سنار / خوربايوس ومنطقة مساحتها ٥ أميال حول أبو تقورو	تجددت الرخصة في ١٩٢٠/٤/٣٠
١٩١٩	شركة جبيت	البحر الأحمر	عقد لمنجم وادي أوبو في ١٩٢٠/٣/١
١٩١٩	شركة جبيت	أماتياب	تجديد الرخصة في ١٩٢٣/٩/١٥
١٩١٩	شركة جبيت	البحر الأحمر	ألغيت الرخصة في ١٩٢١/٤/٣٠
١٩١٩	الشركة الأثيوبية	سنار / خورتومات	١٩٢٠/١١/٣٠
١٩٢٠	شهرنهر الكنغو	بحر الغزال ومنقلا	—
١٩٢١	متعدد	بربر	مساحات للمايكا
١٩٢٤	وادي أبو للتعدين عن الذهب	البحر الأحمر	
١٩٢٤	جبيت	البحر الأحمر	
١٩٢٤	ج.د. قاولد	منجلا	تحولت إلى مشروع جديد بعد انتهائها لمشروع شركة نهر الكنغو للتعدين
١٩٢٧	لورنزاتو وأخوانه	البحر الأحمر ٤٥:١٩ خط عرض ١٥:٢٠ طول	١٩٢٩
١٩٢٧	شركة جبيت	البحر الأحمر في منطقة المنجم القديم في أوتيب	

هناك أيضاً طلبات لمساحات تكون خارجة أصلاً عن الحدود السياسية للسودان في ذلك الوقت، أي أنها تقع في الأقطار المجاورة وطبيعي أنها لا تجد تصديقاً وتبعد ما عدا بعض الحالات والتي تكون الشركة قد حصلت على ترخيص من الطرف الآخر الذي يكون الجـزء المتبقي من المساحة تابعاً له.

حدث أن تقدمت شركة سودان ماركنتايل (Sudan Mercantil Co.) بطلب للحصول على رخصة وقد جاء في خطابها للأراضي بهذا الطلب أنها تقدم للحصول على رخصة للتنقيب عن المايكا (Mica) في جبل نوبة (Jebel Nuba) بمنطقة الرهد بمديرية كردفان. ولكن مدير هذه المديرية رد على استفسار الأراضي والرامي إلى استشارية في الأمر حتى لا يكون هناك مانعاً في منح هذه الرخصة رد قائلاً بأنه لم يجد ما يسمى بجبل نوبة في منطقة الرهد فسأل مدير الأراضي هذه الشركة عن هذه المنطقة فرد مدير الشركة بأن هناك خطأ حدث في كتابة الموقع وصحح المعلومات لتكون جبال النوبة بمديرية كردفان. وقد منحت هذه الشركة الرخصة نمرة (٢٦) وانتهت في ٢٢/٧/٩ ولم تجـدد لعـدم توفقها عن العمل(١٥).

شركة السودان الذهبية
The Sudan Gold Field Hd.

هذه الشركة الانجليزية حصلت على رخص بحث وحقوق خصوصية للتنقيب في مساحات واسعة في السودان الشرقي وأهم أعمالها كانت في منجم أم نباردي (Um Nabardi Mine).

والجدول التالي يبين الرخص التي حصلت عليها هذه الشركة:

تاريخ الرخصة	الفترة	المساحة	الايجار	ملاحظات
١٩١٤/٧/٣١	٣ سنوات تجدد في ١٩/٨/٣١	مديرية بربر على ٢٠:٢١ عرض ٣٠:٣٣ طول	٥٠ جنيه	كانت عليها إتاوة بواقع ٢٠٪ من قيمة المعادن المستخرجة
١٩١٥/٢/٢٢	٤ سنوات من ١٣/٩/١ إلى ١٩١٩/٨/٣١	حول ام نباردي	٢٠,٧٥٠	خفض الايجار إلى ١٩,٧٣٠ تبعاً لتخفيض المساحة الكلية
١٨/١١/١٦	سنة قابلة للتجديد	شمال خط عرض ٢٠ في البحر الأحمر	٢٥	حقوق ممتازة في المنطقة المحظورة بين خطوط ٤ ــ ٢١ عرض ٢٠ ــ ٣٩ طول
١٩/٥/١١	سنة قابل للتجديد	البحر الأحمر منطقة فركوت Ferukut	٢٥ جنيه	
١٩/٢/٢٥	سنة قابل للتجديد	شمال خط عرض ١٨	٢٥ جنيه	
١٩/٤/٢٣		مديرية سنار	٧٥ جنيه	تشمل هذه الرخصة حقوقاً في خوريابوس Khor Yabus وحول منطقة أبو نقور Bungoro

كما يبين الجدول التالي العقود التي دخلت فيها هذه الشركة مع الحكومة نتيجة لنجاح عمليات البحث في بعض المناطق التي عملت فيها كما هو واضح من الجدول السابق.

التاريخ	الموقع	الايجار	الاتاوات
١٩٠٤/٢/١ لمدة ١٠ سنوات تجدد لمدة مماثلة	منطقة أم بناردي مديرية بربر	١٦١,٨٧٥	١٠٪ من الفائدة
١٩١٩/٤/١٧	مساحة جديدة بزيادة على مساحة المنجم القديم	٢٠٠,٥٤٠	

كما منح سير ونجت هذه الشركة امتيازاً بمد خط سكة حديدية لمنطقة المنجم في أم بناردي وحتى محطة نمرة (٦) وكانت تدفع الشركة إيجاراً مقداره (١٢) جنيهاً وقد وقعت معها الاتفاقية بهذا الخصوص في ١٩٠٥/٧/١ كما كان لها الحق بمقتضى هذه الاتفاقية أن تشيد المباني اللازمة لها وأن تحفر الآبار وخلافها.

ومن المناطق التي بقيت فيها هذه الشركة منطقة أم كروش (Um Kurush) التي تقع على بعد (١٨) ميلاً غرب محطة نمرة (٤) من سكة حديد السودان في ١٩٠٦/١١/١٤ لكنها لم تجدد هذه الرخصة في ١٩٠٧/٥/١ أي بعد انقضاء السنة الأولى من استخراجها[١٦].

كانت شركة السودان الذهبية تدفع للحكومة سنوياً إيجاراً يساوي ٣٨٣,٨٧٥ عن كل أوجه النشاطات التي تقوم بها في المساحات المرخصة والتي تعاقدت عليها[١٧].

يبين الاحصاء التالي كميات الذهب المنتجة في أربعة شهور وفوائدها.

الشهر	الأوقيات	الفائدة (بالاسترليني)		
		بنس	شيلين	جنيه
٧	٢٠٧,٦	١٠	٣	٧٤٦
٨	١٥٤,٥	٢	١٦	٥٥٦
٩	٢٣٣,٢٥	٥	٦	٨٥٥
١٠	١٩٤,١	٧	١٢	٧١٠
المجموع		**٠**	**١٩**	**٢٨٦٨**

تدفع الشركة للحكومة ضريبة بواقع ٢٪ من هذه الفائدة وهي محسوبة بسعر سوق لندن.

ثم توقف العمل في منجم أم نباردي.

عينت الشركة مستر كيتو (Mr. Kitto) ليخلف مستر وليم (Mr. H. William) المدير السابق للمنجم. وعند وصوله أجرى تفتيشاً عاماً أبرق بعده الشركة في لندن ناصحاً بضرورة التوقف عن العمل، وقد تلقى تعليمات بالموافقة على التوقف وكانت أسبابه في ذلك ما يلي:

توقف العمل في داخل المنجم وهجره الخبراء الانجليز وذهب الموظفون عنه ولم يبق به سوى المدير وما ذلك إلا لشح المنطقة ونفاذ المعادن وصعوبة استخراج المتبقى منه في المنطقة، كما أن الزراعة في منطقة بربر ودنقلا قد جذبت إليه الأيدي العاملة وتأثرت مالية الشركة من جراء التكاليف الباهظة التي تكبدتها في هذا العمل ومما ساعد على هجر العمل تفشي مرض الانفلونزا.

بيعت ممتلكاتها بمبلغ ٣٥,٠٠٠ جنيه مصري بما فيها المخازن والمعدات وكل الآلات في منجم ام نباردي[١٨].

شركة منجم جبيت The Gabait Tributing Syndicate Ltd.

من ١٩٢٩/٨/١١
From: 11th. August 1929
إلى ٣٥/١٢/٣١ To: 31 December 1935

تعاقدت مع الحكومة في ١٩١٣/١٢/٢٠ على التعدين في منطقة جبيت في مديرية البحر الاحمر على بعد ٦٠ ميلاً غرب محمد قول في مساحة تبلغ ٥٥٠ ياردة في الطول وحوالي ٢٢٠ ياردة في العرض. وحصلت على منحة لمدة ٣٠ سنة مع حق خاص وامتياز بالنسبة للمعادن المستخرجة وحق حفر الآبار ــ مدّ السكك الحديدية، شق الطرق، وإصلاح وتركيب المعدات في نظير أن تدفع للحكومة إيجاراً قدره ٢٤ جنيهاً مصرياً عن كل سنة تدفع في أول يناير كما تدفع عن المعادن ــ خلاف القيمة منها ــ ما قيمته ٢٪ من قيمة هذه المعادن محسوباً على سعر سوق لندن وتدفع ايضاً ضريبة قدرها ١٠٪ بالنسبة للاحجار الثمينة.

حصلت هذه الشركة على مناطق تعدين أخرى في المناطق الثانية بموجب رخص عديدة بالنمرة

□ شلالات الملح تكثر في دنقلا. كغيرها من المواد كالصوديوم والبوتاسيوم والماغنيزيوم





□ جسر مؤقت للعبور، يعود لعام ١٨٩٨.

٣٢ ــ ٣٦ ــ ٣٧.

قدم طلب بتاريخ ١٤/٤/٢٤ لرخصة للتنقيب عن الذهب في منطقة تبعد ½ ميل من منجم جبيت وقد وضح بأن هذه المنطقة كانت تنقب فيها شركة السودان الذهبية وقد انتهت مدة هذا المشروع وأرفق معه خريطة للمنطقة ومعها شيك بمبلغ ٢٥ جنيهاً قيمة رخصة لتبدأ في ١/٥/٢٤ وأن تكون المنطقة باسم جبيت شرق ــ بمشاورات بين مدير الأراضي ومدير البحر الأحمر والجيولوجيا وموافقة السكرتير المالي ليصدق له بهذه الرخصة تحت نمرة (٣٢)[١٩].

أما الرخصتان الباقيتان فكانتا لمنطقتين بالأسماء التالية:

١ ــ أونيب الكبرى
(Onib Major Mine[٢٠])

٢ ــ أونيب الصغرى
(Onib Minor Mine[٢١])

منطقة أونيب الصغرى تقع في وادي أونيب (Wady Onib) على درجات ٣٠:٢١ من خطوط الطول و ٣٥:١٥ من خطوط العرض في مديرية البحر الأحمر. تقدمت شركة جبيت للحصول على ترخيص للبحث في هذه المنطقة بعد أن فشل العمل في منجم أيو (Oyo) في شرق جبيت وقد سبق أن أجريت بهذه المنطقة عمليات تنقيب أجراها تايلور (John Taylor & Sons).

حصل مستر توماس كلارك (Thomas A. Clarke) على هذه الرخصة بالنيابة عن الشركة في تاريخ ١٤/١٢/٢٦ بعد أن انتهت الرخصة نمرة (٣٢) في ٣١/٥/٢٦.

ويبدو أن الشركة تحصلت على كميات لا بأس بها من الذهب حتى أغسطس ٢٤ من منجم جبيت ووادي أويو فكما ورد في تقرير مستر كلارك مدير هذين المنجمين أن مقدار الذهب من جبيت في ستة شهور بلغ ٧٧٢٢ وقية وقيمتها ٢٩,٨٣٦ جنيهاً. علماً بأن الحكومة تأخذ ضريبة عنها بواقع ٢٪ كما هو متفق عليه أما من أويو فبلغ ١٨٦٦ وقية وقيمتها ٦٦٠٦ جنيهاً وقد تعطل العمل به لتعطل المعدات المستخدمة في التعدين وانتهت مدة الرخصة في هذا المنجم في عام ١٩٢٦.

من الامتيازات التي حصلت عليها الشركة أنها حصلت على موافقة الحكومة على توقف العمل في منجم جبيت لمدة تفوق المدة المكتوبة في العقد والمحددة بثلاثة شهور كحافز لها في إعادة تجميع



□ الساحة العامة في أم درمان حيث كانت خواتم الذهب تباع في أسواقها.

رأس المال وإعادة فعالية العمل في المنجم ولاعادة تنظيم العمل به وقد تنازلت هذه الشركة عن ممتلكاتها بتاريخ ١٩١٩/١٢/٢٠ وبموافقة مكتوبة مع الحكومة. ●

المصـــادر

(١) Files of Lands — Glass (4) — Mines.
(٢) Sudan Govt. Gazzettle No. 8 Dated 2/1/1900.
(٣) Notes on The Mineral Deposits of the Anglo-Egyptian Sudan — By Stanley C. Dunn — 1911.
(٤) بحوث اقتصادية عن السودان: عبدالله فكري — طبعة ١٩٤٠.

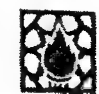
(١) بحوث اقتصادية عن السودان، عبدالله فكري أباظة، ص ٩٥، طبعة ١٩٤٠.
(٢) Notes on The Mineral Deposits Of The Anglo-Egyptian By Stanely C. Dunn — 1911.
(٣) Ditto.
(٤) بحوث اقتصادية عن السودان، عبدالله فكري، ص ٩٦.
(٥) بحوث اقتصادية عن السودان، عبدالله فكري أباظة، ص ٦٥، ١٩٤٠.
(٦) بحوث اقتصادية عن السودان، عبدالله فكري أباظة.
(٧) Sudan Govt. Gazzette No. 8 Dated 2/1/1900.
(٨) Sudan Government Gazzette No. 8 Dated 2/1/1900.
(٩) File No. M/125. Sudan Mercentile Co. Ltd. Prospecting for mice at Gabal Iruba, Rahad District.
(١٠) Regulations for Demacration of Prospecting Areas.
(١١) تدفع مخصصات للحكومة قبل توزيع الفوائد على المساهمين وحملة السندات والقروض
(١٢) Mines/102-27 Mr. B. Goldberg — Mineral Prospecting in the Sudan
(١٣) M3102-45: Lorenzato & Brothers.
(١٤) M3102-22: Henry J. Wither — Enquiry Re-Mineral Prospecting in the Sudan.
(١٥) File No. M/125: Sudan Mercentile Co. Prospecting for Mice — Rahad District.
(١٦) File No. A & L 18/mines. Sudan Goldfield Ltd.
(١٧) Ditto.
(١٨) File No. 18/Mines. Sudan Goldfield Ltd.
(١٩) File No. M/127: The Wady Oyo (Sudan) Gold Mining Co.
(٢٠) File No. M/103: Gabail Gold Mines (LTD.).
(٢١) File No. M/106: Wady Oyo Gold Mining Syndicate.

من مصادر التاريخ المصري

محمّد زكي رَاغب

جانب من معالم معبد الكرنك بالأقصر

الدلتا والصعيد



حوالي عام ٢٤٠٠ قبل الميلاد. كانت الحضارة المصرية قد وصلت إلى درجة متقدمة إلى حد ما وقد انقسمت مصر إلى مجموعتين من الأقاليم. إحداهما في الشمال يحكمها ملك، وأخرى في الجنوب ويحكمها ملك آخر.

وكان لملك الدلتا تاج خاص به ذو لون أحمر، ولملك الصعيد تاج ذو لون آخر. وفي وقت من الأوقات تغلبت الدلتا على الصعيد وكونت مملكة واحدة، وأصبحت مدينة «هيراقونيوليس» ومكانها الآن الكوم الأحمر، وكانت تسمى «نخن» الواقعة شمال مدينة «ادفو»، مركزاً رئيسياً لممارسة الطقوس الدينية في العصر الذي نسميه عصر ما قبل الاسرات.

ولم يعد أمر الاتحاد الأول في مصر فرضاً من الفروض كما كان من قبل. بل أصبح الآن حقيقة ثابتة. وكانت عاصمة تلك المملكة الموحدة هي «هليوبوليس» الواقعة على مقربة من مدينة القاهرة الحالية.

ولكن قبل ذلك الاتحاد، كانت مدينة «بوتو» الواقعة في غرب الدلتا، عاصمة مملكة الدلتا. وقد اتخذ ملكها نبات البردي شعاراً له. وكانت مملكته تشمل الدلتا وجزءاً قليلاً من مدخل الصعيد. أما ملك الصعيد فقد كانت عاصمته في «الكاب» وهي تقع أمام الكوم الأحمر «هيراقونيوليس». وقد اتخذ نبات الزنبق أو ما يعرف باسم «سوت» شعاراً له، وامتدت حدود مملكته هذه حتى وصلت جنوباً إلى شلال اسوان. هذا وكان الملك، عند توليه العرش يعطى إلى جانب اسمه الأصلي اسماً آخر هو «الحوري». وكان يستخدم كلا الاسمين أو أحدهما. فلما توحد الشمال والجنوب، كان الملك يلبس تاجاً يجمع بين التاجين وهو التاج المزدوج، واحتفظ بلقب «حورس» كما كان يفعل الملوك من قبل.

وفي ذلك العهد شهدت مصر ولادة اختراع هام احدث تطوراً كبيراً في حضارتها، ذلك هو اختراع الكتابة واستخدامها على بعض الآثار في فترة ما قبل عصر الاسرات، وكان لظهور هذه الكتابة الأثر الكبير في الوقوف على كثير من الأحداث التاريخية التي جرت قبل عهد حكم الأسرة الأولى.

وبالرغم من انفصام عرى الاتحاد الأول بين الدلتا والصعيد واستقلال كل منهما عن الآخر، فإن روابط الاتصال بينهما ظلت قائمة ولم تتأثر كثيراً بذلك، إذ كان النيل يسهل التجارة بين البلاد، وكانت التجارة بدورها تساعد على نشر الثقافة. إلا أن ملوك الصعيد وحكامه كانوا يحاولون الاستيلاء على الدلتا كما تدلنا مشاهد الحروب والمعارك العديدة على آثار ذلك العهد.

وحدة وادي النيل

لقد استكملت مصر كثيراً من مقومات حضارتها بعد ظهور الأسرة الأولى، إذ شهدت ابان عهدها تقدماً في أساليب الزراعة ووسائلها وعرفت الكثير من نظم الري وخاصة في شق الترع. وتغلبت على الصحراء والمستنقعات فاستقطعت الكثير منها واحالته إلى بقاع صالحة للزراعة.. كما عرفت أيضاً طرق استخراج بعض المعادن وبخاصة الذهب والنحاس من مناجم الصحراء الشرقية واتقنت قطع الأحجار الصلبة وصنعت منها الأواني والقدور وعرفت صناعة النحت.. كذلك عرف المصريون استخدام الحجر في بناء بيوتهم وإن لم يستعملوه على نطاق واسع.. ففي ذلك العهد كان المصريون يعيشون في منازل مبنية بالطين أو من أغصان الأشجار أو النباتات. ومع ذلك، تقدموا في كثير من نواحي الفن، وأحسنوا استخدام مياه النيل، واتقنوا بناء الجسور لحماية أنفسهم من هجمات الغزاة. ودجنوا بعض الحيوانات النافعة لهم.

وهكذا يتضح لنا أن الحضارة المصرية قد استكملت معظم مقوماتها الحضارية ولم يكن ينقصها سوى القوة الدافعة. غير أن هذه الأمنية لم تلبث أن تحققت وذلك عندما ظهر زعيم قوي في جنوبي مصر هو زعيم إقليم «ثنى» الواقع بين جرجا والبلينا، فوحد البلاد كلها وأصبح أول ملوك مصر في عهد الاتحاد الثاني وهو الملك «منا»، وكان عهده إيذاناً ببدء عصر جديد.

ومن ناحية أخرى، فقد لعب ورق البردي دوراً كبيراً في نشر العلوم والآداب في العالم القديم

وما زال اسمه يحتل مكاناً مرموقاً في صناعة الورق.

ومن نبات البردي استخدم المصريون أليافه لصنع البرديات التي اكتشفت سليمة وكاملة في بعض مقابرهم مع الصور الملونة لبعض الطيور والحيوانات.

وللفراعنة فضل آخر لا يمكن إغفاله أو التغاضي عنه، فالمقابر المقامة في مدينة «طيبة» ومعابدها وما تحمله من رسوم ترمز لممثلي الشعوب المختلفة وهم يقدمون الجزية والهدايا إلى فرعون مصر، وكذلك الرسوم التي تمثل شعوب جزر البحر الأبيض وآسيا الصغرى وبلاد الرافدين وفلسطين والسودان وليبيا وغيرهم من الشعوب التي تحالفت معهم، كل هذه الآثار تشير إلى أن ممثلي تلك الشعوب ومعهم صناعات بلادهم المختلفة وأسلحتهم وخيرة إنتاجهم من محاصيل ومعادن وأحجار كريمة وغيرها كانت تقدم الهدايا الثمينة إلى فرعون مصر.

وكان نفوذ مصر الثقافي والتجاري في فلسطين كبيراً منذ أقدم العصور، كما كان للأدب المصري والغناء والموسيقى أثر مرموق في جميع الأزمنة وقد تزايد هذا الأثر في أيام حكم «أخناتون» الذي دعا إلى عبادة إله واحد وكانت تلك الدعوة هي الصيحة الأولى المعروفة في تاريخ البشرية التي تقرب من التوحيد الذي جاءت به الكتب السماوية فيما بعد.

وادي الملوك

هو واد مغلق ضيق يقع في البر الغربي للنيل، خلف صخور جبال مدينة طيبة الأثرية الغابرة. وهو من الناحية الجغرافية أخدود غير عميق تحيط به المرتفعات، يواجه من الناحية الشرقية معابد «الكرنك» التي تبعد عنه نحو ثلاثة كيلومترات.

وقصة اختيار هذا الوادي مكاناً لدفن الموتى من الملوك جديرة بالتسجيل، فقد رأى «تحتمس الأول» أن يختار قبره في واد منعزل خلف صخور «طيبة» حفظاً لجسده وصيانة له من أن تمتد إليه أيدي اللصوص.

وكان المصريون القدماء يعتقدون بالخلود. وكانت وسيلتهم لتحقيق هذا أن عنوا بأمر موتاهم وإعداد أماكن محصنة للدفن. ولم يدخروا وسعاً في إحضار حجارة التوابيت الضخمة من أماكن بعيدة. وقد كانت المقبرة في اللغة المصرية القديمة تعني «المقر الخالد لملايين السنين».

ومنذ العصور السحيقة حتى عهد ما قبل الاسرات، اختاروا مقابرهم على حافة الصحراء بعيداً عن أرض الوادي الزراعية التي تغمرها مياه الفيضان سنوياً، أو على سفوح التلال الصخرية حتى تكون بعيدة عن متناول أيدي اللصوص والعابثين، وكذلك لتكون بعيدة عن عوامل الفناء الطبيعية، كالرطوبة التي تحلل الأجساد وتفنيها.

كانت المقابر مجرد حفر بيضاوية أو مستديرة تحيط بها غرف واسعة، تحفر وسط الصخور، ويوارى فيها رفات الميت بعد أن يشكل على هيئة القرفصاء، وذلك بضم اليدين إلى جانب الرأس، والركبتين إلى الصدر وأسفل الذقن وذلك تمثيلاً بوضع الجنين في بطن أمه، ويزود بمجموعة من الأواني الفخارية وقد ملئت بأنواع الطعام كالحبوب والشعير بصفة خاصة والخضر واللحوم، وأسلحته من رماح وسهام، وأدوات الزينة، كالأساور والعقود المصنوعة من حبات الخرز والأحجار الكريمة، والأمشاط من العظم والصدف.

وهكذا زود المصري القديم نفسه بطعامه وشرابه وأثاثه وأدوات الصيد والقتال لينتفع بها في حياته المستقبلة حسب تصوره والتي كان يؤمن بها.

كان «تحتمس الأول» أول من شيد مقبرة له في وادي الملوك، وتلاه «تحتمس الثاني» الذي شيد مقبرته في بطن أخدود غير بعيد عن مقبرة الملك «تحتمس الأول».

أما الملكة «حتشبسوت» التي انتزعت الحكم من أخيها تحتمس الثاني، فقد شيدت لها مقبرتين، الأولى وتقع في منتصف جدار صخري يبلغ ارتفاعه نحو ١٠٠ متر في أقصى غرب الوادي، وأرادت أن تواجه مقبرتها من الناحية الشرقية معبد «الدير البحري» الذي أقامته. أما مقبرتها الثانية فقد شيدتها خلف الحاجز



□ جانب من طريق الكباش الواقع ضمن معبد الكرنك في مدينة الأقصر.

الصخري الذي يفصل بينهما وبين «الدير البحري»، وكانت تهدف من وراء ذلك أن تكون قاعة الدفن تحت غرفة مزار المعبد مباشرة، ولكن الذين شيدوا المقبرة لم يحققوا هدف «حتشبسوت»، إذ اتجهوا صوب اليمين لأسباب غير معروفة، وربما تعود إلى طبيعة الصخور أو إلى خطأ في الاتجاه.

وشيد «تحتمس الثالث» مقبرته في مكان صخري غير مطروق في أقصى جنوب الوادي، قريباً من مقبرة «تحتمس الثاني» وتماثلها في هندستها. واختار «امنحوتب الثاني» مقبرته في قاع أخدود في أقصى الجنوب، غير بعيد عن مقبرة «تحتمس الأول». وتلاه «تحتمس الرابع»، وقد شيد مقبرته بجوار مقبرة الملكة «حتشبسوت» القريبة من معبد الدير البحري. وفي هذه المقبرة حدث تطور في هندسة المقابر، فأصبح مدخلها اكثر فخامة من مداخل المقابر الأخرى. واختار «أمنحوتب الثالث» موقعاً جديداً لمقبرته في واد خلفي لم يسبق الدفن فيه، وهذه المقبرة أقل حجماً من بقية المقابر الملكية. أما «أخناتون» فقد شيد مقبرة له في وادي الملوك ولكنه لم يدفن فيها، لأنه نقل عاصمة ملكه إلى «تل العمارنة»، وهناك شيد له مقبرة تقع شرقي المدينة دفن فيها بعض الوقت، ثم نقل رفاته في عهد الفراعنة الذي تولوا العرش من بعده إلى وادي الملوك.

ودفن الملك «توت عنخ أمون» في مقبرة متواضعة في موقع يتوسط الوادي بجوار الملكة «تي» وأخناتون والد زوجته.

وشيد الملك «سيتي الثاني» مقبرته خلف مقبرة «تحتمس الأول» ولكن هذه المقبرة لم يتم العمل فيها. واختار الملك «ست ناخت» موقع مقبرته بجوار مقبرة «تحتمس الثالث»، وأثناء حفرها تداخلت فيها فاضطر إلى هجرها.

حدث بعد ذلك شيء جديد في وادي الملوك، فبعد وفاة «ست ناخت» تولت الحكم زوجته الملكة «تا أوسرت»، وكان وزيرها «باي»، فلما توفي شيدت له مقبرة في الوادي بالقرب من مقابر «ست ناخت» و «تحتمس الأول».

ولما مات الملك «رمسيس الثالث» لم يدفن في مقبرته التي شيدها إذ وجد أن أحجارها هشة فأهملت، ودفن في مقبرة «ست ناخت» بعد أن عدل فيها وجعلها تليق باستقبال موميائه.

وفي وادي الملوك اثنتان وستون مقبرة لملوك وأمراء الفراعنة، وقد ذكرنا فيما سبق أهم مقابر وادي الملوك.

وادي الملوك بعد الفراعنة

أوقف استعمال وادي الملوك كمقبرة للفراعنة سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد، واصبح في حراسة الدولة واعلن الكهنة أن هذا الوادي أصبح بقعة مقدسة لا يسمح لأحد بارتياده.

والواقع انه صار وادياً مهجوراً يرتاده لصوص المقابر الذين بداوا يمارسون هذا العمل منذ عهد الملك «اخناتون» سنة ١٣٧٥ قبل الميلاد حيث ضعفت سطوة الفراعنة، واختل النظام والأمن، فجرؤ اللصوص على نهب المقابر الملكية، ولما عجز الحكام عن إيقاف اللصوص عند حدهم ومنعهم من نهب المقابر والاستيلاء على الحلي الذهبية من المومياءات ثم تهشيمها فيما بعد، وتكسير الأثاث والأواني الجنائزية جمعوا ما استطاعوا جمعه من المومياءات التي نجت من التهشيم ونقلوها إلى مخبأ «الدير البحري، كما نقلوا بعض المومياءات أيضاً إلى مقبرة «امنحوتب الثاني». ولم ينج من أيدي اللصوص غير ثلاث مقابر، هي مقبرة الملكة «تي»، ومقبرة «توبو»، ومقبرة الملك «توت عنخ أمون». ومنذ اكتشاف مقبرة «توت عنخ أمون» لم يسمح بمزاولة الأعمال الحفرية في وادي الملوك الذي يحتضن معظم المقابر والآثار الفرعونية.

معبد الكرنك.

وهو من أهم مصادر مصر التاريخية، واقدم معالمها الأثرية واقواها تعبيراً واعمقها اثراً في نفس المشاهد، وهو معبد ضخم، مرتفع الجدران، عالي الأعمدة، واسع الأبهاء، طويل الدهاليز.

و «الكرنك» اسم كان يطلق على قرية صغيرة هي «ابت أسوت» وهي التي يوجد فيها الآن معبد «آمون»، الضخم الشهير وهذه القرية جزء من المدينة الكبيرة «طيبة» التي كانت عاصمة مصر في العهد الماضي.

وإذا حاولنا أن نتعرف إلى تاريخ الكرنك الذي لعب في يوم من الأيام دوراً هاماً في تاريخ مصر القديم فإنه لا بد لنا من معرفة الدوافع وراء بنائه، والظروف التي أدخلت عليه بعض الزيادات، ومراحل التطور، والظروف السياسية والعسكرية والكهنوتية التي مر بها.

وبالرغم من أن إقليم «طيبة» لم يلعب دوراً سياسياً هاماً في عصر الأسر الأولى، فإننا نرى أن شعار الاقليم قد ظهر كثيراً في الآثار التي اكتشفت في معبد الملك «منقرع» رابع ملوك الأسرة الرابعة.

ويظهر أن عقيدة «آمون» بدأت في الانتشار، في بداية ظهور الدين الجديد للمعبود آمون الذي انتشر انتشاراً واسعاً في إقليم «طيبة».

ولما أسس الملك «أمنحوتب الأول» الأسرة الثانية عشرة، واستقرت له الأمور، بدأ في بناء معبد «الكرنك»، ولكنها كانت بداية قلقة مضطربة، ثم اعتلى العرش بعده «الملك سيزوستريس»، فأمر بتشييد معبد ضخم عثر على أطلاله داخل نطاق منطقة معبد «آمون».

ومن أجمل الأبنية التي شيدت في ذلك العصر مقصورة كان «سيزوستريس الأول» قد أمر ببنائها، ولكن الملك «امنيوفيس الثالث» هدمها، واستعملت أحجار بنائها في تشييد البهو الثالث من معبد «آمون». وبقيت المقصورة مهدمة حتى حضر إلى مصر عالم الآثار الفرنسي «هـ. شفرير» عام ١٩٣٧ ميلادية، فأعاد بناءها شمالي المعبد الكبير.

وفي المرحلة الانتقالية الثانية، قبل الدولة الحديثة، كان أمراء «طيبة» قد بدأوا في محاربة الهكسوس واستطاعوا أن يهزموهم ويجلوهم عن الاقليم، وأن يتفرغوا لتوسيع معبد «آمون» وقد الحقوا به كثيراً من الأبنية، واقاموا فيه بعض النصب التذكارية التي أمكن العثور عليها حديثاً أثناء عمليات الحفر والتنقيب.

* * *

لقد شهد معبد «الكرنك» عصره الذهبي في عهد المملكة الحديثة، حين أصبحت «طيبة» عاصمة لمصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة. ففي ذلك العهد، نما بناء المعبد واتسع حتى كان مجموع البناء ثلاثة ابنية كبرى منفصل كل منها عن الآخر، ويحيط بها سور مرتفع من الآجر.

ومن المباني التي أمر «تحتمس الأول» بتشييدها داخل بناء معبد «آمون» مكان يتكون

□ إحدى المسلات الضخمة التي يرجع تاريخ بنائها إلى عهد الملكة «حتشبسوت».

من ثلاث صالات. وتعرف هذه الصالات الثلاث بالصالات الرابعة والخامسة والسادسة، وتؤدي جميعها إلى داخل معبد آمون الكبير. ثم أمر بعد ذلك بإنشاء مسلتين عند الصالة الرابعة، وهي الصالة التي كان يسلكها الملك في الدخول إلى المعبد.

ولما تولى «تحتمس الثاني» مقاليد الحكم، أمر بحفر اسمه على جدران المباني التي شيدتها الملكة «حتشبسوت» في منطقة المعبد الكبير، ومع أن هذه الظاهرة قد توحي باهتمام «تحتمس الثاني» بمعبد الكرنك، إلا أنه لم يثبت في مخطوطات عديدة أنه كان من أتباع عقيدة «آمون».

وكانت «حتشبسوت» ملكة قوية الشخصية فأمرت بتشييد كثير من الأبنية بالقرب من المعبد الكبير، بالإضافة إلى ما أمرت بإدخاله من الزيادات في معبد آمون نفسه، فأمرت ببناء بهو لمراكب الشمس واختارت له الجزء الأوسط من معبد تحتمس الأول، ثم أمرت ببناء عدد من الغرف على كل من جانبيه وهي ما تسمى الآن «بشق الملكات». وقد اقامت «حتشبسوت» إلى جانب ذلك أربع مسلات، اثنتان منها بين الصالتين الرابعة والخامسة، والأخريان عند الجدار الشرقي للبهو.

وعرف «تحتمس الثاني» بطموحه في توسيع حدود مملكته إلى أكبر حد ممكن. ولم يكن نشاطه المعماري بأقل من ذلك.. فقد أنهى بناء معبد «آمون» على مستوى واسع، وأضاف إليه بهواً رائعاً به عدة غرف وردهات صغيرة للمتعبدين، وقد أهدى هذا كله إلى المعبود «آمون»، ولكنه ذهب إلى حد المبالغة في التعبير عن حبه لنفسه، بعد أن ساءت العلاقة بينه وبين عمته الملكة «حتشبسوت». وهناك كثير من الشواهد في معبد «الكرنك» وإقليم «طيبة»، تدل على برودة إحساسه تجاه عمته، وقد عثر المنقبون على بقايا سجلات تصف تاريخه وحروبه والأحداث التي وقعت في عهده. وكان تحتمس الثاني يحرص دائماً على أن يبرز في مخطوطاته وسجلاته على جدران معبد «آمون»، إنه ملك مصر المحبوب.

تقلد مقاليد الحكم بعد ذلك الملك «امينوفيس الرابع» الذي اشتهر في التاريخ الفرعوني بحركته الدينية ودعوته إلى عبادة الإله الواحد الذي سماه «آتون»، وهكذا غير اسمه وأطلق على نفسه اسم «أخناتون».

وقد أعقب حركته الدينية تغيير إقامته في «طيبة» الموطن الأصلي لآمون، وانتقل إلى تل العمارنة وهو المكان الذي اختاره عاصمة لملكته وبنى لـ «أتون» معبداً جديداً، لم يدم طويلاً. إذ هدمه بعد موته كهنة «آمون» الذين استعادوا السلطة مرة أخرى.

وقد أثبتت الحفريات وجود معبد «آتون»، بل وحددت مكانه وعثرت على تمثال الملك «أخناتون» وهو تمثال ضخم يستند إلى أعمدة المعبد، كما عثرت على آثار أخرى ترجع إلى عهده أمكن التعرف إليها من خلال نقوشها التي تتميز بأسلوب فن العمارة.

تولى الحكم بعد «أخناتون» ابنه الملك «توت عنخ آمون». وإذا درسنا آثار هذا الأخير وعصره. فإننا نجد أنه بالرغم من كونه شاباً صغير السن، ضعيف البنية، وما خلفته حركة «أخناتون» من انقسام وعداوات، قد جعل مهمة تنظيم البلاد داخلياً أمراً غير يسير، وإن الأمر كان يحتاج إلى شخص قوي حازم لإصلاح كل ما فسد. ولكن «توت عنخ آمون» كان صغير السن لم يتجاوز التاسعة من عمره، وكانت الأمور بيد كهنة آمون الذين أخذتهم نشوة النصر واستبدت بهم..

ولكن مع هذا كله، ظل الفن في ازدهار مطرد وساهم «توت عنخ آمون» ببعض الأبنية في منطقة «الكرنك» وأهداها إلى معبد «آمون» ليس تعبيراً عن إيمان بعقيدة آمون، وإنما لتخليص نفسه من اتهامات الكهنة له بإخلاصه لـ «آتون» الذي دعا إليه أبوه من قبل.

ومات «توت عنخ آمون» وهو في ريعان الشباب إذ لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره، ودفن في قبر صغير ربما كان قد أعدوه لغيره، وملأوا حجراته الأربع، وكدسوا فيها الأثاث، وما اعتادوا وضعه مع رفات الملوك، ولونوا بعض الجدران على وجه السرعة.

ونحن إذ نقف اليوم على هذا القبر الصغير تستولي علينا الدهشة، ونسائل أنفسنا، كيف اتسعت هذه المساحة لما نراه في قاعات المتحف المصري من آثار كثيرة، وكيف يتلاءم هذا القبر المتواضع مع ذلك الأثاث الفخم الكبير، ويبدو أن الملك «توت عنخ آمون» لم يكن قد أعد لنفسه قبراً، فلما مات في هذه السن المبكرة وضعوا مع رفاته إلى جانب بعض الأثاث الشيء الكثير من المتاع الشخصي في ذلك القبر غير الملائم.

وعندما كشف عن قبر «توت عنخ آمون» وجدت باقة زهر صغيرة وضعتها الملكة الشابة الحزينة بيدها فوق صندوق المومياء الذهبي، فكانت تحية وداع لزوجها ورفيق صباها الذي تركها إلى العالم الآخر. ودام حكم «توت عنخ آمون» نحو عشر سنوات، عاش السبع الأخيرة منها في «طيبة» ومات دون أن يكون له ولد من بعده، ولم يتجه الكهنة إلى أمير من أمراء العائلة، بل وصل إلى العرش رجل غريب عن البيت المالك وهو «آي» الذي لعب دوراً كبيراً أثناء حياة «أخناتون»، وكان المدبر لانتقال «توت عنخ آمون» إلى طيبة، وصاحب الرأي الأول في البلاد.

تزوج «آي» من الملكة «عنخس آن» زوجة «توت عنخ آمون»، ولم يدم حكمه أكثر من ثلاث سنوات شيد خلالها بعض المباني كان أهمها هيكله الواقع في جبل مدينة «أخميم».

سيتي الأول

ليس هناك أي شك، في أن أهم الأبنية المعمارية في منطقة الكرنك، هو صالة الأعمدة الشهيرة التي بناها الملك «سيتي الأول» وأكملها فيما بعد «رمسيس الثاني»، وهي تقع بين الصالتين الثانية والثالثة، ويتصل بالصالة الوسطى من جانبيها الشرقي والغربي صفان من الأعمدة يتكون كل منهما من سبعة أعمدة، وفي المنطقة العليا لمراكب الشمس توجد عدة نوافذ مزودة بأعمدة من الحجارة، كما أن هناك فتحات أخرى تساعد على إدخال الضوء إلى الصالة. والنقوش والمخطوطات المنحوتة على الجدران الداخلية والخارجية للبهو، يمكن قراءتها وهي سجل لأعمال «سيتي الأول»،

خصوصاً الحربية منها، وانتصاراته في سوريا وفلسطين وليبيا، كما وأن هناك بجوار ذلك، مخطوطات أخرى تسجل انتصارات «رمسيس الثاني» على شعوب البحر الأبيض المتوسط وقد أمر «رمسيس الثاني» بإقامة تمثالين كبيرين له أمام البهو الثاني من حجر البازلت، كما أمر بتزيين الدهليز الممتد أمام هذا البهو بالنقوش والخطوط، ثم بنى طريق الكباش الموصل إلى المعبد من ضفاف النيل، أما الصالة التاسعة فقد وضع أمامها تمثالين كبيرين له ولزوجته الملكة «نفرتاي».

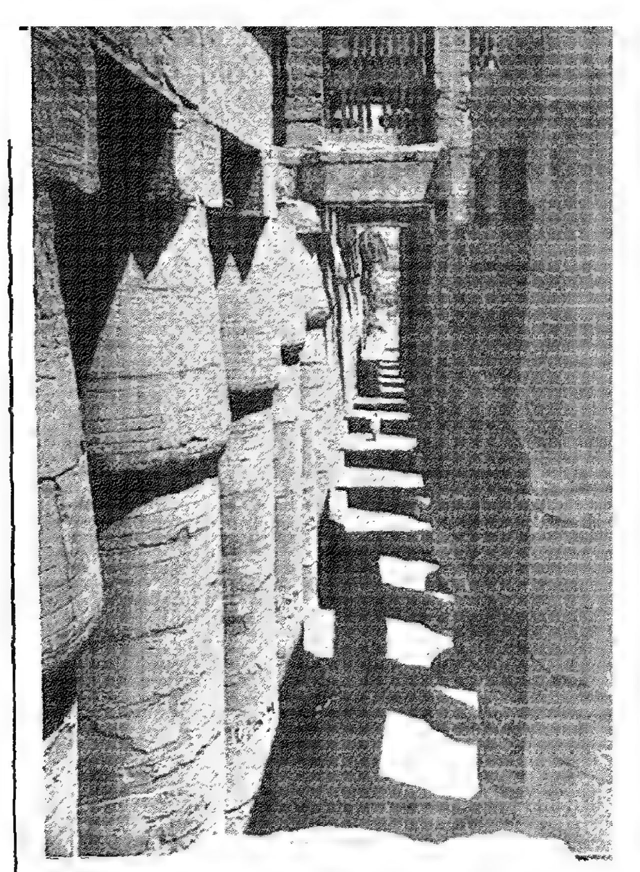
وخلف «رمسيس الثاني» على عرش مصر الملك «منربتاح» وقد ترك هذا الملك كثيراً من الآثار في منطقة الكرنك، وهي جميعها تحمل اسمه، ومن أهمها تلك المخطوطات المحفورة على جدران الصحن الشرقي والتي سجلت انتصاراته على ليبيا وشعوب البحر الأبيض المتوسط. أما «سيتي الثاني» آخر ملوك الأسرة التاسعة عشرة، فقد أمر ببناء صالة أمام معبد «موت»، وصالة أخرى أمام معبد «آمون» الكبير بالكرنك.

وقد ساهم ملوك الأسرة العشرين بأبنية كهنوتية في منطقة الكرنك ووهبوها لمعبد «آمون»، ولكن أبرز الأعمال المعمارية التي تنتسب إلى هذه الأسرة ترجع إلى عهد «رمسيس الثالث».

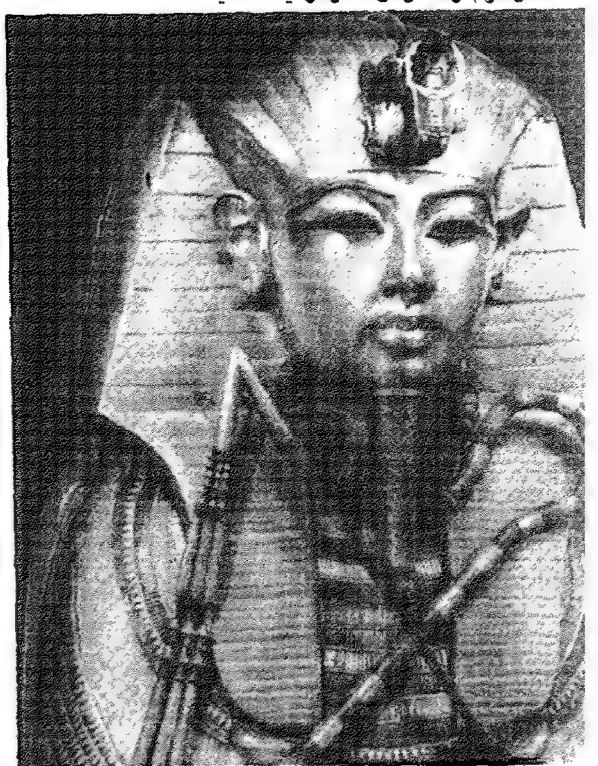
حكم الملوك الكهنة

بعد أن انطوت صفحة الأسرة العشرين استولى كهنة معبد «آمون» على ملك مصر، وهكذا كان ملوك مصر ابتداء من الأسرة الحادية والعشرين من الكهنة. وقد قاموا بتسجيل أسمائهم على جدران المباني التي بناها ملوك الأسر السابقة في منطقة الكرنك لمعبد «آمون» أما هم أنفسهم، فلم يقيموا بناءاً واحداً ولم يسهموا بعمل معماري واحد، ولكن علماء الآثار المصرية استطاعوا أن يقفوا على هذه الحقيقة وتأكدوا من مغالطات الملوك الكهنة وتضليلهم.

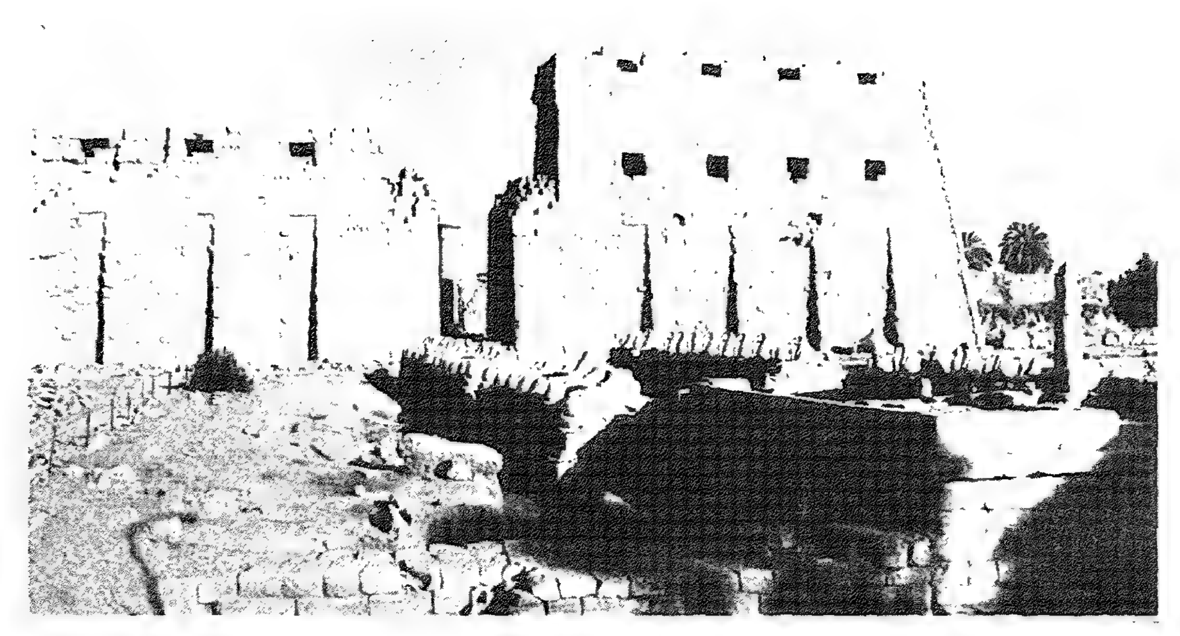
أما ملوك الأسرة الثانية والعشرين، فقد أثبتوا وجودهم في الكرنك ببناء بوابة ضخمة في الزاوية الجنوبية الشرقية للصحن الأول من معبد «آمون» بين معبد «رمسيس الثاني» والبهو الثاني.



□ بعض الأعمدة الضخمة التابعة لمعبد الكرنك تزينها الرسوم والنقوش الفرعونية القديمة.



□ تمثال الملك الشاب «توت عنخ امون»، وهو موضوع من الذهب الخالص.



□ بقايا احد المعابد الاثرية التي تضمها مدينة الأقصر.

عهد الاسكندر الأكبر

من المعروف أن الاسكندر الأكبر، بعد أن فتح مصر، لم يتوجه فقط إلى كهنة «آمون» في واحة «سيوه» بل أعلن أيضاً ارتباطه بمعبد «الكرنك»، وقد أحدث الاسكندر الأكبر بعض التغييرات المعمارية في الصالة الخلفية التي بناها «تحتمس الثالث» والتي نالت منها أيدي الأشوريين من التخريب أكثر من غيرها من أبنية معبد «آمون» وقد شملت هذه التغييرات بعض المخطوطات والنقوش التي أمر بحفرها على جدران المعبد، والتي كانت بمثابة التعابير الدينية القديمة.

ولما ورث البطالسة حكم مصر بعد موت الاسكندر الأكبر بنى «فيليب أرهيديدس» عند مركز معبد «آمون» الكبير وتحت مباني الملكة «حتشبسوت» مقصورة كبيرة من حجر البازلت، لتأدية الطقوس الدينية.

ومع أن أهل «طيبة» ومنطقة «الكرنك» ثاروا ثلاث مرات متوالية ضد حكم البطالسة، إلا أن ثوراتهم جميعها لم تأت بأية ثمرة، فقد استطاع البطالسة أن يقنعوا المصريين بأنهم ليسوا دخلاء عليهم، ولكنهم من سلالة الفراعنة، وقد لجأوا، كما فعل النوبيون من قبل، إلى المبالغة في تقديس «آمون»، وأقاموا له كثيراً من الأبنية بجوار معبده، هذا بالاضافة إلى النقوش والمخطوطات التي أمروا بحفرها على جدران المعبد القديم.

العصر القبطي والبيزنطي

عندما فتح «أوكتافيان ــ أغسطس» مصر سجل اسمه على جدران معبد الكرنك، كما فعل الاسكندر الأكبر من قبل، واعترف به كهنة آمون على أنه «ابن المعبود»، ولهذا سمح له بإقامة تمثال له في داخل المعبد.

ومنذ نهاية القرن الرابع الميلادي، كانت المسيحية قد وجدت طريقها إلى مصر وانتشرت في إقليم «طيبة» انتشاراً واسعاً، واعتنقها كثير من اهل الاقليم، بل أن كثيراً من كهنة «آمون» أنفسهم تخلوا عن دينهم القديم واعتنقوا المسيحية، وشرعوا في تحطيم التماثيل والصور والمخطوطات التي تمجد الوثنية وترمز لها، وأفنوا كثيراً من النقوش الوثنية على جدران المعبد الذي قلت قيمته وفقد هيبته في أعين العامة من المصريين. ثم زحفوا إلى المنطقة التي كانت يوماً مقدسة في أعينهم وسكنوها وبنوا بها منازلهم ولم تتوقف في هذه الفترة أعمال البناء لمعبد «آمون» فحسب، بل وإن كثيراً ممن اعتنقوا المسيحية دخلوا المعابد وحولوها إلى كنائس



بعض المعالم الأثرية التي خلفها المصريون القدماء في مدينة الأقصر التاريخية.

لممارسة الطقوس الدينية فيها.

الرهبانية في الدين المسيحي

لقد حوت تعاليم المسيحية كثيراً من بذور الزهد والرغبة عن الدنيا، مما يعتبر نواة لحياة الرهبانية والديرية في الديانة المسيحية، ففي هذا العهد الجديد انتشرت حياة الرهبانية وأصبحت شيئاً مألوفاً في العالم المسيحي قبل القرن الرابع للميلاد.

وكانت هناك عدة عوامل ساعدت على انتشار حياة الرهبانية بين المسيحيين في ذلك الوقت، أهمها ما تعرضوا له من اضطهادات وحشية من جانب الحكومة وعملائها في الولايات وهي الاضطهادات التي بلغت ذروتها في عصر الامبراطور «دقلديانوس» والتي جعلت المسيحيين يطلقون على الفترة الأخيرة من حكمه اسم «عصر الشهداء». كما اتخذ أقباط مصر سنة اعتلائه العرش عام ٢٨٤ ميلادية بداية التقويم القبطي وهكذا اضطر كثير من المسيحيين إلى الفرار بعيداً عن أعين الحكام لينقطعوا لمباشرة طقوس ديانتهم الجديدة في أمان وسلام.

وفي أوائل القرن الرابع للميلاد، وجد بعض المسيحيين فجوة واسعة بين تعاليم المسيحية وروحها وبساطتها ومثلها من ناحية، وبين المجتمع الروماني المحيط بهم. والذي اتصف عندئذ بالانحلال والفساد والجشع من ناحية أخرى، مما جعلهم يطمعون في حياة جديدة يحققون في ظلها المثل الروحية للديانة المسيحية. إذا أضفنا ذلك، إلى رغبة المسيحيين في الخلاص من العذاب الوحشي الذي تعرضوا له في عصور الاضطهاد، ادركنا في نهاية الأمر العوامل الأساسية التي ساعدت على ظهور الرهبانية في المسيحية.

وحياة الرهبانية بدأت لأول مرة في أرض مصر بالذات، وذلك بإجماع آراء المؤرخين، ولا ندري بالضبط السبب في ظهور الرهبانية المسيحية في مصر قبل غيرها من البلاد الأخرى التي عرفت المسيحية ووجدت فيها جاليات مسيحية في وقت مبكر.

ويبدو أن جو مصر المعتدل من ناحية وكونها جزءاً أساسياً من المسرح الأول للديانة المسيحية من ناحية ثانية، وتعرض المسيحيين لموجة من أعنف موجات الاضطهاد الديني التي شهدها العالم في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع من ناحية ثالثة، كل هذه وغيرها كانت، ولا شك، من العوامل الرئيسية التي مهدت الطريق أمام ظهور الرهبانية.

حملة نابليون بونابرت

كانت حملة «نابليون بونابرت» على مصر نقطة انطلاق جديدة في أعمال البحث عن آثار الكرنك، فقد سارت أعمال البحث منذ تلك الفترة طبق خطة منظمة، ووزعت الأعمال على علماء الآثار وكان من أنشطهم وأمثرهم حماساً، العالم الفرنسي «جيوفاني بلزوني» الذي أوقف أبحاثه للعثور على آثار «طيبة» و «الكرنك» واستمرت أعمال البحث حتى منتصف القرن التاسع عشر، حين تولى العالمان الأثريان الفرنسيان «مريت» و «ماسبيرو» إدارة الآثار المصرية في إقليم «طيبة»، فوضعا خطة أخرى أكثر إحكاماً من الأولى أتت بنتائج طيبة، حتى أنه يمكن القول بأن أعمال البحث عن آثار «الكرنك»، قد بدأت فعلاً منذ أن تولى العالمان الفرنسيان إدارة الآثار المصرية، ثم توالت بعثات علمية من دول أخرى غير فرنسا، شاركت في أعمال البحث والتنقيب من بينها بولندا.

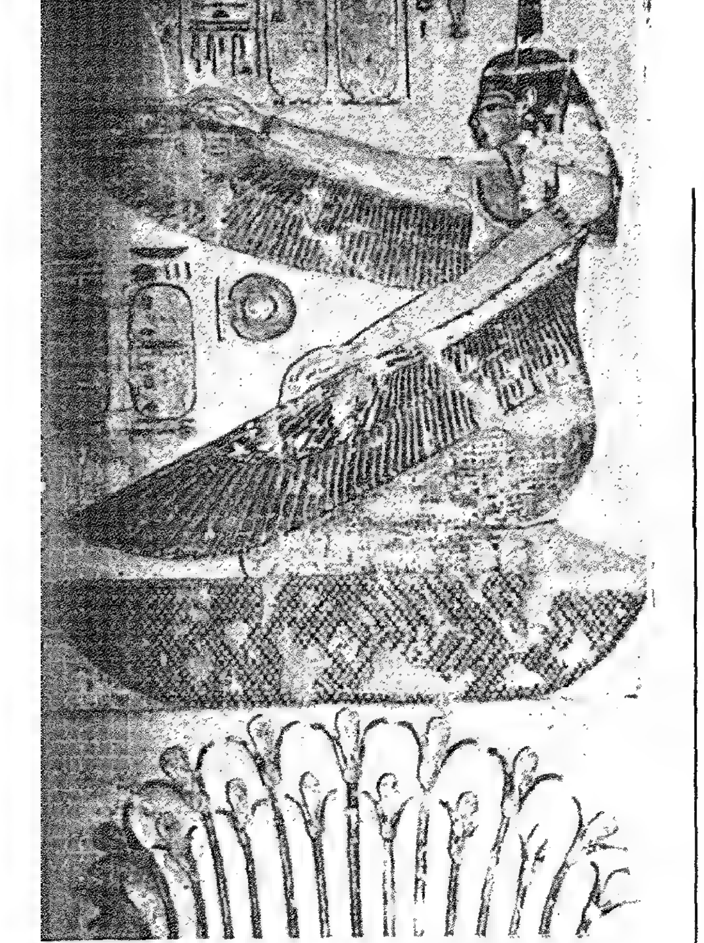
وفي وقت لاحق من عام ١٩٧٠، عثرت البعثة الفرنسية المصرية المشرفة على الحفائر والتنقيب داخل معبد «الكرنك» والمؤلفة من «جان لويتس لوفريه» و «بيير آنوس» و «رمضان سعد»، عثرت بين الساحة الأولى التي تؤدي إلى طريق الكباش في معبد الكرنك، على تمثالين قابعين من حجر الجرانيت الأسود، واستطاعت البعثة إثبات شخصية صاحب التمثال الأول وهو الكاتب الأديب «منتوحتب» من الأسرة الثامنة عشرة، أما التمثال الثاني فلم يجدوا عليه إلا رمز الكتابة (سشت).

وبهذا الاكتشاف الجديد استطاع العالم كله أن يعرف الكثير عن تاريخ الكرنك ومعبد آمون.

انطباعات مفتش الآثار

في خلال الفترة التي كنت أعمل فيها مفتشاً للآثار، عثر على كل القبور المدفونة في بطن الوادي.

لقد حدثت الاكتشافات في وادي الملوك فجأة، إذ حدث أن تكشفت فوهة إحدى المقابر عن مجموعة من الدرجات المنحوتة في الصخر تؤدي إلى باب يسده جدار سميك من الأحجار الضخمة، توجد في الجزء الأعلى منه ثغرة كبيرة



□ بعض الرسوم التي زين بها المصريون القدماء جدران مدافن ملوكهم الواقعة في وادي الملوك القريب من معابد

تكفي للسماح لنا بإلقاء نظرة على ردهة تنحدر في ميل شديد نحو صالة كبيرة مظلمة. ولم نستطع أن نرى أكثر من باب آخر مسدود في القاع، ففتحنا فجوة للدخول منها، وهناك وجدنا ثغرة أخرى استطعنا أن نرى من خلالها غرفة صغيرة تكدس فيها كثير من الأثاث الفاخر المغطى بالذهب المصقول حتى السقف.

وفي تلك الليلة توليت بنفسي حراسة المكان عند فتحة المقبرة، وقد استولت علي يومئذ حالة من الذعر الشديد لم أشعر بمثلها في حياتي.

وفي صباح اليوم التالي، عندما اجتمع فريقنا، رفعنا الأحجار الضخمة عن الجدران لنشق لأنفسنا ثغرة للدخول، وكان هدفنا الأول أن ننظر إلى النقوش التي كتبت باللغة الهيروغليفية على جانبي الضريح لنعرف اسم صاحب المقبرة التي اكتشفناها. وقد قرأنا بين هذه النقوش اسم الأمير «يوا» وزوجته الأميرة «تويو» وهما من الشخصيات التاريخية البارزة، وهما والدا الملكة «تي» زوجة الملك «أمينوفيس الثالث»، وقد



المدخل البحري لمعبد الكرنك وقد ازدانت واجهته بالنقوش الفرعونية القديمة

اتضح لأول وهلة أن لصوص المقابر قد سبقونا إلى المقبرة. فقد رفعت أغطية التوابيت ونزعت الأربطة عن وجهي الجثتين لسرقة القلائد الذهبية من حولها، كما وجدنا ما يدل على أن السرقة قد حدثت بعد الدفن مباشرة.

وعلى الرغم من الجو الرهيب الذي يحيط بنا في المكان. فإنني لم أستطع أن أرفع عيني عن وجه الأمير «يوا» الذي كان يرقد أشبه بكهل نائم، وقد استرسل شعره الأبيض إلى الوراء من جبهته بالغضون والتجعدات، بينما أغمضت عيناه وبدا من تحتهما أنفه الكبير، وشبح ابتسامة باهتة على شفتيه، وعلى ذقنه بعض شعيرات قليلة لم تحلق مما يدل على أنه كان مريضاً في يومه الأخير.

ورفعت مصباحي فوق وجهه الذي كانت تبدو عليه علائم الشيخوخة، وارتعشت يدي فأخذت ظلال الضوء تهتز تحت جفونه، فتراجعت إلى الوراء، وقد خيل إلي أنه يوشك أن يفتح عينيه.

ومع أن وجه الأميرة «تويو» لم يكن له مثل هذه الروعة، فقد كان محنطاً بعناية، وقد بدا شعرها الأشهب ومظاهر القلق تعلو قسمات وجهها. وإنني لأذكر خصلة شعر تموجت أطرافها بأناقة على وجهها، وكأن موجة «البرمانت» لم تذهب عنها بعد، على الرغم من أن صاحبتها عاشت منذ خمسة آلاف عام.

وكانت الأشياء التي وضعت في هذه المقبرة مختلفة الطابع، ففي إحدى أركان الغرفة تقف عربة الأميرة وإلى جوارها سريران مريحان من الأبنوس الأسود اللامع عليها حشيات من الحبال المجدولة، وهناك أربعة مقاعد، بينها مقعد ثمين من الأبنوس قدم هدية من بنات الملكة «تي» والملك «أمينوفيس» كما تدل على ذلك الكتابات الهيروغليفية الموجودة على الجدران. كما كانت هناك صناديق وموائد ووسائد ناعمة، وأواني فخارية للزهور، وأدوات للمطبخ، وكلها منتشرة في أنحاء الغرفة، وكان فوق إحدى الموائد إناء كبير من المرمر يحوي سائلاً كثيفاً ظننا أنه عسل، ثم تبين أنه زيت خروع.

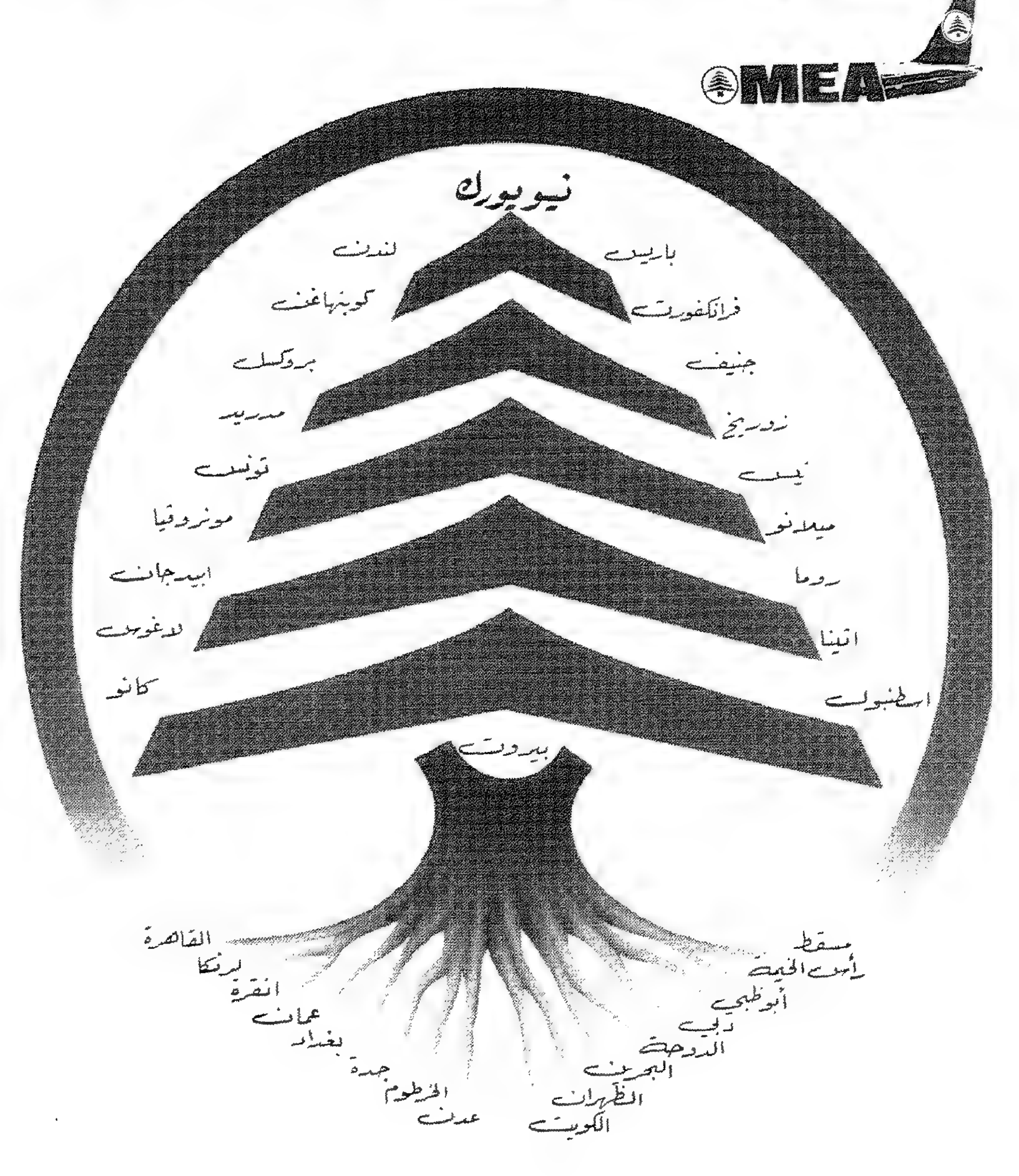
وتحتوي المقبرة أيضاً على توابيت حجرية متوسطة الحجم تضم مومياءات لبعض الحيوانات التي كانت مقدسة لديهم وبجانبها أواني مختلفة الأشكال، وإبرتان رفيعتان من العظم، وحلي وخواتم من الذهب الخالص، وأقنعة من الجبس المذهب ومجموعة كبيرة من الخرز الملون، ولوح كبير من الحجر الجيري مسجل عليه قصة طريفة عن صاحب المقبرة ملخصها أنه كانت هناك عادة اتبعها كهنة «آمون» وذلك عندما كانوا يضيقون ذرعاً بأحد الحكام ويستشعرون منه عدم خضوعه لامرتهم أو خروجاً عن إرادتهم، واعتاد الكهنة في مثل هذه الحالات أن يرسلوا إلى ذلك الحاكم رسولاً منهم يخبره أن إرادة المعبود تحتم عليه قتل نفسه وقد لاقى كثير من الحكام حتفهم بهذه الطريقة، معتقدين أنهم يؤدون عملاً دينياً عظيماً يتقربون به إلى معبودهم ويبدو أن الكهنة حاولوا تنفيذ هذه السياسة مع الأمير ولكنه استعمل طريقة أخرى للرد عليهم، فوجه إليهم حملة انتقامية قتلت منهم عدداً كبيراً.

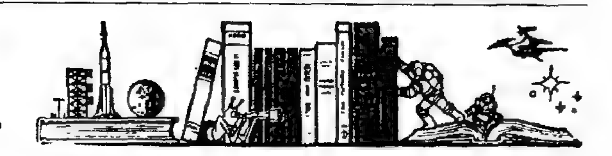
وفي غرفة جانبية من المقبرة وجدنا جثث بعض الحيوانات كالخيل والثيران والأغنام والجمال وعليها سروجها وزينتها التي كانت تصنع من الفضة أو من النحاس، أما الأقمشة التي كسيت بها سروج الخيول والجمال فقد اتسمت بألوان زاهية وصنعة دقيقة.

وفي العام التالي اكتشفنا مقبرة أخرى مماثلة لمقبرة الملكة «تي»، وكان التابوت أكبر* حجماً وأكثر بهاء وروعة، وقد صنع من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة، بينما أحيطت مومياء الملكة برقائق من الذهب الخالص، وعلى مقربة من فتحة المقبرة، اكتشفنا غرفة صغيرة أخرى منحوتة في الصخر، وقد دفن فيها كلب وقرد الملكة «تي».

وهكذا رحنا نواصل أبحاثنا شتاء بعد آخر إلى أن عثرنا على مقبرة تحتوي على توابيت من العصر اليوناني وكانت مصنوعة من أوراق البردي وبتفكيك أجزاء هذه التوابيت وضم أجزاء الورق جنباً إلى جنب، استطعنا أن نجمع مجلداً بعد آخر من الرسائل الخاصة والوثائق والقطع الأدبية ذات القيمة التاريخية. وقد قمنا بنقل عدد غير قليل من الوثائق التاريخية واللوحات والنقوش المسيحية المنحوتة في الصخر على جانبي المقبرة إلى المتحف القبطي بالقاهرة لحفظها من لصوص المقابر. ●

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا





كتب وردتنا

□ **تأثيرات الايديولوجيا في علم الاجتماع**
معهد الانماء العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ
٤٢١ صفحة. .... د. سمير أيوب

□ **القبيلة والدولة في البحرين**
تطور نظام السلطة وممارستها
معهد الانماء العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ
٣٨٧ صفحة. .... د. فؤاد اسحق الخوري

□ **التراث والحداثة**
مراجع لدراسة الفكر العربي الحاضر
معهد الانماء العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ
٢٨١ صفحة. .... بولس الخوري

□ **بحوث في الفكر القومي العربي**
معهد الانماء العربي ـ بيروت ـ المجلد الأول ـ
٣٦٧ صفحة. .... د. حلين اليازجي
د. فهمية شرف الدين
د. سعيد مراد
حسن نور الدين
غادة كنفاني
رغدة نحاس
اعداد واشراف: د. معن زيادة

□ **تطور النظرة الاسلامية إلى أوروبا**
معهد الانماء العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ
٢٦٢ صفحة. .... د. خالد زيادة

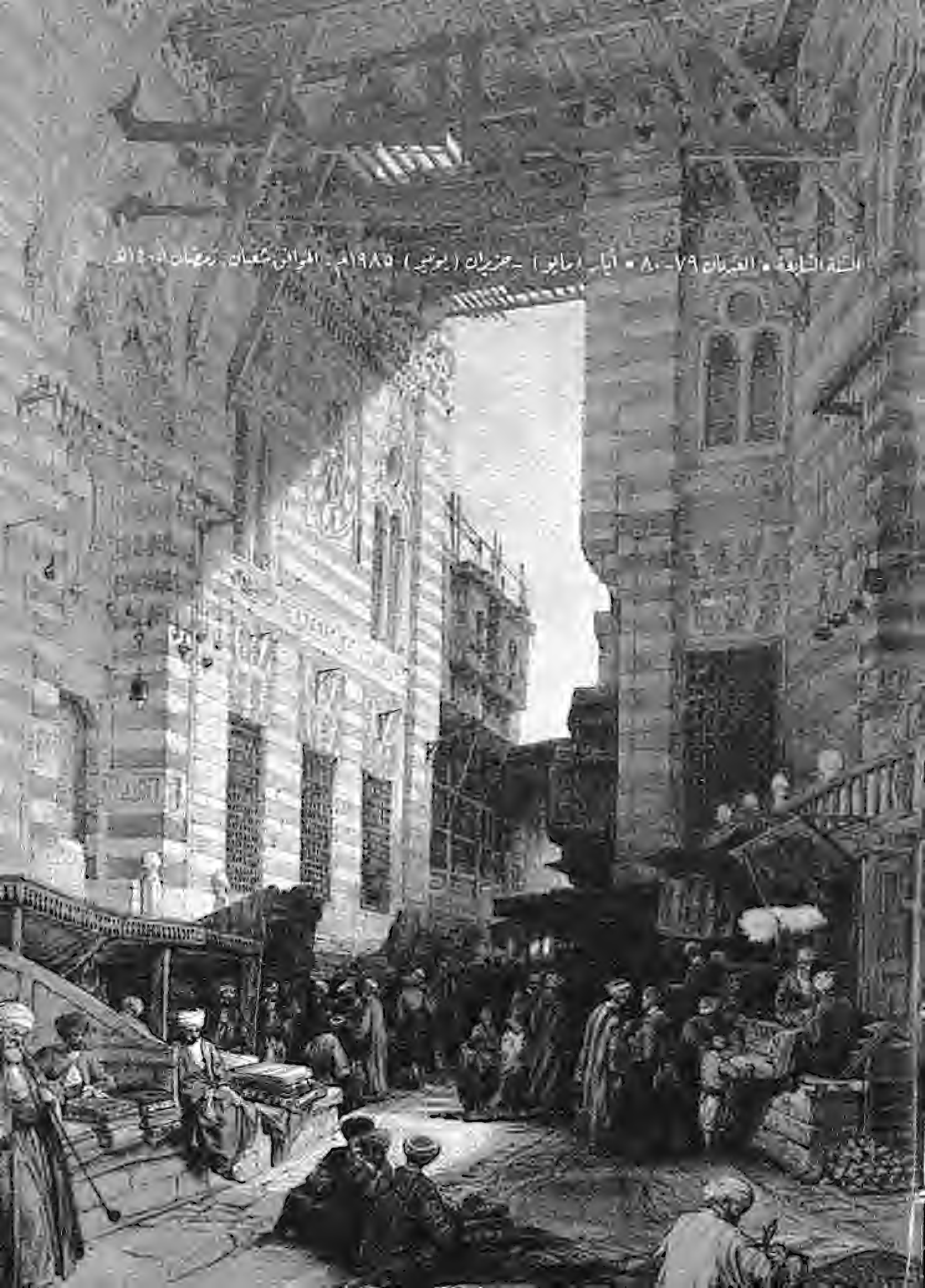
□ **دراسات في القصة السعودية والخليج العربي**
سلسلة تصدر عن جمعية الثقافة والفنون (١٤)
الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .... تأليف: محمود رداوي

□ **مقاطع من حديث البنفسج**
صدرت عن «نادي القصة السعودي» ـ الرياض
الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .... خالد أحمد اليوسف

□ **شوق وشوق**
سلسلة تصدر عن جمعية الثقافة والفنون (١)
الرياض .... شعر: عبدالوهاب إبراهيم الآياشي

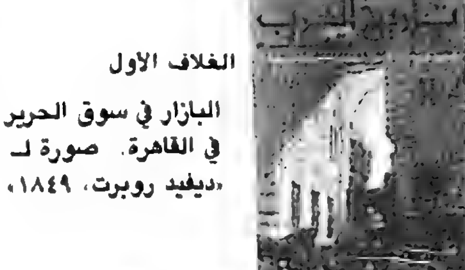


□ رمسيس الثاني جالساً على نصب بعلو ٤٥ قدماً.



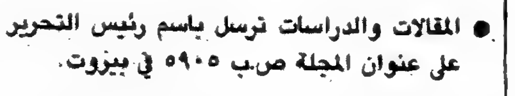
السنة السابعة ـ العددان ٧٩ ـ ٨٠ ـ أيار (مايو) ـ حزيران (يونيو) ١٩٨٥م ـ الموافق شعبان ـ رمضان ١٤٠٥هـ

□ من منازل البصرة القديمة التي تعود إلى القرن التاسع عشر. من الآجر والخشب.



الغلاف الأول

البازار في سوق الحرير في القاهرة. صورة لـ «ديفيد روبرت، ١٨٤٩».



- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر

تاريخ العرب والعالم

العددان ٧٩/٨٠ ــ ايار ــ حزيران ١٩٨٥

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ . المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٨ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للافراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للافراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للافراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT LEBANON

Vol. 7 — No. 79/80 — May-June 1985

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■

العلاقات الروسـ[illegible]

(الحلقة الرابعة)

مسألة البحر الأسود

(١٨٥٦ - ١٨٧٨)

□ الكسندر الثاني، قيصر روسيا.

منذ سقوط القسطنطينية بأيدي العثمانيين ظلت العوامل الدينية والاقتصادية والاستراتيجية تدفع روسيا للسيطرة على الممرات العثمانية وبالتالي على العاصمة العثمانية في سبيل تأمين تجارتها وتنفيذ إدعاءاتها في وراثة الامبراطورية البيزنطية. فتارة بالتوسع العسكري وتارة أخرى بأسلوب التفاهم الدولي أعلنت روسيا مراراً عن سياستها التقسيمية للدولة العثمانية. إلا أن خططها اصطدمت في كل مرة بمصالح دول أوروبية أخرى. فالنمسا كانت تنازعها الزعامة على البلقان، في حين عارضتها بريطانيا وفرنسا القضاء على الدولة العثمانية لأسباب استراتيجية واقتصادية. ونتج عن تضارب مصالح الدول الأوروبية في الامبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر تأزم متواصل في العلاقات الروسية ــ العثمانية. وفي النصف الثاني من ذلك القرن اشتعلت الحرب مرتين بين الدولتين، وتعرف الحرب الأولى من التاريخ تبعاً للمكان الذي دارت فيه «حرب القرم» (١٨٥٣ ــ ١٨٥٦) وانتهت بمؤتمر باريس. وتسمى الحرب الثانية بـ «الحرب البلقانية» (١٨٧٧ ــ ١٨٧٨) وانتهت بمؤتمر برلين. وكلا الحربين والمؤتمرين كانا بعيدي الأثر بنتائجهما في التاريخ الأوروبي والعثماني الحديث.

إن غرضنا من هذه الدراسة هو تتبع علاقات الدولتين في أربع حلقات: الأولى تشمل سياسة الاندفاع نحو القسطنطينية حتى معاهدة الممرات ١٨٤١ ــ الحلقة الثانية تلقي الأضواء على دور الدبلوماسية الروسية في مشاريع تقسيم الدولة العثمانية ــ أما الحلقة الثالثة فمخصصة لحرب القرم ومؤتمر باريس. وتنتهي الدراسة بالحلقة الرابعة التي تتعرض للحرب البلقانية ومؤتمر برلين.

□ د. عبد الرؤوف سنو: دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة برلين الحرة، دبلوم في التعليم العالي والتنمية الدولية، جامعة كاسل.



...ية العثمانية (١٦٨٧ - ١٨٧٨) والأزمة البلقانية

د. عبد الرؤوف سنو

□ السلطان عبدالحميد الثاني.

— ١ —

الأوضاع الدولية ما بين ١٨٥٧ ـ ١٨٧١

إن هزيمة روسيا في حرب القرم وإجبارها على توقيع معاهدة باريس وما نتج عن ذلك من تباعد بينها وبين النمسا وتقرب إلى فرنسا وانشغال بريطانيا بمشاكلها الداخلية وابتعادها عن المسائل الأوروبية، إضافة إلى تحقيق إيطاليا والمانيا لوحدتهما القومية نتيجة الهزائم العسكرية التي لحقت بالنمسا وفرنسا على الساحة الأوروبية، وأخيراً صعود المانيا إلى مركز الزعامة في أوروبا ـ كل هذه الأمور كانت مؤشرات على تحطم جبهة القرم التي ضمنت استقلال الدولة العثمانية وعلى التغيير الراديكالي الذي أصاب التوازن الأوروبي ما بين ١٨٥٧ ـ ١٨٧١.

فبعد زوال دورها المهيمن بمصير إيطاليا والدويلات الألمانية، ركزت النمسا اهتمامها بعد تسوية ١٨٦٧ (Ausgleich) (المملكة الثنائية ـ النمسا/ المجر) بالمحافظة على نفوذها في البلقان ـ هذا النفوذ الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بسلامة الدولة العثمانية واستقلالها. أما فرنسا، التي ناصرت الحركات القومية في أوروبا والبلقان وزادت من تغلغلها التجاري في الدولة العثمانية وتدخلت في المسألة الشرقية لضرب النفوذ البريطاني، فقد خسرت هذه الميزة بعد هزيمتها على يد بروسيا (١٨٧٠/١٨٧١)، وأصبح همهما البحث عن حليف للخروج من سياسة العزلة التي فرضها عليها بسمارك واستعادة ما خسرته إلى ألمانيا. وكان بسمارك، الذي وصف بعد ١٨٧١ بـ «سيد أوروبا»، يرى أنه لا يمكن المحافظة على مكتسبات الحرب الألمانية الفرنسية إلا بعزل فرنسا عن أي تحالف أوروبي. فقرّب إليه روسيا والنمسا رغم تضارب مصالحهما في البلقان، وحاول إشغال الدول الأوروبية في مسائل بعيدة عن وسط أوروبا. وفي المسألة الشرقية رأى بسمارك أفضل طعم يمكن أن تتلهى به الدول المتصارعة، خاصة أن بلاده لم تكن مهتمة بتلك المسألة. أما بريطانيا المدافعة التقليدية عن سلامة الدولة العثمانية، فكانت تُحكم في تلك الفترة من قبل حكومة ليبرالية برئاسة غلادستون. وكانت هذه الحكومة قد انتقدت مشاركة بريطانيا في حرب القرم

وعزلت نفسها نسبياً عن المسائل الأوروبية والمشرقية ووجهت اهتمامها للمسائل الداخلية عندها. وفيما يتعلق بالدولة العثمانية فلم تستطع المراسيم التي صدرت في أعقاب «خط هيمايون ١٨٥٦» وشملت نواحٍ عديدة في الادارة ونظام الضرائب وأوضاع أهل الذمة أن توقف تدهورها او أن تشد الشعوب المحكومة منها إلى السلطنة. ومن معالم هذا التدهور، الانتفاضات القومية في البلقان وأحداث لبنان (١٨٦٠) وثورة كريت (١٨٦٦)، وفساد الجهاز الحاكم، وكذلك الانهيار المالي نتيجة سياسة الاستدان من أوروبا وتغلغل الرأسمال الأجنبي في اقتصاد البلاد. على أن أبرز مسببات التدهور والانحطاط، كان تدخل الدول الكبرى في شؤون السلطنة الداخلية ومطامعها في ممتلكاتها. وفي مقدمة تلك الدول روسيا، التي اتسمت سياستها تجاه الدولة العثمانية بالهجومية.

- **روسيا تستعيد سيطرتها على البحر الأسود.**

ولم تكن تلك التطورات الأوروبية وأوضاع الدولة العثمانية في غير مصلحة روسيا. فبعد حرب القرم شهدت روسيا إصلاحات داخلية، وإن لم تستطع تغيير الكثير من سلبيات نظام القيصرية. وعلى صعيد السياسة الخارجية فقد حل جورشاكوف (Gorchakov) محل نسلرود كوزير للخارجية ومستشار للبلاد، وأخذت روسيا تبتعد نسبياً عن القضايا الأوروبية ملتفتة إلى الشرق الأقصى ووسط آسيا كحقلين لتوسعها الأمبريالي. لكن هذا لم يمنعها من التفكير في استعادة سيطرتها على البحر الأسود الذي انتزع منها وحُيّد بموجب معاهدة باريس أو في زيادة نفوذها في البلقان[٢]. فاستغلت روسيا إذن الأحداث السالفة الذكر واحتياج بسمارك إليها في حربه المقبلة ضد فرنسا (اتفاقية ٢٧ آذار ١٨٦٧ السرية) وفي لعبة التوازن الأوروبي لتتنصل من بنود معاهدة باريس المتعلقة بالبحر الأسود.

وقبل أن تشارف الحرب البروسية الفرنسية على نهايتها، وبعدما حصل على تأييد بسمارك، بعث جورشاكوف في ٢٩ ت١ ١٨٧٠ إلى عواصم الدول الأوروبية الموقعة على معاهدة باريس يبلغها أن بلاده لم تعد تعتبر نفسها ملزمة ببندي معاهدة باريس ١١ و ١٣ المتعلقين بحياد البحر الأسود[٣]، لأن قيصر روسيا «**لا يستطيع أن يبقى ملزماً ببنود معاهدة تقيد حقوق سيادته في البحر الأسود**»[٤]. وقد برر جورشاكوف مسلك بلاده هذا بأنه لا يمكن أن يُفرض على روسيا احترام بنود معاهدة باريس بينما تسمح الدول الأخرى لنفسها بانتهاك تلك المعاهدة فيما يتعلق بتوحيد ولايتي ملدافيا وولاشيا (رومانيا)، وإن انتهاكاً من هذا النوع لا بد أن يقابله انتهاك بقدر المستوى. إضافة إلى ذلك أعلنت روسيا أن الدولة العثمانية لم تنفذ التزاماتها كاملة في إجراء الاصلاحات التي كانت قد وعدت بها وفقاً للمعاهدة المذكورة وأن ذلك يعتبر إخلالاً آخراً لتلك المعاهدة. بيد أنها أكدت أنه ليس في نيتها إعادة فتح ملف المسألة الشرقية[٥].

وكان من الطبيعي أن يؤدي القرار الروسي إلى إرباك الحكومة العثمانية. فروسيا كانت تستطيع بسهولة أن تحتل جنوب بسارابيا رداً على أية معارضة عثمانية، خصوصاً أن بريطانيا، التي خسرت كثيراً بخروج حليفتها السابقة فرنسا كقوة رئيسية على الساحة الأوروبية، لم تحرك ساكناً وفقاً لالتزاماتها في معاهدتي باريس و ١٥ نيسان ١٨٥٦. بل إن بريطانيا اكتفت بالاحتجاج وشاركتها النمسا بذلك وأعلنت انها لا تعترض على مطالبة روسيا باستعادة سيادتها على البحر الأسود، بل على الأسلوب الذي استخدمته روسيا للتنصل من بنود معاهدة باريس المتعلقة بحياد ذلك البحر[٦].

إلا أن توقيت إعلان روسيا لتنصلها من بنود معاهدة باريس كان يحرج بسمارك، الذي لم يكن قد انتهى بعد من فرنسا ويخشى من تأزم دولي يؤدي إلى قيام تحالف ضد بلاده يفقدها ما حققته من انتصارات. ولهذا سارع لايجاد حل للمسألة، فدعا إلى عقد مؤتمر دولي تشارك فيه الدول الكبرى.

- **معاهدة لندن ١٣ آذار ١٨٧١.**

في ١٧ ك٢ ١٨٧١ افتتح في لندن مؤتمر

اوروبي لبحث مسألة البحر الأسود. وقد تميز بتقارب عثماني روسي تقابله معارضة بريطانية نمساوية. فالدولة العثمانية، التي كانت تدرك تضارب مصالح الدول الكبرى في الممرات، حاولت استغلال الأمر لاستعادة سيطرتها على المرفق الاستراتيجي وجعل مرور السفن عبره وفقاً لمشيئتها. لكن بريطانيا والنمسا/المجر اعترضتا على ذلك بحجة خشيتهما من أن تستغل روسيا ضعف الدولة العثمانية وتضع يدها على الممرات[٧]. والواقع إن هذه المعارضة كانت تعود إلى خشية الدولتين من عبور الأسطول الحربي الروسي الممرات إلى شرقي البحر المتوسط أو إلى البحر الأدرياتيكي مما قد يهدد مصالحهما في هذين البحرين. كذلك كانت بريطانيا قد تلقت تقارير بأن الدولة العثمانية وروسيا قد اتفقتا سراً على تنسيق مواقفهما في المؤتمر وأن محاولة الدولة العثمانية لاستعادة نفوذها على الممرات تصب في خانة المصالح الروسية[٨]. إزاء ذلك تقدمت بريطانيا والنمسا/المجر باقتراح بأن يحتفظ السلطان بحقه بفتح الممرات أمام السفن الأجنبية، على أن تستثنى من ذلك السفن الروسية. لكن الدولة العثمانية وروسيا رفضتا ذلك. وفي اخر الأمر توصلت الدول المجتمعة إلى صيغة حل اقترحته إيطاليا ونص على حق السلطان «**بفتح الممرات في أوقات السلم للسفن الحربية الصديقة أو الحليفة**»[٩]. كذلك اتفق على إلغاء حياد البحر الأسود مما أعاد للأسطول الروسي سيطرته السابقة عليه[١٠]. وبالاضافة إلى ذلك جُعل البحر مفتوحاً أمام السفن التجارية لكل الدول. وفي الوقت ذاته جُدد عمل اللجنة الدولية لنهر الدانوب[١١].

ولكن التقارب العثماني الروسي خلال المؤتمر لم يكن ينم عن تحسن في علاقات الدولتين. فبعيداً عن مسألة البحر الأسود، كانت مصالح الدولتين متضاربة في أكثر من محطة من محطات المسألة الشرقية. وكان البلقان من أكثر تلك المناطق العثمانية سبباً للتوتر وتضارب المصالح، ليس فقط بين روسيا والدولة العثمانية، بل بين الدول الكبرى، التي كانت بعد عام ١٨٧١ تمسك بمصير الدولة العثمانية، وهي بريطانيا، النمسا / المجر، روسيا، وألمانيا إلى حد ما.

— ٢ —

اليقظة القومية في البلقان

وفي الفترة الممتدة ما بين معاهدة باريس واندلاع الأزمة البلقانية (١٨٧٥) كان قسم كبير من شبه جزيرة البلقان لا يزال تحت الحكم العثماني. ومن هذه المناطق، بلغاريا، مقدونيا، البوسنة، الهرسك، البانيا، ابيروس، وتيساليا. وكانت اليونان هي الوحيدة المستقلة، في حين كانت الصرب ورومانيا مستقلتين ذاتياً وتعترفان بسيادة السلطان. أما الجبل الأسود فكان مستقلاً من الناحية العملية دون أن يكون له وضع حقوقي كدولة مستقلة.

وبعد حرب القرم ازدادت انتفاضات شعوب البلقان للتخلص من الحكم العثماني. فمراسيم الاصلاح التي أصدرتها الحكومة العثمانية لم تستطع أن تحد من تلك الثورات، رغم أن الفترة ما بين ١٨٥٦ ــ ١٨٧١ شهدت تنفيذ العديد من الاصلاحات على يد اثنين من كبار المصلحين العثمانيين، فؤاد باشا وعلي باشا ــ هذه الاصلاحات التي شملت نظام الملة وأنظمة الولايات وأسلوب المراقبة عليها[١٢]. كذلك قام مدحت باشا خلال ولايته على الدانوب بكثير من المشاريع الانمائية في بلغاريا ــ ومع ذلك فقد استمرت الثورات[١٣].

وفي حين لا يستبعد البعض العامل الديني في ثورة شعوب البلقان المسيحيين على سلطتهم الاسلامية، ومع تقديرنا لهذا العامل[١٤]، إلا أنه لم يكن هو الحاسم في تلك المسألة. فالفوارق الاجتماعية وعلاقات الانتاج والاتجاهات القومية لشعوب البلقان وتدخل الدول الكبرى، وخاصة روسيا والنمسا في المسألة الشرقية كانت في رأينا محركاً دافعاً للثورة على الحكم العثماني. فالتقارير القنصلية المعاصرة والمؤلفات الحديثة تذكر أن «**الاضطهاد العثماني**» إذا صحت تلك التسمية، لم يكن مقتصراً على المسيحيين فقط، بل شمل المسلمين على حد سواء. بل إنه في بعض الأحيان كان الفلاحون المسلمون هم المعرضين

لتسلط الاقطاعي والملتزم المسيحي[15]. ويؤكد دايفسن الذي أرّخ لحركة الاصلاحات في الدولة العثمانية، أن وضع المسيحيين قد تحسن بفضل الاصلاحات وأنه في بعض المجالات كان أفضل من وضع المسلمين بسبب إعفائهم من الخدمة العسكرية وحمايتهم من قبل القناصل الأجانب[16]. كما يرى دايفسن أن التفريق بين المُضطهِد والمُضْطَهَدْ لم يكن على أسس دينية، بل أن المسألة كانت مسألة طبقية[17]. فالفوارق الاجتماعية، كما يذكر باومغارت، لم تكن بين المسلمين وأهل الذمة، بل بين طبقة حاكمة وأخرى محكومة. وفي كل طبقة كان بإمكان المرء أن يجد أناساً من كلا الفئتين[18].

وبغض النظر عن التعسف والتسلط العثمانيين ونظام الضرائب والجباية في الولايات العثمانية والتي عانت منه فئات الشعب المحكومة وطوائفه بدون استثناء، فقد كان نمو الوعي القومي بين شعوب البلقان والذي كان سمة القرن الماضي، عاملاً حاسماً في دفع عجلة الثورة ضد الحكم العثماني ــ هذا العامل الذي دفعته روسيا إلى الأمام بعد حرب القرم لخدمة مصالحها وجعلته يتفوق على العامل الديني. وقد اشتد هذا الشعور لدى الشعوب البلقانية بعد حصول الصرب على استقلالها الذاتي في بداية القرن التاسع عشر مروراً باستقلال اليونان (١٨٣٠) وتوحيد رومانيا (١٨٦٢). ولم يكن أيضاً حصول جبل لبنان على الاستقلال الذاتي وثورة كريت (١٨٦٦) دون تأثير على الشعوب البلقانية.

وهكذا نشأت في البلقان تيارات كالجامعة الصربية والجامعة السلافية والتي كانت تكتلات عرقية وتيارات انفصالية عن الدولة العثمانية. وفيما اقتصرت الجامعة الصربية (Pan Serbism) على توحيد السلاف الجنوبيين بقيادة الصرب، كانت الجامعة السلافية (Pan Salvism) تدعو إلى توحيد جميع السلاف. وباختصار، فقد كانت الجامعة السلافية هذه التركيبة التي تجمع مصالح السلاف الأوروبيين وتاريخهم ولغتهم وعاداتهم ومستقبلهم السياسي، ولهذا كان تأثيرها على شعوب البلقان أقوى وأعمق من الجامعة الصربية. وكانت الجامعة السلافية المدفوعة من روسيا تؤكد على القيمة الجوهرية للثقافة الروسية أمام الثقافة الغربية[19].

• موقف النمسا/المجر المعارض للجامعة السلافية:

ولم يكن مصير البلقان معلقاً بثورات شعوبه المسيحين على الحكم العثماني، بل ايضاً بموقف الدول الكبرى، وبشكل خاص النمسا وروسيا. وكانت المسألة الشرقية بالنسبة للنمسا هي قبل اي شيء «**مسألة سلافية**». فالقضاء على الحكم العثماني في البلقان وخلق كيانات قومية وتعاطف سلاف الامبراطورية مع أبناء جنسهم، كان يهدد تماسك الامبراطورية النمساوية السياسي. ولهذا شاركت النمسا بريطانيا وفرنسا في ضمان سلامة الدولة العثمانية وفقاً لمعاهدة ١٥ نيسان ١٨٥٦. ولما كانت النمسا غير متأكدة من فعالية هذه الضمانة، فقد حاولت بعد هزيمتها على يد بروسيا (١٨٦٦) أن ترضي روسيا بتأييد مطالب شعوب البلقان بالاصلاحات العثمانية التي تحسن من وضعهم. ولكن قيام المملكة الثنائية ١٨٦٧ (النمسا/المجر) وتجميع أقوى جنسين في الامبراطورية (الألمان والمجريون) على قدم المساواة واستبعاد السلاف داخل الامبراطورية، قوبل برفض من قبل التشيكيين والسلوفاكيين والكراوتيين والصربيين في المجر، إذ أن المملكة الثنائية وضعتهم تحت سيطرة الارستقراطية المجرية والبرجوازية النمساوية[20] مما قوى ــ رغم اختلاف اللهجات والعادات والمذهب والتجزئة الجغرافية ــ من تيار الجامعة السلافية بين تلك الشعوب وزاد في الوقت ذاته من مخاوف النمسا/المجر، مما جعلها ترفض الدعوات التي نادت بتطوير المملكة الثنائية لتصبح ثلاثية تضم الألمان والمجريون والسلاف[21].

• الجامعة السلافية في السياسة الروسية:

اما روسيا، التي فشلت في تقسيم الدولة العثمانية بوفاق أوروبي أو مواجهة تحالف دولي يسعى للحفاظ على الدولة العثمانية، فقد ادركت

بعد حرب القرم أن أفضل وسيلة لتجزئة الدولة العثمانية هي التعاون مع الشعوب البلقانية وإثارتها ضد الدولة العثمانية، وإن ذلك لن يورطها في مجابهة مع الدول الأوروبية، خاصة أن الرأي العام الأوروبي كان يتعاطف مع الحركات القومية لشعوب البلقان. ولهذا أهملت روسيا العامل الديني في سياستها البلقانية واستخدمت بدلاً منه العامل القومي والجامعة السلافية لتحقيق ما عجزت عنه بقوة السلاح أو بالوفاق الأوروبي[٢٢]. فزادت من اهتمامها بالشعوب السلافية وقوّت من علاقاتها التجارية معها وأدخلت الدراسات السلافية في المناهج الجامعية عندها وفتحت أبواب معاهدها العليا أمام الشبان البلغار. كذلك أسست «الجمعية الخيرية السلافية في موسكو» (١٨٥٨) وفروع لها في المدن البلقانية لنشر الدعاية السلافية، وساهمت في عقد «المؤتمر الاتنوغرافي السلافي في موسكو» (١٨٦٧) وعملت على إصدار العديد من الكتب والمؤلفات التي تدعو إلى توحيد السلاف والتعاون معها لتحريرهم من الحكم العثماني والهيمنة النمساوية[٢٣].

ولم تقتصر سياسة الجامعة السلافية بالتحريض على الثورة، بل إن روسيا قامت بمناصرة الحركات الثورية على الأرض. فدعمت ثورة الجبل الأسود وبلغاريا والبوسنة والهرسك. كما وقفت وراء استقلال الصرب الذاتي واستقلال اليونان والوحدة الرومانية، رغم أن الدولتين الأخيرتين لم تكونا سلافيتين. على أن أبرز معالم الجامعة السلافية في الدبلوماسية الروسية كانت تأييد روسيا لقيام كنيسة بلغارية مستقلة عن الكنيسة اليونانية (١٨٧٠)[٢٤].

ويتجلى دعم روسيا للجامعة السلافية في التأييد الذي حصلت عليه تلك الدعوة من دوائر روسية رسمية وعسكرية. فقد شارك فيها جنرالات وقناصل وشخصيات مقربة للحكم. ولعل أعظم شخصية روسية دفعت الجامعة السلافية إلى الأمام نيقولا اغناتيف (Nicolas Ignatiev)، السفير في استانبول (١٨٦٤ ــ ١٨٧٧)، الذي عمل على توحيد السلاف من خلال تقويض الحكم العثماني في البلقان[٢٥]. وتدل الوثائق والتقارير الدبلوماسية السرية الروسية التي كان يبعث بها اغناتيف والقناصل الروس في البلقان وكذلك مراسلات القسم الآسيوي في وزارة الخارجية الروسية، بالاضافة إلى نشاط الجمعيات السلافية الروسية، على مدى التورط الروسي في الجامعة السلافية، وأن أصابع روسيا الرسمية كانت وراء الدعاية السلافية وانتفاضات الشعوب البلقانية وتأييدها بالمال والسلاح والخبرات العسكرية لأجل تقويض الحكم العثماني هناك. فتوحيد السلاف جميعاً وقيام دولة سلافية عاصمتها القسطنطينية ظل الشغل الشاغل لأنصار الجامعة السلافية والصحافة الروسية[٢٦].

ومن بين الشعوب السلافية وجدت روسيا في الصرب القيادة المؤهلة لتزعم السلاف فشجعتها على الثورة وقدمت لها المال والدعم. وخلال حكم الأمير ميشال أبرنوفيش (Michael Obrenovic) (١٨٦٠ ــ ١٨٦٨) شهدت البلاد نهضة كانت أبرز معالمها إنشاء جيش حديث قائم على التجنيد. وقد تمكن ميشال بدعم روسي من أن يجلي العثمانيين عن قلاع الصرب وأن يجعل من بلاده محور التحالفات المناهضة للحكم العثماني[٢٧]. فبين عامي ١٨٦٥ ــ ١٨٦٨ عقدت الصرب سلسلة من التحالفات مع رومانيا والجبل الأسود و «الجمعية الثورية البلغارية» بهدف إنهاء الحكم العثماني في البلقان. وكانت آخر تلك التحالفات مع اليونان (١٨٦٨)، حيث قامت الدولتان بتسليح المسيحيين وخططتا للقضاء على الحكم العثماني. لكن جميع هذه التحالفات لم تؤد إلى نتيجة بسبب التمجيد العرقي (Ethnocentric) الذي طبع القومية في البلقان[٢٨] وبسبب الأوضاع الأوروبية وتحول اليونان ضد السلافية لتأييد روسيا لقيام كنيسة بلغارية مستقلة عن الكنيسة اليونانية، وأخيراً بسبب وفاة الأمير ميشال عام ١٨٦٨[٢٩]. ولكن بعد خسارة الصرب الحرب أمام الدولة العثمانية (ت، ١٨٧٦)، كما سنرى بعد قليل، فقد تحول انصار الجامعة السلافية في روسيا إلى بلغاريا كمجال لتوسع النفوذ الروسي بدلاً من الصرب.

ورغم تلقيها للدعم الروسي فإن شعوب البلقان الكارهة للحكم العثماني لم ترد استبدال ذلك الحكم بالهيمنة الروسية، وأفضل مثال على

ذلك بلغاريا، التي انقلبت ضد النفوذ الروسي بعد ١٨٧٨[٣٠]

— ٣ —

ثورة البوسنة والهرسك (تموز ١٨٧٥)

وتحتل ثورة البوسنة والهرسك، التي تعتبر استمرارا لثورات الشعوب المسيحية في البلقان للتخلص من الحكم العثماني، أهمية خاصة في تاريخ الأزمة البلقانية. فقد حدثت بعد عامين على توقيع روسيا والنمسا/المجر والمانيا معاً على اتفاقية «عصبة الأباطرة الثلاث» (١٨٧٣) (Dreikaiserbund) التي أبانت بوضوح عمق التناقضات الروسية النمساوية في البلقان، تلك التناقضات التي حاول بسمارك بفراسته السياسية لا أن يزيلها، بل أن يبقي عليها ويشغل الدولتين بها شرط الا يؤدي ذلك إلى صدام المتنافسين كي لا يخل ذلك بوضع ألمانيا الدقيق في التوازن الأوروبي[٣١]. كذلك أحدثت تلك الثورة صدمة لبريطانيا وأيقظتها من عزلتها وجعلتها تدرك المخاطر التي تتعرض لها مصالحها نتيجة تكثيف روسيا من تدخلها المباشر في المسألة الشرقية. هذا بالاضافة إلى أنها جاءت في وقت كانت الدولة العثمانية تعلن فيه إفلاسها (١٨٧٦) وتعاني من أزمة سياسية داخلية[٣٢]. وأخيراً إنها جاءت بعد سلسلة من الثورات في المنطقتين (١٨٥٣ ــ ١٨٥٦، ١٨٦٠ ــ ١٨٦٢) وشكاوى أهاليهما للدول الكبرى والمطالبة بالتدخل (١٨٥٧، ١٨٥٨، ١٨٧٢، ١٨٧٣، ١٨٧٥) وبفرار العديد من الثوار إلى الصرب والنمسا[٣٣].

أما أسباب تلك الثورة فتعود إلى عاملين: المسألة الزراعية وتيار الجامعة السلافية. فمنذ السبعينات كانت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية مدار شكوى وتذمر سكان المنطقتين. فقد كان الفلاحون المستأجرون يتعرضون لشتى أنواع الاضطهاد من قبل سادتهم الاقطاعيين المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام ليسهل عليهم استرجاع أراضيهم. كما كانوا يشكون من التضخم المستمر لحقوق هؤلاء ومن زيادة الرسوم وأعباء الضرائب عليهم. وقد توج ذلك بسوء المحصول عام ١٨٧٣ وبالمجاعة عام ١٨٧٤ وبمنافسة السلع الأجنبية المستوردة للانتاج المحلي[٣٤]. وبالاضافة إلى ذلك، ساهمت زيارة الامبراطور النمساوي فرانس جوزيف إلى دلماشيا (ربيع ١٨٧٥) بإلحاح العسكريين الذين كانوا يدعون لاحتلال المنطقتين في إعطاء أهالي البوسنة والهرسك الانطباع بأن النمسا/المجر ستقوم بضم مناطق سلافية بحيث يؤدي ذلك إلى قيام «المملكة الثلاثية»[٣٥].

وما إن اندلعت الثورة في الهرسك (تموز ١٨٧٥) على إثر محاولة لجباية الضرائب في إحدى مقاطعاتها، حتى تدخلت الدول السلافية وفي مقدمتها الصرب لتقدم لها العون. أما روسيا والنمسا/المجر فقد وقفتا حذرتين، رغم أن موظفيهما وقناصلهما في البلقان كانوا يحثون على الثورة[٣٦]. وفي آب امتد نطاق الثورة ليشمل البوسنة، ليمتد في العام التالي ويصل إلى بلغاريا.

• جورشاكوف، اغناتيف والثورة:

والواقع إن كلاً من روسيا والنمسا/المجر لم تفاجئا بالثورة، لكنهما كانتا تدركان أنهما قد تتورطان من جرائها في حرب إن لم تسارعا لحل المسألة دبلوماسياً. فالنمسا/المجر أرادت أن تحل الأزمة وفقاً لاستراتيجيتها البلقانية. ولهذا حاول أندراسي (Andrassy)، وزير خارجيتها، أن يبقي زمام الأمور بيده كي يأتي الحل منسجماً مع سياسة بلاده ويضبط الأطماع الروسية في البلقان[٣٧]. وبدوره جورشاكوف، فقد كان يفضل التعاون مع الشريكين في العصبة لايجاد حل للمسألة. وهذا مرده إلى أنه، وهو الدبلوماسي المحترف، كان يعتبر المسألة الشرقية جزءاً مكملاً للدبلوماسية الأوروبية، ورأى أن التعاون مع النمسا/المجر والمانيا يعطي روسيا تغطية سياسية تحتاجها لأجل تنفيذ مصالحها البلقانية وتطبيق إصلاحات في البلقان دون الوصول إلى حالة حرب مع الدولة العثمانية[٣٨].

وعلى عكس جورشاكوف، فقد كان أغناتيف لا يحبذ أي عمل دولي في الشرق الأدنى ولا أن تلزم روسيا نفسها بالتزامات دولية في المنطقة. وكانت كراهيته لأندراسي تجعله يمقت أي تعاون لبلاده مع النمسا/المجر. ولهذا رأى أغناتيف أن



□ أغناتيف.

تقوم روسيا بعمل منفرد في الأزمة البلقانية يصب في خانة الجامعة السلافية[٣٩]. ولكن هذه السياسة لم تجد في تلك المرحلة الترحيب في بطرسبرغ، إذ أن القيصر، متأثراً بجورشاكوف، كان يفضل التعاون مع النمسا وألمانيا[٤٠] والقيام بتحرك مشترك معهما، وهذا ما كان يفضله بسمارك، الذي خشي من أن تتضعضع عصبة الأباطرة الثلاث نتيجة تضارب المصالح الروسية النمساوية في البلقان[٤١].

وفيما كان سفراء دول عصبة الأباطرة يقومون بتحرك مشترك في استانبول لحث الباب العالي على إصدار إصلاحات لتحسين أحوال المسيحيين في البوسنة والهرسك والعفو عن الثوار، وبعدما انضم إليهم سفراء الدول الأوروبية الأخرى، كان أغناتيف وبمبادرة شخصية ودون إعلام الخارجية الروسية يقوم بتحرك مستقل لدى الباب العالي ويجري مفاوضات مع السلطان العثماني مباشرة لأجل عقد لقاء سري بينه وبين القيصر في القرم. وكان اغناتيف يهدف بذلك إلى عزل النمسا/المجر عن أية مشاركة في حل المسألة. ولكن هذا التحرك سرعان ما أحبطه جورشاكوف، الذي حث القيصر على السير مع النمسا/المجر في حل المسألة[٤٢].

ورغم خيبة الأمل هذه تمكن أغناتيف، وكان مقرباً من السلطان عبدالعزيز، من إقناع هذا الأخير بالقيام ببعض الاصلاحات. ففي ٢ ت١ ١٨٧٥ أصدر السلطان مرسوماً خفض بموجبه الضرائب عن سكان البوسنة والهرسك ومنحهم الحرية الدينية ولجنة للمراقبة ومجلس استشاري منتخب. وقد أعقب ذلك مرسوم آخر (١٢ ك١ ١٨٧٥) وشمل ولايات الامبراطورية كلها. وبموجبه أعلن السلطان عن نيته بإصلاح القضاء ونظام الضرائب والملكية وبدل الخدمة العسكرية لأهل الذمة، وأخيراً تأليف مجالس إدارية تتمثل فيها مختلف الطوائف الدينية. ولكي يظهر جديته أمام الدول الكبرى، عين السلطان في ٢٠ ك١ لجنة برئاسة الصدر الأعظم وتتألف من وزراء عثمانيين وعدد من المسلمين والمسيحيين مهمتها تنفيذ المراسيم الاصلاحية التي صدرت[٤٣]. ولكن الثوار ظلوا مستمرين بثورتهم مشككين بجدية الدولة العثمانية بتنفيذ الاصلاح.

● مذكرة أندراسي (٣٠ ك١ ١٨٧٥):

وإزاء استمرار الثورة حركت النمسا/المجر دبلوماسيتها ووضعت بموافقة روسيا مذكرة لحل المسألة سلمياً. وقد عرفت باسم «مذكرة اندراسي» وأرسلت إلى عواصم الدول الكبرى في ٣٠ ك١ ١٨٧٥. وفي مذكرته طالب أندراسي الباب العالي بإجراء إصلاحات تشمل الحريات الدينية وإلغاء الالتزام والدعوة إلى تحسين الزراعة في المنطقتين بشراء الحكومة العثمانية للأراضي من الاقطاعيين وتقديم ضمانات بأن تصرف الحكومة العثمانية العائدات التي تحصلها من البوسنة والهرسك على المنطقتين، وأخيراً أن تُجرى الاصلاحات بإشراف لجنة محلية مؤلفة من المسلمين والمسيحيين[٤٤]. وفي حين أن فرنسا وإيطاليا أعطتا موافقتهما على المذكرة، ظلت بريطانيا مترددة ولم توافق عليها إلا بعدما قبلها الباب العالي في ٦ شباط. ولكن الحكومة العثمانية أعلنت في ١١ و ١٣ شباط معارضتها للبند الذي يدعوها إلى صرف عائدات البوسنة والهرسك على المنطقتين وللجنة الاشراف على الاصلاحات. إلا أنها أعلنت في الوقت ذاته العفو عن الثوار

وسمحت لهم بالعودة إلى منازلهم. كما ألغت ضريبة العُشر لمدة عام وجميع الضرائب الأخرى لمدة عامين. بالاضافة إلى ذلك تعهدت بإعادة بناء المنازل والكنائس التي هدمت خلال الثورة[٤٥].

ومع ذلك فقد رفض الثوار رمي سلاحهم واستمروا في ثورتهم وسط احتجاج النمسا/المجر. وفي بيان أصدره الثوار (سوتورنيا (Sutorina) ٢٦ شباط ١٨٧٦) أعلنوا عن شكرهم للنمسا/المجر لاستقبالها اللاجئين. وختموا بيانهم بأنهم يتوقعون تأييد روسيا لهم[٤٦]. وبذلك طويت مذكرة أندراسي.

وفي آذار تصاعدت نغمة الحرب داخل الصرب والجبل الأسود وازداد تدخل روسيا بالمسألة، مما جعل النمسا/المجر تستدرك الأمر وتفرض على الدولة العثمانية هدنة (نيسان ١٨٧٦) وتدعو دول عصبة الأباطرة الثلاث للتشاور في برلين. وفي هذا الوقت كانت الثورة قد امتدت إلى بلغاريا (أيار) وحدثت تطورات داخلية في أستانبول ابتدأت بتوقف الدولة العثمانية عن تسديد ديونها إلى البنوك الأوروبية (١٨٧٥) وانتهت بالانقلاب الذي قاده مدحت باشا وجماعة تركيا الفتاة لعزل السلطان عبدالعزيز وتنصيب السلطان مراد الخامس مكانه. وفي بداية آب عزل أيضاً مراد الخامس واعتلى عبدالحميد الثاني عرش السلطنة[٤٧].

● مذكرة برلين (١٣ ايار ١٨٧٦) والمعارضة البريطانية:

وفيما الثورة مشتعلة في بلغاريا كان وزيرا خارجية روسيا والنمسا/المجر مجتمعين مع بسمارك في برلين لمناقشة الأزمة البلقانية. وقد تمخض عن هذا الاجتماع ما عرف بـ «مذكرة برلين». وكانت المذكرة في الواقع امتداداً لمذكرة أندراسي، إلا أنها كانت أكثر تحديداً وتضمنت دعوة للهدنة لمدة شهرين ودخول الباب العالي خلال ذلك بمفاوضات مع الثوار في البوسنة والهرسك ــ أن تعمل السلطات العثمانية على تطبيق الاصلاحات بإشراف لجنة دولية ــ أن تعيد توطين المهجرين في منازلهم ــ أن يبقى



□ بسمارك في سنة ١٨٧٧.

الثوار على سلاحهم خلال مرحلة تنفيذ الاصلاحات، وأخيراً أن تضمن الدول الكبرى تنفيذ الاصلاحات. واختتمت المذكرة بتحذير الباب العالي، لا بل الدول الكبرى أيضاً، بأن عصبة الأباطرة الثلاث سوف تتخذ «**إجراءات فعالة**» (Mesures efficaces) للسيطرة على الموقف إذا ما انتهت الهدنة المعلنة ولم يتوصل الباب العالي إلى اتفاق مع الثوار[٤٨]. وعندما استلمت إيطاليا وفرنسا المذكرة قبلتاها على الفور، في حين رُفضت من قبل بريطانيا جملة

وتفصيلاً، رغم أنها كانت تمنح الدول الكبرى الحق بالاشراف على تنفيذ الاصلاحات ورغم أنها لم تكن بعيدة عن روح مذكرة أندراسي.

والواقع إن هناك عدة أسباب لرفض بريطانيا لمذكرة برلين. ففي مقدمتها أن حكومة المحافظين البريطانية برئاسة دذرائيلي، التي كانت تحكم منذ ١٨٧٤، كانت قد خرجت عن العزلة التي فرضتها حكومة غلادستون على سياسة البلاد الخارجية. فعادت إليها حيويتها في المسألة الشرقية، فاشترت أسهم قناة السويس من الخديوي اسماعيل (١٨٧٥) وزاد أسطولها التجاري من استخدامه للقناة[٤٩]. وبالنسبة للبلقان، فرغم الطريقة التي كانت تقمع فيها الحكومة العثمانية الثورة البلغارية، ظلت الحكومة البريطانية متحفظة تجاه الثورات هناك، رغم احتجاج الحزب الليبرالي على ذلك وحملة غلادستون على الدولة العثمانية[٥٠]. وعلى ما يبدو فقد خشيت حكومة دذرائيلي إن هي ايدت الثورة من أن يؤدي ذلك إلى إضعاف نفوذها لدى الباب العالي أو أن يساعد ذلك روسيا على تنفيذ سياستها تجاه الدولة العثمانية[٥١]. كذلك رأت أن مذكرة برلين قد تعدت مسألة الاصلاحات وخاضت في تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية في أوروبا بأن تحصل النمسا/المجر على البوسنة مقابل ضم روسيا لجنوب بسارابيا، وأن ذلك ليس إلا تمهيداً لتقويض الدولة العثمانية في أوروبا. وقد فسرت «**إجراءات فعالة**» لدول الحلف بأنها دعوة صريحة لتنفيذ التقسيم[٥٢]. وأخيراً يعود رفض بريطانيا للمذكرة إلى أن العصبة لم تستشرها حين وضعتها، بل فرضتها عليها فرضاً، وأنها بذلك قد عاملتها كدولة من الدرجة الثانية أو الثالثة[٥٣]. وبينما تضامنت إيطاليا وفرنسا مع العصبة لفرض المذكرة على الباب العالي دون مشاركة بريطانية، كانت الاضطرابات الداخلية في استانبول قد أسفرت عن عزل السلطان عبدالعزيز. وقبل أن يتم تنصيب خليفته مراد الخامس على العرش، تلقى دذرائيلي تقاريراً عن أن روسيا تسعى للقيام بانقلاب معاكس يعيد السلطان المعزول إلى العرش وأن أغناتيف قد حث السلطان عبدالعزيز على الاستنجاد بالأسطول الروسي. واستدراكاً للأمور أمر دذرائيلي الأسطول البريطاني بالتوجه إلى خليج بزيكا (أيار) وبالرسو خارج الدردنيل، كي لا تستغل روسيا اقتحامه للدردنيل وتقوم باحتلال الأستانة والممرات[٥٤]. وكانت هذه الخطوة بداية تورط بريطانيا في الأزمة البلقانية.

وإزاء الموقف البريطاني خففت الدول الخمس الموافقة على مذكرة برلين من تشددها وعرضت في السادس من حزيران على الحكومة العثمانية تأجيل إرسال المذكرة إليها إن هي أصدرت المراسيم الاصلاحية. ولكن بريطانيا رفضت هذه الصيغة المعدلة وهذا مما شجع الحكومة العثمانية من جانبها على رفض المذكرة[٥٥].

• مناورات أندراسي لافشال التقارب الروسي ــ البريطاني:

وبينما وصلت مذكرة برلين إلى طريق مسدود، قام جورشاكوف بخطوة خرج فيها لأول مرة عن سياسته في حل المسألة البلقانية بالتعاون مع العصبة، فدخل في مفاوضات مباشرة مع الحكومة البريطانية بواسطة شوفالوف (Schouvalov) السفير الروسي في لندن. وقد حاول السفير تبديد شكوك بريطانيا بنوايا بلاده تجاه الدولة العثمانية وأنه ليس لديها نيات توسعية في البلقان. فاقترح على الانكليز صيغة حل يقضي بمنح البوسنة والهرسك استقلالاً ذاتياً كالذي حصلت عليه الصرب ورومانيا، أي بمعنى آخر ضرب النفوذ النمساوي/المجري في تلك المنطقتين[٥٦]. وكاد البريطانيون أن يوافقوا لولا أن علم أندراسي بالمفاوضات وتمكن في آخر لحظة من أن يحبط الاتفاق بعدما ناور في اتجاهين:

فبعد جهد كبير تمكن من إقناع الروس بالتخلي عن تلك الفكرة والالتزام بخططه للاصلاح. وفي الوقت ذاته قام بتحذير دربي، وزير الخارجية البريطاني، من مخاطر فكرة الاستقلال أو الاستقلال الذاتي للبوسنة والهرسك على السلام الأوروبي بسبب الاختلافات الدينية والعرقية بين المسيحيين والمسلمين وإمكانية قيام شعوب بلقانية أخرى بالاحتذاء بالمنطقتين والثورة في سبيل الاستقلال مما يعرض السلام الدولي للخطر[٥٧].

— ٤ —

حرب الصرب والجبل الأسود ضد الدولة العثمانية ونتائجها

ومنذ اندلاع ثورة البوسنة والهرسك اكتفت الصرب والجبل الأسود بدعمهما بالمال والمتطوعين، دون أن تتدخلا مباشرة بالقتال. ولكن اتساع الثورة إلى بلغاريا والطريقة التي أُخمدت بها من جانب السلطات العثمانية، إلى جانب تسلم الجماعة المؤيدة للحرب زمام السلطة في الصرب بزعامة ريزتش (Ristic') وزير الخارجية، والضغوطات التي مارسها أغناتيف بواسطة القنصل الروسي في بلغراد — كل هذه الأمور فرضت على الأمير ميلان الرضوخ للرأي العام المؤيد للحرب، رغم أنه كان يعلم جيداً أن بلاده لا تستطيع أن تخرج من الحرب منتصرة[٥٨]. لكن ريزتش وجماعته كانوا يعتقدون أن روسيا سوف لن تترك الصرب فريسة بأيدي العثمانيين، بل ستضطر لدخول الحرب. إلا أن ريزتش لم يضع في اعتباره أنه قبل أن تقدم روسيا على مثل هذه الخطوة، كان عليها تخطي عقبات دبلوماسية داخل عصبة الأباطرة وخارجها، وخلال ذلك الوقت تكون الهزيمة قد لحقت بالصرب[٥٩].

وقبيل الحرب كان الأمير ميلان قد استطلع موقف النمسا/المجر وروسيا من الحرب ضد الدولة العثمانية. فالنمسا/المجر مدعومة من بريطانيا وفرنسا كانت قد حذرت الأمير ميلان من الحرب، حتى أن ممثلها في بلغراد كاد أن يرسل إنذاراً إلى الأمير ميلان بأن القوات النمساوية/المجرية والعثمانية سوف تحتل الصرب إذا ما أعلن الحرب على الدولة العثمانية[٦٠]. أما روسيا فكانت تتعاون رسمياً مع النمسا في تهدئة الصرب والجبل الأسود، ولكنها كانت تريد ضمناً أن تقع الحرب وتشتعل الثورة في كل أنحاء البلقان مما يسهل إعادة بحث المسألة الشرقية بكاملها[٦١].

وبعد إنذار شكلي (٢٧ حزيران ١٨٧٦) أعلنت الصرب الحرب على الدولة العثمانية (٣٠ حزيران) ولحق بها الجبل الأسود في ٢ تموز. وبعد عدة أيام على ذلك (١٠ تموز) عقدت الصرب والجبل الأسود تحالفاً عسكرياً فيما بينهما. وكان مجموع القوات التي حشدتاها يصل إلى ٩٠ ألفاً من الجند، مقابل ١٥٠ ألفاً في الجانب العثماني. وقد وضعت قيادة القوات الصربية بإشراف الجنرال الروسي تشرنيف (Chernaev)، كما انضم إليها عدد كبير من الضباط والمتطوعين الروس[٦٢]. وعند بدء العمليات اندفعت القوات الصربية عبر حدود البوسنة، في حين عبرت قوات الجبل الأسود الحدود إلى الهرسك.

● اتفاقية رايخشتادت بين روسيا والنمسا/المجر (٨ تموز ١٨٧٦):

حتى دخول الصرب والجبل الأسود الحرب ضد الدولة العثمانية ظل التيار الرافض للحرب هو المهيمن في روسيا. لكن بعد ذلك اشتد ضغط أنصار الجامعة السلافية الداعين للحرب وخصوصاً العسكريين منهم. على القيصر لاعلان الحرب على الدولة العثمانية. فمشاركة المتطوعين الروس وقيادة القوات الصربية من قبل ضباط روس وإعلان قيصرة روسيا لنفسها حامية للجمعيات الخيرية الصربية والدعوات التي انطلقت من الكنائس لدعم الصرب وملايين الروبلات التي جمعت لذلك — كل هذه الأمور جعلت بامبرغ (Bamberg) يتساءل عما إذا كانت كل هذه التحركات حصلت داخل روسيا دون موافقة القيصر[٦٣]. ولكن أي تحرك في اتجاه الحرب كان يحمل معه احتمال الصدام مع النمسا/المجر. لذا رأى القيصر أن أية خطوة عسكرية يجب أن يسبقها اتفاق سياسي مع النمسا/المجر.

ولأجل ذلك عُقد في ٨ تموز لقاء في رايخشتادت (Reichstadt) (بوهيميا) بين جورشاكوف وأندراسي اتفق فيه على عدم التدخل في الحرب بالمرحلة الراهنة. لكن إذا ما هُزمت الصرب والجبل الأسود فيجب حرمان الدولة العثمانية من انتصاراتها وإعادة الوضع إلى ما كان عليه سابقاً. أما إذا ما أُلحِقَتْ الهزيمة بالدولة العثمانية فإن روسيا تقوم بضم جنوب بسارابيا، بينما لا تعارض النمسا/المجر استيلاء

روسيا على باطوم ومناطق أخرى على الحدود الآسيوية مع الدولة العثمانية. وفي حال انهيار الدولة العثمانية في أوروبا تقرر أن تعلن استانبول مدينة حرة، وتلحق ابيروس وتيساليا باليونان وتصبح بلغاريا وروميليا مستقلتان ذاتياً او تماماً[٦٤].

ولما كان الاتفاق شفهياً فقد كان عرضة للتفسيرات المتناقضة من قبل الجانبين. فقد فسر كل فريق الاتفاق من وجهة مصالحه. وكانت نقطة الخلاف حول مصير البوسنة والهرسك، هل تضمان إلى النمسا/المجر أو تقسمان بين الصرب والجبل الأسود الخاضعتان للنفوذ الروسي؟ كذلك أبدت بريطانيا انزعاجها من تلك الخطط التي تدعو لتقسيم الدولة العثمانية في البلقان، دون أي اعتبار للتوازن الدولي المرتبط بذلك.

• هزيمة الصرب والتورط الروسي:

وبينما حقق الجبل الأسود نجاحات كبيرة في الحرب، كانت الصرب تتلقى الهزيمة تلو الأخرى مما جعل القيصر (٢٧ ايلول) يعاود الاتصال بالنمسا/المجر مقترحاً عليها هذه المرة احتلال البوسنة والهرسك، مقابل احتلال بلاده لبلغاريا[٦٥]. هذا في حين كان أغناتيف من استانبول يدعو الدول الكبرى إلى الموافقة على إعلان استقلال بلغاريا والبوسنة والهرسك (١٩ ت١ ١٨٦٧)[٦٦]. وهكذا أخذت روسيا تطور مشروع تقسيم الدولة العثمانية ليشمل بلغاريا، وهذا يظهر التوجه الجديد الذي سارت فيه الدبلوماسية الروسية في طريق الجامعة السلافية ووضع السلاف الجنوبيين تحت هيمنتها. ولذلك رفضت النمسا/المجر وبريطانيا هذه المقترحات، رغم أن القيصر دعاها مع غيرها من الدول الكبرى إلى إرسال أساطيلها والقيام بمظاهرة بحرية أمام استانبول[٦٧]. فبدلاً من ذلك اقترحت النمسا/المجر حل الأزمة دبلوماسياً بعمل مشترك للدول الكبرى في استانبول.

وقبل أن تدرس الدول الاقتراح النمساوي/المجري كانت التطورات تسير مسرعة على الأرض. فقد انهزمت الصرب بعدما كانت قد خرقت الهدنة التي كانت الدول الكبرى قد فرضتها (٢٧ ت١) وباتت الطريق إلى بلغراد مفتوحة أمام الجيش العثماني. وهذا ما دفع قيصر روسيا مهدداً بالحرب إلى توجيه إنذار إلى الباب العالي لوقف القتال خلال ٤٨ ساعة وعقد هدنة من ٦ ــ ٨ أسابيع[٦٨]. ولم يكن أمام الباب العالي سوى الرضوخ للانذار الروسي (٣١ ت١ ١٨٧٦). أما في بريطانيا فقد سبب الانذار استياء، فوصفته ملكتها بـ «المتهور»[٦٩].

ولم تكن هزيمة الصرب لتمر دون ردود فعل داخل روسيا. فقد سببت خيبة أمل لدى أنصار الجامعة السلافية فتحولوا عن الصرب إلى بلغاريا لتكون سلاحاً ضد الدولة العثمانية ومنطقة نفوذ لروسيا. كذلك وضعت هزيمة الصرب القيادة الروسية وسمعتها كحامية للسلاف في مواجهة الرأي العام الروسي المطالب بالحرب على المحك، ليس فقط لحماية البوسنة والهرسك أو الصرب، بل جميع سلاف البلقان. وهكذا أصبحت المسألة بالنسبة للقيادة الروسية «**الحرب ضد تركيا أو المجازفة باضطرابات داخل البلاد**»[٧٠]. وهذا ما دفع القيصر إلى إبلاغ السفير البريطاني في بطرسبرغ (٢ ت٢ ١٨٧٦) بأنه إذا لم يجد لدى الدول الكبرى حلاً للمسألة فإنه يعتزم العمل منفرداً، وقد يضطر لاحتلال بلغاريا، لكن دون المساس باستانبول أو بالمصالح البريطانية مع الهند[٧١].

ورغم خطورة تصريحه إلا أنه يفهم منه أن القيصر ظل يأمل بإمكانية إيجاد حل سلمي للمسألة بواسطة الدول الكبرى يضمن لروسيا مصالحها البلقانية. فاستغل دربي (Derby) ذلك ودعا (٤ ت٢) إلى عقد مؤتمر دولي في الأستانة للنظر في تلك المشاكل وإيجاد حل لها. ولكن دربي اشترط موافقة الدول الكبرى المسبقة على عدة ثوابت كان أهمها «**تأكيد الدول الكبرى على استقلال وسيادة الدولة العثمانية الاقليمية**» وحصول البوسنة والهرسك على استقلال إداري فقط (إرضاء للنمسا/المجر)[٧٢]. وفي رده على دربي (٦ ت٢) قبل القيصر جميع المقترحات البريطانية باستثناء ما يتعلق منها باستقلال وسيادة الدولة العثمانية الاقليمية، إذ رأى أن على الدول الكبرى احتلال أراضٍ عثمانية واستخدامها كضمان لتنفيذ الباب العالي

للاصلاحات. كما اقترح على دربي أن تقوم روسيا بذلك باسم الدول الكبرى مستشهداً بالعزو الفرنسي «للبنان» عام ١٨٦٠[٧٣]. لكن بريطانيا رفضت ذلك إذ كانت تدرك أن روسيا سوف تحول الاحتلال المؤقت باسم الدول الكبرى إلى احتلال دائم لحسابها. وإزاء الرفض البريطاني اضطر القيصر إلى قبول الثوابت البريطانية كاملة. إلا أنه كرر تحذيره (١١ ت٢) بأنه سيلجأ إلى السلاح إذا ما فشل مؤتمر الأستانة، وعندئذ «**فإنه مقتنع بأن روسيا ستستجيب (لندائه) عندما ترى أن شرف روسيا يتطلب ذلك**»[٧٤]. ولكي يعطي تحذيره القوة الكافية أعلن في ١٣ ت٢ نصف تعبئة باستدعاء ست فرق من الجيش وعين شقيقه الدوق نيقولا قائداً للجبهة[٧٥]. وتحت هذه الظروف وفد ممثلو الدول الكبرى إلى الأستانة للمشاركة في المؤتمر.

• مؤتمر الأستانة والدستور العثماني:

عقدت جلسات المؤتمر على مرحلتين: مرحلة اولى واستمرت من ١١ ك١ ــ ٢٢ ك١ ١٨٧٦ وشاركت فيها الدول الأوروبية فقط، بعدما استبعدت الدولة العثمانية عن تلك الجلسات بناء على اقتراح المندوب الروسي. أما المرحلة الثانية فبدأت في ٢٣ ك١ ١٨٧٦ واستمرت متقطعة حتى ١٨ ك٢ ١٨٧٧ وانضمت إليها الدولة العثمانية. وقد شارك في المؤتمر ممثلو الدول الكبرى. على أن أبرز هؤلاء كان أغناتيف، مندوب روسيا، وسالسبوري (Salisbury)، مندوب بريطانيا. ومما يلفت النظر التقارب الذي حدث بين سالسبوري وأغناتيف خلال جلسات المؤتمر، خاصة أن الأول كان يرى استحالة استمرار الحكومة البريطانية بسياستها التقليدية في المحافظة على سلامة الدولة العثمانية. وكان سالسبوري متحمساً لمسيحيي البلقان ولا يخشى روسيا، بل كان يرى ضرورة وجود تفاهم بينها وبين بريطانيا[٧٦]. وقد استغل اغناتيف آراء سالسبوري هذه إلى أقصى الحدود، بحيث جاءت قرارات المؤتمر لمصلحة روسيا، رغم ما أدخل عليها من تعديلات.

وكانت أهم النقاط التي اتفق عليها المؤتمرون: توحيد البوسنة والهرسك في ولاية واحدة يحكمها حاكم يعين من قبل الحكومة العثمانية بموافقة الدول الكبرى، على أن ترسل هذه الولاية الجديدة ثلث عائداتها فقط إلى الخزينة العثمانية ــ إعطاء الجبل الأسود والصرب مكاسب إقليمية بسيطة ــ الاعتراف باللغة السلافية لغة رسمية للاقليم ــ إنشاء لجنة دولية للاشراف على تنفيذ الاصلاحات[٧٧]. أما مشروع أغناتيف القاضي بخلق دولة بلغارية كبيرة تمتد من البحر الأسود إلى الصرب القديمة في الغرب مع ساحل على بحر إيجه، فقد رُفض بشدة من قبل سالسبوري، رغم تقارب الأخير إلى أغناتيف واقتناعه بحتمية انهيار الدولة العثمانية. وكان سالسبوري يرى أن قيام بلغاريا الكبرى سوف يقضي على استقلال الدولة العثمانية[٧٨]. وبتأييد من مندوب النمسا/المجر تمكن سالسبوري من تعديل الاقتراح وتم الاتفاق على تقسيم دولة بلغاريا الكبرى التي اقترحها أغناتيف إلى قسمين، واحد شرقي، والآخر غربي، على أن تحرم من منفذ على بحر إيجه[٧٩]. وكان هذا يتناسب مع استراتيجية كل من بريطانيا والنمسا/المجر في المسألة الشرقية.

وفي ٢٣ ك١ ١٨٧٦ افتتحت أول جلسة رسمية للمؤتمر بحضور المفاوض العثماني. ولكن بعد قليل على بدء الجلسة أبلغ المؤتمرون بأن السلطان عبدالحميد قد أصدر دستوراً للبلاد من عمل مدحت باشا، الذي كان السلطان قد عينه صدراً أعظماً في ٢٥ ت٢ ١٨٧٦. ونص الدستور على إنشاء برلماناً (مجلس المبعوثان) ومجلساً للشيوخ (مجلس الأعيان). كما لحظ إعادة تنظيم القضاء وجعله مستقلاً وتشكيل إدارة للولايات على أساس اللامركزية وضمان الحرية الكاملة لجميع السكان وجباية الضرائب بصورة عادلة[٨٠].

وكان الهدف من توقيت إصدار الدستور مع افتتاح أولى جلسات المؤتمر الرسمية هو قطع الطريق على الدول الأوروبية للتدخل السافر بشؤون الدولة الداخلية لحماية المسيحيين وإفهامها أن ما صدر عنها من قرارات لصالح المسيحيين لا حاجة لها، طالما أن الدولة العثمانية قد أصبحت دولة دستورية وأن رعاياها يتمتعون



□ مدحت باشا وسكرتيره

بالحرية والمساواة بموجب الدستور. وعلى هذا الأساس رفض الباب العالي مقررات مؤتمر الأستانة، وخصوصاً تلك التي تتعلق ببلغاريا ولجنة المراقبة الدولية[٨١]، وقد برر مسلكه بأن معاهدة باريس ومعاهدة ١٥ نيسان ١٨٥٦ بين بريطانيا وفرنسا والنمسا قد نصتا على عدم تدخل الدول الأوروبية مجتمعة أو منفردة في شؤون السلطنة الداخلية[٨٢]. ولكي يدعم السلطان عبدالحميد قرار حكومته استحصل على موافقة جماعية برفض المقررات من مجلس ضم أكثر من ٢٤٠ شخصية من رجالات الدولة ومندوبين مسيحيين ويهود (١٨ ك٢ ١٨٧٧)[٨٣].

ورغم احتجاج أغناتيف على الرفض العثماني وسؤال جورشاكوف الدول المشاركة عن الموقف الذي ستتخذه، فقد انفض المؤتمر لتعذر الاتفاق بين الدول على السبل التي قد تجعل الباب العالي يوافق على المقررات. وعلى ما يبدو فقد كان الباب العالي مشجعاً برفضه من قبل السير هنري اليوت (Sir Henry Elliot) السفير البريطاني في الأستانة ذو الاتجاهات العثمانية[٨٤]. وكان اليوت يحظى بتأييد دذرائيلي ودربي ويؤيد سياسة المحافظة على سلامة الدولة العثمانية على عكس سالسبوري. وهذا ما جعل الأخير يطلب خلال جلسات المؤتمر نقل اليوت من الأستانة دون أن ينجح في ذلك. فدذرائيلي، الذي رفض استخدام الأسطول البريطاني للضغط على الحكومة العثمانية لقبول المقررات، انتقد ودربي الليونة التي أظهرها سالسبوري في المؤتمر تجاه المطالب الروسية، حتى أن دربي وصفه بأنه كان «**روسياً أكثر من إيجناتيف**»[٨٥]. ولهذا أخبر دربي السفير العثماني في لندن (١٠ ك٢ ١٨٧٧) أن حكومته سوف تعارض أية إجراءات قسرية ضد الدولة العثمانية[٨٦]. ولهذا أيضاً تصلب العثمانيون بموقفهم بعدما شعروا أن بريطانيا لن تتخلى عنهم في حال أعلنت روسيا الحرب عليهم. وعندما عقدت الدولة العثمانية في ٢٨ شباط ١٨٧٧ اتفاقية مع الصرب لاعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الحرب، تشجعت بريطانيا بتلك المبادرة وأعلنت أنها تعطي الدولة العثمانية مهلة سنة لتنفيذ الاصلاحات. ولكن روسيا رفضت ذلك وأعلنت أنها لا تستطيع إبقاء جيشها تحت السلاح طوال هذه الفترة[٨٧]. وكان معنى هذا أن روسيا لم يعد أمامها سوى خيار الحرب.

وبالفعل خرجت روسيا من مؤتمر الأستانة وهي تدرك أن الحرب هي الحل المتبقي لها لتأمين مصالحها. ويذكر بامبرغ نقلاً عن مدحت باشا أن إصدار الدستور العثماني هو الذي عجل بالحرب، لأن روسيا خشيت من أن يعقد المسيحيون في الدولة العثمانية الآمال على الدستور الجديد وتفقد بذلك تعاطفهم مع مخططاتها ومبرر تدخلها في البلقان وسائر أنحاء الامبراطورية[٨٨].

• بروتوكول لندن (٣١ آذار ١٨٧٧):

وعندما بحث مجلس الوزراء الروسي مسألة إعلان الحرب انقسم على نفسه بين مؤيد ورافض لها، حتى أن أغناتيف الداعي للحرب كان يرى أن بلاده قد تأخرت في ذلك وأضاعت على نفسها نصراً مؤكداً. ولهذا دعا أغناتيف المجلس إلى إيجاد حل سلمي وتأمين عمل موحد للدول الكبرى. وقد وافق المجلس على اقتراحه وطلب إليه القيام برحلة أوروبية، في الوقت الذي تستمر فيه روسيا باستعداداتها الحربية وإتمام التحالفات البلقانية الضرورية لذلك[٨٩].

وفي آذار ١٨٧٧ زار أغناتيف برلين وباريس ولندن وفيينا وعرض مشروعاً يدعو الحكومة العثمانية لعقد السلام مع الجبل الأسود وفقاً لبنود مؤتمر الأستانة وإجراء الاصلاحات المنشودة وأخيراً إلغاء حالة الاستنفار في الجيش العثماني. وبينما أكد بسمارك لأغناتيف حياد ألمانيا طالما ظل الصراع محصوراً بين روسيا والدولة العثمانية ولم يمس بعصبة الأباطرة، كان الفرنسيون متحفظون تجاه إلغاء حالة الاستعداد العسكري من جانب واحد. وفي لندن وفيينا اشترطت حكومتا البلدين إلغاء روسيا أولاً حالة الاستنفار قبل بحث أي حل للمسألة.

ورغم هذه الردود استطاع اغناتيف إقناع الدول الكبرى أن بلاده لا تستطيع إلغاء حالة الاستعداد العسكري لأن الجبل الأسود لا يزال في حالة حرب ضد الدولة العثمانية[٩٠]. كما أعلن عن استعداد روسيا للتخلي عن إحدى

بنود مؤتمر الأستانة المتعلق بإجراء الاصلاحات العثمانية بإشراف لجنة دولية[٩١]. وهكذا تمكن أغناتيف من الحصول على موافقة الدول الكبرى على «بروتوكول لندن» (٣١ آذار ١٨٧٧)، الذي دعا الدولة العثمانية لاجراء الاصلاحات وإلغاء حالة الاستنفار وعقد السلام مع الجبل الأسود. وفي نهاية البروتوكول حذرت الدول الحكومة العثمانية بأنه إذا لم تتحسن أحوال المسيحيين عندها، فإنها، أي الدول الكبرى، سوف تتصرف مجتمعة لأجل مصلحة أوروبا[٩٢].

ورغم توقيعها على البروتوكول، فإن الحكومة البريطانية أعلنت أنها لن تنفذ التحذير ما لم تقم روسيا والدولة العثمانية بإلغاء حالة الاستنفار في آن واحد[٩٣]. وفي ٩ نيسان رفضت الدولة العثمانية بروتوكول لندن، لأنه نص على تجريدها من سلاحها، بينما يحتفظ الروس المتربصون بالسلطنة بسلاحهم.

— ٥ —

الحرب الروسية العثمانية (٢٤ نيسان ١٨٧٧ ــ ٣١ ك٢ ١٨٧٨)

● التحضيرات الروسية للحرب:

حتى قبل أن ينفض مؤتمر الأستانة كانت روسيا تدرك أن المؤتمر لن يصل إلى أية نتيجة. ولهذا استبقت فشله وعقدت معاهدة عسكرية مع النمسا/المجر (١٥ ك٢ ١٨٧٧) نصت على أن تحتل النمسا/المجر البوسنة والهرسك مقابل حيادها في الحرب الروسية العثمانية المقبلة. ثم ما لبثت الدولتان أن طورتا المعاهدة إلى اتفاقية سياسية (١٨ آذار) سمحت للنمسا استبدال احتلالها للبوسنة والهرسك إلى ضم للمنطقتين، مقابل استيلاء روسيا على جنوب بسارابيا. ووفقاً لمعاهدة ١٨ ك٢ واتفاقية ١٨ آذار تقرر أن يكون سنجق نوفي بازار منطقة محايدة وعدم احتلال القوات الروسية لرومانيا وإلا تقدم الصرب والجبل الأسود مساعدات عسكرية لروسيا إلا خارج حدودهما. وأخيراً اتفق على عدم قيام دولة سلافية كبيرة في البلقان وتبادل الدعم الدبلوماسي لمواجهة أي تحرك دولي ضد سياستهما البلقانية.

وفي حال انهيار الدولة العثمانية في أوروبا، اتفق على جعل الأستانة مدينة حرة[٩٤]. وباختصار، فقد أدركت الحكومة النمساوية/المجرية أنه لا يمكنها منع تدخل روسيا في البلقان، ففضلت التزام «الحياد الودي»، والحصول على البوسنة والهرسك مقابل ضم روسيا لجنوب بسارابيا وامتناعها عن دولة بلغارية كبرى.

وتلى الاتفاق مع النمسا/المجر اتفاقيتين عسكرية/فنية وأخرى سياسية (١٦ نيسان) مع رومانيا. وبموجب هاتين الاتفاقيتين سمحت رومانيا، ولم يكن لديها خيار آخر، للجيش الروسي الزاحف إلى البلقان بعبور اراضيها وتعهدت بالمشاركة بالحرب ضد الدولة العثمانية. ومقابل ذلك تعهدت روسيا باحترام الحقوق السياسية لدولة رومانيا والمحافظة والدفاع عن سيادتها[٩٥].

● اندلاع القتال:

وفي ٢٤ نيسان ١٨٧٧ أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية وعبر جيشها نهر بروث، فيما كانت قوات روسية أخرى تهاجم الأراضي العثمانية في القوقاز. وفي ١٣ أيار انضمت رومانيا إلى الحرب، لكن الروس لم يسمحوا للجيش الروماني بالعمل مستقلاً، بل ضمن وحدات الجيش الروسي. كذلك انضم متطوعون بلغار إلى الجيش الروسي. وسواء في أوروبا أو في آسيا فقد اتسم تقدم الجيوش الروسية عبر الأراضي العثمانية في مراحل الحرب الأولى بالبطء الشديد. فعلى الجبهة الأوروبية لم يتمكن العثمانيون من عبور الدانوب قبل ٢٣ حزيران. وبعد ذلك اتجهوا جنوباً نحو جبال البلقان حيث أوقفتهم المقاومة العثمانية غير المتوقعة عند بلفنا (Plevna) حتى أواخر تشرين الثاني. وفي آسيا تلقى الروس أيضاً صدمة مؤقتة عند قلعة قارس. لكنهم حققوا بعد ذلك انتصارات سريعة وحاسمة على الجيش العثماني.

وعلى عكس حروبها السابقة ضد الدولة العثمانية شددت روسيا في بيان الحرب الحالية على العامل القومي لشعوب البلقان واعلنت أنها تخوض الحرب لأجل تحريرهم من الحكم العثماني. ففي كلمة له عند إعلان الحرب خاطب

القيصر البلغار قائلاً: «**يا مسيحيي بلغاريا، أنتم تمرون في فترة حاسمة. لقد حانت ساعة الخلاص من الطغيان الاسلامي.. تكتلوا تحت الراية الروسية.. أطيعوا السلطات الروسية واتبعوا تعليماتها بإخلاص.. ففيها تجدون قوتكم وأمنكم**»[٩٦].

وكانت القيادة الروسية وفي مقدمتها جورشاكوف وسوسولوف تريد حرباً سريعة وألا تعبر الجيوش الروسية جبال البلقان وتقيم دولة بلغارية في جنوبيها. وكان الاثنان يريان أن سياسة «معتدلة» كهذه سوف تجنب البلاد تعقيدات دولية، خصوصاً مع شريكتيها في عصبة الأباطرة الثلاث أو مع بريطانيا. ومقابل هذا التيار كان أنصار الجامعة السلافية يرون — في ضوء ضعف الجيش العثماني والوضع الدولي — فرصة ذهبية لخلق دولة بلغارية كبرى والاستحواذ على الأستانة و «**إعادة بعث العالم السلافي**»[٩٧].

● مواقف الدول الكبرى من الحرب:

وفي اليوم الذي أعلنت روسيا فيه الحرب على الدولة العثمانية، ذكّر الباب العالي الدول الأوروبية الموقعة على معاهدتي باريس والضمان بالتزاماتها في الدفاع عن استقلال وسيادة الدولة العثمانية واعتبار ذلك مصلحة أوروبية عامة[٩٨]. ولكن الأوضاع الدولية عشية الحرب كانت في مصلحة روسيا وتمنع قيام أي تكتل أوروبي ضدها كالذي حصل خلال حرب القرم. فما هي إذن هذه الأوضاع؟ وكيف كان الموقف الدولي خلال الحرب؟

وفيما كانت إيطاليا وفرنسا غير مباليتين بالحرب الروسية العثمانية، انحصر التحرك الدولي في النمسا/المجر وألمانيا وبريطانيا. وكانت النمسا/المجر لا تمانع بموجب الاتفاقيتين السالفتين الذكر مع روسيا حرباً روسية عثمانية، شرط ألا تخل بالتوازن في البلقان وتضر بمصالحها الاستراتيجية، ومنها خلق دولة بلغارية. وطالما أن استراتيجية الحرب الروسية لن تتعدى هذه الحدود، رأت النمسا/المجر ألا تتدخل في الحرب، خصوصاً أنها أرادت أن تحافظ على علاقاتها مع روسيا ضمن عصبة الأباطرة الثلاث[٩٩]. أما ألمانيا فأعلنت أنها ستقف على الحياد في المسألة الشرقية. لكن بسمارك، الذي كان يدرك أخطار الجامعة السلافية على استقلال النمسا/المجر، أعلن أن بلاده سوف لن تقف مكتوفة اليدين إذا ما تعرض استقلال النمسا/المجر للخطر[١٠٠] وكان هذا تحذيراً غير مباشر لروسيا من مغبة الاعتماد على مساعدة ألمانيا في أية حرب ضد الشريك الثالث في العصبة، كما كان أحد الأسباب التي جعلت روسيا تسعى للاتفاق مع النمسا/المجر قبل بدء الحرب. ومع ذلك فقد كان بسمارك يخشى ألا تسير الأمور كما يشتهي وتتورط الدول الأوروبية في حرب عامة كما حدث في حرب القرم مما قد يؤدي إلى قيام تحالفات جديدة تنسف مركز ألمانيا الدقيق في التوازن الأوروبي. ولذلك رأى أن أفضل وسيلة هي إشباع أطماع الدول الكبرى بمسائل بعيدة عن وسط أوروبا. ومن هنا جاء اقتراحه بحل المسألة الشرقية عن طريق تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بين الدول الكبرى. فالمسألة الشرقية بالنسبة له لم تكن تستحق «**التضحية بعظمة جندي ألماني**»[١٠١]. وفي ١٥ حزيران ١٨٧٣ عاد إلى ما كان قد عرضه على روسيا والنمسا/المجر في ك٢ ١٨٧٦ بتقسيم البلقان بينهما، في حين تحصل بريطانيا على مصر وتعوض فرنسا بتونس وإيطاليا بطرابلس. أما بالنسبة للأستانة فرأى بسمارك أن تكون منطقة نفوذ روسية[١٠٢].

وكانت أولى ردود الفعل البريطانية على عروض بسمارك غاضبة. فقد اعتقد الانكليز بأن بسمارك يسعى لأن يضرب بريطانيا بروسيا. وقد صرح دزرائيلي، الذي كان لا يثق ببسمارك، أن بلاده لا تحتاج لاذنه إذا ما قررت احتلال مصر، وأن قوة بريطانيا «**هي في البحر؛ إن الأستانة هي مفتاح الهند وليست مصر وقناة السويس**»[١٠٣]. والواقع إن تأكيد دزرائيلي على أهمية الممرات لبريطانيا جاء في وقت كانت «شركة الهند الشرقية» تطلق صيحات الخوف من التطورات الحاصلة في الشرق، إذ اعتبرت المسألة الشرقية «**مسألة روسية هندية**» وطالبت «**بضمان حياد الأستانة وبرزخ السويس حيث أنهما يؤثران على المواصلات إلى الهند وعلى علاقتنا (بريطانيا) مع**

روسيا، حيث أصبحت الأخيرة جارتنا، بعدما استقرت في آسيا الصغرى وعلى حدودنا الهندية»[١٠٤].

والجدير بالذكر أن الحكومة البريطانية كانت قبل شهر على عروض بسمارك وبسبب انقسامها حول عمل موحد ضد روسيا يقي مصالحها من الضرر، قد اكتفت بتوجيه إنذار إلى الأخيرة (٦ أيار ١٨٧٧) بعدم التعرض لمصالحها التجارية أو الاستراتيجية وهي الطريق إلى الهند (قناة السويس، والممرات العثمانية والأستانة). وفي رده على دربي (٣٠ أيار) نفى جروشاكوف أية نية لبلاده لتعطيل الملاحة في قناة السويس أو احتلال الأستانة، لأن الأخيرة مسألة أوروبية عامة[١٠٥]. وفي ١٧ و ٢١ تموز تكرر الانذار البريطاني، حينما كان الجيش الروسي مندفعاً نحو جبال البلقان. وفي الوقت ذاته (٢٨ تموز) لم تنجح بريطانيا في جر النمسا/المجر إلى تحالف معها ضد روسيا[١٠٧].

● معاهدة سان استيفانو (٣ آذار ١٨٧٨) ونتائجها:

وكما ذكرنا آنفاً، فقد توقف الزحف الروسي في الجبهة الأوروبية عند قلعة بلفنا، بعدما استبسل العثمانيون بقيادة عثمان باشا في الدفاع عنها. وقد اضطر هذا القيادة الروسية إلى طلب العون من دول البلقان. إلا أن هذه الدول ترددت في ذلك، إذ خشيت من أن يتمكن العثمانيون من سحق الجيش الروسي. ولكن المقاومة العثمانية انهارت في ١١ ك١ ١٨٧٧، مما جعل دربي يحذر روسيا مجددا بأن بلاده سوف لن تقف مكتوفة اليدين حتى ولو احتلت روسيا الممرات والأستانة احتلالاً مؤقتاً. وبعدما رفض الروس وساطة بريطانية لانهاء الحرب[١٠٨]، اندفعوا بقواتهم واحتلوا صوفيا وادرنة (ك٢ ١٨٧٨). ثم ما لبثت روسيا والدولة العثمانية أن توصلتا إلى عقد هدنة (٣١ ك٢ ١٨٧٨). وبموجب البند الخامس لاتفاقية الهدنة تعهد السلطان العثماني **«بالوصول إلى اتفاق مع قيصر روسيا في سبيل الحفاظ على حقوق روسيا ومصالحها في ممرات البسفور والدردنيل»**[١٠٩]، وهو ما أثار بريطانيا. كذلك نصت الاتفاقية على إيجاد دولة بلغارية في البلقان.

وبعد هذا الاتفاق أخذت الحكومة البريطانية تدرك أكثر مخاطر السياسة الروسية على مصالحها، ولم تعد المسألة هي المحافظة على الدولة العثمانية، بقدر ما أصبحت **مسألة التفوق الروسي أو البريطاني في العالم**[١١٠] ولهذا قررت الحكومة البريطانية في شباط صرف مبلغ ستة ملايين جنيه استرليني لدعم قدرات البلاد العسكرية[١١١]. وفي الوقت ذاته حاولت فاشلة إنشاء جبهة من دول البحر المتوسط ضد النفوذ الروسي[١١٢]. وبعد تردد أمرت الحكومة البريطانية أسطولها بالتقدم نحو الممرات (١٢ شباط ١٨٧٨) وسط احتجاج عثماني واستقالة دربي[١١٣]. وبموافقة عثمانية رد الروس على التحرك البريطاني بالتقدم إلى سان استيفانو (San Stefano) حيث عسكروا على بعد عشرة أميال من العاصمة العثمانية. وهكذا أصبح الأسطول البريطاني في الممرات، بينما الجيش الروسي في سان استيفانو ولا يفصل بينهما سوى مسافة خمسين ميلاً[١١٤]. وبدى أن الحرب أصبحت وشيكة بين الدولتين. ولكن روسيا توصلت في ٣ آذار ١٨٧٨ إلى معاهدة سان استيفانو مع الدولة العثمانية. وقد أوجدت المعاهدة دولة بلغارية كبيرة تمتد من البحر الأسود إلى بحر إيجه. وتضم روميليا الشرقية ومقدونيا. كما تخلت الدولة العثمانية إلى روسيا عن قارس وباطوم وأردهان وبايزيد كجزء من تعويضات الحرب التي كان عليها أن تدفعها إلى روسيا. كما ضُمت جنوب بسارابيا إلى روسيا، مقابل إعطاء جزء من إقليم دبروجة (Dobrudja) إلى رومانيا. أما الصرب والجبل الأسود فتقرر حصولهما على مكاسب إقليمية ومنحهما مع رومانيا الاستقلال. كما قضت الاتفاقية تنفيذ الاصلاحات التي كان مؤتمر الأستانة قد قررها للبوسنة والهرسك. وهكذا لم تُبق الاتفاقية للدولة العثمانية في أوروبا سوى منطقتين منفصلتين، تراقيا الشرقية والبانيا وسهول فاردار في الجانب الآخر وتفصل بينهما بلغاريا الكبرى[١١٥].

وقُوبلت اتفاقية سان استيفانو بعاصفة من الاحتجاج من جانب دول البلقان، بريطانيا



□ مؤتمر برلين والوفود المشاركة



والنمسا/المجر. فدول البلقان شعرت أن التوازن في شبه الجزيرة قد اختل لصالح بلغاريا الواقعة تحت النفوذ الروسي. أما بريطانيا فوجدت بقيام دولة بلغارية كبرى تحت النفوذ الروسي مع منفذ على بحر إيجه، وكذلك استيلاء روسيا على مناطق عثمانية في آسيا الصغرى تهديداً للهند ولمصالحها في الممرات والأستانة. فقامت على الفور باستدعاء ٧٠٠٠ جندي من الهند[١١٦]. ولم يكن قيام دولة بلغارية كبرى مع منفذ على البحر هو الذي أقلق النمسا/المجر فحسب، بل اتساع تلك الدولة نحو الغرب، وهو الذي اعتبرته انتهاكاً صارخاً لاتفاقية ١٨ آذار ١٨٧٧[١١٧]. فهددت النمسا/المجر باحتلال البوسنة والهرسك وأعلنت التعبئة في دلماشيا وفي ولايات الدانوب[١١٨]. كما أعلنت أن عقد السلام بين روسيا والدولة العثمانية هي مسألة أوروبية يجب أن تحظى باتفاق الدول الكبرى. بل إن النمسا/المجر دعت بناء على ذلك إلى عقد مؤتمر دولي. وفي حين وافقت معظم الدول على عقد مؤتمر، ربطت بريطانيا مشاركتها فيه بمناقشة بنود اتفاقية سان استيفانو على طاولة المفاوضات. إلا أن روسيا رفضت ذلك في البداية، ثم ما لبثت أن وافقت بعدما رأت إجماعاً دولياً حول تلك المسألة، وبعدما أدركت أن الأوضاع المالية والعسكرية السيئة للبلاد لا تسمح بخوض حرب جديدة[١١٩].

وقبل عقد مؤتمر برلين الذي دعا إليه بسمارك، حاولت روسيا أن تمنع أي تقارب بين النمسا/المجر وبريطانيا، كي تأتي الدولتان إلى المؤتمر دون اتفاق مسبق بينهما حول حل المسألة. لذلك دخلت روسيا في مفاوضات مع النمسا/المجر دون التوصل لأي اتفاق بسبب تضارب مصالحهما في البلقان[١٢٠]. وفي الوقت ذاته كانت روسيا تجري مباحثات مع الحكومة البريطانية عن طريق سفيرها في لندن. وفي ٢٠ أيار توصلت الدولتان إلى اتفاق تعهدت روسيا بموجبه لبريطانيا الا تمتد بلغاريا جنوبي جبال البلقان. ومقابل ذلك وافقت بريطانيا على استيلاء روسيا على باطوم وقارس وجنوب بسارابيا[١٢١]. ولما كانت بريطانيا تدرك أن توسع روسيا في آسيا اصغرى سيؤثر على مصالحها في الهند، قررت الحصول على قاعدة في أراضي الدولة العثمانية تكون مفتاحاً لغرب آسيا. فوقع اختيارها على جزيرة قبرص فاحتلتها بموافقة السلطان، بعدما تعهدت لقاء ذلك بالدفاع عن ممتلكاته في آسيا ضد روسيا[١٢٢].

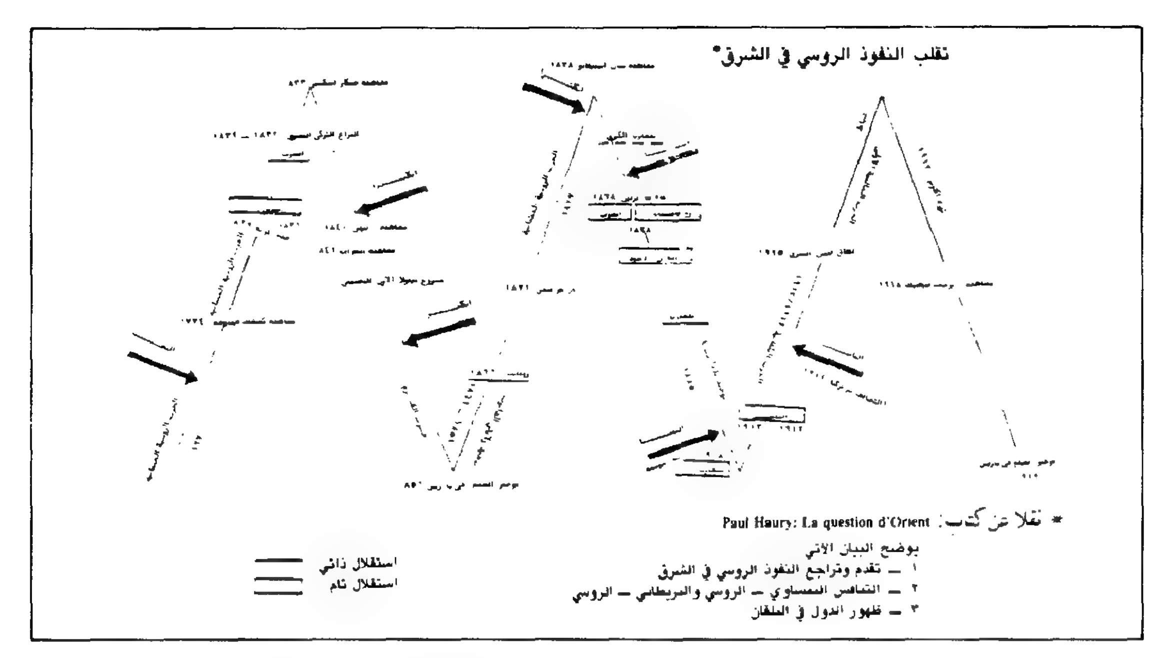
ورغم اتفاقها مع روسيا، فإن بريطانيا لم تشأ الذهاب إلى مؤتمر برلين وحيدة. ولذا عقدت مع النمسا/المجر اتفاقاً (٦ حزيران) يقضي بمنع قيام دولة بلغارية كبيرة تمتد عبر جبال البلقان وعلى إعادة المناطق البلغارية المنزوعة من الدولة العثمانية إلى سيادة السلطان. وأخيراً تعهدت بريطانيا بدعم مطالب النمسا/المجر بالبوسنة في مؤتمر برلين[١٢٣].

— ٦ —

مؤتمر برلين
(١٣ حزيران — ١٣ تموز ١٨٧٨)

افتتح مؤتمر برلين في ١٣ حزيران بعد دعوة وجهها بسمارك إلى الدول الكبرى. وعدا اليونان، فقد استثنيت دول البلقان من الدعوة بسبب إصرار روسيا على ذلك. ورغم أن المسألة البلغارية كانت من أكثر المسائل أهمية على طاولة المفاوضات، فلم يحضر البلغار المؤتمر، إذ أصرت روسيا على التحدث باسمهم. وبنتيجة المؤتمر (معاهدة برلين) منحت الصرب، رومانيا، والجبل الأسود استقلالاً تاماً، وبلغاريا استقلالاً ذاتياً مع دفع الجزية للسلطان. كما أعيدت مقدونيا إلى الدولة العثمانية. أما روميليا الشرقية، وهي بلغاريا الجنوبية، فجعلت ولاية مستقلة ذاتياً تحت سيادة السلطان. ومقابل ضم روسيا لجنوب بسارابيا، حصلت رومانيا على تعويض بضم إقليم دبروجة. ولعل أهم المقررات التي اتخذها المؤتمر فيما يتعلق بمصير مناطق أوروبا العثمانية كانت منح النمسا/المجر حق احتلال البوسنة والهرسك وسنجق نوفي بازار. وفي آسيا الصغرى تقرر ضم روسيا منطقتي باطوم وقارس وأردهان وإعادة بايزيد التي احتلتها روسيا خلال الحرب إلى الدولة العثمانية[١٢٤].

وكان من نتائج المؤتمر أن الجامعة السلافية، التي عملت روسيا على تنميتها بعد ١٨٥٦



ووصلت إلى ذروتها في معاهدة سان استيفانو، قد أجهضت خلال مؤتمر برلين من قبل الدول الكبرى، بريطانيا، النمسا/المجر والمانيا. فبسمارك، الذي عرض أن يكون «وسيطاً أميناً» (Ehrlicher Makler) بين الفرقاء، لم يدخر جهداً في مساعدة النمسا/المجر وبريطانيا على رسم خريطة البلقان، في حين استعادت الدولة العثمانية الكثير من ممتلكاتها التي خسرتها خلال الحرب. ولهذه الأسباب خسرت روسيا كثيراً من نفوذها في البلقان، بينما تحطمت عصبة الأباطرة الثلاث في السنوات التالية وارتمت روسيا في احضان فرنسا. ●

الهـــوامش

(١) انظر: Hajo Holborn: Deutschland und die Tuerkei 1878-1890, Berlin 1926, P. 6

وعلى إثر تدخل القنصل الألماني بالقدس في نزاع روسيا مع الكليروس اليوناني أوعز بسمارك (١٨٧٢) إلى جميع القناصل الألمان في الشرق بالامتناع عن التدخل في الشؤون السياسية للمنطقة، انظر:

Derek Hopwood: The Russian Presence in Syria and Palestine 1843-1914: Church and Politics in the Near East, Oxford 1969, P. 184.

(٢) انظر: B.H. Sumner: Russia and the Balkans 1870-1880, Oxford 1937, PP. 2-15; Barbara Jelavich: A Century of Russian Foreign Policy 1814-1914, Philadelphia & N.Y. 1964, PP. 169-172.

وأ.ج. جرانيت/هارولد تمبرلي: اوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٧٨٩ ــ ١٩٥٠، ترجمة محمد علي ابو درة/ لويس اسكندر، ط. ٦، ج ٢، القاهرة بت، ص ٥ ــ ٧؛ وانظر ايضاً هامش ١٠٧ من الحلقة الثالثة لهذه الدراسة.

(٣) انظر: Serge Goriainow: Le Bosphore et les Dardanelles. Études historique sur la question des détroits, Paris 1910, P. 156ff.

ويخصص المؤلف الفصل الثاني عشر لدبلوماسية مؤتمر لندن.

(٤) نقلاً عن: Edward S. Creasy: History of the Ottoman Turks. London 1878, 2.ed. Beirut 1961, 546f.; Édouard Driault: La question d'Orient depuis ses origines jusqu'à la paix de Sèvres (1920), Paris 1921, P. 204; Goriainow, op.cit., P. 156.

بيير رنوفان: تاريخ العلاقات الدولية (القرن التاسع عشر) ١٨١٥ ــ ١٩١٤، تعريب جلال يحيى، القاهرة ١٩٨٠، ص ٤١٧ و ٤١٨.

(٥) انظر: Goriainow, op.cit., P. 162, Felix Bamberg: Geschichte der orientalischen Angelgenheit im Zeitraume des Pariser und des Berliner Friedens, Berlin 1892, P. 429; C. Phillipson, N. Buxton: The Question of the Bosphorus and Dardanelles, London 1917, P. 107.

(٦) راجع: Barbara Jelavich: The Ottoman Empire, The Great Powers and the Straits Question 1870-1887, Bloomington and London 1973, 48; M.S. Anderson: The Eastern Question 1774-1923, N.Y. 1966, PP. 172-173; Creasy, op.cit., P. 547.

(٧) Jelavich, The Ottoman Empire, P. 55.

(٨) تفاصيل أخرى حول الشكوك البريطانية للاتفاق السري بين الدولة العثمانية وروسيا خلال المؤتمر توردها المؤرخة استناداً للأرشيف البريطاني:

Ibid, P. 80-81.

(٩) نقلاً عن: Goriainow, op.cit., PP. 270ff.

(١٠) تفاصيل ذلك لدى: Paul Haury: Exposé simple et clair de la question d'orient, 1770-1915, 2ed. Paris 1923, P. 29; James T. Shotwell, Francis Déak: Turkey at the Stratis, N.Y. 1940, P. 54.

(١١) انظر: Shotwell/ Déak, op.cit., P. 53f.; Haury, op.cit., P. 29; Jelavich, Ottoman Empire, P. 65f.

(١٢) راجع: Roderic H. Davison: Reform in the Ottoman Empire 1856-1876, N.Y. 1973, PP. 81-134, 234-269; L.S. Stavrianos: The Balkan since 1453, N.Y./London 1958, pp. 385-387; Carl Ritter von Sax: Geschichte des Machtverfalls der Tuerkei bis Ende des 19. Jahrhunderts und die Phasen der'orientalischen Frage' bis auf die Gegenwart, Wain 1908, P. 356.

(١٣) راجع: Davison, op.cit., P. 136-171; Stavrianos, op.cit., 387.

(١٤) Stavrianos, op.cit., p. 399.

بالاضافة إلى العامل الديني يقر ستفريانوس بعوامل أخرى، كالجامعة السلافية والأوضاع الاقتصادية.

(١٥) انظر: Ibid, p. 383f; Davison, op.cit., 116.

(١٦) Davison, P. 115ff.;Sax, op.cit., P. 356.

(١٧) Davison, P. 114f.; Stavrianos, p. 384f.

(١٨) راجع: Winfried Baumgart: Vom Europaeischen Konzert zum Voelkerbund. Friedenschluesse und Friedenssicherung von Wien bis Versailles, Darmstadt 1974, p. 26f.

(١٩) انظر: Anderson, op.cit., p. 169; Stavrianos, pp. 397f.

(٢٠) انظر: Weltgeschichte in Zehnbaenden, Redaktion: J.J. Sutis, vol. VII, Berlin 1966, P. 181; Mihailo D. Stojanović: The Great Powers and the Balkans 1875-1878, Cambridge 1939, reprinted 1968, p. 9.

ويمكن الاطلاع حول هذه النقطة على كتاب المؤرخ البريطاني هربرت فيشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩ ــ ١٩٥٠)، ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، ط ٦، القاهرة بت، ص ٣٦٠ ــ ٣٦١.

(٢١) انظر: Sumner, op.cit., p. 138f.; Stavrianos, p. 399.

وكتاب فيشر، ص ٣٦٥.

(٢٢) انظر: Driault, op.cit., p. 207; Stojanovic, op.cit., p. 8.

(٢٣) Sumner, op.cit., p. 111f.; Stavrianos, p. 398; Driault, p. 207f.

(٢٤) انظر: Sir Charles Eliot: Turkey in Europe, reprinted London 1965 p. 315; Jelavich A Century of Russian Foreign Policy, op.cit., p. 178;

وجرانت/ تمبرلي، ص ١٢ ــ ١٣.

(٢٥) انظر: Stavrianos, 398; G.D. Clayton: Britain and the Eastern Question Missolonghi to Gallipoli, London P. 127.

(٢٦) Bamberg, op.cit., p. 429-443; Jelavich, Century of Russian Foreign Policy, p. 175.

(٢٧) Anderson, op.cit., p. 165f.; Stojanovié, op.cit., pp. 5-7.

(٢٨) ويظهر التمجيد العرقي بصورة واضحة خلال الحروب البلقانية (١٩١٣) عندما اندلعت الحرب بين الدول البلقانية بعضها البعض.

Baumgart, op.cit., p. 28.

(٢٩) انظر: Stavrianos, p. 395f.

(٣٠) راجع كتاب فيشر، ص ٣٦٩.

(٣١) راجع: Gebhardt: Handbuch der deutschen Geschichte. 9. neu bearbeitete Aufl. Hrsg. Herbert Grundmann, Bd. III, von der franzoesischen Revolution bis zum ersten Weltkrieg, Stuttgart 1973, pp. 277-279; Stojanović, 10f.; Jelavich, Century of Russain Foreign Policy, p. 176.

(٣٢) راجع:

Herbert Feis: Europe the World's Banker 1870-1914, N.J. 1974 313f.; Sumner, p. 170; Anderson 185.

(٣٣) راجع: Weltgeschichte in Zehnbaenden, vol. VII, pp. 179-180; Bamberg, p. 317; R. Grant Barnwell: The Russo-Turkish War, California 1877, p. 384.

(٣٤) انظر: Weltgeschichte, op.cit., vol VII, p. 179f.; Sax 399f.; Stavrianos 396-397. وكتاب رنوفان، ص ٤٩٤.

(٣٥) انظر: Stavrianos, 399.
(٣٦) Stavrianos, 381-382, 399.
كما يثبت المؤرخ ذلك من خلال التقارير الروسية والنمساوية.
(٣٧) انظر: Stejanović, op.cit., p. 22f. 42f.
(٣٨) Anderson, 181f.; Sumner, pp. 145-151;
وراجع بيير رنوفان، ص ٤٩٥.
(٣٩) Stavrianos, 398; Anderson 181; Sumner, 145.
(٤٠) Stojanocić, p. 40.
(٤١) Gebhardt, op.cit., p. 281f.
(٤٢) Barnwell, op.cit., pp. 387-381; Anderson 182; Sumner 148f., 150.
(٤٣) راجع: Barnewell 386f.; Sax, p. 401f.; Bamberg p. 450.
(٤٤) انظر: Driault, p. 210; Stojanović, p. 42f.; Sax p. 402f.
(٤٥) انظر: Georg Webers: Lehr-und Handbuch der Weltgeschichte. neu bearbeitet von Alfred Baldamus, IV.Bd. Neuste Zeit, Leipzig 1911, p. 667; Barnwell pp. 385-389; Driault 210.
(٤٦) راجع: Creasy, p. 548f.; Anderson 182f.; Sax, pp. 409-417.
(٤٨) Driault, p. 211.
(٤٩) راجع: Paul Dehn: Deutschland und Orient in ihren wirtschaftspolitischen Beziehungen, 1. Teil Nach dem Orient, Muenchen/Leipzig 1884, p.135f.; A.D. Farnie: East and West of Suez. The Suez Canal in History 1856-1956. Oxford 1969, p. 751.
(٥٠) William L. Langer: European Alliances and Alignments 1871-1890, 2.ed., N.Y., 1966, p. 94f.;
وبيير رنوفان، ص ٤٩٦.
(٥١) بيير رنوفان، ص ٤٩٦، جرانت/ تمبرلي، ص ١٤ ــ ١٥.
(٥٢) انظر: Sumner, p. 165; Anderson, p. 183.
(٥٣) راجع: Sumner, p. 164; Stavrianos, op.cit., p. 401.
(٥٤) انظر: Dwight E. Lee: Great Britain and the Cyprus Convention Policy of 1878, London 1934, p. 24f.; Stojanović, op.cit., p. 66f.
(٥٥) انظر: Jelavich, Century of Russian Foreign Policy, p. 177.
(٥٦) راجع: Stojanović, pp. 70-72.
(٥٧) انظر: Ibid, p. 72.
(٥٨) Bamberg, op.cit., p. 470.
(٥٩) Stavrianos, p. 402.
(٦٠) Sumner, p. 178f.; Barnwell, p. 399.
(٦١) انظر: Stojanović, p. 78.
(٦٢) انظر: Handbuch der Europaeischen Geschichte, Hrsg. Theodor Schieder, vol. V, p. 1019; Anderson, p. 186; Creasy, p. 549.
(٦٣) Bamberg, p. 469; Anderson 187
(٦٤) Driault, p. 218; Anderson 185f.
(٦٥) انظر: Sax, op.cit., p. 420.
(٦٦) Barnwell, p. 419f.
(٦٧) راجع: Sax, p. 420; Bamberg, p. 476.
(٦٨) انظر: Sumner, p. 220.
(٦٩) نقلاً عن: Ibid, p. 224.
(٧٠) نقلاً عن: Anderson, P. 187.
وقارن: Clayton, p. 136.
(٧١) Sumner, p. 225f.
(٧٢) Sumner, p. 232f.
(٧٣) انظر: Anderson, p. 157; Stojanović, p. 28.
(٧٤) نقلاً عن: Langer, op.cit., p. 104; Barnwell, p. 424.
(٧٥) Wevers, op.cit., p. 669.
(٧٦) انظر: Lee, op.cit., p. 41; Langer, p. 105; Clayton, p. 137.
(٧٧) راجع: Bamberg, p. 438f.
(٧٨) Langer, p. 106; Stojanović, p. 131.
(٧٩) انظر: محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة ١٩٧٦، ص ٢٤١.

(٨٠) انظر: Davison, op.cit., p. 386f. ولمزيد من التفاصيل، راجع:
Robert Devereux: The First Ottoman Constitutional Period, A Study of the Midhat Constitution and Parliament, Baltimore 1963.

(٨١) Sumner, p. 246f.; Langer, p. 107f.
(٨٢) Barnwell, p. 96f.
(٨٣) Devereux, p. 96f.
(٨٤) Stavrianos, p. 405f.
(٨٥) نقلاً عن الدسوقي: الدولة العثمانية، ص ٢٤٦.
(٨٦) Stavrianos, p. 406.
(٨٧) Sumner, p. 256.
(٨٨) راجع: Bamberg, p. 479f.; 488.
(٨٩) Sumner, p. 259f.
(٩٠) Anderson, 139.
(٩١) Driault, p. 219.
(٩٢) Ibid, p. 219; Stojanović pp. 142-144.
(٩٣) Sumner, p. 267.
(٩٤) انظر: Anderson, 193f.
(٩٥) Driault, p. 219; Sumner, p. 299; Weltgeschichte in Zehnbaenden, Vol. VII, p. 182.
(٩٦) نقلاً عن: Clayton, op.cit., p. 142.
(٩٧) نقلاً عن: Webers, op.cit., p. 671.
(٩٨) Bamberg, p. 489f.
(٩٩) انظر: Anderson, 196f.
(١٠٠) Jelavich, Century of Russain Foreign Policy, p. 179; Gebhardt, op.cit., p. 282.
(١٠١) انظر مروان بحيري: بسمارك والمسألةالشرقية. ترجمة وليد حمارنة، مجلة «تاريخ العرب والعالم»، العدد ٢٦ (١٩٨٠)، ص ٢٨.
(١٠٢) راجع: Goriainow, op.cit., p. 314f.; Gebhardt, op.cit., p. 283f.
(١٠٣) نقلاً عن: Clayton, p. 139; Lee, p. 143; Farnie, p. 253.
(١٠٤) نقلاً عن: L.H. Hoskins: Bristish Routes to India, N.Y./ London/ Toronto 1928, p. 437.
(١٠٥) Ibid, p. 260; Anderson 195.
والهامش: Driault, p. 219f; Sax, p. 329; Shotwell/ Déak, op.cit., 56f.
(١٠٦) Anderson 106.
(١٠٧) Ibid, p. 196f.
(١٠٨) Jelavich, The Geat Powers, op.cit., p. 95.
(١٠٩) نقلاً عن: Ibid, p. 98; Sum ner, p. 625.
(١١٠) Clayton, p. 19.
(١١١) Langer, op.cit., p. 135.
(١١٢) Ibid, pp. 135-137.
(١١٣) Jelavich, the Great Powers, p. 96f.
(١١٤) انظر: Sax, op.cit., p. 435f.; Stavrianos, p. 408.
(١١٥) انظر: Weltgeschichte in Zehnbaenden, vol. VII, p. 183f.
وقارن بيير رنوفان، ٤١٩ ــ ٥٠٠.
(١١٦) clayton 143.
(١١٧) Jelavich, Great Powers, p. 108; Webers, p. 674.
(١١٨) Weltgeschichte, op.cit., Vol. VII, p. 184.
(١١٩) Ibid, P. 184.
(١٢٠) Langer, op.cit., p. 142.
(١٢١) Anderson, p. 207.
(١٢٢) راجع دراسة Lee حول الظروف التي أحاطت بعقد المعاهدة بين بريطانيا والدولة العثمانية. كما قارن Shotwell/Deak, p. 61.
(١٢٣) انظر: W.N. Medlicott: The Congress of Berlin and After 1878-1880, London 1938, p. 23-29; Langer 207.
(١٢٤) راجع: Ibid, p. 45-125; Jelavich, Century of Russain Foreign Policy, op.cit., p. 184.

في فتح نهاوند*

بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه السائب بن الأقرع مولى ثقيف، وكان رجلاً كاتباً حاسباً، فقال: الحق بهذا الجيش — جيش المسلمين بنهاوند — فكن فيهم، فإن فتح الله عليهم فأسم على المسلمين فيئهم، وخذ خمس الله وخمس رسوله، وإن هذا الجيس أصيب فاذهب في سواد الأرض فبطن الأرض خير من ظهرها.

قال السائب: فلما فتح الله على المسلمين نهاوند أصابوا غنائم عظاماً، فوالله إني لأقسم بين الناس إذ جاءني علج من أهلها، فقال: أتؤمنني على نفسي وأهلي وأهل بيتي على أن أدلك على كنوز آل كسرى تكون لك ولصاحبك ولا يشركك فيها أحد؟ قلت: نعم! قال: فابعث معي من أدله عليها، فبعث معه، فأتى بسفطين عظيمين ليس فيهما إلا اللؤلؤ والزبرجد والياقوت.

فلما فرغت من قسمي بينالناس احتملتهما معي، ثم قدمت على عمر بن الخطاب فقال: ما وراءك يا سائب؟ فقلت: خيراً يا أمير المؤمنين؛ فتح الله عليك بأعظم الفتح، واستشهد النعمان[1] بن



مقرن رحمه الله، فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون! ثم بكى فنشج[2].

فلما رأيت ذلك قلت: والله يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده من رجل يعرف وجهه!

ثم قام ليدخل، فقلت: إن مالاً عظيماً قد جئت به، ثم أخبرته خبر السفطين، فقال: أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما، والحق بجندك، فجدخلتهما بيت المال، وخرجت سريعاً إلى الكوفة.

وبات تلك الليلة التي خرجت فيها، فلما أصبح بعث في أثري رسولاً، فوالله ما أدركني حتى دخلت الكوفة، فأنخت بعيري وأناخ بعيره على عرقوبي بعيري، فقال: الحق بأمير المؤمنين: فقد بعثني في طلبك، فلم أقدر عليك إلا الآن! قلت: ويلك! ماذا؟ ولماذا؟ قال: لا أدري والله.

فركبت معه حتى قدمت عليه، فلما رآني قال: مالي ولابن امّ السائب؟ بل ما لابن أم السائب ومالي؟ قلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: ويحك! والله ما هو إلا نمت في الليلة اليلة التي خرجت فيها فباتت ملائكة ربي تسحبني إلى ذينك السفطين يشتعلان ناراً، يقولون: لنكوينك بهما، فأقول: إني سأقسمهما بين المسلمين، فخذهما عني لا ابالك، والحق بهما فبعهما في أعطيات المسلمين وأرزاقهم!

فخرجت بهما حتى وضعتهما في مسجد الكوفة، فابتعهما مني عمرو بن حريث المخزومي بألفي درهم، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلاف.

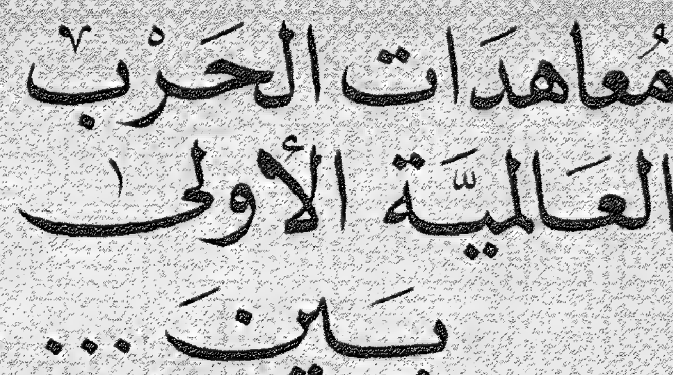
الهوامش

(*) الطبري: ٤ — ٢٣٢.

(١) صحابي فاتح من الأمراء القادة الشجعان، فتح القادسية، وولاه عمر إمرة الجيش فغزا أصبهان ففتحها، وهاجم نهاوند فاستشهد فيها سنة ٢١هـ.

(٢) نشج الباكي: غص بالبكاء فيحلقه من غير انتحاب.

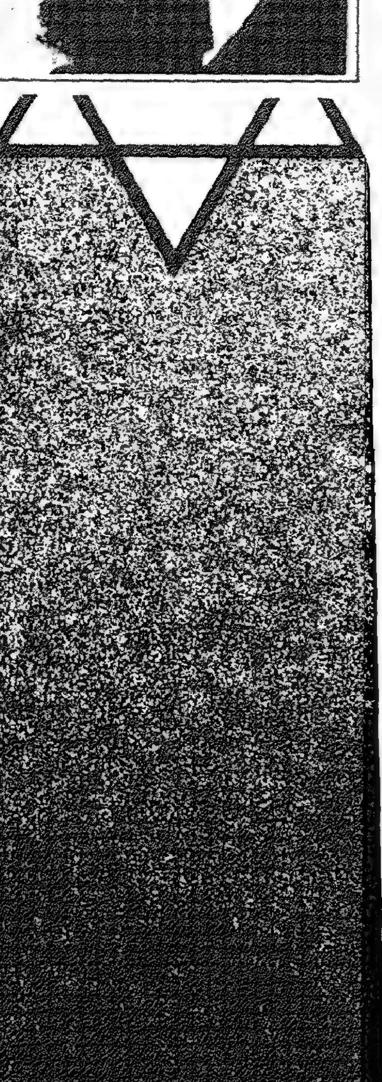
معاهدات الحرب العالمية الأولى بين...

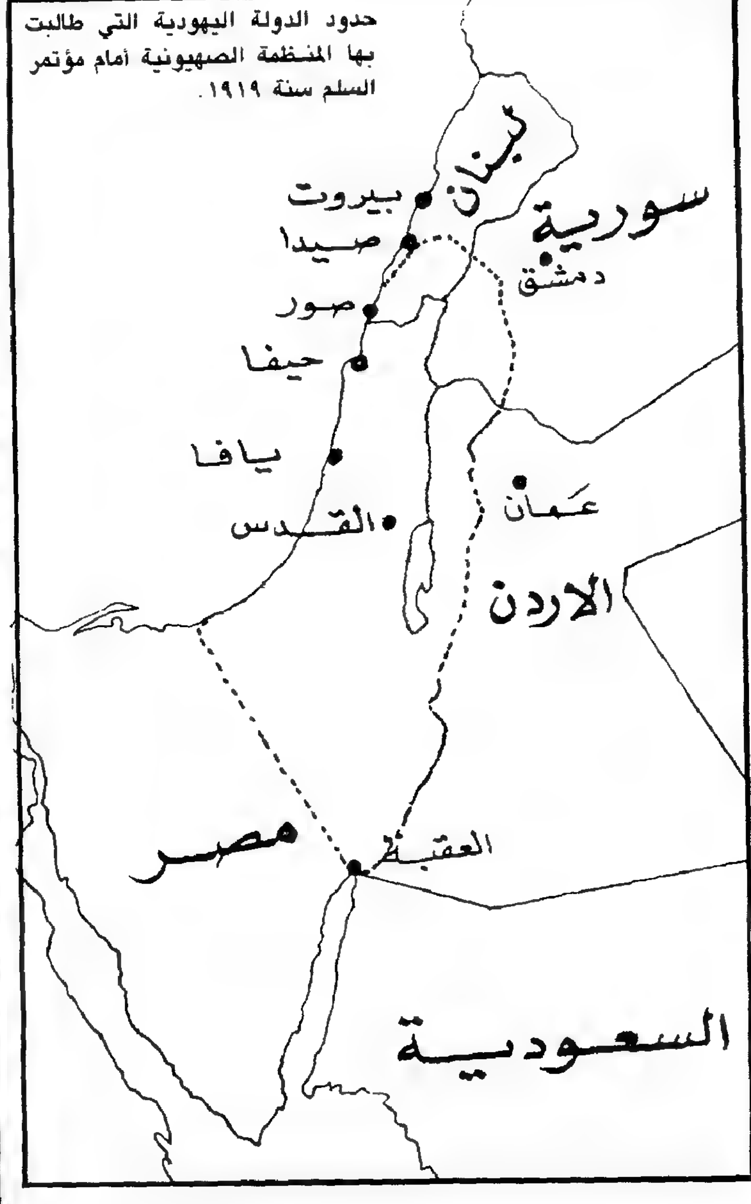






□ تيودور هرتزل.





حدود الدولة اليهودية التي طالبت بها المنظمة الصهيونية أمام مؤتمر السلم سنة ١٩١٩.

«سندان» الاستعمار و«مطرقة» الصهيونية

د. صالح زهر الدين

أثارت المنطقة العربية منذ وقت طويل شهية الدول الاستعمارية الطامعة ببسط السيطرة والنفوذ والتوسع، كما أسالت ثرواتها وخيراتها لعاب المتنافسين عليها باعتبارها عصب الحياة وشريان الوجود.

وليس من المستغرب أن تحظى فلسطين بالأهمية الكبرى في مخطط هذه الدول انطلاقاً من المكانة الدينية التي تحتلها بين سائر دول المنطقة، بالاضافة إلى موقعها الاستراتيجي الحساس بين القارات الثلاث التي يطلق عليها اسم «العالم القديم»: آسيا وأوروبا وافريقيا. والحروب الصليبية المدمرة التي اتخذت شعارها «تحرير الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين»، حسب إعلان البابا أوربانوس الثاني، كانت تخفي وراءها أبعاداً تتجاوز العامل الديني الذي أثبت ضآلة أهميته بالمقارنة مع العوامل الأخرى. وانطلاقاً من أن الحرب هي جزء من كل، وهذا الكل يسمى بالسياسة، وهي إحدى أشكال النضال السياسي بين الطبقات والأمم والدول، وإنها شكل يتميز باستعمال العنف... فقد كانت الحرب العالمية الأولى نتيجة للسياسة الدولية ذاتها ولم تخرج عن إطارها؛ في الوقت الذي أثبت فيه القادة العسكريون الذين اشتركوا في هذه الحرب، أنهم كانوا أيضاً قادة سياسيين، ولم يخوضوا معاركهم العسكرية إلا لقاء هدف سياسي وبناء على قرار سياسي، ولقد ولّ الزمن الذي يتصرف فيه القادة العسكريون في ميدان المعركة فقط. هذا مع العلم أن الحمى الاستعمارية الأوروبية هذه كانت متوافقة ومترابطة مع الحمى الصهيونية في كثير من التطلعات والأهداف والمصالح، والتي مثّلت طليعتها تلك الامبراطورية التي كانت لا تغيب عنها الشمس: بريطانيا.

وهكذا مثّلت المنطقة العربية هدفاً مركزياً على الجدول الصهيوني والاستعماري، وفقاً لخطة مبرمجة من العمل في اتجاه التجزئة وتجيير كل خيراتها وثرواتها لمصلحة هذين الاستعمارين دون إفساح المجال أمام شعبها للتقدم والتطور والاستقلال.

من هذا المنطلق كان لا بد من اتخاذ الخطوات الضرورية التي تكفل ضمان الوصول إلى الأهداف المرجوّة؛ وفق المصلحة الصهيونية البحتة. وعلى هذا الأساس كانت «اتفاقية سايكس — بيكو» و «وعد بلفور» و «مؤتمر الصلح» المتوّج «بمعاهدة فرساي» الصهيونية.

كيف جرى ذلك؟ ومن هم أبطال هذه الفضائح

في الواقع، إن جهود القادة الصهيونيين لم تهدأ منذ انعقاد أول مؤتمر لهم في بال عام ١٨٩٧ برئاسة تيودور هرتزل؛ وبروز المنظمة الصهيونية السياسية إلى الوجود. وكانت بريطانيا بمثابة «كعبتهم» العالمية الأولى، التي استطاعوا عبرها من الحصول على «البراءة الدولية» لتأسيس «وطنهم القومي اليهودي» في فلسطين.

من خلال بعض الشخصيات البريطانية «المتصهينة» التي شكلت «جسر العبور» من حيّز المشروع إلى الواقع الحقيقة. ويأتي في مقدمة هذه الشخصيات: هربرت صموئيل، وآرثر جيمس بلفور، ولويد جورج، وونستون تشرشل.

ففي ٢٨ كانون الثاني ١٩١٥، قدم الوزير البريطاني الصهيوني هربرت صموئيل ــ الذي أصبح أول مندوب سام لبريطانيا في فلسطين عام ١٩٢٠ ــ مذكرة إلى حكومته وإلى عدد من النواب في البرلمان، اقترح فيها فيما اقترح، تأسيس دولة يهودية في فلسطين تحت إشراف بريطانيا، شارحاً الفوائد الاستعمارية المهمة التي ستجنيها بريطانيا من هذه الدولة. وقد أوضحت المذكرة أن من شأن هذا المشروع أن يبعد فلسطين عن السيطرة الفرنسية لأن «... تمركز قوة أوروبية كبرى بمثل هذا القرب من قناة السويس، يشكل تهديداً خطراً ومستمراً للخطوط الأساسية للامبراطورية البريطانية». كذلك يجب أن تبعد فلسطين عن التدويل، لأن «التدويل في هذه الحالة قد يكون خطوة تمهيدية لحمية المانية». وخلصت المذكرة إلى تأكيد أن الحل الوحيد المنسجم مع المصالح البريطانية، هو في إنشاء دولة يهودية في فلسطين: «إن إنشاءها سيكون حماية لمصر... ومن المأمول في ظل الحكم البريطاني أن تقدم التسهيلات إلى المنظمات اليهودية لكي تقوم بشراء الأراضي، وتأسيس المستعمرات، وإقامة المؤسسات الثقافية والدينية... وأن تعطى الهجرة اليهودية الأفضلية بحيث يمكن للسكان اليهود، بعد أن يصبحوا الأكثرية ويستقروا في الأرض، أن يعطوا درجة من الحكم الذاتي...»[١].

وفي نفس التاريخ، دوّن رئيس الوزراء الانكليزي المستر اسكويث الفقرات التالية في سجله اليومي: «تلقيت للتوّ من هربرت صموئيل، مذكرة بعنوان (مستقبل فلسطين). وهو يظن أننا نستطيع إسكان ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود الأوروبيين في ذلك البلد، وقد بدت لي فكرته هذه كنسخة جديدة من أقاصيص الحروب الصليبية، واعترف بنفوري من هذه المقترحات التي تضم مسؤوليات إضافية إلى مسؤولياتنا...»[٢].

خفايا وأسرار
اتفاقية سايكس ــ بيكو

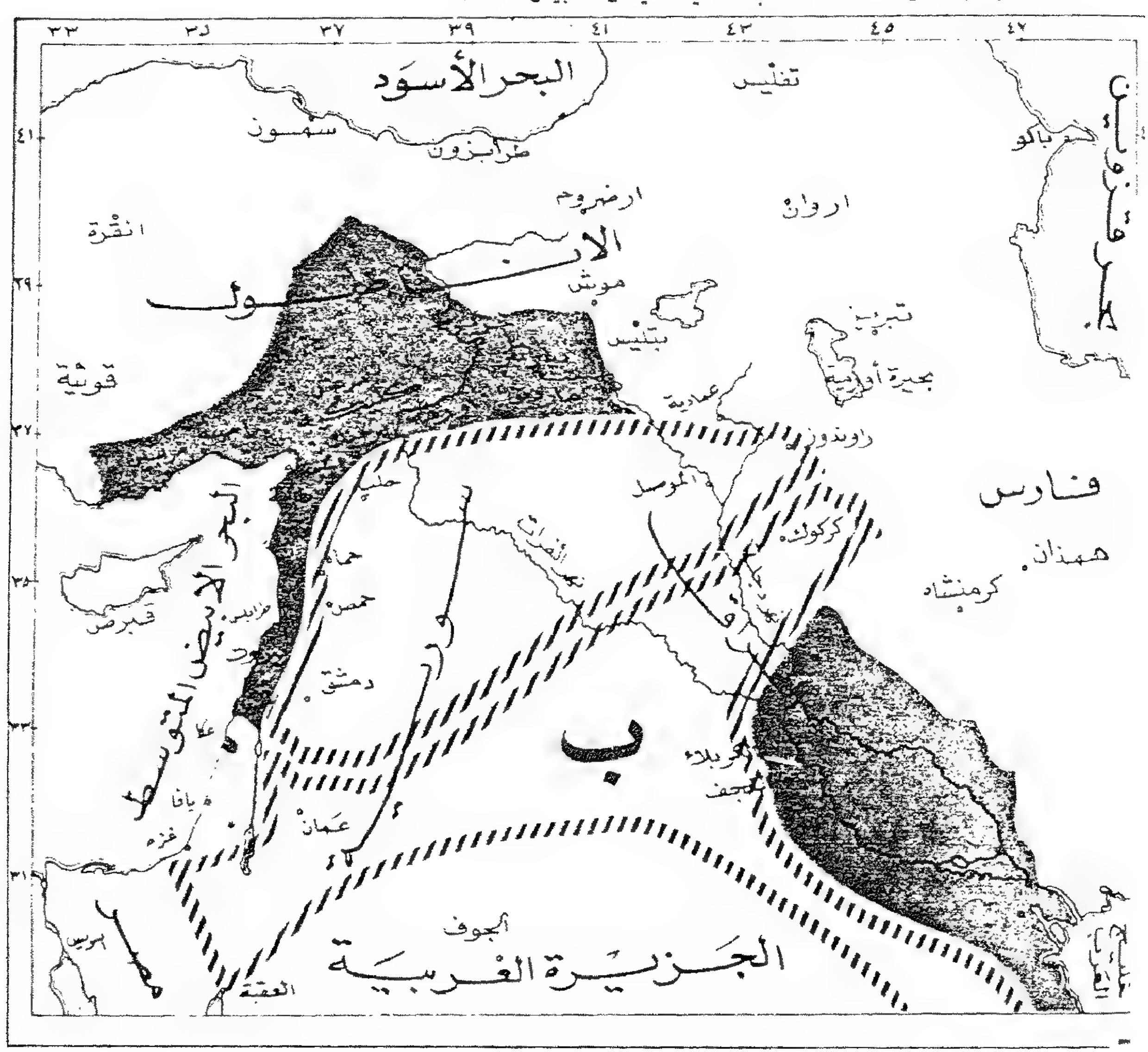
في الوقت الذي تزايد فيه النشاط الصهيوني في فلسطين بعد عملية عزل السلطان العثماني عبدالحميد الثاني سنة ١٩٠٨، كانت الدوائر الاستعمارية الأوروبية ترسم الخطط السرّية فيما بينها، لاقتسام ممتلكات الدولة العثمانية. وهكذا توصلت بريطانيا وفرنسا في ١٦ أيار ١٩١٦، إلى عقد معاهدة سرية لاقتسام المشرق العربي فيما بينهما إبّان الحرب العالمية الأولى بموافقة روسيا القيصرية، عرفت باسم معاهدة سايكس ــ بيكو، بالرغم من كل الوعود التي كانت بريطانيا قد قطعتها للشريف حسين والعرب، تضمن لهم فيها منح الحرية والاستقلال.

إلا أن الواقع يتلخص بشكل واضح بالحقيقة التالية: إن القليلين جداً في الوطن العربي هم الذين يدركون صهيونية مارك سايكس وجورج بيكو، كما يعترف كريستوفر (ابن مارك سايكس) بصراحة في كتابه الذي صدر عام ١٩٥٣، ويتناول فيه ريتشارد سبثورب، أحد رجال الكنيسة في القرن الماضي، كما تتناول دراسته الأخرى حياة والده مارك (وعنوان كتابه هذا «دراسة مأثرتين»)، حيث يقول عن والده في جهوده نحو الصهيونية: «كان قد اعتنق الصهيونية سنة ١٩١٥ [أي قبل توقيع الاتفاقية بسنة واحدة] اعتناقاً لم يدر به العرب، وكانت مساعيه من أقوى العوامل في حصول اليهود على وعد بلفور. وترك مارك سايكس وثائقاً وأوراقاً مختلفة مما يعد كله مصدراً مهماً في أخبار النشاط الصهيوني في لندن بعد سنة ١٩١٤ حتى نهاية الحرب»[٣]. وحسب قول مارك سايكس نفسه فإن الدكتور موسى غاستر، وهو صهيوني بريطاني، هو الذي أدخله في الصهيونية بعيد تعيينه وزيراً مساعداً لوزارة الحرب في خريف ١٩١٥[٤]. اما فيما يتعلق بجورج بيكو، ممثل فرنسا، فإن بعض المراجع يشير إلى سوكولوف بشأن إدخاله وتحوله إلى القضية الصهيونية، وقد نجح كذلك مع لويد جورج، رئيس وزراء

بريطانيا على حد قول آلن تايلر[٥]، في حين أن «لويد جورج لم يدخله أحد وإنما أعطى وجارى»[٦]. ولا شك في أن مارك سايكس يعتبر من الأوائل الذين خدموا الصهيونية خدمات ثمينة، دفعت بوايزمن للاعتراف بفضله على الحركة قائلاً: «لا أستطيع أن أفي خدمات سايكس حقها من القول، فهو الذي أرشدنا في عملنا، إلى مداخل ومخارج أبعد مدى في صبغتها الرسمية. ولولا المشورة التي كان يقدمها لنا رجال من أمثال سايكس واللورد روبرت سيسل، في وقت لم تكن لنا فيه خبرة في المفاوضات الدبلوماسية الدقيقة، لارتكبنا أخطاء كثيرة ولا شك»[٧].

وقد برهنت معاهدة سايكس ـ بيكو عن النوايا الاستعمارية وخفاياها الصهيونية، وكذلك عن أسلوب الخداع لتحقيقها، حيث كانت بريطانيا تفاوض العرب واعدة إياهم بالاستقلال والتخلص من الحكم العثماني، وكانت مراسلات الحسين ـ مكماهون تدخل جوهرياً في هذا الاطار. وكان للثورة البلشفية في روسيا ـ بعبارة لينين ـ الفضل الأول في الكشف عن هذه المعاهدة وأسرارها الخطيرة.

□ الحدود ومناطق النفوذ بحسب اتفاقية سايكس ـ بيكو سنة ١٩١٦.





▫ هربرت صموئيل أول مندوب انتدبته بريطانيا لادارة فلسطين.

خفايا وأسرار «وعد بلفور»

في الحقيقة، لم يكن «وعد بلفور» الذي صدر في الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧، وليد الصدفة مطلقاً، ولا قراراً عفوياً ارتجالياً، بل سبقته إجراءات على جانب كبير من السرّية والخطورة في آن معاً.

وقد كانت المؤامرة التي أدت إلى استقالة رئيس الوزراء البريطاني المعادي للصهيونية «اسكويث» من أهم ما جرى وراء الكواليس إبان الحرب العالمية الأولى في شهر كانون الأول ١٩١٦، لتحل مكانه حكومة ائتلافية يمثل أقطابها الثلاث، لويد جورج ونستون تشرشل وبلفور، اركانها الأساسية.

فعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى كان اسكويث رئيساً للوزراء في بريطانيا، كما كان معادياً للصهيونية: فقرر المموّلون الدوليون الصهاينة إزاحة حكومته واستبدالها بحكومة ائتلافية مكانها على أن يكون للويد جورج ونستون تشرشل عمل كبير فيها. حيث كان دافيد لويد جورج محامياً عن الحركة الصهيونية التي خططت لها وموّلتها عائلة روتشيلد. أما ونستون تشرشل كان مؤازراً للصهيونية السياسية منذ دخوله إلى المعترك السياسي، وهو الذي صرّح خلال اجتماعه «ببرنارد باروخ» (أحد كبار الصهيونيين) قائلاً «أنا صهيوني وقد عملت من أجل تقدم الصهيونية»(٨).

واستغلت الحركة الصهيونية معاداة اسكويث لها ولسياستها، فكالت له شتى التهم والافتراءات لاقصائه عن أهم منصب في الامبراطورية البريطانية. وقد وصل بها الأمر إلى توريط بعض الرسميين ذوي المناصب العليا، بفضائح «النادي الزجاجي» الصهيوني في لندن الذي اتخذ مقراً للتسلية والفساد لكبار الضباط ورجال السياسة، وتمكنت فعلاً من الوصول إلى تنحية اسكويث وتسلّم «الثلاثي» مقاليد الأمور من بعده.

وانطلاقاً من الاشارة التي كتبها اسكويث في سجله اليومي حول المذكرة التي قدمها إليه هربرت صموئيل في ٢٨ كانون الثاني ١٩١٥، فقد برهنت هذه العبارات بما لا يقبل الشك أن المستر اسكويث لم يكن ميالاً إلى الصهيونية. ويبدو أن مصيره ومصير وزارته تقررا منذ ذلك الحين. إلا أن خطة مؤامرة إبعاده كانت ترمي أيضاً إلى هدف أكبر وأهم، حيث يتمثل بعملية تقويض أجهزة النظام القائم آنئذ بمجموعها.

فقد كان الصهيونيون يسيطرون منذ أمد بعيد على الصناعات الحربية في انكلترا. وعندما قررت المؤامرة محاربة نظام اسكويث المعادي للصهيونية وجدت بريطانيا نفسها فجأة في وسط الحرب أمام أزمة شديدة في الصناعات الكيميائية التي هي الأساس لصنع الذخائر الحربية والمتفجرات الخ... وامتدت الأزمة أيضاً إلى مصانع المدافع التي اضطرت لتقنين إنتاجها، وألقى الشعب التبعة بالطبع على عاتق الحكومة.

وكان المشرف على الانتاج الكيماوي في انكلترا «السير فريدريك ناثان». وقد عهد هذا إلى معامل «برونر ـــ موند» بتلافي أزمة إنتاج المواد الكيماوية ومنحها أرصدة حكومية ضخمة، لهذا الغرض. أما مالكا هذه المعامل السيدان «برونر» و «موند» اليهوديان فقد بنيا معملاً كيماوياً ضخماً في «سيلفرتاون». وبالرغم من أنه بني بأرصدة حكومية إلا أنه حين بدأ هذا المعمل

إنتاجه أخذت أجهزة الدعاية والصحافة التي يسيطر عليها المرابون الصهيونيون تكيل آيات المديح جزافاً لبرونر وموند هذين، وتنسج هالات التمجيد المزيفة حولهما وحول الماليين اليهود ناسبة إليهم انهم يدعمون الانتاج الحربي البريطاني في وقت تحيط فيه الأخطار ببريطانيا. وهكذا أظهر هؤلاء بمظهر المنقذين، وبقيت تبعة اللوم على عاتق الحكومة... بيد أن معمل «سيلفرتاون» لم يلبث أن انفجر فجأة، وقتل أكثر من أربعين شخصاً في هذا الانفجار المدبّر، وتهدّم ثمانمائة منزل... وكانت النتيجة أن الانتاج الحربي الكيماوي رقد من جديد، وعادت الأزمة تهدد وزارة اسكويث، وظل الأبطال المزيّفون بمنأى عن اللوم ويحيط بهم العطف والمديح... ويجب أن نذكر في هذا الصدد أن «السير ألفرد موند» المذكور والذي كان يشرف على المعمل الكيماوي كمبعوث من قبل الملك، «أصبح هو بعينه فيما بعد رئيس الوكالة اليهودية في فلسطين»[٩].

بالاضافة لذلك، يشير المؤرخ «فيلر» في كتابه المعنون «كل هذه الأشياء» إلى القول: «لقد أصبح التأثير اليهودي في السياسة البريطانية واضحاً بعد عزل اسكويث وظهور السيد لويد جورج»[١٠]. وتميز شهر شباط ١٩١٧، بدخول الحكومة البريطانية في مباحثات رسمية مع الزعماء الصهيونيين لوضع صيغة بيان رسمي يعلن تأييد بريطانيا لأهداف الصهيونية في فلسطين. وفي الوقت نفسه، «كان نشاط صهيوني موازٍ يسير في الولايات المتحدة الأميركية بقيادة القاضي الأميركي الصهيوني «لويس برانديس»، الذي استطاع أن يجند عدداً من زعماء اليهود لمصلحة الصهيونية، وأن يكسب عطف الرئيس الأميركي «وودرو ولسون»[١١]. وهكذا عقد الاجتماع الأول للجنة السياسية للمنظمة الصهيونية بعد تسلّم لويد جورج الحكم، يوم ٧ شباط ١٩١٧ في لندن، وذلك في منزل الدكتور موسى غاستر. وقد حضر هذا الاجتماع كل من اللورد روتشيلد (رئيس الفرع الانكليزي لمجموعة روتشيلد)، وجيمس دي روتشيلد (ابن ادموند دي روتشيلد رئيس الفرع الفرنسي لمجموعة روتشيلد ومؤسس مستعمرات روتشيلد في



□ الشريف حسين بن علي شريف مكة.

فلسطين وأهمها «ريشون لوزيون»)، والسير مارك سايكس (الذي كان منزله في حي «باكنغهام غايتس» في لندن مجهزاً ليكون مركز قيادة الحركة الصهيونية في انكلترا، وقد جهز لهذا الغرض بجهاز تلغرافي وآلات لاسلكية)، والسير هربرت صموئيل (الذي أصبح أول مندوب سام بريطاني في فلسطين عام ١٩٢٠، ومنظم الهجرة الصهيونية إليها)، وهربرت بنتويتش (النائب العام في فلسطين فيما بعد)، وهاري ساشر، وجوزيف كاوين، وحاييم وايزمن، وناحوم سوكولوف (مؤلف كتاب «تاريخ الصهيونية»).

وقد نوقش في هذا الاجتماع بالتفصيل البرنامج الصهيوني الذي سيستخدم كقاعدة في المفاوضات الرسمية التي تشمل مصير فلسطين وأرمينيا والعراق والحجاز. وقد أبلغت تفاصيل هذا الاجتماع بالشيفرة إلى التنظيم الصهيوني في الولايات المتحدة. وأصبح الفرع الأميركي هذا يتداخل منذ ئذ في صياغة السياسة البريطانية، وفي توجيه القضايا البريطانية الداخلية، وذلك بعد أن «أجبرت الحرب العالمية الأولى ـــ حسب موسوعة المعرفة اليهودية عن الصهيونية ـــ المنظمة الصهيونية على نقل مركزها من برلين إلى

نيويورك، ونقلت السلطة بأجمعها إلى لجنة الطوارىء الاحتياطية للصهيونية برئاسة القاضي الأميركي الصهيوني لويس ديمبتز برانديس»[١٢].

وفي مطلع شهر تشرين الثاني (٢ ت٢ ١٩١٧)، كانت طبخة «الكواليس» البريطانية ــ الصهيونية قد نضجت، وتوّجت بريطانيا تحالفها وعلاقتها العضوية بالحركة الصهيونية عبر إصدار ما سمي بـ «وعد بلفور»، وذلك بعد أن شعرت بتعرض مصالحها الشرق أوسطية للخطر، وبعد أن لاحت في الأفق «جهود الصهاينة الألمان للحصول على وعد الماني بإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين عام ١٩١٧. حتى أن هذا العامل كان من جملة العوامل الضاغطة على الحكومة البريطانية للتعجيل في إعلان وعد بلفور»[١٣].

كما إن أميركا لعبت دورها في هذا المجال عن طريق سفيرها في استانبول، مورغنتو، عندما ألقى خطابه في مدينة «سين سيناتي» الأميركية في شهر أيار ١٩١٦، والذي جاء فيه أنه بالإمكان وضع ترتيبات شراء فلسطين من الأتراك لصالح اليهود بعد انتهاء الحرب[١٤]. ثم كان دخولها الحرب رسمياً في نيسان ١٩١٧، ضد المانيا وحليفتها تركيا. وهناك عامل مهم لعب دوره في الاسراع بإعلان وعد بلفور، كان انخراط الشبان اليهود في روسيا في صفوف الحزب البلشفي بقيادة لينين الذي وقف ضد استمرار روسيا في الحرب، حيث كان في نتيجتها توقيع معاهدة بريست ــ ليتوفسك بين المانيا والاتحاد السوفياتي بعد انتصار ثورة أكتوبر ١٩١٧. وهذا ما دفع الجنرال «ماكدونف»[١٥] قائد المخابرات البريطانية إلى طلب الاسراع في إعلان فلسطين وطناً قومياً يهودياً لكي يتجه الشبان اليهود نحو العقيدة الصهيونية الرجعية الموالية للاستعمار عوضاً عن الانخراط في صفوف الأحزاب الثورية المعادية لبريطانيا. وقد أوضح «هايمان لومر» رئيس تحرير مجلة الشؤون السياسية الأميركية في كتابه عن الصهيونية «توافق ظهور الصهيونية مع موجة جديدة من العداء للسامية، مرتبطة بظهور الامبريالية الحديثة، وتطويرها للعنصرية إلى أقصى حد



□ اللورد اللنبي قائد الجيش البريطاني

باعتبارها أداة ايديولوجية للقهر. وقد استجابت جماهير الطبقة العاملة اليهودية ــ وبخاصة في روسيا ــ بالانضمام إلى الحركة الثورية، والصراع دون هوادة ضد الصهيونية»[١٦].

ويعتبر «وعد بلفور» من أغرب الوثائق الدولية في التاريخ، إذ «منحت بموجبه دولة استعمارية ارضاً لا تملكها [فلسطين] إلى جماعة لا تستحقها [الصهيونيين] على حساب من يملكها ويستحقها [الشعب العربي الفلسطيني]، مما أدى إلى اغتصاب وطن وتشريد شعب بكامله على نحو لا سابقة له في التاريخ»[١٧]. ولم يكن ذلك ليتحقق بهذه السرعة، لو لم يحل لويد جورج محل اسكويث كرئيس للوزراء، ولو لم يعين بلفور وزيراً للخارجية، ولتصبح المراكز الحساسة في الحكومة الانكليزية في أيدي صهيونيين متسلحين بالهوية البريطانية.

كما يعتبر هذا الوعد المشؤوم بمثابة «جواز السفر» و «تذكرة المرور» لمشروع الوطن القومي اليهودي في فلسطين إلى حيّز الواقع العملي، بإضفاء الصفة «الرسمية» الدولية عليه، وهذا

ما سعى الصهيونيون طويلاً لتحقيقه، حتى انه اقر كهدف صهيوني أعلى في مؤتمر بال ١٨٩٧ مع التأكيد على أن «هدف الصهيونية هو خلق وطن في فلسطين للشعب اليهودي، يضمنه القانون العام»[١٨]. ومن المؤكد إن هذا «القانون العام» كان حكراً على الزعامة الدولية التي كانت تمثلها بريطانيا وفرنسا في تلك الفترة.

ومن الجدير بالذكر في هذا المجال، هو أن الرئيس الأميركي ويلسون، صاحب المبادىء الأربعة عشر المتضمنة حق تقرير مصير الشعوب بنفسها، لعب دوره الخطير إلى جانب «الوطن القومي اليهودي» من خلال وعد بلفور، وهو الذي قال عن اتفاقية سايكس ــ بيكو بأنها ظاهرة من ظواهر الاستعمار وعمل مناقض لحق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها. وعن طريق المفاوضات التي جرت بين بريطانيا واميركا بصدد وعد بلفور، والنص الذي يجب أن يصدر به، كان للرئيس الأميركي ويلسون دوره الأول في اختيار الكلمات التي تضمّنها هذا التصريح، حيث انتقاها كلمة كلمة، فأتت بما هو معروف اليوم «بوعد بلفور» وبشكل كتاب رسمي موجّه من بلفور وزير الخارجية البريطانية إلى اللورد روتشيلد الصهيوني. وقد تلقى الرئيس ويسلون من لويد جورج وحاييم وايزمن نص ما اتفق عليه من عبارات وعد بلفور، فوافق على ذلك وباركه قبل أن يصدر الوعد رسمياً في ٢ ت٢ ١٩١٧[١٩].

وبعد أن عُمل على استصدار وعد بلفور الذي ايدته كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، صدرت الأوامر إلى اللورد اللنبي بطرد الأتراك من آسيا الصغرى واحتلال الأرض المقدسة. ولم يكشف عن حقيقة النوايا في تسليم فلسطين إلى الصهاينة إلا بعد أن انتهى العرب من مساعدة الجنرال اللنبي في تحقيق مهمته. وكان الشعور العام في ذلك الوقت أن فلسطين ستصبح محمية بريطانية. وما إن تم احتلال فلسطين حتى طلب المرابون العالميون من الحكومة البريطانية والحلفاء تعيين لجنة صهيونية في فلسطين، وتعيين مندوبيهم السياسيين أعضاء لها، على أن تكون مهمة هذه البعثة، تقديم النصح للجنرال كلايتون الحاكم العسكري لفلسطين وتعمل أيضاً كوسيلة اتصال بين اليهود والقيادة العسكرية. وقد باشرت هذه اللجنة عملها بالفعل في آذار عام ١٩١٨ وكان أعضاؤها الرئيسيون هم:

١ ــ الكولونيل أورمسباي غور الذي كان مديراً لبنك «ميدلاند» وبنك «ستاندارد» في جنوب أفريقيا، وهو البنك الذي يسيطر على مناجم الذهب والماس في جنوب أفريقيا، كما أنه هو الذي يموّل سياسة التفرقة العنصرية بين سكان تلك البلاد.

٢ ــ حاييم وايزمن (وهو لا يحتاج إلى تعريف).

٣ ــ الكولونيل جيمس دي روتشيلد ابن ادموند دي روتشيلد، رئيس الفرع الفرنسي لهذه الأسرة.

٤ ــ الملازم ادوين صاموئيل الذي عين مديراً للرقابة في الحكومة البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية. وعندما تأسست «إسرائيل» عام ١٩٤٨ عين مديراً للاذاعة الاسرائيلية.

٥ ــ المستر اسرائيل سيف مدير شركات ماركس وسبنسر البريطانية الضخمة.

٦ ــ ليون سيمون الذي أصبح المدير المسؤول عن مكاتب البريد العامة في بريطانيا.

٧ ــ الدكتور الدر.

٨ ــ السيد جوزيف كاوين.

ويقول السيد ستورز (Storrs) بأن اللجنة هذه أرسلت إلى فلسطين قبل أن ينعقد مؤتمر السلام في باريس، وحتى قبل نهاية الحرب، وذلك لاعداد الجو الملائم فيها لانشاء الوطن القومي لليهود وتحريك أعوانهم للمساعدة المالية[٢٠].

وفي الوقت الذي انتهت فيه الحرب بانتصار الحلفاء وهزيمة دول المحور، عقد مؤتمر الصلح في باريس ١٩١٩، والذي انتهى بمعاهدة فرساي الصهيونية.

خفايا وأسرار
مؤتمر الصلح ومعاهدة فرساي

في الواقع، إن مؤتمر «الصلح والسلام» الذي عقد في باريس سنة ١٩١٩، كان ذا طبيعة صهيونية، شأنه شأن اتفاقية سايكس ــ بيكو ووعد بلفور. كما كانت «اتفاقية فرساي» التي

انتهى إليها، صهيونية التوقيع والهدف بدورها، عبر «الأربعة الكبار» الذين شكلوا أقطاب المؤتمر وهم: الرئيس ويلسون عن أميركا، ولويد جورج عن بريطانيا، وكليمنصو عن فرنسا، وأورلندو عن ايطاليا. لكن انسحاب ويلسون من المؤتمر فيما بعد، وهامشية الدور الايطالي، جعل من العالم رهينة تحكّم المنتصرين (بريطانيا وفرنسا) ومن ورائهما الصهيونية العالمية. خصوصاً وان للمستشارين والمساعدين دورهم الأساسي في أية قضية مصيرية يتوقف عليها مصير العالم، فكيف بمؤتمر كمؤتمر باريس «للسلام»؟ وقد لعب هؤلاء دورهم المهم إلى جانب الصهيونية، حتى ان اختيار فرساي ليس وليد الصدفة أبداً، حيث يوضح الدكتور ديلون (Dillon) أن «اليهود الصهاينة (ممثلي المولين الدوليين) هم الذين وجهوا مؤتمر السلام هذا التوجيه، واختاروا فرساي ليحققوا برنامجهم المخطط بدقة والذي نفذ حرفياً»[٢١].

فعندما بدأت المحادثات التمهيدية للمؤتمر كان رئيس الوفد الأميركي «بول واربورغ Warburg» الممثل الرئيسي لمجموعة المرابين العالميين في أميركا. ولم يكن رئيس الوفد الألماني سوى شقيقه «ماكس واربورغ» الذي كان يمثل الدولة العدوة التي خسرت الحرب[٢٢].

هذا بالاضافة إلى أن الرئيس ويلسون كان لديه كبير أخصائييه ومساعديه والذي كان يعتبر الابرة المغناطيسية في دماغ ويلسون، وهذا المستشار الأول هو القاضي الأميركي الصهيوني برانديس المشهور بقوله عام ١٩١٦ «إن القصد من طلب اليهود تسهيل الهجرة إلى فلسطين، هو أن يصبح اليهود أكثرية السكان فيها، وأن يرحل العرب عنها إلى الصحراء»[٢٣]. وهو الذي شغل رئاسة «لجنة الطوارىء الاحتياطية للصهيونية في نيويورك بعد أن نقلت الحركة الصهيونية مركزها إليها من برلين[٢٤]. كما كان إلى جانب ويلسون أيضاً، بالاضافة إلى برانديس، إثنان من مستشاريه الأقوياء، وكانا من الصهاينة الأقحاح، وهما مترجم لم يعرف إلا باسم «منتو» وآخر اسمه «كيش» أو «قيس». وقد ساهم هذا الأخير في صياغة معاهدات الصلح في باريس، مع أن صفته الظاهرة هي «خبير عسكري» ملحق بوفد الرئيس الأميركي، وهو من الجنسية البريطانية. ولكن الذي أتى به، ليس الرئيس ويلسون، بل القاضي الصهيوني المساعد برانديس، والصهيونية العالمية. ولما قدّم وايزمن المذكرة الصهيونية إلى مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ يطلب فيها حدود فلسطين أن تكون واصلة في لبنان إلى قرب صور مع جبل الشيخ، وأن تكون واصلة في سوريا إلى قرب درعا، ومن هناك على محاذاة سكة حديد الحجاز إلى العقبة، كان «كيش» هذا من العاملين على ترويج المطالب بكل وسيلة مستطاعة[٢٥]. كما «كان هناك أيضاً المستر «هنري مورغنزاو» أحد أفراد الوفد الأميركي وكان مستشاراً كبيراً وهو نفسه والد الرجل الذي أصبح فيما بعد السكرتير المالي للرئيس روزفلت. وحضر أيضاً تلك المحادثات المستر «أوسكار ستراوس» الذي عرف بتبنّيه الشديد لمخطط المولين والذي كان له دور بارز في تكوين «عصبة الأمم» وصياغة سياستها بشكل يناسب خطة أسياده البعيدة المدى والتي تهدف إلى السيطرة العالمية»[٢٦].

هذا بالاضافة إلى الدور الهام الذي قام به ممثل أميركا أيضاً في مؤتمر الصلح وهو «لنسننغ» إلى جانب الصهيونية عبر صديقه وايزمن. حيث «بعد أن ارفضت جلسة مؤتمر الصلح وخرج الناس، سأل الممثل الأميركي لنسننغ، وايزمن: انك قد طلبت وطناً قومياً يهودياً في فلسطين، فماذا تعني بالوطن القومي؟ فأجاب وايزمن إني أعني خلق إدارة نابعة من أحوال البلاد الطبيعية ــ ودائماً مع المحافظة على مصالح غير اليهود ــ حتى، مع اطراد الهجرة، تصبح فلسطين يهودية كما هي انكلترا انكليزية. ثم سأله وايزمن: أهذا واضح؟ فقال لنسننغ: بالتأكيد»[٢٧].

أما على الصعيد الفرنسي، فقد كان المستشار الخاص للسيد كليمنصو، رئيس الوزراء في فرنسا، هو السيد «مانديل روتشيلد» العريق في صهيونيته هو وعائلته. وكذلك الحال بالنسبة لبريطانيا، حيث كان إلى جانب لويد جورج سكرتير صهيوني اسمه ساسون، حتى ان لويد جورج نفسه كان رئيس الوزارة التي أصدرت وعدها المعروف بـ «وعد بلفور» ومن هذا المنطلق،



□ بلفور وونستون تشرشل عام ١٩١٧.

تطرق الكاتب الفرنسي «جورج باتو» في كتابه عن «المشكلة اليهودية» قائلاً بأن «المسؤولية تقع على عاتق اليهود الذين أحاطوا بلويد جورج وويلسون وكليمانصو»[٢٨].

وفوق كل ذلك، لم تكن معاهدة فرساي التي تمخضت عن هذا المؤتمر من عمل هؤلاء فقط، بل يشير «لوسيان وولف» في كتابه الذي نشره عام ١٩٣٤ بعنوان «دراسات عن تاريخ اليهود» بقوله ان: «هناك مجموعة صغيرة أخرى من اليهود البارزين تظهر تواقيعهم على معاهدة السلام. فقد وقّع معاهدة فرساي عن فرنسا «لويز كلوتز» (الذي تورط فيما بعد بقضية مالية واختفى عن الأنظار)، وعن إيطاليا البارون «سومينو» ومستر «أدوين مونتاغ» عن الهند»[٢٩].

ولا بد هنا من الاشارة إلى حادثة معروفة جرت خلال المحادثات التمهيدية لمؤتمر فرساي. حيث من الظاهر ان هذه المحادثات بدأت تميل إلى سياسة لا يرضى عنها الممولون الدوليون الصهاينة، لأن برقية مكونة من ألفي كلمة أرسلها «يعقوب شيف» من نيويورك إلى الرئيس ويلسون، الذي كان يحضر المؤتمر في باريس، وقد تضمنت هذه البرقية تعليمات للرئيس بشأن ما سيفعله بكل من قضية فلسطين ومصير الانتداب فيها، وبشأن التعويضات الألمانية الخ... وأرخت البرقية بتاريخ ١٨ أيار ١٩١٩، وقد أرسلها «شيف» باسم اتحاد الأمم المتحررة الذي كان يسيطر عليه ويموله خمسة من أصحاب البنوك الأميركية الصهيونية.

بعد استلام البرقية تغير موقف الرئيس ويلسون فجأة، وأخذت المفاوضات تجري مجرى آخر. وبهذا الصدد يقول الكونت «دي سانت أولاير» (الذي كان سفير فرنسا في انكلترا آنئذ، ومؤلف كتاب «جنيف نحو السلام») «إن النصوص التي تضمنتها معاهدة فرساي فيما يتعلق بالقضايا الخمس الرئيسية هي من وضع يعقوب شيف وأبناء جلدته»[٣٠].

وهكذا كانت فلسطين وشعبها العربي ضحية من ضحايا «العدل الدولي» الذي كان بمثابة «شاهد الزور» على كل الاختراقات اللاإنسانية بحق العرب.

خلاصة عامة

لقد أمر مؤتمر السلم الباريسي ميثاق «عصبة الأمم» في ٢٨ نيسان ١٩١٩، وضمّن هذا الميثاق معاهدة فرساي في ٢٨حزيران ١٩١٩. واختصت المادة ٢٢ من الميثاق بـ «نظام الانتداب بإشراف عصبة الأمم» وهو «تعبير مهذب» للاستعمار؛ وهو شكل استعماري جديد اقترح كمخرج للتناقض بين مبادىء حق تقرير المصير التي أعلنتها دول الحلفاء في أثناء الحرب، وبين سعيها لضمان مصالحها الاستعمارية في مؤتمر السلم بعد الحرب. وكان لهذه المادة من ميثاق العصبة علاقة خاصة بالقضية العربية وقضية فلسطين، إذ حدّد بموجبها المستقبل السياسي لأقطار المشرق العربي بعد الحرب الأولى، وذلك في الفقرة الرابعة منها بالتحديد، حيث حدّدت لها انتداباً من الدرجة الأولى تقتصر على «إسداء المشورة الإدارية والمعونة»[٣١]. بيد أنها كانت في الواقع سياسة مخادعة ومراوغة احترفها الاستعماريون منذ وقت طويل، وفي هذا الصدد أجاب الصهيوني ونستون تشرشل عندما سئل عن رأيه في معاهدة فرساي قائلاً: انها ليست اتفاقاً ولا معاهدة. بل هي هدنة مدتها عشرون سنة». وبالفعل بعد عشرين سنة بالضبط اندلعت الحرب العالمية الثانية في أيلول ١٩٣٩.

ومن هذا المنطلق أيضاً كتب لينين قائلاً: «إن نظام فرساي بعيد جداً من أن يلغي واحدة من التناقضات الامبريالية، إنما خلق تناقضات جديدة غيرها». وكان يتوقع بأن حرباً عالمية جديدة لا يمكن تحاشيها «إذا بقي الامبرياليون والبرجوازيون في الحكم»[٣٢].

وإذا كانت الحرب العالمية الأولى قد جاءت باتفاقية سايكس ـ بيكو، ووعد بلفور، ومعاهدة فرساي، وعصبة الأمم (الصهيونية بأجمعها)؛ كذلك فإن الحرب العالمية الثانية خلقت دولة «إسرائيل» على أرض فلسطين العربية في ظل «شهود الزور» الدوليين الممثلين بهيئة الأمم المتحدة. وما زلنا حتى اليوم نعاني مآسي هذه الاتفاقيات والمعاهدات والوعود وفي عملية مستمرة، ندفع الثمن.

الهوامش

(١) مؤسسة الدراسات الفلسطينية «فلسطين: تاريخها وقضيتها» الطبعة الأولى نيقوسيا ــ قبرص ١٩٨٣. ص ٣٦.

(٢) وليام غاي كار «أحجار على رقعة الشطرنج». دار النفائس. ترجمة سعيد جزائرلي. مراجعة وتحرير م. بدوي. بيروت ١٩٧٥. ص ١٩٣.
ــ أيضاً وليم كار «اليهود... وراء كل جريمة» شرح وتعليق خيرالله الطلفاح. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٢. ص ١٨١.

(٣) عجاج نويهض «بروتوكولات حكماء صهيون». منشورات فلسطين المحتلة. الطبعة الثانية. المجلد الأول. بيروت ١٩٨٠. ص ١٦٥ ــ ١٦٦.

(٤) د. الن تايلر «تاريخ الحركة الصهيونية» ترجمة بسام أبو غزالة. بيروت دار الطليعة ١٩٦٦. ص ٢٩.

(٥) المصدر نفسه. ص ٣٥.

(٦) عجاج نويهض. مصدر سبق ذكره. ص ١٥٤.

(٧) قسطنطين خمار. «الموجز في تاريخ القضية الفلسطينية». منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الثانية. بيروت ١٩٦٦. ص ٤٥.

(٨) وليام غاي كار «أحجار على رقعة الشطرنج» (مرجع سبق ذكره) ص ٢٢٣.

(٩) المصدر نفسه. ص ١٩٤. أيضاً:
ــ وليم كار «اليهود... وراء كل جريمة» (مرجع سبق ذكره) ص ١٨٢.

(١٠) وليام غاي كار «أحجار على رقعة الشطرنج» ص ١٩٧.

(١١) مؤسسة الدراسات الفلسطينية «فلسطين. تاريخها وقضيتها» (مرجع سبق ذكره). ص ٣٦ ــ ٣٧.

(١٢) وليام غاي كار. مرجع سبق ذكره. ص ١٩٦ ــ ١٩٨. أيضاً:
ــ أسعد رزوق. «اسرائيل الكبرى». مركز الأبحاث. بيروت. الطبعة ٢. بيروت ١٩٧٢. ص ٣٤٩.
ــ وليم كار. مرجع سبق ذكره. ص ١٨٣ ــ ١٨٥.

(١٣) د. عبدالوهاب كيالي. الطبعة الثانية ١٩٧٢. ص ٩٥. أيضاً:
ــ د. حسان علي حلاّق «موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ ــ ١٩٠٩» بيروت الدار الجامعية. الطبعة الثانية ١٩٨٠. ص ٢٣١ ــ ٢٣٢.

(١٤) د. عبدالوهاب كيالي. مرجع سبق ذكره. ص ٩٥.

(١٥) وليام غاي كار «مرجع سبق ذكره. ص ١٩٨.

(١٦) هايمان لومر «الصهيونية ودورها في السياسة العالمية» ترجمة محمد مستجير مصطفى. القاهرة ١٩٧٤. ص ٧.

(١٧) د. عبدالوهاب كيالي. تاريخ فلسطين الحديث. ص ١٠٠.

(١٨) إسرائيل كوهين. تاريخ الصهيونية المختصر. لندن ١٩٥١. ص ١١ و ٤٧ و ٤٨ (بالانكليزية) وأيضاً:
ــ د. الن تايلر. مرجع سبق ذكره. ص ١٥.
ــ د. فايز صايغ. «الاستعمار الصهيوني في فلسطين» ترجمة د. عبدالوهاب كيالي. مركز الأبحاث (م. ت. ف) ١٩٦٥. ص ٩ ــ ١٠.

(١٩) عجاج نويهض. مرجع سبق ذكره. ص ٢٨.

(٢٠) وليام غاي كار «أحجار على رقعة الشطرنج» ص ٢١٦ ــ ٢١٧.
ــ وليم كار «اليهود... وراء كل جريمة». ص ١٩٣.

(٢١) وليام غاي كار. مرجع سبق ذكره. ص ٢١٨.

(٢٢) المرجع نفسه. ص ٢١٧ ــ ٢١٨.

(٢٣) عجاج نويهض. مرجع سبق ذكره. ص ٤٦.

(٢٤) وليام غاي كار. مرجع سبق ذكره. ص ١٩٦.

(٢٥) عجاج نويهض. مرجع سبق ذكره. ص ٢٩ ــ ٣٠، وأيضاً:
ــ كتاب «الغزو الاقتصادي الاسرائيلي للبنان ١٩٨٢» إعداد يولا البطل، وإشراف محمود سويد. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. الطبعة الأولى. نيقوسيا ــ قبرص ١٩٨٤. ص ٦٣.

(٢٦) وليام غاي كار «احجار...» ص ٢١٨ ــ ٢١٩.

(٢٧) عجاج نويهض. مصدر سبق ذكره. ص ١٥٣.

(٢٨) المصدر نفسه. ص ٣٠ وأيضاً:
ــ وليام غاي كار. مرجع سبق ذكره. ص ٢١٨ ــ ٢١٩.

(٢٩) المصدر نفسه. ص ٢١٩.

(٣٠) المصدر نفسه. ص ٢٢٠ ــ ٢٢١.

(٣١) د. ملحم قربان «تاريخ لبنان السياسي الحديث» ج ١. المؤسسة الجامعية للدراسات. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨١. ص ١٥٨.

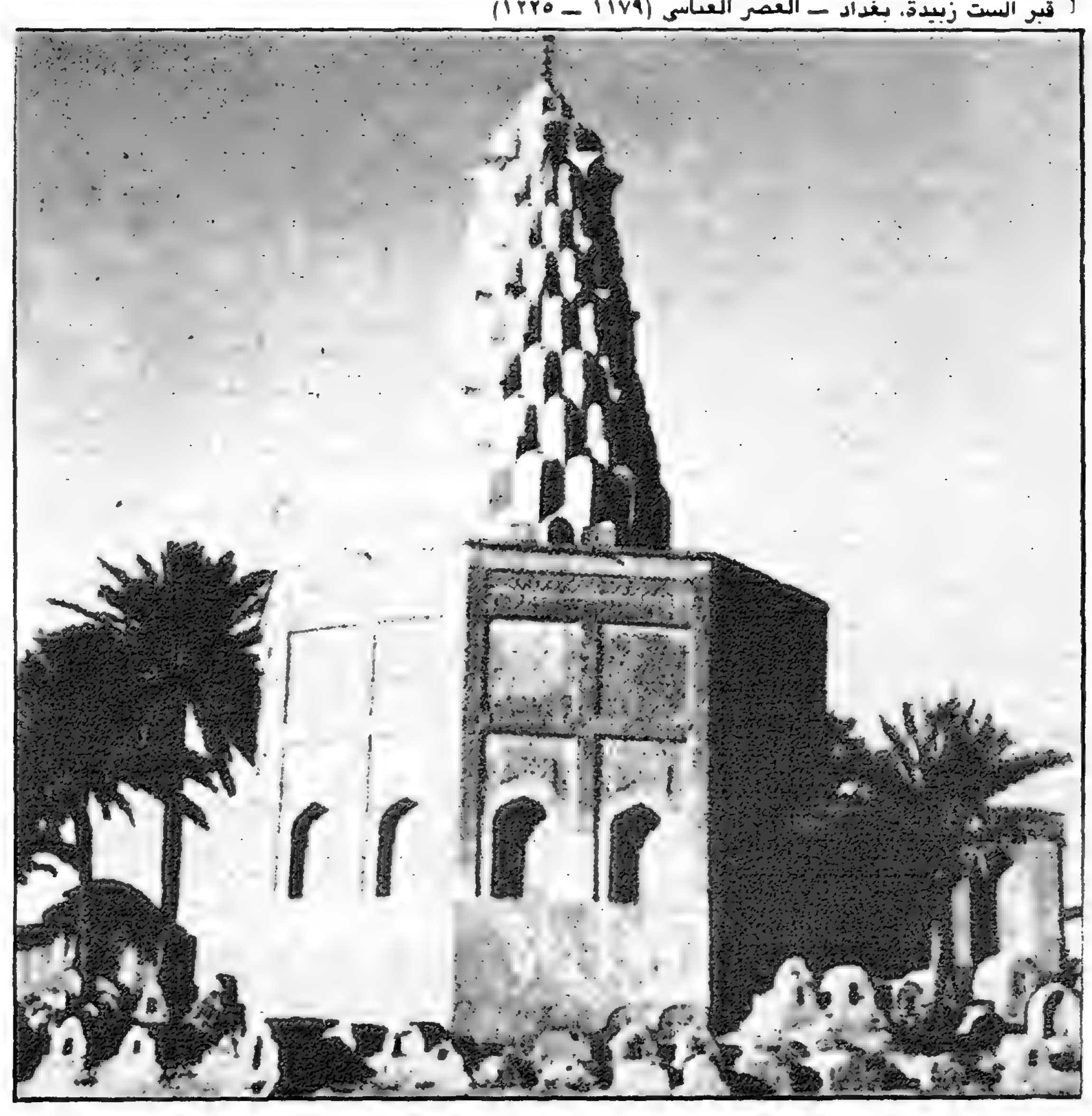
(٣٢) شفتكوف وآخرون. «لينين والعلم العسكري». دار الفارابي. بيروت ١٩٧٢. ص ٣٩.

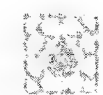


العلاقات بين الشرق والغرب في عصر الدولة العباسية

خالد محمد القاسمي

قبر الست زبيدة، بغداد ــ العصر العباسي (١١٧٩ ــ ١٢٢٥)





يجب أن تحتل السياسة الخارجية للعصر العباسي الأول مكانها من الدراسات الجادة وأن تظفر بتقييم جديد يكشف عن حقيقة الموقف الدولي وجهود الخلفاء فيه. فقد بذل هؤلاء الخلفاء جهوداً تظفر بالتقدير والاعجاب وتضعهم في صف واحد مع أوفر المجاهدين المسلمين عملاً وأكثرهم إخلاصاً، وأن تنفض عنهم أباطيل الدعايات العلوية ومفترياتها[1]. فقد تحقق لهم السلم الاسلامي وكانت نتائجه الثقافية ابقى أشداً من السياسة. فلم يكن الأمر مجرد كسب دبلوماسي، فقد ساعد ذلك في التسرب الثقافي للحضارة العربية التي بدأت في ذلك الوقت تفتح آفاقاً جديدة في تركستان وما وراء النهر والهند والشرق الأقصى وصقلية وجنوب ايطاليا، كما ساعد ذلك على أن يقتبس العرب من الثقافات الاغريقية والهندية والصينية ما طاب لهم[2].

وفي ظل هذا السلم كان الانتشار التجاري العظيم الذي جعل من موانىء البصرة والابلة وسيراف في مقدمة المواني العالمية، ودفع بالمتاجر العربية إلى أسوار الصين وإلى البحار الدافئة وإلى حوض الفولجا والدون وشمال غرب أوروبا وساعد ذلك على تكدس الثروات وأحداث التحول الرأسمالي الذي سنشير عليه في هذا البحث.

وبعد فهذه مقدمة عن العصر العباسي والعلاقات السياسية الخارجية التي سنقوم بالتحدث عنها من خلال هذا البحث الوجيز محاولاً أن أغطي في هذا البحث معظم الحوادث السياسية التي جدت في هذا العصر، مشيراً إلى تقدمها وازدهارها في العصر الذهبي من الرشيد إلى المتوكل، وحيث أننا لا نستطيع الخوض في كل المجالات السياسية في هذا العصر فإنني سأكتفي بالتعليق على بعض الحوادث الصغيرة وفي نفس الوقت سأتحدث عن العلاقات والتطورات السياسية التي تحتاج إلى شيء من التأمل والتفصيل.

وسنتحدث في هذا البحث القصير المتواضع بإذن الله عن العباسيين والعلاقات الدولية حيث سنتعرض للعلاقات الحربية في عهد الرشيد وأيضاً العلاقات الدبلوماسية في عهده.

ثم ننتقل إلى العباسيين وما حققوه في مجال السياسة الخارجية مثل الشرق الأقصى والأندلس والبيزنطيون كذلك فتح عمورية وجزر البحر المتوسط وعلاقتهم مع التركستان وقطاع الهند وجنوب شرق آسيا، ووفقنا الله لما نصبو إليه.

العباسيون والعلاقات الدولية

لقد ورث العباسيون تركة مثقلة بالمشاكل، ورثوا مشاكل الساسانيين وعقدهم، ومشاكل الأمويين ومعضلاتهم مع البيزنطيين في حوض البحر الأبيض المتوسط.

ونعتبر عهد المعتصم فصلاً في تاريخ هذه العلاقات الخارجية فالخلفاء قبله كانوا يجتهدون ويجاهدون على النسق القديم وسنراهم في آسيا الصغرى يعاملون البيزنطيين نفس المعاملة القديمة، وفي تركستان يحاربون الصين ويوقعون بالأتراك الشرقيين، وفي الهند يصارعون امارة تنوج ويستولون على ساحل الهند الغربي؛ أعني لم تتجمد الفتوح في عهدهم إنما تابعوها بنفس عنفوان عمر وعبدالملك الأمر الذي يدفع إلى تقديرهم كل التقدير.

أما في عصر المعتصم والواثق فقد عملت الدولة على تثبيت المكاسب والاستعانة في تجميد الموقف بإتمام إقامة الثغور والتحصينات، لتتفيأ الدولة الاسلامية ظل الدعة والسلام. ويدخل العالم في ظل سلام مبسوط الرواق، فتكاملت حلقات الثغور على أطراف آسيا الصغرى وعلى أطراف كشمير وعلى أطراف ما وراء النهر وشحنت هذه الثغور بالمرابطين المقاتلة وأدت دورها كاملاً في تحصين الحدود والدفاع عن الدولة ودفع جميع الأخطار[3].

وفيما يلي سنستعرض العلاقات الدولية في عصر الرشيد وهو العصر الذهبي للدولة العباسية.

أولاً ـ العلاقات الحربية في عصر الرشيد:

لقد كان الروم أو البيزنطيين العدو الذي استطاعت الدولة العربية الاسلامية إزاحته من

الشام ومصر، وتعقبه إلى الأناضول براً وبحراً في صوافي وشواتي سنوية مستمرة[٤].

والمعلوم أن الحجاز والشام ارتبطتا بروابط جغرافية وبشرية وتجارية قبل الاسلام ولذلك فقد كان اتجاه العرب المسلمين بعد تأسيس دولتهم في الحجاز إلى تحرير الشام من سيطرة البيزنطيين ونجحوا في ذلك سنة ٦٣٨م حيث زار الخليفة عمر بن الخطاب مدينة القدس التي اشترط سكانها أن يسلموا مفاتيحها للخليفة بالذات ويشير الدكتور فاروق عمر في كتابه «العباسيون الأوائل» إلى أن رجال الكنيسة لم يكونوا مرتاحين إلى تغير السلطة السياسية من بيزنطية إلى عربية، كما وأن السلطة البيزنطية لتستكين لهذا الانحدار الذي سلبها إقليماً من أغنى أقاليمها، ولذلك استمرت المعارك دون أن تؤثر في تغيير الوضع السياسي[٥].

لقد حلت الدولة الاسلامية محل الساسانيين في الحرب الطويلة الأمد بين الشرق والغرب، وأصبحت الدولة البيزنطية «دار الحرب» بالنسبة للمسلمين المجاهدين. ولكن جبال الأناضول الوعرة ووديانها العميقة وقفت حجر عثرة في سبيل تقدم الجيوش العربية الاسلامية، على أن الحرب استمرت سجالاً بين الطرفين تشتد مرة وتخف أخرى في صدد الاسلام والدولة الأموية[٦] وقد حوصرت القسطنطينية أثناء ذلك ثلاث مرات (٦٦٨ ــ ٦٧٠) و (٦٧٤ ــ ٦٨٠) و (٧١٥ ــ ٧١٧).

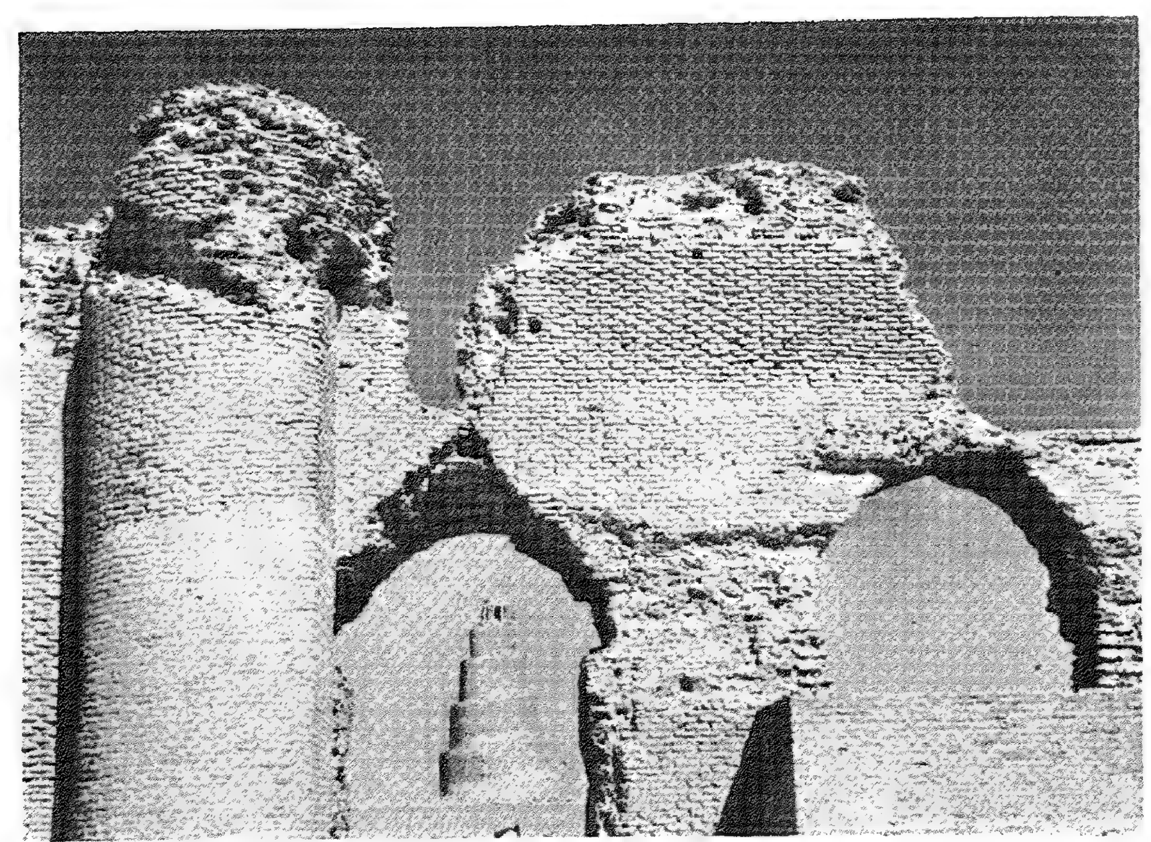
وقد منعت الاضطرابات الداخلية في أوائل العصر العباسي الخلفاء العباسيين من «الجهاد» ضد الروم، ولكن الدولة حاولت جاهدة أن تبقي روح الجهاد ومظاهره مستمرة وذلك لسببين: أولاً أن الجهاد من واجبات الخليفة الدينية الرئيسية حيث كان عليه أن يعمل لاضافة أقاليم جديدة من «دار الكفر» إلى «دار الاسلام».

ثانياً ــ لقد استعملت بلاد الروم ملجئاً لأعداء الدولة والثوار:

على أن أهم ما يميز الحرب الاسلامية البيزنطية في العصر العباسي هو اقتصارها على اشتباكات فصلية تتخللها هجمات تتفاوت في العمق داخل حدود الدولة المعادية. ولعل هذا الاختلاف في المجهود الحربي تجاه البيزنطيين يعود إلى أن وجهة الدولة العباسية وجهة شرقية لا غربية رغم أن سياسة الاتجاه نحو الأقاليم الشرقية والاهتمام بها كانت سياسة أموية بدأها هشام بن عبدالملك، ولم تكن بدعة عباسية جديدة، ومهما يكن من أمر فقد اهتم الخليفة أبو جعفر المنصور بمنطقة الحدود مع البيزنطيين، وكان جل عمله دفاعياً لا هجومياً، فقد أعاد تحصين المنطقة التي دمرها قسطنطين الخامس وبنى بها حصوناً شديدة. وتعطينا مصادرنا التاريخية معلومات جديدة وجيدة عن الجهود التي بذلها المنصور وعن الامكانيات البشرية والمالية التي أنفقها من أجل أن يضع أساساً جديداً لأقاليم الثغور. واستعمل المنصور وسائل إغراء كثيرة لحث الجند والناس على العمل في الثغور منها: زيادة العطاء لكل مقاتل عشرة دنانير إضافية وتخصيص معونة قدرها ١٠٠ دينار لكل واحد منهم وبناء بيوت خاصة لاقامتهم مع عوائلهم[٧].

وإذا كان عهد المنصور مرحلة استكمال الدفاع والتحصينات فإن عهد المهدي ابنه شهد تصاعد العمليات الحربية فقد استتم المهدي ما كان بقي من المدن والحصون وزاد في شحنها ثم أخذ زمام المبادرة في عدة حملات هجومية كان أهمها حملة ٧٧٩م و ٧٨٢م وكان الانتصار الذي تحقق سنة ٧٨٢م كبيراً حيث حاصر الأمير هارون بن المهدي القسطنطينية بعد أن قاد جيشه عبر الأناضول وحصل على جزية كبيرة، وعاد إلى بغداد حيث استقبل بمظاهر العظمة والتهليل ومنحه أبوه لقب «الرشيد» إلا أن هذه الحملة كانت آخر حملة وصلت إلى أسوار القسطنطينية التي ظلت لقرون عديدة في مأمن من هجوم إسلامي جديد[٨].

وقد عنى الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦ ــ ٨٠٨م) عناية كبيرة بتنظيم منطقة الحدود بينه وبين البيزنطيين. فقد عزل الثغور عن الجزيرة وقنسرين وجعلها منطقة واحدة سماها «العواصم» التي سميت بهذا الاسم لأن المسلمين يعتصمون بها من الثغور فتعصمهم وكانت منطقة الثغور التي اهتم بها الرشيد تنقسم إلى ثلاثة مناطق هي:



□ مئذنة الجامع الكبير الملوية في سامراء ــ العصر العباسي.

المنطقة الشرقية وتشمل: حصون قاليقلا وكمخ وقلودية.

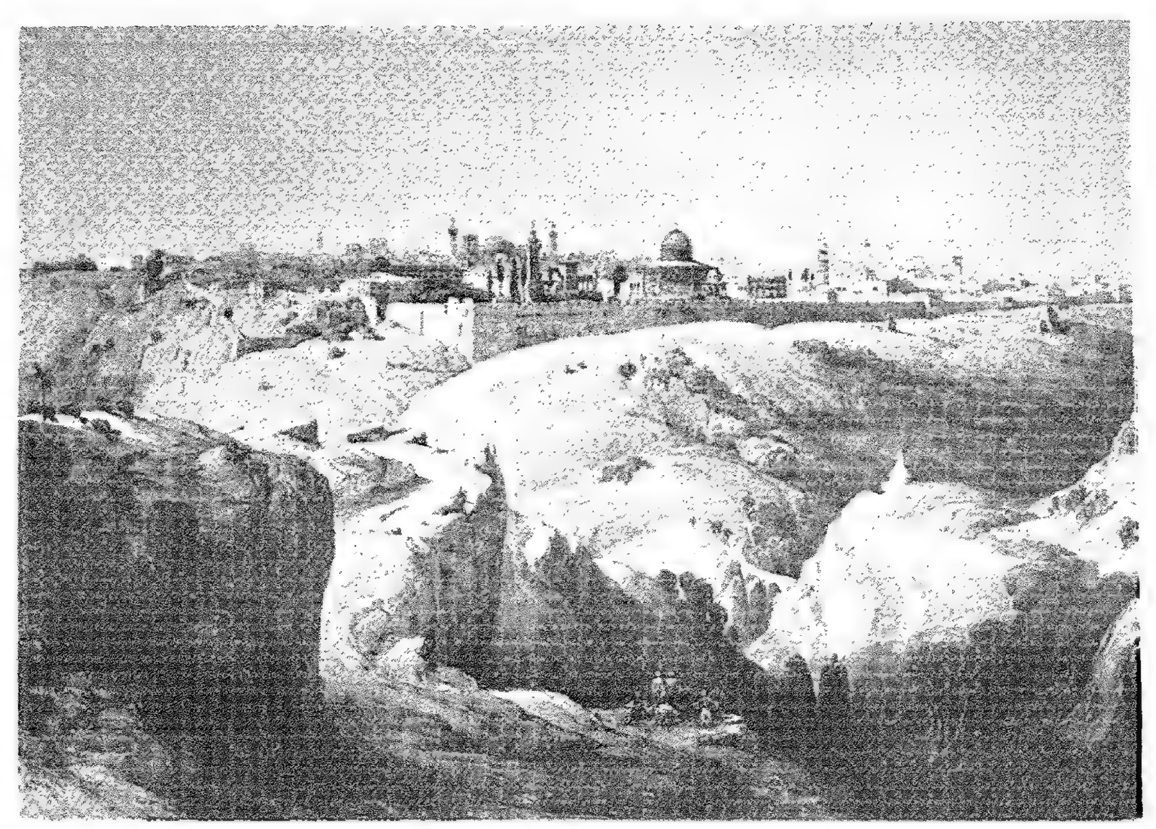
المنطقة الوسطى وتشمل: حصون الحدث وزبطرة ومليطة.

المنطقة الغربية وتشمل: حصون المصيصة وطرسوس وادنة.

أما الخط الفاصل بين الثغور والعواصم فقد حدده ابن الفقيه بأنه خط منبج من جهة، إلى انطاكية من جهة أخرى، فما كان إلى شمال الخط فهو من الثغور وما كان إلى جنوب الخط فهو من العواصم، ويمر هذا الخط بحصون الجومة وقورس وتيزين وكان مركز العواصم منبج وزاد الرشيد في تحصين الجبهة ببناء حصون جديدة وترميم الحصون القديمة، فقد بنى كفربيا بجوار المصيصة، وعمر طرسوس وشحنها بأكثر من ٦٠٠٠ مقاتل، وبنى وحصن عين زربي وشحنها بالرجال، كما زاد بناء الهارونية، وأعاد بناء حصن الكنيسة السوداء وعمر مدينة الحدث، وبنى حصن زبطرة[٩].

واهتم الرشيد في تحصين الجبهة ببناء حصون جديدة كما ذكرنا، كذلك اهتم الرشيد بإرسال الحملات كل سنة للجهاد ضد البيزنطيين، وكان يقود الحملات بنفسه كما في سنة ١٧٠هـ = ٧٩٧م، أو يرسل قادة من البيت العباسي لقيادة الحملات. وليدلل على أهمية هذه الحملات، ولاظهاره سطوة الدولة العباسية عين الرشيد سنة ١٨٦هـ = ٨٠٢م ابنه القاسم بولاية العهد بعد أخويه الأمين والمأمون وسماه المؤتمن، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم، وأشخص إلى منبج فأنزله إياها. ولعل أهم حملة قادها الرشيد بنفسه كان سنة ٨٠٤م حين نقض نقفور امبراطور الروم الصلح مع العباسيين، وكتب إلى الرشيد:

«من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب.. أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي «يقصد ايريني» أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق. فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن



□ بيت المقدس.

فإذا قرأت كتابي فأردد ما حصل قبلك من أموالها. وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك».

ولما قرأ الرشيد الكتاب استنفره الغضب، وكتب على ظهر الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم «من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكفرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه»(١٠).

ولم يكن نقفور مهيئاً للقتال لنشوب ثورة مفاجئة داخلية، فهاجم الرشيد هرقلة ثم تقدمت جيوشه حتى وصلت أبواب أنقرة فاتحة أمامها حصون الصفصاف ودلبة فعرض الامبراطور دفع الجزية ووافق الرشيد على ذلك. ولكن البيزنطيين عادوا فأغاروا على عين زربة والكنيسة السوداء سنة ٨٠٦م، فجابههم الرشيد واستولى على عدد من القلاع المهمة مثل هرقلة وطوانة شمالي لؤلؤة ورضخ نقفور لطلب الرشيد بأن يدفع ٣٠٠ ألف دينار ويعمر بعض القلاع التي هدمت. واتخذ الرشيد قلنسوة مكتوب عليها «غاز حاج» وتعتبر هذه الحملة أقصى ما وصلت إليه الجيوش العباسية في أرض الروم، على أن كل هذه المعارك لم تكن تستهدف توسيع رقعة الدولة الاسلامية أو إقامة إدارة دائمة في الأناضول، بل سرعان ما كان الجيش العباسي يعود إلى قواعده في مناطق الثغور والعواصم.

وفي مجال النشاط الحربي البحري فإن التاريخ يسجل للعباسيين عنايتهم بتحصين الموانىء الشامية، إلا أنهم نظروا إليها كقواعد دفاعية لا هجومية، وكحدود لدولتهم ينبغي حمايتها والدفاع عنها.

ورغم استمرار حالة الحرب على الحدود الاسلامية ــ البيزنطية، إلا أن الأيام «المجيدة» للفتوحات كانت قد ذهبت، وهذا ما دعا الناقد الاجتماعي الجاحظ إلى تصوير المقاتلة وكأنهم قد انقلبوا إلى قصصاين، وشحاذين يردون للناس أخبارهم ويعيشون على ذكريات الماضي المجيد(١١).

ثالثاً ـــ العلاقات الدبلوماسية في عهد الرشيد:

لم تكن العلاقات بين الشرق والغرب مقصورة على العداء والحرب، بل شملت صلات ودية مع الامبراطوريتين البيزنطية والفرنجة «الكارلونكية».

لقد كانت تتخلل الحروب بين المسلمين والبيزنطيين فترات سلمية يتبادل الطرفان الأسرى والوفود. كما ساعد امبراطور الروم «البيزنطيين» الأمويين في عملية إعادة بناء بعض المساجد في الحجاز والشام وكانت التجارة نشطة بين الدولتين براً وبحراً. وتشير رواية إلى أن عبدالملك بن مروان استعان بخبرة البيزنطيين في مشروعه لضرب السكة «النقود» كما استقبل المنصور سفيراً بيزنطياً بعد انتقاله إلى بغداد عاصمة العباسيين الجديدة، الذي أشار على الخليفة كما تقول الرواية، بألا يبني السوق داخل المدينة حفظاً للأمن من الشغب والتجسس ويزكر الدكتور فاروق عمر في كتابه «العباسيون الأوائل»: بأن العلاقات الاسلامية ـــ الفرنجية «الكارليخية»، هي في الواقع ذات طبيعة معقدة. وسيجد القارىء أن المؤرخين اختلفوا ليس فقط حول طبيعة هذه العلاقات وأهدافها، بل على حقيقة وقوعها. تشير بعض الروايات اللاتينية المضطربة إلى أن شارلمان وامبراطور الامبراطورية الكارولخية بدأ بخطب ود الخليفة هارون الرشيد، فأرسل له وفداً رسمياً سنة ٧٩٧م ثم أرسل رسولاً إلى بطريق القدس سنة ٧٩٩م، وقد رد الرشيد بإرسال وفد سنة ٨٠١م وأعقبه شارلمان بإرسال وفد ثان سنة ٨٠٢م فرد عليه الرشيد بوفد سنة ٨٠٧م(١٢).

كانت الوفود تحمل الهدايا المختلفة إلى كل من العاهلين. كما أرسل شارلمان هبات إلى الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين، مما دعى بطريق القدس إلى إرسال وفد سنة ٨٠٠م يحمل مفاتيح كنيسة القيامة ومدينة القدس ورايتها إلى شارلمان وقد حمل بعض الباحثين الأوروبيين هذه الروايات المفعمة بالخيال والغامضة في مصادرها الأصيلة اكثر مما يجب، فابتدعوا أسطورة تاريخية جديدة فحواها أن شارلمان أصبح حامياً للأراضي المقدسة في فلسطين وأميراً على القدس، بموافقة الخليفة، مقابل أن يحاول شارلمان الاستيلاء على الأندلس باسم العباسيين، ويقف ضد البيزنطيين، ليحول دون تهديدهم البري والبحري للدولة العباسية.

ويقول الدكتور حامد زيان في محاضراته بمساق: العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب متعرضاً لهذا الموضوع بأنه ما من شك أن وجود الدول سواء أكانت الاسلامية أو الأوروبية في فترة ما يكون بينهما علاقات سواء كانت علاقات سياسية أو عسكرية أو حضارية، وبالنسبة للعالم الاسلامي فقد ورد في بعض المصادر الأوروبية خاصة كتابات الكوين، واينهارد وهما من كتاب عصر شارلمان ورد في كتاباتهم أن هناك سفارات تبودلت بين هارون الرشيد الخليفة العباسي وبين شارلمان الامبراطور الفرنجي ومن الملاحظ أن المتتبع للمصادر التاريخية الاسلامية لا يجد ذكراً لهذه السفارات. وقد روى المؤرخون الأوروبيون أنه قد وصلت إلى شارلمان رسالة من قبل هارون الرشيد محملة بالهدايا وتلك الهدايا عبارة عن ساعة مائية دقاقة وفيل أبيض ومجموعة من الثياب الحريرية والعطور والتوابل وغير ذلك، وترى تلك المصادر أيضاً أنه حدث سوء تفاهم واتفاق بين هارون الرشيد وشارلمان وتلمح إلى أنه كان الاتفاق موجه نحو الدولة الأموية بالأندلس بحيث تجعل يد شارلمان شبه مطلقة في القضاء على الأمويين بالأندلس وتشير هذه المصادر اللاتينية بأن هارون الرشيد منح شارلمان مفاتيح بيت المقدس ووضع نفسه خادماً لشارلمان في بيت المقدس. وهذه المصادر التي وردت في المصادر اللاتينية لم يرد ذكرها في المصادر الاسلامية ولذلك يجب علينا أن نتوقف لنناقش الأمر وإلى أي مدى تصدق هذه الروايات ويمكن تحليل الروايات في ثلاث نقاط رئيسية هي(١٣):

النقطة الأولى: صحة ما روته المصادر اللاتينية من اتفاق هارون الرشيد مع شارلمان ضد الأمويين بالأندلس.

النقطة الثانية: صحة ما جاء في الروايات اللاتينية من منح هارون الرشيد مفاتيح بيت المقدس لشارلمان.

النقطة الثالثة: صحة ما ورد في المصادر اللاتينية من وجود هدايا متبادلة ولنناقش كل نقطة على حدة.

النقطة الأولى: إنه من المؤكد تاريخياً أن الدولة الأموية بالأندلس عندما قامت فإنما قامت على حساب أملاك العباسيين ونتيجة لذلك اعتبر الخلفاء العباسيين أن عبدالرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية خارجاً عليهم ومن ثم ارسلوا إليه الجيوش لمحاربته ولكن هذه الجهود العسكرية التي بذلها العباسيون في القضاء على الأمويون بالأندلس فشلت ومن ثم رفض العباسيون متابعة إرسال الجيوش إلى الأندلس وما زلنا نذكر عبارة المنصور عندما فشلت جهوده العسكرية في إخضاع الأمويين بالأندلس فقال:

«الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه بحراً.. ثم اقام العباسيون الأوائل دولة بسنية في المغرب وهي دولة الأغالبة لتكون حاجزاً أمام توسعات الأمويين ومعنى ذلك أن العداء بين العباسيين والأمويين لم يكن بنفس القوة والشدة التي كان عليها في بادىء الأمر وإنما خفت حدتها»[١٤].

وكذلك لم يعد الأمويون بالأندلس يقومون بمهاجمة أملاك العباسيين ولذلك لم يعد هارون الرشيد في حاجة إلى معادات الأمويين بالأندلس هذه ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه من المستحيل أن تفكير هارون الرشيد خليفة المسلمين في أن يتحالف مع دولة نصرانية ضد المسلمين بالأندلس فليس من صالحه أن يسلم الأندلس الاسلامية إلى نصارى الفرنج وعلى هذا النحو ونحن نستبعد تماماً وجود اتفاق بين هارون الرشيد وشارلمان، يتيح للأخير الاستيلاء على بلاد الأندلس الاسلامية، ويجب أن لا ننسى أن المصادر الاسلامية لم تشر إلى هذا الموضوع لا من قريب ولا من بعيد وهذا تأكيد بعدم حدوث مثل هذا الاتفاق[١٥].

أما الدافع وراء ذكرها في المصادر الأوروبية فهو أن شارلمان وخلفائه قصدوا تدعيم مركزهم في الحرب ضد المسلمين في الأندلس وأظهروا أنفسهم بأن هناك قوة الخلافة العباسية تؤيدهم في ذلك حتى يجنوا من وراء ذلك مكاسب سياسية ويقول الدكتور حامد زيان أنه لمن المؤسف أن توجد بعض المراجع العربية وغيرها تناقلت الروايات اللاتينية التي لا أساس لها من الصحة وتطرقت بإثبات صحتها[١٦].

القضية الثانية: وهي مسألة تسليم مفاتيح بيت المقدس إلى شارلمان فإن هذا الموضوع لم يذكر كذلك بالمصادر الاسلامية وإنما ورد بالمصادر اللاتينية وبالشكل الآتي:

«ان بطريارك بيت المقدس منح شارلمان مفاتيح الكنيسة كنيسة القيامة وأن هارون الرشيد طلب من شارلمان أن يأخذ مفاتيح بيت المقدس «أي نيابة عنه»».

وفي الحقيقة أن هذا الأمر لا يمكن تصديقه حيث أن هارون الرشيد الذي كان يتولى حكم الدولة الاسلامية «الخلافة العباسية» وهي في ذلك الحين تعتبر من أقوى دول العالم ولم يكن من المتوقع أن يقف حاكم هذه الدولة القوية موقف نائب أو خادم شارلمان في بيت المقدس هذه ناحية ومن ناحية أخرى أن بيت المقدس بالنسبة للمسلمين لا يمثل بلداً عادياً وإنما تربطه بها روابط دينية فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين وإليها أسرى الله تعالى بعبده محمد عليه السلام ومعنى هذا أن بيت المقدس يرتبط برباط وثيق مع المسلمين ومشاعرهم الدينية لذلك لم يكن من المتوقع أن يمنحها الرشيد إلى شارلمان.

وقد يكون أقرب إلى الصواب أن الذي حدث هو أن شارلمان غمر بطريارك بيت المقدس بالهدايا والأموال تقرباً، ويبدو أيضاً أن بطريارك بيت المقدس أراد أن يرد جميل شارلمان لكنه لم يكن يدرك شيئاً فرأى أن يمنحه مفاتيح بيت المقدس تشريفاً له وفكرة منح مفاتيح المدينة هذه فكرية رمزية وما زالت حتى اليوم مستخدمة كنواحي شرقية لا يترتب عليها ابداً امتلاك لهذه المدينة أو تلك[١٧].

القضية الثالثة: وهي الخاصة بموضوع الهدايا المتبادلة. فإن وجود تبادل تجاري أمر ثابت بين مختلف الدول في عالم العصور الوسطى حتى ولو كان بين هذه الدول عداء وقتال، ولا شك في أن هناك علاقات تجارية كانت بين الدولة العباسية ودولة شارلمان هذه ناحية ومن ناحية ثانية أن وجود تبادل هدايا بين الدول في العصور الوسطى أمر ثابت وموجود فلا يستبعد أن تكون هناك مجموعة من الهدايا المتبادلة

حدثت بين الدولة العباسية ودولة شارلمان ومعنى ذلك أننا لا نستبعد وجود الهدايا المتبادلة بين الجانبين.

والأمر الهام في هذه الهدايا المتبادلة هو ما يترتب على تلك المبادلات خاصة إذا عرفنا أن الدولة العباسية كانت ذات تقدم حضاري في حين عم الغرب الأوروبي تأخر حضاري، وكانت النتيجة الحتمية هي تأثير الغرب الأوروبي عن طريق المبادلات بالحضارة الاسلامية، وخير شاهد على ذلك أنه عندما وصلت هذه الهدايا خاصة الساعة المائية الدقاقة التف حولها القسيسين وكانوا في الغرب الأوروبي آنذاك هم عنوان الحضارة الأوروبية فالتفوا عليها واندهشوا اندهاشاً كبيراً ولم يصدقوا أنها تعمل بطريقة علمية ولذلك عزوا أمر تشغيلها إلى السحر والجان وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى تأخر الغرب الأوروبي في تلك الفترة ونخلص من ذلك أن الهدايا التي تم تبادلها بين شارلمان والرشيد حدثت ونتج عنها تأثر الغرب الأوروبي بالحضارة الاسلامية[١٨].

خلاصة

لقد تعاونت حقائق التاريخ مع روايات ألف ليلة وليلة والأساطير الفولكلورية الأخرى، لتجعل من شخصية هارون الرشيد، شخصية أسطورية نسجت حولها القصص الخيالية وهذا ما جعل اسمه معروفاً وخطب وده حكام عصره من الصين إلى أوروبا. من هذا المنطلق يمكن أن ندرك هدف إينهارد مؤرخ البلاط الكارولنجي حين بالغ في رواياته عن حقيقة الصلات بين البلاط العباسي والبلاط الكارولنجي، ألا وهو تفخيم اسم سيده شارلمان عن طريق ربطه باسم هارون الرشيد وبالأماكن المقدسة في فلسطين حيث أشار هذا المؤرخ إلى أن العاهلين تبادلا السفراء والهدايا، وأسفرت مفاوضاتهما عن إعطاء شارلمان امتيازات معينة في فلسطين وانقسم مؤرخو الغرب بين مؤيد لوقوع هذه الصلات والامتيازات ومعارضة لها[١٩].

إن الصلات بين الشرق والغرب لم تنقطع منذ أقدم العصور إلى الآن، ولكنها مرت بفترات من المد والجزر وتباينت بين صلات سلمية وحربية. وتشير بعض الكتابات إلى أن الاسكندر المقدوني حين فتح بعض أقاليم الشرق اشترط على أهلها أن يؤووا الاغريق المهاجرين والمستوطنين في أراضيهم ويعفوهم من الضرائب. وأشارت بعض الروايات الاسطورية الأوروبية إلى أن شارلمان قام بحملة صليبية لتحرير الأراضي المقدسة في فلسطين وكما ترك هارون الرشيد أثراً في الخيال الأوروبي المعاصر لتلك الفترة كذلك ترك «الحشيشية» نفس الأثر. فقد زخرت الكتابات الأوروبية بالقصص حول الجنان الأرضية لهذه الفرقة الدينية ـ السياسية ومجدت شجاعة الحشيشية ومهارتهم في التخفي، ودقتهم في اقتناص الضحية واغتيالها. ونسجت الأساطير حول شخصية زعيم الحشيشية الغامضة المسمى شيخ الجبل. كل ذلك كان له صداه في التاريخ والرحلات والشعر والأدب والأسطورة في أوروبا[٢٠].



العباسيون والسياسة الخارجية

● أولاً ـ الرشيد والشرق الأقصى:

تشير رواية تاريخية إلى زيارة وفد أرسله ملك من ملوك الهند إلى بلاد الرشيد وقدم للخليفة هدايا تتضمن السيوف والثياب والكلاب، وقد أعجب الرشيد بالكلاب السيورية وقدم للوفد هدايا وجوائز سنية. والظاهر أن الرشيد استقبلهم استقبالاً رسمياً لأنه أمر الأتراك فصفوا صفين ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم إلا الحدق، ولعل في هذه الرواية دليلاً جديداً يشير إلى اصطناع الترك لم يبدأ منذ عهد المعتصم، بل كان كما ذكرنا، قبل المعتصم، ومنذ عهد المنصور ولكن نسبتهم كانت قليلة، وغير ذات بال، كما تبادلت الخلافة في عصر الرشيد الذي تميز بزيادة

الارتباطات التجارية بالشرق والغرب، وفوداً مع الصين، حيث أرسل الرشيد ثلاثة وفود إلى الصين[٢١] ولكن الصفة الغالبة على هذه الوفود والزيارات أنها وفود تجارية، ولم تكن لها صبغة سياسية، ولعل العباسيين كانوا يحاولون معرفة أحوال تلك البلاد النائية والتعرف على ما فيها من بضائع وتحف، وكذلك التعرف على أحوال الجاليات التجارية العربية والاسلامية هناك.

• ثانياً ـ الرشيد والأمويون في الأندلس:

لم تستطع الخلافة العباسية على عهد الرشيد مواصلة جهود المنصور والمهدي في محاولة استرجاع الأندلس من أيدي الأمويين وضمها إلى حظيرة الخلافة. والواقع أن أكبر جهد في هذا الاتجاه حصل على عهد المهدي العباسي حين اعتمد على عدة شخصيات سياسية للقضاء على انفصال الأندلس، وهي: عبدالرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي الذي تحرك في (تدمير) سنة ١٦٢هـ ثم سليمان بن يقظان الاعزابي واخيراً الدماحس بن عبدالعزيز الكناني امير الجزيرة الخضراء الذي ثار سنة ١٦٤هـ ثم فشلت حركته وهرب إلى العباسيين[٢٢].



أما الرشيد فقد فكر بأن يجعل من إمارة الأغالبة دويلة حاجزة بينه وبين الأمويين في الأندلس ولكن الرشيد أخطأ في سياسته هذه لأنه عالج الانفصال بخلق انفصال جديد عن جسم الخلافة فزاد من عوامل التفكك وكان المفروض أن ينهج سياسة تزيد من قوة عوامل التماسك.

• ثالثاً ــ الخلفاء المعتزلة والبيزنطيون:

استمر المأمون على سياسة الرشيد في شحن الجند والميرة على الحدود البيزنطية وربما كان هذا الخليفة يعد العدة لخطة هجومية تصل القسطنطينية أو على أقل تقدير تبعد البيزنطيين وتدفعهم وراء هضبة الأناضول فيتخلص الخليفة من إثارتهم للاضطرابات في أرمينية وأذربيجان والحدود الشمالية وقد حاول المأمون أن يستغل الحركات والاضطرابات الداخلية في دولة الروم، فساعد توماس الصقلبي في حركته سنة ٨٢١ ــ ٨٢٣م وأمده بالمساعدات المتنوعة وقد حاول الامبراطور البيزنطي أن يساعد بابك الخرمي الذي تمرد في أذربيجان وأرمينية سنة ٢٠١هـ =

□ الدولة العباسية.



٨١٦م فأمده بالعون، وجعل بلاد الروم ملجأ للخرمية من أتباع بابك[٢٣]. واستغل الروم انشغال السلطة العباسية باضطرابات مصر ٢١٥هـ فهاجموا طرسوس والمصيصة وقتلوا العديد من المسلمين، فقاد المأمون صائفة ضدهم وتوغل في أرضهم، فاحتل هرقلة القريبة من عمورية وافتتح العديد من المطامير (وهي حصون عسكرية صغيرة) مما دعى الامبراطور إلى طلب الهدنة بشروط وهي:

١ ـ هدنة لمدة خمس سنين.

٢ ـ الانسحاب من الحصون الرومية التي احتلها العباسيون.

٣ ـ أن يدفع الروم ١٠٠ ألف دينار.

٤ ـ أن يعيد الروم جميع الأسرى المسلمين ويبلغ عددهم سبعة آلاف أسير.

ولكن المأمون رفض الشروط واستمر في القتال في السنة التالية سنة ٢١٧هـ فاحتل حصن لؤلؤة وبنى مركزاً عسكرياً جديداً ـ (الطوفة) ـ فكتب إليه الامبراطور رسالة جاء فيها:

«أما بعد فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما، ولست حرياً أن تضع لحظ يصل إلى غيرك حظاً تحوزه إلى نفسك وفي علمك كاف عن أخبارك. وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع الحرب أوزارها عنا، ولنكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة.

فإن أبيت فلا أدب لك في الخمر ولا أزخرف لك في القول فإني لخائض إليك غمارها آخذ عليك أسدادها... وان افعل فبعد أن قدمت المعذرة وأقمت بيني وبينك علم الحجة والسلام»[٣٤].

ولكن المأمون اعتبر ذلك تهديداً ورد على الامبراطور ثيونيلس قائلاً:

«أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة... غير أني رأيت أن اتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوجدانية والشريعة الحنفية، فإن أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة. وان تركت ذلك ففي يقين المعاينة ليفوتنا ما يغني عن الابلاغ في القول والاغراق في الصفة والسلام على من اتبع الهدى»[٣٥].

وفي سنة ٢١٨هـ تجهز المأمون لخطة تهدف إلى احتلال عمورية باعتبارها نقطة مهمة في الطريق إلى القسطنطينية. ولكن الخليفة توفي قرب طرسوس ولم ينس أن يوصي أخاه المعتصم بالاهتمام بالثغور والعواصم الشمالية وعدم ترك الاستعداد والجهاد ضد الروم. وذكره أن الخرمية حلفاء الروم يجب القضاء عليهم بكل ما تملك الدولة من إمكانيات.

● رابعاً ـ فتح عمورية:

لقد كان المعتصم رجل حرب وقائداً عسكرياً من الطراز الأول، ولذلك كان من الطبيعي أن يشهد عهده زخماً جديداً في الحرب العباسية ـ البيزنطية، فقد شدد البيزنطيون في هجماتهم بالتعاون مع بابك الحزمي على العواصم والثغور العباسية وكانت قمة نشاطهم في هذا الاتجاه هو احتلالهم زبطرة فقد كتب بابك الحزمي للامبراطور ثيوفيل يعلمه:

«إن ملك العرب قد وجه كل عساكره ومقاتلته إليه (بابك) فإن أردت الخروج فاعلم أن ليس في وجهك أحد يمنعك»[٢٦].

وقد استجاب الامبراطور لهذا النداء فزحف نحو الجنوب، واحتل زبطرة بمساعدة المحمرة الحزمية الذين «خرجوا بالجبال فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحق بن إبراهيم، جماعة رئيسهم بارسيس». وكان ملك الروم قد جعلهم مقاتلة يستعين بهم في قتال المسلمين وقد أباد الروم المئات من سكان زبطرة، فكانت مذبحة رهيبة[٢٧] ثم تقدم نحو سمياط وأحرقها ولم يكن المعتصم بالخليفة المتقاعس في مواجهة حالة كهذه ولكن المشاكل الداخلية والاضطرابات ربما كانت عقبة في سبيل الاعداد والاستعداد، مما فسح المجال أمام الروم لهذه الأعمال فأعلن المعتصم الجهاد حيث يقول المسعودي[٢٨]: «ونودي في الأمصار بالتغير... فسارت إليه العساكر والمطوعة» ويشير الطبري إلى أن الخليفة «تجهز جهازاً لم يتجهز مثله خليفة قط من السلاح والعدد والآلات وحياط الادم والردايا والقرب والبغال والدروع... وآلة النار والنفط»[٢٩].

وكان جيشه كثيفاً جعل على مقدمته اشناس ويتلوه محمد بن إبراهيم، وعلى ميمنته إيتاخ وعلى ميسرته جعفر بن دينار، وعلى القلب عجيف بن عنبسة .

والظاهر أنه أراد أن يتمم المأمون في فتح عمورية، فقد سأل: «أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل: عمورية لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الاسلام وهي عين النصرانية، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية» ولذلك سار يقصد عمورية سنة ٢٢٣هـ = ٨٣٨م وكان أول اشتباك بين جيش الروم بقيادة الامبراطور والجيش العباسي بقيادة الأمنشبن سجالاً بين الطرفين انتهى بانسحاب الروم وتركيز قواتهم باتجاه عمورية تحت قيادة ياطس ذلك لأن تيوفيل عاد مسرعاً إلى القسطنطينية لحدوث اضطرابات عسكرية فيها.

وبعد أن استطاعت الجيوش العباسية احتلال أنقرة تحركت نحو عمورية، وهي أهم مدينة في الأناضول، فحاصرتها حصاراً شديداً حتى استطاعوا النفور من ثغرة ضعيفة في السور وفتحت عمورية حرباً ووصلت أخبار الفتح المبين إلى الآفاق شرقاً وغرباً.

وكان رد فعل المسلمين على مذابح زبطرة (عنيفاً) فقتلوا وسلبوا، ويقول صاحب العيون والحدائق[٣٠]: أنه كان ينادي على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة وعلى المتاع جملة واحدة ويظهر أن المعتصم كان ينوي «السير إلى القسطنطينية والنزول على خليجها والحيلة في فتحها براً وبحراً» ولذلك كان موقف الامبراطور تيوفيل حرجاً جداً، فقد راسل المعتصم معتذراً على مذابح زبطرة دون جدوى كما طلب النجدة من أوروبا الغربية[٣١].

وتشير بعض المصادر إلى حدوث تقارب بين البيزنطيين ودولة الأمويين في الأندلس بعد موقعة عمورية في ٢ آب ٨٣٨م. فعلى أثر هذه النكبة أرسل تيوفيل سفارة إلى الأمير عبدالرحمن الأوسط يطلب فيها إنشاء صلات قوية بين الطرفين وأن يعمل الأمير الأموي على استرجاع الأمر من العباسيين، كما طلب الامبراطور البيزنطي استرجاع جزيرة أقريسطش التي احتلها الزبطيون في عهد ميشيل الثاني بعد خروجهم من الاسكندرية سنة ٢١٢هـ وكان هؤلاء الربضيون قد خرجوا من الأندلس بعد حركة فاشلة ضد السلطة ونزلوا الاسكندرية، ولكن العباسيين طلبوا منهم الخروج عنها، وكان عددهم ثلاث آلاف، فخرجوا إلى أقريطش في عهد المأمون. وقد أرسل عبدالرحمن الأول سفارة إلى ميشيل الثاني ورسالة رد فيها على رسالة الامبراطور ويبدو أن الرد كان دبلوماسياً لم يلزم فيه عبدالرحمن نفسه بأية مساعدة[٣٢].

ويبدو أن الصلات توثقت أكثر في عصر الخلافة الأموية بقرطبة وزاد تبادل الهدايا والتحف ومهما يكن من أمر فإن المعتصم نفسه لم يواصل الحرب بسبب شكه في مؤامرة عسكرية استهدفت قتله، دبرها القائد عجيف بن عنبسة بالاتفاق مع العباس بن المأمون بسبب امتعاض القائد العربي عجيف من تسلط القادة الترك وسوء تصرفهم. على أن المؤامرة فشلت[٣٣].

ورغم أن المناوشات استمرت سجالاً بين الطرفين إلا أنها لم تحقق شيئاً يذكر، وحدث تبادل في الأسرى في عهد المعتصم. على أن أكبر عملية تبادل بالأسرى حدثت سنة ٢٣١هـ = ٨٤٦م على عهد الواثق حيث اتفق الطرفان على الفداء على ضفاف نهر اللامس قرب طرسوس، وحضر الفداء خاقان الخادم وأمير الثغور أحمد بن سعيد الباهلي. وقد افتدى من المسلمين حوالي خمسة آلاف أسيراً وتشير بعض الروايات إلى أن الواثق أمر بأن يمتحن الأسرى من المسلمين حول طبيعة القرآن وطبيعة الله، فمن وافق المعتزلة في الرأي فودي به ومن رفض ترك دون فداء[٣٤].

● خامساً ـــ المتوكل والبيزنطيين:

شهد عصر المتوكل هجوماً بيزنطياً قوياً على السواحل المصرية سنة ٧٣٨هـ فنهبوا وأحرقوا وسبوا من النساء ٦٠٠ امرأة، ثم عادوا بسفنهم دون أن يجابهوا بمقاومة لأن دمياط كانت خالية من الجند الذين ذهبوا إلى الفسطاط لحضور احتفال خاص. واستمر الغذو سجالاً بين الروم والمسلمين، لا يتعدى الهجوم على العواصم والثغور ثم الأسر والنهب ثم الانسحاب نحو

الداخل. وحصل الفداء مرتين: الأولى سنة ٢٤١هـ والثانية سنة ٢٤٦هـ.

نلاحظ من سير العمليات العسكرية على الحدود الشمالية أن الحرب كانت سجالاً وكانت مناوشات حدودية. فيما عدا حرب عمورية التي كانت ضربة قوية وجهها المعتصم للبيزنطيين، واعتبرها البيزنطيون نكبة كبيرة[٣٥].

إن هذه المناوشات لم تثمر عن تغيير كبير في وضع الحدود، كما وأن الطرفين انشغلا بمشاكل داخلية عديدة، ولذلك أصبحا أكثر رغبة في التفاهم مع بعضهما البعض ولا ننسى بأن الروم كان عليهم بعد فترة قصيرة أن يجابهوا الدويلات الاسلامية التي انفصلت عن السلطة العباسية، وتحركت بنشاط ضد البيزنطية، كالحمدانيين والأغالبة والطولونيين والأخشيديين على أن هذا النشاط لا يدخل ضمن حدود هذه الدراسة.

● سادساً ـ العباسيون وجزر البحر المتوسط:

رغم إهمال العباسيون للنشاط البحري في البحر المتوسط فإن الاسطول البحري على عهد الرشيد كان فعالاً نسبياً، فقد أغار الأسطول على قبرص واشتبك في معركة مع الأسطول البيزنطي الذي انهزم وأسر قائده فأمر الرشيد بقتله.

وفي سنة ١٩٠هـ = ٨٠٦م غزا حميد بن معيوف قبرص «فهدم وأحرق وسبى...» ومع ذلك لم يستقر الحكم العباسي في قبرص لكثرة ما نقض أهلها من العهود، ويبدو أن نقاشاً طويلاً وقع بين الفقهاء حول الكيفية التي يعامل بها المسلمون سكان قبرص واشترك في النقاش مالك بن أنس وسفيان بن عينية والليث بن سعد والأوزاعي وإسماعيل بن عياش وغيرهم[٣٦].

وفي سنة ١٩١هـ - ٨٠٧م أرسل الرشيد حملة إلى (رودس) عادت بالكثير من الغنائم ثم انشغل العباسيون بالحرب الأهلية والفتن الداخلية وانتقلت مسؤولية الدفاع عن النفوذ الاسلامي في البحر المتوسط إلى أمراء المغرب والأندلس.

أما كريت فقد غزاها حميد بن معيوف في عهد الرشيد وتمكن من السيطرة على جزء ساحلي منها واستطاع عمر بن عيسى الأندلسي أن يفتتح حصناً فيها في عهد المأمون، ثم توسع نفوذه تدريجياً وطرد الروم منها ونزلها سنة ٢١١هـ الثوار الربضيون بعد أن اتفقوا مع عبدالله بن طاهر بالهجرة من الاسكندرية فأعطاهم الأمان ونزلوا كريت[٣٧].

وقد ارتبط منذ بداية القرن الثالث الهجري مصير الجزر في البحر المتوسط بقوة العرب في الأندلس وقوة الأغالبة في المغرب وقد استطاع الأغالبة أن يفتحوا «صقلية» ويثبتوا نفوذهم فيها، أما كريت فقد ارتبطت بدولة الأمويين في الأندلس. أما الدولة العباسية فقد انشغلت بالقلاقل في عصر فوضى الأتراك، ومع ذلك فقد حاول المعتصم بعد انتصاره في عمورية «المسير إلى القسطنطينية... فأتاه ما أزعجه وأزاله عما كان عزم عليه».

● سابعاً ـ العلاقات مع التركستان:

كان على العباسيين أن يحافظوا على حدودهم الشرقية في بلاد ما وراء النهر تجاه الهجمات التي يقوم بها الأتراك الشرقيون وكذلك الصينيون وقد استطاع العباسيون سنة ٧٥١م أن يهزموا جيشاً صينياً يقوده كاوهين شيه. وتفرغ العباسيون للسيطرة على تحركات الترك الذين انقسموا فيما بينهم إلى إمارات صغيرة، أهمها امارة القدلوق وامارة الأغوز. ان انقسام الأتراك دون شك أثر في قوتهم، وخفف من وطأتهم على الحدود الاسلامية[٣٨].

وفي خلافة الرشيد استطاع الغطريف بن عطاء بسط سيطرته على امارة القرلوق مرة أخرى كما استطاع الفضل البرمكي أن يكسب ملك اشروسنة... واستمر المأمون في سياسته هذه متوغلاً في آسيا الوسطى «تركستان» ولعل من نتائج بسط السيطرة العباسية على اقاليم الصغد وفرغانة وأشروسنة وان كثر تدفق الترك إلى الدولة والمجتمع العباسي حتى تزايد عددهم على عهد المعتصم.

ولعل نظرة إلى تركيب الجيش العباسي الذي سار من خرسان إلى بغداد أثناء النزاع بين الأمين والمأمون تعطينا فكرة عن كثرة نسبة الترك في هذا الجيش كما وأن البلاذري يقول عن المعتصم أن[٣٩]:



□ القصر العباسي، بغداد ـــ العصر العباسي (١٢٣٠)

«جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من الصغد والفراغنة والأشروسنة وأهل الشاس وغيرهم، وحضر ملوكهم بابك، وغلب الاسلام على ما هنالك، وصار أهل تلك البلاد يغذون ما ورائهم من الترك، ففتح مواضع لم يصل إليها أحد قبله».

● ثامناً ـــ قطاع الهند:

وإذا كان الأمويون كسبوا معركة السند في عهد الوليد بن عبدالملك فإنهم ما لبثوا أن خاضوا معركة تأمين هذه المكاسب وتثبيتها منذ عهد سليمان بن عبدالملك حتى آخر العهد بهم واضطروا إلى القضاء على ثورات الأمراء الهنود بعد عزل محمد ابن القاسم ومصرعه فقد استطاع ابن مالك السند أن يدخل العاصمة وأن يستردها واضطر الأمويون إلى معاودة القتال في عهد ولاة السند أمثال يزيد بن أبي كبشة وسليمان بن عبدالملك بن حبيب، وحبيب ابن المهلب[٤٠].

وظلت هذه الفتنة متلاحقة متصلة والأمويون لا يكفون عن القضاء عليها حتى خلافة عمر بن عبدالعزيز، وأدرك الأمويون أن كسب معركة التثبيت لن يكون إلا بإنشاء القواعد العربية التي تمتد في البلاد لتكون مراكز لتجميع العنصر العربي وقلاعاً حصينة تحمي المكاسب التي أحرزوها، ومن أجل هذا أنشئت مدينتا المحفوظة والمنصورة ويبدو أن هذه السياسة أثمرت آخر العصر الأموي فقد استقرت الأحوال وقضي على الفتن والثورات وركن أهل السنة والملتان إلى الطاعة[٤١].

ولم يكن العصر العباسي عصر تجميد الفتوح، على نحو ما يذهب بعض الدارسين فقد اندفع العباسيون في تيار الفتح بنفس قوة الأمويين، ويكفي أن نشير إلى ما أحرزوا من نصر في بلاد ما وراء النهر وفي هزيمتهم للصين وقضائهم على تدخلهم في أحوال الأتراك.

ولم يقف العباسيون جامدين في اقليم امارة قنوج فقد احتكوا بها ويظهر أنهم أحرزوا بعض النصر في هذا الميدان، فالبلاذري يشير إلى القائد العباسي هشام بن عمرو التغلبي وفتح قشمير،

واستمرت معركة المسلمين مع قنوج حتى أيام الخليفة المأمون فقد أشار البلاذري إلى جهود موسى بن يحيى بن خالد البرمكي.

ولم يكف العباسيون عن متابعة الزحف صوب الشرق حتى أيام المعتصم العباسي الذي تابع سياسة إنشاء المدن وبناء القواعد الحصينة، فبنى قاعدة البيضاء وأسكنها الجند[٤٢].

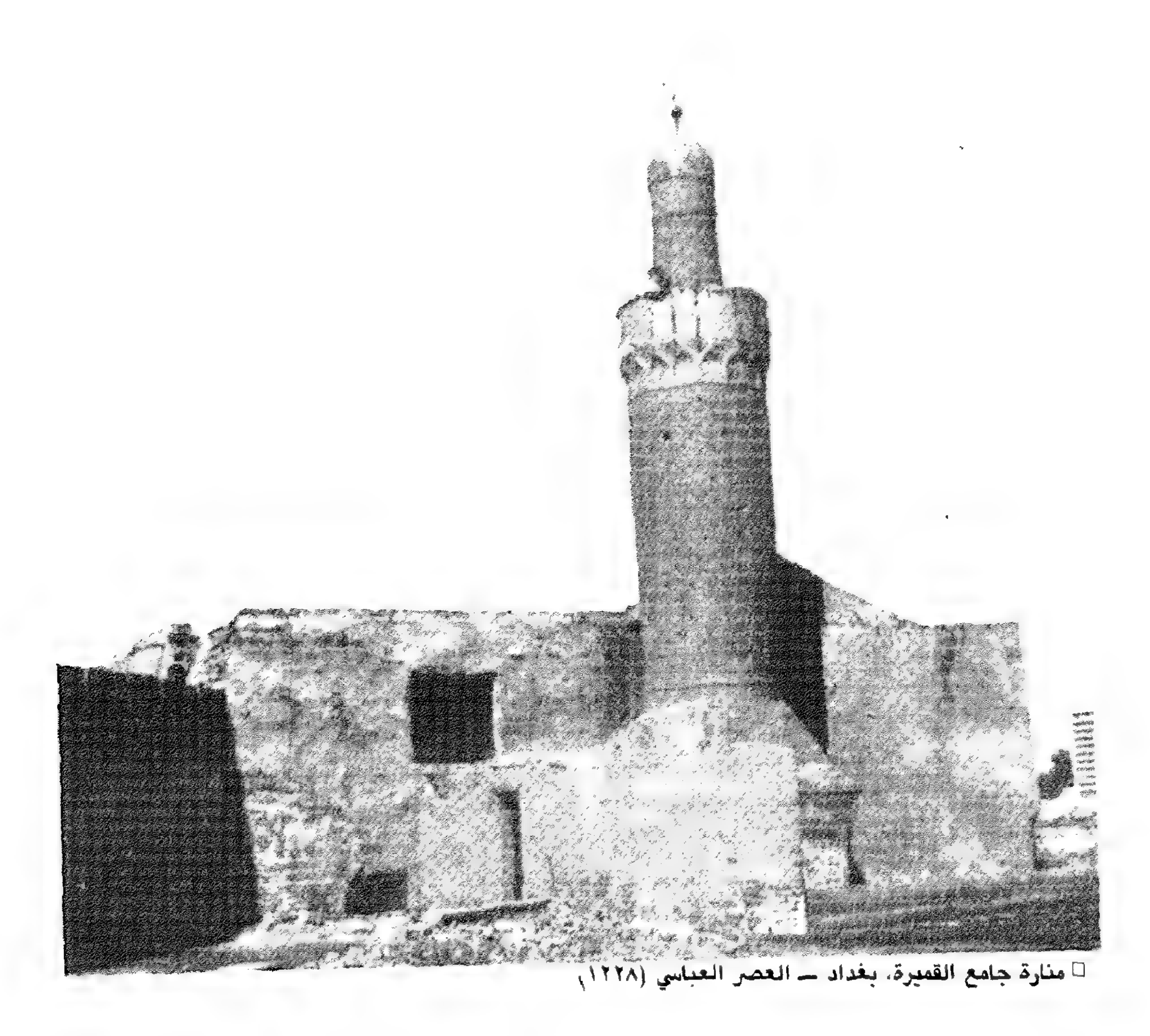
• تاسعاً ـ العباسيون وجنوب شرق آسيا:

ليس من شك من أن العصر الأموي فتح للحضارة آفاقاً جديدة مطلة على آسيا الوسطى بعد فتوح ما وراء النهر كما فتح آفاقاً أخرى مطلة على المحيط الهندي بعد فتح السند واستيلاء العرب على الميناءين الهامين على ساحل الهند الغربي: ميناء الديبل والمنصورة وبدأت البحرية العربية للمرة الأولى تبسط نفوذها وتؤكد سلطانها في هذه المناطق الهامة. لكن الحقيقة المؤكدة أن العصر الأموي لم يستطع أن يستغل هذه الآفاق الجديدة التي أطلت منها الحضارة العربية ووقفت جهودهم عند الآفاق التي انتهوا إليها، لأن التركيز كله وثقل الدولة كلها كان في بلاد الشام ومصر والمغرب والأندلس والبحر الأبيض المتوسط بصفة عامة الذي شهد أهم المعارك البحرية، وأهم التوسعات البرية فكانت الدولة الأموية في الحقيقة دولة ألقت بثقلها كله في ميدان البحر الأبيض المتوسط[٤٣].

ويضيف الدكتور حسن محمود في كتابه «العالم الاسلامي في العصر العباسي» قائلاً: لكن قيام الدولة العباسية كان نذيراً بتحول جديد ومزيد من الاهتمام والتطلع إلى الآفاق التي جمد الأمويون عندها. ولا ننكر أن الدولة العباسية ظلت منذ قيامها معنية بالمشكلة البيزنطية والدفاع عن حدود الشام والاحتفاظ بنفوذها في المغرب ومناوشة الأمويين الذين كانوا قد استقلوا بالأندلس ولكن الحقيقة أنهم كانوا يدافعون عن مكاسب آلت إليهم من العصر الأموي، ولم يكن من المعقول أن يتركوها نهباً لأطماع البيزنطيين أو أطماع الثوار الخوارج، أو مشروعات الأمويين التوسعية.

كل ذلك لم يصرف نظر الدولة العباسية عن موضوع آسيا الوسطى وجنوب شرق آسيا، وبدأت الدولة تخفف من أثقالها في الغرب الاسلامي بالتدريج لتعطي مزيداً من الاهتمام ومزيداً من التركيز نحو الشرق. وقد حافظت الدولة العباسية على ميراث الاسلام في تركستان وصمت لأطماع الصين ونقضت تحالفها مع الأتراك الشرقيين، كما أعطت قوة جديدة للنفوذ الاسلامي في الهند، وبدأ المد الاسلامي يتحرك صوب الشرق نحو قشمير وامارة تنوج لكن هذا التركيز وهذا الاهتمام اشتد أثره واشتد وضوحه منذ أواخر عصر الرشيد حين تحقق النمط الفيدرالي في الحكم وأقيمت دولة الأغالبة في افريقية، وتم التفاهم مع الفرنجة وضربت الدولة البيزنطية ضربات قاصمة ولعل من أدلة هذا الاهتمام قسمة العالم الاسلامي إلى مشرق عاصمته مرو وخراسان وتولية المأمون ولي العهد، ونائب الخليفة على هذه البلاد يقيم فيها ويهتم بأمورها ثم تأكد هذا الاهتمام في عصر الخليفة المأمون الذي وضحت في عهده الصبغة الصرفة للخلافة العباسية. وكان المأمون عاهل آسيا العظيم تأتيه الوفود من كافة آفاق آسيا تلتمس التأييد أو تشتري السلام، حتى بلغ هذا الاهتمام بآسيا ونشاطها وتياراتها القمة في عصر الخليفة المعتصم الذي وجد في الأتراك الغربيين القوة الجديدة التي تساند الخلافة وتحميها.

وقد أدى هذا كله إلى مزيد من الاهتمام بجنوب آسيا وبالشرق الأقصى. وأصبح هذا الاهتمام ركناً هاماً من أركان السياسة الدولية لخلفاء العصر العباسي الأول. وأعتقد أن ذلك مرده إلى عوامل متعددة منها أن الدولة العباسية لم تهمل أبداً اقليم خرسان، حيث انطلقت الصيحات الأولى للدولة العباسية، وكانت خراسان عامل جذب كبير في تاريخ العصر العباسي الأول هذا إلى التحالف الذي نشأ بين العباسيين وبين الجموع الايرانية المتطلعة إلى مزيد من السلطان، هذه العناصر التي كانت قد أسلمت واستعربت واتخذت اللغة العربية لغة لحياتها الثقافية وورثت الدولة الكثير من التراث الساساني القديم، ومن بين ما ورثته الاهتمام بالملاحة في الخليج الفارسي وبحار الهند وجنوب



□ منارة جامع القميرة، بغداد ــ العصر العباسي (١٢٢٨)

شرق آسيا. وثمة عامل آخر بعذي إلى تأسيس مدينة بغداد التي أصبحت مركز الثقل في الحياة الاسلامية في العصر العباسي الأول، وكانت ذات موقع متوسط يربطها بواسط والبصرة والابلة والأهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة واذربيجان وأرمينية وكانت تربط الفرات بدجلة عدة قنوات صالحة للملاحة وكانت العاصمة الجديدة في وسط السهول الخصبة التي كانت تزدان بها أرض الجزيرة(٤٤).

وكانت أوفر حظاً بمياه الري وأكثر ازدهاراً بالسكان هذا إلى ما استطاعت الدولة العباسية أن تحقق من مظاهر الاستقرار بقضائها على العناصر المناوئة لها في إيران وإخماد الثورات والفتن وإصلاح الحكومة وإنشاء الجيش القوي والتمكين للنظام العباسي من القوة والسلطان(٤٥).

هناك تطورات أخرى في جنوب شرق آسيا ساعدت العباسيين الأوائل على أن ينطلقوا في هذا الاتجاه بكل ما يستطيعونه من قوة. فقد ظهرت جاليات إسلامية في بلاد الصين يعزوها إلى الشيعة الذين فروا في أواخر العصر الأموي من الاضطهاد في خرسان وأقاموا بجزيرة في أحد الأنهار الكبيرة في الصين واشتغلوا بالوساطة التجارية بين المشرق والمغرب وتتحدث الكتابات الاباضية عن رحلة تاجر إباض إلى الصين حول منتصف القرن الثامن من أهل عمان اسمه أبا عبيدة. وشهدت بلاد الصين في ذلك الوقت استقراراً شبيهاً بالاستقرار الذي تحقق

للعباسيين في عصرهم الأول، فقد حكمت أسرة تانج (٦١٨ ـــ ٩٠٧م) امبراطورية ظلت متحدة حتى آخر العهد بها، ونعم جنوب الصين قرنين ونصف قرن بسلام لم يكن يعكر صفوه شيء وكان من الطبيعي بعد أن استقامت أحوال الصين على هذا النحو أن تفتح كانتون للتجار من كل صوب تلك هي العوامل الجاذبة التي شدت انتباه العباسيين إلى الشرق الأقصى، وأما نطاق هذا الاهتمام فإن النقطة الأولى بأن تحافظ الدولة العباسية على سيادتها على بحار الهند وتشدد من قبضتها على الموانىء الغربية الهامة، وأن تقضي على القرصان الذين انتهزوا فرصة العصر الأموي الأخير وعاثوا فساداً في تلك البقاع ويروي البلاذري أن الخليفة المنصور وجه عمرو ابن جميل في بوارج إلى تارن وأتى القندهار في السفن ففتحها، وفي عهد المأمون بعث محمد بن الفضل بن ماحار فسار في سبعين بارجة إلى الهند فقتل منهم خلقاً كثيراً. ثم تزايد الاهتمام العباسي بالشرق الأقصى وانتظمت الملاحة المباشرة مع الصين في النصف الأول من القرن التاسع عشر الهجري يدل على ذلك هذا الأدب الجغرافي الكبير الذي ظهر في هذه الفترة يتحدث عن هذه العلاقات ويصف المسالك ويتحدث عن السفن والتجارات. هذا الأدب الجغرافي المتمثل في الرواد الأوائل من الرحالة الذين ظهروا في هذه الفترة أمثال سلام الترجمان الذي قام برحلة إلى سور الصين الشمالي وابن وهب القرشي الذي ركب البحر إلى الصين وانتهى به المطاف إلى مدينة كنتون بالصين. وقد أكرمه امبراطور الصين وناقشه في الدين والسياسة ثم عرض عليه صور بعض الأنبياء وأمر له بالهدايا النفيسة وقد أفاد من تجربة ابن وهب مؤلف اسمه أبو زيد حسن، كما أشار المسعودي إلى هذه الرحلة في كتاب «مروج الذهب» في الفصل الذي كتبه عن ملوك الصين، وكذلك رحلة سليمان السيرافي، ولا نكاد نعرف شيئاً عن حياته وكل ما وصل إلينا هو وصف رحلته إلى الهند والصين. ولهذا الوصف ذيل وصفه في القرن الرابع الهجري مؤلف سيرافي اسمه أبو زيد حسن واعتمد فيه على ما سمعه من قصص الرحالة والتجار في بحار الصين. وتمتاز رحلة



□ سوق قديم في بغداد.

سليمان والذيل الذي وضعه أبو زيد حسن بما فيها من وصف صادق للطرق التجارية ولبعض العادات والنظم الاجتماعية والاقتصادية ولأهم الحاصلات في الهند وسرنديب وجاوة والصين. هذا التراث الجغرافي العظيم هو الذي بقي فيما كتبه المسعودي والاصطخري وابن خرداذبة(٤٦).

وأصبحت البصرة والابلة وسيراف منتهى المطاف للسفن القادمة من الصين، بل أصبحت سيراف منافساً للبصرة في الغنى والثروة.

من هذا الأدب الجغرافي سالف الذكر يمكن تصور الطريق الذي سلكه القاصدون إلى الصين في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي. كانت السفن في طريقها إلى الهند تقف في صحار ومسقط للتزود بالمياه ثم تعبر المحيط الهندي مباشرة إلى جنوب ملبار وهذا الطريق بطبيعة الحال كانت تسلكه السفن التي تقطع الرحلة الطويلة إلى الصين. وكانت السفن تستطيع كذلك الابحار على طول الساحل مارة بجزيرة متيس وهرمز القديمة وتيزمكران والديبل والمنصورة

وكانت السفن في هذا الطريق تتعرض لغارات القرصان فكانت تحمل على ظهرها جنوداً مدربين على الرمي بالنفط(٤٧).

وساحل ملبار هذا كانت له أهمية اقتصادية قصوى عند المسلمين فقد كان مصدر خشب الساج الذي كانت بيوت سيراف تبنى به والذي كان يستخدم في صناعة السفن، ومن ساحل ملبار تسير السفن إلى جزيرة سرنديب (سيلان) وبعد أن تؤدي السفن القاصدة إلى الصين رسوماً تبلغ ألف درهم كانت تسير حول الجزء الجنوبي من سيلان، بعد أن تعبر مضيق ملكا تقصد مباشرة إلى الهند الصينية، وتسير السفن على طول ساحل خليج كنج إلى هانوي، ثم تتجه آخر الأمر إلى كانتول التي كانت تسمى أحياناً خانفو. وكان الملاحون العرب على معرفة بالساحل الممتد شمال كنتون. فإن خرداذبة يشير إلى ميناء خاينجو، ويبدو أنهم وأعني الملاحين العرب ــ قد أوغلوا شمالاً حتى كوريا ويسميها ابن خرداذبة بلاد السيك(٤٨).

ولكن كانتون كانت بحق أعظم المراكز الاسلامية التجارية وقد نزلت بها جالية كبيرة العدد من المسلمين. ويتحدث سليماني السيرافي عن هذه المدينة الكبيرة. ويذكر أنها كانت أكبر أسواق الصين آنذاك «وكان فيها رجل مسلم يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون تلك الناحية وإذا كان العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين» والمصادر الصينية تشهد بوجود هذا النوع من الامتيازات وأنه امتد إلى الجاليات الاسلامية الأخرى في سائر مدن الصين فكان لكل منها قاضيها وشيوخها ومساجدها وأسواقها، وإن كانت الحكومة الصينية قد احتفظت لنفسها بحق النظر في الجرائم التي قد يترتب عليها النفي من البلاد أو الاعدام وكانت الرحلة من مسقط حتى كانتون تستغرق ١٢٠ يوماً عدا فترات التوقف في الموانىء(٤٩).

هذه العلاقات الهامة التي نمت في ظل الحكم العباسي انتهت نهاية عنيفة سنة ٨٧٨م عندما حاصر الثائر هوانج بشاو مدينة كانتول وأعمل فيها السلب والنهب وقتل عدداً كبيراً من التجار الأجانب. وكانت الامبراطورية الصينية في حال من الضعف بسبب هذه الثورة وامتدت الاضطرابات السياسية حتى بداية أسرة هونج عام ٩٦٠، وكانت الدولة العباسية بدورها قد دهمها التفكك والانحلال وبعد فهذه هي الآفاق العظيمة التي فتحها العصر العباسي الأول وهذا هو الدور العظيم الذي لعبوه في السياسة العالمية وتلك هي الجهود التي بذلوها في تحقيق السلام والسلم الاسلامي(٥٠).

الخاتمة

إن السياسة الخارجية في العصر العباسي الأول تحتل مكاناً بارزاً في ظل سلام إسلامي ساعد على تسرب حضاري واسع النطاق من الهند والصين وبلاد ما وراء النهر، بل ومن اليونان والغرب الأوروبي، وكان لذلك التسرب أثره الكبير في تشكيل الحضارة الاسلامية، إذ اقتبس العرب من الثقافات اليونانية والهندية والصينية والفارسية عناصر هامة كان لها فضلها في الازدهار الذي أصابته الحضارة الاسلامية في العصر العباسي. كذلك ساعد السلام الاسلامي والاحتكاك السلمي بين المسلمين وشعوب آسيا الوسطى من جهة والشعوب المجاورة لهم في الشمال الغربي على انتشار التجارة وظهور الموانىء الاسلامية الآسيوية كالبصرة وسيراف وعدن وتكدس الأسواق الاسلامية بمتاجر الشرق والغرب(٥١).

المصادر والمراجع

(١) د. حسن محمود: العالم الاسلامي في العصر العباسي، القاهرة.
(٢) د. فاروق عمر: العباسيون الأوائل ج ٣. عمان ــ الأردن.
(٣) فتحي عثمان: الحدود الاسلامية البيزنطية، القاهرة.
(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ١٠، القاهرة.
(٥) البيهقي: المحاسن والمساوى ليبزك ج ٢
(٦) د. حامد زيان غانم: محاضرات في مساق العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب.
(٧) الشيخ محمد الخضري بك محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية (العصر العباسي)، القاهرة.
(٨) مجلة دراسات تاريخية. العدد الثاني عشر مايو ١٩٨٣، جامعة دمشق.

(٩) د. فاروق عمر: تاريخ فلسطين السياسي في العصر الاسلامي، أبو ظبي.
(١٠) د. السيد عبدالعزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي الأول، الاسكندرية.
(١١) ابن عبدربه: العقد الفريد ج ١٠، القاهرة.
(١٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج ٣.
(١٣) المسعودي: مروج الذهب ج ٤.
(١٤) البلاذري: فتوح البلدان.
(١٥) حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي.
(١٦) المقدسي: أحسن التقاسيم.

الهوامش

(١) د. حسن محمود: العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ١٦١ «دار الفكر العربي، القاهرة».
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) د. حسن محمود: العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ١٦٢، دار الفكر العربي، القاهرة.
(٤) د. فاروق عمر: العباسيون الأوائل ج ٣ ص ١٨٩، المطبعة الأردنية، عمان ١٩٨٢م.
(٥) نفس المصدر السابق ص ١٨٩، المطبعة الأردنية، عمان ١٩٨٢م.
(٦) فتحي عثمان: الحدود الاسلامية البيزنطية، القاهرة ج ١ ص ٢٨٥.
(٧) د. فاروق عمر: العباسيون الأوائل ص ١٩٠، المطبعة الأردنية، عمان.
(٨) نفس المصدر السابق ص ١٩١.
(٩) فتحي عثمان: الحدود الاسلامية البيزنطية، القاهرة ج ٢ ص ١٥٨، ص ١٦٣.
(١٠) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ١٠ ص ٩٤.
(١١) البيهقي: المحاسن والمساوىء ليبزك ج ٢ ص ٦٣٢، القاهرة، ١٩٠٦.
(١٢) د. فاروق عمر: العباسيون الأوائل ج ٣ ص ١٩٤، عمان، ١٩٨٢م.
(١٣) د. حامد زيان غانم: محاضرات في مساق العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب.
(١٤) الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ص ١٣٣، القاهرة، ١٩٧٠م.
(١٥) مجلة دراسات تاريخية ص ٢٨، العدد الثاني عشر مايو ١٩٨٣م، جامعة دمشق سوريا.
(١٦) د. حامد زيان غانم: محاضرات في مساق العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب.
(١٧) د. فاروق عمر: تاريخ فلسطين السياسي في العصور الاسلامية من ص ١٠٤ إلى ص ١١٤، أبو ظبي، ١٩٨٣م.
(١٨) د. السيد عبدالعزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب «العصر العباسي الأول» ص ٢٤٠ ــ ٢٤٥، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية.
(١٩) د. فاروق عمر: تاريخ فلسطين السياسي في العصور الاسلامية ص ١١٠ ــ ١١١، أبو ظبي، ١٩٨٣م.
(٢٠) د. فاروق عمر: العباسيون الأوائل ج ٣ ص ١٩٦ ــ ١٩٧، عمان ــ الأردن ١٩٨٢م.
(٢١) ابن عبدربه: العقد الفريد ج ١٠ ص ٢٦١، القاهرة، ١٩٤٠.
(٢٢) اليعقوبي: التاريخ ج ٣ ص ١٩٢.
(٢٣) نفس المصدر السابق.
(٢٤) الطبري: ج ١٠ ص ٢٨٣ تاريخ الرسل والملوك، القاهرة.
(٢٥) نفس المصدر السابق ص ٢١٤ ــ ٢١٥.
(٢٦) اليعقوبي: التاريخ ج ٣ ص ١٢٥.
(٢٧) نفس المصدر السابق.
(٢٨) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ١٤.
(٢٩) الطبري: ج ١٠ ص ٣٣٥.
(٣٠) العيون والحدائق ص ٤٠.
(٣١) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ١٤.
(٣٢) فتحي عثمان: الحدود الاسلامية البيزنطية، القاهرة ج ١ ص ١٨٢ ــ ١٩٣.
(٣٣) اليعقوبي: التاريخ ج ٣ ص ٢٠١.
(٣٤) اليعقوبي ج ٣ ص ٢٠٧.
(٣٥) د. فاروق عمر: العباسيون الأوائل ج ٣ ص ٢٠٢، عمان، الأردن.
(٣٦) د. حسن محمود: العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ١٦٢ ــ ١٧٦، القاهرة.
(٣٧) نفس المصدر السابق.
(٣٨) المصدر السابق ص ١٦٩ ــ ١٨٤.
(٣٩) البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٢٠.
(٤٠) البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٢٠.
(٤١) البلاذري: الفتوح ص ٤٢٨.
(٤٢) د. حسن محمود: العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ١٨٥.
(٤٣) د. السيد عبدالعزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب ــ العصر العباسي ص ٢٠٨ ــ ٢١٤.
(٤٤) حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ١٩٧.
(٤٥) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٢٤.
(٤٦) د. حسن محمود: العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ١٩٠، القاهرة.
(٤٧) نفس المصدر السابق.
(٤٨) د. حسن محمود: العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ١٩١، القاهرة.
(٤٩) نفس المصدر السابق.
(٥٠) نفس المصدر السابق.
(٥١) د. السيد عبدالعزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب (العصر العباسي الأول) ص ١٦٧، القاهرة.

الطباعة والصحافة



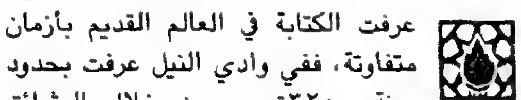
بين الحرف والكلمة

د . أنطونيت أديب باسيلي

اللغة من أهم اختراعات الانسان، والحرف هو النتاج الفريد الذي خرج من الانسان وارتد عليه تفاعل عجيب سلبي وإيجابي من مادة واحدة وهي الانسان.

سبق واكتشف الانسان النار، وكان تفاعلاً بين الحجر والنبات. إلا أن يخترع الانسان الحرف واللغة من ذاته من أعماقه، ويصدرها بأصوات مختلفة، قد تكون مزعجة ومبهمة في باديء الأمر، كضحكاته وبكائه. ثم يصورها برموز غامضة كأنها خربشة أطفال يستعصى فهمها، ومن ثم يهذب هذه الرموز حتى تأتي مجسدة وتصبح فيما بعد الام والمنبثق لجميع اللغات الميتة والحية. فهذا هو الاعجاز.

الحرف ورحلة الابداع



عرفت الكتابة في العالم القديم بأزمان متفاوتة، ففي وادي النيل عرفت بحدود سنة ٣٢٠٠ق. م. من خلال الوثائق المدونة على الحجر كمتون الأهرام، وكتب الموتى، ونصوص التوابيت، والأدعية والتراتيل الدينية ومن ثم من خلال المسلات وجدران المعابد والقوائم المنقوشة كحجر بالرمو، وقائمة الكرنك وقائمة أبيدوس، وقائمة سقارة والتي حملت أسماء ملوك ما قبل الأسرات، وبعض الكتابات المدونة على أوراق البردى (بردية تورين)، وقطع الفخار والألواح الحجرية، كحجر الرشيد وكلها كتبت باللغة المصرية القديمة الهيروغليفية (التصويرية) والهيراطيقية (الخط الكهنوتي) والديموطيقي (الشعبي) وكل هذه الوثائق كانت عبارة عن قرارات يصدرها كهنة الفراعنة المصريين لتعداد مآثر الحكام من حروب وفتوحات وإنشاءات عمرانية واستصلاح أراضي وقهر أعداء وجمع ضرائب وتقديم نذور وهدايا وأسر خصوم، وبعضها نقش كقوانين تخص الشعب وتدير شؤونه الاجتماعية واليومية والسبب في كل هذه النقوش هو اطلاع الشعب عليها[١].

أما سومر العراق فقد عرفت الكتابة سنة ٢٨٠٠ق. م. في زمن أسرة كيش الأولى، فقد عثر على ألواح بابلية وأشورية دونت باللغة الأكدية تحكي حكايات خرافية ولكنها رمزية تدور حول مواضيع تمس الحياة اليومية للفرد، وتنشد تعليم الناس وتثقيفهم مما يحملنا على الاعتقاد بعمق مفاهيم تلك الأزمنة السحيقة، وهناك أيضاً مراثي تموز، والملاحم السومرية التي تدور حول بطولات قام بها ملوك أوروك وارتا حوالي سنة ١٨٠٠ق. م. إلا أن ملحمة جلجاميش المشهورة والتي وصلتنا كاملة غير منقوصة هي من أبدع ملاحم العالم القديم البابلي ـ الآشوري.

وأهم الوثائق السومرية المدونة التشريعات المعروفة حتى الآن والتي دونت لتنظيم حياة المجتمع التجارية والاجتماعية أمثال قانون أورنمو مؤسس أسرة أور الثالثة ٢٠٥٠ق.م. وهي مكتوبة على لوح من الطين المشوه، ثم قانون

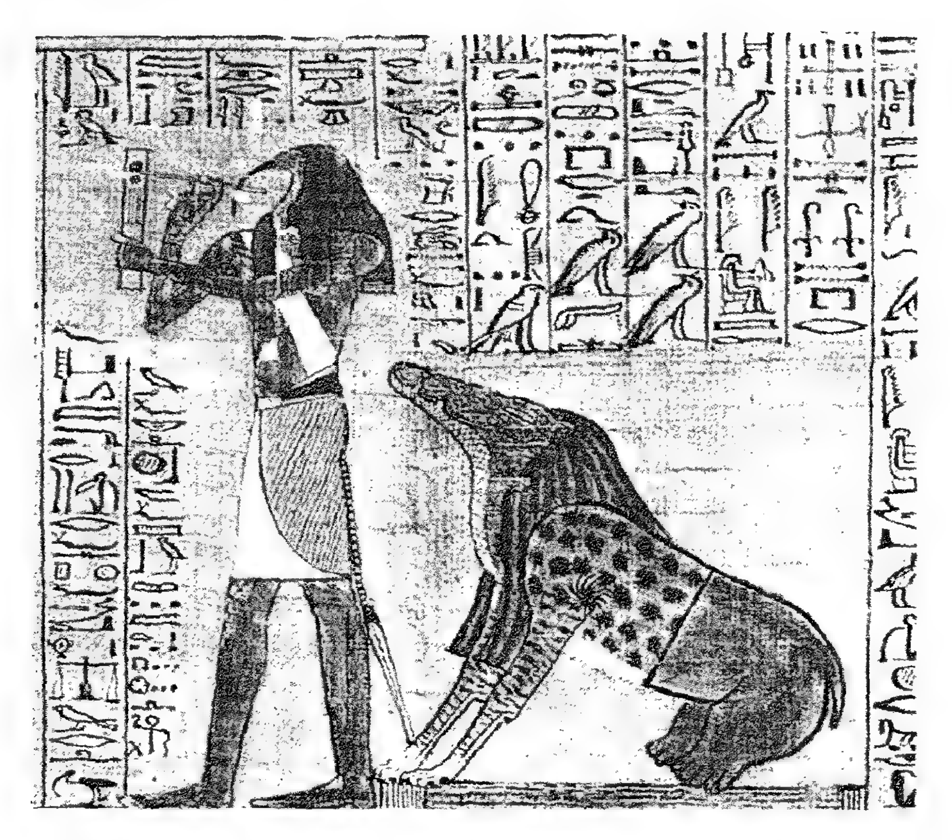
□ لم يستطع المصريون من طرح رموز الهجاء القديمة جانباً، على الرغم من ظهور أحرف هجائية أكثر فعالية.

اشنونا ١٩٠٠ ق.م. وهو مكتوب على لوح حجري، وأعقبه قانون لبيت عشتر سنة ١٨٥٠ ق.م. الذي اكتشفت منه سبع ألواح، وهو ناقص إذ يقدر عدده بأكثر، وأخيراً قانون حمورابي ملك بابل حوالي سنة ١٧٥٠ ق.م. وهو مدون على لوح من حجر الديوريت وقد محيت بعض مواده وموجود الآن في اللوفر[٢].

إلا أن هناك بعض التفاوت في مواضيعها، فقانون أورنمو رغم تشويهه وتهشيمه كان يفرض على المعتدين دفع غرامة مالية تتناسب وجسامة الجريمة، بعكس قانون حمرابي الذي حدد عقوبة المثل بين الأفراد فالعين بالعين والسن بالسن، وبالرغم من أن قانون أورنمو أقدم زمناً من قانون حمورابي إلا أنه مظهر من مظاهر مجتمع أكثر تهذيباً وتمدناً من مجتمع حمورابي.

وحاكى ملوك العراق مصر في تدوين انتصاراتهم وأعمالهم فقد دون اياناتم ملك الجيش انتصاراته الحربية على بلاد سومر في لوحة حجرية تعرف بلوحة العقبان[٣].

وخلاصة القول إن نقوش أولئك الأقوام ما كانت إلا وسيلة لإحاطة مجتمعهم بأعمالهم وبما يجري وتدوين سير حياتهم لتكون ذكرى للأجيال اللاحقة وتاريخاً لأجيالنا الحاضرة،



□ اله الكتابة ــ ثوث ــ يدون مقدار وزن قلب الانسان

ولم تكن إلا كصحف رسمية كالتي تصدر في يومنا هذا.

تطور الكلمة

مع تطور الزمن تهذب الحرف وتشكلت اللغات بأحرفها الهجائية فأقدم الصينيون على ترتيب الحرف وطبعه على الحجر والخشب. فكانت أقدم طرق للطباعة في العالم، ويذكر انهم نشروا سنة ٩١١ق.م. اول جريدة عرفها العالم القديم(٤).

وتبعهم قياصرة الرومان فأنشؤا سنة ٦٩١ق.م. جريدة يومية كانت تطبع على أوراق البردى ورق الغزال يقرؤها المنادى في ساحات المدن يعلن عما فيها من أوامر وإصلاحات وقرارات تصدر عن القياصرة.

ثم أصدر يوليوس قيصر في أوائل القرن الأول للميلاد صحيفة يومية سميت (Acta Duria)(٥) اعتنت بما يصدر عنه في كل يوم من قرارات تتعلق بالحرب والفتوحات والأسرى والثروات وتعبئة الجيوش والاصلاحات والضرائب.

هذه الصحف هي من أقدم ما عرف حتى اليوم وكانت مكرسة لنشر أعمال الحكومات ومنشوراتها.

أما الأعمال الأدبية ومنها سرد قصص البطولات وتأريخ حياة الأبطال وأنسابهم وما قاموا به من أعمال ورحلات والتي كانت خرافية في أكثر الأحيان. فقد جاءت على لسان الشعراء المتجولين الذين كانوا ينشدون هذه الأعمال بقالب شعري في مختلف البلدان ويحفظها الناس وينقلونها في ترحالهم. من هنا كانت أشعار هوميروس في الياذة والأوديسيا، ومعلقات الجاهلين، ومن ثم شعراء البلاط الأموي والعباسي والأندلسي الذين كانواصحافيي عصرهم ولسان أمرائهم.

مكننة الطباعة

أما الطباعة الحديثة أي تجميع الحروف المتفرقة وطبعها على الورق، فقد عرفت منذ أواسط القرن الخامس عشر ميلادي في المانيا على اثر اختراع آلة الطباعة، وكانت عبارة عن صحافة بدائية في فحواها ومضمونها ولم تتبلور وتتخذ شكلها المعروف حالياً إلا في سنة ١٥٣٦

في مدينة البندقية الايطالية إذ صدرت جريدة (Gazette) تيمناً باسم عملة معدنية كانت متداولة بين أهل البندقية. أعقبها صدور الصحف الانكليزية سنة ١٦٢٢ والفرنسية سنة ١٦٣١ حتى عمت المدن الأوروبية.

أما المشرق العربي فالصحافة لم تظهر فيه إلا بعد دخول القرن التاسع عشر، وارتبطت الصحافة العربية ارتباط وثيقاً بالطباعة، وأول مطبعة عربية بأحرف عربية ظهرت في ايطاليا بمدينة فانو، بأمر من البابا يوليوس الثاني ودشنها البابا ليون العاشر سنة ١٥١٤، وأول كتاب طبع فيها باللغة العربية سنة ١٥١٤ كان كتاب ديني ثم تلاه سفر الزبور سنة ١٥١٦ ومن ثم القرآن الكريم الذي طبع في البندقية سنة ١٥١٧ إلا أن هذه الطبعة اتلفت تحت ضغط البابوات خوفاً من تأثيرها على معتقدات النصارى[٦].

ثم أعيد طبع القرآن الكريم في اللغة الايطالية سنة ١٥٤٧ وطبع قانون ابن سينا في رومية (روما) سنة ١٥٩٣ في مجلد ضخم، وكثرت المطابع العربية في أوروبا لحاجة أوروبا العصور الوسطى (المظلمة) إلى نور الشرق ليضيء ظلمتها.

وأكثر مدن أوروبا التي حوت مطابع عربية هي لندن وباريس وليبسك وليدن وغوتنجن وروما وفينا وبرلين وبطرسبرج وغيرها.

أما في الشرق فإن أسبق الأمم إلى الطباعة بأحرف عربية هم السوريون، إلا أن الاستانة كانت السباقة في هذا المضمار من حيث الفن والاتقان، فقد عرفت الطباعة مع مطلع القرن السادس عشر، وطبعت فيها التورات بالأحرف العبرية سنة ١٥٥١ ولم تستعمل مطابع الاستانة الحرف العربي إلا في مطلع القرن الثامن عشر ١٧٢٨م. ويرجع فضل نقل الطباعة العربية إلى الاستانة إلى محمد حلبي السفير، وابنه الصدر الأعظم سعيد.

واشهر مطابع الاستانة العربية كانت مطبعة الجوانب لصاحبها أحمد فارس الشدياق التي اسسها في أواسط القرن التاسع عشر وطبع عليها جريدته الشهيرة «الجوائب» إلى جانب بعض الكتب العربية المهمة.

اسلفنا، إن السوريين أسبق المشارقة إلى الطباعة بالأحرف العربية، وأسبق مدن سوريا في هذا المجال هي حلب، فقد طبع فيها كتاب طقسي كنسي باليونانية والعربية سنة ١٧٠٢، ثم طبع فيها الانجيل سنة ١٧٠٦، ويعود فضل إدخال المطبعة العربية إلى حلب لاثنان من رجال الكنيسة الأرثوذكسية وهما البطريرك اثناسيوس الرابع الذي استورد أدوات المطبعة من بلاد الافرنج سنة ١٦٩٨ وإلى الشماس عبدالله زاخر الحلبي (١٦٩٨ ــ ١٧٤٨) الصانع الماهر الذي سكب الحرف العربي لهذه المطبعة[٧].

ثم ظهرت المطابع في لبنان وأقدم مطابعه مطبعة قزحيا في وادي قنوبين شمال لبنان تحت بلدة بشرى، وكانت أحرفها سريانية ومن ثم حولها رهبان الدير إلى أحرف عربية وأكثر مطبوعاتها كانت دينية وما زالت موجودة في الدير حتى يومنا هذا.

ولهذه المطبعة تاريخ منشور في مطبوعات الدير[٨] تقول:

«إن الدير اشتهر بمطبعته الأولى في الشرق كله في أوائل القرن السابع عشر ١٦١٠ وقد طبع عليها كتاب المزامير الموجود في مكتبة جامعة الروح القدس في الكسليك، وإن هذه المطبعة ضاعت حروفها بسبب الغزوات التي تعرض لها الدير عبر السنين الصعاب. •

«ولما تأسست الرهبانية اللبنانية سنة ١٦٩٥ في جبل لبنان تجددت المطبعة بالدير سنة ١٧٨٩ ثم خصص لهذه المطبعة جناح خاص بالدير سنة ١٨٢٠ واستبدل دولابها الخشبي الكبير بدولاب صغير من الحديد، واشترى رئيس الدير الأب دانيال الحدثي سنة ١٨٧١ مطبعة أخرى جديدة ظلت تعمل حتى نهاية القرن التاسع عشر ولم تزل بقاياها موجودة في الدير ومعروضة للمشاهدة».

وأسس الشماس عبدالله الزاخر المتقدم ذكره مطبعة الشوير سنة ١٧٣٣ وطبع فيها المزامير وبعض الكتب الدينية.

أما بيروت فلم تعرف الطباعة إلا في أواسط القرن الثامن عشر وأقدم مطابعها، مطبعة القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس التي



□ خليل الخوري مؤسس جريدة (حديقة الأخبار).

انشئت سنة ١٧٥٣ بمجهود الشيخ نقولا يونس الجبيلي المعروف بابن عسكر[٩] واكثر كتبها كانت في الأدب والتاريخ.

تلتها المطبعة الأميركية للمبعوثين الأميركيين التي انشئت سنة ١٨٢٢ في مالطة ثم نقلت سنة ١٨٣٤ إلى بيروت وكانت تطبع الكتب العلمية والطبية والرياضية والأدبية والدينية.

ثم المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين التي تأسست سنة ١٨٤٨ وتعرف الآن بالمطبعة الشرقية وما تزال قائمة حتى يومنا هذا، وقد طبعت كتب في شتى المواضيع الأدبية والعلمية والدينية وكانت تشمل الحروف العربية والافرنجية واليونانية والسريانية والعبرية والأرمنية.

وفي سنة ١٨٥٧ انشأ المرحوم خليل الخوري صاحب حديقة الأخبار مطبعته الشهيرة التي توسعت في طباعة الكتب القانونية والأدبية والتاريخية، ثم تلتها مطبعة المعارف سنة ١٨٦٧ لصاحبها البستاني الذي طبع فيها محيط المحيط ودائرة المعارف وصحيفته الجنان والجنة واعقبها سنة ١٨٧٤ المطبعة الأدبية لصاحبها خليل سركيس وتعرف الآن باسم مطبعة لسان الحال، وما زالت تعمل في مجال طباعة الصحف والكتب.

تأخر دخول المطبعة إلى مصر حتى سنة ١٧٩٨ مع دخول الفرنسيين، وخرجت منها مع خروجهم سنة ١٨٠١ وظلت مصر دون مطابع حتى سنة ١٨٢١ حين استقر الأمر لمحمد علي الذي أقام المطبعة الأهلية (مطبعة بولاق) سنة

١٨٢١ على انقاض مطبعة بونابرت في منطقة بولاق، وعهد بإدارتها إلى نقولا مسابكي السوري الذي اتقن اللغة الايطالية من خلال إقامته بميلانو حيث ارسل لتعلم فن الطباعة. وعاد إلى مصر ودرب العمال على الطباعة، وقد صدر من طباعة هذه المطبعة آلاف الكتب في شتى الفروع والفنون.

إلى جانب مطبعة بولاق الأميرية (الرسمية) كان هناك قلة من المطابع الخاصة لبعض الأقباط أمثال الانباكيرس الرابع بطريرك الاقباط الذي اطلق عليها اسم مطبعة الوطن. وأنشأها سنة ١٨٦١، ثم مطبعة وادي النيل أنشأها ابو السعود أفندي سنة ١٨٦٦، ومن ثم تكاثرت المطابع في أنحاء مصر زمن الخديوي اسماعيل وعباس الثاني.

أسباب نشأة الصحافة

تعددت أسباب هذه النشأة بتعدد مسبباتها، فقد شهد العالم العربي في نهاية القرن التاسع عشر حركات ثورية مكبوتة، كانت كفيلة بإيقاظ الفكر العربي بعد ثبات طويل، وتوعيته وطنياً واجتماعياً وقومياً، فكانت أهم عواملها ما يلي:

١ ـ إحساس الشعب بالوطنية بفضل بعض رواد هذه الفكرة أمثال رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) وعلي مبارك (ـ ١٨٩٣) وحسين المرصفي (ـ ١٨٨٩) التي تمخضت عن جهود جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧) ومحمد عبدو (١٨٥٣ ـ ١٩٠٥) وغيرهم(١٠) في مصر، وعن جهود كل من بطرس البستاني (١٨١٦ ـ ١٨٨٣) وناصيف اليازجي (١٨٠٠ ـ ١٨٧١) وفارس الشدياق (١٨٠٤/١٨٨٧) في لبنان الذي كان في طليعة الدول العربية في المجال الأدبي والتربية العامة بسبب وضعه الخاص الذي تمتع به في ظل السلطة العثمانية بادىء الأمر.

٢ ـ الأحداث التي شهدتها المنطقة من اضطرابات بين الحكومة العثمانية والبلدان العربية.

٣ ـ رغبة كل من السلاطين الأتراك والأمراء المحليين في الاعتماد على الصحافة الوطنية للدفاع عنهم ضد بعضهم وضد الأجانب



□ بطرس البستاني.

المقيمين في مصر وسوريا ولبنان الذين كانوا يمثلون سفارات بلادهم بأفكارها ومبادئها وسياستها ضد الدول العربية.

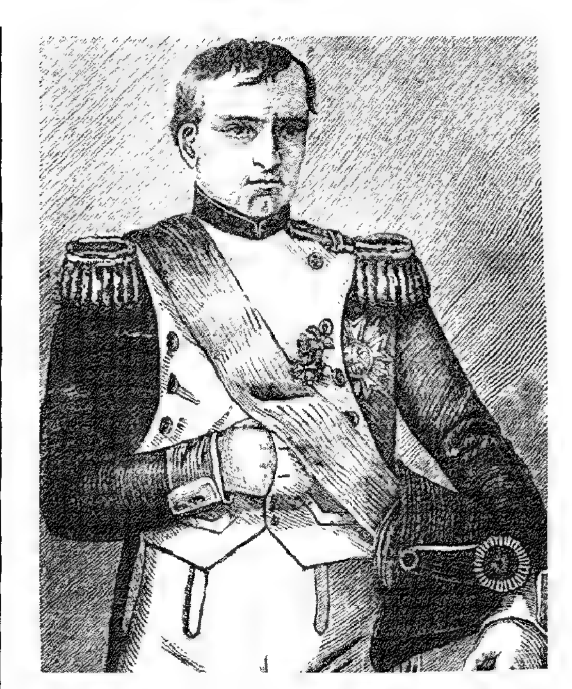
٤ ـ اهتمام الشعوب العربية بالسياسة الدولية وحب معرفة ما يجري من دسائس دولية.

٥ ـ كثرة المثقفين في الدول العربية مما شجع عندهم انتقاد سياسة أمرائهم وسلاطينهم، ومحاسبتهم من خلال الصحافة وتعريتهم أمام الناس لمعرفة حقيقتهم بدعم من السفارات الأجنبية.

٦ ـ ضغط الدولة العثمانية على العناصر المثقفة واضطهادهم بسبب توعية الشعب، وبثهم للنهضة الفكرية بين الشباب، مما أدى إلى هجرتهم وتوزعهم في الأقطار العربية وخصوصاً مصر.

رحلة الصحافة في الوطن العربي

يبدو ان مصر بعد أن وضعت أساس الصحافة العربية استراحت فترة من الزمن ما بين سنة ١٨٤٩ ـ ١٩٦٣، وما وصلنا من أسماء جرائد قبل هذه الفترة فهو صغير جداً وهي:



□ نابوليون الأول.

١ ــ الوقائع المصرية انشئت سنة ١٩٢٨ على يد محمد علي حاكم مصر، وكانت تصدر بالتركية ثم بالعربية والتركية واستقرت أخيراً بالعربية، تولى تحريرها نخبة من الأدباء في فترة النهضة أمثال الشيخ حسن العطار (ــ ١٨٣٤) وأحمد فارس الشدياق. الشيخ أحمد عبدالرحيم، الشيخ محمد عبدو، الشيخ عبدالكريم سلمان. ثم تولى رئاسة تحريرها سنة ١٨٣٥ رفاعة الطهطاوي وأصبحت تعرف بالوقائع الرسمية.

٢ ــ جريدة التنبيه لصاحبها إسماعيل الخشاب (ــ ١٩١٢).

٣ ــ جريدة السفينة لصاحبها شهاب الدين.

وتحولت مهمة الصحافة في تلك الأثناء إلى سوريا الطبيعية التي أتمت عمل شقيقتها مصر في هذا المجال.

الصحافة في سوريا ولبنان

بدأت الصحافة بالمعنى المفهوم في سوريا ولبنان بحدود سنة ١٨٥٠ لتفاعل الحدث مع الزمان والمكان، فقد تسارعت أحداث المنطقة من حرب باردة بين تركية / روسيا إلى حرب ساخنة عرفت بحرب القرم وسيطر الخوف على شعوب المنطقة التي بات خبزها اليومي استقصاء أخبار ما يدور في الساحة، ومن حولها وصادف خلو الساحة العربية وخصوصاً مصر من الصحافة التي تشبع نهم الناس فانبرى جماعة من المثقفين يتولى هذا العمل ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

١ ــ جريدة **مرآة الزمان** لصاحبها رزق‌الله حسون الحلبي الذي أصدرها سنة ١٨٥٥ عقب حرب القرم. وكانت شديدة اللهجة ضد تركية مما أدى إلى تعقب صاحبها، الذي فر إلى روسيا وانتهت الجريدة بعد سنة من ولادتها.

٢ ــ جريدة **حديقة الأخبار** لصاحبها خليل الخوري الذي أسسها سنة ١٨٥٨ والتي عرفت في البدء باسم (الفجر المنير) وهي أول صحيفة صدرت خارج الاستانة، فقد أصدرها في الشويفات لبنان وبقيت تصدر حتى بعد وفاة صاحبها سنة ١٩٠٧ لسنتين أخريين[١١].

٣ ــ **عطارد وبرجيس** تأسستا سنة ١٨٥٨، الأولى صدرت في مرسيليا ولم يطل بقاؤها، والثانية في باريس وأصدرها الكونت رشيد الدحداح اللبناني (ــ ١٨٨٩) ثم عهد بأمرها إلى سليمان الجزائري التونسي، وقد توقفت في سنتها الخامسة.

٤ ــ **الجوائب** صدرت سنة ١٨٦٠ بالاستانة لصاحبها أحمد فارس الشدياق واستمرت بالصدور حتى سنة ١٨٨٤.

شهدت سنة ١٨٦٠ نهضة صحفية عظيمة وأعقبها في السنين التالية نوع من الصحافة الرسمية اهتم بها المتصرفون والحكام الرسميون في الشرق والمغرب العربي ومنها:

١ ــ جريدة **الرائد التونسي**، صدرت سنة ١٨٦٠ في تونس وكانت رسمية تصدر المناشير والقوانين.

٢ ــ جريدة **سوريا**، صدرت سنة ١٨٦٥ في دمشق وسنة ١٨٦٧ في حلب لجودت باشا حاكم سوريا.

٣ ــ جريدة **لبنان الرسمية**، أصدرها متصرف لبنان داوود باشا سنة ١٨٦٧ في بيروت.

٤ ــ جريدة **الزوراء**، أصدرها مدحت باشا سنة ١٨٦٨ في بغداد.

وكانت لسنة ١٨٦٨ نشاطات أدبية واجتماعية واسعة، إذ تأسست الجمعية العلمية السورية على يد أدباء من كل الطوائف منهم بطرس البستاني وناصيف اليازجي وحسين بيهم ومحمد امين أرسلان وكانت لهذه الجمعية اهتمامات أخرى سياسية وقومية عربية فأصدروا مجلة شهرية باسم «مجموعة العلوم» وكان لها امتدادات خارج لبنان[١٢].

جاءت سنة ١٨٧٠ الغنية بالصحف السياسية والعلمية والأدبية والدينية، فقد توسعت أبواب الصحافة وامتدت إلى فروع جديدة من المعرفة كان لها أربابها ومن مثالها:

١ ــ مجلة **الزهرة** لصاحبها يوسف الشلفوني (ــ ١٨٩٦) اهتمت بالأدب والاجتماعيات.

٢ ــ مجلة **البشير** للآباء اليسوعيين اهتمت بالعلوم والفنون الأدبية.

٣ ــ مجلة **الجنة** لصاحبها بطرس البستاني.

٤ ــ مجلة **الجنان** لصاحبها بطرس البستاني وقد اعتنت بالشؤون السياسية والعلمية والأدبية وكانت تصدر مرتين في الشهر.

٥ ــ **نفير سوريا** لصاحبها بطرس البستاني صاحب جريدتي الجنة والجنان وقاموس المحيط وموسوعة دائرة المعارف المشهورة.

٦ ــ **النحلة** لصاحبها لويس الصابونجي. وكانت متنوعة المواضيع كعمل النحلة من كل وادي زهرة.

وسنة ١٨٦١ صدر للصحفي اللبناني الشهير خليل الخوري صاحب جريدة **حديقة الأخبار** كتابه المشهور عن خرائب سوريا وموضوعه **الآثار القديمة في البلاد** والذي نال شهرة كبيرة.

أما في سنة ١٨٧١ فقد صدرت كل من:

١ ــ كوكب الصبح المنير ــ للأمريكيين.

٢ ــ الجنينة ــ بطرس البستاني.

٣ ــ النجاح ــ لويس الصابونجي ويوسف شلفوني (ــ ١٨٩٦).

تذوق يوسف الشلفوني العمل الصحفي فأصدر سنة ١٨٧٤ **جريدة التقدم** التي عاشت حيناً وتلتها سنة ١٨٧٧ جريدة **لسان الحال** لصاحبها خليل سركيس ثم أعقبها سنة ١٨٨٠



□ محمد علي باشا.

جريدة **المصباح** لصاحبها نقولا النقاش التي تعطلت سنة ١٩٠٨.

وفي سنة ١٨٨٥ صدرت في بيروت جريدة إسلامية اعتنت بالشؤون الدينية وهي **ثمرات الفنون** لصاحبها الحاج سعدالدين حمادة وكان رئيس تحريرها عبدالقادر القباني[١٣].

سنة ١٨٦٣ استعادت مصر عافيتها وصحافتها وعادت لتأخذ مكانها الطبيعي في مجريات الأمور وتتصدر الأحداث، فأصدرت سنة ١٨٦٥ جريدة **اليعسوب** لصاحبها محمد علي باشا الحكيم، وإبراهيم الدسوقي، وكانت مجلة طبية لم تعش طويلاً، ولكنها أول مجلة أو صحيفة نشرت بعد توقف الوقائع المصرية، ثم أصدرت في سنة ١٨٦٦ صحيفة **وادي النيل** لصاحبها أبو السعود أفندي التي توقفت سنة ١٨٨٧ بوفاة صاحبها، وتلتها سنة ١٨٦٩ جريدة **نزهة الأفكار** لصاحبها إبراهيم المويلحي (ــ ١٩٠٦) ومحمد عثمان جلال (ــ ١٨٩٨).

واشترك نخبة من أدباء مصر أمثال عبدالله فكري إسماعيل الفلكي وبدرالحكيم وعلي مبارك ورفاعة الطهطاوي بتحرير مجلة **روضة المدارس**

مصر سنة ١٨٧٠ والتي اعتنت بالتربية والتعليم بمصر وبتطوير وتحديث هذا المجال.

وتتابع صدور الصحف والمجلات في مصر، ففي سنة ١٨٧٧ صدرت صحيفة **الوطن** لصاحبها مخائيل عبدالسيد القبطي ثم توقفت وأعيد ظهورها سنة ١٩٠٠ بسبب بيع مؤسسها امتيازه لصاحبها الجديد جندي إبراهيم.



□ الشيخ محمد عبده.

مساهمة اللبنانيين في صحافة مصر

أمام ضغط الدولة العثمانية على العناصر المثقفة في لبنان، هاجرت هذه الأقلام إلى الأقطار الأخرى، فكان نصيب مصر من هجرة هذه العناصر حصة الأسد، لملائمة جوها السياسي طبيعة الحرية والاستقرار الذي ينشده هؤلاء المثقفون.

وبدأت مساهمتهم في صحافة مصر مع أول فلولهم وفي مدينة الاسكندرية بالذات حيث توجد أكبر جالية لبنانية وأجنبية.

فأصدر سليم الحموي السوري المولد المصري المنشأ بالاسكندرية سنة ١٨٧٣ جريدته **كوكب الشرق** وألحقها بجريدة **الفلاح** سنة ١٩٠٧ وهي جريدة سياسية وأدبية[١٤] ثم تلاه كل من سليم (ــ ١٨٩٢) وبشارة تقلا (ــ ١٩٠١) وأصدرا سنة ١٨٧٥ جريدة **الأهرام** والتي ما زالت باقية حتى يومنا هذا، وكانت تصدر أسبوعياً بالاسكندرية ثم نقلاها إلى القاهرة، ولم تدخل في مجال السياسة إلا أثناء حرب المسألة الشرقية، إذ كانت في بادىء الأمر أدبية[١٥].

ثم صدر في عقب ذلك سنة ١٨٧٧ جريدة أسبوعية سياسية اسمها **الوطن** لصاحبها مخائيل عبدالسيد الذي تحدث فيها عن الحرب الروسية / التركية، وهاجم بعض الوزراء الأوروبيين ودافع عن بعض النواب المصريين في مجلس شورى النواب[١٦].

في نفس السنة ١٨٧٧ أنشأ كل من أديب إسحاق (ــ ١٨٨٥) وسليم النقاش (ــ ١٨٨٤) جريدة سياسية أسبوعية اسمها **مصر**، كانت تنتقد الحكومة واعتمادها على الأجانب بتحريض من جمال‌الدين الأفغاني الذي كان يمدها بكثير من المقالات السياسية، ثم اشتراها تادروس شنودة المنقبادي القبطي وأصدرها مجدداً بنفس الاسم «**مصر**» سنة ١٨٩٥.

إلا أن كثرة الهموم دفعت ببعض الصحفيين لانتهاج منهج الهزل والتنكيت بقصد تنفيس عما بالناس من هموم، فأسرع يعقوب صنوع بإصدار جريدته الهزلية **أبو نظارة زرقاء** سنة ١٨٧٧، حدد فيها الظلم الذي يعانيه الناس في أيام اسماعيل وهاجم فيها بأسلوب ساخر كاريكتوري الوزراء والنواب وموضة التفرنج التي أخذت بالظهور في تلك الآونة،فنفاه‌الخديوي‌إسماعيل من مصر، فسافر إلى باريس واستأنف إصدار جريدته بأسماء أخرى مختلفة.

وعاد كل من أديب إسحاق وسليم نقاش سنة ١٨٧٩ وأصدرا جريدة **المحروسة** بالاسكندرية وكانت تعنى بالاجتماعيات.

وعندما خلت ساحة مصر / الاسكندرية من الصحافة الفكاهية التي أحبها الشعب بجميع فئاته، انبرى عبدالله النديم سنة ١٨٨١ وأصدر صحيفته المشهورة الذي أطلق عليها اسم ينم عن محتوياتها وهو **التنكيت والتبكيت**، بأسلوب رائع وهو مزيج من الفصحى والعامية لتدخل جميع البيوت وليقرأها الناس كافة وعلى أثرها نال شهرة واسعة حتى سمي بصحافي القرن التاسع عشر.

من خلال اسم الجريدة نستنتج انها كانت تعنى بإصلاح إخاء المجتمع بأسلوب ساخر ناقم على الأوضاع ومن ثم تأنيب المجتمع ذاته على

عيوبه وتقليده الأعمى للغرب بكل عيوبه.

ومن مشهور سخريته للمجتمع بأسلوب زجلي قوله:

أهل البنوكا والأطيان
صادروا على الأعيان أعيان
وابن البلد ماشى عريان
معمعاه ولا حق دخان
شرم برم حالي غلبان

وانتقد بعض من قلد الغرب في لباسهم وقيافتهم بقوله:

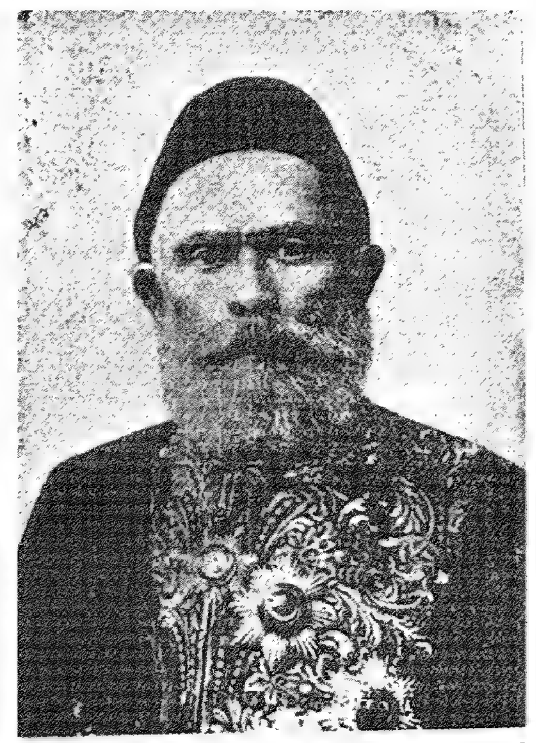
الحق عندك يأخويه
يالي طليت وشك بويه
ولبست سروال أبو أويه
ومشيت تقلدلي النسوان
شرم برم حالي غلبان

ثم انتقل عبدالله النديم إلى القاهرة، فغير اسم جريدته الأولى **التنكيت والتبكيت** باسم **الطائف** وأخرجها في ثوب جديد تركز انتقاد الخديوي توفيق وسياسته والدفاع عن الفلاح المصري وشرح حالته المضنية وما يتعرض له من تعذيب وقسوة في تحصيل الضرائب منه، وما يعانيه وعائلته من قلة الغذاء وشظف العيش مما ساعد على نمو وتوعية الرأي العام وعلى قيام الحركة العرابية وبلورة فكرة (مصر للمصريين) فنفاه الخديوي توفيق إلى يافا في فلسطين، وعندما عفا عنه الخديوي عباس حلمي الثاني عاد النديم إلى مصر سنة ١٨٩٢ وأنشأ مجلة أسبوعية سماها **الأستاذ** وكانت سياسية ذات أهداف إصلاحية وقومية، فلقد عاد ثائراً أكثر من ثورته الأولى، ونفى للمرة الثانية إلى اسطنبول وظل بها حتى وفاته في عام ١٨٩٦[١٧].

تبلورت الأفكار السياسية في سنة ١٨٨٣، فأسس كل من يعقوب صروف (١٨٥٢ – ١٩٢٧) وفارس نمر (١٨٦٠ – ١٩٥٢) مجلة **المقتطف** التي صدرت في الأساس في بيروت ثم نقلت إلى مصر فيما بعد مع انتقالهم إليها.

وبما أن جو مصر لائم طبيعة صروف ونمر الأدبية فقد تعاونا مجدداً وأصدرا سنة ١٨٨٩ جريدة **المقطم** التي نافست الأهرام طويلاً[١٨].

وتحت الضغط الحميدي على الأحرار الوطنيين لجأ هؤلاء إلى الدول الأوروبية وإلى مصر تهرباً



أحمد جودت باشا.

من الاستبداد التركي وخنق حرياتهم، وأنشؤا بالخارج جرائد ومجلات حاربوا من خلالها وعلى صفحاتها الدولة العثمانية وجاسوستها المخربة وتعصبها الأعمى وهم:

١ – خليل غانم – مسيحي من بيروت ونائب في مجلس المبعوثان أنشأ في فرنسا جريدة «**تركيا الفتاة**» (La Jeune Turquie) سنة ١٨٨٩.

٢ – أحمد رضا (١٨٥٩ – ١٩٣٠) الذي ترك منصبه كمدير للتعليم في بروسه وذهب إلى باريس سنة ١٨٨٩ وانضم إلى رفاقه الأحرار وأصدر سنة ١٨٩٥ جريدة «**المشورة**» التي تغيرت إلى اسم **اتحاد وترقي**، وهربت هذه الجريدة إلى داخل الامبراطورية التركية.

٣ – مراد بك – مدرس التاريخ في الكلية المدنية في اسطنبول هرب إلى مصر وأصدر جريدته الميزان التي هربت بدورها إلى اسطنبول.

وكل هذه الجرائد كانت تهاجم الحكم الحميدي وتطالب بإعادة دستور سنة ١٨٧٦.

وما أن أقبلت سنة ١٨٩٢ حتى شهدت الصحافة نهضة ثقافية متميزة في الكم والكيف

فقد قدمت فلول جديدة إلى مصر أمثال المؤرخ والأديب الكبير جرجي زيدان (١٨٦١/١٩٢٢) الذي أصدر مجلة **الهلال**، ولحقه في النزوح الصحفي اللبناني الشهير فرح انطون (١٨٧٤ ــ ١٩٢٢) قادماً من طرابلس ــ لبنان وعمل على تحرير مجلة **الجامعة** الشهيرة في زمانه. ومن ثم نقلها إلى الولايات المتحدة الأميركية سنة ١٩٠٧ بعد أن أصدر منها في مصر سبعة مجلدات[١٩].

ومن أشهر ما صدر من جرائد ومجلات في سنة ١٨١٢ ما يلي:

١ ــ **الهلال ــ جرجي زيدان**.
٢ ــ **الأستاذ ــ عبدالله النديم**.
٣ ــ **الفتى ــ اسكندر شلهوب**.
٤ ــ **الفتاة ــ هند نوفل ــ مدام دبانة ــ وكانت من أوائل الصحف التي اهتمت بشؤون المرأة في تلك الفترة، وقد ساهم والدها نسيم عبدالله نوفل بإصدارها للمجلة.**
٥ ــ **المهندس ــ رياضية**.
٦ ــ **المنظوم ــ شعرية**.
٧ ــ **الشرائع ــ قضائية**.

واستمرت أكثر هذه الصحف والمجلات بالظهور والرواج في المحيط العربي حتى مطلع القرن العشرين حيث أخذت بالظهور مجلات جديدة محلية اهتمت بشؤون الساعة السياسية والأدبية والاجتماعية وأصبحت مهنة الصحافة تستهوي كل صاحب فكرة وقلم في البلاد العربية بفضل مساعدة الحكومة المصرية المادية لأصحاب الصحف ولولا ذلك لما قامت لهم قائمة، وبسبب تساهل غورست الحاكم الانجليزي بمصر مع الأقلام الحاقدة على الدولة العثمانية، فانتعشت الصحافة وحرية الكلمة ولو ان اعتقادي أن بعض تلك الصحف لم تكن حرة بالمعنى الحقيقي لتعاونها مع سفارات عربية كانت مصلحتها تقضي بتدمير الدولة العثمانية.

وأهم ما صدر من صحف ومجلات خلال فترة ١٩٠٠ ــ ١٩١٥ ما يلي[٢٠]:

١ ــ مجلة **الآثار الغراء** ــ لصاحبها المؤرخ عيسى اسكندر معلوف (١٨٦٩ ــ   ).

٢ ــ مجلة **المباحث** ــ لصاحبها جرجي وصموئيل أولاد انطونيوس يني أصدراها سنة ١٩٠٨ في طرابلس ــ لبنان واستمرت بالصدور لما بعد عام ١٩٢٧.

٣ ــ **مجلة الكوثر** ــ لصاحبها بشير رمضان من بيروت.

٤ ــ **مجلة المنار** ــ لصاحبها رشيد بن علي رضا.

٥ ــ **مجلة البلاغ** ــ صاحبها عباس محمود العقاد (١٨٨٩ ــ ١٩٦٣) أصدرها في مصر.

٦ ــ **جريدة الهدية** ــ لصاحبها الشماس غريغوريوس حداد (١٨٥٩ ــ ١٩٢٢) الذي انتخب مطراناً سنة ١٨٩٠ ومن ثم ارتقى إلى سدة البطريركية الأنطاكية سنة ١٩٠٧.

٧ ــ **مجلة الثمرة** ــ لصاحبها أنطونيو منصور أصدرها بالاسكندرية.

٨ ــ **مجلة البيان ومجلة الضياء** ــ لصاحبهما الشيخ إبراهيم ناصيف اليازجي (١٨٥١ ــ ١٩٠٦) الذي حل مكان أبيه في المجال الصحفي والأدبي.

٩ ــ جريدة **حقيقة الأخبار** ــ لمؤسسها أنيس إبراهيم خلاط وهي جريدة سياسية وأدبية أصدرها في مصر.

١٠ ــ جريدة **الجريدة** ــ لصاحبها أحمد لطفي السيد الذي أسسها سنة ١٩٠٧ واستمرت بالصدور لغاية سنة ١٩١٤ حيث قامت الحرب العالمية الأولى.

١١ ــ جريدة **جراب الكردي** ــ لصاحبها انطون بن انسطاس زريق، فقد أصدرها في بادىء الأمر بالولايات المتحدة وكانت تصدر مرتين في الأسبوع ومن ثم أصبحت يومية، ونقلها إلى بيروت وأبدل اسمها إلى جريدة **الارتقاء**، وكانت تعني بالشؤون السياسية وتوقفت عن الصدور سنة ١٩١٥ بسبب إعدام صاحبها وشقيقه توفيق في دمشق بتاريخ ١٢ أيلول ١٩١٥.

١٢ ــ جريدة **الأخبار اليومية**، اشتراها أمين عبداللطيف الرافعي الطرابلسي سنة ١٩٠٧ من الشيخ يوسف الخازن النائب في المجلس النيابي وكانت جريدة يومية أدبية وسياسية.

١٣ ــ جريدة **طرابلس** ــ لصاحبها كامل البحيري أنشئها سنة ١٩٠٧ وكان رئيس تحريرها الشيخ حسين الجسر. بدأت موالية للدولة الحميدية العثمانية وانتهت معادية لها، توفي صاحبها كامل البحيري سنة ١٩١٧ واستأنف صهره الأمير أسعد الأيوبي إصدارها بأسماء أخرى مثل صدى الشعب ثم الديك(*).

١٤ ــ جريدة **الصباح الممتاز** ــ لصاحبها المحامي سليم غنطوس (١٨٨٧/١٩٧١) من بلدة أميون الكورة الواقعة في منطقة لبنان الشمالي أصدرها في طرابلس وظلت تصدر فترة من الزمن.

١٥ ــ جريدة **زحلة الفتاة** ــ لصاحبها إبراهيم الراعي أسسها في ٣ كانون الأول سنة ١٩١٠ وكانت سياسية فكاهية(**).

وهناك عدد من الجرائد التي ظهرت في تلك الفترة لم نتوصل إلى أسماء أصحابها وهي:

١ ــ جريدة **السرور** المصرية.

٢ ــ جريدة **المؤيد** المصرية ــ لصاحبها الشيخ علي يوسف (كتاب رقم ٨٠ من سلسلة عالم المعرفة ــ ص ١٨٢ الكويت ١٩٨٤).

٣ ــ جريدتي **المنار والمحبة** البيروتيتين.

٤ ــ مجلة **السيدات والرجال** بيروتية ــ صاحبتها روز انطون حداد زوجة الكاتب المعروف نقولا حداد وشقيقة الصحفي المعروف فرح انطون أنشأتها قبل عام ١٩٢٢ (سميح الزين ــ تاريخ طرابلس ــ ص ٤٦٩).

الخلاصة

في نهاية المطاف لا يسعنا إلا أن نبين الأسباب التي دفعت بعجلة الصحافة العربية وبوأتها هذه الصدارة حتى باتت تعرف عند البعض بالسلطة الرابعة وعند البعض الأخر بصاحبة الجلالة وهي:

١ ــ احتكاك الشبان العرب بالأوروبيين من خلال البعثات الدراسية التي أرسلت إلى الخارج، واطلاعهم على الأدب الفرنسي والانكليزي والنظم السياسية السائدة هناك.

٢ ــ دور المثقفين الذين قاموا بدور فعال في توعية الشعب وطنياً واجتماعياً وجعلوه يناقش الأوضاع القائمة ويفهم المرامي السياسية



□ عباس محمود العقاد محرر (جريدة البلاغ).

وألعابها ويفاضل بين العرض العثماني والخلافة الاسلامية.

٣ ــ تتابع الأحداث الدولية ما بين سنة ١٨٥٥ ــ ١٩١٤ من حروب وثورات بين الدولة التركية وجيرانها من جهة وبينها وبين رعاياها من جهة أخرى.

٤ ــ اضطهاد الدولة العثمانية للشباب المثقف وكبت حريته واعتقاله مما أدى إلى فراره خارج نطاقها حيث مارس بحرية طرح أرائه ومشاكله ووصف معالجتها

٥ ــ تحسن كبير في الانشاء الصحافي وتطوره من العبارة الركيكة المخلوطة باللكنة التركية إلى الرشاقة والطلاوة العصرية.

٦ ــ هجرة المفكرين والمثقفين اللبنانيين الذين غذوا الصحافة في مصر والبلاد الأخرى بما حملوه معهم من ثقافة متعددة المصادر ولغات متقنة وأقلام جريئة.

٧ ــ المساعدة المادية التي قدمتها الحكومة المصرية للصحف من كل وجهة ثمناً للدفاع عنها وتبرير تصرفاتها ضد كل منتقد، ولولا ذلك لما قامت لهذه الصحافة قائمة.

٨ ـــ تساهل المعتمد البريطاني في مصر «غورست ـــ Gorst» مع الأقلام القادمة إلى مصر من سوريين ولبنانيين والتي تهاجم الدولة العثمانية الاسلامية وتنتقد سياستها العدائية ضد الأوروبيين، فكان هذا التساهل هو الثمن الذي دفع لبعض هؤلاء الصحفيين من قبل السفارات الأجنبية لتحطيم معنويات الدولة العثمانية وإثارة النعرات والثورات ضدها.

٩ ـــ وجود بعض العناصر المخلصة لعروبتها وقوميتها في المجال الصحفي والذين رفضوا إسخاء السفارات وانتقدوا سياسة الدولة العثمانية، وبزخ وترف الأمراء المحليين والخديوات وطالبوا بحقوق الشعب.

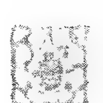
وهناك ملاحظة لا بد من الاشارة إليها، هي أن معظم مؤسسي هذه الجرائد والمجلات كانوا من المسيحيين الذي اضطهدوا من قبل الدولة العثمانية والذين كانوا من الرواد الداعيين للقومية العربية. وللتحرر من الاستعمار بكل أشكاله وصوره وكان لهؤلاء المناضلين شرف الاستشهاد في بيروت ودمشق جنباً إلى جنب مع رفاقهم المسلمين.

●

الهوامش

(١) د. عبداللطيف علي ـــ حضارة الشرق الأدنى القديم ـــ ص ١٥٠ ـــ ١٢٦ ـــ ١٤٤ ـــ ١٤٥.
(٢) د. عبداللطيف علي ـــ تاريخ الشرق الأدنى القديم ـــ ص ١٢٥ و ١٣١ و ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤٥ و ١٤٨.
(٣) المرجع نفسه ـــ ص ١٤٥.
(٤) جرجي زيدان ـــ تاريخ آداب اللغة العربية ـــ ج ٢ ـــ ص ٤٤١.
(٥) المرجع نفسه.
(٦) جرجي زيدان ـــ تاريخ آداب اللغة العربية ـــ ج ٢ ـــ ص ٤١١.
(٧) جرجي زيدان ـــ تاريخ آداب اللغة العربية ـــ ج ٢ ـــ ص ٤٠٥.
(٨) دليل الزائر إلى دير مارانطونيوس قزحيا ـــ ص ١٣ و ١٤.
(٩) جرجي زيدان ـــ تاريخ آداب اللغة العربية ـــ ج ٢ ـــ ص ٤٠٦.
(١٠) د. عمر عبدالعزيز عمر ـــ تاريخ العرب الحديث والمعاصر ـــ ص ١٩٠.
(١١) جرجي زيدان ـــ تاريخ آداب اللغة العربية ـــ ج ٢ ـــ ص ٤١٤.
(١٢) عبدالله نوفل ـــ تراجع علماء طرابلس ـــ ص ٢٢٩.
(١٣) د. عمر عبدالعزيز عمر ـــ تاريخ لبنان الحديث ـــ ص ١٤٩.
(١٤) عبدالله نوفل ـــ تراجم علماء طرابلس ـــ ص ١٩٢.
(١٥) جرجي زيدان ـــ تاريخ آداب اللغة العربية ـــ ج ٢ ـــ ص ٤٢.
(١٦) د. عمر عبدالعزيز عمر ـــ تاريخ العرب الحديث المعاسر ـــ ص ٢٩١.
(١٧) د. عمر عبدالعزيز عمر ـــ تاريخ العرب الحديث المعاصر، ص ٢٩٣.
(١٨) د. عمر عبدالعزيز عمر ـــ تاريخ لبنان الحديث ـــ ص ١٥٣.
(١٩) عبدالله نوفل ـــ تراجم علماء طرابلس ـــ ص ٢٢٨.
(٢٠) عبدالله نوفل ـــ تراجم علماء طرابلس ـــ ص ٢٢ و ٣٨ و ٥٧ و ٤٦ و ٨٦ و ٢٢٨ و ١٣٤ و ١٤١.

(*) المرجع ـــ سميح الزين ـــ تاريخ طرابلس ـــ ص ٤٦٧ و ٤٧٧ و ٤٧٨.
(**) المرجع: مجلة النهار العربي والدولي ـــ عدد ٤٠٦ ـــ ص ٥٨ ـــ بيروت في ١١/٣/١٩٨٥.



«إني لا أعرف الرجل الكريم حقاً إلا بخصلة واحدة، هي أن يتجنب فيما بينه وبين الناس من صلة، ما من شأنه أن يخزيه امام نفسه.. فالرجل الذي لا يخزى امام نفسه خليق الا يخزى امام الناس، والرجل الذي يكره أن يستحي أمام ضميره حين يجنه الليل ويسكن من حوله كل شيء خليق أن يتجنب ما يضطره إلى أن يستحي من الناس».

طه حسين

مخطوطة الدرّة الثمينة في أخبار مكّة والمدينة

تأليف : الشيخ عبد المحمود نور الدائم	عرض وتقديم : يحيى ابراهيم

ذخر الأدب العربي بمؤلفات في الرحلات في كل العصور. وهي تعتبر مصادر لها أهميتها في الكتابة التاريخية، لأنها تتفرد بتسجيل دقائق الأمور عن حياة المجتمعات التي كتبوا عنها، وقد كان نصيب بلادنا من مؤلفات هؤلاء يشكل قدراً كبيراً وخاصة في العصور الوسطى بينما نلحظ أن السودانيين لم يلعبوا دوراً كبيراً في نقل أحوال المجتمعات الاسلامية وغيرها بل اقتصر التأليف عندهم في علوم العربية والحديث والتفسير وعلوم القصة والكلام والعقيدة والتجويد مع الاكثار في التصوف وكذلك كتبوا القليل في التراجم.

ويبدو أن هذا، أعني عدم الكتابة عن الأمم الأخرى مشاهد الآن مع الفارق حيث ظهرت بعض المؤلفات التي تناولت حياة المجتمعات الأخرى بأقلام سودانية، وإن كان ما ألف منها لا يصل من حيث الكم إلى ما يصدر في البلدان العربية مثلاً، ولعل مرجع ذلك قديماً إلى طبيعة المجتمع السوداني وغلبة التصوف عليه والذي أخذ جانباً كبيراً من تفكير العلماء وصعوبة المواصلات وعدم متابعتهم ما يُنشر خارج البلاد. وأمام هذا الجدب فإن العثور على كتاب في الرحلات يعد بمثابة العثور على كنز ثمين في قاع بحر بعد كبير عناء.

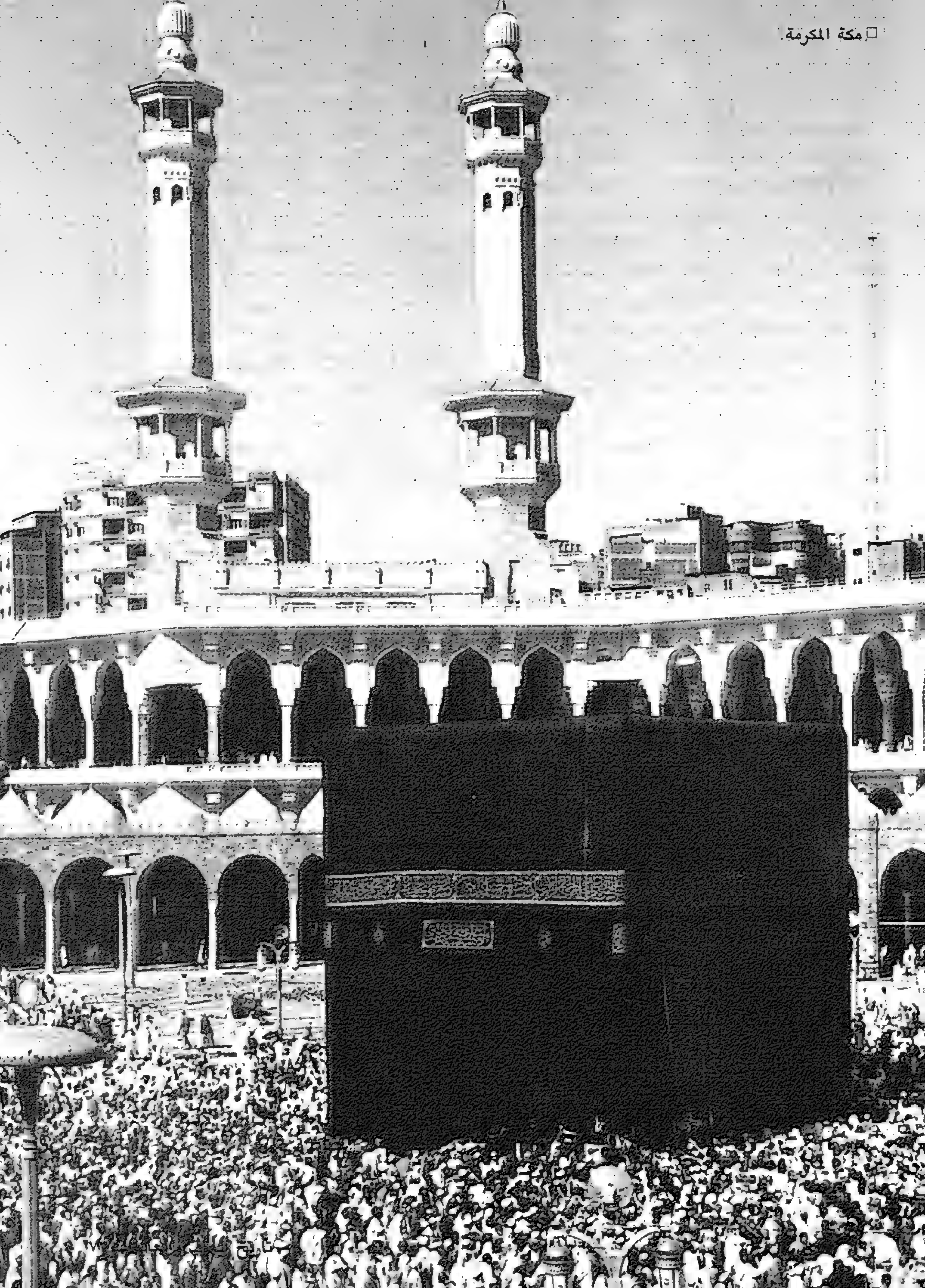
أثر الحجاز



يعتبر الحجاز أحد روافد الفكر السوداني، فمن الحجاز وفد الكثير من العلماء ونشروا التصوف والعلوم العربية، وتتلمذ بعض علماء السودان على علماء الحجاز، بجانب أن مكة مهبط الوحي وأرض الرسول، ومقصد المسلمين من كل صوب وفج. وزيارة الكعبة احدى الأركان الرئيسية في الاسلام.

والطريقة السمانية التي ينتمي إليها المؤلف أدخلها القطب الكبير أحمد الطيب البشير في بلادنا بعد أن درسها في المدينة على يد الشيخ محمد عبدالكريم السماني وبعد أن التقى بعلماء مكة وتتلمذ عليهم، ثم تنقل إلى المدينة ليلتقي بشيخه وأستاذه مؤسس السمانية، ولعل ما سردناه من ارتباط السمانية بمكة والمدينة يفسر لنا اهتمام الشيخ بتأليف كتاب في الرحلات عن هذه البلاد.

والحق أن المسلمين كانوا ولا زالوا يتطلعون شوقاً إلى زيارة قبر الرسول، وفي سبيلها تحملوا مشاق الطريق في وقت لم تكن وسائل المواصلات قد تيسرت بعد. وقد وصف الكثيرون منهم ما شاهدوه في مؤلفاتهم، ولا يستبعد أن يكون



□ مكة المكرمة.

الشيخ قد وقف على بعضها، قبل أن يكتب كتابه هذا، بينما كان بقية العلماء والصالحين من بلادنا الذين زاروا الحجاز عندماعادوا اكتفوا بحفظ انطباعاتهم في ذاكرتهم، والحديث عنها في بعض المناسبات دون أن يتعدى ذلك إلى تدوينه كما فعل الشيخ الذي قدم خدمات جليلة للفكر السوداني بتأليفه هذه الرحلة الثمينة.

وقبل أن نشرع في وصف هذا الكتاب القيم نسأل: هل كتب الشيخ هذا الكتاب بعد عودته دفعة واحدة؟ وهل دون ما شاهده في حينه أم كتبها من ذاكرته بعد عودته؟ وهل جاء الكتاب مجرد ملاحظات دونها كما هو الشأن في بعض كتب الرحلات، أم كان صورة دقيقة، مدعمة بالبحث والتنقيب كما يفعل السائح الذي لا يكتفي بالنقل المجرد.

يبدو لي أن الشيخ كتب هذا بعد عودته، ورجع إلى بعض المؤلفات عن مكة والمدينة وقرأ آراء العلماء في الحج وأحكامه وشروطه لأن الكتاب حوى الكثير من آراء العلماء وأقوالهم وكتبهم، وهو مدعم بالنصوص مما يوحي إلى أنه استعان بهذه المصادر في التأليف ونقل منها واستشهد، ببعضها وهذا لايتير له أثناء رحلته، وإن كان هذا لا يمنع أن يكون قد سجل بعض ملاحظاته سواء عند بدء الرحلة أو وهو في مكة والمدينة.

والشيخ عبدالمحمود نورالدائم مؤلف هذه الرحلة أديب وعالم، ولغوي له دور واضح في تطوير ونشر الطريقة السمانية وترك أثراً واضحاً في الفكر السوداني، فقد ألف حوالي ثمانين كتاب في التراجم والتصوف وغيرها، وله بالدار الكثير من المؤلفات المخطوطة التي نأمل أن ترى النور قريباً.

وصف المخطوطة

تتألف هذه المخطوطة من جزئين في كتاب واحد. يتكون الجزء الأول من ٤٣ صفحة، والجزء الثاني من ٥٣ صفحة من القطع الصغيرة، وقد كتبت بخط دقيق على ورقة عادية بمداد أسود مع تعليقات بالهوامش، وصفحاتها مرتبة ومرقمة ومعقبة، وعدد السطور يتراوح بين ٢٤ ـ ٢٦ سطراً عدا صفحات القصائد التي تصل سطورها إلى ١٩ سطراً في الأغلب، وعدا صفحة المقدمة في الجزء الأول (٢٢ سطراً) وآخرها ٨ سطور.

أسلوب الكتاب

يسير الكتاب من أوله إلى نهايته على وتيرة واحدة دون مراعاة للفواصل والفقرات[١] والفصول والأبواب مما يجعل مهمة القارىء عسيرة بعض الشيء.

ويستعمل المؤلف الألف بعد الواو في كلمة يدعو (يدعوا) ويضع نقطتين على الياء بدل الهمزة على النبرة على عادة الأقدمين، وذلك في مائة (ماية) والسفائن (سفاين) والكبائر (كباير). والياء أحياناً راجعة والهاء في آخر الكلمة ترسم هكذا (~) ولا يستعمل الهاء الدائرة... وقد لاحظت انه يستعمل عند وضع النقط على (التاء والثاء والشين) هذه العلامة (،) ولا يضعها مفرقة ولكن هذه ليست قاعدة ثابتة عنده. كذلك يضع النقطتين على الياء والشدة في (الّي) تمييزاً لها من إلى حرف الجر. والمدة عبارة عن همزة على السطر يليها الف (الآخر) كما انه يضعها حيث لا حاجة إليها مثل: (الدعاء ـ الجزائر ـ ماء)[٢] وذلك جرياً على أسلوب عصره ولا يستعمل الهمزة على الألف، ويستعمل التاء المفتوحة بدل التاء المربوطة في (المسمات)[٣].

● الجزء الأول:

يبدأ المؤلف هذا الجزء بعد الحمدلة والصلولة مبيناً موضوع الكتاب بقوله: (هذا كتاب ألفته في رحلتي للبلاد الشرقية للحج وزيارة خير البرية؛ وهو مشتمل على علوم فقهية وطرايق حكمية وحكايات مرضية وغير ذلك مما فيه تبصرة لأهل الحذق ممن سافر لبلاد الشرق).

ثم ذكر بدء رحلته[٤] من طابت المحمية، ووصف كرم أهل السودان وحسن ترحابهم به في كل البلاد التي مر بها، وأثناء ذلك أورد أسماء لزعماء قبائل ومريدين للسمانية مما يدل على انتشار هذه الطريقة في مناطق كثيرة ـ وهنا أورد ما ذكره الشيخ عن إصرار أحد المشايخ لاستضافتهم مما يعد صورة صادقة عن الكرم السوداني ومكانة رجل الدين حينذاك: «وقبل وصولنا تلقانا على مسافة بعيدة الخليفة احمد بن

حمد خليفة ولد الماجد مع كبره وعجزه، وقد أحب أن يكون نزولنا عنده، واشتد في ذلك حتى مسك الدابة التي أنا عليها بنفسه فاستحييت منه ووافقته على غرضه في أن يكون نزولنا عنده (ص ٣).

وأشاد مراراً إلى لقائه للزبير باشا واستئذان الحاكم العام منجد له[٥] ويذكر أسماء لمناطق مشهورة مر بها وأسماء بعض المشاهير الذين كانوا معه في رحلته الحجازية، ويلي ذلك وصف لمدينة سواكن وحياة أهلها ومائها وهوائها: «وأعلم أن هذه المدينة واسعة جداً، وفيها تجار وأغنياء، والغالب من لغاتهم الرطانة، وطعامهم اللحم والأرز، وماؤهم ملح... ولهم ماء عذب في مكان مخصوص لا يتوصل إليه إلا بالثراء» ويذكر أن بالبلدة ثلاثة جوامع تقام فيها صلاة الجمعة وإن أكثر اعتقاد أهلها في السادة المراغنة وبعضهم في الشيخ محمد المجذوب.

وانتقل بعد ذلك ليذكر معلومات قيمة عن رسوم السفر والاجراءات الجمركية المتبعة إذ ذاك وتوجههم للوابور بعد أن دفعوا الأجرة الخاصة بهم وبالتلاميذ، وكذلك الأمنية والكرنتينة (والبزبورت) «وذلك خاص بكل أحد من الحجاج سواء أكان صغيراً أو كبيراً وجملة ما يؤخذ من الشخص الواحد ستة عشر ريالاً ونصف ريال عشرة منها في الأمنية وإثنا عشر قرشاً ونصف قرش في البزبورت وثلاثة قروش في الكرنتينة».

وأشار إلى الماء العذب المستخرج من المالح وطريقة تكريره ثم وقوف الباخرة في بورسودان (الشيخ برغوت) لسبب خاص وما تبع ذلك من أخذ البعض للكرنتينة.

وبعد أن وصل إلى جدة كان أول ما سأل عنه أهل الطريق وزيارة مقابرهم وقد وقف طويلاً أمام باب زاوية أحد تلامذة القطب السماني محمد عبدالكريم لسمان، وكانت مغلقة ولم يكن هناك خليفة ولا تلميذ، لأن خلفاءه كانوا قد انقرضوا عند زيارة المؤلف. ثم أورد وصفاً رائعاً عن مدينة جده والناس وحركة التجارة والزوايا المشهورة، وذكر أن أهلها يطيلون البناء جداً، وربما قارب بعض بنائهم نحو المائة ذراع وعليها سور ولها ابواب عليها عساكر وشرابهم من ماء الأمطار (ص ١٠) وتلي ذلك صفحات عن الأحرام وآراء العلماء فيه والمسالك المختلفة للوافدين من شتى الجهات.

وبعد الصفحة ونصف الصفحة أشار إلى مسيرهم للبيت الحرام بعد الاحرام والتلبية، وذكر أن الطريق من جدة إلى مكة كثير الماء والطعام، لأن العساكر هناك «لهم مواضع كل موضع قريب من الآخر، وفي كل واحد قهوة وطعام وشراب للذي يشتري، والبعض للأجر هو الثواب فقط لا شراء فيه ولا بيع»[٦].

ومضى في رحلته تغمره السعادة والسرور فما أن اقترب من مكة ضحوة من النهار بعد السير ليلاً حتى أتى حمام مكة ومكث بينهم مدة دون استيحاش... ثم انتقل إلى شرح ما يتعلق بالغسل وأقوال العلماء والروايات المختلفة، وكلها تدل على سعة إطلاعه وما ورد من أحكام وشروح في هذا الباب جدير بأن يقرأ، لأنه شرحها بأسلوب سهل وواضح.

ويلي ذلك حكم تقبيل الحجر الأسود وآراء العلماء، ثم الطواف وأحكامه وشروطه وآراء الأئمة، والصلاة في الكعبة والوقوف بعرفة (ص ١٦ ــ ٢٦).

وقد ذكر أن بناء الكعبة مر بعشر[٧] مراحل إلى أن انتهى بالحجاج بن يوسف (ص ٣٧) وذكر من أقاموا ببنائه وان تبعا ملك اليمن هو أول من كسا الكعبة كاملة بعد أن عزم على هدمها لما تكبر عليه أهلها فأصيب بداء اعيا الأطباء، ولم يحصل له شفاء إلا بعد أن رجع عن عزمه على الهدم (ص ٣٨) وكذلك أورد سبباً لا يخلو من الطرافة عن سبب سواد كسوة الكعبة فقال: كأنه يشير إلى أنه فقد أناساً كانوا حوله فلبس السواد حزناً عليهم.

وبعد أن أورد طرفاً عن العمرة وشروطها وزمانها الخ أشار إلى زيارتهم لقبور بعض آل البيت والصحابة والأولياء منهم السيد محمد عثمان الميرغني وأولاده فالسيد جعفر وغيره والشيخ حبيب ابن إمام والشيخ محمد القاسي وغير هؤلاء مما لا يحصون عدداً.

انتهى هذا الجزء بزيارة مسقط رأس الرسول وهو في القرية وموضعه مشهور بسوق الليل، وهو موضع مثل التنور الصغير وعليه قبة عظيمة

فاخرة جداً وبقربه مسقط رأس سيدنا علي كرم الله وجهه الخ. ثم تحدث عن طواف الوداع، وسبب مشروعيته فقال: «وهذا آخر ما أوردناه من رحلتنا من الجزء الأول في رحلتنا ـ مكة المحمية ويليه الجزء الثاني وهو من مكة إلى المدينة المنورة، ثم إلى البلاد السودانية (ص ٤٢ ـ ٤٣).

● الجزء الثاني:

عرضنا في الجزء الأول بدء الرحلة التي قام بها الشيخ إلى مكة وتتبعنا مراحلها إلى أن وقفنا معه عند طواف الوداع وفي هذا الجزء نتابع بقية رحلته إلى المدينة المنورة ثم عودته إلى البلاد السودانية.

يبدأ هذا الجزء بعد البسملة والحمدلة بمقدمة في فضل زيارة النبي (ص) وفي بيان الآداب التي تطلب من الزائر والمجاور.

سافر الشيخ من مكة بعد الفراغ من الحج قاصداً زيارة النبي (ص) في يوم الخميس سبع وعشرين خلت من ذي الحجة عام أربع وعشرين من بعد الثلثمائة والألف ووصل جدة في عصر الجمعة من اليوم الثاني فأقام فيها ثلاثة أيام ثم ركب البحر مع كثير من الحجاج «وهم ما بين أبيض وأسود والأكثر من هؤلاء من السودانيين» ويذكر أن نزاعاً وانشقاقاً حصل بينهم قام هو بالتوفيق بين الفريقين، وأنشد قصيدة في الرسول ذكر فيها أبياتاً في التآلف والمحبة... (ص ٨).

وما أن فرغ من هؤلاء حتى راعه أن جماعة من أهل اليمن يكثرون من الصلاة على النبي ولا يذكرون أصحابه فعرف انهم من الشيعة الزيدية وبعد أن يذكر أن عالماً منهم جاء إليه وعجز عن الرد على سؤاله يشير إلى آراء أهل السنة في خلافة علي والأحاديث التي يستند عليها الشيعة في أحقيته بالخلافة.

ثم استأنف رحلته، ويذكر أنه عندما وقف السنبوك (في القاموس: السنبوق: زورق صغير) عن المسير لانقطاع الريح وذعر الناس وضجوا أمر تلاميذه بقراءة مولدهم «الفيض السحري والبيان السحري» مما كان سبباً في تهدئة الخواطر وازدياد الريح (ص ١٢).

وبعد وصولهم إلى رابغ وصف القائم بأحكامه وهو من أيادي علي باشا سيد مكة وشريفها ووصف بلداً بالقرب منه مشتمل على سوق وجامع وانه خصب كثير المياه والنخل والزرع والخضر «وهو بلد أمن كثير الثمرات، وفيه مسيل كأنه النيل في العرض تجري به مياه الأمطار عند نزولها في الجبال إلى البحر ولها دوى عند نزولها كدوى الرعد وحوله زرع».

ثم استأنف رحلته بعد إقامة دامت أياماً، ووصف أهوال الطريق وانعدام الأمن، وضرورة صحبة الزاد والأسلحة النارية والرجال واتفاق الكلمة «فمن غفل عن ذلك فهلاكه أقرب من سلامته» (ص ١٣).

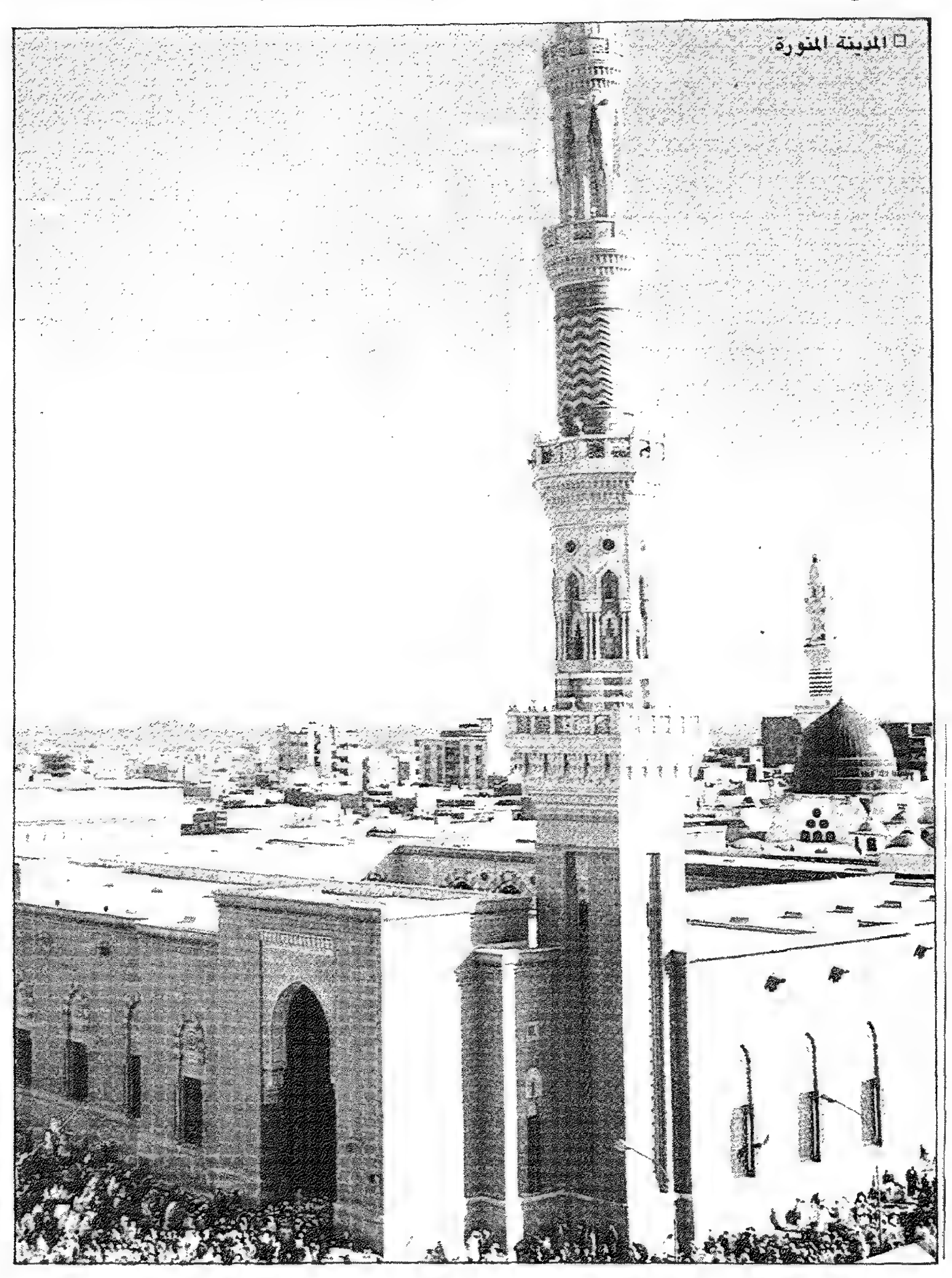
وبعد أن يعدد ما في بعض الكتب عن رابغ وغيره يذكر بعض الرؤى المامية، وزيارة الشيخ محمد حسن السمان له، وما تبع ذلك من استضافته لهم في بيته رغم وجود الكرنتينة وذلك اعتماداً منه على الله تعالى، ويذكر أن الشيخ انزلهم في بيت أبي بكر الصديق وهذا البيت هو المشهور بزاوية السمانية آنئذ. ويعدد من تعاقبوا عليها قبل الشيخ السمان مثل الشيخ عبدالقادر الجيلاني وجد المؤلف الشيخ أحمد الطيب البشير الذي جلس فيها سبع سنوات من بعد أخذه الطريقة الصوفية.

وتحدث عن الرواية السمانية والشيخ حسن السمان وكرمه وصفاته وأولاده وتلامذته الذين كانوا يحيون الليالي بالذكر ومنزلته عند أهل المدينة، وداره التي يسكن فيها «وهي واسعة جداً، وانها مشتملة على قصور عالية وخلاوى للفقراء وغيرهم» (ص ١٨). وقد أقام الشيخ في هذه الزاوية وشاهد حب المريدين وأهل المدينة والذين أتوا إليهم من كل جانب لا سيما القاطنين بالحرم الشريف من علماء وطلبة وعبادة وكذلك مشايخ الطرق الصوفية كالرفاعية والصاوية والسمانية والأحمدية وغيرهم. وهناك أخذ عليهم الطريقة (السمانية) جماعات كثيرة «وهم على علم ونور من ربهم»[8].

وقد عثر الشيخ في خزانة أحد المشائخ على مخطوطة جالية الكرب المنجية في العطب الوسيلة «المنسوبة لشيخ الطريقة محمد عبدالكريم السمان وذكر أنه ليس لهذا الكتاب نظير إلا شرح

العلامة الشيخ محمد الخضري لاشتماله (الكتاب الأول) على المباحث الدقيقة والمعاني الرفيعة الخ».

وأشار إلى أن الكتابين لم يدخلا السودان لوقت تأليفه هذا الكتاب، وان الشيخ عندما رأى ميله أحضر ناسخاً وبذل له من نفسه ما أرضاه


□ المدينة المنورة.

به من المال، ووعده بإرساله إليه حين رأى منه الاستعجال(٩).

ثم يعدد الشيخ أسماء من قاموا بزيارتهم من السودانيين والعلماء والعساكر والحكام وغيرهم من أهل العلم والفضل. وفي حلقات الذكر التي تنشد فيها أسفارهم وأورادهم قرأ نبذاً من مؤلفاته التي نالت إعجاب الناس «وراعهم أن يكون هناك مؤلفات(١٠) بهذه الجودة» وقد قام البعض بنسخ بعضها.

ويذكر عقب ذلك زيارته لقبور بعض الأولياء والصحابة وأولاد الرسول وقد ذكر بعض المعلومات عن الأضرحة والآبار، ثم يودع الرسول (ص) ويستأذنه في السفر إلى بلاده، وهو خجل مضطرب، ويستطرد في وصف رحيله وكرم الاعراب الأدلاء والذين أخذوا السمانية لمكة ومجيء محتسب السوق ومصاحبة أهل المدينة لقافلتهم إلى منتصف النهار وقد عاد الشيخ واتباعه بعد ذلك سالكين طريقاً وصفه بأنه أحسن الطرق إلى رابغ، وما تبع ذلك من حجر صحي وسفرهم إلى موضع الوابور ثم السفر إلى السودان.

ينتقل بعد ذلك ليذكر عن وصولهم لكبوشية ولقاء أحد تلاميذهم لهم، وإقامتهم في بيته، ومن قاموا بإكرامهم من المريدين ومن تعرفوا عليهم هناك ـــ ويذكر أسماء كثير من المريدين والعلماء وشندي وودرملي ثم يقوم بزيارة بعض العلماء منهم جده الشيخ أحمد الطيب البشير «فكان نزولنا عند... الشيخ الريح بن الحجاج أحمد السنهوري، ومنه توجهنا في جمع كثير من فقراء الطريقة إلى ضريح القطب الشيخ أحمد الطيب البشير».

ويلي ذلك ذكر كثير من علماء وأعيان تلك الجهة، ومجيء الزبير باشا لهم وإكرامه لهم في داره. وثناء الشيخ محمد البدوي على بعض دواوين الشيخ، ثم يذكر خروجهم بعد ذلك من أم درمان ونزولهم عند التلاميذ والشيوخ إلى أن وصلوا لطابت المحمية وعندما قربنا منها تلقانا سكانها وأولادنا في جمع كثير على حالة محبة وإجلال كبير من التلاميذ وغيرهم ثم يذكر إكرام جميع سكان طابت لهم «وما تأخر عن ذلك لأحد إلا لعذر».

ثم ذكر في ختام كتابة العبارة التالية: «كان فراغي من جمع هذا الكتاب المسمى بـُالدرة الثمينة في رحلتنا إلى مكة والمدينة» في اليوم الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة عام الخمسة والعشرين من بعد الثلثمائة والألف.

وبعد... ليس هذا إلا مجرد عرض سريع وتعريف لكنز من كنوز الآباء التي آن الأوان لبعثها من جديد، لكي يعرف الناس التراث السوداني، وآمل أن يكون هذا بداية لدراسات أعمق وأشمل لهذه المخطوطة ـــ التي تعد فريداً في أدب الرحلات بقلم عالم وأديب سوداني ولغيرها من مخطوطات تزخر بها دار الوثائق والتي يسعدها أن تقدم كل عون لمن يريد أن يسهم في بعث التراث السوداني.

وإني أشير إلى أن هذه النسخة التي اعتمدنا عليها صورت بدار الوثائق عن نسخة أصلية مودعة عند الشيخ محمد عظيم ابن المؤلف الذي إليه يعود الفضل في اقتناء الدار الكثير من آثار الشيخ عبدالمحمود، فله منا الثناء والتقدير والعرفان.

الهوامش

(١) يستثنى من ذلك السيطرة الأولى من المقدمة في الجزئين.
(٢) كان هذا الأسلوب شائعاً قديماً.
(٣) ترد هكذا في عنوان الكتاب.
(٤) كان ذلك في ٤ ذي القعدة ١٣٢٤هـ (١٩٠٦).
(٥) أظنه يقصد ونجت.
(٦) هكذا وردت العبارة بالأصل.
(٧) ذكر المؤلف أن هناك رأي يذهب إلى أن بناء الكعبة مر بإثني عشر مرحلة فالحادية عشر لصاحب مكة الشريف والثانية عشر للسلطان مراد.
(٨) اورد المؤلف في الأصل أسماء كثيرة لبعض العلماء المشاهير من بلدان مختلفة ولبعض علماء المذاهب وبعض طلاب المؤاخاة الخ مما لا يتسع له المجال هنا.
(٩) المخطوط المذكور يرد ضمن مجموعة الشيخ عبدالمحمود ومعنى هذا أن الشيخ وفى بوعده له وارسله إليه مما يعد نموذجاً للتعاون في مجال الثقافة.
(١٠) المؤلفات المقصودة هي «الروض البهيج» و «العرف الوطير» و «شرب الطاس» وبالدار نسخ منها.

التاريخ على المسرح
أو فن الدراما التاريخية

فالتر هينك



□ فان جوخ، مولان روج، باريس.

في مقال نقدي عن دون كارلوس (مسرحية فريدريش شيللر الشهيرة) يشكو المؤرخ ليوبولدرانكة (Ranke) (١٧٩٥ ــ ١٨٨٦) الامكانات المحدودة لكتابة التاريخ، وذلك بالمقارنة بالامكانات المتاحة للرواية التاريخية والمسرحية التاريخية.

وحيث يوجد وعي تاريخي، توجد أيضاً الحاجة إلى استعادة حوادث الماضي الهامة ومشاهده كشيء يعيش في الحاضر. فالمعرفة التاريخية تتطلع أيضاً إلى التجسيم.

يستجيب إرنست يونجر (Ernst Jünger) في روايته الطوباوية ايموزفيل (Eumeswil) (١٩٧٧) لهذا المطلب. فالراوي في هذه القصة، وهو محاضر في التاريخ، يملك جهازاً يسميه لومينار (Luminar) يستطيع أن يستحضر التاريخ بطريقة كاملة مدهشة. لا يستطيع لومينار ان يختزن جميع المعارف وأن يستدعيها عند الحاجة فحسب مثل جهاز الكومبيوتر، وإنما يستطيع ايضاً أن يستحضر شخوص ووقائع التاريخ بطريقة حسية كاملة كما لو كانت تجري أمامنا في الزمان والمكان، فهذا الجهاز لومينار يعبر التاريخ وفقاً للحاجة. هو «آلة زمنية» تنفي فكرة الزمن أو لا تتقيد «بالتتابع الزمني»، ومن ثم تستطيع ان تقدم إلينا التاريخ كحاضر على المسرح.

إن صاحب هذا الجهاز لا يملك مفاتيح تاريخ الماضي فحسب وإنما يملك أيضاً زمام التاريخ الممكن بحيث يستطيع أن يقدم لنا مشاريع المجتمعات الطوباوية التي أبدعتها الأذهان في الماضي كشيء قائم وحاضر. يستطيع لومينار أن يستحضر أمامنا بصورة ملموسة «جزيرة فلزنبورج ـ Insel Felsenburg» (١٧٣١) أو ذلك المجتمع الديني الطوباوي الذي أبدعه خيال يوهان جو تفريدشنابل (Schnabel) في النصف الأول من القرن الثامن عشر، كما يستطيع أن يقدم لنا «خطة العالم» التي صممها شارلس فوريه (Charles Fourier)، أي نظامه الاشتراكي الطوباوي، كشيء حادث في الحاضر.

فجهاز لومينار يسبق التاريخ ويعوضنا عما أفسده التاريخ. «تكنولوجيا» هذا الجهاز تضم جميع إمكانات الكومبيوتر والمسرح والفيلم وتذهب أبعد من ذلك. فإن صاحب هذا الجهاز لا يشاهد هذه الوقائع على الشاشة فحسب كما لو كان ينظر في «صندوق الدنيا»، وإنما يستطيع أيضاً أن يدخل إلى «صندوق الدنيا» هذا، أي يدخل عالم التاريخ، ويستطيع أن يشترك في المناظر التي يستدعيها من التاريخ. بإمكانه أن يسير في شوارع برلين في العقد الذي وقعت فيه ثورة ١٨٤٨ في المانيا، كما يستطيع أن يجلس في مجلس الثورة الفرنسية (الجمعية الفرنسية) في باريس، يستطيع أن يجلس مكان الرئيس أو مكان المدعي أو محامي الدفاع أو المتهم. بمعنى آخر، إن جهاز لومينار يسمح لصاحبه أن يتقمص أو يتلبس دور الشخصية التاريخية. وهكذا فإن لومينار يجعل من الوهم المسرحي حقيقة، وينقلنا إلى العالم كمسرح.

ولكن تقمص الشخصية التاريخية يظل أيضاً من باب اللعب أو التمثيل، لأن استعادة وقائع التاريخ الماضي لا يغير من هذه الوقائع من مجرى التاريخ وأحكامه، فالخبرة التاريخية تظل أيضاً هنا خبرة جمالية. إن جهاز لومينار هذا جهاز في خدمة مؤرخ تاريخي، وحين نتذكر ذلك نتبين إلى أي مدى يتشابك الموقف العلمي مع الموقف الجمالي. فالمؤرخ في ايموزفيل هو أقرب إلى الفنان منه إلى العالم، لأنه يتعامل مع مادته بحساسية الممثل. وبتعدد الأدوار يصبح من العسير عليه أن يتقمص دوراً واحداً إلى ما لا نهاية أو أن يتلبس هذا الدور دون غيره من الأدوار. فالمؤرخ كما يقول هو «قاضي الأموات»، ولكنه قاض يزن حوادث التاريخ كما يزن الشاعر كلمته بعيداً عن مواضعات الأخلاق والأعراف.

تبرز رواية ايموزفيل بصورة حادة ما نصادفه في أعمال ارنست يونجر، تبرز موقف الحيدة الذي ينظر به إلى الحياة وإلى التاريخ، واستعارته مفاهيم المسرح للتعبير عن الحياة. ولكن أليس لومينار هذا هو رمز تقني لمشاكل المسرحية التاريخية، لمشاكل «التاريخ على المسرح»؟ ألا يرتبط الاهتمام التاريخي بالاهتمام الجمالي في المسرحية التاريخية؟ لكن قضية «ايموزفيل» لا توضح مشكلة المسرحية التاريخية وإنما أزمتها. فمؤرخ إرنست يونجر وجهازه لومينار يذكرنا بما ذهب إليه نيتشه من أن الوجود والعالم محتملان فحسب ولهما ما يبررهما كظواهر جمالية... (نيتشه: «نشأة المأساة عن روح الموسيقى»، ١٨٧٢؛ «العلم المسرور»، الجزء الثاني، ١٨٨٢). والواقع أن الاستمتاع الجمالي بالتاريخ من خلال لومينار هو في أفضل الأحوال تعبير عن مقاصد المسرحية التاريخية في أشكالها الهابطة.

ولكننا نتعجل حين نتحدث عن أزمة المسرحية التاريخية قبل أن نشرح جماليات ونظريات الدراما التاريخية.

يذهب فريدريش زنجلة (Fr. sengle) إلى أن المسرحية التاريخية «بالمعنى الحقيقي» للمصطلح تبدأ في المانيا بدراما جوته «جوتس فون برليشينجن ذو اليد الحديدية» (Götz von Berlichingen) (١٧٧٣).

وهذا صحيح وغير صحيح في نفس الوقت، صحيح حين ننظر إلى مجاري التاريخ كشيء مستقل، منفرد، لا يتكرر. فمسرح العصور الوسطى يرى التاريخ في ضوء فكرة الخلاص المسيحية. ومسرحيات هنز ساكس (Hans Sachs) (١٤٩٤ ـ ١٥٧٦) الدرامية التاريخية الساذجة ترى التاريخ من منظور «مهنة الاسكافي» ومسرح المعلمين المغنيين (Meistersängerbühne).



□ شارلس لوتن في دور جاليلي (كبطل بدون بطلة) وهو يجلس إلى مكتبه. لوس انجلوس ١٩٤٧

أول الدروس عن الدراما التاريخية نجدها لدى شعراء الحقبة الانسانية (Humanismus) . اما مؤلف التراجيديا في عصر الباروك (Barock)فإنه يستعرض جميع المعارف الانسانية المتنوعة ويقدم التاريخ كأمثولة متكررة، وليس كحادث مفرد لا يتكرر، يقدمه كنموذج له وظيفته الدينية أو وظيفته السياسية في خدمة البلاط، وبالمثل فالمسرحية التاريخية في عصر التنوير المبكر هي نموذج خلقي أو امثولة خلقية (Moralisches Exempel).

يستوعب الفكر التاريخي باديء ذي بدء، في مرحلة متقدمة من القرن الثامن عشر فحسب، الذاتية التاريخية المفردة غير المتكررة للحوادث التاريخية والشخوص والوقائع، ويرى التاريخ من منظور فكرة الاستمرارية في إطار «المدينة» و «الوطن». بهذا المعنى نجح جوته لأول مرة في رواية «جوتس» في تقديم المسرحية التاريخية في المانيا، مستنداً في ذلك إلى شكسبير وهردر وموزر. وبهذا استطاع أن يعود بالأدب البرجوازي إلى «دائرة الراي العام السياسي»، بعد أن انحصر هذا الأدب في «دائرة الخاص» والمحدود من خلال مسرحيات الدراما العائلية والتراجيديا البرجوازية كما يوضح يورجن شرودر.

على أن نظرية «زنجلة» مضللة نوعاً ما، إذ توحي بأن المسرحية التاريخية منذ «جوتس»

تقدم التاريخ في حد ذاته، التاريخ كما وقع بدون هدف أو غاية أخرى. ولكن طريق المسرحية التاريخية من «جوتس» حتى مسرحية برتولت برخت «جاليلي» تعلمنا شيئاً آخر، فالمسرحية التاريخية ذات المستوى الرفيع تقدم لنا التاريخ باستمرار كشيء نموذجي حاصل. ويعالج كتاب المسرحية التاريخية المادة التاريخية وفقاً للمعنى أو المغزى الذي يقصدونه، واستقلالية التاريخ يحدها على الدوام هذا المعنى أو المغزى المقصود.

لم تفقد التفرقة بين كتابة التاريخ وإنشاء الأدب (أي عرض وقائع التاريخ الفعلية وجزيئاته من جانب وعرض «الكلي» و «الممكن» من جانب آخر). كما نجدها في كتاب «فن الشعر» لأرسطو، صحتها على الأقل من حيث أن الكاتب المسرحي يخول لنفسه التصرف في المادة التاريخية، أي يحتفظ بحريته إزاء التسلسل التاريخي الصارم للأحداث. وبالمثل فما زالت وجهة نظر أرسطو القائلة بأن الشعر أكثر فلسفية من فن كتابة التاريخ، لها ما يبررها، على الرغم من أننا نعرف الآن أن وجهة نظر المؤرخ تعتبر بمثابة موقف تاريخي مسبق، يؤثر على العرض التاريخي.

تختلف الآراء في تحديد الفارق بين الأديب والمؤرخ. فموقف ليسنج (Lessing) (١٧٢٩ ــ ١٧٨١) المتطرف يعود إلى أنه في نظريته الدرامية لا يعنيه التاريخ بقدر ما يعنيه الموقف السيكولوجي العام والعوامل النفسية، ومن ثم فإن التاريخ في التراجيديا كما يرى ليس أكثر من «وعاء من الأسماء» فالأديب من وجهته هو سيد التاريخ (63 Literaturbrief).

ولكن عبارة ليسنج السابقة يمكن أن تُعكس، وهذا ما يفعله هردر (Herder) (١٧٤٤ ــ ١٨٠٣) في مقال له عن شكسبير عام ١٧٧٣، إذ يرى أن التاريخ هو السيد لا المسود وبالتالي فهو الذي يملك مقود الأديب ويوجهه، ويمتدح هردر شكسبير ويترنم به كما يترنم «بالتاريخ» الذي يقدمه في مسرحياته التاريخية. لقد غلب الحماس هردر فأعماه عن الرؤية بحيث نراه ينظر إلى جميع مسرحيات شكسبير بما في ذلك كوميديات شكسبير الخيالية باعتبارها من باب التاريخ. «فسنجله» على حق حين يقول: إن مفهوم



□ اميل يانِنجز على المسرح يؤدي أدوار الكومبارس التي تطلد

الدراما التاريخية عند هردر ليس أكثر من «أسطورة أدبية».

في مقال شكسبير المذكور يحور هردر «نظرية المحاكاة» الأرسطوطالية (Mimesislehre) فيفهم «محاكاة الطبيعة» بمعنى «محاكاة التاريخ»، ولهذا التصور جاذبية خاصة، فالمؤلف الدرامي كمؤرخ (أي كأديب ومؤرخ في نفس الوقت) تصور ساحر.

بعد هردر بعامين ينسب الأديب لنز (Lenz) (١٧٥١ ــ ١٧٩٢) إلى نفسه كأديب «نصف



بعد ان هجر مهنته الأولى في سبيل «الملاك الأزرق».

شرعية» وصدق مؤرخ التاريخ Selb-strezension des «Neuen Menoza» أما الحركة الكلاسيكية في الأدب الألماني فإنها تعيد الأمر إلى نصابه، إذ تخضع المادة التاريخية لقوانين الأدب ولجماليات الأدب. فالشاعر الألماني شيللر — على الرغم من أنه في نفس الوقت مؤرخ تاريخي وفيلسوف تاريخي — يعطي مقود الأمر إلى كاتب المسرحية التاريخية ولا يتنازل عن شرعية الخيال الأدبي وإذ كان شيللر مؤلف «تاريخ حرب الثلاثين عاماً» قد وصل إلى قمة قدرته الأدبية من خلال ثلاثية المسرحية الشعرية فالنشتاين (Wallenstein) (١٨٠٠) التي تعالج هذه الحقبة، فمن العسف كما يقول تيودور شيبر — أن نقرأ العمل الدرامي الفني الشعري كي نوثق للحقيقة التاريخية أو نبرهنها.

ونصادف من جديد عند جورج بوشنر (Georg Büchner) (١٨١٣ — ١٨٣٧) فكرة التوحد بين المؤلف الدرامي والكاتب التاريخي، بل نصادفها في صورة راديكالية (خطاب بتاريخ ١٨٣٥/٧/٢٨)، ومع ذلك فمهمة الكاتب المسرحي وإنجازه — كما يرى — يتمثلان في أنه لا يقدم لنا وصفاً أو عرضاً للتاريخ وإنما «شخوصاً تاريخية» ثم إنه «يعيد بعث أو خلق التاريخ من جديد».

ويختلف الأمر في المسرح الوثائقي الذي ظهر أولاً في قرننا الحالي، ففي هذا المسرح يستغني الكاتب المسرحي عن الخيال والإبداع الأدبي، ويلتزم التزاماً كاملاً بالمادة التاريخية الموثقة، ويقصر مهمته على انتخاب ما يحتاجه من هذه المادة وعلى التركيز (كما يذهب بيتر فايس Peter Weib في مقالة «ملاحظات عن المسرح الوثائقي»).

ولكن من اليسير حين نقارن مسرحيات بيتر فايس الوثائقية مع مسرحية مارا — صاد (Marat / Sade)، أن ندرك كيف أن بالتاريخ المبدع والمشكل بواسطة خيال الأديب. وندرك الفرق بين المسرحية التاريخية والمسرحية الوثائقية حين نتذكر أن المؤلف المسرحي تنكرد دورست (Tankred Dorst) في مسرحية تولر (Toller) لا ينظر إلى الاقتباسات والوثائق التي يستخدمها في مسرحيته كبراهين أو أدلة على الحقيقة التاريخية («تأليف مسرحية» Arbeit an einem stück ١٩٦٨).

إزاء نتائج البحوث التي يقوم بها علم التاريخ يبدو موقف المسرحي الذي يتشبث بمفهوم التوثيق التاريخي ومفهوم الحقيقة التاريخية ضعيفاً، فهو لا يستطيع أن يباري أو ينافس المؤرخين في هذا المجال. وإلى هذا يستند فريدريش دورينمات (Dürrenmatt) في الاستخفاف الساخر الذي يتعامل به مع المادة التاريخية. فلنتذكر مقولته: إن شكسبير ما كان له

أن يكتب مسرحيته يوليوس قيصر لو كان له أن يعرف أبحاث مومسون (مشاكل المسرح Theaterprobleme).

المسرحية التاريخية وفقاً لدرونمات مستحيلة وبلا جدوى، فهي كجنس أدبي يعيش في عصر غير عصرها. أو هي من مخلفات الماضي. فالتاريخ قد وجد الآن شكله العلمي. ولا يستطيع المسرح أن يكرره بأدواته الناقصة. وراء هذا النفي، وراء هذا الفصل الحاد بين فن التاريخ وبين الدراما التاريخية نجد أخيراً ذلك التصور أنهما في واقع الأمر متلاحمان أو متلازمان، بمعنى أن وظائف كاتب المسرحية التاريخية قد أصبحت الآن من مهام عالم التاريخ (أي أن مهمة المسرحية التاريخية قد آلت إليه).

وبطبيعة الحال فإن علماء الجماليات وكتاب المسرح على حد سواء — بما في ذلك دورينمات — لا ينكرون الاختلاف بين العلم والفن، بين كتابة التاريخ والأدب التاريخي. ونرى «هيجل» في «فلسفة الجمال» لا ينفي عن التاريخ مضمونه الحيوي، ولكنه ينفي عنه حق قلب أو تغيير الواقع المباشر أو الواقع القائم.

على أن القلب أو التغيير هو مهمة رئيسية من مهام فن الأدب حين يختار مادته من مؤلفات التاريخ، ففي هذه الحالة على الأدب أن يستخلص جوهر ومعنى الحادثة والواقعة و «الشخصية الوطنية» و «الشخصية التاريخية المميزة»، وعليه أن يتغاضى عن المصادفات المحيطة أو عن الحواشي الخالية من المعنى التي تحيط بالأحداث، وعليه أن يتغاضى أيضاً عن الظروف والملامح الجانبية وأن يغيرها بحيث يستطيع أن يبرز الجوهر الداخلي لموضوعه بصفاء.

لم تفقد هذه المقولات حتى الآن قيمتها، ويؤيد ذلك أن الكاتب المسرحي هاينر كيبهرت (Heiner Kipphardt) في تعليقه على مسرحيته في قضية روبرت أوبنهايمر يقتبس أجزاء من مقولات هيجل، وينسب إلى كاتب المسرحية الوثائقية مهمة التحرير والتغيير، وبالتالي يحول المادة التاريخية المعاصرة إلى أمثولة ذات مغزى («الحقيقة أهم من الأثر»، ١٩٧٤ Wahrheit wichtiger als Wirkung).

إن العثور على الجوهر الداخلي، أو كما يقول هيجل في «فلسفة الجمال»: إن رفع الستار عن المضمون الجوهري للموقف وإبراز الشخصية الفنية القوية التي يعيش فيها الفكر والعقل أعظم لحظاته — هذا جميعه من معالم الأدب التاريخي كفن يقوم بتصفية المادة التاريخية وتكثيفها وتنقيحها — ومن ثم فهو فن التمييز والتنقيح واستخلاص السمين من الغث.

ما ينجم عن فن التنقيح هذا سماه برتولت برخت «الفكرة»، ومعروف أن برتولت برخت فنان بعيد كل البعد عن مفاهيم الفلسفة المثالية. ينظر برخت إلى مسرحيته التاريخية حياة جاليليو جاليلي (Leben des Galilei) كمثال مضاد لأماثيله المسرحية. ففي الأماثيل يُجسم أفكاراً أما هنا في المسرحية التاريخية فهو يستنطق أفكاراً بعينها من مادة تاريخية.

ومع ذلك فإن الكاتب المسرحي ليس مجرد طبيب يولد الفكرة من التاريخ، فما زلنا ندعي أن على المؤلف أن يشكل المادة التاريخية وفقاً للمعنى الذي يقصده. وتحدد هذا المعنى المقصود خبرات المؤلف الذاتية والعامة في الحاضر القائم. فهو يستحضر الموقف التاريخي من موقعه في الحاضر ومن أجل الحاضر، ويعبر عن ذلك بنوفون فيزه (Benno von Wiese) بشكل أوضح فيقول: المسرحية التاويخية لا تستعيد التاريخ وإنما تجيب على التاريخ.

وتبدو هذه العلاقة المتبادلة بين المعنى المقصود وبين الأفكار التاريخية، وكيف أن المتغيرات التي تطرأ خلال نشأة العمل الأدبي تؤثر على مضمون هذا العمل، من خلال مسرحية برخت «حياة جاليلو جاليلي» وتعدد صياغات هذه المسرحية. فالمخاطر القاتلة التي أبرزتها القنابل الذرية التي ألقيت على هيروشيما وناجازاكي، هذه المخاطر التي تهدد الانسانية من جراء تطور الفيزياء الذرية، وقد أجبرته أن يعيد النظر في تقييمه لعلم الفيزياء الحديث، ودعته أن يراجع موقف بطله مراجعة نقدية.

في الصيغة الأخيرة يبرز برخت من خلال بطله «جاليلو جاليلي» الفشل الاجتماعي للعلم. فالعلم يتحمل هنا مسؤولية ما كان لجاليلو جاليلي التاريخي أن يتصورها. تتحول المسرحية

التاريخية هكذا إلى إشعار أدبي بالخطر المحدق وتقترب بذلك من الأمثولة: فالأفكار التي تستخلص من التاريخ تتفاعل هنا مع أفكار أخرى من الحاضر، وتقوم الشخصية التاريخية بتجسيم الاثنين معاً، ومن ثم تتحول «حياة جاليلو جاليلي» إلى أمثولة تاريخية، ولكن من الخطأ أن ننظر إلى مسرحية برتولت برخت كما لو كانت حالة استثنائية في تاريخ الدراما التاريخية. فالواقع أن حياة «جاليلو جاليلي» تبرز بوضوح ذلك المنهج الذي يتخفى في طيات كل مسرحية تاريخية رفيعة، ألا وهو جنوحها إلى الأمثولة والمجاز.

ما يميز مسرحية جوته «جوتس فون برليشينجن» هو تعبيرها الجديد عن الشخصية الفردية التاريخية، وعن الحقبة التاريخية ككل، ولكن اهتمام جوته في مسرحيته لا ينصب حول هذا الفارس الأخير «بيرليشينجن» ولا يستهدف قضية هذا الفارس قاطع الطريق أو قائد جيوش الفلاحين، وإنما أن يبرز هذه الشخصية التاريخية بوجودها وكيانها وأن يبين التناقض بين هذه الشخصية وبين العصر الذي يعيش الشاعر فيه، على الرغم من أن جوته يغير الصيغة الأولى للمسرحية ويخفف الكثير من فاعلية هذه الشخصية ومن «يوتوبيا التضامن والتآخي الاجتماعي» الذي تعيش فيه. لا بد لجوتس التاريخي من أن يعبر شخصيته لعصر آخر مغاير، لمجتمع يعيش فيه الانسان سياسياً واجتماعياً بعيداً عن مفاهيم الفعل والأخلاق السابقة. فما يسمى بالمسرحية التاريخية «الحقيقة» في ألمانيا يحمل أيضاً ملامح الأمثولة التاريخية.

وبوجه عام ترتكز عناصر الأمثولة على العلاقة بين التاريخ والحاضر، سواء بدت هذه العلاقة واضحة أم ظلت هامشية، ونحن لا نتحدث هنا عن تلك الدراما التي تستخدم التاريخ كرداء أو لباس فحسب أو كوسيلة للتعريض بالحاضر، حيث يكتفي المؤلف المسرحي بسطوح الأشياء، ينعدم العمق، وتخيب «العمليات التاريخية» في تشعبها وتعدد مستوياتها عن الأنظار. أو بتعبير آخر: حيث لا يؤخذ التاريخ مأخذ الجدية، يصعب أن يكتسب التاريخ ملامح الأمثولة أو المجاز.

حديثنا هنا عن المسرحية التاريخية التي تربط بين الماضي والحاضر بحيث يستطيع الحاضر أن يفهم نفسه من خلال التاريخ بصورة أعمق وأن يدرك مثالبه أو يدرك بشكل أو آخر إمكانات المستقبل واحتمالاته. وبإيجاز فلا تخلو مسرحية تاريخية ناجحة من مكونات أو عناصر طوباوية.

إن استدعاء الماضي يكاد يحوي دائماً احتجاجاً على الحاضر. وبالمثل يسعى هذا الاحتجاج إلى التاريخ من أجل الحصول على الشرعية أو من أجل تدعيم ذاته بالتاريخ.

تبدأ المشكلة أولاً حين يُستخدم الماضي كوسيلة تمويهية أو تضليلية. هناك أيضاً حدود للحرية الأدبية في استخدام المادة التاريخية، أي أن هناك حدوداً تضعها المادة التاريخية أمام الحرية الأدبية. ودون شك ليس من اليسير أن نميز بين الحقيقة والزيف في استخدام المادة التاريخية. ولكن المسرحية التاريخية تفقد على أي حال رسالتها حين تتجمد «العملية التاريخية» إلى صراعات شكلية أو إلى ثنائيات مسطحة.

توقعات الكاتب التي تنبع من الحاضر، وبالمثل مفاهيمه الفلسفية التاريخية، هي التي تحول اهتمامه إلى حقب تاريخية وشخصيات تاريخية بعينها. وتبلغ العمليات الحياتية التراجيدية ذروة وضوحها وفقاً لفريدريش هيبل (Hebbel) (١٨١٣ ــ ١٨٦٣) في مراحل التأزم التاريخية الحاسمة، أي في مراحل التحول حيث تنتهي حقبة وتبدأ حقبة أخرى، وهكذا تتحول الدراما التاريخية في نظره إلى مرآة تعكس حركة الانسانية أجمع. كانت تراجيديا فردناند لاسال (Ferdinand Lassalle) (١٨٢٥ ــ ١٨٦٤) التاريخية فرانس فون سيكينجن Franz von Sickingen (١٨٥٩) هي الدافع على نقاش موقف الماركسية من الدراما التاريخية، وذلك فيما سمي «بنقاش سيكينجن» (Sickingen-Debatte) يأخذ ماركس على دراما «لاسال» أنها تقتفي أثر شيللر أكثر مما تنهج نهج شكسبير ويشير هذا الاعتراض على الأقل إلى البديل المطروح أمام كاتب المسرحية التاريخية في القرن التاسع عشر، وأهم موضوعات هذا النقاش

هو العلاقة بين المسرحية التاريخية وبين الثورة. إزاء محاولة «لاسال» أن يصور مأساة الشخصية الثورية التي تتردد في اتخاذ القرار في الوقت المناسب، ويقدم «إنجلز» كبديل الشخصية الثورية المأساوية التي تثور قبل أن يحين زمن الثورة أو قبل أن ينضج الزمان. «فلاسال» كما يرى قد أضاع من يده فرصة «الصدام التراجيدي بين المطلب الثوري التاريخي وبين استحالة تحقيق هذا المطلب» (خطاب بتاريخ ١٨/٥/١٨٥٩). كانت هذه العبارة حافزاً للكثير من مسرحيات «حروب الفلاحين» والمسرحيات التي دارت حول شخصية «توماس مونزر» (Thomas-Münzer).

من العسير علينا هنا أن نعالج في نفس الآن العلاقة المشتركة بين الدراما التاريخية والقصة التاريخية. وقد عبّر «جورج لوكاش» تعبيراً حاسماً عن الفاصل بينهما: إذا كان موضوع الرواية هو الحياة الاجتماعية في ترابطاتها وانعكاساتها المتشعبة، فإن موضوع الدراما هو الصدامات الاجتماعية الكبرى. وإذا كانت الرواية التاريخية ترتبط إلى مدى بعيد بلحظات تاريخية بعينها، فإن الشكل الدرامي يتطلب التركيز والمباشرة.

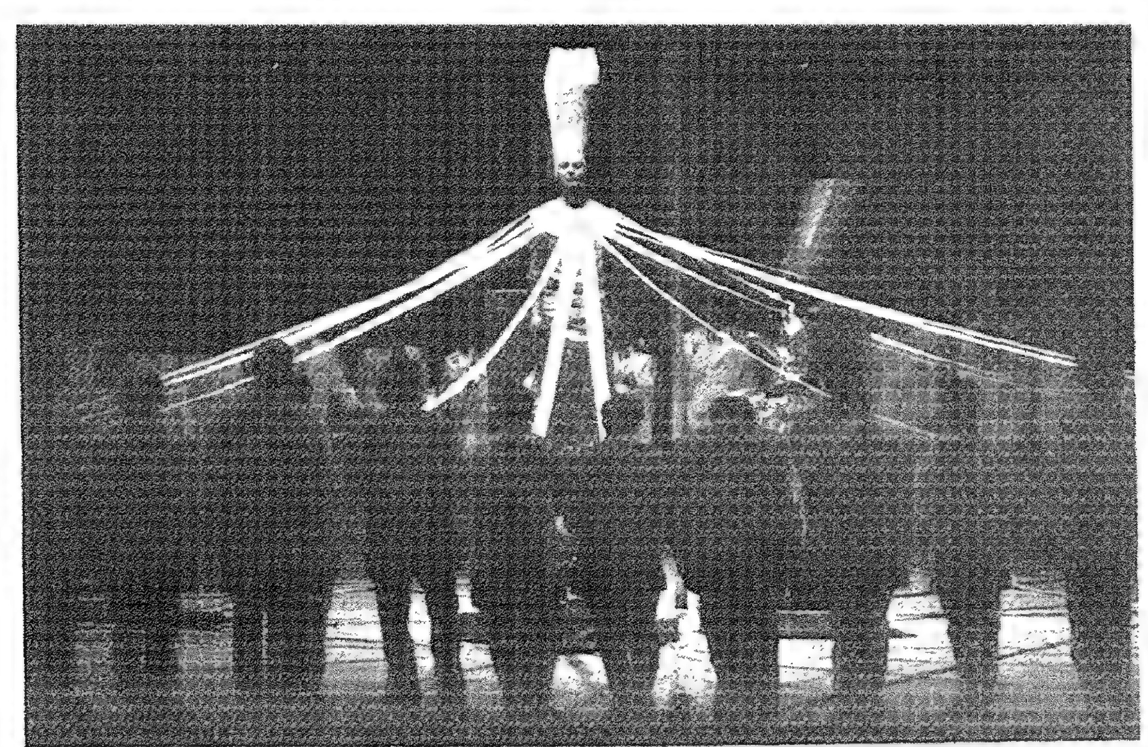
هذه هي قوانين الشكل الدرامي، وشروط العرض المسرحي الزمانية والمكانية: لا بد من ضغط الحوادث التاريخية بما تحويه من ترابطات في هذا الحيز أو المكان المحدود. فقوانين الدراما تأخذ من الحياة التاريخية هيكلها، أما المسرح فيعطيها شكلها الحسي، ويخلع عليها أبعاد المدركات وهو ما لا يستطيعه الراوي في القصة التاريخية، وما يعجز عنه المؤرخ أياً كانت قدرته على التصوير والاقناع.

ليست هناك معايير أو أنظمة درامية تخضع لها المسرحية التاريخية، سواء كانت هذه المعايير والأنظمة أرسطوطالية أو غير أرسطوطالية، كلاسيكية أو طبيعية، درامية أو ملحمية، فمن المستطاع أن تلبس المسرحية التاريخية جميع هذه الأثواب. بمعنى آخر: إن الامكانات الدرامية من التعدد بمكان، ومن خلال هذه الامكانات يمكن أن تقدم المادة التاريخية للمسرح.

على أن قدرة المسرحية التاريخية أن تبرز المادة التاريخية كحاضر ملموس لا تخلو من إشكالية، فهذا الامتياز ذو حدين. في العرض المسرحي تجسم الشخوص التاريخية من خلال ممثلين أحياء، ويتحول المتفرج إلى شاهد عيان يستوعب بحواسه وبعقله ووجدانه الأحداث. لا يستوعب المتفرج هكذا كنه هذه الأحداث من خلال التصور فحسب كما هو الحال مع قارىء القصة التاريخية والأعمال التاريخية وإنما أيضاً من خلال حواسه الادركية. إن حضور المتفرج كشاهد عيان هو أيضاً من باب الوهم، الاختلاف هو أن المتفرج بالمقارنة بقارىء القصة التاريخية يخضع بصورة أعمق لمؤثرات الايحاء الجمالية، ومن ثم فإن تجسيم التاريخ على المسرح لا يشكل قضية ولا ينقص من قدر المسرحية التاريخية. فالظاهر هو من مصاحبات جميع الفنون الجمالية. تنشأ المشكلة أو القضية أولاً عندما يؤدي الايحاء إلى فقدان المسافة بين المتفرج وبين العرض المسرحي، أي عندما تتحول الدعوة إلى التقمص إلى دعوة إلى الانغماس وإلى الاستمتاع المباشر.

هذه هي بالتحديد قضية جهاز «لومينار» في رواية «إرنست يونجر»: «إيموزقيل». فهذا الجهاز يدعوك إلى معايشة التاريخ دون فاصل أو مسافة ما، يوهمك بأنك مع الأحداث أو في قلب الأحداث التاريخية، دون أن تكون لذلك أية تبعات أو آثار على حياتك ووجودك الحقيقي. فالمشاركة الحية تظل على الدوام من باب الفرجة، دون أي التزام. وقد يقول قائل: إن هذا هو الأمر في «مسرح الوهم الكامل»، وليست هذه قضية خاصة بالمسرحية التاريخية وحدها. ولكن التاريخ الممسرح له جاذبية خاصة، وقد يقتصر الأمر على الاهتمام بالمادة التاريخية فحسب أو الرغبة في إرضاء النهم إلى المشاهدة فحسب. وليس من باب الصدفة أن الكثير من المسرحيات التاريخية تميل إلى عرض صور التاريخ المتتابعة أي تقديم «بانوراما» من المشاهد التاريخية فحسب، فتجسيم التاريخ وحده يرضي الكثير من حاجات المشاهدين ويبعدنا بالتالي عن الخبرة التاريخية الحقيقة.

تستسلم الدراما التاريخية خلال القرن التاسع عشر لهذا الاغراء، وهو ما يتضح من



□ اخناتون في تل العمارنة يبني مدينته على هيئة قرص الشمس «احيتاتون».

مراجعة إنتاج كتاب هذا الجنس الأدبي. لقد تتابع طوفان المسرحيات التاريخية التي عرفت باسم «مسرحيات مدرّسي المدارس». تتابعت هذه المسرحيات الوطنية التاريخية في المناسبات والاحتفالات بشكل مقلق. واعتنق مؤلفو هذه المسرحيات كلمة أوجست فلهيلم شليجل (Schlegel) التي ألقاها في محاضراته الأخيرة في فينا («عن الفن الدرامي والأدب» ــ ١٨٠٨): Über dramatische Kunst und Literatur

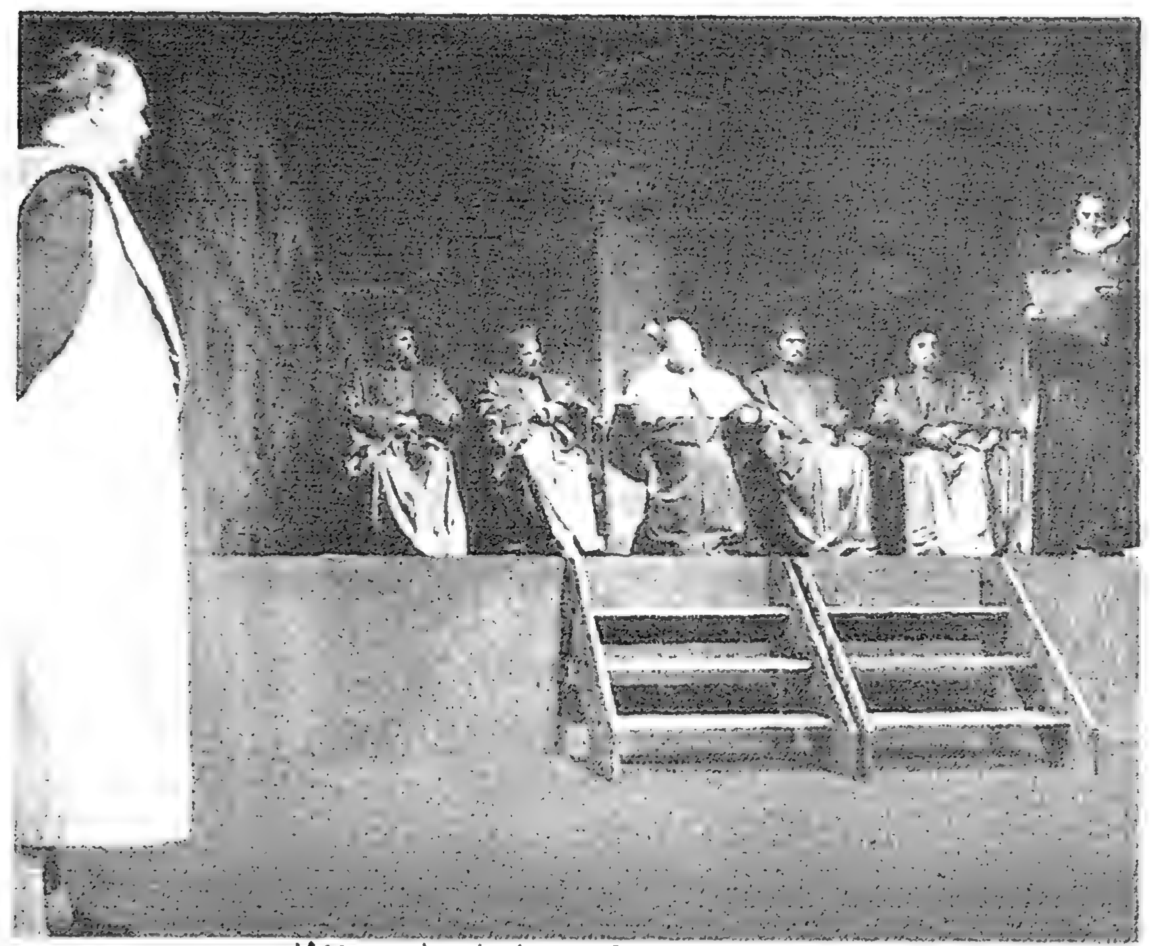
إن وظيفة المسرحية التاريخية أن تلم شمل الألمان حول تاريخهم القومي «وكأنهم يجتمعون حول راية مقدسة».

هكذا نهضت المسرحية التاريخية لكي تؤكد التاريخ القومي حتى اننا نرى أرنست فون فيلدنبروخ في مسرحية «السيد الجديد» (١٨٩١). يستخدم تاريخ «الدوق الأكبر بعد توليه الحكم كي يبرر سياسة القيصر الثاني».

هكذا يتحول التاريخ إلى محجر يقتطع منه كل امرىء ما يريد وفقاً لحاجته وما عليه غير أن يصقل ما اقتطع. وبالمثل نرى خلال عروض المسارح التي أشرف عليها الدوق «جيورج الثاني» (الاحتفالات المسرحية بين عام ١٨٧٤ ــ ١٨٩٠) كيف اقتصر الأمر على محاكاة التاريخ من خلال الديكور والملابس وغير ذلك من التفاصيل والجزيئات.

ترتبط أزمة المسرحية الدرامية بتطور الموجة التاريخية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أثارت هذه الموجة حملة شديدة من النقد كانت لها آثار واضحة. ومن إعلام هذا النقد «فريدريش نيتشه» في مؤلفه فوائد التاريخ للحياة ومضاره (١٨٧٤).

لا ينكر «نيتشه» على زمنه الاعتزاز بالمعرفة التاريخية لكنه يهاجم استخدام التاريخ كنوع من الترف، بحيث نرى كما يقول «المواطن العاطل المرفه يتنزه في حدائق المعرفة» مستمتعاً بالتاريخ. ولا جدل في أن الحياة تحتاج إلى التاريخ، ولكن الاسراف في التاريخ يضر بالأحياء. ينصب نقد «نيتشه» على تعاطي التاريخ في صورته الضحلة المعادة والمكررة وفي قوالبه المستهلكة، ولكن نقد نيتشه قد هز الثقة الثابتة في مغزى التاريخ، وهذا المغزى هو شيء حيوي بالنسبة لنشأة الدراما التاريخية وبالنسبة لفاعليتها وتأثيرها.



هلموت هاينزلمان في دور جاليلي خلال تقديم المسرحية بمسرح ليسنج بهامبورج ١٩٥٥.

لن تنهض المسرحية التاريخية وتتخطى أزمتها من خلال أمجاد التاريخ، وهي أمجاد لا تخلو من إشكالية أو شك. لن تنهض المسرحية التاريخية بتحولها إلى «أسطورة أدبية» لأمة من الأمم.

اعتقدت «الحركة التعبيرية» (Expressionismus) أن بإمكانها أن تحاكم المسرحية التاريخية وأن تقرر مصيرها نهائياً. ولكن الاهتمام بالتاريخ والحاجة إلى التاريخ من أجل التعرف على الذات في الحاضر لا يمكن أن يكبت إلا لأجل محدود. لقد استطاع جرهارد هاوبتمان (G. Hauptmann) (١٨٦٢ — ١٩٤٦) بمسرحية «النساجون» (Die Weber) (١٨٩٢) أن يفتح مجالاً أمام مسرحية اجتماعية تاريخية. ومنذ العشرينات في هذا القرن يتجه المسرح بوضوح إلى التاريخ المعاصر وبالتالي إلى المسرحية المعاصرة.

لم يعد الفرد العظيم والبطل الملهم يحتل مركز الثقل أو محور الحدث المسرحي، بل وكثيراً ما يوضع هذا البطل المنفرد موضع النقد والمحاكاة الساخرة في هذه المسرحيات. ومن جانب آخر نرى الانسان المميز الذي يعبر عن القوى التاريخية المتطورة محوراً جديداً للمسرحية التاريخية.

لم يعد البحث عن هذه الذوات الهامة مقصوراً على ميدان التاريخ السياسي وإنما امتد إلى ميادين العلم. فالعلوم تجدد الآن بشكل لم يعرف من قبل حياة الفرد والمجتمع، كما يتضح من مسرحية برخت «جاليلي» وكيبهارت «أوبنهايمز» يطور برخت، على الرغم من أنه أهم كاتب قد أعاد الدماء إلى الأمثولة الدرامية (Parabel)، يطور نظريته المسرحية — على ما قد يبدو في ذلك من تناقض — وفقاً لقوانين

المسرحية التاريخية، وإن قام في نفس الوقت بقلب نظرية المحاكاة التي تقوم عليها المسرحية التاريخية. فتكنيك التغريب للمؤلف المسرحي وللممثل في المسرح الملحمي يستهدف أن يخلع على مجاري الأحداث طابع الشيء الماضي، أي ينظر إليها كأحداث فردية طارئة وغير قابلة للنقض، وبالتالي كأحداث تاريخية. فعلى الممثل أن «يحتفظ إزاء الوقائع والسلوكيات الحاضرة بالمسافة التي يحتاجها المؤرخ» («التكنيك الجديد لفن التمثيل»).

وحتى المسرحيات المعاصرة يجب أن تمسرح كمسرحيات تاريخية وأن تقدم إلى المشاهد باعتباره «مؤرخاً» باعتباره مؤرخاً متنوراً يتابع «تغير الأشياء».

ما يعنيه برخت بمصطلح «التأريخ» (Historisierung)، يقلب معنى استحضار الماضي في الدراما التاريخية إلى العكس. المؤرخ بمعنى برخت (كمشاهد ومتفرج) لا يقع تحت سحر الايحاء بالحياة المجسمة على المسرح، فهو يرى في «التمثيلية التاريخية» قوالب الحياة التاريخية دون أن يختصر المسافة التي تفصله عنها. «المؤرخ» والدراما التاريخية بمعنى برخت يمثلان هكذا القطب المضاد للمؤرخ بمعنى «ارنست يونجر» وللمسرحية التي يقدمها جهاز «لومينار».

ما يرمي إليه مفهوم المسرح عند برخت هو أن يقدم خبرة جوهرية تاريخية من خلال وسائل التواصل الجمالية. وعلى الرغم من أن شرط هذه الخبرة التاريخية الجوهرية كما يرى هو الفلسفة المادية التاريخية فليس هناك ما يحول دون استخدام تكنيك «التأريخ» الذي طوره. هذه على أية حال وسيلة من الوسائل للتغلب على مأزق الدراما التاريخية، ذلك المأزق الذي يجعل من المشاهد عاطلاً في حديقة المعارف، أو يسطح التاريخ إلى تتابع من «التابلوهات» التاريخية.

لم يعد التاريخ كمسرحية بمعنى المصطلح القديم «العالم كمسرح كبير» أو الحياة كمسرحية أو أدوار تؤدي وفقاً لارادة الله. بتزايد مستمر اصبح واضحاً أن الانسان هو الذي يحرك التاريخ، وفي نفس الوقت فالتاريخ كمسرحية يبرز بوضوح أن الشخوص على مسرح الأحداث تؤدي أدواراً أو تتعامل من خلال أدوار لا تقررها بمفردها.

في عالمنا اليوم كما يقال نرى الفيلم والتليفزيون في طريقهما إلى تولي «التراث الشرعي للمسرحية التاريخية». على أننا حالياً على الأقل نشاهد كيف أن الديكور والأزياء تحتل مكان الصدارة في هذه الأفلام وتجعل من العسير تطوير أسس درامية مقبولة للفيلم التاريخي. ثم إن صناعة الترويح والتسلية تحول التاريخ إلى مجرد سلعة استعراضية أو استهلاكية. وما ينطبق على الفيلم التاريخي ينطبق أيضاً على المسرحية التاريخية. فلن يفصح التاريخ في شكله المصور والمشخص عن مغزاه، طالما أننا لا ننظر إليه كشيء فعال ومؤثر.

تزداد حدة هذه القضية عند استيعاب المسرحيات التاريخية للحقب السابقة وللمؤلفين السابقين، فالدراما التاريخية، إذا استعرنا مقولات هيجل، تتميز بالتصادم بين حقب مختلفة («فلسفة الجمال» ١/٢٦٠)، أي بالتوتر بين العالم التاريخي الذي تصوره الدراما وبين اهتمامات المؤلف الدرامي والوعي النابع من الحقبة التي يعيش فيها. هذا إلى جانب الوعي الذاتي والاهتمام الذاتي للقارىء أو المتفرج في العصر الحاضر. هكذا تلتقي هنا ثلاثة مستويات تاريخية وتتقاطع. ولا سبيل لمخرج المسرحية التاريخية الكلاسيكية أو القديمة حتى يستحضر القضايا التي تعالجها المسرحية وحتى يقرب هذه القضايا إلى عصرنا الحاضر، لا سبيل له غير أن يخترق هذا الغلاف التاريخي المزدوج. لا بد له أن يعيد تشكيل هذه المستويات التاريخية.

الحيز المتاح لهذا التشكيل أو التحويل بلا حدود، أي إخراج جسور لمسرحية كلاسيكية عرضة لمخاطر كثيرة وعرضة للفشل، بل وقد يكون لهذا الفشل صدى الفضيحة. ولعل أسوأ نصيحة على هذا الطريق هي الادعاء والتطاول والمعرفة السطحية. ولا جدل في أن المسرحية التاريخية بوجه خاص، من بين جميع المسرحيات الكلاسيكية بوجه عام، تحتاج إلى مُخرج على قدر كبير من الذكاء واتساع الأفق.



استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الأستاذ «نايف صياغة» عرض لرسالته الماجستير بعنوان: «الحياة الاقتصادية في مدينة دمشق خلال الفترة ما بين ١٨٤٠ ـ ١٨٥٨» ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتائج باحثينا مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد الجميع.

الحياة الاقتصادية في مدينة دمشق

خلال الفترة ما بين ١٨٤٠-١٨٥٨

د. نايف صياغة

- **رسالة ماجستير ـ قسم التاريخ، جامعة دمشق ١٥/١٢/١٩٨٤.**
- **اللجنة مؤلفة من الدكتور عبدالكريم رافق مشرفاً، الدكتور محمد خير فارس عضواً والدكتورة خيرية قاسمية عضواً.**
- **التقدير: جيد جداً.**



على الرغم من أن فترة الدراسة كانت قصيرة نسبياً من حيث الزمن إلا أنها كبيرة بأحداثها مليئة بالمتغيرات ومرحلة انتقال من حالة اقتصادية بسيطة إلى حالة اقتصادية أكثر تعقيداً. لقد كانت بداية الفترة ١٨٤٠ حيث رحل إبراهيم باشا عن دمشق وبدأت الدولة العثمانية إصلاحاتها الخيرية بإصدار خط كلخانة ١٨٣٩ وانتهت بإصدار قانون الأراضي عام ١٨٥٨ وجاءت هذه الاصلاحات نتيجة ضغوط سياسية خارجية، ففي بداية تولي السلطان عبدالمجيد السلطة ١٨٣٩ كادت الامبراطورية أن تسقط بيد إبراهيم باشا لولا تدخل الدول الأوروبية وإجبار جيش إبراهيم باشا على الانسحاب من سورية، وهذا التدخل الأجنبي كان نتيجة رد فعل تجاه طموحات محمد علي باشا التي أقلقت الدول الأوروبية التي رأت من الأفضل أن تكون الامبراطورية العثمانية ضعيفة تحت حكم السلطان من أن



تكون قوية تحت حكم محمد علي الطموح، هذه الأحداث كانت بداية مؤشر جديد لتعاظم قوى ذاتية داخل الامبراطورية، تطمح للاستقلال والتحرر من الحكم العثماني من جهة، وبداية للتدخل الأجنبي في شؤون الامبراطورية من جهة ثانية. وإزاء هذه المتغيرات، حاول السلطان عبدالمجيد أن يجدد دماء الامبراطورية فقام بنشر إصلاحاته التي شملت النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية، في كامل أقاليم الامبراطورية، بعد عهود طويلة فتميزت بالجمود ما عدا عهد السلطانين سليم الثالث ومحمود الثاني. وقابل ذلك محاولات تعطيل من قبل القوى المحافظة.

وفي خضم الأحداث، بدأت تظهر مؤشرات جديدة، كبدايات لتغير أساسي تعبر عن نفسها، رافقها متغيرات اقتصادية هامة، كالصناعات الأجنبية الوافدة، والرأسمال الأجنبي القوي، الذي أخذ يتغلغل في الامبراطورية. وكذلك دخول الأجانب إلى دمشق ومنافسة البضائع الأجنبية للصناعة المحلية، وسيطرتها على الأسواق، وظهور عصر برجوازي تجاري ــ صناعي جديد. وبداية التنظيم الاقتصادي والسياسي للمجتمع، إلى جانب ظهور علاقات زراعية جديدة كتحطيم الأقطاع، والغاء الالتزام، وزوال النظام الزراعي التقليدي.

كما شهدت الفترة مواجهة غربية قوية باقتصادها، ورأسمالها الكبير، وثورتها الصناعية الناشئة، وسلعها المصنعة التي غزت أسواق دمشق، وأضرَّت بالصناعة الدمشقية التقليدية، وقضت عليها أو كادت. وظهرت أيضاً مؤسسات اجتماعية واقتصادية حددتها المصالح الأجنبية، ودعمتها فئات من المجتمع كانت تنحو إلى التحرر من الطبيعة المحافظة للمجتمع التقليدي المحلي. كما أن التغير الكبير في العادات، وتغيير أساليب السلوك القديمة بدأت تأخذ طريقها إلى المجتمع الدمشقي. وبرزت بوادر اجتماعية واقتصادية غير معروفة سابقاً. فتأثرت دمشق كسائر مدن الامبراطورية بالاقتصاد العالمي، وظهر هذا التأثير كذلك في الريف، وخرج الريف عن عزلته المألوفة، وأصبح اقتصاد الريف يدور في اطار التبعية للصناعة الأوروبية، وهذا العامل الاقتصادي الخارجي قلب المفاهيم الاقتصادية

السائدة، وأصبح الاقتصاد بنوعيه «ريفي ــ مديني» خاضعاً للاقتصاد الأجنبي.

أما من الناحية الزراعية، فقد بدأت الدولة العثمانية إصلاحاتها في هذا المجال تظهر لأول مرة بإلغاء الالتزام حيث أعلن عن أول بادرة إصلاح في خط كلخانة الصادر في ١٣ تشرين الثاني ١٨٣٩، وتعززت في النمط الهمايوني ١٨٤٦. وعلى الرغم من عودة ولاية سورية إلى السلطان العثماني بعد خروج إبراهيم باشا منها إلا أن الاصلاحات التي أتت مع الحملة المصرية أفادت الكثير وأصبح من الصعب العودة إلى الوراء. كما أن الدولة العثمانية رأت في الاصلاحات التي رافقت الادارة المصرية أن خللاً ما كان حاصل في الامبراطورية، وحاولت الآن تجاوزه، فجاءت الاصلاحات في هذا المجال وصدرت قوانين جديدة كخط كولخانة، وخط همايون، وبلغت ذروتها في قانون الأراضي العثماني عام ١٨٥٨. كما صادفت حرب القرم أيضاً في هذه الفترة ١٨٥٣ ــ ١٨٥٦ فكان لها صدى واسعاً ومتغيرات اجتماعية واقتصادية كبيرة، كالتأثير الاقتصادي الذي أصاب دمشق مركز الفعالية العظمى في الولاية، والمدينة الأهم في كامل المنطقة، من حيث المركز الديني والاقتصادي، ومنطلق قافلة الحج الشامي، ذي الأهمية الاقتصادية. إضافة إلى أحداث ومتغيرات كثيرة جرت في المركز «استانبول»، فقد تم الغاء الديوان السلطاني، وقيام مجلس وكلاء الدولة، وتودي بالمساواة بين كافة الطوائف الدينية، وجرت محاولات القضاء على الرشوة والفساد، وضبط الأنظمة والضرائب. وتحديد مدة الخدمة العسكرية، كما شهدت الفترة أول عملية تحديث للمدن ونموها بشكل سريع، بالنسبة للفترات السابقة وتغيرت الحياة داخل دمشق تحت تأثير التقنينات المستوردة من أوروبا والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة. فالاحتكاك الواسع بالحضارة الأوروبية الوافدة بدأت تياراً قوياً يدعو للعصرية، وتقليد الحياة الأوروبية ــ وإن بدا هذا التقليد ذا طابع سطحي ــ كالتقليد، في اللباس والمسكن، وطرق المعيشة، واقتناء الحاجيات المستوردة، والاعراض عن كل ما هو محلي. كما تكونت طبقة برجوازية من التجار، وأصحاب المصانع وتجار الاستيراد والتصدير، والوسطاء والسماسرة والمرابين. انضم إليها أبناء الاقطاعيين والأثرياء. وفي الزراعة بدأت «تتكون ملكيات وحيازات متوسطة إلى جوار المدنية بهدف تمويل السكان. كما ظهرت بعض المناطق الزراعية المرتبطة بالتصدير والتجارة والصناعة والخدمات والحرف الناشئة. وأصبح أيضاً الراسمال الأجنبي هو الغالب بين أشكال الرساميل، وغزت البنوك مدن الامبراطورية، ولعب هذا الراسمال دوراً أساسياً في حياة دمشق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وشاع استعمال العملات الذهبية والمسكوكات الأخرى. كما عرفت الفترة لأول مرة اصطلاح «مصاري» الذي ترافق مع دخول إبراهيم باشا إلى دمشق، وكذلك بداية التعامل بالنقد الأوروبي حيث كان التعامل بالقرش الفضي الصاغ الميري. كما ان وثائق المحكمة الشرعية بدمشق والتي اعتمدناها في هذه الدراسة أوضحت الكثير من الحالات الاقتصادية لطبقات المجتمع الدنيا والوسطى والتي تتصل حالاتها الاقتصادية بحيازة الأرض والعمل بها، والفئات الغنية المالكة للدكاكين في الأسواق المختصة والطواحين والخانات. كما أظهرت الوثائق شكل البيوع العديدة في الأسواق مما يدل على وقوع أزمات في حرفة ما أدت إلى ترك الحرفة بسبب البضائع الأجنبية المستوردة. كما أظهرت الدراسة دور المرأة المتميزة في دمشق حيث عملت مع الرجل أو بدونه وما زالت على تلك الحال حتى يومنا هذا. وخاصة الريف.

ولما كان تأريخ دمشق يشكل ركناً أساسياً في الوطن العربي من جهة والأساس في هذه الدراسة من جهة أخرى، فقد تنوعت المصادر والمراجع المتعلقة به لاعطاء صورة عن الحالة الاقتصادية في تلك الفترة. وكانت محاولة تتبع الوسائل التي قامت بها الدولة العثمانية في تلك الفترة وما طرأ على مدينة دمشق من تطورات اقتصادية أنشأتها الظروف التي أدت إلى تكوين حالة اقتصادية جديدة جديرة بالبحث والتقصي ودراسة كافة النواحي من زراعة وصناعة وتجارة فالأطروحة تقع في ٢٥٦ صفحة احتوت على أربعة فصول عدا المقدمة والملحق والفهارس.

١ ــ الفصل الأول يتحدث عن الزراعة وما يرتبط بها من تعريف بنوع ملكية الأرض واستقلالها ومظاهر الفلاحين، وطرق سقاية الأرض ومصطلحات الري المعروفة آنذاك. وأنواع المزروعات وكيفية تصريف الناتج الزراعي.

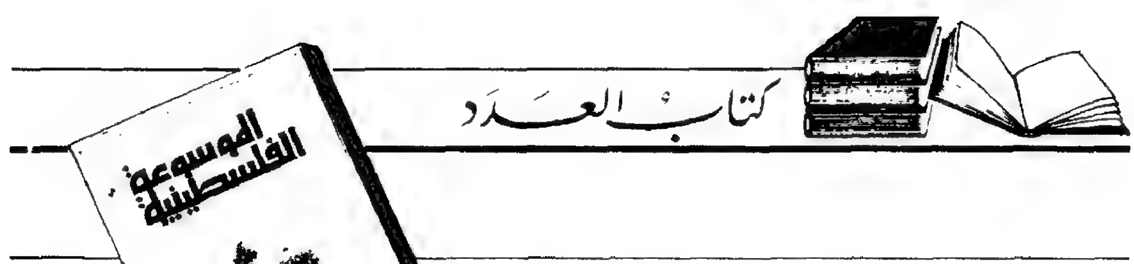
٢ ــ الفصل الثاني في الصناعة وأموال الطوائف الحرفية، وأنماطها. وكيفية ممارسة بعض الحرف والصناعات التقليدية، وفيه أيضاً شرح لآثار التدخل الأجنبي، وما سببه من تدمير الصناعة الدمشقية، وكذلك شرح لتصريف المنتجات الصناعية.

٣ ــ الفصل الثالث في التجارة: يشمل التجارة المحلية، ونقابات التجار، وعاداتهم، والطرق التي يتم بها المتاجرة داخل دمشق، وأعمال التجار الأجانب، والتجارة الخارجية، والنقود المتداولة، وعرض لأسعار الحاجيات وأنواع السلع المستوردة، وقوافل التجارة، والبيوتات التجارية، وقافلة الحج الشامي.

٤ ــ وأتت الخاتمة التي تتحدث عن قانون الأراضي عام ١٨٥٨ وما خلفه من سلبيات انعكست على المجتمع الدمشقي بعد أن اعتبر ثورة في عالم الزراعة أثناء صدوره. وإن ما حدث بالفعل كان بعكس ما ارتجاه واصفوه، حيث انحصرت فائدته بالأغنياء وأصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة فازدادت ملكياتهم اتساعاً وبصورة قانونية، مقابل حرمان الفلاح المعدم من فائدته حيث وضع القانون أصلاً من أجله.

وكان لا بد من وضع ملحق للبحث يتحدث وبصورة موجزة عن الحوادث الدامية التي جرت عام ١٨٦٠ والتي سميت بالحوادث الطائفية ولكن بالحقيقة هي نتيجة ذلك الوضع الاقتصادي الذي آلت إليه مدينة دمشق من جراء المداخلات الأجنبية وتدهور الصناعة المحلية، والغبن الذي لحق بالفلاح والعامل الزراعي والعامل الصناعي والتأثير الاقتصادي المرتبط بحالة السكان والدولة على السواء. ثم جاءت الفهارس وأسماء المصادر والمراجع المعتمدة، وبهذه الأطروحة التاريخية، يضاف إلى مكتبتنا العربية إرث تاريخي جديد، يشرح فترة قصيرة مهملة من حياة مدينة دمشق كانت مليئة بالأحداث والمتغيرات.





الموسوعة الفلسطينية

الموسوعة الفلسطينية (القسم العام)
إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية (دمشق ١٩٨٤)
رئيس مجلس الادارة: أحمد المرعشلي، رئيس التحرير: عبدالهادي هاشم
المستشار: أنيس صايغ
٤ مجلدات من القطع الكبير. الثمن: مئة دولار.

قسم التوثيق والأبحاث



ما أكثر الكتب التي تخرجها المطابع، وما أقل الجاد الرصين من بينها. فطابع السرعة، أو التسرع، يغلب على كثير مما تعرضه واجهات المكتبات العربية في أيامنا هذه، لذلك، تكون الفرحة كبيرة حين نستقبل عملاً متزناً ناضجاً، فنتلقاه بما يستحقه من الاهتمام والعناية.

من بين ثمرات المطابع الناضجة التي طلعت على الدارسين المثقفين مؤخرا، إن لم يكن في مقدمتها نضجاً واتزاناً، الكتاب الشامل الأول عن القضية الفلسطينية، وهو (**الموسوعة الفلسطينية**) التي خرجت إلى عالم النور بعد سنوات من العمل الجاد بذل فيها المشرفون على تحريرها جهوداً كبيرة ليخرجوها الاخراج الفني والعلمي الجدير باسمها وبمحتواها، وبالقضية النبيلة التي تختص بها.

و(**الموسوعة الفلسطينية**) التي تتصدر اليوم رفوف المكتبات العربية هي أول مؤلف شامل، يضم مجمل الدراسات المتعلقة بأرض فلسطين وتاريخها وشعبها وحضارتها وقضيتها، معروضاً بأسلوب علمي موضوعي، وفي بحث متكامل، يجلو إسهام هذا القطر في مسيرة الحضارة والانسانية، ويوضح ما بيت له أعداؤه من مؤامرات، وما ألحقوه بشعبه من ظلم واضطهاد، وما روّجوه من مزاعم باطلة زائفة.

وهي مجلدات أربعة ضخمة أنيقة الطباعة، دقيقة الترتيب تقارب صفحاتها الثلاثة آلاف صفحة، وتناهز موضوعاتها الألفين، وتعتمد الترتيب الألفبائي وفق أحدث الأنماط الموسوعية المعروفة، مع العناية بكل ما يسهل للقارىء أمر مراجعة الموضوع الذي يريد بيسر ودقة، ويحيله إلى موطنه، فلا يطول تقليبه للصفحات وانتقاله بين المجلدات. وحتى يتم النفع وتعمم الفائدة أرفق كل بحث بما يحتاج إليه من خريطة موضحة أو صورة دالة، وألحق بثبت للمراجع العربية والأجنبية يلجأ إليها من رغب في الاستزادة ومعرفة التفاصيل.

ولا يمكن للمرء أن يفي هذا العمل العظيم حقه من التقدير في هذا العرض السريع، ولا بد للمثقف من أن يطلع بنفسه على هذه الموسوعة ليرى مصداق ذلك، وليقدر الجهد المبذول حق قدره. فالموسوعة الفلسطينية حصيلة تعاون بنّاء مثمر بين منظمة التحرير الفلسطينية، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، عكف على إنجازه مئات الباحثين المختصين في مختلف الحقول والميادين على طول امتداد الوطن العربي، وصرفوا من أجله الوقت الطويل، يعملون بصمت وروية ليقدموه في مضمون مركز وفي حلة متميزة، فيقف جنباً إلى جنب مع أرقى الموسوعات العالمية التي تفاخر بها الأمم. وبذلك يثبتون القدرة العربية على العطاء.

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا



كتب وردتنا

□ **المخطوطات العربية الموجودة في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت**
مركز الدراسات العربية ودراسات الشرق الأوسط
الجامعة الأميركية في بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٨٥م ...... إعداد: الدكتور يوسف ق. خوري

□ **الموسوعة الفلسطينية**
٤ مجلدات ــ الطبعة الأولى ١٩٨٤ ــ دمشق .... هيئة الموسوعة الفلسطينية
أحمد المرعشلي
عبدالهادي هاشم
د. أنيس صايغ

□ **دراسات في تاريخ لبنان المعاصر ١٩١٣ ــ ١٩٤٣**
دار النهضة العربية للطباعة والنشر ــ بيروت .... د. حسان حلاق

□ **سلسلة الجزيرة العربية (١)،**
كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة
الناشر: دلمون للنشر ــ نيقوسيا ــ قبرص ١٩٨٥ .... إعداد: أحمد عبيدلي

□ **الوجيز في الادارة العامة (الجزء الأول)**
تكوين الادارة اللبنانية
المركز الاقليمي للدراسات والأبحاث
المكتبة الادارية .... حسن الحلبي

□ **الكتاب السنوي في الادارة العامة ١٩٨٢**
التنمية الادارية والتدريب
المركز الاقليمي للدراسات والأبحاث المكتبة الادارية (١) ......

□ **الصراع الطبقي الألماني في العصر الامبريالي**
دمشق ــ الطبعة الأولى ١٩٨٤ .... عبدالباقي شنان

□ **الضاحية الجنوبية أيام زمان**
دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة،
بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٤ .... محمد كزما

□ **تاريخ وادي التيم والأقاليم المجاورة**
(ثلاثة أجزاء في كتاب واحد)
الطبعة الأولى ــ ينطا ــ ١٩٨٥ .... محمد كزما

□ **أوقاف المسلمين في بيروت**
في العهد العثماني
سجلات المحكمة الشرعية في بيروت

المركز الإسلامي للإعلام والإنماء..................... تقديم ودراسة وتحقيق د. حسّان حلاّق



□ مسجد زاريا في شمال نيجيريا.